الصفوة العراقية

بين النجاح والفشل

د. خالد التميمي

الطبعة الأولى:
لنـدن 2011م - 1432هـ



المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (2148 / 6 / 2010)

956.305

التميمي، خالد عبد محسن

الصفوة العراقية بين النجاح والفشل / خالد التميمي.ـ عمان: دار كنوز المعرفة، 2010

(490) ص.

ر. أ: (2148 / 6 / 2010)

الواصفات/ الجمهورية العراقية // التنمية السياسية// تاريخ العراق// الأحوال السياسية

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ردمك: ISBN: 978-9957-74-124-3

كنوز المعرفة

دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري

تلفون: 4655877 6 962+ - فاكس: 4655875 6 962+

موبايل: 5525494 79 962+ -ص. ب 712577 عمان

الإيميل:dar_konoz@yahoo.com

إيميل: info@darkonoz.com

الموقع الإلكتروني: www.darkonoz.com

تصميم الكتاب: وليد خالد التميمي www.temimi.com

إهداء

الى الشعب العراقي

الذي كان ولايزال وسيبقى عزيزاً وأبيّاً

شكر وامتنان

لابدّ لي من ان اسجّل هنا ما أحسّ به من مشاعر الشكر والامتنان الى زوجتي الأستاذة ناهدة موسى حسن الهلالي لمراجعتها الكتاب وتدقيق نصوص مسوّدته والتقاط العديد من الأخطاء فيه.

كما لابدّ لي من تقديم شكري واعتزازي لولدي الأستاذ وليد التميمي لما أبداه من قدرة وابداع فنّي في تصميمه الرّائع للكتاب لاسيّما ذوقه المتميّز في شكل الغلاف المستنبط من جوهر المضمون والمحتوى

ان الشكر وحده لايعادله ولا يزيد عليه سوى حبي الدائم لهما.

المؤلف

..........مقدمة..........

هذا الكتاب هو ثمرة دراسة وثائقيّة وعلاقات شخصيّة ومراقبة مباشرة، لاكثر من نصف قرن من قبل المؤلف للصّفوة العراقيّة (The Iraqi Elite) وبشكل رئيسي للزّعامات السّياسيّة منها، اقدّمه بهدف تعريف الجيل الجديد لا سيّما شباب اليوم، باهميّة الصّفوة العراقيّة ودورها ايّام قوّتها وضعفها، انجازاتها واخفاقاتها، التزاماتها وتسيّبها، وما تركته تلك من آثار على مسيرة العراق وشعبه منذ قيام العراق الحديث وحتى اليوم.

إنّ أيّ مجتمع بلا صفوة هو كالجسد بلا رأس، وكالسّفينة بلا ربّان وسط بحر هائج متلاطم الامواج. والعراق اليوم قد دخل القرن الواحد والعشرين بلا صفوة مؤثرة؛ يطيعها المجتمع ويقاد بها. هذا الوضع الخطير هو الدافع المباشر لهذا البحث.

لقد اثبتت الاحداث خلال العقود الاخيرة في العراق ان القائد الذي يمسك بزمام السّلطة، وهو اهم عيّنة من الصفوة، له القدرة على اخذهم نحو المصير الذي يراه ويرسمه هو لهم. حتى بات من المقولات الشائعة؛ بانّ العراقيين اذا احبّوا زعيما جعلوه معصوما من كل زلل فيتبّعوه، حتى اذا ما مات او قتل أخذوا يروون عنه الاساطير والخرافا ت بما في ذلك تكذيب خبر موته وانّه مختفي الى حين. او رؤيته مرسوما على بيض الدجاج او تترآى لهم صورته على سطح القمر. واذا كرهوا آخر مزّقوه حيا او ميّتا، وهذه الحالة ربما تعكس بقايا الجذور السومرية والاشورية لابناء الرّافد ين وتأثيرات الانظمة الإستبداديّة في طبائعهم.

ونظرا لاهميّة التحوّلات الجديدة التي تهبّ على العالم اليوم، لا سيّما على العراق، وما يصاحبها من ملابسات وخلط شائك، فقد بات من الواجب على العلماء واصحاب الفكر ان يبحثوا عن مدى استعداد مجتمعنا لهذه التحوّلات، لا سيّما الديمقراطيّة منها، وعن مواطن القوّة والضّعف فيه واسبابها لمواجهتها في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ العراق.

ان هذا الكتاب يتضمن بحثا تاريخيا لاهمّ نماذج الصفوة العراقيّة لا سيّما اولئك الذين لعبوا ادوارا قيادية في تحديد اتجاه مسيرة الشعب العراقي والدولة العراقية الحديثة خلال القرن الماضي، الذي شهد نصفه الاول ونيف انشاء المملكة العراقية، بملوكها الثلاثة (فيصل

الاوّل وغازي الاوّل وفيصل الثاني)، وبقية النصف الاخر تتابع فوضى الانقلابات العسكرية الاربعة والتي انتهت بانقلاب عام 1968. هذا الانقلاب الذي افرز نظاما سياسيّا شموليّا ليس له شبيها وحشيّة وتخلّفا، وهو الاكثر ضررا والأطول عمرا منذ انهيار الملكيّة في العراق. فقد تسلطت على العراق قسرا نماذج من (الصّفوة الجديدة) وانهكته حتىّ جعلته كيانا ضعيفا مترنحا. وشعبا ضائعا قد انهكته الحروب، واذلته مؤسّسات الرّعب وحالة الفقر والعوز، والفساد المتراكم والمرض والخوف في يومه ناهيك عن غده. وفوق كل هذا وذاك اصبح العراق اليوم مستباحا ومكبّلا باستحقاقات دوليّة. فكانت النتيجة الحتميّة ان دخل العراق القرن الواحد والعشرين وهو في وضع أسوء بكثير مما بدا به في القرن السّابق؛ بلدا محتلا ولكن من قبل عدد من الدول في هذه المرة وليس من دولة واحدة فقط. وشعبا تمّزقه زُمر الشرّ عقائديّا وطائفيّا وعرقيّا وتتحكّم بمقدراته مجموعة غالبيّتها العظمى جشعة وفاسدة وتبدو متخبطة عاجزة، وهي بالتأكيد ليست في مستوى المرحلة الرّاهنه، بينما تشير الدلائل الى ظهور عدد قليل جدّا من قيادة الصّفوة تبعث بالامل وان كانت محدودة القدرات عدّة وعددا وبحاجة الى الدعّم والنصرة. ولانّ جميع انواع الصّفوة الجديدة هذه قد خرجت من رحم الصّفوة العراقيّة السّابقة، فلابدّ لنا من بحث سيرتها تاريخيّا لتبيان دورها ومعرفة مدى تأثيرها في مسيرة العراق الحديث منذ انشائه وحتّى اليوم.

د. خالد عبد محسن التميمي

لندن ـ المملكة المتحدّة - 30 حزيران 2009

«انّ كلّ ما يحتاجه الشـيطان من اجل النجاح هو ان لا يعمل الطيّبون شيئا...»

أدموند بروك

الصّفوة العراقيّة

((قال انّ الله اصطفاهُ عليكم وزادهُ بسطة في العلم والجّسم.....)) البقرة/247
((انّ الله اصطفى ادمَ ونوحا والَ ابراهيم وال عمرانَ على العالمين..)) ال عمران/33
((اللهُ يصطفي من الملائكة رُسُلا ومِنَ الناسِ...)) الحج/75

الصّفوة او النُّخبة (بضمّ النون) (Elite) كما هو معروف؛ هم راس المجتمع وأخياره وقادته وسادته في السلم والحرب. وتعرّفهم معاجم العرب بانهم خيارهم وخلصاؤهم، وهم السّراة وعلية القوم واهل الحلّ والعقد.كما اطلقوا عليهم اسم النّخبة وهو المختار الجيّد من كل شيء. والقران المجيد قد اطلق عليهم ايضا اسم (الملأ)؛.. "..يا ايّها الملا افتوني في رؤياي.." سورة يوسف/اية/43 ..."."..قال الملا من قوم فرعون انّ هذا لساحر عليم../الاعراف-اية/109/..". «..قال الملا الذين استكبروا من قومه/الاعراف/88/75.."، وهم في الغالب من الرجال البارزين في اي مجتمع، صغيرا كان ام كبيرا، لا سيّما اذا كانوا من ذوي الجاه والثروة والاولاد والاتباع، وممّن عرفوا بالحكمة والمواهب المتميّزة في السلم والحرب.

وقد تبرز في مجتمعاتنا احيانا القلة من صفوة النساء ممّن عرفن برجاحة العقل وحصافة الرأي الا انهّن يبقين مهمّشات ولا يلقين المكان المناسب او الفرص المساوية للرّجال في مواقع صّفوة المجتمع عدا ظاهر الاحترام والذكر الحسن والتفاضل بينهنّ لا سيّما عند اختيار الزوجة الصّالحة لتكون امّا لانجاب الاولاد وربّة البيت القديرة اللائقة برجال "الصّفوة".

وفي تاريخنا الحديث، تمكنت بعض النساء العراقيّات بشكل عام خلال النصف الاوّل من القرن العشرين ان ترقى بمكانتها الى مستوى نافست فيه الرّجل وتفوّقت عليه في بعض الميادين داخل العراق وخارجه. وبقيت مكانتها في صعود حتى توقفت في اوائل سنوات الستينيّات لتبدا بعد ذلك بالتراجع ثمّ بالتدهور في ظلّ الانظمة الاستبداديّة المتعاقبة التي اشاعت وسوّدت القيم القبليّة و البدويّة واصرّت على ابقاء الصّفوة العراقيّة (صفوة ذكوريّة فقط) كما كانت في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله. انّ هذه الصّفة العامّة للصّفوة كادت تنطبق على جميع سكان مناطق العراق الحديث وهو يشرف على نهاية القرن التاسع عشر ويطلّ على القرن العشرين بولاياته الثلاث بغداد والموصل والبصرة. فهي صفوة (عراقيّة) وان عاشت بخصوصيّاتها جغرافيّا شبه منفصلة، اذ كانت ذات احساس واحد (عراقي) كما اثبتتها سلوكيّاتها في غالبيّة الاحداث التي واكبت انشاء العراق الحديث.

لقد لعبت الصفوة دورا اساسيا في قيادة المجتمع العراقي وتوجيهه سياسيا واقتصاديا

واجتماعيا طيلة القرون الطويلة الماضية وحتى وقوع زلزال الرابع عشر من تمّوز/يوليو عام 1958 حينما حدث انتقال كبير وواضح في طبائع وولاءات غالبية افراد الصّفوة ممّا اثرّ في المجتمع العراقي عموما لا سيّما نحو الدولة والفرد الحاكم حتى وان كان وحشا متسلّطا يوجّههم (بما يتبنى هو من افكار) بدلا من الولاءات التاريخيّة للدّين وللوطن ولمكوّنات المجتمع الاوسع (الامّة) الذي تنتمي اليه؛ ذلك الانتقال الذي لم يأت من فراغ او فجأة بل جاء عبر مراحل وتراجع تصحبها عمليّات، واجراءات قاسية بعضها غير مألوف، استغرقت عقودا متتابعة من الزمن. وقد ساعدت عوامل وقوى داخلية وخارجية متعددة على حدوث ذلك الانتقال.

لقد تغيّر غالبيّة المجتمع العراقي وتراجع تدريجيّا خلال النصف الاخير من القرن الماضي، ولا يزال في تراجعه وتغيّره تغييرا سلبيّا واضحا عن الركب الحضاري في غالبية نواحي الحياة. لقد أصبحت الولاءات الجديدة، ظاهرة واضحة المعالم في اثارها النفسية والسلوكية وهي بحاجة الى موقف جاد ومسؤول من قبل المثقفين وذوي الاختصاص، لا سيّما علماء النفس والاجتماع والمؤرخين لدراستها وتبيان اثارها والبحث عن سبل علاجها.

ان الحديث عن الصفوة (كنخبة من الافراد) لا يزاحم او يلغي دور عامّة الجمهور، او دور الفرد (ذو الجاذبيّة القياديّة - Charisma) الذي ياسر القلوب بقدراته وبسحر شخصيّته وبتميّز ادارته وسلوكه معها في زمن السلم والحرب؛ لانه في الغالب يظهر متميّزا من بين افراد امّته، مثلما هو ابن تلك الصفوة المختارة، التي امّرته بعد ان اجتمعت فيه خصال كريمه اختزلتها العرب في الماضي بكلمة واحدة وهي (السؤدد) والتي هي ارث ابائه واجداده.هذه الكلمة النفيسة (السؤدد) التي نسيتها الاجيال الجديدة، ولم يبق لها اليوم من وجود سوى في قواميس اللغة العربيّة.

وفي ضمن هذا السياق لابدّ من الاشارة الى حقيقة تاريخيّة؛ هي اننّا لا نجد نبيّا او ملكا او سلطانا او قائدا تاريخيا متميّزا بافعاله، ساميا في سلوكه، نبيلا في تعامله مع الناس متواضعا، يعطي لهم اكثر ممّا يأخذ منهم. الا وينحدر من صفوة طاهرة المنبت توارثت الخصال الحميدة وتحرص كلّ الحرص على افراد مجتمعها، تحترمهم وتريد الخير لهم ولها مثلما تريد لنفسها سلامة سمعتها عبر الزمن. وقد يحدث عبر التاريخ في كل المجتمعات ان يتسلل في غفلة من الزمن عدد من المغمورين المغامرين والشقاة الى المواقع الاولى في الدولة والمجتمع منتحلين لانفسهم ما شاؤا من الالقاب (خليفة او ملكا او سلطانا او شاها او رئيسا)، الا انه يبقى بسبب سلوكه وطباعه التي جبل عليها وضيعا محتقرا في نظر عموم مجتمعه على الرغم من كلّ مظاهر الهيبة الخدّاعة التي يضفيها هو على نفسه، وما يبذله من سخاء مادي ومعنوي على مؤيّديه. ولهذا السبب ولشعوره بالنقص نراه كثيرا ما يلجا الى تصرفات تبعث على العجب والسّخريّة، لانّ معظمها شاذه وغريبة جدّا عن المنطق والمألوف سواء في ما كله وملبسه او في مسكنه، بل نجده لا يتردد حتّى عن الادّعاء بالنسب للانبياء

وكبار الاولياء والصالحين بل ويمنح لنفسه ولاتباعه (افتراءا) درجات علميّة وفنّية ويسخرّ المرتزقة من الاكاديميّن والمؤلفين ليؤلّفوا له كتبا في الادب والفكر واشعارا ويمنحونه ارقى الدرجات العلميّة في اعلى الاختصاصات. ولشعوره بالنقص وبحقيقة مشاعر احتقار غالبية الناس له؛ نراه يلجا الى اقسى انواع التعسف والظلم والتعذيب والقتل، وبقساوة وساديّة لا مبرر لها وبشكل مبالغ فيه. ومع انّه قد يبقى قابضا على السلطة فارضا طاعته بالقوّة والارهاب لمرحلة،الا انه يبقى فاقدا للهيبة والاحترام، محتقرا في نفوس ابناء مجتمعه حتى يتم التخلص منه ومن شروره وفق سنن الحياة وقوانين التاريخ وعدالة السّماء.

ان الحديث عن عموم الصفوة العراقية في العصر الحديث، يشمل ايضا الصفوة الدينيّة والمتعلمّة والمثقفة، التي ظلت جميعها قلقة بولاءاتها وانتمائها، سياسيّا وثقافيّا واجتماعيا، بسبب تناقض قيمها التقليدية الموروثة مع المبادئ والقيم الجديدة الوافدة، لا سيّما بشعاراتها الحديثة القادمة مع رياح التغيير التي هبت على العراق والوطن العربي مع مطلع القرن العشرين كشعارات التحضر والحداثة ومفاهيم الحرية والمساواة والاشتراكية ومفاهيم المجتمع المدني والديمقراطيّة وحقوق المرأة وموقع الفرد ودوره داخل المجتمع ومتطلبات التنظيمات السياسية الجديدة عليه.

لقد انعكس هذا القلق في الولاءات بشكل واضح في المواقف والسلوكيات لمكونات المجتمع في السياسة العراقية بشكل عام وبصورة خاصة داخل مكوّنات المجتمع وبشكل مكشوف ضمن التنظيمات الحزبية؛ لاسيما من قبل القيادات السياسية التي قفزت في سلوكيّاتها على المراحل التاريخيّة والمسيرة الطبيعيّة في تطوّر ايّ مجتمع. وقد افرز كلّ هذا تعقيدات نستطيع اضافتها الى عوامل اخرى ساعدت كثيرا على بقاء حالة التخلف والجمود وعدم تطوّر مكوّنات المجتمع العراقي بشكل طبيعي،لا سيّما المجموعات السياسية العراقية (وربّما في الدول العربيّة ايضا)، مثلما حدث خلال القرن الماضي حينما فشلت الصّفوة من السيّاسيّين العراقيّين الذين تولوا السّلطة في وضع شعارات الديمقراطيّة والحريّة والمساواة وحقوق الانسان والنزاهة التي طالما نادوا بها موضع التطبيق ولو في ابسط صورها.

سالت مرّة الاستاذ هاني الفكيكي ـ احد اوائل قادة حزب البعث العراقي السابقين ـ عن سبب الحسّاسيّة او عدم الانسجام بين قائدين معروفين من اصدقائه وهما من قياديّ حزبهم داخل مجلس الوزراء العراقي بعد انقلاب 14 رمضان/8 شباط/1963 مع العلم ان كليهما كانا من بلد واحد ومن قبيلة واحدة وفي حزب واحد فقال لي؛ لاني مرة رأيت بامّ عينيّ والد الاول يربط رباط حذاء والد الثاني تزلفا وتملّقا له باعتباره احد اتباعه، حدث ذلك في مجلسه الريفي امامنا وجميعنا كنا في مقتبل العمر (شباب ورفاق) فكيف تتوقع انسجاما يحصل بينهما حينما تفوق ابن الاول (التابع) في مقامه الحزبي والوظيفي فيما بعد (حينما صار وزيرا) وارتقى بموقعه الرسمي على ابن الثاني (المتبوع)؟ بالتأكيد كلاهما لا يستطيع ان ينسى خلفية ومنزلة صاحبه وانتمائه الاجتماعي. فبالتأكيد انّ الواقع الاجتماعي اقوى من

الواقع السّياسي والحزبي.

لقد واجهت امم وشعوب عديدة هذا النمط من حالة التحوّل، وقلق الولاءات، الا انها واجهتها بحلول قانونية ودستورية حضاريّة عادلة؛ حيث يكون الدستور سيّد المجتمع والقانون هو الحاكم الأوحد الذي يخضع له الجميع. ان الخطا الفادح الذي ارتكبته الصفوة السياسية العراقية، منذ بداية تأسيس الدولة العراقية الحديثة وحتى انهيارها وفقدان استقلالها بالكامل بالاحتلال المهين عام 2003، ولا تزال ترتكبه،هو عدم اعطاء المؤسسات (الدستورية والشوروية الديمقراطيّة) وقتا كافيا للتطوّر والنموّ الطبيعي التدريجي في التنظيم والعلاقات داخل الدولة وبين افراد المجتمع.ولذا فقد بقيت اساليب النفاق والتدليس والتزلف للقيادة (الفرد او المجموعة) هي الاساليب الاقوى والاكثر شيوعا في العلاقات الاجتماعيّة لا سيّما الحزبيّة والوظيفيّة لانها الاسرع والاسهل للحصول على المكاسب. هذه الاساليب هي التي هيأت الاجواء الملائمة فيما بعد لكي تتحوّل الى منهج العنف والانتقام المشرّع بصبغة قانونيّة رسميّة (وبدعة فارغة المعنى تحمل اسم ضرورات الشرعيّة الثوريّة) في هدم مؤسسات كبرى محترمة وبعضها كان مقدسا وموضع ثقة الدولة والمجتمع كالدستور ومؤسسّة القضاء الشرعي والوضعي في العهد الملكي، ولتصبح عمليّة هدمها في (العهود الجمهوريّة)، قاعدة متبعّة في التصفيات التنظيمية والنفسية والجسدية لخيرة الشباب واشجع الرجال اللامعين العاملين في الدولة والمجتمع عبر تاريخ العراق الحديث.

لقد سالت العديد من قيادات الاحزاب السياسية العراقية، ضمن احاديثنا عن الحريّات العامة والمؤسسّات السّياسيّة، عن اخر انتخابات تنظيمية حقيقيّة اجريت داخل احزابهم او عن اخر مؤتمر عام اجروه في تنظيماتهم؛ فجاءت الاجوبة مخيّبة ومحزنة؛ اما بتعليق ساخر او بتبرير اجوف لا يقبله ايّ عاقل. وعلى الرغم من ان الكثير من الباحثين في السياسة ومن السياسيين العراقيين يبرّرون غياب الديمقراطية داخل التنظيمات بسبب اساليب القهر والتسلط للدولة التي تحتم (النضال) السرّي، الا ان وقائع التاريخ والاحداث المتتابعة (التي عاصرنا غالبيّتها) اثبتت مسؤولية الجميع في التفريط بتلك المؤسسات الدستورية على كافة المستويات سواء داخل التنظيم أم خارجه، انها مسؤولية مجتمعنا بكامله. ان هذا الامر لا يحتاج الى دليل لانه واقع معاش. لقد ذكر ذلك الكثير من قادة الاحزاب وكبار المسؤولين السابقين في احاديثهم او بما دوّنوه في مذكراتهم وهم في اواخر اعمارهم اعترافات تنمّ عن الم و ندم حقيقي بشكل مباشر او غير مباشرة عمّا سبّبوه من حجم الاضرار والتخريب المدمّر على الدّولة والمجتمع في العراق في حاضره وعلى مستقبله، وكذلك في بقيّة الدول العربيّة.

يروى عن محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة (1952) واوّل رئيس للجمهوريّة المصريّة قوله "..وعرفت كم كانت جريمة الثورة بشعة في حق الانسان المصري..وعرفت ايّ مستنقع القينا الشعب المصري به.. فقد حريّته.. فقد كرامته.. فقد ارضه.. تضاعفت متاعبه...". (عبد المجيد القيسي/التاريخ يكتب غدا/ط1 - دار الحكمة/ص633).

انّ من اخطر ما تعرّض له وخسره العراق خلال العقود الخمسة الاخيرة هو ليس تراجع دور الصفوة في التأثير على قيادة الدولة والمجتمع فقط، بل انّ ما حصل هو الأخطر، وهو عمليّة تدميريّة لوجود الصّفوة العراقيّة بالكامل من قبل الانظمة الاستبداديّة المتعاقبة؛ تدميرها اما نفسيّا (بالاذلال المتعمّد نفسيّا وبالافقار اقتصاديّا) او بتصفية وجودها جسديّا بشتى الوسائل؛

(لقد شهد العراق منذ اوّل يوم من سقوط النظام الملكي حملة واسعة من الاضطهاد والاذلال والمحاكمات الغير عادلة تشرّد على اثرها خيرة زعامات الصّفوة العراقيّة خارج وطنهم. كما شهد ايضا خلال سنوات 1968 - 1979 موجة حوادث واسعة وغريبة ومصطنعة تكاد لا تصدّق واشهرها كانت تكرار حوادث اصطدامات متعمّدة لسيارات ركاب خاصّة صغيرة بسيارات نقل وشاحنات حكوميّة عسكرية ومدنيّة كبيرة اودت بحياة افراد ممّن عرفوا بكونهم صّفوة المجتمع نظرا لاهميّتهم بالاوساط السياسية او الاجتماعية واحيانا تصفية عوائل بكاملها، لا سيّما على الطرق الخارجية الرئيسية عن بغداد والمدن الاخرى. او بتصفية اسر محترمة بكاملها كسلسلة (جرائم ابو طبر في بغداد او باغتيالات لشخصيّات معيّنة نساء ورجالا خلال 1970 – 2003، واشهرها كانت فضيحة محاولة قام بها مبعوث مفخخ الجسد أرسلته المخابرات العراقيّة لتفجير مجلس الزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني في مقرّ قيادته ولكنّه نجا باعجوبة).

كما شهد العراق ايضا في تلك الفترة حملات محاكمات صوريّة لا تتوفر فيها ابسط الشروط القانونيّة ثبت فيما بعد انها كانت معدّة سلفا ومخطط لها ضد رموز واعيان الصّفوة العراقيّة، بل واحيانا اسر كريمة بكاملها، بتهم ملفقة لها واتهامات بالخيانة والتامر ترتبت عليها محاكمات سرّية صوريّة سريعة وغير قانونيّة في كافة اجرائاتها ثم تعقبها حفلات اعدامات علنية وسريّة وحفر قبور جماعيّة للعديد من زعماء العشائر والوجهاء وتجار كبار واسر يعتبرون من الصفوة الاجتماعية ذات الصلة المشرّفة بتاريخ انشاء العراق الحديث. ولم تستثن حملة السلطة انذاك الصفوة من المؤسسات الدينية الاسلاميّة، الشيعيّة والسنيّة، من التهم المزيّفة كالخيانة او التآمر (كما لم تستثنى الديانات الاخرى من ذلك) فاعدم من اعدم وهرب من هرب الى خارج العراق رجالا ونساء وبشكل لم يشهد تاريخ العراق مثله. لقد كانت سياسة مخططة ومدروسة من قبل السّلطة.

(لقد سبق للمؤلف ان نشر في صحيفة المعارضة (التيّار) في لندن قائمة باسماء ابناء صفوة القادة والزعماء لثورة العشرين الكبرى الذين أعدموا بتاريخ 28/6/1983 بدون محاكمة او تهمة معلنة. التيّار/عدد 16-5/9 تمّوز 1983). (كما انّ بالامكان الحصول على الالاف من القوائم التي تضم اسماء وعناوين اولئك الضحايا من شتى الاجناس والاديان والمذاهب، سواء من الباحثين في هذا المجال او من منظمات حقوق الانسان داخل العراق وخارجه). كما تمّ اسقاط بعض رموز الصّفوة العراقيّة وتدمير موقعها الاجتماعي والسّياسي (والحديث

لا يزال عن الصّفوة العراقيّة خلال العقود الخمسة الاخيرة) بشراء بعضها باغراقها بفيض من المكتسبات المادية والمعنوية لكي تسقط هيبتها وتفقد دورها الموروث بين افراد مجتمعها حينما يكتشف نفاقها وتدليسها لاولئك المغامرين والمختطفين للسلطة والدولة دون حق دستوري او مؤهلات علميّة او عمليّة لا سيّما وبشكل سافر منذ عام 1968.

فمنذ ان تمكّن حزب البعث السرّي من فرض سلطته الكاملة على العراق في ذلك العام بانقلاب عسكري- مدني مدبّر ومخططا له اقليميّا ودوليّا، وعبر موجات متعاقبة من الارهاب والرّعب المبرمج. وكانت تصحبها عمليات سجن واعدامات بدون محاكمة او بمحاكمات صوريّة باسم (الشرعيّة الثوريّة!) وباساليب الترهيب والترغيب لفرض سلطته وافكاره، وتكريس عبادة الفرد الواحد ومميّزات الدكتاتورية وتحريف ولاءات الاطفال والشباب لها على كافة الاصعدة الاسريّة والتربوية والاعلامية، رسمية وغير رسميّة، لاجتثاث قيم التراث الاصيلة واقتلاعهم من جذورهم (مغلفا سياساته بشعارات الحداثة والتجديد)، واظهار الولاء المطلق لهرطقة فكريّة مستنسخة عن نهج تبشيري لغرسها في بلد عرف بكونه ينبوع المدارس الفكريّة والفقهيّة والفلسفيّة العربيّة والاسلاميّة وعلى مجتمع يمتد جذوره لالاف السنين. لذا ولاول مرة في تاريخ العراق الاجتماعي والتعليمي يصل الانحراف في السلوك الاجتماعي ان تمرّد الكثير من الابناء والبنات على ذويهم، والمستخدم على مخدومه، والطلاب على اساتذتهم وباسلوب وبلغة بذيئة غير مبرّرة وغريبة عن طباعنا وخطاباتنا المألوفة، وبنسبة عدديّة ليست استثنائية في مقاييسنا.

ان قلق وتقلبات الصفوة العراقيّة في وفائها وولاءاتها لازال قائما ومؤثرا في السياسة العراقية وفي الحياة الاجتماعيّة برمتها حتى أصبحت ظاهرة؛ بل انها دخلت في الاعتبارات والحسابات لأشهر مراكز التخطيط واتخاذ القرارات الاستراتيجيّة السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة الهامّة في العالم في تعاملها مع العراق.

الصفوة العراقيّة والطبقيّة

على الرغم من وجود فجوة ظاهرة ـ قد تكون كبيرة او صغيرة ـ بين مكوّنات الصفوة العراقيّة المتنفذة، في المدن الكبرى والريف والبادية والجبال وبين المراتب الاخرى في المجتمع العراقي، الا انه ليس من الممكن تطبيق التحليل الطبقي القائم على تملك وسائل الانتاج وراس المال الصّناعي والتجاري ـ المتبع عند كارل ماركس وماكس فيبر واخرين من فلاسفة الغرب ـ على اطياف المجتمع العراقي في اية مرحلة من مراحل تاريخه الحديث. اذ لا يمكن ان نضع حفنة قليلة من المعامل والصناعات المتواضعة التي انشأت في العراق الملكي ـ بل وحتى اليوم ـ بمستوى المعامل الضخمة وعدد العاملين فيها ايضا في دول العالم الصناعيّة المعروفة من جميع النواحي كمّا ونوعا (كراس المال وحجم وسائل الانتاج والطبقة العاملة

والتقنيّات والعلاقات الانتاجيّة). كما لا يمكن ان نضع التجّار وكبار ملاكي الاراضي العراقية بمستوى طبقي واحد سواء فيما بينهم او مع كبار رجال المال والتجارة واصحاب الصناعات - المتواضعة في المدن العراقية، لامن حيث اختلاف الوزن المالي ولا من حيث النمط الاجتماعي او الانتاجي كما هي الحالة في المجتمعات الاوروبيّة والامريكية مثلا لكي نطبّق عليها نظريّة الصراع الطبقي.

وعلى الرغم من محاولات كتاب اليسار في العراق (لا سيّما الشيوعيين) اضفاء صفة الصراع الطبقي على الاحداث التي مرّ بها العراق منذ بداية القرن الماضي حيث انشأت الدولة العراقيّة الحديثة، الا انهم فشلوا في تقديم الادلة العلميّة والاسانيد التاريخيّة الموثقة لا سيّما وانّ المجموع الكلي لعمال العراق انذاك يبلغ 113 ألف عامل يعملون في شركات النفط وزراعة القطن والسكك الحديدية البريطانية في العراق، كما لم يزد عددهم في المؤسسات والمشاريع الاهليّة والحكومية العراقيّة عن ستة الاف عامل انذاك. ومع ذلك يصرّون في بحوثهم وكتاباتهم على ان للعمال العراقيين وللثورة البلشفيّة دور في ثورة العشرين الكبرى!!. (د.سعاد خيري/المصدر/ص17 21-)..

وحتى المكوّنات العراقيّة التي يسمّيها الاستاذ حنا بطاطو بالطبقات فانه لا يسعه (وهو ذو الميول الاشتراكيّة) الا ان يعترف.. " بانّ كبار ملاك الاراضي، وكبار اصحاب الاموال والتجّارة.. بانّها كانت طبقات غير ثابتة نسبيًا، على الأقل بالنسبة لفترة طويلة من ذلك العهد (الملكي 1958 - 1921). طبعا،ان البنية الطبقيّة لا تتسم بالاستقرار من ناحية المبدا..".

HANNA BATATU، The Old Social Classes and the Revolutionary Movments of Iraq، 1st Edition 1978، p21، Princeton، New Jersey/ U.S.Aوبالاضافة الى ذلك نجد اختلافا في كل منطقة جغرافيّة عن نظيرتها او حتى ضمن كل شريحة اجتماعيّة او اقتصاديّة؛ فسطوة زعماء القبائل وكبار ملاكي الاراضي في كردستان العراق والبادية في الشمال والشمال الغربي منه، هم اقرب الى سطوة ونفوذ الاب التقليدي الشرقي الذي يرعى ابناؤه ويهتمّ بمستوى حياتهم، بينما يختلف ملاكوا اراضي وسط وجنوب العراق حيث جعلوا حياة ابناء عشائرهم (على الرّغم من انهّم ايضا ابناء عمومتهم) كوضع عبوديّة الفلاحين الاقنان في اوروبا في العصور الوسطى.

ومن ناحية اخرى نرى ان الصلة بين (طبقة) كبار الملاكين الزراعيين وبين اصحاب الاموال والتجارة والصناعة في المدن هي صلة قلقة وغير منسجمة في اغلب الاحوال، ربّما بسبب النظرة الفوقية لاهل المدينة (لا سيّما المدن الكبرى)على اهل البادية وعلى اهل الريف، بل وحتى على اهل المدن الصّغيرة لا سيّما البعيدة عن العاصمة. كما يجب ان لايغيب عن البال حالة احتكار السلع ورؤوس الاموال والقروض ذات الفوائد العالية التي طالما كان يانّ منها كبار الاقطاعييّن ومزارعو (صفوة الريف) من (صفوة) اهل المدن مّما زاد من الحسد وعمّق الهوّة بين (الصّفوتين)، هذا بالاضافة الى استعلاء أعيان الصّفوة السنيّة في المدن الكبرى الثلاث

بغداد والموصل والبصرة لاسباب تاريخية معروفة على نظرائهم من الصّفوة من المسلمين الشيعة وحتى على نظرائهم الاخرين من الديانات الاخرى كالمسيحييّن واليهود في بغداد وفي بقيّة المدن الصغرى العراقيّة. يقول الاستاذ محمد حديد في هذا الصّدد في مذكراته عن زملاء له في الجامعة الامريكية في بيروت:

(ومما الهب النزاع بين المجموعتين انّ يوسف الكيلاني كان يعتبر عبد الفتاح ابراهيم اقل منزلة منه، وانّ عائلة عبد الفتاح ادنى مرتبة اجتماعيّة من عائلته (محمد حديد/مذكراتي/ الساقي – لندن/ط1/ص70) وقوله: (ولعل من اهم عوامل انخراط ابناء الفئة الاولى - البيكات والافنديّة - في السلك الحكومي اتقانهم اللغة التركيّة !... وتضم هذه الفئة الاولى عوائل موصليّة معروفة مثل العمريّة - حيث تولى كل من مصطفى العمري وأرشد العمري رئاسة الوزارة في العهد الملكي وعائلة المفتي وال الفخري وال النقيب ومن التجار عائلة القدو والصابونجي وحديد والجومرد وسرسم واللوس وشنشل واليوسفاني.. وغيرهم.. (محمد حديد/مذكراتي/المصدر/ص36،37). وفي موضع اخر يقول: (كان لابناء الاثرياء والموسرين في المدن الكبرى فرصة اكبر من ابناء المناطق الاخرى للدراسة الحديثة لا سيّما ابناء الموصل وبغداد القريبتان من تركيا والشام.. وفي عام 1923، دخلت الجامعة الامريكيّة.. وهناك تعرّفت على بعض الطلاب العراقييّن ومن بينهم فاضل الجمالي ومتي عقراوي ومحي الدين يوسف ويوسف زينل (محمد حديد/المصدر../ص64) وهنالك أمثلة اخرى كثيرة مشابهة جاءت في مؤلفات ومذكرات عديدة لاخرين وللمزيد انظر الى مذكرات (كامل الجادرجي وتوفيق السويدي وابو طبيخ وناجي شوكت وكافة افراد الصّفوة العراقيّة حتى المتأخرين منهم). ومع ذلك فهنالك استثناءات في العلاقة الايجابيّة، حيث لطالما كانت هناك صلات وصداقات قويّة بين اطراف منهما لاسباب المصاهرة او لمتطلّبات مصلحة عمل، الا انه لا يمكن اعتبارها صلات ومصالح (طبقية) بالمعنى التحليلي العلمي للطبقة بايّ حال من الاحوال.

الصّفوة النسائيّة العراقيّة

وحديثنا عن الصّفوة النسائيّة العراقيّة قد يكون مقتضبا جدًا عن فترة بداية القرن العشرين وحتى قيام المملكة العراقيّة بمؤسّساتها التعليمية والاجتماعيّة، نظرا للتهميش المقصود للمرأة وعدم اعطائها الدور الذي تستحقّه في حياة المجتمع. وبسبب تأثير النظرة التقليدية البدويّة والعثمانية وهيمنة الرّجل المطلقة على المرأة واعتبارها جزءاً من ممتلكاته، او في افضل الحالات وسيلة لانجاب الاولاد وللمتعة على نمط حياة نظام الحريم والجواري القديم. تقول الدكتورة سانحة امين زكي المولودة عام 1920 عن ظروف المرأة العراقيّة في ذلك الوقت: "كانت بغداد قرية كبيرة نائمة في احضان العصور المظلمة منذ قرون طويلة خاصّة من حيث مكانة المرأة التي كانت تنظر الى الرّجل نظرة العبد الى سيّده والمملوك الى

مالكه. وفرض الرجل على المرأة الحجاب الثقيل وظلت قعيدة حبيسة في دارها متعة وخادمة لرجل هو في الغالب الأعم جاهل ومتخلف وفي اسفل درجات المدنيّة الحديثة التي اشرقت في الغرب منذ النهضة الحديثة لخمسة قرون مضت". (د.سانحة امين زكي/ذكريات طبيبة عراقيّة/ دار الحكمة- لندن2005-/ص7).

ومن المفارقات التي تستحق التأمل في تاريخ الصّفوة النسائيّة العراقيّة حتى العصر الحديث ان موقع المرأة العراقيّة انذاك في الارياف والعشائر والمدن الصّغيرة (العربيّة وغير العربيّة) كان اقوى تأثيرا واكثر فاعليّة من اختها في المدن، كما كان لها هامشا ملحوظا من الحريّة في القول والفعل. ربما كان ذلك بسبب مساهمة المرأة مع الرجل في العمل اليومي والانتاج في الرّيف (الزراعي وتربية الماشية)، وكذلك مساهمتها في تحمّل بعض المسؤولية في السّلم والحرب. ففي ثورة العشرين الكبرى كان للمرأة بين القبائل دورا مشهودا ومشرّفا في مساهمتها في الدفاع عن الوطن وفي محاربة المحتلين البريطانيين لابد من الاشارة اليه بتوسّع اكثر في الصفحات القادمة.

ومع تأسيس المملكة العراقيّة في العشرينيّات؛ واعتقاد الملك المؤسّس فيصل الاوّل بضرورة مساهمة المرأة في بناء مملكته الحديثة واعطائها فرصة لاثبات قدراتها، أخذت المرأة العراقيّة تثبت وجودها وقدراتها منذ مجيء الحكومة الاولى المؤقتة وانشاء المؤسّسات التعليميّة والثقافيّة واعطاء الفرص للمرأة مساوية للرجل في الدراسة داخل العراق وخارجه. ومنذ وقت مبكر أيضا، أخذت النساء يبرزن على المستوى العراقي والدولي في كافة النشاطات النسائيّة والاختصاصات حتى بلغ بعضهنّ مستويات عالميّة في الشهرة ضمن اختصاصاتهنّ منذ وقت مبكر قياسا مع نظيراتهنّ في العراق وفي الدول العربيّة والاسلاميّة بل والدوليّة في كافة مجالات الحياة السيّاسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعلميّة والادبيّة والفنيّة والقانونيّة وحتى في العلوم الدينيّة.

ويمكن اعتبار العهد الملكي في العراق (1921 ــ 1958) العهد الزاهر بالنسبة لازدهار مكانة الصفوة النسائيّة العراقيّة وتطوّرها؛ ذلك العهد الذي جعل رسميّا للمرأة مكانة محترمة وموقعا مشرّفا وحقا لا يمسّه الا القانون وباستثناءات نادرة. وقد برزت منذ ذلك العهد شخصيّات طلائعيّة نسائيّة لم يشهد مثله العراق حتى اليوم، وتقف على راس تلك المفاخر النسائيّة جلالة الملكة الهاشميّة الراحلة عالية بنت الملك علي بن الحسين، زوجة الملك غازي الاوّل وام الملك فيصل الثاني واخت الامير عبد الإله الوصي على عرش العراق، فقد "... كانت المرحومة الملكة عالية سيّدة جليلة الشان محبوبة الشمائل، ترعى المؤتمرات النسائيّة، وتدير المبرّات الخيريّة. تشارك في الحملة النسائيّة العراقيّة لرفع شان المرأة في المجتمع، لها يوم خاص كلّ اسبوع يفد الى دارها عشرات النساء من مختلف الطبقات للتحدّث في شؤون العراق والدنيا. توزع الخيرات بيدها وتعطي الفلوس للمحتاجين والفقراء واسر الجنود من حرس القصر وغيرهم. تطوّعت في حرب فلسطين سنة 1948 ممرّضة في احدى مستشفيات

الميدان التي اقامتها الجمعيّات الخيريّة النسائيّة، الا انّ الموت اختطفها وولدها الوحيد فيصل ما زال صبيّا.." (د.فالح حنظل/اسرار مقتل العائلة المالكة في العراق/ص 30).

وكذلك كانت بقيّة نساء الاسرة المالكة الهاشميّة اللواتي كنّ مثالا في البساطة والعفة والنزاهة والتضحية لخدمة ورعاية الارامل والايتام في السّلم والحرب. وكذلك نساء عراقيّات اخريات من امثال: الاستاذة آسية توفيق وهبي (اوّل رئيسة اتحاد نساء العراق) وصبيحة الشيخ داود في القانون، والسيّدة نازك الملائكة الرائدة الاولى في الشعر العربي الحديث والشاعرة عاتكة الخزرجي ونظيرتها لميعة عباس عمارة وزهى حديد العبقريّة العالميّة في شؤون التصميم وفي الهندسة المعماريّة. كما اتيحت الفرصة للمرأة في ذلك العهد ان تتبوّء مسؤوليّات خطيرة في المناصب الكبرى بما في ذلك السلك الدبلوماسي؛ فقد أصبحت السيّدة امينة الرحّال عضوا في اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعي العراقي في عام1941 (حسن شبّر/ العمل الحزبي في العراق/ دار التراث العربي/ط 1/ص168)، كما اصبحت الدكتورة نزيهة الدليمي اوّل امرأة تتبوّء منصب وزيرة في العراق (بل وفي الشرق الاوسط) في حكومة عبد الكريم قاسم (الذي قاد انقلاب 14 تموز1958). وفي العهد الملكي ايضا أصبحت سريّة الخوجة سفيرة للعراق مرّة في الهند ومرة اخرى في المانيا والسيّدة سميّة الزهاوي وزير مفوّض وسهى الطريحي وزير مفوض. وفي فن الرسم برزت كل من ليلى العطار وسعاد العطار وغيرها من النساء في بقيّة الفنون المختلفة. وفي العلوم النظريّة والتطبيقيّة وكذلك التربية والتعليم والادب والقائمة طويلة جدا. ونظرا للكفاءة العالية للنساء العراقيّات فان الدور الذي قمن به في العراق الحديث ومساهماتهنّ وتضحياتهنّ في السلم والحرب لايقل عن الرّجال على كافة المستويات تقريبا بل وتفوقن عليهم في العديد من مجالات الحياة بقدر ما اتيح لهنّ من فرص اظهار قدراتهن وكفاءاتهن في الخدمة الوطنيّة وفي كافة مرافق الحياة.

الصّفوة العسكريّة العراقيّة

برزت الصّفوة العراقيّة العسكريّة كجزء متميّز ومؤثر في المجتمع العراقي الحديث منذ بداية تكوينها في اواخر القرن التاسع عشر كافراد عسكريين متميزين يخدمون في الجيش العثماني. فبعد أن امضت الشطر الاوّل من حياتها في إستامبول بهدف الدراسة ثمّ في الخدمة ضمن وحدات الجيش العثماني خارج العراق (ما بين عامي 1872 - 1912، كان مجموع عدد الطلبة العراقيين في إستامبول وحدها يبلغ 1400 فقط منهم 1200 تخرّجوا كضباط في الجيش العثماني.(د. وميض جمال عمر نظمي/ثورة 1920/ط1/ص74)، حتى اذا ما انتهت الحرب العالميّة الاولى عام 1918 وقد تضاعفت اعدادهم من جبهات اخرى، رجعوا الى وطنهم العراق كجزء هام من التطوّرات التي أفرزها الواقع العالمي الجديد لما بعد الحرب العالميّة الاولى، وما فرضه الحلفاء المنتصرون من ترتيبات وتسويات شاملة.

ومنذ عودة غالبيّة الضباط العراقييّن، اصبح هؤلاء العسكرييّن العراقيين القاعدة الاساسيّة للدولة العراقيّة الجديدة وعمودها الفقري، يعملون متضامنين بسبب قوّة الارتباطات وتعددها فيما بينهم بكافة اوجه الصداقات والانتماءات الحرفيّة (عسكرية) والمذهبيّة (السنيّة) والمناطقيّة (مثلث الموصل-بغداد- الرّمادي)، وكذلك الاسريّة (المصاهرة فيما بينهم) بالاضافة الى انماط التأثيرات التربويّة والتعليميّة (العثمانيّة) على نفسيّاتهم.

الصّفوة (العسكريّة) والسّياسة

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر اقبالا واسعا من قبل ابناء الصّفوة العراقية الموسرة والمتنوّرة من ولايتي بغداد والموصل (والقليل جدّا من ابناء ولاية البصرة) على التعليم العالي في اختصاصات القانون والطب والعسكريّة. وكانت المدارس العسكريّة في إستامبول هي الاكثر اغراء لطموحات الطلاب العراقييّن، بسبب ما يضفيه المنصب العسكري من الجاه والنفوذ الاجتماعي والمالي والاداري الذي يناله الضبّاط. هذا بالاضافة الى انّ انظمة الجيش العثماني والمدارس والمعاهد العليا العسكريّة لا تتقاضى اجورا للدراسة فيها، بل تقدّم معونات مفيدة ـ وان كانت متواضعة ـ لطلابها."د.وميض.. نظمي/المصدر/ص 134".

كان ولاء الطلاب العراقييّن قويّا للعاصمة العثمانيّة إستامبول "عاصمة الخلافة الاسلاميّة"؛ ويعبّر طالب مشتاق (دبلوماسي وسفير سابق في العهد الملكي) عن مشاعر العديد من نظرائه حيال إستامبول بقوله:

"...كانت استامبول كعبة رجال العراق الطامحين، فمن اراد من العوائل الموسرة ان يثقف ولده ثقافة عالية اوفدته مدللا ومعزّزا الى استامبول وكان اكثرهم يلتحق امّا بكلية الحقوق او الملكيّة الشاهانية (كلية العلوم السّياسيّة والاداريّة) كما نسمّيها اليوم..

أمّا العوائل الفقيرة فكانت تلحق ابناءها بالمدرسة الاعداديّة العسكريّة في بغداد ليتسنّى لهم اكمال تحصيلهم العالي في الكلية العسكريّة في الاستانة (إستامبول) ويتخرّجوا فيها ضبّاطا في الجيش العثماني بعد دراسة ثلاثة سنين".(طالب مشتاق/اوراق ايّامي/بغداد/ط1/ص36).

ولكن ما ان بدات النزعة القوميّة التركيّة تطغي على سّياسة الدولة العثمانيّة، وما ان بدات سياسة التمييّز واضحة تجاه العناصر الاخرى من مكوّنات الامبراطوريّة العثمانيّة حتى اخذ العراقيّون ـ كغيرهم ـ يتعصّبون لانتمائهم العربي او الكردي ويسخطون على السّلطة العثمانيّة، ثمّ ما لبثوا ان أخذوا يتجمّعون ويتضامنون فيما بينهم (كعراقييّن) بدلا من كونهم (رعايا عثمانيين). الا ان الكثير من الطباع (والنزعات العثمانيّة) بقيت تلازم اغلبهم في سلوكيّاتهم اليوميّة الوظيفيّة سواء كانوا ضباطا في القوّات المسلحة او موظفين في دوائرهم (بل وحتى في حياتهم الخاصة كتراث في عوائلهم) وابرزها انهم اعتادوا امّا ان يطيعون

الاعلى او يُطاعون من قبل الادنى.

كانت إستامبول في بداية القرن العشرين بؤرة النشاطات السّياسيّة لمختلف ابناء الرّعايا والقوميّات التي كانت تحت المظلة العثمانيّة. فقد كانت لهم نشاطات وجمعيّات سياسيّة وان كانت ذات واجهات ادبيّة وثقافيّة. ولم يكن الشباب العربي - وفي مقدمتهم العراقي - بغافلين عن تلك النشاطات والتيّارات المتنوّعة. فما لبثوا حتى انخرطوا فيها، ومن بعد ذلك نظمّوا انفسهم واسّسوا لهم كياناتهم الخاصّة بهم وبقيادات اختاروها من بينهم. لقد كان حصيلة التقارب والتضامن للضبّاط العرب ولادة تنظيمات سياسيّة ضمّت بين صفوفها ضبّاطا عربا ومسلمين غالبيّتهم العظمى من العراق والشام وواحد فقط من مصر. وبدات النذر الاولى لنشاطات تلك التنظيمات تشير الى تنامي الوعي القومي العربي والاعتزاز بانتمائهم وبتاريخ أمتهم العريقة. ولم يخف هؤلاء الضباط في اوّل الامر دعوتهم الى المساواة في الرّعويّة ضمن الدولة العثمانيّة. ولم تكن غايتهم انذاك الانفصال بل البقاء ضمن الامبراطوريّة العثمانيّة. فتشكلت (جمعيّة الاخاء العربي العثماني) كاوّل جمعيّة عربيّة حديثة طالبت بالمساواة مع حفاظها على ولائها للاتحاديّن. بينما برزت حركة جديدة تحت اسم "حزب اللامركزيّة العثماني" في عام 1910 التي طالبت بالادارة اللامركزيّة وضمان الحقوق السيّاسيّة للعرب. (د. نظمي/المصدر- ص142). ثمّ تطوّر الامر ليصبح مطلب "الفيدراليّة" املا يحتل مطالب الناشطين العرب. ثم استطاع اللواء عزيز علي المصري ومعه ضباط عراقييّن من تأسيس "جمعيّة العهد" في إستامبول في 28 تشرين الاوّل/اكتوبر 1913 وهي جمعيّة سريّة اعترف القائد التركي جمال باشا بانّ الحكومة التركيّة رغم كلّ جهودها، لم تتوصّل قط الى معرفة ايّ شيء عن هذه الجمعيّة (العهد) ما عدا اسمها. لقد كان غالبيّة اعضائها من العراقيّين، وكان من انشط اعضائها: ياسين الهاشمي، جميل المدفعي، علي جودت الايّوبي، تحسين علي، مولود مخلص، عبد الرّحمن شرف، عبد الغفار الشالجي، نوري السّعيد، طه الهاشمي، عبدالله الدليمي، عبدالغفور البدري، ومحمد حلمي، وعلي رضا، وموفق كامل، ومدنيّان هما حمدي الباجچي وشريف الفاروقي.

كان تطوّر الوعي القومي العربي ينمو بشكل متكامل مع نزعة المطالبة الواعية بالحقوق مع حرص واضح على سلامة الخلافة الاسلاميّة بحس اسلامي تجاه هجمة غربيّة تبشيريّة إستعماريّة ويبدو ذلك واضحا في برنامج جمعيّة العهد الذي اكد على الفقرات التالية:

اولا: انّ "العهد" جمعية سياسيّة سريّة. وهدفها هو الاستقلال الذاتي للبلاد العربيّة واتحادها مع الاستانة على اسس مماثلة لتلك القائمة بين النمسا والمجر.

ثانيا: ينبغي الاحتفاظ بالخلافة الاسلاميّة في يد العثمانيّين.

ثالثا: تولي الجمعيّة اهتماما خاصّا بسلامة الاستانة وحمايتها من الدّول الغربيّة الاستعماريّة.

رابعا: طيلة ستمائة عام، ظلّ الاتراك يحتلون الحاميا ت الشرقيّة في وجه الغرب. وعلى الامّة العربيّة ان تعدّ نفسها لتكون القوّة الاحتياطيّة لتلك الحاميات. (احمد عزت الاعظمي/ ج4 - ص53،(د. نظمي/المصدر- ص143).

كانت جمعيّة العهد في جوهرها تنظيما عربيّا قوميّا يسعى الى الدعوة من اجل توحيد العرب في اطار الحكم الذاتي (ولو بصيغة الاتحاد الفيدرالي) اوعلى شكل ملكيّة مزدوجة العرش (عثمانيّة- عربيّة) على صيغة ثنائيّة عرش امبراطوريّة النمسا والمجر انذاك مطلبا مشروعا وعمليّا كان من الممكن ان يحول دون تردّي الانهيار والتمزق الداخلي الذي كانت تعاني منه الامبراطوريّة العثمانيّة انذاك، ويفوّت الفرصة على دعاة الاستقلال العربي التام والمخططات الاستعمارية لبريطانيا وحليفاتها لتقسيم الامبراطوريّة العثمانيّة التي كانوا يلقبونها " بالرجل المريض المشرف على الموت المحتّم ولابدّ من الاستعداد لتقسيم تركته بين بريطانيا وحليفاتها " .

انّ مشروع القضاء على الدولة العثمانيّة قضاءاً تامّا والسّيطرة على ولاياتها (العربيّة) الغنيّة ينسجم تماما مع المشروع الصّهيوني الذي بدات اولى نشاطاته انذاك، بمحاولات متكرره من قبل المنظمات الصّهيونيّة العالميّة والمنظمات العاملة في خدمتها (السريّة والعلنيّة) والتي هي الاخرى قد فشلت في محاولة (شراء) فلسطين من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني فكانت النتيجة ان فقد عرشه وإمبراطوريّته بسبب ذلك الرّفض.

لقد كان الضباط العراقيّون العاملون في جمعيّة العهد يرون بامكانيّة الجمع بين الولاء الاسلامي ـ العثماني وبين الولاء للانتماء الوطني ـ القومي اذا ما استطاعوا اجراء الاصلاحات الاداريّة والسّياسيّة وضمان الحقوق القوميّة لرعايا الدولة العثمانيّة. وبذلك اثبت الضباط العراقيّون بانّهم لم يستوعبوا افكار (القوميّة العربيّة) بعد بالدرجة التي كان عليها الضباط السوريّون حيث كانت دمشق تستعر بالاحاسيس والافكار القوميّة (على النمط الايطالي والالماني انذاك) على الصّعيدين الفكري والتنظيم السّياسي. ولهذا حينما اسّس السّوريون جمعيّة (العربيّة الفتاة) في 14 تشرين الثاني/نوفمبر1909 فانها كانت تضم 54 عضوا كلهم سوريّون عدا عراقي واحد وهو توفيق السّويدي، (د. نظمي/المصدر- ص143). علما انّ جمعيّة العربيّة الفتاة لم تختلف في اهدافها عن العهد الا في سعة انتشارها ونفوذها بين السّوريينّ الذين تفوّقوا على بقيّة الضبّاط العرب بنزعتهم وحماسهم الشديد للقوميّة العربيّة وبالدّعوة الى الاستقلال العربي. لقد كان للعربيّة الفتاة نفوذ خارج حدود إستامبول مثل باريس ومدن الشام لا سيّما في لبنان وفلسطين، وكذلك في الحجاز.

كان الاتراك على علم بانّ للضبّاط العرب نشاطات وتنظيمات سياسيّة سريّة، الا انّهم لم يمسكوا الدليل المؤكد ليبرّروا اتخاذ اجراءات شديدة بحقهم، ومع ذلك اتخذت اجراءات بحقّ كبار الضبّاط العرب بهدف ارهابهم وتحذيرهم. فقد اعتقل اللواء عزيز علي المصري في شباط/فبراير 1914 ثمّ قدّم للمحاكمة وطرد من تركيا في شهر نيسان/ابريل1914 بعد

تخفيف عقوبة الاعدام التي اصدرتها المحكمة العسكريّة بحقه. واذا كان هنالك صحة للرأي القائل بانّ لبريطانيا دورا في تخفيف عقوبة المصري رغم عدائه المعلن لبريطانيا (د. نظمي/ المصدر- ص144)، فيمكن قبول ذلك لاحتمالين: الاوّل هو زعامته المهيمنة على الضباط العرب ومشاعره القويّة للحركة القوميّة العربيّة؛ والثاني هو تلاقي اهداف القوميّة العربيّة العليا (الاستقلال عن الدولة العثمانيّة) مع الاهداف الاستراتيجيّة لبريطانيا وحلفائها انذاك في اضعاف وتفتيت جسد الامبراطوريّة العثمانيّة. هذا عدا ما لعزيز المصري من السجل العسكري المشرّف في السلم والحرب وكفاءته العالية وشجاعته ما جعل القيادات العثمانيّة تبدل عقوبة اعدامه باخراجه من تركيا.

ان ما حصل لعزيز علي المصري قد امتدّ الى الصّفوة العسكريّة العراقيّة في الجيش العثماني؛ فقد نقل طه الهاشمي الى اليمن وارسل اخوه ياسين الى ادرنة، ومحمود اديب (من العهد) اعتقل، واستدعي رشيد الخوجة (امر موقع بغداد وعضو جمعيّة الاتحاد والترقي وهو من ذوي

الميول القوميّة العربيّة) مع عبد اللطيف الفلاحي (العهد) الى الاستانة للتحقيق معهم. الا انهما هربا في بيروت بمساعدة صبيح نشات (امر الشرطة) وهو عضو اتحادي وذو ميول قوميّة عربيّة. وتحدّى نوري السّعيد وعبدالله الدملوجي (مدني من العهد) امر القاء القبض وهربا الى البصرة حيث احتميا بالسّيد طالب النقيب. وبالنظر لكون نوري السّعيد كان عسكريّا (ملازم اوّل) وبعد انكشاف نشاطه خلال محاكمة عزيز علي المصري، فقد حكم عليه بالاعدام لهروبه من الجيش وبقي في البصرة حتى الاحتلال البريطاني لها. (د. نظمي/ المصدر- ص145)

لقد كانت الاجراءات التركيّة التعسّفية ضد بعض الضبّاط العرب خطا فادحا واستفزازا شديدا لاكبر القوميّات التي تتألف منها الامبراطوريّة العثمانيّة، وفي وقت عصيب جدّا كان الاولى بالعثمانيّين التودّد للعرب لاستفزازهم. ومن جانب اخر فقد سبّب غياب اللواء عزيز علي المصري فراغا في الزعامة والقيادة للتنظيمات السياسيّة التي كانت بامس الحاجة الى حكمته ورؤيته القوميّة والوطنيّة المخلصة. بينما كانت اجهزة المخابرات الغربيّة وجميع اعداء تركيا تسعى لتوسعة الخلاف بين القيادات التركيّة وكبار الضبّاط العرب وعددهم كبير.

كان الوقت عصيبا جدّا، فالحرب العالميّة الاولى قد أعلنت والضبّاط العرب (واكثرهم عددا العراقيّون) منقسمون في ولاءاتهم، فمن جهة كانوا تحت مطرقة التعسّف والتعالي العثماني، ومن جهة اخرى توجد لديهم شكوك حقيقيّة في نوايا الحلفاء لا سيّما بريطانيا وفرنسا الطامعتان في الولايات العثمانيّة العربيّة في المشرق العربي. وهم يعلمون جيّدا بمساعي الدولتين الكبيرتين بريطانيا وفرنسا لكسب العناصر غير التركيّة الى صفوفهم بمختلف الوسائل والوعود المغرية.

لقد وجدت الصّفوة العراقيّة العسكريّة نفسها منذ مطلع القرن العشرين تنغمس في

خضم السّياسة العامّة التي كانت تعصف بالدولة العثمانيّة وهي مازالت غير واعية لأحابيل السّياسة ومكر السياسييّن الاوربييّن، وغير مستعدّة الاستعداد اللازم لها. وانّ اخطر ماكان يعانيه وضع القيادات العسكريّة العراقيّة (والضباط العرب عموما) هي:

1 ـ كانت تنظيماتهم حديثة التكوين ولم تستكمل بعد وضوح الرؤية والاهداف المستقبليّة لديهم. كما لم تكن لديهم منهجا وخطة عمل موحّدة لمواجهة الاوضاع الجديدة، لا سيّما التدخل الاوروبي السياسي والعسكري وافاق المستقبل لبلدانهم.

2 ـ كانت مشاعرهم الحقيقيّة موزّعة مابين الولاء التقليدي للدولة (العليّة الاسلاميّة) بكل ما تحمل من قيم التراث الإيماني، الديني والنفسي والتاريخي المتجذرة عبر الاجيال، وبين القيم القوميّة وبريق الامل بالتحرير والاستقلال عن (الغرباء) الاتراك، وهي جديدة وجريئة قد جاءتهم من اوروبا ولم تترسّخ جذورها في وجدانهم بعد.

3 ـ خوفهم من الوعود المغرية التي اخذ الحلفاء يكيلونها لهم في التحرير وارجاع العرب الى سابق عهودهم الزاهرة. ذلك الخوف كان مشوبا بحذر وخوف شديدين بسبب احساسهم الصّادق بالفروق الكبيرة (على كافة المستويات) بينهما حتى، انّ بعض الضباط العراقييّن قالوا انئذ: بانّ

"... الحلفاء حينما يتحدثون عن التحرير، فانهم يضمرون في قلوبهم السّيطرة..."

David Lloyd George، Memoirs…Vol. 2، p.669

4 ـ في الوقت الذي كان فيه شكل التحالف والتعاون يتخذ خطوات عمليّة بين قيادة الحلفاء في القاهرة وبين الشريف حسين بن علي امير مكة ويتقدم للامام نحو قيام ثورة عربيّة شاملة، كانت قوّات الحلفاء قد نزلت في ميناء الفاو جنوب العراق عام 1914 بهدف احتلال العراق. وكذلك أعلنت الحماية البريطانيّة على مصر في نفس العام. بالاضافة الى الوجود العسكري للحلفاء في اماكن عديدة من العالم العربي (المشايخ العربيّة في سواحل الخليج العربي وعدن والسّودان وشمال افريقية). كلّ ذلك اوجد واقعا جديدا سلبيّا امام الخيارات التي كان يطرحها الحلفاء للضبّاط العراقييّن لكي يتركوا الجيش العثماني ويلتحقوا بمشروع (الثورة العربيّة ضد الاتراك).

كانت الصّفوة العسكريّة العراقيّة في عام 1914 تعاني وهي بين مطرقة التسلّط والتخويف العثماني (حكومة الاتّحادييّن ذوي التعصّب القومي التركي) وسندان الاغراءات والتهديد من قبل قوّات الحلفاء وانصار الثورة العربيّة. ومع ذلك نجد انّ اغلبيّة الضبّاط وكبار قادتهم لم ينضمّوا الى الثورة العربيّة في بداية الامر، بل جاء انضمامهم في وقت متأخر وتحت ضغط واقع تطورات الحرب العالميّة الاولى وخسارة الدولة العثمانيّة الحرب امام الحلفاء وتعرّض الضباط والجنود العراقييّن والعرب على اختلاف مراتبهم اما للاسر بيد الحلفاء، او الى الاختفاء اوالى البطالة والتجويع هم وعوائلهم. ويقابل ذلك استمرار مغريات العروض السّخيّة للعمل تحت

امرة قيادة اشراف الحجاز جعلت معظمهم يتقبّل الامر الواقع واغتنام فرصة العمل في الظرف الجديد. ولعلّ القاريء يجد امثلة كثيرة حول هذا الموضوع في مذكرات هذه المجموعات من العراقييّن والتي بيّنوا فيها كيفيّة استدراجهم باثارة نخوتهم وحماسهم الوطني وكيل الوعود الكاذبة التي اشتهر الحلفاء بمنحها للعرب (لا سيّما في الاوقات العصيبة) دون حساب او ضمانات لتنفيذها. ولهذا بدات نشاطات المجموعة العسكريّة العراقيّة ومبادراتها تغلب عليها حالة التصرّفات الفرديّة، وأخذت القرارات الجماعيّة تتراجع. فمثلا قرّر الضابط ـ وهو برتبة ملازم اوّل ـ محمد شريف الفاروقي (من عائلة غنيّة في الموصل وعضو في العهد) ترك معسكره في صفوف العثمانيّين والالتحاق بمشروع الثورة العربيّة التي يقودها الشريف حسين بن علي. وبعد وصوله الى القاهرة في ايلول/سبتمبر1915 سلّم نفسه للسلطات البريطانيّة وادعى انّه جاء بالنيابة عن ضبّاط العهد ليتفاوض مع الانجليز، وحينما تمّ التفاوض بينه وبين الاستخبارات البريطانيّة في 12 سبتمبر/أيلول1915، عرض الفاروقي خلاله للانجليز اهداف جمعيّة العهد بما يلي:

1 - عقد معاهدة صداقة مع بريطانيا.

2 - تخضع الاقطار العربيّة لمبدا اللامركزيّة.

3 – يكون الشريف حسين شريف مكة هو الخليفة او السّلطان في الامبراطوريّة الجديدة التي قدمنا لها الولاء.

4 - بالرغم من انّ الامبراطوريّة الجديدة التي نرغب في تأسيسها ستكون مرؤوسة بخليفة، الا انّ اساسها سيكون قوميّا وليس دينيّا. وستكون امبراطوريّة عربيّة وليست اسلاميّة.

5 – سيكون للعرب المسيحيّين والدروز نفس الحقوق التي للمسلمين، الا انّ اليهود سيخضعون لقانون خاص...

كما اخبر الفاروقي مدير الاستخبارات العسكريّة البريطانيّة في مصر بانه ورفاقه يؤكدون بانّ جمعيّتهم (تقوم اساسا على الاعتماد الكلّي على بريطانيا). وبعد عدّة اسابيع من اللقاءات اظهر تودّدا وتنازلا اكثر للحلفاء عامة وللانجليز بشكل خاص متحدّثا باسم جماعته: ".. انّنا نفضل ان نحصل على وعد من انجلترا بنصف ما تعدنا به تركيا والمانيا..."

(F.O.882/13/MES/15/13)، (للمزيد حول الفاروقي انظر/د. نظمي/المصدر/ص148 ـ 145)

لقد كتب مدير الاستخبارات العسكريّة البريطانيّة في القاهرة الى وزير حربيّته في لندن، متأثرا بحواره مع الفارقي ما يكشف بوضوح طريقة تعامل البريطانيين انذاك مع صفوة المجتمع العربي عامّة والعراقي خاصّة:

".. انّ جوابا مرضيّا على المقترحات العربيّة، حتى لو لم يلبّي كافة مطامحهم، سيؤدّي على

الارجح الى كسب صداقتهم. انّ القادة ذوي النفوذ يبدون متعلقين ومستعدّين لقبول مشروع اقل طموحا بكثير من الذي وضعوه.. ومن جهة اخرى، فانّ رفض المطاليب العربيّة برمّتها او حتى للتهرّب من الموضوع سيؤدّي الى ارتماء حزب العربيّة الفتاة في احضان العدوّ. وسوف تستخدم اجهزتهم على الفور ضدّنا في جميع الاقطار العربيّة..ممّا سيؤدّي حتما الى نتائج بعيدة الاثر، وفي ظلّ الازمة الرّاهنة، سيكون بمثابة كارثة.." (F.O.882/13/15/13---، 22Nov 1915)

لم يدر الفاروقي او غيره من القيادات العربيّة انذاك - كما يبدو- بانّ جميع تقارير الموظّفين البريطانيّين المرسلة من القاهرة وجدّة ودمشق وإستامبول وكذلك غيرها من سفارات وممثّليات الامبراطوريّتين البريطانيّة والفرنسيّة في العالم تنتهي في اخر المطاف على طاولة اصحاب القرار السّياسي في لندن وباريس وبتنسيق وتعاون تامّين بين العاصمتين. ففي الوقت الذي كان فيه وزيرا خارجيّة كل من بريطانيا مارك سايكس، وفرنسا جورج بيكو قد انهيا للتوّ من مسوّدة معاهدة سريّة بينهما لتقسيم الاراضي العربيّة (ممتلكات الرّجل المريض/الدولة العثمانيّة)، كان جماعة العهد والعربيّة الفتاة، ومحمد شريف الفاروقي من قادتها يتحدثون بمثاليّة ساذجة مع استخبارات البريطانييّن حول اقامة (امبراطوريّة عربيّة موّحدة بمعاونة بريطانيّة) او دولة عربيّة واحدة. لقد كان هدف سادة لندن وباريس في المنطقة وشعوبها واضحا كما جاء في البرقيّة السّريّة التي كشف عنها حديثا والتي بعثها في حينها السير مارك سايكس الى السير بيرسي كوكس حول هذا الموضوع وجاء فيها: " انهم – قادة الجمعيّة العربيّة – مضطرّون لاسباب سياسيّة الى المطالبة بالاستقلال المطلق، وهذا ما يفسّر الى حدّ ما عدم صراحة اعضاء الجمعيّة من الاسرى حول الموضوع.. " ومنها ايضا.."..انّ طموحهم الحقيقي هو استقلال سوريا والحجاز، وتأليف دولة تقدميّة من ولايات دمشق، وبيروت وحلب، والموصل وبغداد وسناجق اورفة، ودير الزور، والقدس، تحت حكم الشريف (الحسين بن علي). الا انّ هذا مشروط بالاتفاق مع فرنسا وبريطانيا العظمى، وتكون لفرنسا سيطرة تامّة على كافة المشاريع والمرافق التعليميّة الخاصّة في منطقة غربي الفرات وحتى دير الزور وفي فلسطين ولا يستخدم ايّ اوروبيين ما عدا الفرنسييّن من قبل الدولة العربيّة في تلك المنطقة.الا انّ الدّولة العربيّة غير ملزمة باستخدام المستشارين الاوربييّن الا بمحض ارادتها... وتكون لبريطانيا العظمى بعض الحقوق في العراق والجزيرة العربيّة وتكون مدينة البصرة والاراضي الواقعة جنوبي الكويت وحتى الفاو تحت السّيطرة البريطانيّة بشكل مطلق،امّا الاراضي الواقعة شمالي خط الاسكندرونة، وعينتاب، واورفة فتكون فرنسيّة بشكل مطلق.."، وبلهجة متعالية للقويّ المنتصر المحتل ينهي رسالته بقوله: "..اذا اصبح لنا احتكار دائميّ للمشاريع وللمساعدات الاوروبيّة والعسكريّة والمدنيّة في مقاطعات الموصل وبغداد والبصرة، واذا اصبحنا ندير مقاطعتي بغداد والبصرة طيلة الحرب، فاعتقد اننا لايجب ان نخشى المستقبل، وسواء نجحت العروبة ام لم تنجح، فلن نكون قد خسرنا

شيئا.." (...!!F.O.882/13/15.Nov.1915) بقي الملازم محمد شريف الفاروقي في القاهرة ليستكمل تعاونه مع البريطانيّن وليكون ممثلا للشريف حسين بن علي فيها.

وبناء على ما تقدم فيمكننا القول؛ بانّ ما قام به محمّد شريف الفاروقي من تصرّف فردي كيفي مع الاستخبارات البريطانيّة باسم منظمته السّياسيّة في مثل ذلك الظرف الخطير عام 1915 وبلا اتفاق او تنسيق مع بقيّة القادة تكاد تكون ظاهرة شائعة تتكرّر دائما في العمل السّيا سي من قبل غالبيّة قيادات الصّفوة العراقيّة، ولازالت ممارستها مستمرّة حتى اليوم بسبب انعدام الديقراطيّة داخل التنظيمات السّياسيّة وتغليب غالبيّة الصّفوة من السّياسيّن العراقيّن مصلحتهم الذاتيّة (الفرديّة) على المصلحة العامّة.

لم يكن محمد شريف الفاروقي لوحده انذاك في حالة الاحباط العام والشعور بالدّونيّة امام البريطانيّين على ضوء الواقع الجديد، فقد اشار نوري السّعيد (وهو من مجموعة ضباط العهد) في مذكراته الى لقائه مع الفاروقي وعزيز علي المصري ورؤوف عبد الهادي حيث علم منهم باضطراب الدولة العثمانيّة وانها (غير مستقرّة لا سيّما بعد دخولها الحرب وانهم يؤيّدون ضرورة العمل لانقاذ العرب وتحقيق اهدافهم) مذكرات نوري السّعيد/ص22. كما اشار السّعيد الى علمه وهو في القاهرة بالمراسلات الجارية بين البريطانيّن وبين الشريف حسين، وانّ الادارة العثمانيّة في سورية قد شنقت بعض الاحرار من شباب العرب ورجالهم. وانّ المحاكم العثمانيّة (ترمي الى القضاء على رجال العرب وابادتهم). انّ دراسة سريعة لمذكرات نوري السّعيد وقادة اخرين عراقيين وعرب تظهر بوضوح دور المخابرات الانجليزيّة والفرنسيّة في توسيع شقّة الخلافات مابين العثمانيّن والعرب. كما تظهر جليّا الهلع الذي اصاب قسما من القيادات العربيّة، ووقوع التبريرات الملموسة بيد انصار البريطانيّن وحلفائهم وفي مقدّمة التبريرات تشدّد الاتراك وعدم الاستجابة للمطاليب بالحقوق القوميّة لرعاياها بالاضافة الى استخفافهم بالعرب وباستخدامهم اساليب الارهاب والبطش بالصّفوة من ابناء الأسر العربيّة الكبيرة. بينما كان الزعماء العرب المصريّن سياسيّا اكثر وعيا وابعد نظرا بعواقب الامور من اخوانهم الشاميّن والعراقيّن. فقد سبق لعزيز علي المصري ان كتب الى اخوانه من قادة جمعيّة العهد في استامبول قبيل دخول تركيا الحرب الى جانب الالمان، ينهاهم فيها ـ بلهجة قاطعة ـ عن اتخاذ ايّ عمل عدائي ضدّ تركيا، بالنظر لانّ دخولها الحرب سيجعل مناطقها العربيّة عرضة للغزو الاجنبي، وحتى يتم تحقيق ضمانات فعّالة ضد الاطماع الغربيّة، فانّ من واجبهم الوقوف الى جانب تركيا. (د. نظمي/المصدر- ص145)، (جورج انطونيوس/ص152).

لم يعلم عزيز علي المصري ولا نوري السّعيد حينما التقيا في القاهرة بالمراسلات التي كانت قد قطعت شوطا كبيرا بين الشريف حسين بن علي وبين مكماهون وستورز، كما فوجئا وبقيّة قادة العهد ببرقيّة الشريف حسين يطلب حضورهم جميعا الى مكة فقرروا تلبية الدّعوة وارسال نوري السّعيد وحده لاستطلاع الامر من الشريف حسين ثمّ الابراق بالمعلومات الى

عزيز علي المصري وبقيّة القادة في القاهرة. وشبيه بموقف عزيز علي المصري كان موقف الزعيم المصري سعد زغلول الذي اظهره لنوري السعيد، حينما اخذ الاخير رأيه، بانّ الامور لازالت غامضة وتحيطها ملابسات كثيرة، لذا كانت نصيحة زغلول لنوري السّعيد قوله:

"... انّ وضع البلاد العربيّة وضع شعب محكوم لايملك من امره شيئا فاذا استطعتم ان تكوّنوا لهذا الشعب وضعا اخر، وضعا استقلاليّا، فسيكون لكم الفضل في هذا، واذا خبتم فلن تضيّعوا شيئا عدا انفسكم وسمعتكم فانتم لستم من المقامرين بشيء، انتم من المجاهدين تسعون لتحقيق شيء، فاذا لم تتوصّلوا اليه، فلا لوم عليكم الا بقدر ما يمسّكم من كلام ونقد، وانّ الامر يتوقف على النتائج التي ستحققونها، فاذا كانت نتائج عظيمة فعملكم سيقا س بها، واذا فشلتم، فلا بدّ من ان يحكم عليكم ولا تكونو قد أضعتم شيئا موجودا في الوقت الحاضر. فليس لبلادكم كيان تجازفون به كما هو الحال با لنسبة الى الدولة العثمانيّة، فانها اذا خسرت ستخسر شيئا كثيرا..".(مذكرات نوري السّعيد/ص24).

ووفقا لما تقدّم وما سنوضحه لاحقا، فانّ من اهم ما كانت تعاني منه غالبيّة الصّفوة السيّاسيّة العراقيّة هو فقرها المزمن في معرفة متطلبات فهم السّياسة الدوليّة واهمالها لما تحتاجه من المعلومات التي تتعلق بدول الغرب وتخطيطها التكتيكي والاستراتيجي فيكون شانها في ذلك شان المريض المصاب بفقرالدم ويرفض تناول الفيتامينات والمواد التي تغذيّه.ففي تلك الاثناء وبقدرما كانت السلطات البريطانيّة ملمّة بتطوّرات الموقف بين الاتراك والجمعيّات العربيّة كان كلّ فرد من قادة هذه الجمعيّات على جهل تام بما يفعله اخوانه قادة الحركة الواحدة، بل انّ جمعيّتهم كانت تجهل ما كان يدور من مباحثات بين الشريف حسين وبين ممثلي الحكومة البريطانيّة في القاهرة (مكماهون وستورس ولورنس). وقد اشار نوري السّعيد في مذكراته الى هذا بقوله:

"...ولمّا كنا نتداول مع عزيز علي المصري في القاهرة شان البلاد العربيّة، كنا نجهل تمام الجهل المذكرات التي كانت جارية بين جلالة المغفور له الملك حسين وبين ممثل الحكومة البريطانيّة، كما كنا عاجزين عن فهم ما يراد بالبلاد العربيّة، وماذا ستكون النتيجة اذا اعلن العرب الثورة على الحكومة العثمانيّة..." مذكرات نوري السّعيد/ص22.

لذا فقد كان من الطبيعي ان تنجح بريطانيا وحلفائها في تمرير جميع مخططاتها بينما لم يرقَ قادة الصّفوة العربيّة انذاك الى اقل مستوى من التنسيق او التعاون او تبادل وجهات النظر فيما بينهم. لقد كانت حالة الانفراد بالعمل وباتخاذ القرار، وكذلك التسابق للانفراد بالمسؤولين البريطانيين فرادى هي الصفة المتغلبة على نشاطاتهم وهذه احدى الادلة على الضعف والانكسار النفسي التي عاشتها الصّفوة المدنيّة والعسكريّة العراقيّة والعربيّة. فمّما يرويه نوري السّعيد في مذكراته ايضا قصّة هروبه مع زميله (عبد الله الدملوجي) بعد ان علم بنوايا السلطات التركيّة للقبض عليه. فقد بقي مختفيا في البصرة حتى دخول الإنكليز فيها. كذلك الامر مع عبد اللطيف الفلاحي ورشيد الخوجة واخرين حيث اصبحوا مابين اسيراً

وهارب او مختفي، وبعضهم مبعد في مناطق نا ئية مثل طه الهاشمي (الى اليمن) واخوه ياسين الى (ادرنة) وهم مهدّدون مابين السّيف العثماني وبين سياسة اغراءات الحلفاء المحتلين الذين كانوا يمارسون معهم عمليّات (ترويضهم) عبر معاناة يوميّة من الاسر والنفي او البطالة والحاجة. يقول نوري السّعيد في مذكراته:

"... ولمّا احتلّ الإنكليز البصرة كنت لم ازل مريضا في المستشفى فنقلوني الى الهند ثمّ بقيت مدّة من الزمن بعدها نقلوني الى مصر دون ان اعلم سببا لذلك حتى الان، وكان ذلك في سنة 1915.."، (مذكرات نوري السّعيد/ص21) ولم يذكرنوري السّعيد تفاصيل علاقته بالدولة العثمانيّة اثر افتضاح نشاطه السّياسي (اثناء محاكمة عزيز علي المصري) من قبل الاتراك والحكم عليه بالاعدام لهروبه من وحدته العسكريّة. كذلك لم يشر في مذكراته الى تفاصيل مفاوضاته مع الإنكليز سواء في البصرة ام في الهند (بومباي) ام في القاهرة مع ضابط المخابرات البريطاني الشهير تي. لورنس الذي قام با قناعه ـ مثلما اقنع اخرين - بضرورة الالتحاق بثورة الشريف حسين بن علي في الحجاز.

دور الصّفوة العراقيّة العسكريّة في سورية

عاش سكان منطقة الشرق الاوسط عبر التاريخ، لا سيّما ابناء المشرق العربي في العراق وبلاد الشام وشبه جزيرة العرب، ضمن او اصر قويّة من القربى والتاريخ والدين والحضارة. وعلى الرّغم من البعد الجغرافي لمصر وبلدان شمال افريقيا والسّودان ومناطق اخرى من افريقيا، الا انها لم تكن مستثناة من ذلك ايضا. ولم تؤثر في جوهر مشاعرهم جميع انواع الاحتلالات الاجنبيّة وانظمة الحكم التي عاشوا في ظلّها واخرها السيطرة العثمانيّة التي دامت اربعة قرون تقريبا. وبسبب صلة الانتماءات هذه، لم تكن هنالك عوائق الحدود ووثائق الجنسيّة والسفر (كما نراها خانقة ومستفحلة اليوم) لتحول دون توظيف او عمل ايّ فرد من افراد المنطقة العربيّة للعمل او السّكن والاستقرار في ايّة مدينة او بلد في المنطقة شاء اختياره فيها. وبسبب تلك العلاقات المميّزة وصدق المشاعر بين ابناء هذه المنطقة، فقد كان من الطبيعي جدّا انذاك ان نجد العراقي والحجازي والمصري والجزائري والسوري واللبناني والفلسطيني يتبوّؤن اعلا المناصب الرّسميّة كمحافظين او قيادة اجهزة حسّاسة كالأمن والدرك وقيادات عسكريّة رفيعة في الجيش في اية دولة عربيّة قد تحتاج الى كفاءاتهم. وقد انتبهت الدول الاستعماريّة الى هذه الميزة التي تمنح سكان المنطقة قوّة ذاتيّة واسس متينة من الاواصر للصمود بوجه مخططاتها وانجاح مشاريعها، وفي مقدمتها المشروع الصّهيوني. ولذلك حاربت وحدة المنطقة بشتى الوسائل وبلا هوادة وبدات بسوريا قلب الهلال الخصيب (الكويت والعراق وسورية والاردن ولبنان وفلسطين) حيث كان يعمل في مؤسساتها الرّسميّة العسكريّة والمدنيّة اكفا العراقيّن من مدنييّن وعسكرييّن.

وهارب او مختفي، وبعضهم مبعد في مناطق نا ئية مثل طه الهاشمي (الى اليمن) واخوه ياسين الى (ادرنة) وهم مهدّدون مابين السّيف العثماني وبين سياسة اغراءات الحلفاء المحتلين الذين كانوا يمارسون معهم عمليّات (ترويضهم) عبر معاناة يوميّة من الاسر والنفي او البطالة والحاجة. يقول نوري السّعيد في مذكراته:

"... ولمّا احتلّ الإنكليز البصرة كنت لم ازل مريضا في المستشفى فنقلوني الى الهند ثمّ بقيت مدّة من الزمن بعدها نقلوني الى مصر دون ان اعلم سببا لذلك حتى الان، وكان ذلك في سنة 1915.."، (مذكرات نوري السّعيد/ص21) ولم يذكرنوري السّعيد تفاصيل علاقته بالدولة العثمانيّة اثر افتضاح نشاطه السّياسي (اثناء محاكمة عزيز علي المصري) من قبل الاتراك والحكم عليه بالاعدام لهروبه من وحدته العسكريّة. كذلك لم يشر في مذكراته الى تفاصيل مفاوضاته مع الإنكليز سواء في البصرة ام في الهند (بومباي) ام في القاهرة مع ضابط المخابرات البريطاني الشهير تي. لورنس الذي قام با قناعه ـ مثلما اقنع اخرين - بضرورة الالتحاق بثورة الشريف حسين بن علي في الحجاز.

دور الصّفوة العراقيّة العسكريّة في سورية

عاش سكان منطقة الشرق الاوسط عبر التاريخ، لا سيّما ابناء المشرق العربي في العراق وبلاد الشام وشبه جزيرة العرب، ضمن او اصر قويّة من القربى والتاريخ والدين والحضارة. وعلى الرّغم من البعد الجغرافي لمصر وبلدان شمال افريقيا والسّودان ومناطق اخرى من افريقيا، الا انها لم تكن مستثناة من ذلك ايضا. ولم تؤثر في جوهر مشاعرهم جميع انواع الاحتلالات الاجنبيّة وانظمة الحكم التي عاشوا في ظلّها واخرها السيطرة العثمانيّة التي دامت اربعة قرون تقريبا. وبسبب صلة الانتماءات هذه، لم تكن هنالك عوائق الحدود ووثائق الجنسيّة والسفر (كما نراها خانقة ومستفحلة اليوم) لتحول دون توظيف او عمل ايّ فرد من افراد المنطقة العربيّة للعمل او السّكن والاستقرار في ايّة مدينة او بلد في المنطقة شاء اختياره فيها. وبسبب تلك العلاقات المميّزة وصدق المشاعر بين ابناء هذه المنطقة، فقد كان من الطبيعي جدّا انذاك ان نجد العراقي والحجازي والمصري والجزائري والسوري واللبناني والفلسطيني يتبوّؤن اعلا المناصب الرّسميّة كمحافظين او قيادة اجهزة حسّاسة كالأمن والدرك وقيادات عسكريّة رفيعة في الجيش في اية دولة عربيّة قد تحتاج الى كفاءاتهم. وقد انتبهت الدول الاستعماريّة الى هذه الميزة التي تمنح سكان المنطقة قوّة ذاتيّة واسس متينة من الاواصر للصمود بوجه مخططاتها وانجاح مشاريعها، وفي مقدمتها المشروع الصّهيوني. ولذلك حاربت وحدة المنطقة بشتى الوسائل وبلا هوادة وبدات بسوريا قلب الهلال الخصيب (الكويت والعراق وسورية والاردن ولبنان وفلسطين) حيث كان يعمل في مؤسساتها الرّسميّة العسكريّة والمدنيّة اكفا العراقييّن من مدنييّن وعسكرييّن.

لقد خرجت سورية من الحرب العالميّة الاولى - كغيرها من مناطق العرب - لتجد نفسها امام اعداء جدد في ثوب حلفاء، وانّ احلام التخلص من ظلم الاتراك قد تبدّد بواقع الظلم الجديد (الإنكليزي - الفرنسي). وانّ سياسة التتريك المهدّدة للوجود القومي لغير الترك لم تكن اخطر من اتفاقيّة سايكس - بيكو، ووعد بلفور المشؤومين اللذان قسّما العراق وبلاد الشام ووضعا القواعد المتينة لتنفيذ المشروع الصهيوني العنصري المتخلف في فلسطين المقدّسة والمنطقة بابعاده الاستعماريّة والدينيّة والعرقية الخطيرة على المنطقة وعلى العالم.

كانت سوريا قد اصبحت انذاك قاعدة القوميّة العربيّة وتضمّ جيشا عربيّا بقيادة فيصل بن الحسين واركان حربه، قادما من الحجاز ويضم في صفوفه خيرة القبائل الشجاعة المقاتلة التي استطاعت تحرير الارض الممتدّة من مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة وحتى ارض الشام.

وفي دمشق عقد زعماء العهد مؤتمرا تأسيسيا عاما اعلنوا فيه استقلال سوريّا ونصّبوا فيصلا ملكا عليهم. وبوعي مسؤول تجاهلت الصّفوة من السوريّين والعراقيّين، لا سيّما اركان حرب الامير فيصل، الموقف الغادر للحلفاء وتصرّفوا كاحرار في ارادتهم وبداوا بممارسة متطلبات بناء مملكتهم المستقلة، كانشاء دوائرها ومؤسساتها تحت عرش الامير فيصل بن الحسين، وفي عين الوقت اصبحت دمشق مركزا مهمّا لنشاط سياسي عربي كبير بدل القاهرة التي كانت تحت الحماية البريطانيّة انذاك. وقد تولّى العراقيّون من الضبّاط والمحامين والمثقفين مناصب عالية في الحكومة السّوريّة الجديدة. وقد لعب عاملان اساسيّان في موقف العراقييّن هناك من بقائهم في سوريّة او التوجّه للعراق:

اوّلهما انّ حقيقة موقف فرنسا كان ضد قيام مملكة وحكومة عربيّة سوريّة مستقلة تحت عرش فيصل الهاشمي. وثانيهما تطوّر الاوضاع السيّاسيّة في العراق لتقرير مستقبله السّياسي واتصال قادة الحركة الوطنيّة وعلماء الدين العراقيّين باخوانهم الموجودين في سوريّة. فقامت صفوة العناصر الوطنيّة السّورية والعراقيّة بتنظيم نشاطاتها بتكوين حزب العهد والبدء بتكوين فرع له في العراق. وأخذت الصّلات تتوثق بين منتسبي العهدين السّوري والعراقي عن طريق مدينة الموصل القريبة من الحدود السّوريّة التركيّة والتي هي ليست ببعيدة جغرافيّا عن نشاطات الشيوعيين الرّوس البولشفيك التي وصلت طلائع مقاتليها الى مندلي وديالى شرق بغداد. كما شهدت الموصل خلال 1920 ـ 1919 دعاية قويّة مصادرها الاقطار الثلاثة المذكورة نتج عنها نشاط سياسي قوي وشعور معاد للانجليز رافقته غارات مسلحة على خطوط المواصلات البريطانيّة. (د. نظمي/المصدر- ص330)

كانت الصّفوة العراقيّة المدنيّة والعسكريّة في بغداد والنجف وكربلاء على صلة قويّة بنشاط الضباط العراقييّن في سوريّة، ومن بين من كانوا حلقة الاتصال شخصيات مدنيّة سياسيّة بارزة اهمّها محمد جعفر ابو التمّن ومحمد رضا الشبيبي وعلي البزركان. وعن طريق اتصالاتهم كانت الاخبار والمعلومات تتبادل بين الطرفين كما كانت الصحف السّوريّة واهمها صًحيفة "العقاب" تتسرّب الى المحافل العراقيّة وكانت اهم الاخبار الواردة فيها في

ذلك الوقت والتي زادت من الحماس الثوري في العراق هي انباء ثورة اذار/مارس1919 المصريّة وحركة استقلال مصر بزعامة سعد باشا زغلول وتحدّي المصريين بالسلاح الوجود الانجليزي في مصر. لقد وصلت الحركة الوطنيّة السّوريّة ـ العراقيّة ذروتها حينما اعلنوا استقلال سورية وتنصيب الامير فيصل ملكا عليها. كما عقد العراقيّون الموجودون في المؤتمر، باقتراح من فيصل، على هامشه مؤتمرا "عراقيّا" ونادوا باستقلال العراق وبالامير عبدالله بن الحسين (اخو فيصل) ملكا على العراق، وبعثوا برسائل الى علماء العراق وزعماء القبائل مصحوبة بعلم الثورة العربيّة ذا الالوان الاربعة رمزا لاستقلال العراق. (محمد طاهر العمري/تاريخ مقدّرات العراق السّياسيّة/ج 1).

الصّفوة العراقيّة العسكريّة والثورة العربيّة الكبرى

ترجع اهتمامات بريطانيا وفرنسا بالعراق وببقيّة المشرق العربي الى بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كما جاء بتصريحات وافعال كبار القادة السّياسيّن البريطانييّن والفرنسييّن. فقد وقع الاحتلال الفرنسي لمصر) 1801-1798) ثمّ اعقبه مرحلة تصدّي بريطانيا للقوّة العسكريّة لمحمد علي باشا والي مصر وتدمير قوّاته البحريّة والبريّة ابقاءا على الدولة العثمانيّة

(الرجل المريض) الى حين حلول فرصة القضاء عليه والسّيطرة على ممتلكاته من قبلهم - والعراق منها – وقد حانت الفرصة لكل من بريطانيا وفرنسا بانضمام العثمانييّن الى المانيا وهي الجهة الخاسرة في الحرب العالميّة الاولى (1918-1914). (د. عمر عبدالعزيز عمر/تاريخ المشرق العربي/دار النهضة العربيّة/ص441)

حينما بدا ت الاستعدادات الاوروبيّة للحرب العالميّة الاولى كان من اخطر مظاهرها في المنطقة العربيّة، كاحدى ساحاتها القتاليّة الكبرى، هو وقوف غالبيّة الزعامات العربيّة الى جانب الحلفاء بزعامة بريطانيا ضد الدولة العثمانيّة:

فحينما أعلنت تركيا حالة النفير العام في 2 اب/غسطس1914، "... كانت المعلومات السريّة تصل الى القناصل البريطانيين في البصرة و بوشهر والمحمّرة بانّ الاتراك سوف ينحازون الى جانب المانيا قريبا وانّهم يعدّون العدّة لذلك. وفي شهر ايلول/ سبتمبر ابرقت وزارة الحربيّة التركيّة الى امير نجد عبد العزيز بن سعود في الرياض تعلمه انها قد أرسلت اليه الاسلحة والضبّاط لتدريب اتباعه البدو استعدادا لشنّ الهجمات المحليّة على الإنكليز او على المتعاهدين معهم في سواحل الخليج، فما كان من ابن سعود الا ان ارسل نسخ البرقيّات التي وصلته الى المقيم الإنكليزي في الخليج."

(Arnold Wilson،Loyalties،London- 1936-vol،1،p.6).

وحينما طلب القائد التركي لحامية البصرة - صبحي بك - في نفس الشهر من الشيخ

خزعل أمير المحمّرة التعاون معه لمواجهة خروقات المراكب الحربيّة البريطانيّة في شط العرب، ارسل هو ايضا نسخا من الطلب الى البريطانييّن كما فعل ابن سعود قبله.

(Barker، The neglected War،London1967،p.36-37)

(د. علي الوردي/لمحات../المصدر- ج4/ص105-104).

الا انّ اخطر التحالفات التي جرت في المشرق العربي وأشدها تأثيرا على مستقبل المنطقة، هو انعقاد التحالف العسكري الميداني بين قوّات (الثورة العربيّة) التي كان يقودها امير مكة واولاده، وبين قوّات الحلفاء لقتال الاتراك واخراجهم من المناطق العربيّة. ومن خلال هذا التحالف تمّ اوّلا احتواء حركة الاستقلال في الشام وجعلها تنضوي بقياداتها وبمقاتليها الشجعان تحت قيادة الشريف حسين بن علي (وهذا يعني عمليّا تحت امرة الضباط الانجليز واستراتيجيّتهم) وبذلك حرمت من اسقلاليّتها وسرّيتها الذاتيّة وحرّية حركاتها.

وثانيا: وبفعل تحالف الشريف حسين مع بريطانيا، أصبحت ارض الحجاز من اقصى الجنوب وحتى الاردن وفلسطين وبقيّة بلاد الشام والعراق (شانها شان مشايخ الخليج العربي)، مسرحا مفتوحا لنشاطات ضبّاط المخابرات البريطانيّة والفرنسيّة والعناصر الصّهيونيّة وهي في مأمن تقريبا من سكانها باعتبار انّ هؤلاء الاوربيّين هم (حلفاء ومستشارين للشريف) من امثال تي لورنس وجون فيلبي ورونالد ستورس وبيرسي كوكس وحاييم وايزمان واخرين حيث اتيحت لهم فرصا جيّدة ليقوموا ببناء علاقات خاصّة لهم مع بعض زعماء قبائل المنطقة البدويّة، وكذلك ليضعوا اسسا وتنظيمات لهم تنسجم مع خططهم المستقبليّة في المنطقة.

لقد ظهر ذلك جليّا اثناء زحف قوات الثورة من الحجاز الى الشام. فقد قام (الخبراء العسكريّون الانجليز) المرافقون لقوّات الثورة العربيّة بالتخريب وهدم البنى التحتيّة كالجسور والقناطر وجميع المنشآت الحيويّة ومحطات القطارات التي كان من الممكن ان يستفيد منها العرب بعد اجلاء الاتراك عنها، لا سيّما ابنية المحطات وقضبان السكك الحديديّة ما بين المد ينة المنوّرة وحتى دمشق مرورا بمدن الاردن. كما امروا بهدم القلاع العسكريّة. لقد كان التخريب يتمّ باسلوب خبيث ومتعمّد يتعدّى ضرورات الحرب واعاقة النجدات التركيّة او تقدّم جيش الحجاز نحو الشمال. كما تعدّى نشاط هذه العناصر مسالة تقديم (الخبرة العسكريّة والاستشارة السيّاسيّة) ليشمل شراء الذمم والاتفاق مع بعض الزعامات العشائريّة البدويّة المتنفذة وتجميعها وتسليحها ومدّها بالاموال والذخيرة لتكون اداتها الضاربة على كلّ من يخالف بريطانيا في المستقبل.

وتنفيذا لهذه السيّاسة فقد تمّ عزل او تهميش القيادات التي لم ترضى بذلك كما حدث في قضيّة تجميد نشاطات الجنرال عزيز علي المصري رغم زعامته ونفوذه الواسعين بين ضباط الثورة العربيّة حيث جمّدت نشاطاته واضطرّ الى ترك الشريف حسين ومغادرة الحجاز

والعودة الى مصر والثورة العربيّة ما زالت في بدايتها.(د. نظمي/المصدر../ص 144).

واذا كان لعزيز علي المصري بلد يعود اليه (مصر) ودولة وحكومة وطنيّة راسخة الكيان والحدود، فانّ رفاقه العراقيين الذين كانوا في الشتات ولايزالون يتطلعون للعودة الى وطنهم وشعبهم وذويهم، والى مستقبل كريم لبلدهم، كيف سيكون شكلا وموضوعا؟ وهل ان لواقع الاحتلال البريطاني الجاثم عليه منذ عام 1914 من زوال؟ وهل في الجسد العراقي بعد من قوّة وبقيّة ارادة للوقوف والتصدّي مرّة اخرى بعد ان اجهز البريطانيّون على ثورة العشرين الوطنيّة الكبرى؟ من المؤكد انّ كلّ هذه الاسئلة وغيرها كانت تدور في ضمير ووجدان كلّ واحد من قيادات الصفوة العراقيّة وهي تعاني الامرّين: همومها الخاصّة وهموم الوطن.

كان الملاحظ على نشاطات الصّفوة العراقيّة والقادة الميدانييّن في بغداد والمدن المقدسة عدم اعطائهم الاولويّة في الخيارات لمسالة من سيكون على راس القمّة في العراق، بل كان الهدف الاساسي هو تحقيق كيان عراقي مستقل، وكذلك طبيعة النظام السّياسي في المستقبل، وكيف سيكون الحكم فيه وليس من سيحكم فيه. ولهذا جاء في جميع رسائلهم السرّية الى المؤتمر السّوري والى الشريف حسين بن علي والى الحاكم العسكري العام البريطاني في العراق تاكيد واضح وصريح على مسالتين: الاستقلال الكامل، وان يكون ملك العراق القادم وهو احد ابناء الشريف حسين بن علي على ان يكون ملكا دستوريّا مقيّدا بمجلس يمثل نوّاب الشعب تمثيلا حقيقيّا.

الصفوة العراقيّة 1919 - 1920

واجهت الصّفوة العراقيّة، باعتبارها طليعة الشعب العراقي، في اواخر القرن التا سع عشر عالما مضطربا وكانت منطقته (الشرق الاوسط التي يعيش في قلبها) اشدّ اضطرابا. فقد شهد العقدان الأخيران من ذلك القرن تنافسا دوليّا خطيرا بين الدّول الاوروبيّة الصّناعيّة من اجل بسط هيمنتها على بلدان العالم في اسيا وافريقيا وامريكا الجنوبيّة للسيطرة على ثرواتها.

وما ان بدا القرن العشرين الا وأصبحت معظم بلدان العالم امّا مستعمر او مستعمَر. وقد زاد التنافس بينها حدّة وخطورة بتطوّر الصّناعة ووسائل النقل الاليّة وازدياد حاجة المصانع الى المزيد من المواد الاوّليّة الخام وضمان مصادر الطاقة لمعاملها با سعار زهيدة لتقليل كلفة الانتاج وتحقيق اعلى نسبة من الارباح الماليّة. كما اكتشفت في تلك الفترة الاهميّة الحيويّة والاستراتيجيّة لمادة النفط، واصبح من المؤكّد في ذلك الوقت انّ في باطن العراق توجد احدى اكبر حقول النفط في العالم. وممّا زاد من حدّة الاضطراب والتنافس بين الدول الاوروبيّة انّ اصحاب رؤوس الاموال الضخمة فيها شعروا بالحاجة الماسّة الى ايجاد مجالات جديدة للاستثمارات الماليّة خارج حدود دولهم الاوروبيّة. لذا وللاسباب

المذكورة وغيرها وصلت الدّول الاوروبيّة الاستعماريّة الى حالة جنونيّة من التنافس والاحقاد الى درجة دفعت بشعوبها الى خوض غمار حرب كونيّة كبرى قذرة ومروّعة راح ضحيّتها الملايين من البشر، وهدّمت وخرّبت مئات الالوف من المدن والقرى، وشهدت اوروبا ومناطق اخرى من العالم الوانا من الماسي والكوارث ما تقشعرّ لها الابدان. هذا عدا ماخلفته من امراض بدنيّة ونفسيّة وعاهات لم تشهدها العصور السّابقة فضاعة ودمارا. تلك كانت ما اطلق عليها الاوروبيّون بالحرب العالميّة الاولى، والتي يصح ان نطلق عليها نحن ابناء اسيا وافريقيا واميريكا اللاتينيّة بالحرب العالميّة الاولى للقبائل البربريّة الاوروبيّة في القرن العشرين. والعراق باعتباره كان جزءا من ممتلكات الدولة العثمانيّة انذاك، فقد اصبح احتلاله هدفا رئيسيّا في الاستراتيجيّة البريطانيّة – الفرنسيّة في الحرب الواسعة التي تقرّر خوضها للتصدّي لاطماع الالمان الاقتصاديّة ونفوذهم المتنامي (منذ عام 1903 حينما حصلوا على امتياز امده 99 عاما لمشروع مد خط حديد الاناضول الذي يربط بين برلين وبغداد). (ا&ا.اف بينروز/العراق../ترجمة: عبد المجيد حسيب القيسي، ج- 1/ط1-/بيروت/1989/ص-67 70).

لقد كان معلوما انّ مشروع احتلال العراق سيكون سهلا لبريطانيا التي كانت تتطلع الى استكمال قبضتها على منابع البترول في المنطقة العربيّة برمّتها. وباحتلال العراق تكون بريطانيا بشكل خاص ايضا قد امّنت واستكملت حماية جميع خطوط المواصلات الامبراطوريّة لمستعمراتها الى الهند ولبقيّة مناطق نفوذها في اسيا وافريقيا وجميع سواحل شبه جزيرة العرب عبر قناة السّويس الى بحر العرب والمحيط الهندي. وكذلك تكون قد حالت دون تغلغل نفوذ الدول الصّناعيّة الاخرى المنافسة لها وخاصّة النفوذ الالماني الذي سبق وان وضع له موطيء قدم في افريقية وفي علاقاته مع الامبراطوريّة العثمانيّة الايلة للسّقوط انذاك.

الصّفوة العراقيّة والاحتلال البريطاني

نزلت القوّات البريطانيّة في جنوب العراق واحتلت الساحل العراقي المطل على الخليج العربي فدخلت مدينة الفاو في 6 تشرين الثاني 1914. ثمّ زحفت شمالا واحتلت البصرة في 22 منه، فكانت صدمة كبرى لسكان العراق بكافة مكوّناتهم. (Wilson ،T. Loyalties…p.8،)

لقد احدث الاحتلال الانجليزي للبصرة ردّة فعل كبيرة لدى غالبيّة الصّفوة العراقيّة السّياسيّة والاجتماعيّة والدّينيّة والتي كانت انذاك في بداية صراعها السّياسي مع الدّولة العثمانيّة منذ عام 1908 (عام الاصلاح الدّستوري). كما كانت نهضة الشعور القومي العربي ما زالت ضعيفة وفي دور النموّ البطيء، وكانت مقتصرة على عدد قليل جدّا من صفوة

المتعلمين في مدينتي البصرة وبغداد فقط، بينما كان الولاء الاسلامي للعرب وللكرد في ولاية الموصل (والتي تتضمّن كردستان العراق) هو المتغلب.

لقد ارسل صفوة علماء البصرة برقيّة الى علماء ومجتهدي الحوزة العلميّة في النجف وكربلاء والكاظميّة يطلبون فيها النجدة. كما قامت السّلطات التركيّة بشنّ حملة اعلاميّة تستنهض فيها الهمم وتثير الحماس الديني عند الناس (F.O.371،5081/ E13898/13/44). وكان الانجليز يعرفون اهميّة المشاعر الدّينيّة عند المسلمين، لذا اسرع السير بيرسي كوكس (الضابط السّياسي الاعلى المرافق للحملة البريطانيّة) بنشر بيان الى جميع المسلمين باللغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة اكد فيه "... بانّ القوّات الانجليزيّة تميّز بين المسلمين العرب والمسلمين الاتراك..

وبانّ القوّات الانجليزيّة ليس لها نزاع مع السكان العرب على ضفاف دجلة والفرات مازالوا يظهرون مشاعر الودّ والصّداقة...". وعند دخوله مدينة البصرة اعلن اثناء حفلة رفع العلم البريطاني على المبنى الحكومي.."... بانّ الانجليز ليست لديهم نوايا سيّئة ضدّ السكان المدنيّين... وانّ الانجليز سوف يحترمون حريّة المواطنين ويطبّقون العدل بينهم وانّ القوّات الانجليزيّة سوف تتصرّف بكامل الودّ والصّداقة مع المواطنين.."، الا انّ هذه التصريحات واخرى لقادة الانجليز لم تؤثر في موقف صفوة الحوزة العلميّة وعلماء الدّين في المدن المقدّسة؛ فقد تناسوا ما لاقوه من ظلم وجور وانتهاكات على ايدي الاتراك العثمانيين طيلة الاربعة قرون السّابقة تقريبا.. وقاموا على الفور بنشر الفتاوى بين سكان المدن وبين رجال القبائل في مختلف انحاء العراق معلنين فيها الجهاد المقدس ضدّ المحتلين. (F.o.371،5081/ e13698/13/44)

لقد دعا الى الجهاد وحمل السّلاح خيرة الصّفوة من العلماء على اختلاف اعمارهم ومكانتهم الدّينيّة والعلميّة وفي مقدّمتهم السّيد محمد سعيد الحبّوبي والشيخ مهدي الخالصي والسّيد محسن الحكيم والسيّد مصطفى الكاشاني والاصفهاني وعلي الدّاماد، حتى انّ بعضهم حينما ساهم بالجهاد، كان قد تجاوز من العمر سنّ الثمانين من امثال السيّد مهدي الحيدري من الكاظميّة... وقد اعلن هؤلاء العلماء فورا تشكيل ما اطلق عليه بـ " كتائب المجاهدين " . كما استجاب لنداء الجهاد ستمائة فارس من الكرد جاؤوا باسلحتهم وعدّتهم الى النجف وانضمّوا الى السيّدين محمد سعيد الحبوبي ومحسن الحكيم التي لعبت كتائبهم دورا بارزا في قتال المحتلين (السيّد محمد علي كمال الدين، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين... ص7 ـ 5). وقد تمركزت كتائب المجاهدين في ثلاث جبهات للتصدي وقتال الانجليز؛ فقد تمركزت كتائب السيّدين الحبوبي والحكيم في الشعيبة، وكتائب السّادة الحيدري والاصفهاني في قاطع القرنة (ملتقى دجلة والفرات) وكتائب الشيخ مهدي الخالصي في منطقة الحويزة (شرق نهر دجلة). وقد قاومت كتائب المجاهدين وقاتلت جنبا الى جنب مع القوّات التركيّة القوّات الغازية وكبّدتها خسائر كبيرة لا سيّما في معركتي الشعيبة ومزيريعة.

كان لفتاوى العلماء واشتراكهم الفعلي في القتال اثرا كبيرا على العشائر العربيّة سكان عربستان (الاحواز)، حيث قامت بقطع انابيب البترول ومناوشة القوّات البريطانيّة على ضفاف نهريّ الكارون وشط العرب مما دفع بالانجليز الى استعمال منتهى القسوة ضد المدنيّين من سكان القرى هناك، كما قاموا باعدام جملة من شبابها لكي تتم سيطرتهم على تلك المناطق ليؤمّنوا جناحهم الشرقي ووصول المؤن لجيوشهم. لذا فانّ عملية الضمّ القسري للامارة العربيّة (عربستان) الى ايران فضل لم تكن ايران ان تنساه لبريطانيا حيث ترجمت ذلك في حينه الى عقد اتفاقيّات وامتيازات لصالح شركات النفط الايرانيّة/ البريطانيّة (محمد طاهر العمري/ تاريخ مقدرات العراق/ج1 ص94).

لم تتوقف عمليّات كتائب المجاهدين في مقاتلة المحتليّن اثناء زحفهم الى بغداد. بل استمرّت تلحق بالبريطانييّن خسائر فادحة. وعلى الرّغم من ادّعاء البعض بانّ الاتراك لم يستفيدوا عمليّا من فتوى الجهاد والمجاهدين استفادة جيّدة فهذا قول ظالم وفيه اجحاف مقصود بحق العراقييّن، لانّ مسائل الخطط التعبويّة والاستراتيجيّة العسكريّة هي ليست من اختصاص العلماء والمجاهدين بقدر ماهي من اختصاص القادة واركان الحرب العثمانييّن الذين كانوا يديرون المعارك.

ومع ذلك وعلى الرغم مما كان عليه القادة الاتراك من غطرسة وغرور واستخفاف بالمجاهدين، الا انّ قوّات المجاهدين العراقييّن قد وفرّت للاتراك اسناد ثمانية عشر الف مسلّح وعشرات الالوف من جنود الاحتياط (في بلد كالعراق الذي لا يتجاوز تعداده المليونين انذاك)، كما لم يكلف المجاهدون الحكومة التركيّة عبء المؤونة والسّلاح والعتاد. فقد كان الفلاح المجاهد ـ على ما كان عليه من فقر ـ يبيع ما ببيته وما ادخره ليؤمّن شراء قطعة سلاح او عتاد طاعة للواجب الديني. وقد رفض السيّد الحبوبي ما عرضه عليه القائد التركي من ليرات ذهبيّة وقال للقائد لدينا المال نجاهد به، واذا نفذ المال فلدينا الارواح. (د.علي الوردي/ لمحات..المصدر/ج4/ص127 - 148).

لم تكن القوّات المجاهدة والمقاومة للاحتلال كافية لتصمد امام الجيش البريطاني الاكثر عددا واعدادا وتخطيطا وتسليحا، كما لم تكن موحّدة تحت قيادة مركزيّة (عراقيّة) ذات اهداف محدّدة. لقد كانت مجرّد قوّات اسناد ودعم للجيش التركي، وقتالهم للانجليز كان تعبيرا عن موقف منبثق من واجب شرعي لا يخلو في جوهره من شعور وطني (عراقي) وقد سبّب للانجليز اضرارا ولكنه لم يكن قادرا على حسم المعركة وابعاد حتميّة الاحتلال البريطاني للعراق. فبعد ان تمكن الإنكليز من اخضاع منطقة البصرة بكاملها بداوا يزحفون شمالا قاصدين بغداد التي لم يستطيعوا دخولها الا بعد تضحية وعناء شديدين وخسائر فادحة دامت ثلاث سنوات، كما لم تستطع احتلال الموصل بل دخلتها بعد الهدنة العامّة التي أعلنت في 11/11/1918، اي بعد انسحاب الجيش التركي منها. ان بطولات المقاومة العراقيّة للاحتلال لم يشهدها العراق فيما بعد الا في عام 2003 حينما استبسلت قوّات

صغيرة العدد من الجيش العراقي ومنعت الغزاة الامريكان طيلة سبعة عشر يوم من النزول في جنوب العراق (الفاو).

لقد اصبحت الصّفوة العراقيّة اثناء الاحتلال، والتي من المفروض انهّا تتحمّل المسؤوليّات، مجزّءة الولاءات مابين ولاء لمصالح نفعيّة كالوظائف في الدّولة العثمانيّة، وولاء اخر لعلماء الدّين ومتطلبا ت الاحكام الشرعيّة وفي مقدمتها واجب نصرة الحاكم (المسلم) وان كان ظالما،على الاجنبي (الكافر) وان كان انتصاره يرفع الظلم عنه. وهناك فئة اخرى من الصّفوة بدات تعدّ نفسها وتوثق علاقاتها مع السادة الجدد (الانجليز) وغالبيّتها من كبار الموظفين السابقين لدى الدولة العثمانيّة المنهارة كبعض اعيان المدن وزعماء القبائل. ولم نجد ايّ مؤشر في تلك المرحلة على وجود مشروع وطني رصين (عراقي) يوحّد تلك الولاءات المتعدّدة من اجل هدف وطني واحد مشترك.

لقد دخل قائد القوّات البريطانيّة الجنرال مود بغداد في 19مارس/اذار1917على راس قوّاته المنتصرة وهو عارف للمعنى الكبير لتلك اللحظة التاريخيّة وايّ مدينة اصبحت في قبضته (بغداد) فاعلن عبارته الشهيرة بانه جاء محرّرا لا فاتحا. وانّ هدف حكومته هو تحرير العرب والاخذ بأيديهم نحو المجد واعادة شهرة العراق بين شعوب الأرض. كما دعا في بيانه اعيان العراق وقادتهم الى التعاون معه والمساهمة في ادارة بغداد... (F.O.371،5081/ E13898/13/4).

لقد راى العراقيّون في بيان الجنرال مود، وفي تصريحا ت المارشال السير دبليو. ار.مارشال (الذي اصبح قائدا للقوّات البريطانيّة في العراق بعد موت الجنرال مود المفاجيء في 18 تشرين الثاني/نوفمبر1918)، وكذلك بما جاء في البيان الانجليزي/الفرنسي في 8 نوفمبر1918 بشائر مستقبل جديد للعراق. وقد قوّى اعتقادهم بصدق الوعود واقع ضعفهم وتخلفهم الذي وضعهم وجها لوجه امام خيارين: امّا قبول التعاون مع واقع الاحتلال الجديد او رفضه. لذا فانّ طليعة الصّفوة الاجتماعية والسّياسيّة اختارت في اوّل الامر طريق التعاون مع الادارة البريطانيّة من اجل بناء عراق حديث (د.خالد التميمي/المصدر../ص85).

لقد أصبحت وعود الحلفاء لمساعدة حلفائهم العرب (والعراق في مقدمتهم) انذاك دينا ثقيلا والتزاما اخلاقيّا مرهقا على كاهل بريطانيا. فبقدر ما يتعلق الامر بالعراق لم تتخلص من ذلك الالتزام الا بخلق الظروف الموضوعيّة بتحويل (التحرير) الى (احتلال) كما فعلت بعد ان أخمدت ثورة العشرين الكبرى عام 1920، ثمّ كرّرت ذلك بعد ثلاثة عقود تقريبا، حينما احتلت بغداد عسكريّا مرّة اخرى بعد ان قضت على حركة مايس (رشيد عالي الكيلاني) المسلحّة عام 1941، وكانّ التاريخ يحلو له ان يعيد نفسه في عام 2003 حينما استبدل الاميركان والقوّات المتحالفة معهم؛ عبارة (التحرير) من نظام صدّام حسين بعبارة (الاحتلال).

الصّفوة العراقيّة والادارة البريطانيّة المباشرة 1914 ـ 1920

حينما احتلّ الجنرال مود بغداد عام 1917، كان المجتمع في ولاية بغداد نشكل خاص الاكثر تماسكا وتميّزا في شعوره بالوطنيّة العراقيّة قياسا الى المناطق الاخرى في ولايتي الموصل والبصرة. لقد كان مجتمعا متنوّعا دينيّا وعرقيّا ومذهبيّا، وكان ابرز البغداديّن ثقافة وتعليما هم العرب السّنة ثم يليهم اليهود والمسيحيّون. فبحكم تمتّع العرب السّنة بامتيازات الدرجة الاولى في المواطنة العثمانيّة(في التعليم والادارة والسّوق التجاري)، فقد أصبحوا هم الاكثر كفاءة وتحصيلا ومؤهلات للادوار المطلوبة منهم مدنيّا وعسكريّا. امّا اليهود فقد كانت لهم منزلة كبيرة بسبب عددهم الكبير وثقافتهم ومدارسهم الخاصّة. اذ كان تعدادهم في بغداد لوحدها ثمانون الف نسمة من مجموع 202 الف نسمة،بينما كان عدد المسلمين من العرب السنة والشيعة والاتراك مئة وواحد الف وأربعمائة نسمة،وكان عدد الاكراد (واغلبهم فيليّة) ثمانية الاف، وعدد الايرانيّن ثمانمائة فقط، وقد جاء في تقرير الادارة البريطانيّة في بغداد لسنة 1920 بانّ لليهود اهميّة كبيرة في بغداد.."..كما كان لهم المكانة الاولى في المستوى الاقتصادي في العراق.."، وبسبب موقعهم واهميّتهم انذاك ولخوفهم من هبوط موقعهم.."..فقد طالب زعماء اليهود من الادارة البريطانيّة في بغداد ان يسمح لهم ان يكونوا مواطنين بريطانيين وتحت حكم بريطاني مباشر في العراق..". راجع: (The Jews Of Iraq ، pp.210/211، N. Regwan، London 1985، W.&Nicolson Ltd.)

باشر المحتلون البريطانيّون منذ ان وطأت اقدامهم جنوب العراق، في انشاء الادارة المدنيّة لتسير جنبا الى جنب مع زحف قوّات الاحتلال العسكري من الجنوب الى الشمال وضمّها منطقة منطقة والذي دام ما يقارب الاربعة سنوات. وعلى الرّغم من ان الانجليز قد أبقوا على الكثير من انماط الادارة والقوانين العثمانيّة التي اعتاد عليها العراقيّون، بهدف الاستفادة منها لتحقيق الاستقرار ثم التخلص منها تدريجيّا، الا انهم قد بداوا فعلا في ادخال تعديلات وتغييّرات اساسيّة عليها عند التطبيق. وبذلك فتحت الادارة البريطانيّة نافذة واسعة ليرى ابناء العراق من خلالها واقعا جديدا وقيما حديثة في كل بقعة من وطنهم الذي اصبح يدار ويحكم من قبل الموظفين البريطانيين مباشرة. كما بدات الادارة البريطانيّة في نفس الوقت تشجّع العراقيّن ليباشروا بانفسهم تدريجيّا تولّي مسؤوليّات الادارة المدنيّة ليعطوها مظهرا عراقيّا. وكمثل على ذلك انّ البريطانيّين حالما باشروا بتنظيم الادارة في البصرة، بداوا بوضع نظاما للتعليم. وفعلا تمّ تنظيم دائرة المعارف تحت مظلة الادارة الماليّة واصبح فون ايس Von Ess مديرا للدّائرة التعليمية في البصرة (وقد كان راعيا لبعثات مسيحيّة ومديرا للمدرسة الامريكية في البصرة قبل الاحتلال) وقد بذل هو وحسني عبد الهادي ـ من فلسطين ـ جهودا كبيرة لانشاء منظومة المدارس الابتدائيّة (د.خالد التميمي/المصدر../ص87)، (Wilson، Loyalties…p.278). وبقي اهتمام البريطانيين بانشاء المدارس وتنظيم ادارات التعليم

كبيرا وله الاولوية باعتباران العلم والمعرفة هما اساس كلّ تطوّر وتقدّم لايّ مجتمع يشيّد دولته.

وبزحف البريطانيين شمالا كانت عملية انشاء الادارات المدنيّة في الالوية مستمرّة وفي مقدمتها انظمة التعليم كما أشرت ففي بغداد وبعد الاحتلال مباشرة في مارت/اذار عام 1917 تمّ تأسيس لجنة تعليميّة من قبل الرائد ام. بومان Major Bowman المعار من وزارة التعليم المصريّة) ومن عضويّة 31 عراقي ممن عرفوا بالاختصاص وبالدراية في شؤون التعليم وفي مقدمتهم محمد جعفر أبو التمّن (عربي مسلم وأبرز مؤسّسي المدرسة الجعفريّة في العهد العثماني) والعالم الاديب الاب أنستاس الكرملي المسيحي الكاثوليكي وحمدي بك بابان المسلم الكردي والعالم الاديب شكري افندي الالوسي وابن عمّه القاضي علي الالوسي وجميل صدقي الزهاوي احد كبار شعراء العراق، (F.O.371،5078/E11293/13/44). وقد دعيت كافة الطوائف والاديان والمذاهب للتدريس او للدراسة في المدارس على اسس المواطنة العراقيّة وتوظيفهم بالتساوي. الا انّ خلافا دبّ بين اعضاء اللجنة والرّائد بومان حول مهمّات اللجنة العراقيّة "هل ستبقى استشاريّة بحتة دون ان تكون صلاحيّاتها تنفيذيّة؟"

وبعد حوارات واصرار بومان على ابقائها بصفة استشاريّة لاتنفيذيّة، كان محمد جعفر ابو التمّن الوحيد من اعضاء اللجنة قد قدّم استقالته في 1 حزيران 1919، فكانت من اوائل مؤشرات الاختلاف بين زعماء الصّفوة العراقيّة وبين ادارة الاحتلال.

لقد وجد العراقيّون مزايا جيّدة في الادارة والحكم البريطاني المباشر اوّل الامر؛ فقد حلّت الكفاءة العالية والاختصاص محلّ التخلف والفوضى العثماني. كما راوا نزاهة عالية لدى الحاكم الاداري البريطاني بعد قرون من الفساد والرّشوة والمحسوبيّة التي اشتهر بها الموظفون الترك العثمانيّون. كما وجد العراقيّون الامن والاستقرار بدل الظلم والتعسّف وفساد القضاء التركي. لذا وبدون قصد منها، فقد اثرّت ادارة الاحتلال البريطانيّة المباشرة على زيادة الوعي السّياسي وتنامي الطموحات المشروعة التي دفعت بالحركة الوطنيّة الى التطلع لنيل الاستقلال التام. فقد بدا العراقيّون يتعاملون مع الانجليز في اوّل الامر من منطلق حسن النّوايا بالوعود وبالتصريحات (بانهم جاؤوا محرّرين لا فاتحين) وساهم القادة الوطنيّون من الصّفوة العراقيّة بجد في اعادة النظام والحياة الى مؤسّسات الدّولة جنبا الى جنب مع المستشارين البريطانيّين حتى في ترتيب الاوقاف الدّينيّة. لقد وجدوا انفسهم في ظلّ الادارة البريطانيّة قادرين على التعبير عن مشاعرهم وارائهم بكامل الحريّة عبر الصحف المجازة، اوعبر تنظيم التظاهرات والاجتماعات او تقديم العرائض الى اعلى مسؤول بريطاني داخل العراق وخارجه، حتى انّ بعض البسطاء من الناس كتبوا عرائض الى ملك بريطانيا وارسلوها الى لندن يطالبونه فيها ببعض الحقوق الخاصّة بهم، بينما كان على العكس من ذلك لا يستطيعون مناقشة اصغر رتبة من منتسبي الشرطة العثمانيّة او ايّ موظف حكومي عثماني في مسائل الحقوق.

لقد اصبح العراقيّون بالتدريج يطمعون ان يكون دورهم تنفيذي وليس استشاري فقط في ادارة بلدهم، ثمّ اخذ الشك في نوايا البريطانييّن يراودهم حتى قبيل استقالة محمد جعفر ابو التمّن؛ فحينما القى الكولونيل ولسون، المندوب المدني، كلمته في حفل مأدبة اقيمت في بغداد بمناسبة عيد ميلاد الملك جورج الخامس في 29 ايار/مايس1919 وشرح في كلمته تلك، نظام الحكم الذي يمكنّ سكان العراق من نيل نصيبهم في ادارة شؤونهم. وبيّن انّ القصد من ذلك اعطاء العراق ككل وخاصّة العناصر الوطنيّة صيغة اداريّة مقبولة. وبموجب ذلك اعيد تقسيم البلد اداريّا الى اربعة عشر لواء (محافظة). وتبعا لذلك تتنظم الادارة باليّة استشاريّة تتألف من مجالس اعضاؤها من الوجهاء المحليين يتم اختيارهم من كل منطقة. وهكذا ايضا وبنفس الطريقة تنتظم دوائر الدّولة ويعيّن موظفوها. كما اشار ايضا امام الحضور؛ بان ادارة المدن الكبرى (بغداد والموصل والبصرة) قد انيطت الى المجالس البلديّة المحليّة التي تتحكم بالشؤون البلديّة على ان تخضع للاشراف العام من قبل الضابط السّياسي (البريطاني).

(د. خالد التميمي/المصدر- ص90 - Ibid ،P.349))

كانت الصّفوة من الوجهاء والاعيان العراقيين على درجة عالية من الوعي والشعور بالمسؤوليّة الوطنيّة بحيث ادهشت المحتليّن،وقد تجلى ذلك اثناء مناقشاتهم مع الاداريّن و والمستشارين البريطانييّن العسكرييّن منهم والمدنييّن على الرّغم من المغريات المادّية والمعنويّة البريطانيّة وفي مقدمتها اغراءات توزيع مناصب الدّولة الجديدة. فقد اختار الضابط السّياسي والحاكم العسكري لبغداد الميجر فرانك. سي. سي. بلفور F. C. C. Balfour اثني عشر عضوا للمجلس البلدي في بغداد؛ كان منهم ستة اعضاء مسلمين، وثلاثة مسيحيّين، وعضو يهودي واثنين من البريطانييّن ممثلين عن الشركات البريطانيّة العاملة في العراق. وحينما عقد الاجتماع الاوّل للمجلس كانت المناقشات صعبة، حيث وجّه محمد جعفر ابو التمّن انتقادا شديدا لمسّودة قانون البلديّات الذي وضعه العقيد اي.بي. هاول E.B.Howell وهو ذو خبرة في شؤون الادارات المحليّة " حيث سبق له وان اشتغل ضابطا سياسيّا في مدينة العمارة في 13/10/1916 وكان ايضا ضابطا سياسيّا في الناصريّة في 1/2/1917، كما عمل مساعد مسؤول الجمارك في البصرة في 1/10/1917 ثمّ حاكما عسكريّا لبغداد في 23/9/1918 ثمّ ضابطا سياسيّا في مناطق الفرات الاوسط في 1/9/1920. (د. التميمي/ المصدر../ص 90).

انّ الحوار الذي دار داخل المجلس كان حول الكيفيّة التي يجب ان يتمّ بها انتقاء اعضاء المجالس البلديّة في العراق. لقد حبّذ اعضاء المجلس بالاجماع طريقة الانتخاب، غير انهم انقسموا بصورة متعادلة حول طريقة الانتخاب؛ ففضّل فريق وفيه ابو التمّن وعلي البزركان ويوسف السّويدي ان يكون الانتخاب وفق القانون التركي القديم (الذي يشترط في المرشح ان يكون له دخلا سنويّا لا يقل عن 2500 ليرة مجيدي " مع استثناء تلقائي بابعاد المجرمين المدانين.. "بينما فضل الفريق الاخر الانتخاب باسلوب (اختيار جماعة الناخبين) تتالّف

من 500 الى 600 ناخب عن كلّ قطاع يتمّ اختيارهم من قبل المختار(العمدة او شيخ البلد)، وبشرط ان تتم الموافقة عليهم من قبل الجهاز المركزي للتدقيق. كما اصرّ جعفر ابو التمّن على ان يكون رئيس المجلس والاعضاء من ذوي الوظائف المهمّة منتخبين لا معيّنين، كما طلب ان يكون المرشحون لانتخابات الدّائرة البلديّة ملزمين باثبات هويّتهم العراقيّة (عراقيّتهم). وبعد حوارات ساخنة وتعنّت البريطانيين داخل المجلس استقال ابو التمّن في كانون الثاني 1919 ثمّ تبعته استقالات اخرى من مؤيّديه في شباط/فبراير 1920 متزامنا مع استقالة المجلس البلدي في مدينتي الشاميّة والنجف برمّته بعد الاجتماع الاوّل له، فكانت تلك مؤشرات واضحة لاستياء العراقيين وبداية النذر لتمرّد عراقي واسع النطاق. (د. خالد التميمي/ المصدر/92-91)، (Bell، G،Review،،pp.132-)135.

لقد أصبحت الادارة البريطانيّة المباشرة واقعا مفروضا على العراقيّن وليس للعراقيّ يد في وقوعه، بما في ذلك سلطة تلك العناصر العراقيّة المتعاونة مع المحتلّين. لانّ حدثا عظيما كاحتلال بلد (او بلدان) غالبا ما يكون لاسباب مجتمعة، سياسيّة واقتصاديّة وعسكريّة، وهي في الغالب تكون المحصّلة النهائيّة والحتميّة لتلك العوامل وضمن السّنن التاريخيّة لطبائع الامم وسلوك حكامها في ادارة شعوبهم.

تطوّر الوعي عند الصّفوة العراقيّة 1914ـ1919

جاءت الادارة البريطانيّة المباشرة لتفتح نوافذ واسعة للعراقيّن ليطلّوا منها على واقع جديد وقيما لم يألفوها من قبل؛ يروها تدبّ وتطبّق في كلّ بقعة من وطنهم وفي مقدّمتها انّ بلدهم اصبح يدار ويحكم بشكل مباشر من قبل محتلّين جدد وهم الإنكليز (الذين لم يرونهم من قبل). كما وجدوا مزايا جيّدة في الادارة والحكم البريطاني.فقد حلّت الكفاءة العالية والاختصاص محلّ التخلّف والفوضى التي عرف بها العثمانيّون. كما راوا نزاهة عالية لدى الاداري البريطاني بعد قرون من الفساد والرّشوة اللذان اشتهر بهما العثمانيّون في الادارة والتجارة وحتى في القضاء والحكم. كما وجد العراقيّون العدالة والامن والاستقرار بدل الظلم والتعسّف واخذ الاتاواة سواء من قبل الاداريّن العثمانيّن او من قبل ذوي السّلطة والنفوذ المحليّن (البلطجيّة والشقاة) الذين اشتهرت اسماؤهم يشكل خاص في بغداد والبصرة. ((ومن الطريف ذكره انّ جدّة المؤلّف لابيه التي عاصرت اواخر العهد العثماني وفترة الادارة البريطانيّة وتوفيّت قبل اشهر من سقوط الملكيّة في 1958، غضبت عليه يوما وزجرته رغم رعايتها وحبّها الخاص له، لانّها سمعته قد اشترك في تظاهره يشتم فيها الاستعمار البريطاني ! وقالت له: الا تعلم يا بني بانّ الانجليز اصحاب اخلاق وعدالة وهم الذين خلصّونا من ظلم العثمانيّين وجور الشقاوات واتاوات العصابا ت العراقيّة !!)).

وبشكل عام لقد اصبح مقبولا بين النّاس القول بانّ للادارة البريطانيّة السّياسيّة

والعسكريّة التي تشكلت خلال فترة الاحتلال دور اوّلي هام في زيادة الوعي السّياسي وتنامي الطموحات الوطنيّة التي دفعت بالحركة الاستقلاليّة نحو الامام. فقد وجد الوطنيّون انفسهم في ظلّ الادارة البريطانيّة الجديدة قادرين على التعبير عن مشاعرهم وارائهم بحريّة على صفحات الجرائد المجازة، او عبر تنظيم التظاهرات والاجتماعا ت او بتقديم العرائض الى اعلى مسؤول بريطاني داخل العراق وخارجه. حتى انّ بعض البسطاء وذوي المواقع البسيطة المتواضعة كتبوا عرائض الى ملك بريطانيا يطالبون فيها انصافهم، بينما كان العكس من ذلك في العهد العثماني اذ لايستطيعون مناقشة اصغر رتبة من درك الشرطة العثمانيّة او ايّ من المسؤولين في الادارة العثمانيّة.

وعلى العموم فقد شهد العراق خلال سنوات الاحتلال وحتى بداية 1919 سياسة انكليزيّة ليّنة تميّزت بانتعاش اقتصادي ونشاط لميناء البصرة حتى سمّي بالغليان التجاري (د. علي الوردي/لمحات – المصدر..ج4/ص 124-122). كما تميّزت كذلك با لتّسامح واتباع اسلوب تهدءة الخواطر العامّة، وبدت لعموم القادة الوطنييّن وكانّها تطبيقا للوعود التي قطعتها الحكومة البريطانيّة على نفسها بمنح العراقييّن الاستقلال الوطني؛ وكما يبدوا فانّ العديد من صفوة الزّعامات العراقيّة في المدن الكبرى والارياف قد تعاونت مع ادارة الاحتلال منتظرين تنفيذ الوعود.

ومع انّ صفوة الزعامات الدّينيّة قد اتخذ ت موقف المترقب للاحداث على الرّغم ممّا ابداه الانجليز من احترام للمناسبات والطقوس الدّينيّة وارجاع 107 من ابناء النجف الذين نفوا الى الهند خلال عمليّات تقدّم القوّات البريطانيّة في العراق، وعلى الرّغم من الحيف والقيود التي كان قد وضعها العهد العثماني على المسلمين الشيعة (F.O.371،5081/ (E13898/13/44)، (S. H. Longrigg، Iraq 1900 1950،P93 وضمن هذا السّياق من العلاقات والاجواء الايجابيّة، قام علماء من النجف وكربلاء بارسال برقيّات مجاملة الى الملك جورج الخامس تعبيرا عن حسن مشاعرهم ازاء اعتدال وتعقل القوّات البريطانيّة المحتلة. كما بعث وجهاء واعيان من شيعة بغداد والكاظميّة برسائل شكر وامتنان الى الحاكم العسكري البريطاني لحزمه في الحفاظ على النظام خلال الاحتفالات الشيعيّة ايّام شهر محرّم 1918. لقد كان هنالك شعور بالارتياح في جميع انحاء العراق تقريبا لا سيّما في بغداد بشكل خاص حيث ازدادت الامال في ظلّ المساعدة البريطانيّة. فقد راى العراقيّون في بيانات القائدين مود والجنرال مارشال (الذي اصبح قائدا للقوّات البريطانيّة في العراق بعد وفاة الجنرال مود في 18 تشرين الثاني/نوفمبر1917) وكذلك ما وجدوه في البيان الإنكليزي الفرنسي من بشائر حياة جديدة ومستقبل افضل. (Ireland، P.W.op.cit.pp 155، 459) فقد"...كان مكتب الضابط السياسي العام يستقبل كل وجهاء المدينة والمناطق الداخليّة،وعلى راسهم النقيب المسن عبد الرحمن الكيلاني وشيوخ القبائل من كلّ اطراف البلاد..." (Longrigg ،ibid.pp.91- 93).

التحوّل البريطاني اتجاه الصّفوة العراقيّة

بدافع من الاعتقاد بصدق الوعود البريطانيّة والتطلّع الى بناء عراق حديث، والشعور بواقع ضعف وطنها المادّي والمعنوي، وبعضها مرتزقة، تعاونت في باديء الامر غالبيّة الصّفوة العراقيّة مع الادارة البريطانيّة ولو بدرجات متفاوتة. وذهب الوطنيّون المتعاونون في تصوّراتهم بانّ (الاستقلال التام) بات قاب قوسين او ادنى. وبذلك وقع العراقيّون في الخطا نفسه الذي وقع فيه الشريف حسين بن علي ملك الحجاز وقادة الثورة العربيّة الكبرى الذين صدّقوا وعود الحلفاء بحسن نواياهم في تحريرهم من ظلم الاتراك واقامة دولة عربيّة موحّدة بادارة وطنيّة مستقلة اذا ما ثاروا ضدّ الاتراك. ولم يدر بخلد القادة العرب ـ وهم اقرب الى فطرة البداوة منه الى الحضارة ـ ان القادة الغربييّن الذين فاوضوهم مباشرة وراسلوهم وهم من ذوي الاسماء اللامعة والوظائف الكبرى من امثال ونستون تشرشل ومكماهون وستورز والجنرال اللنبي ومود وولسون ومارشال ولورنس واخرين سوف لايحترمون وعودهم، بل ويكذبون عليهم،فالبدوي لا يعرف غير الاحكام القاطعة الحديّة: فامّا حق او باطل وامّا صدق او كذب، وبقي الشريف حسين بن علي مخدوعا بهم حتى وهو في اواخر ايّامه (في منفاه في جزيرة قبرص الذي اختاره له البريطانيّون) يطالب سجّانيه البريطانييّن ان يلتزموا بشرف الوعود التي كالوها له. بينما يرى الحلفاء انّها كانت مجرّد مناورات ومكر وعمليّة (بلف) ولعب سياسيّة تقتضيها واقعيّة الظروف لتحقيق اهداف محدّدة وحسب مبدا قدوتهم الاعلى ميكافيللي "الغاية تبرّر الواسطة". (د.خالد التميمي/المصدر/86 -85)

بدا الموقف البريطاني بالتحوّل كلما زاد الوطنيّون من مطالبتهم بالاستقلال الكامل. وبدا الوطنيّون يلاحظون هذا التحوّل من خلال تطبيق البريطانييّن سياسة بناء مؤسسّات الدولة العراقيّة الجديدة وتجميع وتوظيف المؤيّدين لفكرة بقاء العراق تحت السّيطرة البريطانيّة فقط كما لاحظ الوطنيّون انّ عمليّة التجميع كان يرافقها تدريبا ودعما ماليّا ومعنويّا بشكل منظم ومبرمج واعدادهم تنظيميّا من اجل هيمنة (هذه الفئة) على مستقبل العراق السّياسي والاقتصادي.

لقد انيطت مهمّة رسم هذه السّياسة الى لجنة تابعة لوزارة الخارجيّة البريطانيّة برئاسة اللورد كيرزن. وقد انقسمت هذه اللجنة الى رايين متضادين؛ فالراي الاوّل تبناه موظفوا وزارة الخارجيّة البريطانيّة في لندن والقائل بامكانيّة حكم العراق حكما غير مباشر وذلك باقامة حكومة عربيّة تكون واجهه تتستر وراءها بريطانيا، وبذلك تتخلص من التزاماتها والوعود التي قطعتها على نفسها للعراقين وللشريف حسين بن علي، كما ستخفّف بريطانيا عن نفسها الاعباء الماليّة والبشريّة التي يحتمهّا الحكم المباشر للعراق. وهذا الحل سيجعل الحكومة البريطانيّة ايضا في منجى من مضايقات الرّاي العام البريطاني والاوروبي الذي يطالب حكوماتها بموقف اخلاقي حول مسالة خذلان الحلفاء لاصدقائهم العرب ومطالبتهم بتطبيق البلاغ الانجليزي/ الفرنسي القاضي بتشكيل حكومات عربيّة مستقلة وكذلك حول

ما جاء ببنود الرئيس الامريكي ولسون الاربعة عشر التي تؤكدّ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

امّا الراي الثاني فهو الذي تبنته حكومة الهند (البريطانيّة) والذي يؤكد على ضرورة حكم العراق حكما مباشرا من اجل ضمانة وتعزيز سلامة المواصلات للامبراطورية البريطانيّة وحماية الهند والشرق الاوسط (لا سيّما المصالح النفطيّة لبريطانيا في ايران والعراق) من خطر الثورة البلشفيّة في روسيا المتنامي انذاك وهو غير بعيد جغرافيّا عن المنطقة.

ان سقوط الدولة العثمانية (الاسلامية) وخروج العراق بولاياته الثلاث كلّيا من هيمنتها ودخولها تحت الهيمنة البريطانية (الاوروبيّة المسيحيّة) كانت اوّل واقوى هزّة اثّرت في الصفوة العراقيّة ـ بكافة اطيافها والوانها ـ وعلى كافّة المستويات الماديّة والاخلاقيّة. فقد جاءت الاحداث سريعة ومتتابعة خلال (1914-1921) ووضعت اصناف المجتمع العراقي بسرعة ولاوّل مرّة امام واقع جديد لم تالفه من قبل، وهو الاحتلال العسكري البريطاني، مما ولّد من داخله حركة جديدة لمواجهته شاء ام ابى وهي الحركة الوطنيّة المشروعة لمقاومة المحتلّين.

وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالمجتمع العراقي الا ان صفوته استطاعت ان تواجه الظروف الجديدة وتقوده بوعي وحكمة وارادة وبكل ما لديها من قدرات واساليب؛سواء كانت باساليب تعاون ومسالمة بانتظار تنفيذ الوعود تارة، ام باساليب ثورية عنيفة مسلحة تارة اخرى. كلّ ذلك جعلها قادرة على ان تحقق انجازات عظيمة في خدمة المجتمع، كانت اكثرها وضوحا وتألقا في التاريخ الحديث هي انشاء مملكة عراقيّة موّحدة ككيان مستقل بحدوده الدوليّة المعروفة اليوم على خارطة العالم وقبل ان تقضم منها بعض الاجزاء فيما بعد وبرضى من قيادات سياسيّة - تدّعي الثوريّة - غير كفوءة التي قوّضت دولة الملكيّة وعاشت بعد تقويضها على بقايا ما هدّم منها من امجاد وكفاءات على مختلف الاصعدة، ولم تنفك تهدّمه وتخرّبه وتسرقه حتى اعادته الى وضع أسوء مما كان عليه في مطلع القرن الماضي.

وانه لملفت للنظر ان صفوة المجتمع وقادته في بداية القرن الماضي، مع اختلاف وجهات نظرهم، واجهوا سوّية بحكمة وبمسؤوليّة عاليّة الاوضاع الجديدة انذاك وحققوا للعراق الكثير من المنجزات على الرغم من موروث التخلف الشامل للعراق على كافة المستويات (قدّرت نسبة الاميّة بين افراده انذاك تزيد على 85 % لسكان لايتجاوز عددهم المليونين نسمة). وعلى الرغم من الاوضاع الدوليّة المعقّدة وحالة الانعزال شبه الكامل بين المناطق العراقية وتواضع الدّخل القومي، فقد تعاون ميدانيّا ابناء المناطق الشماليّة مع ابناء البادية والسهل الوسطي والجنوبي للدفاع عن العراق واهله ووضعوا مصلحته فوق كل اعتبار مضحّين بكل غال ونفيس بما في ذلك مصالح مناطقهم القوميّة الخاصّة من اجل كل العراق. انّ هذا يدل على ان العوامل التاريخيّة العميقة الجذور والوان التحدّيات الخطيرة والمفاجئة احيانا، وحّدت

وستبقى توحّد سكان وادي الرافدين وتقوّي شعور الاعتزاز والفخر بالانتماء اليه على مرّ العصور، وهذا ما نزعم تأييده بعنوان (الوطنيّة العراقيّة). وبقدر مستوى التحدّيات تقوى او تضعف مشاعر(الوطنيّة) هذه لدى عموم العراقيين، بما فيهم الصّفوة، اذ تصبح الاولويا ت للذات (ولو لفترة قصيرة) ثم لا يلبث الواقع اليومي المعاش وقراءة المستقبل يؤكد للجميع انّ لا يمكن تحقيق المصالح الذاتيّة الا ضمن اطار المصالح العليا للشعب العراقي بكافة اطيافه و للوطن العراقي بكامله.

انّ من اهم مظاهر التحول للسيّاسة البريطانيّة خلال فترة الادارة العسكريّة (1914 - 1919) هو نقل الحاكم السّياسي العام في العراق (السيّر بيرسي كوكس) الى طهران والجنرال مكماهون الى الهند " ...وهما اللذان عرفا بسياسة الاعتدال اثناء عمليّات احتلال العراق.. " واستبدالهما با ي.تي. ولسون، والجنرال هالدين ليديرا الشؤون السّياسيّة والعسكريّة في العراق، وقد عرف كلاهما بتحمّسهما (برسالة الرجل الابيض) في ادارة وتطوير الشعوب (المتخلفة). وكذلك اعتقادهما بعدم قدرة العراقييّن على حكم انفسهم. كما تميّزت سياستهما بالطيش وباستفزاز الراي العام العراقي والاستهانة بالصّفوة الاجتماعيّة المحترمة وبزعمائه الوطنييّن.

موقف الادارة البريطانيّة من النجف وكربلاء

أراد اي. تي. ولسون في اوّل الامر التقرّب من العلماء لا سيّما في المدن المقدسة النجف وكربلاء بعد ان بقيتا حتى بعد سقوط بغداد بعيدتان عمليّا عن الادارة البريطانيّة وتدار من قبل ابنائها، ولم يرغب الانجليز الاصطدام بهاتين المدينتين المقدستين او احتلالهما عسكريّا (وكان من السّهل عليهم تحقيق ذلك) لئلا يسبب ذلك ردود فعل وغضب لدى مسلمي الهند وايران بشكل خاص. فاكتفوا بوضع قوّاتهم خارج حدود المدينتين.

كانت الادارة العسكريّة لولسن قد تلقّت معلومات عن النشاطات السّريّة النجفيّة لمقاومة المحتلّين. ومن الامور التي لابدّ من الاشارة اليها، هو انّ الحركات الاسلاميّة (السريّة والعلنيّة) في جميع المناطق الاسلاميّة تقريبا لاتهتم كثيرا بالمنهاج السّياسي المكتوب (النظام الداخلي) او بخرائط التنظيم حتى وان وجدت. بل انّ من غير الصواب مقارنة الاحزاب الاسلاميّة بالاحزاب الغربيّة ذات التطوّر الخاص بها اقتصاديّا وفكريّا واجتماعيّا. وبينما نرى الاحزاب السّياسيّة العراقيّة في العصر الحديث تقترب كثيرا من اساليب ومناهج المسلمين الاوائل في التنظيمات والتحرّكات والاتصالات بين منتسبيها كلما كانت قريبة من الاسلام كعقيدة للدعوة، بينما تقترب اكثر ولو شكليّا الى المنهج الاوروبي واسلوبه (في الدول الديمقراطيّة الحديثة) كلما كانت أيديولوجيّة التنظيم خارج حدود العقيدة الاسلاميّة وقريبة من الانماط الحديثة. واستنادا الى ما تقدّم فقد كان من الطبيعي منذ بداية القرن العشرين ان ينتمي

العاملون في التنظيمات الاسلاميّة الى اكثر من تنظيم او حزب في نفس الوقت، حيث ينشط العاملون داخل اطارها جميعا وبنفس الحماس ولا يجد في ذلك خطا او ضيرا، بينما على العكس في الاحزاب العلمانيّة، فانها تعتبر ذلك خيانة قد تصل عقوبتها الاعدام لمرتكبيها حتى انّ (بعض مرتكبيها قد نفذت العقوبة بهم وبأثر رجعي كما فعل حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم خلال العقود الثلاثة الاخيرة من القرن العشرين في العراق).

لم يتطلب تشكيل "الحزب النجفي السرّي" سوى اتفاق مجموعة من صفوة القيادات المتميّزة واختيار مكان يفي لغرضين: سلامة الاجتماعات وحفظ موجودات الحزب من مداهمات القوّات البريطانيّة. ولهذا فقد اختيرت في عام 1918م غرفة متواضعة من غرف معزولة في مدرسة الملا كاظم الخراساني في محلة الحويش في النجف الاشرف لتكون مقرّا للحزب الجديد. كما اتفقت قيادات مرموقة من كبار علماء الدّين والشخصيّات الاجتماعيّة وزعماء العشائر على توزيع المهام وانماط العمل واهمّهم:

الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجزائري والشيخ جواد الجواهري والشيخ محمد باقر الشبيبي والشيخ محمد رضا الشبيبي والسيّد محمد سعيد كمال الدين والشيخ حسين الحليّ والشيخ عبد الحسين مطر والسيّد احمد الصّافي النجفي والشيخ محمد علي القسّام والحاج محسن شلاش والسيّد هادي زوين والسيّد علوان الخرسان ومحمد ابو شبع والسيّد علوان الياسري والسيّد كاطع العوّادي والحاج عبد الواحد الحاج سكر والشيخ غثيث الحرجان والشيخ شعلان ابو الجون. (حسن شبر/المصدر..ص13).

انّ اهمّ ما كان يميّز الحزب النجفي السرّي عن غيره ما يلي:

1) كان يضم كبار المراجع وعلماء الدين وكذلك كان يضم ابرز زعماء عشائر الفرات الاوسط ووجوه المجتمع النجفي وكلهم من العرب المسلمين الشيعة.

2) كانت نشاطاته منظمة حيث وزعت الادوار والمسؤوليّات، وكان التنسيق بينهم جيّدا على شكل ستة مجاميع حسب طبيعة العمل وكان التعاون بينهم قويّا حول ظروف السّاحة ومتطلبات اساليب التحرّك، ولا سيّما مع الامام المقلد محمد تقي الشيرازي الذي انتقل من سامرّاء الى كربلاء في نهاية 1918.

3) استطاع هذا الحزب انشاء شبكة فاعلة من النشطاء والمسؤولين حيث فتحت له فروع كثيرة "..في كل من الرّميثة وكربلاء والحلة والغرّاف وعفك والدغارة والناصريّة وسوق الشيوخ والبصرة والكفل والكوفة." وهي ما تعرف بمناطق الفرات الاوسط التي أصبحت قلب ثورة العشرين فيما بعد. (حسن شبّر/المصدر..ص74)

4) كانت اهداف هذا الحزب وشعاراته واضحة وصريحة تتلخص بشعارات "..الاستقلال التام.." واخراج المحتلّين من العراق. ولهذا السّبب كسب ثقة الجماهير وتأييدها بسرعة فائقة.

دور الجمعيّة الاسلاميّة في كربلاء

كانت المرجعيّة الدينيّة في المدن المقدسة تمارس مسؤوليّاتها الشرعيّة وتنشط في تحرّكاتها من خلال شبكة واسعة من (الوكلاء) والمريدين لها من صفوة المجتمع سواء كان ذلك داخل المدن او خارجها لا سيّما في انحاء تواجد العشائر الموالية لها بحكم الارتباط الرّوحي والاحكام الشّرعيّة في امور الحياة. ولم تكن السّياسة بعيدة عن الدوائر التي تتحرّك فيها المرجعيّة في قيادة المسلمين الموالين لها.

لذا ومنذ وقوع الاحتلال البريطاني للعراق خلال سنوات 1914- 1918ابدت المرجعيّات الدينيّة نشاطات غير عادية وبشكل منظم سواء باساليب تنظيميّة حزبيّة او من خلال واجهات لجمعيّات وهيئات ادبيّة واجتماعيّة. منها (الجمعيّة الاسلاميّة في كربلاء) وهي سريّة وكان على راس مؤسسّيها والناشطين فيها:

الشيخ محمد رضا نجل المرجع الشيخ محمد تقي الشيرازي والسيّد هبة الدين الشهرستاني والسيّد حسن القزويني وعبد الوهاب وعبد الكريم العوّاد وعمر العلوان وعثمان العلوان وطلفيح الحسّون وعبد المهدي قنبر ومحمد علي ابو الحب. و " كان هدف الجمعيّة رفض الاحتلال البريطاني في العراق والمطالبة بالاستقلال واختيار ملك مسلم.."، وجاءت فتوى المرجع الاعلى الامام محمد تقي الشيرازي لتعزّز هدف قيام مملكة عراقيّة مستقلة والتي جاء فيها: "..ليس لاحد من المسلمين ان ينتخب ويختار غير المسلمين للامارة والسّلطنة على المسلمين..". كما اثبت الامام الشيرازي قوّة نفوذه وموقعه حينما تحدّى حكومة الاحتلال باعلانه رفضه لعمليّة اعتقال قامت بها حكومة الاحتلال بحق ستة ناشطين من الجمعيّة وهم:

عمر العلوان وعبد الكريم العوّاد وطلفيح الحسّون ومحمد علي ابو الحب والسّيد مهدي المولوي والسّيد محمد علي الطباطبائي. وحينما اعلن الامام عن عزمه الهجرة الى ايران بهدف اعلان الجهاد من هناك، تراجعت الادارة البريطانيّة واطلقت سراح الموقوفين. (حسن شبر/المصدر- ص 79 – 75). وبسبب حملة الاعتقالات للزعماء وللناشطين في الجمعيّة ضعف دور الجمعيّة بعد ذلك تدريجيًا ولتذوب في النشاطات العامّة الاخرى. وعلى الرّغم من تزايد النشاطات السّياسيّة في كربلاء والنّجف انذاك، لم تجرؤ الادارة العسكريّة البريطانيّة دخول المدينتين المقدّستين او انتهاك حرمة ايّا منهما. الا انّ تحرّش مجموعة من الشباب المقاتلين من جماعة الشيخ الحاج عطيّة ابو كلل بقوّة هنديّة تابعة للجيش الانجليزي اثناء قيامها بتمارين عاديّة في منطقة بحر النجف، دفعت تلك القوّة لدخول المدينة. وحينما ظهرت طائرة انجليزيّة في سماء النجف، اطلق مسلحون نجفيون النار عليها. (مجلة الموسم/ص14/العدد9 ـ 1991/10) كما جرت مناوشات خفيفة وحوادث اطلاق نار على القوّات

الانجليزيّة في كانون الثاني1918 الامر الذي لم تتحمله الادارة البريطانيّة فأخذت تتحيّن الفرصة لتصفية حساباتها مع قاطع النجف (ومن المحتمل جدّا ان الانجليز هم الذين استفزوا النجفيّين ليبدؤا بالعدوان ضدّ المحتليّن فيكون لديهم تبريرا لتنفيذ ما بيّتوه من امر ضد المقاومة النجفيّة) ففرضت على بلدة النجف دفع غرامة من المال والسّلاح. وفي نفس الوقت وصلت للانجليز معلومات مؤكدة تشير الى نشاطات (جمعيّة النهضة الاسلاميّة) واتصالاتها بالقبائل المحيطة بالنجف والكوفة وأبو صخير والشاميّة ودعواتها الى الجهاد. وكان من ابرز الدعاة المتحمّسين عضو الجمعيّة النشط الحاج نجم الدليمي (البقال).

كان الانجليز على علم تام بجميع التحرّكات لا سيّما قرار عدد من شباب جمعيّة النهضة الاسلاميّة اغتيال الكابتن مارشال الحاكم السّياسي للنجف، وحينما نجحوا في ذلك، ثم قتلهم شرطيّين مع محاولة لقتل حاكم الشاميّة (بلفور)، وبعد ان (جرّد النجفيّون بقيّة افراد الشرطة من اسلحتهم وهاجموا دار الحكومة القديمة في البلدة بعد فرار حاميتها وحرّاسها ونهبوا مافيها من اثاث وقلعوا الابواب وأشعلوا النار فيها) (الموسم/ص15/العدد1991/10-9).

بدات القوّات البريطانيّة بقيادة الجنرال ساندرز تحاصر النجف من جميع جهاتها وأغلقت ابواب اسوارها، واستمرّ الحصار خمس واربعين يوما لم يبق للنجفيّين الا ماء الابار غير المستساغة. وكان من الصّعب جدا الحصول على معونة القبائل المجاورة لها لسببين: الاوّل احجام القبائل عن المساعدة بسبب استرضاء الانجليز لمعظم زعماء المنطقة ونشر المال على شيوخها من جهة وخوفا من بطش الانجليز وانتقامهم من جهة اخرى، والثاني استحالة فك الحصار المضروب عليهم. وحينما قاربت المجاعة ان تنتشر وطال الحصار اخذ الاهلون يفاوضون الانجليز ونزلوا على شروط الإنكليز لفكّ الحصار وهي:

اولا: تسليم القتلة ومن اشترك بالفتنة دون قيد او شرط.

ثانيا: يدفع النجفيّون غرامة (الف بندقيّة ومبلغ خمسين الف روبيّة تجمع من المناطق والمحلات التي ساهمت بالفتنة).

ثالثا: تسليم مئة شخص من المحلات الثائرة الى الحكومة البريطانيّة لسوقهم من النجف بصفة اسرى حرب.

رابعا: تبقى البلدة تحت الحصار الشديد الى ان تسلم بهذه الشروط وتنفذها.

لقد وافق اهالي النجف اخيرا على جميع الشروط البريطانيّة لرفع الحصار. وفي 30 مايس 1918 تمّ تنفيذ احكام الاعدام باحد عشر شخصا في الكوفة، كما تمّ نفي مئة واثنين وعشرين نجفيّا الى الهند.

وعلى الرّغم من اختلاف وجهات نظر الباحثين والمؤرّخين والسّياسيّين القدامى والجّدد حول احداث النجف عام 1918، ان كانت " ثورة" ام فورة ومغامرة فرديّة ((انيّة قامت بها

بعض العناصر الوصوليّة والنفعيّة (والاشقياء) والخارجين على السّلطة)) (الموسم/ص16 نفس العدد)، الا انّها تبقى ارهاصة وطنيّة تعبّر عن روح الرّفض للاحتلال الاجنبي وغضب دفين للكرامة الوطنيّة المهدورة. ومن ناحية اخرى فقد عبّرت التطوّرات التي صاحبت احداث النجف عن انقسام داخل الصّفوة الواحدة لا سيّما بين ابناء هذه المدينة المقدّسة والعشائر المحيطة بها التي لم تتحرّك لنصرة المقاتلين حتى بعد استيلائهم على المدينة بالسّلاح. وكما يبدوا كان الحدث درسا بليغا للجميع استفادوا منه اثناء عمليّة "الاستفتاء" التي جرت بعده بعام تقريبا، ومن ثمّ الاعداد الواسع لثورة العشرين الكبرى.

(وللمزيد من التفاصيل حول تاريخ جمعيّة النهضة الاسلاميّة في النجف الاشرف وصفوة قياداتها ومراحل تنظيماتها واهدافها يراجع: (محمد علي كمال الدين/الثورة العراقيّة الكبرى) و (د. وميض عمر نظمي/الجذور السّياسيّة والفكريّة والاجتماعيّة للحركة القوميّة العربيّة الاستقلاليّة في العراق) و(الشيخ باقر ال محبوبة/ ماضي النجف وحاضرها/ص251)

الصّفوة العراقيّة والحياة السّياسيّة الجديدة

لابدّ من الاشارة الى انّ هنالك ثلاثة عوامل رئيسيّة قد أثرت بشكل مباشر في انشاء العراق الحديث وقيام المملكة العراقيّة الهاشميّة وغيّرت مسيرته ومستقبله وهي:

أ- قيام الصّفوة العراقيّة بكافة مكوّناتها بمسؤوليّاتها الوطنيّة.

ب- الانجازات البريطانيّة في العراق اثناء الاحتلال وما بعده.

ت- قيام الثورة العراقيّة الكبرى (ثورة العشرين).

لقد امتاز المستعمرون البريطانيون عن غيرهم من المستعمرين بسعة معرفتهم بطبائع وعادات جميع الشعوب الّتي حكموها، ولهذا فقد كانوا يجرون دراسات دقيقة ومفصّلة عن ايّ بلد وشعب يريدون ضمّه الى امبراطوريّتهم الواسعة التي وصلت سعتها اربعة اخماس الأرض في بداية القرن العشرين. فعلى سبيل المثال؛ حينما خططوا في اوّل الامر لاحتلال جنوب العراق بهدف استكمال سيطرتهم على الخليج العربي، استطاع ضبّاط المخابرات البريطانيّة من التجوال ورسم خرائط واخذ معلومات جغرافيّة وبشريّة واسعة عن مثلث (البصرة ـ العمارة ـ الناصريّة وسوق الشيوخ) منذ عام 1913، وكثيرا ما كان يشاهد ضبّاط المخابرات من امثال فيلبي وكوكس ولورنس والى جوارهم يقف - لاسباب امنيّة - البعض من صفوة اعيان البصرة وفي مقدّمتهم السيّد طالب النقيب وشيوخ المنطقة وهم يتجوّلون بزوارقهم في نهر شط العرب لرسم خرائط المنطقة قبل الاحتلال. كما عرف الاداريّون وغالبيّة العسكريين الانجليز بالصّبر وطول الاناة في علاجهم للمشاكل التي يواجهونها داخل مستعمراتهم. ولهذا السّبب لم يبالغ الانجليز بالانتقام والثأر لقتلاهم سواء في النجف ام في غيرها كما كان فعل الفرنسيّون والايطاليّون في الجزائر وليبيا حيث مارسوا العقوبات

الجماعيّة الى حدّ الابادة الجماعيّة.

لقد اختارت الادارة البريطانيّة المحتلة النظام الديمقراطي البرلماني نظاما سياسيّا للعراق على انماط الديمقراطيّات الاوروبيّة لا سيّما النمط البريطاني. فقد شرعت فور احتلالها للعراق بالاجراءات الضرّوريّة لبناء المؤسسّات التي يتطلّبها النظام السّياسي الجديد بخطوات اهمّها:

اوّلا: تشريع دستور دائم للبلاد يحدّد نمط الحكم والعلاقة بين الدّولة والشعب.

ثانيا: انشاء برلمان عراقي منتخب ويتكوّن من مجلسيّ النوّاب والاعيان.

ثالثا: اصدار صحف ومجلات كوسيلة للتعبير عن وجهتيّ نظر الرأي العام العراقي (المؤيّد والمعارض) وعن سياسة الحكومة المنتخبة.

رابعا: اعداد وتنظيم الصّفوة (Elite) العراقيّة التي تقود المجتمع العراقي وتدير شؤونه في السّياسة والحكم وفي جميع مرافق حياته الاخرى الاجتماعيّة والاقتصاديّة، مراعية الوضع الخاص لكافّة مكوّنات الشعب العراقي.

خامسا: تنظيم حدود سياسيّة ورسم خرائط رسميّة ثابتة للعراق معترف بها دوليّا عبر "عصبة الامم" وبضمان الدّفاع عنها من قبل بريطانيا كدولة عظمى انذاك.

سادسا: تنظيم الحياة السّياسيّة في العراق وتشكيل الاحزاب والنقابات المهنيّة بموجب دستور دائم وانظمة وقوانين مشرّعة ومصادق عليها من قبل البرلمان العراقي ومنع ايّ تنظيم حزبي او نقابي اوايّ نشاط سياسي خارج نطاق النظام والقانون.

سابعا: لقد حدث تطوّر سياسي كبير في المجتمع العراقي خلال فترة الانتداب البريطاني (1920 – 1932/طيلة العهد الملكي) حينما تأسست رسميّا عشرة احزاب سياسيّة عراقيّة علنيّة كان لها تأثير كبير في السّياسة العراقيّة وهي:

1 - حزب النّهضة العراقيّة. 2 – الحزب الوطني العراقي. 3 – الحزب الحرّ العراقي. 4 –حزب الامّة. 5 – حزب التقدّم. 6 – حزب الشّعب. 7 – الحزب الوطني العراقي/الموصل -8 حزب الاستقلال. 9 – حزب العهد العراقي. 10 – حزب الاخاء الوطني.

ثامنا: من المظاهر الايجابيّة في انطلاقة المسيرة السّياسيّة الديمقراطيّة في العراق هي صدور الصّحف الحزبيّة لتعبّر عن اراء الاحزاب ومعتقداتها بحريّة. وحينما يتعذر على ايّ حزب اصدار صحيفة خاصّة به، فانّ هنالك صحف اخرى تتبنّى افكاره ونشر وجهات نظره وتدافع عنه.

وانه لمن الانصاف والعدل ان نذكر انّ الادارة البريطانيّة كانت صادقة في انشاء المؤسسّات الدستوريّة للعراق الحديث على اسس واجراءات ديمقراطية وقانونيّة شبيهة ببريطانيا، الا انّ غالبيّة زعامات الصّفوة العراقيّة التي مارست السّلطة والحكم، كانت تمارس عمليّا خرق القانون والدستور وتنتهك الحريّات العامّة، مما عطل تطوّر تلك المؤسسّات في العهد الملكي.

المعوّقات التي واجهت الصّفوة

بقدر ما كان العراقيّون يمتلكون ايجابيّات كثيرة اهّلتهم لبناء دولة قويّة وغنيّة ومتطوّرة وعصريّة منذ مطلع القرن العشرين في زمن قصير،كان العراقيّون مبتلين بسلبيّات تعرقل مسيرتهم وتشلّ طاقاتهم واهمّها:

1 - كان التنافس بين مراكز القوى السّياسيّة شديدا ولا يقوم على قيم واهداف واساليب عادلة وديمقراطيّة. مع العلم انه كان واضحا لدى جميع الاطراف انذاك انّ ذلك النمط من التنافس يتناقض مع مصالح الوطن العليا ويشلّ المسيرة الديمقراطيّة، وكثيرا ما كان التنافس بينها تآمريّا ودمويّا سواء بين القوى السّياسيّة واحيانا حتى داخل الحزب الواحد..

2 - حالة التخلّف العام الذي كان مظهرا واضحا على العراق بعد سيطرة عثمانيّة دامت ما يزيد على الاربعة قرون.

3 - اطماع الدّول المجاورة بالاراضي العراقيّة اثناء ترسيم الحدود، ولولا موقف الادارة البريطانيّة الايجابي لخسر العراق المزيد من اراضيه من كافة الاتجاهات الحدوديّة التي رسمتها هي حسبما اقتضت مصالحها الاستراتيجيّة الاستعماريّة.

4 - الهيمنة البريطانيّة شبه الكاملة على الدوائر الحكوميّة عبر المستشارين الإنكليز في جميع الوزارات والادارات. وخلال فترة الانتداب زرعت تقاليد اداريّة واتجاهات (بريطانيّة) في الادارة والحكم. بعضها كان جيّدا تدرّب خلالها اعداد كبيرة من ذوي الكفاءات القضائيّة والادارية، واخر كان ضارّا يناقض وحدة المجتمع والسّيادة الوطنيّة.

5- لقد سببّت بعض الموروثات التاريخيّة اضرارا فادحة في بنية المجتمع العراقي وحركته، وبشكل خاص على التنوّع الاثني والطائفي والديني في العراق. فقد كانت ادارة السّلطة الحاكمة بموظفيها وبقوانينها بيد العرب المسلمين السّنّة فقط،،حيث كانت الحنفيّة المذهب الرّسمي للدولة طيلة العهد العثماني. وكانت اسس القاعدة الاقتصاديّة ومفاتيحها في العراق بيد اليهود "..فخلال العقدين الاوّلين من القرن العشرين، كان لليهود المكانة الاولى في المستوى الاقتصادي في العراق.." بسبب اسناد الدول الاوروبيّة وتعامل شركاتها معهم (The Jews of Iraq، N. Regwan، p.210) ممّا ولد ضغائن في المجتمع تجاه اليهود وحلفائهم في السّوق من(المتنفذين السنّة وبعض المسيحيين).

6 - ومن جانب اخر كان للموروثات التاريخيّة (بسلبيّاتها وايجابيّاتها) تأثيرا كبيرا على صفوة المجتمع العراقي. فالشعور العام بامجاد الماضي ايام كان العراق منارا للعلم والمعرفة وقاعدة لاعظم امبراطوريّات التاريخ سواء قبل الميلاد او بعده، قبل الاسلام وبعده، قد ولّدّ اعتدادا بالنفس وانفة لدى غالبيّة العراقييّن وصلت درجة الغرور والاسترخاء والتفريط بالحقوق الاساسيّة للانسان. وقد لعبت مناهج التعليم في جميع عهود الحكم الحديثة في

العراق بشكل عام، دورا سلبيّا في توجيه اجيال من طلاب وطالبات المدارس توجيها خياليّا رومانسيّا بعيدا عن واقع الحال ومتطلبات واقع عصر الصناعة العلميّة والتكنولوجيا العمليّة ومفاهيم الحداثة. ولم تختلف الاحزاب السّياسيّة العراقيّة، وفي مقدمتها الاحزاب السّريّة في حشو ادمغة منتسبيها بتلك المفاهيم، عن مناهج التعليم الرّسمي في التربية الخاطئة والتوجيه السيئ ان لم تكن تتفوّق عليها بامتياز في التربية الخاطئة والتوجيه الهدّام سياسيّا واجتماعيّا واقتصاديّا.

7 - استمراريّة التنافس الاقليمي غير المبرّر بين اهم مراكز القوى في منطقة الشرق الاوسط. ففي خلال سنوات 1921 – 1945 م كانت الاقطاب المتنافسة على زعامة المنطقة هي بغداد والقاهرة فقط، بينما كانت طهران وانقرة في شغل داخلي وفي مناى عن ايّ احتكاك واضح مع العاصمتين العربيّتين. وكانت جميع دول وامارات شبه جزيرة العرب انذاك في عزلة شبه تامّة وفقر وتخلف شامل ولا يسمع عنها شيئا سوى الاخبار السّنويّة عن الحج والعمرة في الحجاز، وعن صيد اللؤلؤ والسّمك في دول الخليج. ومن الغريب انّ ذلك التنافس والتحاسد لم يكن له ايّة اسس او مبررات منطقيّة او واقعيّة. الا ان الامور قد تغيّرت خلال وبعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية بسبب بروز عاملين مهمّين في المنطقة وهما:

اوّلا - ازدياد الاهميّة الاستراتيجيّة للمنطقة عسكريا واقتصاديّا وكمصدر اساسي لمادة النفط. وثانيا – نجاح المشروع الصّهيوني باغتصاب فلسطين وفرض الكيان الصّهيوني بدلا عنها قد افرز نتائج خطيرة جدا على شعوب المنطقة لا سيّما على مستقبل ومصير صفوتها الاجتماعيّة والاجيال القادمة وتعطيل تقدّمها وتسلط الانظمة العسكريّة الدكتاتورية عبر الانقلابات العسكريّة عليها.

كان في مقدّمة متطلبّات انجاح المشروع الصّهيوني وديمومته في المنطقة، تغليب القوى البدوية الجاهلة على الحضريّة فيها سياسيّا واجتماعيّا وثقافيّا، وذلك بخلق كيانات وانظمة حاكمة وعلى راسها اسر حاكمة بدويّة عاتية جاهلة شغلها الشاغل اشباع متعها وغرائزها ورفاهها الاسطوري وعدم اعطاء اهميّة حقيقيّة لمتطلبات الواقع القومي والديني والمستقبلي للاجيال القادمة لدولها.

انّ الصّفوة الاجتماعيّة الاكثر تضررّا من التنافس الاقليمي ومن المشروع الصّهيوني هي: العراقيّة واللبنانيّة والسّوريّة والفلسطينيّة والمصريّة التي عانت الامرّين؛ من المنافسة بين الانظمة الحاكمة ذاتها، ومن الانقلابات والصراعات المسلحة التي عصفت بدولها وعطلت مسيرتها.

وبتزايد اهميّة دول القبائل البدويّة النفطيّة، أصبحت الرّياض قطبا ثالثا ولاعبا رئيسيّا مباشرا في المنطقة. فمنذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية وحتى اليوم، دخل النفوذ السّعودي (عبر هالة اعلاميّة برّاقة وعدد غير قليل من مستشارين وخبراء مرتزقة لهم اهدافهم الخاصّة وبعضهم من كبار الاختصاصيّين والمفكرين من العرب والاجانب)، وبشكل تدريجي دخل

المال النفطي السّعودي واصبح بثروته النفطيّة عاملا فعّالا ومباشرا في احداث المنطقة اقتصاديّا وسياسيّا واعلاميّا وبالتالي مؤثرا في سلوك وعلاقات افراد الصّفوة الاجتماعيّة لدول المنطقة وتغليب سلوك البداوة على الحضارة فيها.

8 - لم يكن مفهوم انتماء الصّفوة العراقيّة الى ايّ حزب من الاحزاب التي نشات انذاك يقوم على الاسس والمفاهيم والاهداف والاساليب التي ينتمي اليها او لاجلها رموز الصّفوة في الدول الديمقراطيّة الغربيّة. بل كان انتماء غالبيّتها يقوم على اسس الانتماء العنصري او الطائفي وحتى العشائري او المناطقي. لذا ظلت هذه الحالة هي الصّفة المتغلبة على الاصطفافات داخل الاحزاب العراقيّة مع وجود استثناءات قليلة جدا لا يمكن وضعها حتى في النسبة المئويّة.

9 - لقد حاول بعض وجوه الصّفوة العراقيّة منذ بداية التجربة الديمقراطيّة في مطلع القرن الماضي توحيد العمل الوطني (ضمن كتلة او جبهة) وبذلو جهودا استثنائيّا لتحقيق ذلك، الا ان تلك المحاولات لم تدم طويلا وفشلت بسبب اختلاف القيادات وخلافاتها داخليّا وخارجيّا لاسباب عديدة لا تعدوا كونها في جوهرها بسبب مصالح شخصيّة.(اذ لم يستمر العمل المشترك لحزبي النهضة والوطني الا اسابيع قليلة بعد اجازتهما رسميّا.. ففي هذه المدة الخاطفة تحرّكا في خط مشترك وشكلا اوّل جبهة حزبيّة ناجحة، ثمّ تعرّضا لضربة مشتركة انهت تحرّكهما بعد حوالي عشرين يوما من ولادتهما رسميّا) (حسن شبّر/المصدر86-). كما لم تستمر جبهة الاتحاد الوطني لعام 1957 (الاوسع شمولا والاكثر وزنا وتأثيرا في السّاحة السّياسيّة العراقيّة) في الاستمرار في التعاون والوحدة لاكثر من عام واحد اذ انفرطت العلاقات بين اعضائها بعد نجاح انقلاب الرّابع عشر من تمّوز عام 1958م، وتحوّلت الخلافات الفكرية والكلاميّة بينها الى العنف اليومي والصدام الدّموي والانتقام البغيض. كما شهدت لقاءات ومؤتمرات المعارضة العراقيّة في المنافي والشتات (1979 - 2002) وفضحت اقبح صور الخلافات والاتهامات في اروقة دمشق وطهران ولندن وفيّنا والرّياض وصلاح الدين والتي لم تلتقي وتتفق ابدا الا تحت علم الاحتلال الامريكي المذل عام 2003 في الناصريّة وبقيادة الامريكيّان زلماي خليل زادة وبول بريمر.

10 - جاءت عمليّة اصدار الصّحف في العراق سواء اثناء الادارة العسكريّة المباشرة، ثم في مرحلة الانتداب، وبعد ذلك منذ بداية انشاء الحكومة العراقيّة، كتكملة لاقامة المؤسسّات الديمقراطيّة التي يتطلبها نظام الحكم الجديد في العراق. فقد كان لكل حزب الحق في اصدار صحيفة خاصّة به وفق ما جاء في الدستور والقوانين. وقد "..شهدت هذه الفترة، بروز ظاهرة الصّحافة الحزبيّة، بحيث يندر ان يفتقر حزب الى جريدة ناطقة باسمه، وان افتقر الى جريدة خاصّة فانّ هناك جريدة تتبنى اراءه وتدافع عنه." (حسن شبر/المصدر- ص86). الا انّ حريّة اصدار الصّحف لم توظف من قبل اصحابها بشكل عام وفق الاهداف التي تخدم الصّالح العام ومراعاة الواقع العراقي في تلك المرحلة بشكل موضوعي، "..ونتيجة لهذه الظاهرة،

كانت تشتعل معارك صحفيّة ساخنة بين الاحزاب المتعارضة في الاوقات التي يحتدم فيها الصّراع السّياسي، ولذلك فقد تعرّضت صحف المعارضة الى التوقف او الغلق بقرار وزاري. ولم تكن الصّحافة الحزبيّة هنا جزءا بسيطا من الصّحافة العراقيّة، بل كانت متميّزة في موقعها، فالصّحافة الرّئيسيّة كانت في اوقات كثيرة هي صحافة احزاب.."، (حسن شبر/ المصدر- ص 86). ولابدّ من الاشارة الى انّ قرارات غلق الصّحف كانت تجري لاسباب موضوعيّة لتجاوز تلك الصّحف القيم الدستوريّة وتخطيها حدود القانون وحريّة التعبير او بسبب تجريح كرامة الخصوم السّياسيين.

11 - ارادت الحكومات العراقيّة منذ بداية الحكم الوطني في العهد الملكي، ان تكون جميع التنظيمات والفعاليّات السّياسيّة علنيّة وصريحة وان تنظم وتعمل وفق الانظمة والقوانين الرّسميّة المرعيّة. ولهذا كانت النشاطات علنيّة وصريحة في مناهجها في فترتي الادارة البريطانيّة المباشرة والانتداب، ثمّ طيلة عهد الملك الرّاحل فيصل الاوّل اذ لم يكن هناك نشاط حزبي ذو شان يعمل باسلوب سرّي وتلك ظاهرة لم تتكرّر في السّنوات اللاحقة اذ لم يستمرّ الامر على ذلك المنوال. فبعد وفاة الملك المؤسسّ فيصل الاوّل عام 1933 بدات اساليب التنظيم السّري يستشري في العمل السّياسي الفعّال في العراق ويغلف الغموض والسّريّة جميع الاهداف الحقيقيّة للتدخلات الخارجيّة (الاقليميّة والدوليّة) في شؤون الوطن سواء كانت سياسيّة او تبشيريّة عقائديّة او شراء الذمم بالتمويل الخارجي. وقد اثبتت الحقائق الموثقة التي ظهرت اخيرا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانفراط المعسكر الاشتراكي وسقوط بعض الانظمة الاقليميّة مدى تغلغل الاجانب في غالبيّة الاحزاب والتنظيمات العراقيّة لا سيّما السّريّة منها وتغلغل اجهزة المخابرات الخارجيّة فيها. فكان ذلك ضربة قاصمة اودت بثقة غالبيّة الشعب العراقي بالصّفوة السّياسيّة التي كانت تدّعي انها(قادت النضال ضد الامبرياليّة والرّجعيّة والفساد)،وبدات موجة من الاصوات الشريفة العادلة تطالب باعادة النظر بتاريخ الحقبة السابقة وكذلك اعادة تقويم صفوتها من قادة ومفكرين افرادا وتنظيمات.

البريطانيّون والصّفوة في المدن المقدّسة

بعد تجربة حوادث النجف في اذار 1918، ادرك المندوب السّامي البريطاني في العراق أي. تي. ولسون، انّ اهمّ الوسائل التي تمكنه من السّيطرة على الموقف هو كسب رضا الصّفوة من كبار العلماء في المدن المقدسة. فقد استغلّ مناسبة وفاة المرجع الديني الاعلى في النجف السيّد كاظم اليزدي (المعروف بعزوفه عن السّياسة)، ومجيء الميرزا محمد تقي الشيرازي للمرجعيّة العليا؛ وهو المعروف بعدائه للانكليز. فارسل ولسون للميرزا رسالة كانت في غاية الودّ، كما ارسل له وسطاء ولكنّه لم يجد من المرجع الاعلى الجواب الذي يريده. بعد ذلك قام ولسون نفسه بزيارة الامام الشيرازي في حزيران/يونيو1919 وعرض عليه مشروع

نقل سدانة (كليداريّة) الاضرحة المقدسة في سامرّاء وانتزاعها من السّادن الحالي (وكان سنّي المذهب) واعطائها الى شخص شيعي. ولكنّ الامام الشيرازي فوّت الفرصة على ولسون في اثارة النعرة الطائفيّة وقال الشيرازي: " لا ارضى بتبديله اذ ليس عندي فرق بين الشيعي والسني " ومدح الامام الشيرازي السّادن السّني. فرجع ولسون خائبا دون ان يحقّق غرضه.

ولابد لنا في هذا الإطار من الاشارة الى انّ محاولات بريطانيّة سابقة قد جرت لكي يقيموا علاقات جيّدة مع المراجع قبل الاحتلال وبعده ولكنّها لم تنجح؛ من ذلك انّ المس جيروترد بيل وصلت النجف قبل الحرب العالميّة الاولى(في يوم7 مارس1911) لدراسة المدينة ومعرفة نظام المرجعيّة وتأثيرها كما زار المدينة للغرض نفسه اثناء الاحتلال السير بيرسي كوكس الحاكم السّياسي العام، وفي تلك الفترة ايضا (19 مايس1917) زارها ايضا السير رونالد ستورس (صاحب المراسلات الشهيرة مع الشريف حسين بن علي قبيل الثورة العربيّة والذي كان يتقن اللغة العربيّة واتصل ببعض علمائها ووجوه مجتمعها واعضاء مجلس بلديّتها وعرض اثناء زيارته مبلغا على المرجع الكبير السّيد كاظم اليزدي قدره ألف باوند استرليني لتوزيعه على الفقراء، فرفضها السيّد ولم يتسلمها (الموسم/ص13/نفس العدد).

وفي بغداد والمدن الاخرى، لا سيّما في الوسط والجنوب، حاولت الادارة البريطانيّة اثناء فترة عمليّات الاحتلال استرضاء الشيعة باشراكهم في الادارة المدنيّة التّي حرموا منها لقرون (حيث بداوا بادخالهم في مجالس التعليم والبلديّات كما مرّ بنا سابقا) متوقعة منهم الاستجابة ولكن دون فائدة.

وبعد ان يئس كل من السير اي تي ولسون والمس بيل من امكانيّة كسب الامام الشيرازي الى التفاهم معهم اخذا يهاجمانه ويحاولان اضعاف مكانته سواء في داخل العراق او بما كتبوه عنه بمذكراتهما الشخصيّة وبرسائلهما الى مسؤوليهما في لندن واصفيه بالعمالة الى الاتراك وكذلك تشجيعه لنشر الافكار الشيوعيّة البلشفيّة في العراق. ومنذ ذلك الحين اتّجهت السيّاسة البريطانيّة نحو التفاهم مع الصّفوة التقليديّة السنيّة الاكثر مرونة وواقعيّة حيث سبق لها وان خدمت في ظلّ الادارة العثمانيّة السابقة ولها خبرة طويلة في التعامل مع افراد المجتمع العراقي لما يزيد على الاربعة قرون. وقد اعدّت دوائر لندن سياسة جديدة لتطبيقها في العراق تقوم على الاعتماد على صفوة من العناصر الوطنيّة العراقيّة الجديدة هي صديقة لها وذات كفاءة ومؤهلات عسكريّة ومدنيّة في الادارة عالية المستوى وسبق لها ان تعاونت معها قبل احتلالها للعراق وبعده اثناء الحرب العالميّة الاولى.

اوعز المندوب السّامي السير ارنولد ولسن الى الحكام السّياسيّن في كافة انحاء العراق الى رغبة حكومته في التعرّف على اراء الناس في مسالة مستقبل العراق السّياسي، كما طالب موظفيه باخذ "..اجوبة مرضيّة ملائمة.."، وهذه الاجوبة المرضيّة حسب ما اصبح معلوم لديهم "..يجب ان تكون لصالح بقاء الحكم البريطاني في العراق..".. (Wilson، A.T.

pp.111) وقد فوّض المندوب السّامي موظفيه الاداريّين ان يستفتي الشعب العراقي في النقاط التالية:

اوّلا: هل يرغب الاهلون اقامة دولة عربيّة واحدة تمتدّ من شمال الموصل الى الخليج العربي تحت وصاية الإنكليز؟

ثانيا: في حال قبول الاهلين بهذا، فهل يرضون بان يكون على راس هذه الدولة أمير او شريف عربي؟

ثالثا: في حال قبول هذا المبدأ فمن يريدون ان يكون على راس هذه الدّولة؟

جرى الاستفتاء العام خلال الفترة الواقعة بين اب/اغسطس- كانون الاوّل/ ديسمبر1918 واستمرّ لغاية كانون الثاني/يناير1919. وكان ولسون في الغالب يجري الاستفتاء تحت اشرافه المباشر او بمن ينوب عنه في جمع من الاعيان والمشايخ حيث يكون من بين الحضور اعوانه اومن المناصرين له من الذين سبق وان وُجّهوا لاحراج الحضور او لتثبيط عزائمهم او مفاجاة المجتمعين بعرض غير متوقّع مما يثير البلبلة واضعاف المترددين كما حدث في اجتماعات النجف وكربلاء، فقد نظمّ الوطنيّون ووزّعوا فيها المضابط والرّسائل (للمطالبة بحقوق الشعب واستقلال البلد) وجاء ببعض النشرات الدّعوة الى الثورة (الموسم/ص16 نفس العدد)

قد يظن القاريء بانّ غالبيّة العراقيّن انذاك كانوا ضد استمرار الادارة البريطانيّة في العراق، وهذا القول غير دقيق. فقد اثبتت ردود الافعال اثناء الاستفتاء غير ذلك. بل حتى انّ فريقا من العراقيّين كان يفضل بقاء الحكم البريطاني المباشر، ومن بين هؤلاء العديد من التجار والشيوخ وملاكي الاراضي من المسلمين وغير المسلمين. (د.خالد التميمي/المصدر/ ص94) فقد اعجب العراقيّون بمحافظة البريطانيّين على القانون والنظام وما نتج عن ذلك من النموّ الاقتصادي وزيادة الثروات والرّفاه لدى العراقيّن، حتى انّ فريقا من العلماء والرّجال الاعيان في الكاظميّة شكروا الادارة البريطانيّة على احترامهم وحفظهم للنظام اثناء ادائهم لشعائر شهر محرّم، وحصل مثل هذا الموقف من علماء واعيان مدينة الموصل حيث بعثوا بطلب الى المندوب السّامي في تشرين الثاني/نوفمبر1919 يعبرون فيه عن امتنانهم للادارة البريطانيّة ويرجون فيه استمرارها في الحكم. (محمد طاهر العمري/المصدرص9 جزء3). بل وذهب فريق اخر منً صفوة اعيان البصرة البارزين الى اكثر من ذلك وأعربوا عن ايمانهم وثقتهم بالادارة البريطانيّة المباشرة للعراق، بينهم احمد العبد الواحد، وسيّد محمد بركات واحمد الصّايغ والشيخ احمد الباش اعيان وهم من صفوة الوجهاء وملاكي الاراضي حيث أعلنوا للانكليز: ".. بأنّ العرب لم يكونوا قادرين على حكم انفسهم، وانّ تعييّن امير سيكون خطوة انتحاريّة، خاصّة وانهم قد ذاقوا حكم طغاة عرب مثل السيّد طالب النقيب وال السّعدون ايّام العثمانيّين...". كما قدّم العديد من المسيحييّن واليهود طلبا مشابها لذلك يتوسّلون فيه بان يسمح لهم البقاء تحت الحماية البريطانية (F.O.371،6352/13/93

.(.(C.O.730/2/34955

انّ طلبات بعض المواطنين كهذه من اجنبيّ محتل تعكس واقعا مأساويّا حول مدى تأثير الظلم والتعسّف على حياة وكسر نفسيّة الناس بما فيهم بعض صفوة المجتمع، بحيث يصل به الحال ان يستنجد بالاجنبيّ ليرفع كابوس الظلم والخوف عنه بعد ان اعيته قدرته الذاتيّة، وهي حالة متكرّرة في تاريخ الشعوب وقد تكرّرت في العراق في السنوات التي سبقت عام 2003.

لقد اعتقد البريطانيّون انّ من السّهل تحقيق اهداف " الاستفتاء " هذا في بغداد، ولكنّ الاحداث اثبتت استخفافهم بطبيعة العراقيّين ومدى قوّة المعارضة الوطنيّة ونفوذها بين البغداديّين لا سيّما ارتباطها بالمدن المقدسة. فعلى الرّغم من وجود نقاط ضعف لا يستهان بها بين صفوفها. فانّ من اهمّ نقاط قوّتها كانت تكمن في الاسناد الكبير الذي تتلقاه من المدن المقدّسة، لا سيّما وجود مدينة الكاظميّة كضاحية ملاصقة لبغداد قد اعطى لها قوّة روحيّة وسياسيّة للحركة الوطنيّة، كما كان لوجود الشيخ الامام مهدي الخالصي كاعلى مرجع ديني فيها تاثيرا كبيرا لما له من نفوذ واسع على الناس في المدينتين بغداد والكاظميّة.

كانت في بغداد صفوة كبيرة من المتعلمين والموظفين والعسكريّين السّابقين الذين زاد سخطهم حينما وجدوا انفسهم عاطلين عن العمل بعد سقوط الدولة العثمانيّة. ولا بدّ لنا هنا من الاشارة الى انّ البغداديّين سبق لهم وان مارسوا نشاطا سياسيّا خلال فترة الحركة الدستوريّة خلال سنوات 1913 ـ 1908 واوجدوا لهم بعض التنظيمات السّياسيّة (الحديثة)، كما اطلعوا على بعض الافكار والنظم العصريّة ممّا ولدّ عندهم وعيا وطنيّا وتطلعا الى التحرّر من السيطرة الاجنبيّة. لذا يمكن القول انّ الصفوة العراقيّة في بغداد كانت تدرك الى حدّ كبيرحجم قوّتها والدور الذي يمكن ان تلعبه. اما اهم نقاط الضعف في الحركة الوطنيّة بشكل عام ' فقد كانت تكمن في خطورة نشاطا ت ومناورات الفئة المؤيّدة لبقاء الحكم البريطاني من الصّفوة العراقيّة، وكذلك طبيعة التركيبة الطائفيّة للمسلمين العرب (الذين يشكلون اغلبيّة سكان العراق) وكذلك الاقليات العرقيّة والدينيّة الصّغيرة التي تساند غالبيّتها فكرة بقاء الحكم البريطاني في العراق.

كان لعودة " الصّفوة الشريفيّة " الى بغداد ـ كما اشرنا سابقا ـ ذات فائدة عظمى لخلق حالة من التوازن السّياسي بين المطالبين ببقاء الحكم البريطاني وبين دعاة " الاستقلال التام " واخراج البريطانيّين وهو الامرالذي لم يكن باستطاعة الحركة الوطنيّة تحقيقه انذاك، والذي كانت بريطانيا ترفضه تماما وهي في موقع القوّة على كافة الاصعدة الدّاخليّة والخارجيّة، الماديّة والمعنويّة. وقد ازداد الشريفيّون قوّة بانضمام الصّفوة البيروقراطيّة لهم، وهي تلك التي سبق لها وان خدمت الدولة العثمانيّة، وفي مقدّمتهم مجموعة نقيب بغداد السيّد عبد الرّحمن الكيلاني وولده محمود، وعبد المجيد الشاوي وعبد الغني كبّة ومصطفى الالوسي وجعفر عطيفة وعبد المحسن السّعدون واعيان اخرين من خيرة الاسر البغدادية من المسلمين

الشيعة والسنّة وكذلك من الديّانات الاخرى كالمسيحييّن واليهود. حيث ساعد انضمامهم على طرح شعار توفيقي وهو "المطالبة بعراق موحّد ومستقل وتحت راية أمير عربي مسلم من ابناء الشريف حسين بن علي امير مكة" . وحينما طالب الرّائد تيلر بردّهم اعلن علماء الدين فتاواهم التي تنصّ على انه "..لا يمكن للمسلمين القبول بغير المسلم ليكون حاكما عليهم.." وفي 9 كانون الاوّل هدّد رجال الدين بمنع اولئك الذين يصوّتون لصالح الحكم البريطاني من دخول المساجد. (د.خالد التميمي/المصدر/ص96)، (علي البازركان.. المصدر66-67).، Wilson،A.T.،op،cit،pp212،332-6)).

لقد كان واضحا انذاك انقسام الصّفوة العراقيّة الى تيّارين مختلفين:

احدهما يفضل الابقاء على الادارة البريطانيّة وهم القلة وان كانت مؤثرة، والاخر يطالب بادارة عراقيّة، وبالتقدم السريع نحو (الاستقلال التام). بينما نشط قليلون كحلقة وصل تحاول التوفيق بين التيّارين على ضوء الواقع المعاش انذاك، وابرزهم كان الزعيم السّياسي محمد جعفر ابو التمّن.

الصّفوة وشعار الاستقلال التام

وهو شعار رفعه المنتمون والمناصرون لجماعة "حزب حرس الاستقلال" ، وبقدر ما هو شعار وطني وواقعي في نظر "جماعة الحرسيين"، الا انه في نظر "جماعة العهد" على الرّغم من قبولهم وتحمّسهم له، يرونه غير واقعي وورومانسي وبعيد المنال انذاك بالنسبة لواقع المجتمع العراقي الذي كان قد خرج لتوّه من عهد عثماني مظلم ومتخلف امتد قرابة الاربعة قرون. وكذلك من جهة واقع الوجود العسكري البريطاني الذي كان قد اكمل سيطرته على العراق من الفاو جنوب البصرة وحتى زاخوا في اقصى شمال العراق، ومن حدود ايران شرقا وحتى نهاية البوادي الغربيّة للعراق. ومن هنا نشا استقطاب واضح بين اقطاب الصّفوة العراقيّة قبل قيام النظام الملكي ووصول الاسرة الهاشميّة للعراق.

كان الاستقطاب يمثل اختلافا واقعيّا في مستويات الصّفوة العراقيّة، اجتماعيّا وثقافيّا واقتصاديّا لاسباب تاريخيّة وجغرافيّا خارجة عن ارادة جميع العراقييّن. فالقيادات الكبرى من العهدييّن غالبيّتهم كانوا من كبار الضبّاط الذين سبق وان درسوا وتخرّجوا من كبار الجامعات والمعاهد في إستامبول ومدن اوروبا، وكذلك خدموا في مختلف ارجاء الدّولة العثمانيّة وعاشوا واقع الحياة العمليّة العسكريّة والمدنيّة واكتسبوا خبرات اداريّة واسعة. وجميعهم تقريبا من المسلمين السّنة، ومن اصول عرقيّة مختلفة كالتركيّة والكرديّة والمملوكيّة والكولمنديّة بالاضافة الى العربيّة. وانّ غالبيّتهم العظمى من اسر بغداديّة اصيلة. وكانت مؤهلاتهم المهنيّة والثقافيّة عاليّة وملفتة للنظر؛ فمثلا كان جعفر باشا العسكري يتقن ثمان لغات قراءة وكتابة، وكان نوري باشا السّعيد يتقن خمسة لغات وكان الجنرال

بكر صدقي يتقن ثلاث لغات، ومثلهم كان الجنرالات طه الهاشمي وياسين الهاشمي وعلي جودت الايّوبي وجميل المدفعي وبقية تلك الصّفوة العهديّة. بينما كان القسم الاخر من الصّفوة العراقيّة تتجّه يوما بعد يوم نحو الدّعوة الى تحقيق الاستقلال التام بشتى الوسائل السّلميّة او القتاليّة الثوريّة متمثلة بجماعة " حرس الاستقلال " ومؤيّدة من قبل المراجع العليا الدينيّة، وهم صفوة من زعماء واعيان بغداد من المسلمين الشيعة الذين لم ينالوا من التعليم سوى تلقي العلوم الدينية والعربيّة في (الكتاتيب والملالي) ولم تكن لهم من المؤهلات سوى ذكائهم الفطري وتجارب الحياة، واغلبهم كانوا يعملون في التجارة. واخرين من كبار زعماء القبائل العربيّة في وسط العراق من كبار ملاكي الاراضي والمزارعين في مناطق الفرات الاوسط الذين قادوا فيما بعد بكل شجاعة وجدارة واستعداد بالتضحية بالنفس والنفيس ثورة العشرين الكبرى.

بدا العهديّون العراقيّون نشاطاتهم بشكل واضح حينما خاطبوا اللجنة الاميريكيّة التي زارت انحاء سوريا في تموز 1919 م وطالبوا باسم العراقيّين ما يلي:

1 - نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي الذي يحتوي على ولايات ديار بكر والموصل وبغداد والبصرة ودير الزور، بحدوده السّابقة المعروفة مع قبول التصحيحات الحدوديّة المتفق عليها بين ايران وتركيا. (فكانت منادات صريحة وواضحة بوحدة الاراضي العراقيّة).

2 - ان يكون لنا في العراق حكومة مدنيّة دستوريّة ملكيّة، ويكون على ملكها احد انجال جلالة ملك العرب الحسين بن علي، كالامير عبد الله او الامير زيد.

3 - نحتجّ على فقرة الانتداب من المادة الثانية والعشرين من قرار عصبة الامم، ونرفضها رفضا باتا، ولا نعترف لايّة دولة كانت بحقوق تاريخيّة او سياسيّة او تقاليد في البلاد العربيّة المحرّرة (اشارة الى اطماع الصّهيونيّة في فلسطين).

4 - ما نحتاجه من المعونة في الامور الفنيّة والاقتصاديّة نستعين به من أميركا. على ان لا تمسّ باستقلالنا السّياسي التام.

5 - نرفض مهاجرة كلّ عنصر غريب عن العنصر العربي الى البلاد العربيّة المحرّرة كالهنود واليهود (اشارة الى مشروع استيطانهم في جنوب العراق وفي فلسطين).

6 - نطلب الاستقلال التام للقطر السّوري وان لا تكون حواجز سياسيّة او اقتصاديّة بين القطرين تمنع وحدتنا القوميّة ونرفض ما تدّعيه فرنسا في سوريا من الحقوق والتقاليد. (محمد مهدي البصير/تاريخ القضيّة العراقيّة/ص140)

وبعكس ما صوّر البعض عن استسلام العهديّن للبريطانيّن، فانّ خلافا قد دبّ بينهما حينما رفضت بريطانيا مقرّرات المؤتمر العراقي في دمشق رفضا قاطعا فكان ذلك (بمثابة نقطة الانفصام بين جمعيّة العهد والسلطات البريطانيّة)، (ولم يكتف العهديّون بالمنادات بل صاحب ذلك تحركا عسكريّا، وبالتحديد في 11 كانون الاوّل 1919 وهو موعد اول هجوم

على منطقة دير الزور، وبتبني من قبل عسكريّين عراقيين مثل ياسين الهاشمي ورمضان شلاش، رغم وجود معارضة من قبل اصحاب الاتجاه القومي الاخرين على هذه الخطوة) (د. وميض عمر نظمي/المصدر../ص148). فممّن عارض ذلك التحرّك العسكري الملك فيصل الاوّل ونوري السّعيد وجعفر العسكري نظرا لمعرفتهم بالواقع السّياسي وببواطن الامور، فقد كانوا يرون انّ ليس في مصلحتهم وليس من الحكمة تحدّي بريطانيا عسكريّا وعلنا، بل لابدّ من اتباع سياسة تمتاز بالدهاء وبالواقعيّة وهي التي عرفت فيما بعد بشعار فيصل في تلك المرحلة " خذ وطالب". لذا قام الملك فيصل بتنحية رمضان شلاش عن متصرفيّة دير الزور واستبداله بمولود مخلص وهو جنرال عراقي موال لفيصل ومطيع له وللدستور.

وقد اعقبت حوادث دير الزور ثورة تلعفر في حزيران 1920 التي تزامنت مع ثورة العشرين الكبرى في التوقيت، الا انّ قياداتها ذوي الرّتب العسكريّة العالية لتعاليها لم تبذل الجهود المطلوبة او الاهتمام الكافي من اجل التنسيق مع الزعامات الدينيّة والعشائريّة في الوسط والجنوب (الفرات الاوسط)، اذ ركزت جهودها على المناطق الشماليّة في العراق. ويرى ايضا باحثون اسلاميّون انّ " ...من الضروري الاشارة، الى انّ تجربتها المسلحة في الموصل، كان بالامكان ان تعطي نتائج غير التي اعطتها، لو انّ تنسيقا حصل بين الجمعيّة (العهد) وبين الحركة الاسلاميّة في وسط وجنوب العراق، حيث كانت الخطوات تجري بسرعة نحو اعلان الثورة المسلحة ضد الاحتلال. لو حصل هذا التنسيق، فانه حتما سيعطي نتائج مهمّة على مستقبل العراق في تلك الفترة. لكنّ تمسّك الجمعيّة بالنهج القومي هو الذي جعلها تنحصر في منطقة محدودة من العراق.."(حسن شبّر/المصدر/ص52). ولم يشر المؤلف هنا الى انطوائيّة طائفيّة شيعيّة في (الحركة الاسلاميّة) وعدم بذلها الجهد المطلوب للتنسيق مع العهديّين. يضاف الى ذلك انّ جمعيّة العهد (بنهجها القومي) بدات كاوّل تجربة عراقيّة مسلّحة لها بأرض وبمجتمع معروف بتمسّك غالبيّته بالمنهج الديني الاسلامي في(الموصل) وهذا ما دفع زعمائها الى طرح الشعارات الوطنيّة (العراقيّة) لا سيّما شعار الحفاظ على وحدة الاراضي العراقيّة وفي مقدّمتها عراقيّة ولاية الموصل التي كانت انذاك مهدّدة من قبل تركيا. الا انّه ومع كل النواقص والسّلبيّات فقد كان هنالك تعاون وتنسيق سرّي بين ابرز قادة العهد لا سيّما (نوري السّعيد وجعفر العسكري وجميل المدفعي ومولود مخلص، وبين الملك فيصل ايّام كان ملكا على عرش سوريا اذ كان يدعمهم ماليّا، وحينما اصبح ملكا على العراق فيما بعد اصبح العهديّون من رجاله المخلصين وبطانته المقرّبة ويطلق عليهم ايضا (الشريفيّون).

الصّفوة العراقيّة والاستفتاء العام - 1919

لم تخف على الادارة البريطانيّة في العراق الرّغبة الشّديدة لدى الغالبيّة العظمى من العراقيّن لتحقيق الاستقلال التام لوطنهم. كما لم يخف على المندوب السّامي البريطاني التحرّكات والاستعدادات التي بدات تطفو اخبارها على السّطح وتؤشّر الى احتمالات

لتحرّكات مسلّحة واسعة النطاق. لذا فقد اراد البريطانيّون استباق الاحداث واخذ المبادرة ومسك زمام الامور بايديهم باظهار احترامهم واستجابتهم لارادة العراقييّن.

لقد طلبت الحكومة البريطانيّة من مندوبها السّامي على العراق، السّير ارنولد ولسون، معرفة اراء الشعب العراقي والاجابة على ما يلي:-

اوّلا: هل يرغبون في دولة عربيّة واحدة تحت الوصاية البريطانيّة تمتد من الحدود الشماليّة لولاية الموصل حتى الخليج الفارسي؟

ثانيا: هل يرغبون في هذه الحالة في رئيس عربي بالاسم يرأس هذه الدولة الجديدة؟

ثالثا: من هو الرّئيس الذي يريدونه في هذه الحالة؟

وقد استجاب ولسون لطلب حكومته، ".. ففي نفس اليوم اصدر ولسون اوامره الى الحكام السّياسييّن في انحاء العراق باجراء الاستفتاء، على ان يأتي في نتائجه مطابقا لما تريده بريطانيا، اي السّيطرة على العراق...". (عبد الرزاق الحسني/تاريخ العراق السّياسي/ج1/ص 96).

لقد كان معروفا عن ولسون تهوّره وعقليّته الاستعماريّة وغطرسته وعدم فهمه لنفسيّة العراقييّن لا سيّما لكبار الزعماء العشائرييّن وصفوة قادة القبائل؛ حتى انه امر حكام المناطق (وهم بريطانيّون) برفض ايّة مضبطة لاتطابق ما ترغب به بريطانيا (حكم العراق بشكل مباشر). ولهذا السّبب جاءت ردود الافعال العراقيّة رافضة ومتحديّة لا سيّما في المدن المقدّسة " .. حيث اصدر كبار مراجع الدين فتاواهم بحرمة انتخاب غير المسلم، واعتبار كلّ شخص يرغب في حكومة غير مسلمة خارجا عن الدين.. " (حسن شبّر/المصدر../ص 53).

وفي التاسع من كانون الثاني1919 طلب السّير ا.تي. ولسون من كل من قاضيّي بغداد (السني والشيعي) تقديم قائمة باسماء خمسة وعشرين ممثلا للطائفتين للتباحث باسم جماهيرها حول مستقبل العراق. كما طلب من المسيحيّين ترشيح عشرة ممثلين منهم، ومن الطائفة اليهوديّة عشرين. واستجابة لطلب المندوب السّامي، نظّم القاضيان اجتماعا كان هدفه اختيار المندوبين، وخلال الحوار الذي جرى في الاجتماع المذكور برزت اصوات تدعوا الى الوحدة الوطنيّة والتقريب بين السنة والشيعة وبين المسلمين وغير المسلمين ووضع مصلحة العراق فوق كلّ مصلحة. واستطاع الحضور تحرير (مضبطة) وقعها سبعة واربعون من المندوبين تطالب بالاستقلال الكامل لعراق موحّد وعلى راسه احد ابناء الشريف حسين بن علي الهاشميّ امير مكة وان يكون نظام الحكم دستوريّا برلمانيّا انتخابيّا. وقدمت تلك المضبطة الى المندوب السّامي البريطاني. غير انّه، وبعد فترة وجيزة، كان هناك اجتماع منفصل لشريحة اخرى للصّفوة العراقيّة برئاسة القاضي الحاج علي الالوسي الذي وصفته التقارير البريطانيّة بانه على علاقة حميمة وصداقة مع المسؤولين البريطانييّن منذ

الاحتلال.. (F.O.371/4150/129679)، وقد نتج عن ذلك الاجتماع صدور عريضتين لصالح بقاء الحكم البريطاني، كما صدرت اخرى مشابهه لها قدّمها المندوبون المسيحيّون واليهود. وقد وقعّها الالوسي وخمسة واربعون من الحضور، ولكنّ الوجيه موسى الباججي واثنان اخران من الوجهاء تركوا الاجتماع واتهموا المجتمعين بالكفر وبخيانة الوطن.(F.O.371،4150/129679). هذا وارسل اعوان بريطانيا في بغداد والمدن المقدسة ومن مدن اخرى من العراق عرائض مضادة لمطالب الوطنييّن، الا انها لم تجد صدى ايجابيّا لدى النّاس الى درجة انّ الحكام السيّاسييّن انفسهم قد اهملوا مثل تلك العرائض.

استمرّت الاجتماعات التي كان يعقدها الوطنيّون في الجوامع والحسينيّات والتكايا وفي بيوتات الصّفوة من الزعماء الوطنييّن مما دفع ولسون الى استعمال القوّة لفضّها مستخدما قوّاته الامنيّة حتى لم تنج بعض البيوت من المداهمات (محمد مهدي البصير/المصدر.. ص137). كما منعت السّلطات البريطانيّة الاتصالات البرقيّة والرّسائل بين المدن العراقيّة لعرقلة التفاهم والتنسيق فيما بين قياداتها. واخيرا لجأت السّلطات البريطانيّة الى القاء القبض على عدد من القيادات النشيطة وتمّ نفيهم الى الهند. كما تقرّر القاء القبض على اثنى عشر من الزعماء الوطنييّن البارزين لنفيهم خارج العراق من بينهم محمد جعفر ابو التمنّ ويوسف السّويدي ومحمد مهدي البصير واخرين، وبفضل من تحذير صديقهم محمد حسين النوّاب الذي كان يعمل سكرتيرا للمندوب السّامي ومترجما في دار الاعتماد البريطاني تمكن ابو التمّن والسّويدي واخرون من الهرب من قبضة الانجليز في ايار/مايو1919.

(N.A.I. Delhi ، File no.27/211،p.2).

اصبح استقطاب الصّفوة العراقيّة بسبب الاختلاف في المواقف واضحا في بغداد بين الادارة البريطانيّة وانصارها من العراقييّن من جهة، وبين الحركة الوطنيّة التي تطالب بالاستقلال التام من جهة اخرى؛ لا سيّما بعد مطاردة زعمائها من قبل السلطات البريطانيّة. واخذت المقاهي والمجالس في البيوت البغداديّة تشهد حوارات سياسيّة حادّة وصلت الى حدّ الشتائم والاهانات والصدام بين الناس حول قضيّة الاستقلال. ولاجل اذكاء المزيد من الخلافات من جهة و(اعطاء الشرعيّة) لتحريف ارادة النّاخبين البغدادييّن؛ دعا المندوب السامي ولسون قاضيّي بغداد؛ السّني الشيخ علي الالوسي، والقاضي الشيعي الجعفري الشيخ شكر الله لاختيار 25 ممثلا عن كلّ طائفة، كما اوعز الى حاخام اليهود الاكبر ان يختار عشرين مندوبا يهوديّا وطلب من رؤساء الطوائف المسيحيّة ان يختاروا عشرة لتمثيلهم (Wilson،A.T.، Loyalties،op.ct.،pp332-4) ولكن كلا القاضيّين فوّتا الفرصة على السير ولسون حينما اعلنا با نّ المسؤوليّة الشرعيّة والوطنيّة لتنفيذ هذا الامر كبيرة جدّا ولا يستطيعان تحمّلها لوحدهما، وبدل ذلك دعيا الى اجتماع كبير لصفوة الاعيان والوجوه البغداديّة على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم لتقرير صيغة جواب البغدادييّن الى الادارة البريطانيّة (Wilson/Ibid)، وبذلك سجلت الصّفوة العراقيّة بهذا الموقف الموحّد احدى اروع صفحاتها التاريخيّة.

لقد لعب زعماء وطنيون من كلا الطائفتين، السّنية والشيعيّة، دورا اساسيّا في اختيار المندوبين الذين يطالبون باستقلال العراق الكامل ورفض الحكم البريطاني المباشر، الا انّهم فشلوا في اقناع الصّفوة من زعماء اليهود والمسيحيين لحضور الاجتماع العام المقترح.

وفي 22 كانون الثاني/يناير1919 في الحديقة العامّة قرب محلة المربّعة على شاطيء نهر دجلة في جانب الرّصافة، اجتمع المندوبون وكان عددهم 47 مندوبا، وقد حضر الاجتماع مسؤولون بريطانيّون برئاسة الكولونيل بلفور وكانت الجماهير البغداديّة خارج المكان تهتف بحماس بحياة الوطن والقادة والاستقلال. وقد القى الكولونيل بلفور خطابا اهمّ ما جاء فيه:

((بانّ العراق قد تعوّد على حكم الاجانب منذ قديم الزّمان، فقد حكمه المغول والاتراك والايرانيّون لانّه لا يستطع ان يحكم نفسه بنفسه. وعلى هذا يجب على العراقييّن ان يختاروا الإنكليز اوصياء عليهم او تحت انتدابهم او حمايتهم)). وحينما انهى بلفور خطابه وخرج من الاجتماع، اخرج الزعماء الوطنيّون مضبطة سبق وان اعدّت سابقا لتقديمها الى الحاكم العسكري العام فحواها انّ ابناء العراق سنّة وشيعة يطالبون ((بتشكيل دولة عربيّة موحّدة من شمال الموصل الى الخليج برئاسة ملك عربيّ هو احد انجال سيّدنا الشريف حسين مقيّدا بمجلس تشريعي وطني مقرّه عاصمة العراق بغداد.)) وقد حمل المذكرة اثنان من الزعماء الوطنييّن هما محمد جعفر ابو التمّن، وعبد الرّحمن الحيدري واعطوها الى الكولونيل بلفور، وحينما سألهما بلفور من اخترتم؟ اجابه أبو التمّن: "اخترنا حليفكم" . F.O.371.4150/12967 ((- 835394

لقد كان لاجتماع (المندوبين) ابعد الأثر في زيادة تحريك الوضع السّياسي انذاك وزيادة الوعي والرّغبة بالمطالبة بالاستقلال. وأصبحت لفظة المندوبين لها مدلول سياسي ووطني في تاريخ العراق الحديث كما نتج عن الاجتماع، كما سنرى، تطوّرات ثوريّة هامّة ونشاطات سياسيّة منظمة ذات طابع شعبي وثوري. كما احدث استقطابا في الصّفوة العراقيّة لا سيّما في المجتمع البغدادي بين دعاة (الاستقلال التام)، وبين انصار الادارة البريطانيّة الذين اصابهم الذعر الى درجة ان ذهب وفد منهم مؤلف من عبد المجيد الشاوي وجميل صدقي الزهاوي وعبد الكريم الجلبي وغيرهم وقابلوا ولسون وطلبوا منه ضرورة اعتقال عدد من القادة الوطنييّن ففعل ذلك. (علي البزركان/المصدرص67 ـ 66)

وفي البصرة حدث فيها ماحدث في بغداد من انقسام صفوة المجتمع ما بين مؤيّد للحكم البريطاني من امثال آل العبد الواحد وآل المنديل، وبين معارض للادارة البريطانيّة ومطالب بالاستقلال التام.

اما في الموصل فانّ اغلبيّة سكانها وصفوة مجتمعها كان لايزال ولاؤها و مشاعرها نحو اقامة حكومة اسلاميّة مستقلة في العراق نظرا لقوّة الالتزام الدّيني الاسلامي بين ابناء الموصل.

هذا ما كان من شان بغداد والمدن الكبرى الاخرى، اما المناطق التي تقع خارجها فقد كان لها اوضاعها الخاصّة لا سيّما في المدن المقدسة النجف وكربلاء وكذلك في الفرات الاوسط التي تقطنها العشائر العربيّة الشيعيّة ذات الولاء التاريخي للمراجع الدّينية. لذا اراد الإنكليز اجراء الاستفتاء فيها قبل بغداد من اجل افهام زعماء الحركة الوطنيّة في بغداد وفي المدن الاخرى بأنّ الادارة البريطانيّة قد حصّلت على تاييّد المدن المقدّسة ومناطق الفرات الاوسط، فاذا ما تمّ لهم ذلك فسيكون له اشدّ الأثر على نتائج استفتاء بغداد وبقيّة انحاء العراق لصالحهم. فقد صرّحت المس بيل السكرتيرة الشرقيّة في دائرة الاعتماد البريطانيّة بعد تصفية احداث (ثورة) النجف وخضوعها للادارة البريطانيّة: ((..وعلى هذه الشاكلة انتهى ماكان يعتبر ادقّ موقف لنا منذ احتلال بغداد!..)) (مجلة الموسم/نفس العدد/ص14)

لقد وضعت عمليّة الاستفتاء العام، والتي نظمتها الادارة البريطانيّة في العراق بكامل الاهتمام والجدّية، جميع ابناء الشعب العراقي، لا سيّما الصّفوة القيادية منهم، امام مسؤوليّاتهم الوطنيّة والشرعيّة بشكل جاد ومباشر. وكان للادارة البريطانيّة في العراق بزعامة المندوب السّامي ارنولد ولسون دورا اساسيّا في تازّم الامور وتصعيد خلافها مع العراقيّن، بما عرف عنه وعن موظفيه من استعلاء وصلف وغرور وايمانهم (برسالة) الرّجل الابيض تجاه الشعوب الاخرى (المتخلّفة)، تلك السيّاسة كانت استفزازيّة الى حدّ دفعت بالعراقيّين (المعتدلين والثوريّن) الى اعداد ثورة ورفع السّلاح على نطاق واسع وبقيادات مناطقيّة منظمة وموحّدة الى حدّ ما، كانت وستبقى هي الثورة الشعبيّة الوحيدة الجامعة التي يطلق عليها في تاريخ العراق الحديث بحق "ثورة العشرين الكبرى".

الصّفوة العراقيّة بعد الاستفتاء (1919-1920)

لقد انتهى عام الاستفتاء (1919) ولم تستطع الادارة البريطانيّة في العراق ان تحقق غايتها الاساسيّة في جعل العراقيّن يؤيّدون بقاء الادارة البريطانيّة المباشرة في بلادهم. وحينما أخذت تمارس الضغوط والاساليب القسريّة وتحاول دون ان تنجح في تزييّف ارادة العراقيّن، اصبح وضعها محرجا امام اصحاب القرار السيّاسي في لندن. وكذلك امام الرأي العام البريطاني والاميريكي (الذي كان مبهورا ومعّبا بالمباديء الاخلاقيّة التي اعلنها الرئيس الامريكي ولسون الاربعة عشر، لا سيّما شعار حق الشعوب في تقرير مصيرها، وبمباديء حقوق الانسان والمسؤوليّة الاخلاقيّة حول وعودهم التي قدمّوها لحلفائهم العرب) (F.O،371/5153/E.213). وأخذت كبار الصحف اللندنيّة تنشر مقالات قيّمة حول سوء اداء الادارة البريطانيّة في العراق مما جعل المندوب السّامي في العراق وادارته يزيد في قمعه للحركة العراقيّة (الثوريّة والمعتدلة على حد سواء) كي يعجّل في اعلان نتائج الاستفتاء وكانه قد حقق ما كان يصبوا اليه. وما ان نشرت الصحف البغداديّة في 3 مايس/1920 بلاغا رسميّا يعلن فيه قرار عصبة الامم بوضع العراق تحت الانتداب البريطاني، حتى تصاعد

غضب العراقيّين على اختلاف مكوّناتهم وأخذوا يعبرون عن مشاعرهم وسخطهم بشتى الوسائل العلنيّة والسرّية وبداوا يطوّرون قدراتهم التنظيميّة لمواجهة المرحلة القادمة.

جماعة حرس الاستقلال

حاول قادة العراق في اوّل الامر ان يرفعوا اصواتهم الى اوساط عالميّة لا سيّما الولايات المتحدة الامريكيّة لعرض مطالبهم المشروعة في الاستقلال، الا انّهم منعوا: " ..اذ منعت السلطات البريطانيّة وفدا من الذّهاب الى مؤتمر السّلم في فرساي عام 1919.وفي ردّة فعل على ذلك تشكلت جمعيّة سريّة اطلقت على نفسها اسم حرس الاستقلال، اسوة بالعهد العراقي.."(تشارلز تريب/صفحات من تاريخ العراق/ص79).

في اواخر شباط/فبراير1919 الّف صفوة من الوطنيّين العراقيّين جمعيّة سياسيّة سريّة، سمّيت " حرس الاستقلال " ،وكان على را س مؤسسّيها الوجيه الشيخ يوسف السّويدي وعلي البزركان وجلال بابان وناجي شوكت والشيخ باقر الشبيبي وعبد الغفور البدري وعبد المجيد كنة ومحمود رامز ومحي الدّين السهروردي وشاكر محمود. وفي تشرين الاوّل/ اكتوبرعام1919 عاد محمد جعفر ابو التمّن من سفرة عمل له في ايران وانضمّ للجمعيّة مثلما انضمّ اليها اخرون من امثال الدكتور سامي شوكت والسيّد محمد الصّدر، هذه الجمعيّة السريّة التي - وكما يبدو من سرعة تطوّرها - قد أصبحت مهمّة وذات صفة تنظيميّة حزبيّة.

لم يكن تأسيس جمعيّة حرس الاستقلال مجرّد ردّة فعل لنشاطات الادارة العسكريّة البريطانيّة في العراق، لا سيّما اجراءات نائب الحاكم المدني العام في العراق السير ارنولد ولسون في تشرين الثاني 1918 م، بل جاء كمحصّلة طبيعيّة لتطوّرات سابقة منذ نزول القوّات البريطانيّة في جنوب العراق عام 1914. وقد جاءت تلك التطوّرات على شكل مرحلتين: الاولى مرحلة المقاومة المسلحة ضد الجيوش الغازية جنبا الى جنب مع القوّات العثمانيّة وقد انتهت باحتلال البريطانيّن لبغداد عام 1917. والثانية مرحلة مواجهة الاحتلال كواقع على الأرض العراقيّة التي أصبحت تحت الاحتلال البريطاني من ادنى جنوبه وحتى اقصى شماله. وفي هذه المرحلة لم يبق بيد العراقيّين سوى اتخاذ موقف الترقب واختبار النوايا التي أعلنتها بريطانيا (بانها جاءت محرّرة لا فاتحة)، وهو موقف المندحر المجبر لا المخيّر، وقد دامت هذه المرحلة ثلاث سنوات تقريبا كان خلالها معظم صفوة الزعامات العراقيّة قد ابدت حسن النوايا واستعدادا للتعاون في اعادة بناء التعليم والادارة المدنيّة والصحافة والامن الداخلي. امّا بالنسبة الى مسؤوليّة الحفاظ على سلامة العراق وحدوده فلم يكن امام العراقيّين ايّ خيار سوى القبول بالقوّات البريطانيّة التي كانت قد باشرت برسم حدود العراق الدوليّة وتحكمّت في اعطاء اجزاء عزيزة وغنيّة منه وفقا لمصالحها واستراتيجيّتها المستقبليّة.

لقد مارست الصفوة العراقيّة في اوّل الامر اعلى درجات الصّبر مع ادارة الاحتلال على

الرّغم من الضّغط الشّعبي الهائل من اجل التحرّك العملي لتحقيق استقلال البلاد. ثمّ ما لبثت الاحداث ان أخذت تفرز واقعا جديدا تفرض التحرّك والاستعداد لمواجهة ساخنة مع المحتلين. وانه لامر ملفت للنظر انّ التحرّك والاستعداد كان يأخذ طابعا وطنيّا عراقيّا خالصا على كافة الاصعدة.

فمن حيث امكنة التجمّعات البغداديّة كانت غالبيّتها العظمى تحدث في اماكن وجوامع سنيّة كجامع الحيدرخانة وجامع الشيخ صندل حيث يحضرها جميع اطياف المجتمع البغدادي، كما كانت اماكن تحرّكات الفرات الاوسط (الشيعيّة) تحتضن مختلف المكوّنات العراقيّة من سنّة وكرد وتركمان وغيرها.لذا فحينما اطلع الناس على نوايا الادارة البريطانيّة في العراق ومحاولتها اجراء استفتاء عام صوري لامرار ما بيّتته من الحصول على الشرعيّة امام مؤتمر الصّلح في باريس،تنادى وجوه المجتمع وصفوة العراقييّن لاقامة اجتماع وطني عام (في جامع الحيدرخانة) كبداية لمرحلة جديدة من العمل الوطني العراقي وليس مجرّد " ..اقامة حفل اسلامي في احد جوامع بغداد.. " (حسن شبّر/المصدر..ص54). وما ان علمت السلطات البريطانيّة بنيّة القيادات السّياسيّة عقد ذلك الاجتماع، حتى قرّرت فض الاجتماع او منعه حتى ولو اضطرّوا لاستخدام القوّة في سبيل تحقيق ذلك. كانت نتيجة التوتّر ان قامت الادارة العسكريّة البريطانيّة بحملة اعتقالات لعدد من الرموز التي نظمّت الاجتماع. (مهدي البصير/المصدر..ص137)

وبعد حادثة جامع الحيدرخانة، لم تتوقف نشاطات الصّفوة الوطنيّة لمعارضة الادارة البريطانيّة وعمليّة الاستفتاء؛ وغدا توجّه الصّفوة نحو تأسيس حزب سياسي وطني عراقي موحّد ليقود المعارضة ويحرّر الوطن من الاحتلال الاجنبي وارتؤي ان يطلق عليه اسم حزب "حرس الاستقلال" . لقد كان ابرز مؤسّسيه من الشباب وهم:

1 - الشيخ محمّد باقر الشبيبي عالم ديني وشاعر مشهور عربي مسلم شيعي

2 - علي البزركان تاجر عربي مسلم سنّي

3 - جلال بابان محامي كردي مسلم سني

4 - محمود رامز محامي عربي مسلم سني

5 - محي الدين السهروردي عربي مسلم سني

6 - شاكر محمود عربي مسلم سني

وبعد فترة قصيرة انضمّ اليهم شخصيّات متميّزة في الموقع الاجتماعي واكبر عمرا وهم:

7 - السيّد محمّد الصّدر عالم ديني عربي مسلم شيعي

8 - الحاج محمد جعفر ابو التمّن تاجر عربي مسلم شيعي

9 - الدكتور سامي شوكت طبيب عربي مسلم شيعي

هذا وقد اجتمع الاعضاء المؤسسّون (لحرس الاستقلال) في كانون الاوّل واجروا انتخاب لجنة تنفيذيّة، وانتخب محمد جعفر ابو التمّن امين سرّ عام لها (الشيخ محمد مهدي البصير/ تاريخ القضيّة العراقيّة/ص 136).

انّ اهمّ ما نلاحظه على هذه التجربة التنظيميّة (الديمقراطيّة) اليوم، و قد مضى عليها تسعون عاما تقريبا مايلي:

اوّلا: انّ حزب حرس الاستقلال هو تنظيم سياسي وليس عقائدي، انشيء على اساس سياسي وطني ولم يضع شروطا عقائديّة للقبول. فقد فتح باب عضويته لكلّ مواطن عراقي مهما كان دينه او مذهبه او قوميّته او اتجاهه السّياسي. "..لقد نصّت المادة السّابعة من النظام الداخلي لحزب حركة الاستقلال على انه يجب على الجمعيّة قبل كلّ شيء بتوحيد كلمة العراقييّن على اختلاف مللهم ونحلهم وان تبذل اقصى ما يمكن من المجهودات للقضاء على كلّ بواعث الافتراق في الدّين والمذهب.." (محمد مهدي البصير/المصدر/ص 138)

ثانيا: تبني الحزب شعارا مركزيّا لا يختلف عليه ايّ عراقي وطني غيور فقد جاء في المادة الثانية من اهدافه؛ تسعى الجمعيّة المذكورة وراء استقلال البلاد العراقيّة استقلالا كاملا في دولة موحّدة تضمّ الولايات الثلاثة بغداد والموصل والبصرة وان يكون على راسها ملكا، على ان يكون احد اولاد الشريف حسين، شريف مكة وبشرط ان تكون الملكيّة ديمقراطيّة دستوريّة.

ثالثا: تبني الحزب شعار الوحدة العربيّة؛ فقد جاء في المادة الخامسة: (يجب على الجمعيّة المذكورة ان تفرغ قصارى جهدها في سبيل ضمّ المملكة العراقيّة الى لواء الوحدة العربيّة).

رابعا: اكدّت المادة الثالثة من منهاج حزب حرس الاستقلال على ان "..تعترف الجمعيّة باسناد منصب الملوكية في هذه البلاد الى احد انجال جلالة الملك حسين بن علي، على ان يكون ملكا دستوريّا ديمقراطيّا.." (محمد مهدي البصير/المصدر..ص38) (حسن شبّر/ ص56).

خامسا: كان لحزب حرس الاستقلال علاقات عمل سياسي مع تنظيمات واحزاب سياسيّة عراقيّة اخرى (سريّة وعلنيّة) وبمستوى ما يطلق عليه اليوم بالعمل الجبهوي، وهذا يدلّ على نضوج سياسي وشعور عال بالمسؤوليّة الوطنيّة. فقد تعاون هذا الحزب ميدانيّا مع زعماء وقادة حزب العهد (العراقي)، والذي كان من ابرز زعمائه الصّفوة الشريفيّة من امثال جعفر باشا العسكري ونوري السعيد وطه الهاشمي ومولود مخلص وجميل المدفعي واخرين، ووصلت ايجابيّة التعاون حدّ السعي لتوحيد الحزبين، ففي يناير عام 1919 تمّ تأليف لجنة مشتركة وعقدت اجتماعات لتحقيق وحدة الحزبين ولكن الاختلاف الرئيسي كان قد دبّ بينهما حول فقرة في برنامج العهدييّن والتي كانت تنص على ضرورة الاعتماد على بريطانيا والتي رفضها جماعة حرس الاستقلال رفضا قاطعا.

امّا تعاون حزب حرس الاستقلال مع (جمعيّة الشبيبة الجعفريّة) فقد كان طبيعيا واكثر انسجاما واتفاقا لاسباب عديدة: فقد تأسست هذه الجمعيّة بعد تأسيس حرس الاستقلال عام 1919، ولم تكن توجّهاتها بعيدة عن الحرسييّن (فقد كان معظم اعضائها من طلاب المدرسة الجعفريّة، وكان مؤسّسوها وقادتها (من امثال عبد الغني كبّة وسامي خوندة ومحمد حسن كبّة وصادق البصّام وعبد الرزاق الازري ورؤوف البحراني وذيبان الغبّان وصادق الشهرباني وباقر سركشك وصادق حبة وعبد العزيز القطان وجعفر حمندي ومحمد ميرزة وسليم الحريري واخرين) وجميعهم من المسلمين الشيعة الشبا ب ومن المقرّبين لقادة الحرس ولا سيّما من محمد جعفر ابو التمّن وعلي البازركان اللذان لعبا ادوارا مهمّة في التقارب السني ـ الشيعي وتوثيق عرى الوحدة الوطنيّة ومواصلة التنسيق مع المدن المقدّسة والمراجع الدينيّة. (د.خالد التميمي/المصدر..ص102 - 103)، (حسن شبّر/المصدر/ص58 – 61).

لقد ادركت الصّفوة العراقيّة ان دائرة المندوب السّامي ارنولد ولسون تنشط بين صفوف قادة العمل الوطني العراقي وتراقب جميع نشاطاتهم وتحصي انفاسهم متخذة من عيونها وسيلة لمعرفة ادقّ اسرارهم. لذا فقد لجا ت، وفي المقدمة كانوا جماعة حزب الحرس، الى تطبيق استراتيجيّة عمل المجابهة المباشرة وهي ان تكون نشاطاتها ومطاليبها وخطابها السّياسي واضح وعلني وعلى درجة عالية من التحدّي والاستعداد للتضحية من قبل جميع القوى العراقيّة افرادا وتنظيمات، وبذلك اسقط تماما ما كان بايدي الإنكليز ولم يبق لديهم سوى العودة الى سياسة فرّق ـ تسد واثارة الخلافات التاريخيّة والعقد المذهبيّة والعرقيّة وهذا امر لم يكن بخاف على احد انذاك.

لقد اتبعت قيادات الصّفوة العراقيّة اسلوب (المناورة) مع الادارة البريطانيّة، فمن جهة رفعت شعارها الاستراتيجي لمستقبل العراق، وهو المناداة (بالاستقلال التام) لعراق موحّد بولاياته الثلاث وعاصمة واحدة وهي بغداد، ومن جهة اخرى ان يرأس العراق ملك، على ان يكون احد اولاد شريف مكة (وكما هو معلوم انه صديق وحليف لبريطانيا)، (وبشرط ان تكون الملكيّة دستوريّة ديمقراطيّة). ومن جهة اخرى أخذت قيادات الصفوة تكثف من عقد الاجتماعات واستغلال المناسبات واللقاءات مع مختلف القوى للتركيز على قضيّتين مركزيّتين: الاولى نشر الوعي الوطني لمقاومة وباء الطائفيّة الذي أخذت تنشره وتغذيه المخابرات البريطانيّة وعملائها، والثا ني الاعداد التعبوي والنفسي لاحتمال الصدام المسلح مع الانجليز الذي بات وشيكا.

مستقبل العراق بين الاماني والواقع

لقد اثبتت الاحداث خلال فترة الحكم البريطاني المباشر للعراق وعمليّة استفتاء ولسون الذي كان هدفه المعلن (التعرّف على راي الشعب العراقي انذاك)، انّ الراي العام العراقي كان

قلقا بين ثلاث رغبات:

1 - اقامة دولة اسلاميّة في العراق.

2 - اقامة نظام جمهوري في العراق.

3 - اقامة مملكة دستوريّة ديمقراطيّة يرأسها ملك، احد ابناء الشريف حسين بن علي.

اننا حينما ننظر بامعان في مجريات الامور انذاك، وواقع العراق الوطني والسّياسي لا سيّما مكوّنات شعبه. فاننا نجد انّ مشروع اقامة دولة اسلاميّة في العراق كان يواجه عقبات حقيقيّة وتعقيدات تاريخيّة عميقة الجذور. فالاستقطاب (السنّي - الشيعي) بين العرب المسلمين يكاد ان يكون متقاربا عدديّا ونفسيّا. كما انّ الاحداث التاريخيّة، وفي مقدمتها واكثرها تاثيرا هو الصراع التاريخي [الصّفوي (الشيعي) - العثماني (السنّي)] الطويل قد ترك بصماته(حتى اليوم)على عرب العراق من المسلمين واثرّ على ولاءات ابناء الطائفتين حيث يتطلع غالبيّة الشيعة الى اسناد ايران، بينما يتطلع غالبيّة السّنة الى اسناد تركيا. لذا فانّ مشروع اقامة دولة اسلاميّة انذاك في نظر غالبيّة قادة الصّفوة الوطنيّة العراقيّة سوف يفتح بابا واسعا من الصّراعات الباردة والسّاخنة قد تمزق البلد الواحد والشعب الواحد وتعرّضه الى تفتّت وصدامات لا يحمد عقباها وتجعله قلقا وغير مستقر وعائقا حقيقيّا امام وحدته ومتطلبّات عمليّة اعادة بنائه بعد الخراب الواسع الذي سببّته الحملة العسكريّة البريطانيّة في العراق.

امّا الدعوة الى اقامة نظام جمهوري في العراق على غرار تركيا وغيرها فقد لقيت استجابة في اوّل الامر من قبل قلّة من العراقيين، ولكنّها كانت استجابة ضعيفة جدّا كما رفضت فكرة اقامة الجمهوريّة رفضا قاطعا من قبل الصّفوة الدينيّة ومن كبار زعماء قبائل الوسط والجنوب.

وعلى كلّ حال كان صاحب فكرة النظام الجمهوري قد تبناها السّيد طالب النقيب لنفسه وبدعم وتشجيع من صديقه البريطاني السّير جون فيلبي (الذي اراد ان يتقمّص لنفسه مع طالب النقيب دور لورنس مع فيصل) ولم تدم الفكرة طويلا حتى تلاشت تماما. وربما كانت فكرة اقامة نظام جمهوري في العراق احدى بالونات الاختبار التي اطلقتها الادارة البريطانيّة في العراق انذاك بهدف تقوية مشروع تتويج الامير فيصل بن الحسين ملكا على العراق.

وباختيار قيادات الصّفوة العراقيّة بما فيهم قادة حزب حرس الاستقلال للنظام الملكي الدستوري برئاسة احد انجال الاسرة الهاشميّة من ابناء الشريف حسين بن علي ملكا على العراق، قد اثبتوا وعيا ناضجا ونكرانا للذات، وحرصا على وحدة العراق ارضا وشعبا.

وعلى الرّغم من انّ بعض الباحثين ينظرون الى حزب حرس الاستقلال كونه قد بقي "... طوال عمره حزبا اسلاميّا في طبيعته اذ كان رئيس الحزب السيّد محمد الصّدر عالما شيعيّا معروفا...كما ان المرجع والمجتهد الاكبر الامام الشيرازي قد ساند الحزب وعضده وابدى ارتياحه للخطوط السّياسيّة التي حددّها الحزب لاتبّاعها.." (حسن شبّر/المصدر..ص57)،

الا انه على ارض واقع الاحداث كان حزبا سياسيّا حركيّا يعمل من اجل تحقيق استقلال العراق، فهو حزب وطني عراقي كان يسعى الى تحقيق بناء دولة عصريّة وكيان جديد اكثر مما كان حزبا أيديولوجيّا يدعو الى اقامة دولة اسلاميّة في العراق. ولمثل هذه الاسباب التفت حوله كافة الطوائف والمكوّنات الاجتماعيّة والسّياسيّة من سنّة وشيعة ومسلمين ومسيحيّين وعرب وكرد وغيرهم. حتى انّ جماعة حرس الاستقلال استطاعت "..ان تستوعب بعض شخصيّات العهد العراقي البارزين مثل عارف حكمت الذي انضمّ الى الحرسيّين وكذلك الشيخ سعيد النقشبندي رئيس فرع العهد في بغداد والذي شارك في العديد من نشاطاتهم..". (حسن شبّر/المصدر...ص 57 - 58).

كما انّ محاولات بناء علاقات التعاون والعمل المشترك بين حزب حرس الاستقلال وبقيّة القوى السّياسيّة العراقيّة لم تقتصر على السّاحة الداخليّة العراقيّة فقط، بل امتدّت الى المناطق المجاورة لا سيّما في بلاد الشام والحجاز، وكانت هناك مساعدات ماليّة وارسال الصّحف وبعض السّلاح بالقدر الممكن، كما "...وقد عززّت تلك العلاقات بالاتصالات المباشرة حيث كان لزيارة الشيخ المجاهد محمد باقر الشبيبي الى سوريا في كانون الثاني 1919 ولقائه مع رجال العهد تأثيرا حسنا على نفوسهم.." (حسن شبر/المصدر..ص59)، (محمد طاهر العمري/المصدر..ص60).

قاعدتان لنشاطات الصّفوة

تركزّت النشاطات الاجتماعيّة والسّياسيّة للصّفوة العراقيّة منذ بداية الاحتلال في نطاق قاعدتين رئيسيّتين هما: العاصمة بغداد ومنطقة الفرات الاوسط، مع وجود بدايات مشابهة لهما في شمال العراق في الموصل والجزيرة الفراتيّة وكذلك في شرقه (منطقة ديالى)، امّا المنطقة الكرديّة في الركن الشمالي الشرقي من العراق فلها خصوصيّتها في تطوّراتها العامّة التي مما لا شك فيه قد أثرت مثلما تأثرت وبشكل مباشر بمجمل العمل الوطني العراقي كقاعدة وطنيّة عراقيّة اصيلة سيكون لها حديثا خاصّا بها. ولهاتين القاعدتين خصائص تجعلهما محط الانظار لجميع ابناء العراق في كلّ تحرّك:

اوّلا: ففي بغداد حيث الثقل النوعي والتاريخي؛ السّياسي والجماهيري ووجود صفوة الاسر الارستقراطيّة وقادة المجتمع البغدادي بكافة دياناته ومذاهبه وقوميّاته، كان التحرّك دائما يبدا منها وينتهي فيها. كما كانت المدن القريبة منها وضواحيها (واشهرها الكاظميّة الملاصقة لها) تعطيها وزنا ومساحة واسعة في التحرّك وعمقا في المناورة. ولعلم بغداد باهميّة المناطق الاخرى خارج حدودها، فقد عيّنت قياداتها قبل البدء با يّ تحرّك اشخاصا نشيطين ليقوموا بدور اعضاء ارتباط مع المناطق الاخرى خارجها كان ابرزهم؛ الحاج كاظم ابو التمّن (عم محمد جعفر) وعلي البزركان والشيخ محمد باقر الشبيبي والسيّد كاطع العوّادي الذي

كانت له علاقات متميّزة مع قبائل الفرات الاوسط.

ثانيا: وفي منطقة الفرات الاوسط بما فيها من كثافة سكانيّة تعتبر الاعلى في العراق ومصادر متعدّدة للثروة الطبيعيّة والبشريّة حيث الثقل الكبير للقبائل العربيّة (واغلبها قحطانيّة) المسلمة (وغالبيّتها العظمى شيعيّة)؛ وارتباطها الرّوحي عبر التاريخ بالاماكن المقدّسة المنتشرة فيها، لا سيّما مراقد ائمة اهل البيت عليهم السّلام حيث تقع على اطرافها الغربيّة (النجف وكربلاء والكوفة)، يعطي لايّ تحرّك في بغداد او غيرها قوّة وزخم واسناد لا يمكن الاستغناء عنها. حتى يمكن القول انّ جميع احداث تاريخ العراق القديم والوسيط والحديث قد مرّ بهذه المنطقة ان لم نقل صنع فيها. ومثلما لا يستطيع زعماء القبائل فيها ان يتجاوزوا او يردّوا امرا للمرجعيّات الدينيّة، فكذلك الامر بالنسبة للمرجعيّات الدينيّة التي تحسب لزعماء قبائل هذه المنطقة الف حسا ب ولاتسمح لنفسها ان تتجاوز الخطوط الحمراء التي تمسّ مصالح الزعماء، حتىّ وان كانت محدودة وقليلة جدّا، وفي مقدمتها علاقة صفوة زعماء القبائل بجماهيرهم الفلاحيّة ومصالحهم الطبقيّة باعتبارهم كبار المزارعين ومسا لة حقوقهم المتوارثة في ملكيّة الاقطاعيّات الزراعيّة وهيمنتهم الشاملة على حياة الفلاحين الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة. ولهذا لم يسجّل لنا تاريخ العراق ايّ موقف ايجابي للمرجعيّات فيه دفاع جدّي عن حقوق الفلاحين.

ثالثا: لعبت هاتان المنطقتان الرّئيسيّتان (بغداد والفرات الاوسط) اهمّ الادوار في حياة العراق والعراقيين بشكل تضامني وتكاملي ولا يمكن ان تنفرد بالزعامة او الريادة ايّ منهما لوحدها، وهذه المسالة هي احدى السمات البارزة في تاريخ التنافس على الزعامة داخل الصّفوة العراقيّة سواء داخل تنظيماتها السيّاسيّة او في اطارها الاجتماعي والجغرافي العام.

رابعا:انّ قراءة سريعة في مذكرات قادة التحرّك السّياسي الوطني او في الشهادات التي ادلوا بها حول الاحداث التي وقعت في مناطق بغداد والفرات الاوسط وغيرها، منذ بداية انشاء الدولة العراقيّة الحديثة وحتى اليوم، يدرك تماما انّ هذا الشعب المعجزة (الشعب العراقي) كان في ذلك العهد دائما منسجما مع صفوته القياديّة، مدركا اهميّتها، ومتفاعل معها الى حد التكامل من اجل ترسيخ الوحدة الوطنيّة. فلو اخذنا كدليل على ما تقدّم؛ مذكرّات قائدين وطنييّن بارزين وهما (الشيخ فريق المزهر الفرعون زعيم ال فتلة في كتابه ـ الحقائق الناصعة)، والقيادي الوطني البارز(علي البازركان في كتابه ـ الوقائع الحقيقيّة) حول ما كتب عن الحركة الوطنيّة العراقيّة وعن نشطاء ثورة العشرين، نجد في كلا الكتابين امثلة عديدة ومواقف واضحة ومكشوفة على انّ التعصّب الطائفي والقبلي والحزبي لدى القادة من الصّفوة العراقيّة، والاثار النفسيّة التي تركتها فيهم صراعات البادية والرّيف مع المدينة، وتربّص المناطق البدويّة بالحضريّة الذي كان ولا يزال سبب الكوارث التي قاسى (ولا يزال يقاسي) منه العراق، لذلك نرى انّ غالبيّة الشعب العراقي تحاول ان تسدّ جميع المنافذ

والابواب بوجه الطائفيّة والعنصريّة ومروّجيها في كلّ مرحلة من مراحل تاريخه الحديث.

لقد استمرّت هذه المناطق الرئيسيّة للنشاطات الوطنيّة في فعاليّاتها المتنوّعة بفاعليّة واخلاص لتعمل ضمن محورين اساسييّن: المطالبة بالاستقلال التام وكذلك تدعيم الوحدة الوطنيّة. كما حافظت على صلاتها مع خارج بغداد، لا سيّما مع صفوة الفرات الاوسط والمرجعيّات الدينيّة؛ ففي رسالة اخرى بعثها اية الله الشيرازي الى قادة بغداد جاء فيها:

"...انّ حركتكم الاسلاميّة قد أفعمت قلوبنا غبطة..اننا نضمّ اصواتنا اليكم في الهتاف: نطالب بالاستقلال التام بدون تدخل اجنبي.. وينبغي عليكم ايضا المحافظة على حقوق المسيحيّين واليهود والاجانب، لئلا تعطوا حجّة حول سوء معاملتكم للاقليّات". (د. نظمي/ ص353).

انّ ممّا يجدر ملاحظته في خطاب ورسائل صفوة - المراجع ـ لا سيّما الشيرازي بقوله حركتكم الاسلاميّة ليؤكد -كامر مفروغ منه- اعتبار الحركة الوطنية العراقيّة انّها (اسلاميّة). على الرّغم من علمهم انّ الزعامات الاخرى خارج المدن المقدسة لم تكن لديها مطلقا مشروع اقامة دولة اسلاميّة في العراق الحديث على اسس وقواعد الشريعة، بل ارادوها ليبراليّة وعلى نمط الديمقراطيّات الاوروبيّة على الا تتقاطع مع الشريعة الاسلاميّة، وهو ما حدث فعلا فيما بعد. فكلا الطرفين ـ كما يبدو ـ كان يموّه على الاخر بدون الافصاح صراحة وتحديد هويّة الايدولوجيّة التي ستكون عليها الدولة الجديدة مهما كانت (مثلما حدث بوضوح فيما بعد عند اقامة الدولة السّعوديّة في بداية القرن الماضي والجمهوريّة الاسلاميّة في ايران ودولتيّ البعث في العراق وسورية في اواخر القرن الماضي وهذه جميعها قامت على اسس أيديولوجيّة)، فكان ذلك احدى اهمّ مظاهر العيوب التي تميّزت بها قيادات الصفوة العراقيّة التي تمتلك القرار الاوّل في العمل السّياسي؛ وهو عدم الافصاح بصراحة ووضوح عن أيديولوجيّة الاهداف الاستراتيجيّة لها واتباع اسلوب المراوغة (وتمشية الامور ولفلفتها) في ادقّ المواقف واخطرها على الصّعيدين: الديني والقومي لا سيّما تلك التي تحتاج الى الوضوح والصّراحة المعلنة في لحظة معيّنة عند التأسيس.

الاهداف والوسائل لدى الصّفوة

على الرّغم من تعدّد الاهداف الطمّوحة للشعب العراقي، وقد خرج لتوّه من هيمنة الدولة العثمانيّة، الا انّ الصّفوة القياديّة كانت تدرك حقيقة الوضع الذي كان عليه العراق وحدود قوّته الماديّة وامكانيّاته في تلك المرحلة. لذا فقد كانت قياداته تلجا في عملها اليومي الى الحوار والتشاور فيما بينها وتعقد الاجتماعات لتحقيق هدفين اساسييّن وهما:

رصّ الصّفوف واظهار تلاحم مكوّناتها امام الادارة البريطانيّة. وقد برزت هذه الظاهرة بشكل واضح خلال الاجتماعات العامّة التي نظمتها ادارة الاحتلال في طول البلاد وعرضها

اثناء فترة الاستفتاء العام والتي استمرّت حتى اواخر سنة 1919 كما مرّ بنا سابقا.

وفي 21 نيسان 1920 أثمرت اللقاءات واجتماعات ممثلي حزب حرس الاستقلال وبعض قيادات حزب العهد العراقي مع (مندوبَين اثنين عن الفرات الاوسط والنجف وهما الحاج عبد المحسن شلاش والسيّد هادي زوين اللذان قدما عن حزب النجف السرّي وجمعية الشبيبة الجعفريّة ـ وكلا التنظيمين صغيرين ـ ولكنهما جاءا ليتعرّفا على اراء قادة بغداد) عن عقد اجتماع كان في غاية الاهميّة. فقد عقد الاجتماع في دار حمدي بابان وهو من كبار صفوة اعيان الكرد وقد حضر الاجتماع السيّد محمد الصّدر والشيخ يوسف السّويدي ومحمد جعفر ابو التمّن والشيخ احمد الشيخ داود ورفعت الجادرجي وفؤاد الدفتري والشيخ عبد الوهاب النائب والشيخ سعيد النقشبندي ومحمد مصطفى الخليل. وبعد ان شرح موفدا الفرات الاوسط والنجف حالة الاستعدادات في تلك المناطق، طلب السيّد هادي زوين من المجتمعين ان يبيّنوا حقيقة استعدادهم وجديّة موقفهم لكي ينقلها الى العلماء ورؤساء القبائل هناك. فاجابه ابو التمّن: ((بانّ قادة بغداد مستعدون للعمل على ان يكون بنسبة ما يبديه العلماء ورؤساء القبائل من معاضدتهم..)) كما تقرّر في الاجتماع اختيار محمد جعفر ابو التمّن ممثلا عنهم وايفاده الى كربلاء للاجتماع بالمجتهد الاكبر الشيخ محمد تقي الشيرازي، وكذلك مع زعماء القبائل في الفرات الاوسط.

وفي 4 ايار/ مايس حضر ابو التمّن اجتماعا في دار المجتهد الاكبر الشيرازي والذي حضره ايضا القادة المحليّون (وقد ادّى القسم كافةً الحاضرين على اتباع تعليمات المجتهد الاكبر حتى ولو تطلب ذلك التضحية بارواحهم) ومن كربلاء توجّه ابو التمّن ويصحبه السيّد هادي زوين الى النجف حيث اجتمعا بالعلماء البارزين فيها من امثال الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ جواد الجواهري، وبينما كان محمد جعفر ابو التمّن وصديقه السيّد هادي زوين في ذروة حماسهم واتصالاتهم مع العلماء وزعماء القبائل، كان السيّد عبّاس زوين (ابن السيّد هادي) يكتب للمندوب السّامي البريطاني رسائل يطلعه فيها عن تلك النشاطات وما كان يجري في الاجتماعات التي عقدت انذاك. وبعد ان اكمل ابو التمّن والسيّد هادي زوين مهمّتهما عادا بعد ذلك الى بغداد لينقلا نتائج اتصالاتهما. (رسائل بخط يد وتوقيع السّيد عباس زوين في ملف التقارير السّريّة رقم: .no. 27/778. In. N.A.I (New Delhi) File

كانت الصّحف والمطبوعات العربيّة والاجنبيّة تدخل العراق عن طريق التهريب وبعيدا عن مراقبة السلطات منذ العهد العثماني، واستمرّت كذلك في عهد ادارة الاحتلال البريطاني. وكانت الصحافة المصريّة واللبنانيّة الاكثر تاثيرا في النشر المعادي للبريطانيين. ففي 3 ايار/مايس - 1920، نشرت الصّحف مقرّرات مؤتمر سان ريمو الذي اعلن فيه ان بريطانيا قد وافقت على ادارة العراق كدولة منتدبة ريثما يصل العراقيون مرحلة من النضج والتطوّر(تؤهله للاستقلال والقدرة على ادارة نفسه والدخول كعضو في عصبة الامم).(عبد

الرزاق الهلالي/دراسات وتراجم عراقيّة/ص20)،(عبد الشهيد الياسري/البطولة في ثورة العشرين/ص136).

صادف عودة ابو التمّن من جولته في الفرات الاوسط والمدن المقدّسة الى بغداد ان اصبح الوضع متوتر جدّا بسبب الاعلان الرّسمي عن مقرّرات مؤتمر سان ريمو الدّولي والذي بموجبها وضع العراق تحت الانتداب البريطاني. وبعد اجتماع طاريء دعت اليه قيادات حزب حرس الاستقلال، عقد في7/مايس ـ ايار/1920 في بغداد اجتماع موسّع ضم قادة الصّفوة العراقيّة حيث تمّت فيه مناقشة الوضع وموقف جميع الاطراف الوطنيّة سواء في بغداد او في الفرات الاوسط وراي المدن المقدسة وفي مقدمتها المرجعيّات الدينيّة وطرح مقترحات التحرّك والبحث عن الحلول بما في ذلك مقترح تشكيل حكومة وطنيّة في العراق،(محمد مهدي البصير/ص144 ـ 143).

انه لمن الملفت للنظر اننا نجد قيادات الصّفوة العراقيّة انذاك كانت على درجة عالية من الشعور بالمسؤولية الوطنيّة وبخطورة تلك المرحلة. فقد كانت تلك القيادات بالاضافة الى ما كانت تمتاز به من البساطة والتواضع والادب الجم (على الرّغم من علوّ مقاماتها الدينيّة والاجتماعيّة واتساع جماهيريّتها)، فانها كانت تفكر وتعمل باسلوب جماعي وشوروي (مترفعة عن اسلوب الانفراد و المحاصصة الحزبيّة او المتاجرة بارقام واعداد الشهداء) كما كانت تختار انسب الطرق والوسائل واكثرها واقعيّة وعمليّة لتحقيق الاهداف الوطنيّة الانيّة، لذا فقد تميّزت قراراتها بالشجاعة وبالحكمة والحسم. ولكي تصل الى وجدان الناس ولأجل ان تحقق افضل النتائج المرجوّة لتوحيد الصفوف؛ فقد عمدت تلك القيادات الى توحيد الخطاب السيّاسي بمطلب واحد لا يختلف عليه اثنان ومكوّن من كلمتين فقط:(الاستقلال التام)، كما اتفقت ميدانيّا على اتخاذ جميع اماكن العبادة والمناسبات الدّينيّة قواعد تنطلق منها مختلف نشاطاتها السيّاسيّة والاجتماعيّة لسببين:

اولا: انّ المساجد والجوامع والحسينيّات والتكايا هي الاماكن الوحيدة التي يعتقد فيها ابناء المجتمع بانّها في مناى عن العدوان والانتهاكات التي تقوم بها عادة سلطات الامن والبوليس البريطاني لما لها من قدسيّة واحترام.

ثانيا: انّ الشعائر الدّينيّة والمناسبات التاريخيّة التي تدخل ضمن الاطار الديني (مثل خطب الجمعة والمولد النبوي وذكرى استشهاد الامام الحسين في موقعة كربلاء) هي افضل المناسبات التي يمكن استغلالها للمّ الصّفوف وجمع الشمل واثارة المشاعر والعمل الوطني المشترك.

لذا ومنذ اواسط ايّار/مايس1920، تحوّلت تلك المناسبات تدريجيّا الى خلايا لنشاطات متنوّعة و تظاهرات وتجمّعات ضد الادارة البريطانيّة في العراق. كما أخذت تظهر وبشكل مقصود ابراز الوحدة والتضامن بين الشيعة والسنّة لا سيّما في مراحل تنظيم الاحتفالات واحياء المناسبات في المساجد والمحلات الشيعيّة والسنيّة بالتناوب وبحضور مكثف و مختلط

من زعماء وصفوة السنّة والشيعة وببرامج خطب واشعار مختلطة وهو امرلم يحدث من قبل وصفته التقارير السرّية البريطانيّة بانّ ((مثل ذلك الامر لم يسبق حدوثه من قبل في تاريخ الاسلام)). (F.O. 370، 5076/E8448/13/44)

كما عبّرت المس بيل عن قلق الادارة البريطانيّة في العراق برسالتها المؤرّخة في 1 حزيران 1920 جاء فيها:

"..نحن نشعر بالقلق وليس هذا القلق لخوفنا على سلامتنا ولكننا قلقون اذ لا ندري هل نستطيع ان نخرج من رمضان من غير ان يقع اضطراب.. ان المتطرفين اتخذوا خطة من الصّعب مقاومتها: وهي الاتحاد بين الشيعة والسنة، اي وحدة الاسلام" (نفس الوثيقة)....

ولم يكن الإنكليز وحدهم في خوف من هذا التقارب، بل انّ هناك عدد غير قليل من بعض الشخصيّات العراقيّة المتطرّفة من كلا الطائفتين وجدت في هذا التقارب خطرا على امتيازاتها ومنافعها الخاصّة، ومع ذلك فان مثل هذه الشخصيّات لم تستطع التخلف عن حضور هذه المواليد خوفا من اتهام الناس لها بالعمالة وبالكفر. لقد كتبت المس بيل في تقاريرها:

انّ سليمان فيضي كان يحذر الإنكليز من خطورة هذا التقارب الطائفي على مصلحة الطرفين - على حدّ تعبيره - الإنكليز وابناء السنة. ودعاها (للمس بيل) الى ضرورة عقد اجتماعات شعبيّة وتأسيس نوادي لتعليم الناس بضرورة فصل الدين عن السيّاسة، كما اخبرها ايضا ان مثل هذا الاتحاد الطائفي بين السنّة والشيعة هو من ابغض الامور الى نفسه لانه سيؤدي الى سيطرة الشيعة والتي هي كارثة لا يمكن تصوّرها.وحينما سالته (المس بيل) عن سبب حضوره مثل هذه الاجتماعات اجاب بانه كان تحت ضغط شعبي شديد.

لم يجد الإنكليز حلا لوقف هذه الاجتماعات الدينيّة الا بالتخريب من داخلها، او باستعمال القوّة المباشرة. وقد نفذوا مخططهم الاوّل حيث أرسلوا وكلاءهم والمتعاونين معهم بهدف طرح شعارات متطرّفة جدا او اثارة نقاشات تاريخيّة حسّاسة قد اكل الدهر عليها وشرب بين المجتمعين لتؤجج النعرة الطائفيّة. ولكن المشرفين على التنظيم اسكتوا المشاغبين فورا وفي اللحظة المناسبة منبهّين الحاضرين الى انّ الخطر الحقيقي هو العدو المشترك "الإنكليز" وان الغاية الاساسيّة المرجوّة هو الاستقلال التام. وحينما فشل المخطط الاوّل لتخريب الاجتماعات لجأ الإنكليز الى الاعتقالات وابعاد العناصر الوطنيّة المعارضة الى مناطق نائية في العراق خارج بغداد كما أشرت سابقا.

موقف الادارة البريطانيّة من المعارضة

كان موقف الادارة البريطانيّة من جميع النشاطات السيّاسيّة في البداية هو موقف المراقب الذي يدرس الاوضاع بدقة وحذر شديدين. وقد أثارت الاجتماعات العامّة والدينيّة (التي

صادفت في اواخر شهر شعبان وليالي شهر رمضان بكامله حيث تزداد في هذين الشهرين المناسبات الدينيّة لدى الطائفتين) مخاوفها لا سيّما تزايد حالة الانسجام والتعاون الغير مسبوق بين السنة والشيعة. وعلى الرّغم من محولات دار الاعتماد والسكرتيرة الشرقيّة المس بيل بشكل خاص بدعوتها (الاصدقاء والانصار) الى حفلات الشاي التي كانت تقيمها في حدائق دارها، الا انها لم تنجح الا مع عدد قليل منهم. بل بالعكس أخذت الاجتماعات الحماسيّة تزداد والمطالبة بالاستقلال الوطني تزداد نوعا وكمّا وبجراة غير معتادة حتى وصل الامر سوءا ان بدات السلطات البريطانيّة بمنع الاجتماعات بالقوّة واعتقال البارزين فيها.

لقد بدات مرحلة الصدام فعلا في جامع الحيدرخانة حينما اعتقلت الشرطة الشاعر عيسى افندي الريزلي (وهو من صغار الموظفين الاداريّن) بسبب القائه قصيدة وطنيّة حماسيّة ذكرّت المجتمعين بغدر الانجليز وخياناتهم للعرب، فنفي الى البصرة في25 ايّار/مايو 1920 ممّا سبّب قيام تظاهرات. (F.O.371،5076/E8611/13/44)

تصاعد ت حالة التوتر بسبب وصول انباء صحفيّة حول قرار عصبة الامم وضع العراق تحت الانتداب البريطاني من جهة، وكذلك بسبب استعمال الادارة البريطانيّة سياسة القسوة والسجن ونفي المواطنين خارج بغداد من جهة اخرى. لذا دعت قيادة حرس الاستقلال الى عقد اجتماع في دار محمد جعفر ابو التمّن لمناقشة الوضع. وصادف ان وصلت للمجتمعين انباء التظاهرات والمصادمات والاعتقالات وبعد دراسة وحوار قرّر المجتمعون الاحتجاج لدى سلطة الاحتلال مع اظهار القوّة الجماهيريّة المساندة للمفاوضين. وفي السّابع من رمضان، والموافق (السادس والعشرين ايّار/مايس1920) انعقد التجمّع الجماهيري الكبير في جامع الحيدرخانة (وهو من اضخم جوامع الطائفة السنيّة ويقع في وسط بغداد) حيث كان اختياره مناسبا لكي يتحقق فيه هدفان استراتيجيّان؛ الوحدة المنشودة بين الطائفتين والتسهيل لتنظيم اكبر حشد جماهيري بسبب قربه من اكبر اسواق بغداد وورش العمل الشعبيّة. لذا كان التجمّع حاشدا "..اذ امتدّ تجمهر الناس في شارع الرّشيد من جامع مرجان ـ فجامع الحيدرخانة ـ وحتىّ باب المعظم.."، "..وكان عدد المتظاهرين ما يقارب العشرين الف.. " وبسبب حالة الهياج والحماس الجماهيري تدخلت قوّات انجليزية صاحبتها سيّارتان مصفحّتان بريطانيّتان وجرى تراشق بالحجارة واطلاق نار؛ قتل رجل واحد وجرح اثنان من المتظاهرين، غير ان الاجتماع تفرّق في المساء. (علي البازركان/ الوقائع الحقيقيّة في الثورة العراقيّة/ص95) وتصف التقارير السّريّة البريطانيّة كيف انّه في اليوم التالي للاجتماع دعا الحاكم العسكري البريطاني (بلفور) كلا من محمد جعفر ابو التمن وعلي البزركان والشيخ احمد الداود والشيخ مهدي البصير وانبّهم وحمّلهم مسؤوليّة الاحداث وعدم الاستقرار فردّ عليه ابو التمّن بان الطريق الوحيد المؤدي الى هدوء الناس واستقرارهم هو قيام حكومة وطنيّة مستقلة في العراق مما اغضب الحاكم العسكري واخذ يضرب على الطاولة وخلفه كان يقف عبد المجيد الشاوي واثنان من القادة الإنكليز. ثم اخذ يهدّدهم بمغبة العواقب ولم يلجا

الحاكم العسكري الى اعتقالهم في تلك السّاعة بسبب وجود الجماهير الغفيرة خارج المبنى تهتف بحياة القادة واستقلال الوطن وانه ليس من الحكمة استفزازها. (F.O.371،5076/ E8864/13/44)

اجتماع جامع الشيخ صندل

لم تضعف اجراءات قوّات الاحتلال البريطانيّة من عزيمة صفوة القيادة الوطنيّة، بل استمرّت في نشاطاتها؛ ففي 31 اذار/مارس1920 اجتمع حشد عظيم في جامع الشيخ صندل القى فيه قادة واعيان الحركة الوطنيّة الكلمات والقصائد الحماسيّة. وكان اهم ما يلفت النظر في الاجتماع هو دعوة وحضور الصّفوة من اعيان المسيحيّين واليهود ومساهمتهم في النشاطات الوطنيّة. كانت مبادرة الوطنييّن هذه في بغداد استجابة لرسالة وردت من الامام محمد تقي الشيرازي الى محمد جعفر ابو التمن وقرات اثناء الاجتماع واهمّ ما جاء فيها:

"... فشكر الله سعيكم ومساعي اخوانك واقرانك من الاشراف وحقق المولى امالنا وامال علماء حاضرتكم الذين قاموا بواجباتهم الاسلاميّة، هذا واننا نوصيكم ان تراعوا في مجتمعاتكم قواعد الدين الحنيف والشرع الشريف فتظهروا انفسكم دائما بمظهر الامة المتينة الجديرة بالاستقلال التام المنزهة عن الوصاية الذميمة وان تحفظوا حقوق مواطنيكم الكتابييّن الداخلين في ذمّة الاسلام وان تستمروا على رعاية الاجانب الغرباء وتصونوا نفوسهم واموالهم واعراضهم محترمين كرامة شعائرهم الدينيّة كما اوصانا بذلك نبيّنا الاكرم صلى الله عليه وسلم والسلام عليكم وعلى العلماء الاشراف والاعيان..". F.O.371،5076/ E8864/13/44)) وقد قرات هذه الرسالة بعد ذلك في اغلب مساجد بغداد واجتماعاتها لتظهر للناس تأييد القيادة الدينيّة لنشاطاتهم.

طلب القادة الوطنيّون موعدا لمقابلة ارنولد ولسون "المندوب السامي" البريطاني وكالة لغرض الاجتماع بـ 15 مندوبا سبق وان اختيروا في اجتماعات سابقة كما اشرنا سابقا. وفي 2 حزيران/يونيو1920 اجتمع ولسون بالمندوبين ولكنه رفض اعتبارهم ممثلين للشعب العراقي واخبرهم بانه سيعيّن 25 مندوبا ليضم ممثلين عن اليهود والمسيحييّن. اجتمع المندوبون الخمسة عشر وهم:

محمد جعفر ابو التمّن وعلي البازركان (والسيّد محمد الصّدر بدلا من الحاج عبدالحسين الجلبي الذي تغيّب بسبب مرضه) ويوسف السويدي والشيخ احمد الداود والشيخ سعيد القشبندي وفؤاد الدفتري وعبد الوهاب النائب وعبدالرحمن الحيدري وعبد الكريم حيدر والحاج ياسين الخضيري ورفعت الجادرجي ومحمد مصطفى خليل واحمد الظاهر وابو القاسم الكاشاني مع المندوبين الذين عينهم ولسون ونجح القادة الوطنيّون بجعلهم يوقعون على العريضة التي ستقدم الى ولسون والتي تحمل المطاليب التالية: (F.O.371/5076/

(E8611/44

اولا: تشكيل مجلس تأسيسي شعبي منتخب انتخابا حرّا وباسرع وقت ممكن لتقرير مستقبل العراق السّياسي وتأليف حكومة وطنيّة تدير شؤون العراق الداخليّة والخارجيّة.

ثانيا: اعطاء الحرية الكاملة للصحف والمطبوعات للتعبير عن اراء ومعتقدات وطموحات الامّة.

ثالثا: اطلاق حريّة الاتصالات البرقيّة والتلفونيّة والمراسلات داخل العراق وخارجه.

لم يجد ولسون بدا من اعطاء المندوبين وعدا بانه سيبحث مع حكومته هذه المطاليب وسينظر فيها سيّما وان الجماعة الذين عينهم كانوا من بين الموقّعين عليها.

ثمّ اختار المندوبون الخمسة عشر من بينهم خمسة زعماء ليكونوا لجنة تنفيذيّة وهم: ابو التمّن وعلي البزركان واحمد الداود ويوسف السويدي ومحمد الصدر. (F.O.371،5078)

اجتمع المندوبون في دار عبد الرحمن الحيدري وتدارسوا الوضع العام واتخذوا قرارات اهمّها الاستمرار بمختلف انواع النشاطات السيّاسيّة وفي مقدمتها تقديم الاحتجاجات حول اعتداءات القوّات البريطانيّة. وقاموا بالفعل بتقديم احتجاجا شديد اللهجة لاطلاق سراح الشاعر عيسى الرّيزلي المنفي في البصرة، وارجاع نجل اية الله الشيرازي واصحابه المنفيّن من كربلاء والسيّد رؤوف الامين وجماعته من الحلة. كما قرّروا ايضا توثيق عرى العمل والتنسيق مع الفرات الاوسط والمدن المقدسة. فقرّروا بهذا الصّدد ارسال مندوب الى كربلاء للتنسيق مع المرجعيّة واختير محمد جعفر ابو التمّن لذلك فذهب الى هناك وقابل اية الله محمد تقي الشيرازي وعاد في الاوّل من حزيران/يونيو1920 ومعه رسالة الشيرازي التي يلاحظ عليها ما يلي:

1 ـ انها موجّهة الى العراقيّين بجميع مكوّناتهم.

2ـ ناشد فيها العراقيّن الى التعبير عن تضامنهم مع الاهداف الوطنيّة بطرق (ديمقراطيّة) سلميّة كالتظاهرات وتقديم العرائض والاجتماعات السلميّة.

3ـ احترام حقوق غير المسلمين (بالمحافظة على جميع الملل والنحل).

ومن الدلائل التي تؤكد على تضامن قيادة بغداد بالمرجعيّات هي حالة التنسيق مع مرجعية اخرى؛ ففي رسالة جوابيّة من شيخ الشريعة الى جعفر ابو التمّن مؤرّخة في الاوّل من حزيران/يونيو 1920 يؤكد فيها انه كان مرتاحا بصدد ما اخبره باقر الشبيبي حول الاجراءات التي اتخذت ضدّ العدو (الإنكليز) ويعبّر عن مساندته في مطاليب الاستقلال التام وينصحه بالحفاظ على حقوق الاقليات الدينيّة وخاصّة المسيحيّين واليهود. هذا وكان من المألوف قراءة رسائل اخرى في

تجمّعات بغداد مرسلة من النجف وكربلاء تؤيّد مطاليب بغداد في الاستقلال الكامل دون انتداب او حماية اجنبيّة. F.O.371،5076/E8864/13/44))

لقد كانت القيادات السيّاسيّة للصّفوة العراقيّة على درجة عالية من الوعي تجّاه ايّة مناورة قد تقوم بها دائرة المندوب السّامي وبالاخصّ فيما يتعلق بوحدة السنة والشيعة او بين المكوّنات الاخرى للمجتمع العراقي؛ فحينما انتشرت اشاعات قويّة بين الطائفتين اليهوديّة والمسيحيّة مفادها بانّ ارواحهم واملاكهم معرّضة للخطر بسبب موقفهم الموالي للانكليز، قام ابو التمّن واعضاء اخرون فورا بالتحرّك لتهدئة مخاوف الطائفتين من خلال توزيع منشور مؤرّخ في 29/5/1920 في المحلات المسيحيّة واليهوديّة جاء فيه:

((الى جميع اخواننا من ابناء الوطن الاعزاء، مسيحييّن ويهود...لابدّ من التوضيح اليكم ايها الاخوة، باننا في هذا البلد شركاء في السرّاء والضرّاء. اننا اخوة، وقد عا ش اجدادنا بصداقة وتعاون. ارجو الا تعتبروا بانّ التظاهرات التي يقوم بها المواطنون سوف تؤثر على حقوقكم. اننا سوف نستمر في تقييم واحترام صداقتنا.انّ جميع التظاهرات التي جرت لم يبد فيها ايّ مسّ لاحترامكم سواء انتم او أيّ مواطن اخر. اننا لا نسعى الى ايّ هدف سوى مطالبة حكومتنا الحاليّة لتحقيق تعهداتها لشعبنا العراقيّ والتي نشرت في الصّحف. ولهذا فا ننا ندعوكم للمشاركة في كلّ شيء هو لصالح شعبنا. عليكم ان تتأكدوا بانّ اتحادنا والتأييد المتبادل سوف يتوضّح اننا مرّة اخرى ندعوكم باسم الوطن والوطنيّة لنتحّد لكي نكون ارضيّة واحدة لكي نعمل لاجل تحقيق مبادئنا وسعادتنا المقبلة وتجعلونا بذلك شاكرين)).
(F.O.371،5076/E8611/13/44)

لقد كانت ردود الافعال عن المنشور جيّدة وايجابيّة لدى كافة الطوائف. خاصة اذا علمنا بانّ بيانات ومنشورات مماثلة قد وزعت في الموصل وضواحيها حيث التواجد المسيحي فيها كبير. ".. لقد توجّه المطارنة السّريان والكلدان في بغداد سويّة مع القساوسة والوجهاء الكلدان اللاتين والارمن، الى الكاظميّة في18/حزيران/يونيو1920، لتهنئة العلماء ـ كالسيّد محمد الصدر وغيره (بمناسبة عيد الفطر) كما قام وفد يهودي برئاسة الحاخام الاكبر بزيارة العلماء ايضا.." (د.نظمي/المصدر../ص 365)

لقد أصبحت الاحتفالات بالمناسبات الدينيّة (السنيّة والشيعيّة) مبعث قلق وعدم ارتياح لدى الادارة البريطانيّة في العراق، ولذلك قررت منعها رسميّا ابتداء من14اب/اغسطس1920. ومع كلّ تلك الضغوط والتهديدات بقيت الاجتماعات مستمرّة، بل أخذت تزداد عدديّا وتنظيميّا وبشكل موحّد بين مختلف مكوّنات الشعب العراقي. وعلى اثر ضغوط الادارة البريطانيّة ومنع ممارسات النشاطات السيّاسيّة والدينيّة بالقوّة المسلّحة، كتب قادة المندوبين (اللجنة التنفيذيّة) رسالة الى دائرة نائب المندوب السّامي المستر اي. تي. ولسون في 28 مايس/ مايو1920 طلبوا فيها مقابلته كمندوبين عن بغداد والكاظميّة لعرض مطاليبهم.

وفي 2 حزيران/يونيو 1920 استقبلهم في دائرته في مبنى السّراي (القشلة) وكانوا خليطا من الوجهاء والاعيان وكبار المثقفين وقد كانوا على علم مسبق بان نائب المندوب السّامي قد وافق على المقابلة لانّه قد بيّت لهم امرا وهو معاكسة مطاليبهم بفريق آخر موالي

له ومعاكس لهم مكوّن من عشرين شخص من وجهاء بغداد واعيانها وهم: محمود الكيلاني، وعبد المجيد الشاوي، وعبدالقادر الخضيري، ومحمد حسن الجوهر، والشيخ شكر، وصالح العلي، وعلي الالوسي، وخسرو قيومجيان، وساسون حسقيل، وعزرا دانيال، ويهودا زلوف، ومحمود الشابندر، ومحمود الاطرقجي، وجعفر عطيفة، وجميل صدقي الزهاوي، وعبدالكريم الجلبي، ومحمود الاسترابادي، وعبدالحسين الجلبي، وصالح المللي، وعبد الجبار الخيّاط. (وقد نقل هذا الخبر- للوطنييّن تطوّعا مستخدم يهودي كان يعمل في مكتب الحاكم العسكري). (F.O.371،5227/E6060/2719/44)

لقد قرّر المندوبون الخمسة عشر الاجتماع بمرشحي ولسون بهدف الحوار معهم؛ واختاروا من بينهم اربعة لهذه المهمّة وهم: محمد جعفر ابو التمّن والشيخ احمد الشيخ داود والسيّد محمّد الصدر والشيخ يوسف السويدي، وبعد حوار قبل المعيّنون من قبل ولسون دون اعتراض فيما بعد بالمطاليب التي يريد عرضها المندوبون. (د.خالد التميمي/المصدر../ص111)

كانت اخبار نجاح الاجتماع قد وصلت الى الجماهير المحيطة بالمكان (السّراي) ممّا زاد من حماستهم، وربما كان لتظاهرتهم اثرا كبيرا في موافقة مرشحي ولسون ووضع تواقيعهم على مطاليب المندوبين الخمسة عشر واهمها: تشكيل مجلس فعّال لتحديد مستقبل العراق السيّاسي، وتشكيل حكومة وطنيّة لرسم وممارسة السيا ستين الداخليّة والخارجيّة، واعطاء الحريّة الكاملة للصّحافة، والسّماح بالتعبير الحرّ عن الافكار والتطلعا ت وحريّة الاتصالات البريديّة والبرقيّة داخل الوطن وخارجه. (F.O.371،5077/9490/13/44)

لم يكن امام ولسون من خيار سوى مجارات قيادة صفوة بغداد والكاظمية بان يعدهم بانه سوف يحث حكومته على النظر في مطاليبهم لا سيّما بعد ان راى حجم التأييد الجماهيري للمندوبين وبعد ان سمع بزيارة زعيم الطائفة اليهوديّة في بغداد للوجيه الشيخ يوسف السّويدي (احد اهم اعضاء اللجنة التنفيذيّة للمندوبين الخمسة عشر) واتفاقه معهم على اتخاذ موقف موحّد في مواجهة نائب المندوب السّامي. (F.O.371،5076/E8611/13/44)
ففي خطابه الطويل لجلسة الافتتاح مع وفد المندوبين (وكان حسين افنان يلقيه بالعربيّة بدلا عنه وبحضور المستر بونام كارتر ناظر العدليّة) وقال ايضا:"... انّ (حكومة صاحب الجلالة) ترغب في اقامة حكومة وطنيّة في هذه البلاد... وانّ التاخير الذي حصل.. يعود الى اسباب خارجة عن اراد تنا.. انّ من واجبي ان احذركم من انّ ايّ تحريض في المستقبل على العنف وايّ اثارة للعنفيّات ستواجه باجراءات شديدة.. سانتقل الى مسالة شكل الحكومة القادمة.. وبامكاني القول، بوجه عام، ان الاسس التي سرنا عليها هي التالية:

اننا نرغب في اقامة مجلس دولة برئاسة عربي، لادارة شؤون البلاد الى حين طرح مسالة الدستور النهائي لما بين النهرين على الجمعيّة التشريعيّة التي ينوى تشكيلها..) (بازركان/المصدر../ص118) وقد ردّ الشيخ يوسف السّويدي على الخطا ب نيابة عن الوفد مكرّرا طرح المطاليب السّابقه التالية:

اولا: تشكيل مجلس عراقي يمثل البلاد ويقرّر شكل الحكومة العراقيّة القادمة.

ثانيا: حريّة الصّحافة.

ثالثا: رفع القيود عن الاتصالات البريديّة والبرقيّة في داخل البلاد مع العالم الخارجي.

ويلاحظ انّ السويدي قد طرح المطاليب المتفق عليها سابقا كما أشرت بلغة هادئة. وقد اضاف السيّد محمد الصّدر على الطابع السلمي للحركة وانها لا تتعارض مع وعود الحلفاء. كما اضاف السويدي بان المطاليب تنسجم مع ما قاله ولسون نفسه. ثم سال لماذا التأخير في تشكيل الحكومة الوطنيّة؟ وقال محذرا انّ صبر الامّة قد بدا ينفذ. وهنا ابدى الفريق (الموالي لبريطانيا) تأييده لمطالب المندوبين مما دفع ولسون (المشهور بعنجهيّته) الى التهديد المغلف بالنصيحة بانّ "..عليهم ان لا ينخدعوا بالمظاهر، فقد بقيت بلاد ما بين النهرين تحت الحكم الاجنبي لمدة أربعمائة عام ولا يمكن اقامة حكومة وطنيّة اهليّة على الفور، حتى مع توفرّ احسن النوايا في العالم. يجب ان تكون العمليّة تدريجيّة، والا فالكارثة واقعة لا محالة ..." (د. نظمي/المصدر..ص368).

لم يكتف القادة الوطنيّون بهذه النشاطات بل قاموا بحملة جمع تبرعات للحركة الوطنيّة بلغت في الايام الاولى وفي بغداد وحدها 44 الف روبيّة. وقد توقعت التقارير السريّة البريطانيّة انذاك بان التبرعات ستصل الى ثلاثة ملايين روبيّة. كما ان هناك اشاعات - حسب ما جاء في التقرير- بانّ الصّفوة من العلماء في المدن المقدسة وعدوا باستعمال الذهب والفضة في الاضرحة المقدسة من اجل الصرف على حركة الاستقلال الوطني. وفي نفس الوقت كانت هناك اشاعات مضادة مفادها بانّ البريطانييّن يجزلون العطاء لكل من يعمل لصالح الدعاية البريطانيّة.

(Secret Abstract…para ،448.In:F.O.371،5076/E8611/13/44)

الاستقطاب بين الصّفوة العراقيّة والادارة البريطانيّة

مع بداية شهر مايس 1920 توصّل قادة الحركة الوطنيّة الى قناعة تامّة بانّهم في واد والادارة البريطانيّة في واد اخر حول مسالة تقرير مستقبل العراق؛ فالوطنيين يريدون عراقا (مستقلا بعيدا عن هيمنة الغير)، وبريطانيا اعلنتها صراحة انها تريد عراقا تحت ادارتها المباشرة، ويكون للمندوب السّامي سلطة كاملة. فقد كانت خطة ولسون واضحة وهي: ((ان يتولى الحكم، في ظلّ الدستور المؤقت، مجلس دولة وجمعيّة تشريعيّة. ويكون مجلس الدولة: (1) السلطة التنفيذيّة الرّئيسيّة ومجلسا تشريعيّا (2) يتألف من11 عضوا ورئيس، يتم تعيينّهم جميعهم من قبل المندوب السّامي. (3) يكون الرئيس عربيّا ذا مكانة وسمعة طيّبتين. (4) يجب ان لا يحدّد الدستور نسبة معيّنة من الاعضاء البريطانييّن والعرب. وفي البداية، تكون ثمة اغلبيّة انجليزيّة، مثلا، ستة مقابل خمسة. (5) يكون للمندوب السّامي سلطة

على القرارات الصّادرة عن مجلس الدولة...)) (F.O.371/5226/E.398 2)، (د.نظمي/المصدر/369).

ولاجل ان يفعّل خطواته اعلن ولسون عبر الصّحف العراقيّة: ((.. انّ حكومة صاحب الجلالة قد خوّلت المندوب السّامي بالوكالة ـ اي ولسون ـ سلطة دعوة الممثلين الرئيسيّين للمناطق المختلفة الى التعاون مع الادارة المدنيّة في صياغة مقترحات يتمّ بموجبها انتخاب الجمعيّة العامّة في الوقت المنا سب، وفي وضع الترتيبا ت الضروريّة بالنسبة للمناطق الانتخابيّة، تمهيدا لتسجيل الناخبين والامور الاخرى الممهّدة لانتخاب الجمعيّة العامّة. وبقدر ما يتعلق بالافراد العراقييّن الذين كانوا يمثلون العراق في مجالس الاعيان التركي او مجلس النوّاب التركي... فقد تمّت دعوة كافة هؤلاء الاعيان والنواب السّابقين من قبل المندوب المدني للغرض المبيّن اعلاه...)). (صحيفة العراق 12/7/1920).

كان هذا الاعلان وما رافقه من اتصالات جدّية لدائرة نائب المندوب السّامي مع هيئة النواب العراقيين السّابقين في العهد العثماني وكان ابرزهم (السيّد طالب النقيب وفؤاد الدفتري و مراد سليمان (شقيق حكمت سليمان) والدكتور سامي سليمان والشاوي والزهاوي وساسون حسقيل وجميل صدقي الزهاوي)، كما صاحبتها معلومات عن تشكيل حزب دستوري معتدل منهم.

وقد بدات هيئة النوّاب السّابقين تؤخذ اكثر جدية حينما وجّه ولسون لها دعوة في 10 تّموز1920 (د. نظمي/ص369). كل ذلك قد شكل تحدّيا مباشرا للّجنة التنفيذيّة للمندوبين الخمسة عشر، فازدادت نشاطاتهم واجتماعاتهم لاظهار تماسك جبهتهم. الا انّ الواقع قد اثبت وجود تراجع وتفكك لدى البعض منهم. تلقت ادارة ولسون معلومات تفيد بانّ المعارضة الوطنيّة تقوم باعداد ثورة مسلحة وتهيء

الاسباب الماديّة والمعنويّة لذلك، وبسبب ذلك فقد جرى حوار بين سليمان فيضي (ممثلا عن السيّد طالب النقيب وجماعته اعضاء هيئة النواب السّابقين الموالين للانجليز) وبين محمد جعفر ابو التمّن وكان الى جانبه في الحوار حسن رضا وعبد الله ثنيّان من جهة اخرى؛ وفي هذا الحوار حذرّهم فيضي من انّ نجاح الثورة المسلّحة امر غير مضمون، وانّ فشلها سوف يؤدّي الى اوخم العواقب. واضاف فيضي؛ بانّ الهيئة (للنواب السابقين) هي افضل فرصة للوطنيين لتوحيد صفوفهم ومجابهة البريطانييّن بمطاليبهم. وفي حالة رفض البريطانيين لهذه المطالب، فانهم سينفضحون وتصبح الثورة اكثر فاعليّة.بينما اعلن الشيخ يوسف السويدي لهم؛ بانّ النواب السابقين لا يمتلكون شرعيّة تمثيل العراق لانّ فترة نيابتهم قد انتهت منذ فترة طويلة بعد ان استغرقت عامين فقط، كما انهم جميعا من الاتّحادييّن الذين ثبتت خيانتهم، وانّ بعضهم اتراك صرف وتحت النفوذ التركي، وانّهم الان موظفون موالون للحكومة التي نصّبتها الادارة البريطانيّة (سليمان فيضي/مذكرات/ص257،د. نظمي/المصدر/ص370 ـ 369) كما عارض سعيد النقشبندي دعوة يوسف السويدي لمقاطعة اجتماعات (هيئة النوّاب

السابقين) وهذا دليل اخر على تصدّع جبهة المندوبين الخمسة عشر.

وحينما اصبحت جديّة الادارة البريطانيّة لا لبس فيها، واخذت تعدّ انصارها فقط لانشاء مؤسسّات النظام السيّاسي الجديد في العراق كما تراه هي؛ بدات القوى الوطنيّة في بغداد بشنّ حملة تبرعات ماليّة واسعة مع بداية شهر حزيران 1920 وعيّنت محمد جعفر ابو التمّن امينا للصندوق، وقد تمّ جمع مبلغ اربعة واربعين الف روبيّة في بغداد لوحدها (Longrigg،Iraq.،p.88). وقد ذكرت تقارير سريّة بريطانيّة بانه كان متوقعا جمع مبلغا كليا مقداره ثلاثة ملايين روبية، وتردّد انه اشيع سيتم صرف الذهب والفضّة الموجودة في العتبا ت المقدّسة اذا اقتضى الامر من اجل الاستقلال، كما اشرنا سابقا). كما انتشرت اشاعا ت مضادة تقول بانّ الانجليز على استعداد لدفع الرّشوة الى ايّ شخص يعمل على ترويج الدعاية المؤيّدة لهم. (F.O.371،5076/E8611/13/44. In: Abstract.،para.448 Secret)

هذا وأخذت نشاطات حزب حرس الاستقلال في الازدياد بشكل ملفت للنظر وقد برز من بين قياداته النشطين من الكاظميّة كل من: علي الجلبي، وعبد الغني الجلبي، والحاج مجيد الحمله دار والسيّد مهدي البصّام، والسيّد عبد الهادي جواد، والسيّد عبدالصّاحب (المصدر نفسه). وخلال الاجتماعات نوقشت مسالة البحث عن وسائل لاثارة القبائل الفراتيّة وبقيّة سكان العراق وتوثيق العلاقات معهم. وكان من ابرز النشطاء الذين اختيروا لهذا الدّور محمد جعفر ابو التمّن والشيخ يوسف السّويدي والسيّد محمد الصّدر والشيخ احمد الداود وعلي البزركان. وخلال تلك الفترة ورد عن قسم المباحث الجنائيّة C.I.D (انّ القنصل الاميريكي قام بزيارة السيّد حسن الصّدر، والسيّد محمد مهدي الصّدر، والسّيد محمد السعدي وظلّ على صلة معهم

،F.O. 371/5078 (Ibid،para: 569،571) (،E11766/13/44.)

لقد اثبتت الوثائق الرسميّة البريطانيّة بانّ قادة الصّفوة العراقيّة لحركة الاستقلال في العراق كانوا على صلة باخوتهم الوطنييّن المتواجدين في سورية والذين كانوا قد التفوّا حول فيصل بن الحسين وابرزهم: جميل المدفعي وياسين الهاشمي وناجي السّويدي وابراهيم الرّاوي الذين قرروا ارسال خمسة وعشرين مبعوثا الى النجف لمساندة النشاطات السيّاسيّة للوطنييّن، كما اتفقوا متضامنين على ما يلي: (المصدر نفسه)

1 ـ شجب التدخل الاجنبي في شؤون العراق الداخليّة.

2 ـ اعلام السيّد طالب النقيب بانّ العراق سوف يثار منه اذا ما استمرّ هو في التعاون مع الانجليز ونظام الانتداب.

3 ـ دعم المؤتمر العراقي في دمشق.

4 ـ المطالبة بالحريّة الكاملة للشعب العراقي لتأسيس حكومة على النحو الذي يرتأيه.

5 ـ دعم كلّ الاحتجاجات بالعصيان.

6 ـ ان تكون النجف مركزا للعمليّا ت العسكريّة.

وعلى الرّغم من المبادرة الايجابيّة التي ابدتها صفوة الحركة الوطنيّة في بغداد والفرات الاوسط،الا انّ التصدّع في الصّفوة العراقيّة اخذت بالاتساع حينما وزّعت اموال كانت قد وصلت للعراق من سورية بتاريخ 20 نيسان/ابريل1920، ووزّعت فقط على العناصر التي تؤيّد وتعمل مع الشريف فيصل بن الحسين (الشريفيون)، بينما لم يتلقّ العاملون في الحركة الوطنيّة (جماعة حزب حرس الاستقلال والمدن المقدسة والفرات الاوسط) ايّ سلاح او دعم مالي من الخارج على حدّ قولهم،(صحيفة لسان الحال 20/ابريل/نيسان/1920) و (علي البزركان،ص201).

وبتأثير نشاطات العراقييّن (الشريفيّين) في سورية ازداد النشاط الوطني في الموصل وفي مناطق الشمال الغربي من العراق وكذلك ازدادت المطالبة بانشاء مجلس شعبي منتخب، كما ارتفعت اصوات اخرى فيها لزعماء دينيّين ورؤساء قبائل وملاكين محليّين وابدوا استعدادهم لاستعمال القوّة.(F.O.371،5076/E8864/13/44)

استمرت نشاطات صفوة المندوبين الخمسة عشر على مختلف الاصعدة الميدانيّة والاعلاميّة؛ سواء بتكثيف الاجتماعات وتنظيم المجالس الحسينيّة والموالد النبويّة، او بارسال البرقيّات والمضابط الى جهات اوروبيّة وصحف عربيّة حول مطاليبهم المشروعة. وفي 17 حزيران/يونيو اجابت الحكومة البريطانيّة على احدى المضابط في 20 حزيران/يونيو واعلن ذلك رسميا في بغداد بما يلي:

((... انّ حكومة صاحب الجلالة وقد عهد اليها امر الانتداب على بلاد ما بين النّهرين تتطلع ان يؤدي الانتداب الى جعل بلاد ما بين النهرين دولة مستقلة بضمانة من عصبة الامم بتفويض من بريطانيا العظمى، وانها ستلقي عليهم مسؤوليّة صيانة الامن الداخلي والسلامة الخارجيّة وستطلب منهم صياغة دستور اساسي يقوم على التشاور مع سكان بلاد ما بين النهرين واحترام حقوق وامال ومصالح كافة الفئات في البلاد. وسوف يتضمّن امر الانتداب التدابير اللازمة لتمكين تطور بلاد ما بين النهرين لتصبح دولة حكم ذاتي حينما تستطيع الوقوف بنفسها وعند ذلك سينتهي امر الانتداب عليها...)) (Irland ،p.w.op. cit.،p220)

لم يتوفر للمندوين الخمسة عشر دليل اوضح من هذا الاعلان حول ما تبيّته ادارة ولسون، لذا فقد قاموا بمبادرة وطالبوا بضرورة الاسراع بتأسيس المجلس البرلماني الشعبي (التأسيسي) واهملوا التحذيرات التي اطلقها ولسون حول نشر الوطنييّن اشاعا ت تؤكد انسحاب بريطاني من العراق. ومما زاد من قلق الوطنييّن اعلان ولسون عن مسؤوليّة قوّاته عن الامن في العراق. وكذلك توجيهه الدعوات الى النوّاب العراقييّن السّابقين في مجلس

المبعوثان العثماني واعضاء سابقين في مجلس الشيوخ من الولايات العراقية الثلاث، بغداد والموصل والبصرة، لبحث مسالة انتخاب المجلس العمومي (التأسيسي). وعلى الرّغم من اجتماع بعض قادة المندوبين وفي مقدمتهم ابو التمّن والسّويدي والبزركان باولئك النوّاب السّابقين لاقناعهم برفض الدّعوات والانضمام الى صفوف الحركة الوطنيّة المضادة لمناورات ولسون والدّعوة الى انشاء مجلس تأسيسي منتخب، الا انهم رفضوا ذلك، ولو انهّم استجابوا لدعوة الوطنييّن لتغيّرت امور اساسيّة كثيرة تتعلّق بمستقبل العراق والعراقييّن واهمّها؛ خطورة دورالمذهبيّة السّياسيّة بين السّنة والشيعة، واسس بناء دولة المؤسسّا ت الدستوريّة والنهج الديمقراطي ولكنهم اثروا الاستجابة لدائرة المندوب السّامي لقناعات ولمصالح شخصيّة، وكان من ابرز الذين استجابوا لولسون:

السيّد طالب النقيب وعبد المجيد الشاوي وعبد الرّحمن الحيدري وناجي شوكت ومزاحم الباججي وساسون حسقيل وعبد الجبار خيّاط وسليمان فيضي واخرين. (سليمان فيضي/ ص242-240). (صحيفة العراق/20 ايلول ـ سبتمبر 1920)، Bell ،Review،op.cit.142 65840 ،para، F.o.371،5227/606/.).

الصّفوة وقرار (الثورة المسلّحة)

لقد بدا الحديث عن استعمال القوّة ضدّ السلطات البريطانيّة في العراق يأخذ الطابع الفعلي بمرور الايام وبتسارع الاحداث. وكانت صفوة القيادة الوطنيّة على درجة عالية من الوعي بالمسؤوليّة والادراك السّياسي. اذ انها عرضت مطاليبها العادلة في اوّل الامر على ادارة الانتداب في الداخل والخارج وبشكل موضوعي ورزين ومسالم. فقد ورد في تقارير الاستخبارات البريطانيّة تذمّرها من رسائل وشكاوى صفوة القيادات الوطنيّة والدّينيّة الى الدول الاجنبيّة لا سيّما الولايات المتحدة الامريكيّة (التي كانت رمز الحريّة وحقوق الانسان انذاك)، وكذلك رسائلها وشكاواها الى ممثليّات البولشفيك الرّوس في طهران وخراسان. (Wilson،A.T.op.cit.،p265)

كما وطدّت تلك القيادات علاقاتها مع المجموعة العراقيّة المتواجدة في الشام وبذلت اقصى جهودها لتجنب المعارك والخلافات الجانبيّة مع ايّة جهة كانت. وقد جاءت ردود الافعال ايجابيّة على دعوة الحركة الوطنيّة العراقيّة؛ فقد أرسلت مجموعة سوريّة والتي كان يتراسها جميل المدفعي وياسين الهاشمي 25 مندوبا الى النجف الاشرف لعرض المساعدة والتأييد المادي والمعنوي. كما ارسلت مجموعة العراقيين في سورية ايضا رسالة تهديد الى السيّد طالب النقيب ومجموعة النقيب/الكيلاني بانّ الحركة الوطنيّة سوف تنتقم منهم اذا استمروا على تعاونهم مع حكومة الانتداب البريطاني. كما عبّرت المجموعة ايضا لعلماء النجف عن استعدادها للتأييد والاسناد في حالة قيام ثورة مسلحة. وقد ذكرت التقارير

السّريّة البريطانيّة عن وصول مجموعة عسكريّين من سورية الى النجف. وكان كل من محمد جعفر ابو التمّن وصديقه علي البازركان على اتصال مع دير الزور للغرض نفسه. (علي البازركان/ المصدر../ص201)

كان ردّ الحكومة البريطانيّة على مطاليب المندوبين سلبيّا، اذ جاء شبيها بالانتداب البريطاني على العراق بل تأكيدا لصيغته، مع اشارة الى استبدال المندوب السّامي بالوكالة ارنولد ولسون بمندوب سامي جديد ودائم وهو السير زكريّا بيرسي كوكس. كما جاء في نفس الرد الرسمي بانّ مهام كوكس ستكون انهاء الادارة العسكريّة البريطانيّة في العراق وتشكيل مجلس تأسيسي من ممثلي الشعب سينتخب انتخابا حرّا كما سيتم وضع دستور دائم للبلاد وسيجري كلّ ذلك بالاستشارة والتعاون بين المجلس التأسيسي والمندوب السّامي الجديد. وقد اعقب هذا الاعلان سياسة انكليزيّة اكثر تشدّدا مع الوطنيّين وخاصّة ازاء الحوزات الدينيّة في كربلاء والنجف ووصل التشدّد ببعض حكام المناطق الإنكليز وسوء تعاملهم مع الناس، الى اهانة الصّفوة من اعيان المدن ورؤساء القبائل ومضايقة العلماء مما كان له الأثر المباشر في اشعال فتيل الثورة المسلحة. (عبد الرزاق الحسني/الثورة العراقيّة...ص-119 120)

صادف حلول شهر رمضان مع ذروة النشاط الوطني في حزيران/يونيو1920 ومثلما فعلت بغداد باختيار مندوبيها، اختار اهالي كربلاء سبعة مندوبين لمقابلة المسؤولين البريطانيّين من اجل المطالبة بقيام حكومة اسلاميّة عربيّة في العراق. كما اختار اهالي النجف في الخامس من حزيران ستة مندوبين لنفس الغرض، وقد بعث الامام الشيرازي برسالة الى مندوبي النجف يؤيدهم فيها ويشجعهم على مطالبتهم العادلة. ولكن الإنكليز استهانوا بمطاليب النجف وكربلاء كما فعلوا بمطاليب بغداد واعطوا المندوبين جوابا اعتبره المندوبون مماطلة وتسويف. لذا أخذت المعارضة في المدن المقدسة تصعّد من نشاطاتها المختلفة وقد لعب الخطباء وعلماء الدين والشعراء في المساجد وعلى المنابر الحسينيّة دورا اساسيّا في تصعيد الحماس الديني للناس واشهرهم كان الشيخ محمد الخالصي الذي تحدّى الإنكليز علنا في خطابه الشهير في صحن (باحة) ضريح سيّدنا العباس بن علي بن ابي طالب عليهما السلام في 25 رمضان/12 يونيو 1920 ومما جاء في خطابه:

"..ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين... ايّها السّادة ان الله قد وصفكم بكتابه بصفتين بانكم الاعلون.. وحكم على من هذه صفته ان لايهن ولايحزن، كذلك انتم في كتاب الله، وقد جاءتكم بريطانيا بخيلها ورجالها وعزمها وشكيمتها تقول: انتم الادنون ونحن الاعلون لذلك يجب ان نكون قيمين على شؤونكم وادارتكم واموالكم وانفسكم... هكذا ارادت بكم تلك الدولة القاسية التي لاترى غيرها في العالم تحسب صنوف البشر عبيدا ارقاء مذللين... وانتم واقفون بين بريطانيا وبين خالقها. خالقها يصفكم بصفة الاعلين، والمخلوق يصفكم بصفة الادنين، فان قبلتم صفة المخلوقين ذللتم وخزيتم واصابتكم الدناءة

واشتريتم بعد ذلك مرضاة المخلوق بسخط الخالق... "ومما جاء في خطبته ايضا.." وانني من فوق هذا المنبر اصرخ ببريطانيا قائلا: احسني ولا تبغي بنا سوءا واياسي من ان نذل لك وارجعي من حيث أتيت، فان لم يكن لنا سلاح فصدورنا ورؤوسنا تستقبل جميع ما لديك من معدّات...". لقد بلغ الحماس بالناس في هذا الاجتماع ان تعاهدوا على الموت في سبيل الاستقلال حتى انّ البعض من الصّفوة من رؤساء القبائل من قطع رباط عقاله بسيوفهم علامة على تصميمهم في الدفاع حتى الموت من اجل الاستقلال.

وفي مدن الحلّة والنجف وكربلاء جرت حوادث مشابهة اخرى تدل على تحدّي الاهالي لقوّات الاحتلال وحكومتها المؤقتة وكانت تقرا في اجتماعاتها رسالة الامام الشيرازي والذي يحض فيها ابناء العراق الى المطالبة بالاستقلال التام، كما ارسل الامام الشيرازي كتاب تحذير الى الميجر بولي الحاكم السّياسي في الحلة يطلب فيها عدم استفزاز المواطنين بالاكثار من رجال الشرطة والجيش. كما حذرّ الامام الشيرازي بانه سوف يلغي دعوته التي افتى بها للامة سابقا والتي ناشدها فيها باستخدام الطرق السلميّة بالمفاوضة مع الإنكليز، كما اشار الشيرازي في تحذيره انه يحمل الإنكليز مسؤوليّة ما سينجم عن ذلك.

بدات ادارة ولسون تشدّد قبضتها على الحركة الوطنيّة سواء بمنع فعاليّاتها الوطنيّة بالضغط والتهديد احيانا وبالقوّة وبالاعتقالات او بالنفي احيانا اخرى وكانها تدفع باتجاه تفجير الوضع. وكان يقابلها تصعيد خطير وتحدّ من قبل صفوة المجتمع وقياداتها المدنيّة والدّينيّة. وكانت بداية الازمة التي ادّت الى الصدام المسلح الواسع هي في الفرات الاوسط؛ فقد شعر الحاكم العسكري والضابط السّياسي في مدينة الحلة الميجر بولي بتدهور الوضع السّياسي فيها، فاراد ان يبدا بقادة التظاهرات التي جرت في مدينة كربلاء (بسبب القاء القبض على اثني عشر متظاهر بينهم الشيخ محمد رضا الشيرازي نجل المرجع اية الله المرزا محمد تقي الشيرازي وتهجيرهم الى جزيرة هنجام في مدخل مضيق هرمز). فوصل الميجر بولي (Major Palley) كربلاء في21 حزيران/يونيو 1920، فاستقدم قادة الاحتجاجات والتظاهرات وهم: (الحاج عمران واخيه عثمان الياسري والسيّد محمد علي الطباطبائي ومحمد علي تقي واخرين) كما جرت حملة اعتقالات اخرى في الحلة، وبعد اعتقالهم تم نفيهم الى جزيرة هنجام ايضا في 22 حزيران 1920. (البازركان/ المصدر/ص120 - 119) (محمد مهدي البصير/المصدر/ص191).

وفي 28 حزيران/يونيو 1920 عقد اجتماع اخر كبير نظمّه صفوة رؤساء وزعماء الفرات الاوسط وتداولوا ما وصلت اليه الاحداث ثم نتج عن الاجتماع امران مهمّان؛ اوّلا ارسل المجتمعون انذارا الى السلطات البريطانيّة تطالب فيه اطلاق سراح جميع السجناء واعادة المنفيّين والا "..فان بريطانيا ستلجاهم الى الخروج من دور المطالبة السلميّة الى غيرها..". والامر الاخر هو انهم كتبوا رسائل الى رؤساء القبائل الفراتيّة يحثوهم على الثورة للتخلص من الإنكليز.

لم يكترث الإنكليز بمطاليب القيادة الدينيّة ورؤساء العشائر والزعماء الوطنييّن بل استمرّوا في تجاهل المعارضة الوطنيّة العراقيّة ومضوا في تطبيق سياسة الكبت والاستفزازات وعدم احترام صفوة الزعماء والمراجع وكانّ الإنكليز مصمّمون على الصدام المسلح واستدراج الحركة الوطنيّة العراقيّة الى معركة غير متكافئة عمليًا. وتاكيدا لما تقدم فقد قامت قوّات الاحتلال باعتقال زعيم قبيلة الظوالم الشيخ شعلان ابو الجون، وحاول الملازم هيات – معاون الحاكم السّياسي في منطقة الرميثة – ان يسيء الى شعلان باسلوب العنف والتوبيخ، الا انّ شعلان قابله باباء وتحدي اشدّ وقال له: " انّ هذه السّياسة التي تسيرون عليها انت وحكومتك ستجر الدولة البريطانيّة الى عاقبة سيّئة لا سيّما وانّ العراقييّن غير الهنود " فما كان من الملازم البريطاني الا ان يامر بحبس شعلان. الا انّ ابن عم شعلان غثيث الحرجان ارسل عشرة من ابناء عشيرته حيث هجموا على السجن واخرجوا شعلان وعادوا به الى ديارهم. فكان هذا الحادث الشرارة الاولى التي اشعلت نيران ثورة العشرين الكبرى.

لقد حاول بعض الباحثين عزل حادثة الزعيم شعلان ابو الجون عن عموم الحركة الوطنيّة وعن القيادة الدينيّة (لا سيّما المسؤولون البريطانيّون الذين عملوا في العراق ودوّنوا مذكراتهم الخاصّة) ووصف الحادثة وكانّها مجرد تمرد قبلي بسبب الضرائب التي فرضت عليهم وتعصب عشيرته له، وهذا غير دقيق والغرض واضح وهو محاولة التقليل من الهيبة والاحترام التي تركتها ثورة العشرين الكبرى في نفوس اجيال الشعب العراقي. وكذلك هي محاولة للنيل من تاريخ الصفوة من الرّجال والنساء الذين كانوا بمستوى عال من المسؤوليّة الوطنيّة التي كانت مطلوبة منهم وادوها بكل امانة ونكران ذات.

انّ خطبة الشيخ شعلان بابناء عشيرته تزيل كلّ لبس حينما خاطبهم قائلا:

"...هل انكم تقبلون خدمة العدو الكافر الذي يبغض العرب والاسلام؟ فاجابوه؛ الله اكبر ! ابدا لا نرضى !.. "انّ اكثر المصادر تؤكد على انّ شعلان وابن عمّه غثيث الحرجان والكثير من قبائل بني حجيم قد تعاهدوا مع الامام الشيرازي وبايعوه على ان يقوموا بالثورة في منطقتهما وقد علم الإنكليز بموقف شعلان مما جعلهم يحقدون عليه وعلى عشيرته.

لقد كان الإنكليز على علم تام بانّ الشيخ شعلان لم يكن منفردا في طاعته للعلماء المراجع، فقد كان غالبيّة صفوة زعماء القبائل العربيّة تطيع علمائها ومقلديها؛ فقد كتب السيّد محسن ابو طبيخ في مذكراته "...كان من اصعب الامور علينا (زعماء القبائل) مخالفة اوامر العلماء.."، (السيّد محسن ابو طبيخ/المصدر)

ان عدم استجابة الادارة البريطانيّة للصفوة الوطنيّة العراقيّة واستهانتها بصفوة زعماء القبائل والمدن وبكبار المراجع الدينيّة وعدم تقديمها ولو الحدّ الادنى من التنازلات لهم هو دليل اخر على انّ ادارة الانتداب قد اصرّت وباستفزازاتها المتصاعدة على دفع الامور الى تفجير الازمة باتّجاه الصدام المسلح لفرض واقع جديد يكسر ارادة الوطنييّن الاحرار، ويحرّر الإنكليز من الوعود التي سبق وان كالوها للعراقييّن قبل احتلالهم لبغداد على لسان الجنرال

مود والبيان الإنكليزي/ الفرنسي وغيره بانهم جاؤوا محرّرين لا فاتحين لاعادة مجد بغداد بلد الرشيد.

تصاعدت الاحتجاجات وقدّم قادة بغداد خطابا الى نائب المندوب السّامي اي. تي. ولسون فيه احتجاج شديد اللهجة وبعثوا بنسخ طبق الاصل الى القناصل في بغداد لايصالها الى حكوماتهم كما ارسلوا نسخا منها الى المدن المقدسة والى زعماء الفرات الاوسط.

وقد ردّ كبار زعماء القبائل برسالة حملها السّيد هادي زوين الى قادة بغداد باعتبارهم (مندوبي الامّة) اكّدوا فيها تأثرهم الشديد، وعلى ضرورة مواصلة العمل (في سبيل الغاية المقدسة)وانهم قد ((...رأينا ان نخبركم بانّ صبرنا قد عيل واننا مستعدون للقيام بوجه السلطة ولاكتساح العقبات التي تحول دون الاستقلال التام هذا مالم تبادر الحكومة حالا الى تنفيذ مطالبينا الحقة وتحقيق أمانينا القوميّة والى اطلاق سراح نجل اية الله الشيرازي ومن معه باقصى مايمكن من السّرعة...)) 12 شوّال سنة 1338 المصادف 29 حزيران 1920 وقد وقّع في نهاية الرسالة:

علوان الحاج سعدون، محمد العبطان، مجبل الفرعون، السيّد عبد زيد، السيّد هادي المكوطر، السيّدعلوان الياسري، السيّد محسن ابوطبيخ، السيّد هادي زوين، جرّاي المريع، عبد الواحد الحاج سكر، لفتة الشمخي، اهنيّن الحنون،مرزوك العوّاد، شعلان الجبر، ودّاي ال عطيّة، سلمان الظاهر. (البازركان/ص121)(د.خالد التميمي/المصدر../ص117)

ونتيجة لرفض سلطات الاحتلال جميع الا لتماسات للافراج عن المعتقلين والمنفيّين، واستمرارها في محاولة تطويع الحركة الوطنيّة بتطبيقها سياسة استعمال العصا الغليظة مع المعارضين وتقديم الجزرة لمؤيّديها، فانّ قنوات الاتصال بين الوطنييّن والحكومة قد اغلقت. لقد اغضبت رسالة زعماء العشائر التي ارسلوها الى قادة بغداد لا سيّما انّ فيها اعترافا بهم كقادة ومندوبين يعبرون عن ارادة الامّة، وكذلك استعداد القبائل لرفع السّلاح بوجه ادارة ولسون مما شجع الاحتجاجات والتظاهرات في بغداد، كما انتشرت اشاعات قويّة عن قرب انسحاب بريطانيا من العراق وكذلك عن وجود مخطط لزحف العشائر لاحتلال بغداد مما ولدّ قلقا شديدا للحكومة المؤقتة.

ارادت السلطات الضغط على زعماء العشائر بمطالبتهم بدفع الضرائب والرّسوم المستحقة عليهم، فارسلت على الشيخ شعلان ابو الجون (زعيم قبيلة الظوالم من بني حجيم) وابن عمّه غثيث الحرجان في الرّميثة وطالبتهم بالدّفع، وبعد حوار مهين تم ّوضع شعلان ابو الجون في السجن. وفي تلك الفترة كانت مجموعة من عشائر الديوانيّة تهاجم المباني الحكوميّة بما فيها السجن في الرّميثة. وجاءت مجموعة مسلحة (من الظوالم وبني حجيم) بقيادة غثيث الحرجان حيث اطلقت سراح ابو الجون والاخرين فكا نت انطلاقة الثورة العراقيّة الكبرى في30 حزيران1920.

وفي بغداد كانت اخبار انطلاقة الثورة تصلها تباعا، لذا تضاعفت الفعاليّات الوطنيّة، وبقيت التظاهرات مستمرّة وكذلك الاجتماعات في المساجد ودور العبادة حيث يواصل الزعماء والقادة تحريضهم ضد الانجليز. لذا اعلن البريطانيّون الاحكام العرفيّة ومنعوا الاجتماعات وحفلات المولد النبوي، وقاموا بحملة اعتقالات واسعة للوطنييّن لا سيّما لزعماء حزب حرس الاستقلال داخل بغداد وخارجها؛ كما اصدر ولسون اوامره في 12 آب باعتقال كل من: محمد جعفر ابو التمّن، ويوسف السّويدي، وعلي البزركان، والشيخ احمد الشيخ داود، وصبري قاسم اغا، ومحمد مصطفى الخليل، ومصطفى بك (ابن يسف بك)، ونوري فتاح باشا، ورفعت الجادرجي وولده راسف، وفؤاد الدفتري وولده. غير انّ كلا من ابو التمن والبزركان هربوا (بمساعدة عبد المجيد كنة وهو احد الاعضاء المؤسسّين البارزين لحزب حرس الاستقلال) والتحقوا بثوّار الفرات الاوسط، امّا الدفتري والجادرجي فقد نفاهم الانجليز الى القسطنطينيّة، بينما سفرّ الباقون الى جزيرة هنجام. امّا الشيخ يوسف السّويدي فقد استطاع مغادرة داره اثناء التحام قوّات الشرطة مع رجاله المدافعين عنه ولجا الى الكاظميّة حيث بقي في ضيافة السيّد حسن الصّدر ومنها التحق ايضا بجيش الثورة في الفرات الاوسط. وحينما تمّ القاء القبض على الوطنييّن الناشطين، قدّموهم الى محاكمة عسكريّة بتهمة تنظيم ارهابي للاغتيالات وحكم على ستة شهداء منهم بالاعدام رميا بالرّصاص حيث نفذ بهم يوم 17 اب/اغسطس، امّا الشهيد عبد المجيد كنّة× فقد نفذ فيه حكم الاعدام شنقا ليلة السبت 25 أيلول 1920، فكانت خسارته لا تعوّض كما كان فقدانه ضربة قاصمة انهت وجود حزب حرس الاستقلال نهائيّا. (F.O.371/5229/E10330/2719/414)

(عبد المجيد كنّة البغدادي/ البيّاتي عربي مسلم سنيّ من خيرة شباب الصّفوة وواحد من اذرعتها القويّة، صاحب مزرعة في اليوسفيّة التي كانت ملاذا وقاعدة للوطنييّن، درس في المدرسة الحربيّة في بغداد، كان وطنيّا غيورا وشجاعا جسورا معروفا منذ العهد العثماني، صار عضوا مؤسسّا في حزب حرس الاستقلال، ثمّ اسّس حزب الدفاع بعد قيام الثورة ضدّ الانجليز وكانت من اهم اهداف هذا الحزب اغتيال العناصر المؤيّدة للانكليز وكذلك كبار الضباط الإنكليز. وكان من بين المجموعة التي ضمتها قائمة الاغتيالات لتصفيتهم السيّد طالب النقيب حيث اصابه رعب شديد اثر سماعه بذلك مما دفعه ان يصرّ على البريطانيّين بضرورة اعدام عبد المجيد كنه.(F.O.371،5081/E.14358/13/44) مير البصري/ اعلام الوطنيّة والقوميّة العربيّة/دار الحكمة/لندن ص259، د.خالد التميمي/ المصدر../ص118)

وفي مناطق الفرات الاوسط، الذي اصبح ملاذا للثوّار، ازداد تذمّر وسخط القبائل العربيّة المسلمة على الادارة البريطانيّة لا سيّما من موظفيها وحكام المدن والنواحي فيها، وكذلك بسبب استمرار غطرستهم (الإنكليز) وعدم فهمهم للعادات والتقاليد الموروثة. فهذه القبائل ذات التقاليد العربيّة والاسلاميّة العريقة والتي رفضت اذلال العثمانيين ودفع الضرائب لهم، ولم تتوقف عن الثورة ضدّهم (وهم مسلمون)، فكيف ترضى بمهانة وظلم الضباط وحكام

مناطقهم من الانجليز (النصارى) لهم؟. هذا بالاضافة الى تزايد الوعي الوطني ومفاهيم التحرّر من سيطرة الاجنبي لديهم. وعدا ما يتصفون به من غريزة حبّهم لارضهم وايمانهم بحقهم بثمار أراضيهم الزراعيّة المعطاءة وكذلك قيم الشهادة ومحاربة الظلم والظالمين المغروسة في وجدانهم عبر القرون، كل ذلك يجعلهم جاهزين للثورة دائما. لقد كانت سياسة فرض الضرائب المتعلقة بالرّي وبتسجيل الاراضي عاملا مهمّا في ازدياد التذمّر والرّغبة في ثورة القبائل ضد الحكومة التي جاء بها الإنكليز. فقد جاء في احدى تقارير كبار المسؤولين السيّاسييّن والعسكريين البريطانيين حول هذا الموضوع ما يلي:

((... انّ ضرائبنا الفادحة، التي لا تقا بلها منافع مماثلة، تثير استياءا كبيرا لدى العشائر العربيّة، التي لم ينجح الاتراك قط في اقتطاع ايّ واردات منها... انّ الوضع يتفاقم في الحقيقة بشكل خطر... وهو بحاجة الى التهدئة... ان الالوية والبطاريّات (القوّة المسلحة)هي كل ما يتفتق عنه ذهن ولسون وهي ليست العلاج الصّحيحِ...)). (F.O.371/5227/E.7725)،(د. نظمي/ص251)

وصل الزعماء البغداديّون منطقة الفرات الاوسط والثورة لازالت تتصاعد في عنفها، وقد ساهموا فورا بخبراتهم السّياسيّة والتنظيميّة والعسكرية برفد القادة والزعماء المحليّين بالاستشارة وبالمساهمة الميدانيّة؛ فقد كان ابو التمّن والسّويدي يلقيان الخطب ويحثان الناس على الاشتراك بالثورة ودعمها، وحينما تأسست الهيئات التنفيذيّة والتشريعيّة في النجف، اختير ابو التمّن عضوا في اللجنة العليا، كما تعاون هو واخرين من امثال علي البزركان وعارف حكمت في كتابة الافتتاحيّات في صحيفة الثوّار (جريدة الفرات) التي كان يديرها الشيخ محمد باقر الشبيبي (خلال فترة اب ـ تشرين الثاني نوفمبر وحتى انتهاء الثورة) كما قدّم (الضابط سابقا) سامي خبرته في اصلاح المدفع الوحيد الذي كان الثوّار قد غنموه من الإنكليز، وبفضله وبمعونة ضباط اخرين جاؤوا معه من بغداد، تمكن الثوّار من اغراق الباخرة الحربيّة الانجليزيّة (فاير افلاي) في معركة الرارنجيّة (البازركان/ المصدر/ص218) كما استطاع النقشلي ايضا ان يدرّب فريقا من الثوّار الشباب على استعمال القنابل اليدويّة التي غنمها الثوّار من الإنكليز (كما غادر 15 ضابطا سابقا اماكن سكناهم واشتركوا في القتال على الفرات وفي ديالى – د. نظمي/المصدر../ص391). كل ذلك يؤكد جانبا عمّا كانت عليه الصّفوة الوطنيّة العراقيّة بكلّ مكوّناتها من تلاحم وتعاون وطني موحّد من اجل نصرة وطنهم العراق..

صفوة المواجهة في ثورة العشرين

لعب عدد من صفوة زعماء قبائل الفرات الاوسط وحلفاؤهم دورا رئيسيّا في قيادة الثورة وحث المتردّدة من العشائر على رفع السلاح. كان في مقدمة قادة الثوّار؛ زعيم ال فتلة

الشيخ عبد الواحد الحاج سكر والسيّد نور الياسري والسيّد محسن ابو طبيخ والسّيد كاطع العوّادي والشيخ مرزوق العوّاد والسيد هادي المكوطر وشعلان ابو الجون والشيخ ضاري المحمود وعلي المعيدي زعيم مصالحة بني تميم حلفاء زوبع والشيخ خضير الحاج عاصي زعيم الجنابيين. وكان اجتماع زعماء الفرات بالميجر نوربري فاصلا كما بيّنت سابقا.

لقد جرت في شهر تمّوز/يوليو1920 اعنف المعارك، وفيه نجح الثوّار في تحقيق انتصارات على القوّات البريطانيّة، ففي الثاني عشر من هذا الشهر أعلنت بقيّة قبائل الفرات الثورة. وفي 13 منه حاصر الثوّار مدينة (ابو صخير) وتضامن في هذا الحصار ال فتلة والغزالات وال شبل واتباع ال ياسر. كما امتدت الثورة الى المشخاب وابو شورة (العباسيّة) وغيرها من مناطق الفرات. وقد وزّع الشيخ عبد الواحد الحاج سكر والسيّد علوان الياسري الاف الليرات الذهبيّة من، مالهم الخاص، على بعض الرؤساء المترددين وكان يذكرهم دائما بقوله:

"...اننا نحارب الإنكليز استنادا الى فتوى المرجع الاعلى وقد تعاهدنا على ذلك بالقسم على المصحف الشريف عند ضريح سيّدنا العباس (ع)..".

احتل الثوّار مدينة الكفل في 22 تمّوز وتركوا فيها مائة فارس لحفظ النظام ثم اتجهوا نحو طويريج. وقبيل وقت غروب الشمس من يوم 24 تموز دارت معركة (الرارنجيّة) قرب نهر الرارنجيّة واحاط الثوّار بالقوّات الإنكليزيّة من ثلاث جهات جنوبا وشرقا وغربا. وقد اظهر الشيخ مرزوق العوّاد زعيم العوابد بطولة كبيرة في المعركة. وكان مرزوق معروفا بشجاعة نادرة وبموهبته على ارتجال الرجز من الشعر و(الهوسات) اثناء القتال لاثارة الهمم والحماس. وقد اجبرت القوّات الإنكليزيّة على الانسحاب الى مدينة الحلة خلال نصف ساعة فاعترضتها قوات الثورة وجرت معركة بالسلاح الابيض دامت ست ساعات انتصر فيها الثوّار ولم ينج من الإنكليز الا القلة على الرّغم من ان اسلحة الثوّار كانت بسيطة ومعظمها بدائيّة (فالة ومكوار وخنجر). وقد غنم الثوّار كميّات كبيرة من الاسلحة والعتاد والمؤونة والاطعمة منها: 52 رشاشا ومدفع عيار 8 رطل. وكان الشيخ عبد الواحد الحاج سكر يدفع لكل من يجلب له رشاشا خمسة عشر ليرة ذهبيّة، فجمع وحده اربعين رشاشا. وقد سمّى القائد الانكلزي هالدين معركة الرارنجيّة ب " الكارثة " .

ومعركة الرارنجيّة هذه هي اعظم معارك ثورة العشرين الكبرى لما حلّ بالجيش الإنكليزي من كوارث ولم يتجرّا بعد هذه المعركة من يتخلى او يتردّد عن محاربة الإنكليز. وقد حاربت عشائر الأقرع وعفك والبدير على ضفاف نهر شط الدغارة وفي بلدة عفك واظهرت من البطولات مالا تسعها هذه الصفحات اذ كان لكل مجاهد قصّة وبطولة ولون من التضحية، كما كان هناك تنافس شديد على القتال بين النساء والرّجال في بعض المواقف، نعم هكذا كانت صفوة النساء العراقيّات والرّجال الوطنييّن في ذلك العهد.

ولا بد من الاشارة الى يوم العارضيّات في 18 تموز حيث مُني البريطانيّون فيه خسائر فادحة في معركة العارضيّات اذ كان على راس قيادة الثوّار (الظوالم وبني حجيم) شعلان

ابو الجون فتحررّت مدينة الرّميثة يوم 21 تموز. كما جرت معركة عنيفة في (الرستميّة) حيث كان على راس المجاهدين الثوّار الشيخ عبدالواحد الحاج سكر(مجاميع قبائل ال فتلة والجبور والبوسلطان والعوابد) وكما وصفها ولسون في تقريره "...لقد كلفنا الانسحاب ـ من الكفل ـ 180 قتيلا و60 جريحا وحوالي 160 اسيرا مع خسائر فادحة في وسائط النقل والحيوانات.ولم تكن معاملة الثوّار الاسرى سيّئة،ولم يمت من الاسرى البريطانييّن التسعة والسّبعين سوى واحد في ايدي العرب.."، (د.نظمي/المصدر../ص381)، (...Wilson.A.T، LOYALTIES..P.24).

كما اكدّ ذلك الجنرال هالدين لوزارة الحربيّة البريطانيّة وكذلك في كتابه عن ثورة العشرين في العراق؛ لا سيّما عن معركة الرّميثة اذ كتب مؤكدا...: "...ان هذه النكسة وان كانت صغيرة انتجت نتيجتها المعتادة اذ صارت العشائر واهل الرّميثة يعلنون عداءهم للحكومة بشكل سافر...".

ونتيجة لانتصارات الثوّار الباهرة على القوّات البريطانيّة في شهر تمّوز، أصبحت منطقة الفرات الاوسط برمّتها تقريبا في قبضة الثوّار، لا سيّما بعد انسحاب البريطانييّن من الدّيوانيّة والخضر والغرّاف والشطرة وكان ذروة الانتصار هو انسحاب الانجليز من مدينة كربلاء المقدّسة حيث تشكلت ادارة عراقيّة فيها وعيّنت السيّد محسن ابو طبيخ متصرّفا (محافظا)عليها وجرى رفع اوّل علم وطني عراقي على مبنى الحكومة (المحافظة) رفعه علي البازركان والسّيد محسن ابو طبيخ (وهو العلم ذو الالوان الاربعة، واتخذ فيما بعد، وباضافة نجمتين فيه، العلم الوطني للمملكة العراقيّة قبيل تتويج فيصل الاوّل عام 1921) البازركان/ المصدر/ص192.

لقد وصلت حدود سيطرة الثوّار من جهة الجنوب الغربي من بغداد، الى مدينتي المسيّب والهنديّة القريبتان من العاصمة بغداد، ولم تستطع القوّات البريطانيّة اعادة احتلالهما الا في الثالث عشر والرّابع عشر بالتتابع من شهر اب/اغسطس.

ومن المعارك الاخرى المهمّة تلك التي جرت في السّادس من شهر تمّوز/يوليو1920 في منطقة العارضيّات على بعد ستة اميال شمال الرّميثة حيث كمن الثوّار وكان عددهم بين ثلاثة الاف وخمسة الاف مجاهد حيث كبّدوا الإنكليز 48 قتيلا و167 جريحا. وقد انتقم الإنكليز بعد ذلك من الثوّار بهجوم على سكان الرّميثة يوم 13 تموز/يوليو نتج عنه مذبحة عرفت بمذبحة سلهابة نسبة الى دار الحاج عبود سلهابة التي لجا اليها النساء والاطفال خوفا من قصف الطائرات، الا انّ الإنكليز هاجموا الدار وقتلوا فيها عشرين لاجئا من الاطفال والنساء.

وفي 19 تموز/يوليو تقدّم نحو من 5700 مجاهد من بني زريج والبو حسّان وبني عارض والظوالم والاعاجيب لمواجهة الرّتل الإنكليزي الذي كان يقوده الجنرال كوننغهام، وعند الظهر حدث الاشتباك واستمرّ ثلاث ساعات ونصف لم يستطع الإنكليز اثناءها زحزحة الثوّار من

مواقعهم. واستمرّت المناوشات والقتال الى صباح 22 تمّوز/يوليو حيث اجبر الإنكليز على الانسحاب الى مدينة الديوانيّة بعد ان خسروا في هذه المعركة ثلاثة الاف قتيل بينهم ستون ضابطا حسب ما جاءت في تقاريرهم، بينما سقط من الثوّار خمسمائة شهيد. لقد بدات عشائر الرّميثة بقتال الإنكليز في وقت مبكر، ممّا يدلّ على افتقار الثورة الى التنسيق الميداني و القيادة الموحّدة، فلو انّ بقيّة عشائر الفرات الاوسط قاتلت في نفس الوقت لكانت النتيجة لصالح الثوار ولحققوا مكاسب اكثر، ولذلك اصدر الامام الشيرازي فتواه التي سمّاها ب " الفتوى الدفاعيّة " التي وزعت في مناطق الفرات الاوسط وهذا نصّها:

((مطالبة الحقوق واجبة على العراقييّن ويجب عليهم في ضمن مطالباتهم رعاية السلم والامن ويجوز لهم التوسّل بالقوّة الدفاعيّة اذا امتنع الإنكليز عن قبول مطاليبهم..)) كما اكد الامام الشيرازي لرؤساء العشائر وللثوّار بانه لايريدهم ان يثوروا بسبب اعتقال ولده بل من اجل الاستقلال ومما قاله في رسالته:

((... ان ابني ومن معه ابعدوا في سبيل القضيّة العراقيّة، فلاينسيكم ابعادهم قضيّتكم، ولا تشتغلوا بطلب عودتهم عن المطالبة بحقوقكم، ولا تجعلوا القبض عليهم سببا لحمل السّلاح، فتلهيكم القضايا الشخصيّة عن المطالب العامّة، وايّاكم ان تجردوا سيفا ولو رأيتموني بيد الإنكليز الا ان يسوق الإنكليز جيشا لمحاربتكم بسبب اصراركم على المطالبة بحقكم المغصوب، فهناك يجب الدفاع، ولا تذكروا في دفاعكم الا القضيّة العراقيّة والاستقلال التام)).

وفي الثلاثين من شهر تموز 1920 بدات قبائل بني حجيم بقتال الإنكليز، كما قام الثوّار بتخريب خطوط السكك الحديديّة واعمدة التلغراف على الرّغم من حماية الإنكليز لها بواسطة البواخر الحربيّة والقطارات المدرّعة. ومن المعارك المهمّة في تلك المنطقة استيلاء بني حجيم وال زياد على محطة الخضر في 13 اب/اغسطس كما استولوا في المعركة نفسها على قطارين مدرّعين مع مدفع عيار 13 رطل وقد بعث قادة القوّات المهاجمة وهم: هداد وجديع المرزوك باخبارالانتصار الى المرجع الاعلى في النجف راجين التأييد والدعاء للثورة وللمجاهدين.

معركة البواخر

ومن المعارك الشهيرة التي لابد من الاشارة اليها باعتزاز هي تلك التي جرت في منطقة السّماوة والناصريّة والتي اطلق عليها الثوّار بمعركة البواخر خلال شهر آب/اغسطس.

لقد كانت البواخر النهريّة تقوم بعمليّات الامدادات وتموين القوّات الإنكليزيّة المحاصرة بين السماوة والناصريّة. واستطاع الثوّار اشعال النيران في احدى البواخر الحربيّة وصعدوا على سطحها وقتلوا من كان فيها ثمّ غنموا ماكان بالباخرة وبالجنبتين المسحوبتين ثمّ غادروها

بعد ان اشعلوا النار فيها. وقد وصف الثوار الذين قادوا الهجوم وصفا بسيطا في رسالة طريفة بعثوها الى الامام المقلد في النجف جاء فيها:

"... سثمّ مولانا لايخفاكم نبشركم بشارة عظيمة يوم الجمعة الموافق 12 ذو الحجة؛ جاءتنا خمسة مراكب كبار امّهات السلة من الناصريّة فاستقبلهن الاسلام (المسلمون الثوار) وهم عشائر الجوابر جميعا واهل الخضر الى شرقي الخضر في مكان يقال له الصّافي. فصاروا له صوبين على الفرات وثار عليهن التفك (البنادق) من الاسلام المذكورين والمراكب يضربن بالطوب الكبار (المدافع الكبيرة) والرشاشات والاسلام غير مبالين وثابتين حتى اختطفوا منهن مركبا كبيرا فيه مدافع ورشاشات وتفك وذخائر. وقتلوا الاغلب (اكثرهم) واسروا الباقي. والاربعة الباقيات وقف منهن واحد والعشائر محاصرته وحسب الظاهر تريد الى المعسكر المحاصر بالسّماوة. وان شاء الله هذه الواقعة تحرّك كل من لم يقم من العشائر السّاكنة. بشرّوا المسلمين الذين عندكم. والمركب الماسورة احرقناه في النار لم يبق اثر والسلام..".

كما هاجم المجاهدون الثوّار حامية محطة السّماوة ولم ينج من القوّات الإنكليزيّة الالفين سوى اثنان وقعوا في الاسر ، وفي 10 آب/اغسطس توقفت الباخرة " غرين فلاي " بمنطقة ضحلة فحاصرها الثوّار وكانت الطائرات تحاول امدادهم بالمؤونة والغذاء فتنجح حينا وتفشل حينا اخر. وفي احدى المرّات تمكن الثوّار من اسقاط احدى الطائرات في 22 اب/ اغسطس 1920 وقتل طيّارها ومعاونه ويبدو انّ الجنود الهنود المسلمين في الباخرة قد تأثروا بصيحات المجاهدين "الله اكبر" وبسبب احساسهم الديني بالاضافة الى ان حياتهم كانت مهددة وكان عددهم 30 هنديّا مسلما مع ربان واربعة جنود انكليز فقاموا بقتل الربان والجنود الإنكليز واستسلموا للثوّار وقد اكرمهم السيّد هادي المكوطر وارسل قسما منهم الى النجف وقسما ابقاهم في ضيافته. واستلم الثوّار الباخرة وخرّبوها بعد ان اخذوا ما فيها. وكان لهذا الحادث رد فعل شديد لدى القيادة الإنكليزيّة خوفا من تعاون المسلمين الهنود في الجيش الإنكليزي مع الثوّار. وعلى الرغم من ان التحقيق بالحادث استمرّ سنة كاملة وانّ الإنكليز استجوبوا افراد العشائر الا انهم لم يكشفوا السرّ خوفا على حياتهم من السلطات الإنكليزيّة. وبقي السرّ مطويّا لمدة طويلة من الزمن الى ان كشفه في عهد قريب الضابط المتقاعد سامي النقشلي الذي كان ضابطا سابقا في الجيش العثماني ومجاهدا مع الثوّار كما اشرنا اليه سابقا حيث قام باعمال جليلة من تدريب المجاهدين واستعمال الا سلحة وهو الذي اجرى المفاوضة والاتفاق مع الهنود المسلمين.

معارك القطار

ومن المعارك الشهيرة في تاريخ ثورة العشرين الكبرى، تلك التي اطلق عليها بمعارك القطار التي بدات في 30 تموز/يوليو اثناء انسحاب الجنرال كوننغهام وحاميته من مدينة

الديوانيّة الى مدينة الحلة بقطار يتكوّن من 251 عربة و6 قاطرات. وقد حمل هذا القطار كلّ ما لدى الحامية من ادوات حرب ومؤونة وجنود وضباط. وكانت تحمي القطار طائرات تاتي من بغداد لقصف الثوّار المهاجمين. وعلى الرّغم من انّ الجنرال قد اخذ معه في القطار بعض رؤساء العشائر مثل موجد الشعلان وجبل العطيّة وصكبان رئيس البدير كرهائن (دروع بشريّة) لمنع هجمات الثوّار على القطار. وعلى الرّغم من انّ بعض العربات كانت مدرّعة، الا انّ هجمات المجاهدين كانت جريئة وشجاعة ومتلاحقة مع تخريب لقضبان السكك الحديديّة مما اضطرّ القطار الى قطع مسافة 85 كيلومتر بأحد عشر يوما (اي انّ القطار لم يستطع ان يقطع اكثر من 8 كم في اليوم الواحد)، مما دفع الجنرال هالدين ان يصرّح بانه قاد معارك في جبهات فرنسا خلال سنوات الحرب العالميّة الاولى، الا انه لم يعاني الارهاق الفكري مثلما عاناه خلال الاحد عشر يوما تلك، وقد بدت له وكانها سنوات طويلة. ومما قاله ايضا:

"ان مناظر الخرطوم كانت تتراءى لي في تلك الفترة...)، مشيرا بذلك الى انتصار المجاهدين السّودانييّن من اتباع المهدي في السودان عام 1885 الذين قتلوا زميله القائد الإنكليزي غوردون.

وفي الوقت الذي كان فيه الإنكليز يعزّزون مواقعهم وقوّاتهم بالجنود وبالاسلحة، كان الضبّاط السّياسيّون والعسكريّون والمتعاونون معهم يندسّون بين زعماء القبائل والشخصيّات الوطنيّة في المدن لاضعاف عزيمتهم عن طريق توزيع الليرات الذهبيّة والاسلحة واعطائهم الوعود الخلابة من جهة او اللجوء الى تهديدهم وتخويفهم بسحب امتيازات الاراضي او نقل الزعامات القبليّة والمشيخات الى رؤساء قبائل اخرين. ويعتبر الطبيب البريطاني سندرسن في الحلة اشهر من لعب الادوار في هذه المهمّة حيث افلح في اقناع عدّاي الجريان رئيس البوسلطان وكذلك عمران الزنبور بعد ان وثق علاقته معهما واصبح واسطة لنقل المعلومات عن الثوّار بينهم وبين الحاكم السّياسي في الحلة الميجر بولي. (مذكرات سندرسن باشا/طبيب العائلة المالكة في العراق -1918 1946/ص42 – 50).

ومع كل ماقام به الإنكليز من محاولات لشراء الذمم وتحبيط العزائم لاضعاف الثوّار، الا انّ الثورة استمرّت، ففي 5 اب/اغسطس استولى الثوّار على منطقة سدّة الهنديّة ثمّ توجهوا الى مدينة المسيّب واحتلوها وبذلك اصبحت قوّات الثورة قريبة من ضواحي العاصمة بغداد الامر الذي افزع الجنرال هالدين فجمع قوّاته من منطقة الحلة ومن قوّات الحامية التي انسحبت من الديوانيّة كما اشرنا، وتمكن من استرداد مدينة المسيّب في 12 اب ثم توجه الجنرال هالدين بعد ذلك الى قلب الثورة مدينة كربلاء في 14 اب/اغسطس لاحتلالها. ولكن الثوّار بقيادة الشيخ مرزوك العوّاد وكاظم الحاج سكر دافعوا عنها دفاعا بطوليّا مستميتا قرب نهر الحسينيّة، وقد حقق المجاهدون نصرا عظيما واجبروا الإنكليز تاركين وراءهم عددا كبيرا من القتلى والجرحى ومن هوسات النصر(الاهازيج) التي اطلقها الثوار المنتصرون انذاك:

"بالسّيك مبربع واويها.." اي جعلنا جثثهم - جنود الجيش الإنكليزي - طعاما لابن اوى، وكذلك..".. بالمايتكابل رديته.." اي ارجعناهم بما لايمكنهم مواجهته في القتال. وقد تعقب الثوّار القوّات الإنكليزيّة المنسحبة واخذوا يناوشونهم في منطقتي السدّة وناظم الحسينيّة.

حاول الإنكليز ان يبقوا بقيّة عشائر الفرات على الحياد ولكن موقف ومكانة زعماء ال فتلة والسّادة آل الياسري فوّت على الإنكليز فرصة التفرقة واثارة الاحقاد القديمة بين القبائل. ففي الاجتماع الذي دعا اليه الميجر نوربري والذي حضره معظم زعماء الفرات اراد الإنكليز اعتقال االشيخ عبد الواحد الحاج سكر والسيّد علوان الياسري ولكن وجود اتباعهم المسلحين حال دون ذلك، وجرت مشادّة كلاميّة حادة بين الضابط الإنكليزي مان وبين الحاج عبد الواحد جاء فيها ان الضابط قال للشيخ عبد الواحد:

"اما تخافون من حكومة بريطانيا التي اخافت العالم كله وانتم تريدون الاستقلال في الوقت الذي لايساوي فيه نسبة عددكم واحد من الف من عدد اهالي هندستان؟.. فردّ عليه عبد الواحد قائلا: نعم ان العراق قليل بسكانه ولكنه كثير بعزائم اهله وقوّة باس زعمائه واحقيّة مطاليبه، فالعرب ليسوا كالهنود، وانّ العربيّ ابيّ الضيم اذا اعتدى عليه اصبح شعاره امّا الموت او استعادة حقه المغصوب. فنحن لانخاف من بريطانيا وان قوّتنا اعظم من قوّتها الا وهي قوّة الايمان بالله.."

وفي 8 آب حينما ثارت مناطق ديالى (شرق بغداد وهي ذات الموقع الاستراتيجي المجاور لايران مباشرة) انسحبت القوّات البريطانيّة من دلتاوة في 12 منه ثمّ من بعقوبة مركز تلك المناطق في13 منه. وتشكلت في بعقوبة ادارة مدنيّة،على راسها مجموعة من اعضاء حزب حرس الاستقلال وهم:

سعيد العيدروسي، ومحمود المتولي حاكم المحكمة فيها، والضابطين السابقين امين زكي، وحسين علي الذي جعله الثوّار مسؤولا عن الشرطة وهو الذي قام برفع العلم الوطني فيها وهو مشابه للعلم الذي رفع فوق متصرفيّة كربلاء كما اشرت سابقا.

عاصمة الثوّار

على الرّغم من ان بغداد عاصمة العراق ولا احد ينافسها في هذا ما بقي العراق على وجه الارض بما لها من جاذبيّة وعبق تاريخي، الا انّ التطوّرات السّياسيّة واستراتيجيّة مواقع العمليّات القتاليّة للثورة جعلت من المدن المقدسة، كربلاء والنجف، ملجا للثوّار من جميع انحاء العراق.

وبما ان الامام المقلد الشيرازي سكن كربلاء، فقد اصبحت كربلاء القاعدة والعاصمة لجميع التحركات السّياسيّة والثوريّة نظرا لقربها من المناطق الثائرة وسهولة الاتصالات بجبهات القتال.

لقد اعلنت كربلاء استقلالها عن السّيطرة البريطانيّة وقيادتها في بغداد ابتداء من 25 تمّوز/يوليو 1920 وخاصة بعد النجاح الكبير الذي حققه الثوّار في معركة الرارنجيّة. وحينما خطب مدير الشرطة (محمد امين) بافراد قوّاته وحثهم على الصّمود والاخلاص للانكليز ووعدهم بالمكافات السّخيّة من اجل السّيطرة على الموقف، قام احد افراد الشرطة واخذ يدبك بهذه الهوسة الاهزوجة: ".. ما انطيعك ! ياعبد السوجر مانطيعك !!". ونهض الناس وافراد الشرطة يدبكون بحماس وتمت سيطرتهم على الدوائر الحكوميّة بدون اراقة دماء وارسل مدير الشرطة ومعاون الحاكم العسكري وعريف بريطاني الى بغداد بامان.

وفي 26 تموز/يوليو اجتمع صفوة اعيان وزعماء كربلاء في دار الامام الشيرازي. وبتوجيهات منه وبعد مناقشات تمّ تشكيل مجلسين: الاوّل سمي " المجلس العلمي " وكانت غايته القيام بالتوجيه وبث الدعاية للثورة وتقوية المعنويّات وحلّ مشاكل الناس والنزاعات التي قد تحدث. وهذا المجلس ضمّ كلا من السيّد هبة الدين الشهرستاني والسيّد ابو القاسم الكاشاني والميرزا احمد الخراساني والسيّد حسين القزويني والميرزا عبد الحسين الشيرازي.

امّا المجلس الثاني فسمّي "بالمجلس المليّ" وكانت مهمّته الاشراف على ادارة مدينة كربلاء وجباية الضرائب والخدمات العامّة بالاضافة الى تعييّن الموظفين والشرطة. وقد تالف هذا المجلس من سبعة عشر عضوا، تسعة منهم رؤساء المحلات (الحارات) وثمانية من اعيان كربلاء. كما عيّن كلّ من عزمي سكرتيرا للمجلس ومهدي السّامرائي محاسبا وعيّن محمد علي ابو الحب امينا للصندوق وعبد الرزاق افندي كاتبا وكان جميع هؤلاء من المسلمين السّنة. كما عيّن سمرمند الهتمي امرا للشرطة وعبدالرّحمن العوّاد امرا للمشاة.

وفاة الامام الشيرازي

عاشت كربلاء في ظلّ مرجعيّة الامام الشيرازي طيلة ايّام الثورة في امان واستقرار، اذ لم تظهر فيها ايّة بادرة تعكر الامن والنظام، وعلى الرغم من انّ هذه المدينة أصبحت ممرّا لرجال القبائل ومحطا لانواع مختلفة من العناصر والمذاهب سواء من بغداد او من المدن الاخرى. حتى انّ بعض المدن الفراتيّة كانت فيها اقليات مسيحيّة ويهوديّة وصابئيّة، الا ان امتثال الناس لاوامر قيادة الثورة كان امرا يدعوا الى الاعجاب، لا سيّما فيما يتعلق بضرورة التآخي والحفاظ على الوحدة الوطنيّة. الا انّ الذي عكر صفو الجو هو انتقال الامام محمد تقي الشيرازي الى جوار ربّه في17 اب/اغسطس 1920 والثورة ما زالت في اوجها وفي قمّة انتصاراتها. وفي نفس اليوم بويع الشيخ فتح الله الاصفهاني ليكون المرجع الاعلى بعد الشيرازي وخليفته في الاشراف على الثورة.

اعلن الاصفهاني بانّ فتوى الثورة على المحتلين ما زالت مستمرّة وانه يؤيّد قتال المشركين واوصى الناس بالجهاد وبالاجتهاد لحفظ الوطن واخذ الاستقلال. وبما انّ الشيخ الاصفهاني

يسكن مدينة النجف ولهذا انتقلت القيادة اليها. سيّما وانّ النجف قد سبق واعلنت ثورتها في 15 تّموز/يوليو 1920 واستولو على الدوائر الحكوميّة وطردوا الإنكليز منها.

تشكيل اوّل حكومة للثوّار

شهدت كربلاء قلقا ملحوظا بغياب الامام الشيرازي، سيّما وان الثورة مازالت قائمة حيث كانت الساحة السّياسيّة بامس الحاجة الى قيادته وحكمته وصلابة وقوفه بوجه الإنكليز التي عرف بها اكثر من خلفه الاصفهاني. وبدات تظهر حوادث فرديّة وتجاوزات بين سكان المدينة والمجاهدين من ابناء العشائر. ولهذا قرّرت الصّفوة من اعضاء المجلس المليّ والاعيان ضرورة اختيار رجل ذو هيبة ومنزلة بين الجميع لضبط النظام والامن في مدينة كربلاء. واخيرا استقرّ الراي على اختيار السيّد محسن ابو طبيخ ليكون متصرّفا اداريّا لكربلاء. وبعد المداولة وجد قادة الثورة انّ الفرات الاوسط بمدنه وقراه قد اصبح تحت السّيطرة الكاملة للثوّار وقد اخرج الإنكليز منها ولهذا قرّروا تشكيل حكومة وطنيّة ورفع اوّل علم وطني للعراق فوق دار البلديّة كما اشرت سابقا. وكما اشرنا سابقا فقد تم ذلك في 6 تشرين الاوّل 1920حيث نصّب السيّد محسن ابو طبيخ متصرّفا على كربلاء في دار البلديّة وقد حضر الاحتفال عدد من صفوة المجتمع العراقي بمختلف مذاهبه ومكوّناته منهم السيّد محمد الصدر والشيخ يوسف السويدي ومحمد جعفر ابو التمّن وعلي البازركان ومحمود رامز وطه البدري والشيخ ضاري زعيم قبائل زوبع وغيرهم.

لقد ادرك الإنكليز خطورة هذه الخطوة على بقيّة انحاء العراق، اذ خافوا من انّ قيام اوّل حكومة وطنيّة تمثل جميع مكونات الشعب العراقي وخارج ارادتهم وادارتهم سيكون خطرا على هيبتهم وعلى مصالحهم ووجودهم في العراق وخاصة ما شاهدوه من تالف ووحدة بين السنّة والشيعة. وعرفوا ايضا بان مثل هذه الحكومة المستقلة ستكون قويّة ولا يمكن اخضاعها لارادة الانتداب البريطاني. ولهذا استجمع الإنكليز كافة قوّاتهم وخلال اسبوع واحد هاجموا طويريج واحتلوها في 12 تشرين الاوّل/اكتوبر واصبحت كربلاء مهدده بالسقوط. وحول هذه الاحداث كتب الجنرال هالدين في مذكراته (عصيان في العراق ص147):

".. لما كانت كربلاء مسؤولة الى حدّ غير قليل عن قيام الثورة، فاني رغبت في الاستيلاء على ناظم الحسينيّة الذي كان يبعد عن الفرات بمائتي ياردة لكي اجعل سكان البلدة يشعرون بعذاب الحرمان من الماء...". وقد سيطر هالدين بالفعل على ناظم الحسينيّة في ايلول/ سبتمبر وقام فعلا بقطع الماء عن كربلاء وهو المصدر الوحيد لارواء البساتين والمزارع وتموين المدينة بماء صالح للشرب. وقد اثرّ هذا الحادث تاثيرا كبيرا على المدينة وماحولها من مزارع وبساتين. وبعد سقوط طويريج (24 كيلومتر عن كربلاء) وجد اعضاء الحكومة المؤقتة انّ ارسال وفد الى بغداد من اجل الصلح والتفاهم اصبح امرا لامفرّ منه.

الثورة في مناطق الفرات الاعلى

لم تمتدّ الثورة الى مناطق الفرات الاعلى حتى الثاني عشر من شهر اب/اغسطس1920 حينما اصبح ثوّار الفرات الاوسط والادنى يطرقون ابواب بغداد بعد سقوط مدينة المسيّب بأيديهم.

كان السّبب الاوّل في ذلك التأخير هو انّ اقوى زعيمين في عشائر تلك المنطقة كانا من الموالين المخلصين للانجليز وهما؛ الشيخ علي السّليمان (رئيس عشائر الدليم)، والشيخ فهد الهذال (رئيس عشائر عنزة). لقد كان لزعماء عشائر الفرات الاعلى موقفان تجاه رسائل وفتاوى الامام الشيرازي حول اعلان الثورة على الانجليز من اجل الاستقلال. فقد حمل السيّد جدوع ابو زيد تلك الرّسائل في 23 تّموز/ يوليو 1920 واتجه نحو زعماء قبائل الفرات الاعلى، وقد حصّل على جواب التأييد والنصرة من الشيخ خضيّر الحاج عاصي رئيس الجنابييّن الذي اصطحب رسول الثورة وطاف به على بقيّة قبائل اللواء مثل: قبائل تميم وزوبع والدـليم وغيرهم.وكان جواب الشيخ ضاري المحمود زعيم عشائر زوبع ايجابيّا واكثرهم حماسة وتلبية لنداء الثورة والجهاد. وقد اكتشف رسول الثورة انّ الشيخ ضاري كان على صلة سابقة ودائمة مع زعماء الفرات الاوسط لا سيّما مع الشيخ الحاج عبد الواحد الحاج سكر، وحينما اطلع على فتوى الامام الشيرازي قال الشيخ ضاري:

"...يشهد الله تعالى على انني عربي مسلم وقد عاهدته وانت من الشاهدين على ان ابذل الغالي والرّخيص من اجل انقاذ بلدي من الانجليز. وليعلم العلماء والزعماء من اخواني انني ساقوم بادوار يسجلها التاريخ بعد ان يسمعونها فترضي الله والناس...".

كما وقف زعماء منطقة المحموديّة من امثال علوان الشلال (البو محي) وفيصل المغير (رئيس الجحيش)، وثامر الشبلي (رئيس البو عامر) موقفا مناصرا لرسائل النجف وكربلاء ومثلها فعل (فريق اليوسفيّة) وعويريج. وقد بدات هجمات هذه العشائر على سكك الحديد والقطار القادم من بغداد والمتوجهة الى الحلة فهاجمه الثوّار فكا نت معركة دامت اربع ساعات تكبّد الانجليز ما يزيد على المائة وخمسين قتيلا بينما كانت ضحايا الثوّار تقدر بخمسين شهيدا. وفي اليوم الثاني قامت الطائرات البريطانيّة بقصف منازل الشيخ علوان الشلال وعشائر البو عامر والجحيش وتركت ما يقارب المئة من القتلى كان اكثرهم من النساء والاطفال. كما دمّرت ثروة حيوانيّة كبيرة من الجمال والخيول والبقر والاغنام. لقد اثار عدوان الطيران الانجليزي بقيّة العشائر من زوبع والانبار ييّن والفداعمة وأخذوا يشنون هجمات مكثفة على قوافل النقل للجيش البريطاني سواء القطارات منها او السيّارات. كما حوصرت المحموديّة ودخلها الثوّار ليلا.

لقد تفاجات القيادة العسكريّة البريطانيّة ببطولات الثوّار واساليبهم مما اصابها موجة من

الهلع لا سيّما ما راوه من اسناد بعض قبائل الفرات الاعلى السنيّة لقبائل الفرات الاوسط الشيعيّة. ولهذا السبب اخذوا يجزلون العطاء لاصدقائهم ولحلفائهم وخاصّة للشيخين علي السّليمان وفهد الهذال. فاخذ المناصرون للشيخ علوان الشلال الانسحاب تدريجيا بحيث لم يبق الا هو وحده وعشيرته (البو محي) يقاتلون، وفي تلك الاثناء وصلت امدادات بريطانيّة كبيرة من بغداد ممّا اضطرّ الشيخ علوان وعشيرته الى الانسحاب الى البادية.

مقتل الكولونيل ليجمان

كانت انباء نشاط الثوّار في المحموديّة ونشاط اتصالات الشيخ ضاري المحمود بالثوّار قد وصلت الى الكولونيل ليجمان حاكم لواء الد ليم فاستدعى رؤساء عنزة والدليم وطلب منهم مقاومة كلّ ثائر ووعدهم بالجاه والمال والمستقبل اذا ما ساندوا الانجليز في ضرب الثوّار. وكان في طليعة المستجيبين له الشيخ فهد الهذال رئيس عشائر عنزة وعلي السّليمان ومشحن الحردان من رؤساء الدليم، كما عاهدوه على الصّمود والنّصرة. امّا الشيخ ضاري المحمود رئيس زوبع فقد بقي على عهده للثورة وللثوّار ورفض طلب الكولونيل ليجمان له للحضور، الا انّ ليجمان خادعه وطلب اللقاء مع الشيخ ضاري في خان النقطة الذي كان على بعد اربعة كيلو مترات من مضيف الشيخ.

ففي 12 اب/اغسطس 1920، كان اللقاء متوترا جدّا، لا سيّما ان ليجمان كان يتقن اللغة العربيّة واللهجات البدوية بشكل جيّد، وهو معروف ببذاءة اللسان والتهوّر. وفي اثناء الحوار تطاول الكولونيل ليجمان على كرامة الشيخ ضاري بسيل من الكلمات النابية واتهمه بالخيانة والتامر مع رسول الثورة السيّد جدّوع ونسب اليه والى عشيرته حوادث السّرقات والاخلال بالامن. ولم يتحمّل الشيخ ضاري الشتم والاهانة فخرج ونادى على ولده سليمان وبعض اولاد عمومته فدخلوا على ليجمان واطلقوا الناروا جهزوا عليه في الحال.

وفي اليوم التالي على مقتل ليجمان في 13 اب هاجمت عشائر زوبع مع احلافهم من قبيلة تميم وبرئاسة علي المعيدي وقامت بقلع خطوط السكك الحديديّة بين بغداد وسامرّاء لايقاف النجدة التي قد ترد من الشمال. كان مقتل لجمان بمثابة اعلان الثورة على الانجليز حيث استمرّ رجال الشيخ ضاري بهجماتهم على خطوط المواصلات.

طلب الشيخ ضاري المعونة من مشوح الجاسم رئيس الجميلات ومن رؤساء البو عيسى وبعض زعماء اخرين وعرض عليهم صورة فتوى الامام الشيرازي ودعاهم الى الجهاد من اجل الدين والنفس وحلف الجميع بالقران المجيد على مواصلة القتال. وقد استمرّ الشيخ ضاري بتنظيم المجاهدين طيلة اربعة ايّام وبينما هو كذلك استلم من الشيخ علي السّليمان رسالة مؤرّخة في الاوّل من ايلول/سبتمبر يطالبه فيها بعدم محاربة الانجليز حيث جاء فيها:

"... اني وعشائري لا اشترك معك في الثورة ضد الانجليز مطلقا ومهما كلفني الامر، واني انذرك لمدّة اربع وعشرين ساعة ان تخرج خلالها من ديار الدليم وتسحب جيوشك، وان كنت تريد ان تحارب الانجليز فيمكنك ان تذهب الى بغداد وتحاربهم هناك. والا فانا انازلك الحرب واكون خصمك بعد مدة الانذار هذه...".

انسحب الشيخ ضاري وقوّاته من اراضي الدليم وتمركز في اراضيه ولكنه ظلّ على اتصال بزعماء الثورة في الفرات الاوسط. وفي 18 أيلول/سبتمبر1920 صدّت قواته هجوما انجليزيّا وصمد بمقاتليه ببطولة رغم تفوّق الانجليز بالعدّة والعدد وكانت تساندهم الطائرات، حيث استطاع مقاتلوه من اسقاط طائرة حربيّة واسروا الضابط الطيّار ومعاونه، ولكن الشيخ ضاري اطلق سراحهم بتوسّط الشيخ فهد بن هذال وفي 23 ايلول تمكن الانجليز من تكبيد القوّات الثائرة اضرارا بالغة ممّا دفع الشيخ ضاري ان يلتحق بقوّات الثورة في الوند. ودخل الانجليز مدينة الفلوجة ظافرين في يوم 24 ايلول/سبتمبر في قطار مدرّع ومعهم حلفاؤهم الشيخ علي السليمان وفهد الهذال. ولم ينس المحتلون الإنكليز ذلك الموقف الوطني للشيخ ضاري بهدف الانتقام منه ومن عشائره فيما بعد.

الصّفوة النسائيّة وثورة العشرين

ساهمت المرأة العراقيّة بشكل فعّال مع رجال القبائل المقاتلة في المعارك الضارية ضد قوّات الاحتلال البريطانيّة، وكانت في مواقفها تنافس الرّجل ميدانيّا ببطولات تذكرّنا بامّ نسيبة في جيش الرّسول (ص) وبزينب بطلة كربلاء وبالخنساء وبخولة بنت الازور واخريات من مفاخرالنساء العربيّات المسلمات عبر التاريخ.

لقد عاشت المرأة الفراتيّة ايّام الثورة داخل خطوط النار. وكنّ على شكل مجموعات لايتخلفن الا اذا كان الموقف يتطلب التحريض او دفع الرجال المتردّدين او المتراجعين عن قتال الاعداء. لقد كنّ في قلب المعارك مع ازواجهنّ واولادهنّ واخوتهنّ وابناء عشيرتهنّ يلهبن الحماس والغيرة والنخوة ويُسقين ويُطعمن... ويُدفنّ احبابهنّ بأيديهنّ. كانت لكلماتهنّ ولاشعارهنّ فعل السّحر في اجواء تلك المعارك. وكثيرا ما غيّرن مصير معركة. وممّا يؤسف له انّ الكثير من المواقف والاهازيج والاشعار لاولئك النسوة قد ضاع بمرور الزمن او طواه النسيان، ويمكن ارجاع ذلك الى الاهمال المتعمّد في التراث (العربي والاسلامي) للمرأة من قبل خصومها والمتعصّبين في مواقفهم ضدّ حقوقها الطبيعيّة.

فمن المواقف المشرّفة الباقية في الاذهان، والتي رواها بعض المعاصرين لتلك الاحداث هو موقف زوجة ثعبان المهدي من رؤساء الجبور في معركة الزرفية قرب الديوانيّة. فقد رات هذه المرأة عودة الثوّار منكسرين امام الإنكليز فما كان منها الا ان حسرت الحجاب عن راسها، ودخلت بين الفلول المنهزمة وصارت تثير فيهم النخوة وترجز شعرا ثمّ تقدمت الى الامام

شاهرة فاسا كانت قد جلبته معها مما اثار منظرها وكلامها النخوة في نفوس رجال عشيرتها فاعادوا الكرّة على مواقع الانجليز وقاتلوا ببطولة بحيث اجلوهم عن مواقعهم. وقد اصيبت هذه المرأة بقذيفة في اثناء الكرّة على الاعداء اودت بحياتها، فكانت اوّل شهيدة في معارك ثورة العشرين.

وفي منطقة الهاشميّة حينما انكسر الثوّار امام الانجليز فعلت "صافية" ام الشيخ جبل العطيّة كما فعلت الاولى وابدت بطولة كبيرة. وكان يطلق على الشاعرات اللواتي يساهمن في المعارك اسم "العمّاريّات" بسبب قوّة اصواتهنّ وما يمتلكن من موهبة ارتجال الشعر المناسب لكلّ موقف من حيث الجودة وتضمينه الايات القرانيّة الذي يلهب حماسة المجاهدين.

لقد كان لكل قبيلة شاعرة او شاعرات (عمّاريّات)، واشهرهنّ بنات ونساء قبائل ال فتلة والظوالم والعوابد والاكرع والبوسلطان والجبور والخزاعل وخفاجة. ومن روائع ما سمعت وقرات من اشعارهن هو خروج مجموعة من نساء آل فتلة يهزجن ويزغردن ويشجّعن لمقاتلة الجيش الانجليزي القادم الى (الرارنجيّة). فقد وقفت فتاة من بين المجموعة تخاطب زعيم قبيلتها الخالد الذكر الشيخ عبد الواحد الحاج سكر وقالت هذه الابيات:

ثار التفك واسمع اندابه — ودخّاننه مثل الضّبابه

نخوا وين فكّاك الطلابة — يـ (واحد) او يا راعي المهابة

يا ماضي ولا ينشبدّ اصوابه — يـ صنـديد يا وكفة اصحابه

وفي نهر الكوفة استطاع الثوّار اغراق الباخرة الانجليزية (فاير فلاي) التي فتكت بقصفها الوحشي المنازل والمحلات. واثناء المعركة كانت الشاعرة الفتلاويّة (اشليبة بنت فزع) تقود النساء، وبين الزغاريد خاطبت المنتصرين الذين اغرقوا الباخرة بالابيات التالية:

رصاص الباخرة الصّوبين لعلع — و يغطيّ اللعلعة زمجرة مدفع

او ماغير التفك والدّان تسمع — او نار المعركة والشمس تصكع

او نيران الحرب من تشب تصدع — او(عباس) او(جري) او(علوان) اسرع

ابالف رجـّال اجت للكوفة تفزع — اوعبد الواحد (الحاج سكر) امن السـّبع اسبع !

خلـّه اللشش للوحـش مـرتـع !

وكان الشيخ شعلان ابو الجون زعيم الظوالم في مضيفه (مجلسه) يرتاح بعد ان حقق انتصارا في صباح ذلك اليوم؛ واذا بالعمّاريّة تقف بباب المضيف (المجلس) تهتف بوجهه وتحث الرّجال على مواصلة القتال بلا استراحة:

ثار التفك وتغيّر الكون — تشربون كهوة او لا تسمعون؟

اريدنكم على حسّي تكومون — او للمعركة هسـّه تطبـّون

ذياب شـاة الهم تصيـرون — او نيشان للرشـّاش تكفون

يولادنة صلفين العيون امن (السيك) والهندي تخافون؟ !!
اريدن امن الصوجر تجيبون ضحايا ابباب عمّتكم تذبحون

وتقف شاعرة اخرى من قبيلة الظوالم (نازي بنت حاجم) لتمزج الحماسة بالحكمة تخاطب زعيم قبيلتها الشيخ شعلان ابو الجون وهو راجع مع سبعين رجل من الابطال بعد ان استطاعوا احتلال جسر السوير:

شعلان اجاها او صحت شوباش خلـّة الرّميثة امجـضّعة الـشاش
العـج غـطاها والثرى افـرا ش كوركة او سيك او باجي الاوباش
اولاهاب من مد فـع او رشـّاش واللـّي يخلـّد امّـته.... عاش !!

وحينما انسحبت عشائر الجبور والبو سلطان بسبب ضغط المدفعيّة البريطانيّة تساندها الطائرات، واصبح هذا الانسحاب يهدد الجناح الشرقي لقوّات الثوّار، اذا بالشاعرة صافيّة (ام الشيخ جبل العطيّة) رئيس عشيرة الاكرع تعترض المنسحبين وتكشف عن راسها وتخاطب نخوة زعمائهم باسمائهم وتطلب منهم الكرّ على الاعداء صارخة فيهم:

لا... يل الجبور او يالبو سلطان نايف او فارس الجريان
اولا.. يشـخيّر الـهيمـص او غضبان وابن برّاك راعي الفخر سلمان
ما بكت عنـد كم ذرّ ة ايمان؟ بالله او بوطنكم يهـل شجعان
واحد كم سبع مهـيوب حـرّان وتـروط من عـزمه الكيعان
من تشـب يـوم الحرب نيران هـزيمتـكم خـيانة الهـاذي الاوطان
اشلون اتواجهون ابهاي عربان عـا ر على يعـرب او كحـطـان
تبـقى زلمـها ابّـين نـسوان !!

لقد استطاعت الشاعرة صافية ان تلهب مشاعر المقاتلين، فقاموا بالكرّة على مواقع الانجليز وجعلوهم زمرا واشلاء متناثرة.

ام الشهـيـد: امّا الشاعرة (افطيمة بنت كاطع) من عشائر الظوالم فقد كانت موزعة الوجدان مابين حبّ الوطن والدفاع المقدس عن الارض، وبين حبّ اولادها الشهداء حينما وقفت لترثي ولدها الشهيد الثاني واسمه (جبر) الذي استشهد في معركة العارضيّات:

شـلتـك ابـّطني تسـعة ا صحاح او حفظتك مـن اكلة او شمس ضحضاح
ياللي بين كومة قـمر وضـّاح اشـرق على ارض المعركة او لاح
اتطارد الصّـولجر اهـل الا رماح ابيـوم الحرايب تخطـف ارواح
بالعارضـيّـات او هــل البطـاح شـيّـال راسـي ابيوم الصـيّـاح
التعب اللي تعبتـه اويـا ك ما راح يـا ريـع كـبد امـّك يـسـبّـاح !!

وفي معركة (الرارنجيّة) وهي اعظم معارك ثورة العشرين كان لصفوة نساء العشائر دورا اساسيّا في جمع شمل الثوّار بعد ان كانوا على وشك الانسحاب والانهيار حيث وقفن يلوّحن بالفوط واغطية الرؤوس كاشفات شعورهنّ، ضاربات وجوه خيول الفرسان فعادوا وسيطروا على الموقف في الحال وحققوا النصر المبين. ومن اشهر الشاعرات نشاطا في تلك المعركة كانت (نشميّة بنت ثجيل) من عشيرة البو عارض من بني حسن حيث صرخت بوجه المتراجعين:

ويـن اللي حمـل فـاله او مكـوار	بيها ايصـيد اجـيوش الاشرار
او ينـجد اخـوته الغدت طـشـار	او من الصـواجر ياخـذ الثار
ما اظـن مثل هـل المعـركة صـار	بـ عراقنا و بكـل الامـصـار
بـ الرّستميّـة وجـّر ت..... نار	كـلـ ّ اللي كحمها اينول شـنيار
اتسولف ابفعله ازغار وكبار	واللـّي يتخـلـّف يحمـل العـار !

ومن طرف اخر من ساحة المعركة تقف الشاعرة (جلثومة) من بني عارض ناثرة شعرها وتصرخ بالمقاتلين:

وين اخوتي الطيبين... اهل الحميّـة

انطو تـلـف للـديّن.... با لميّـة ميّة !!

واستبطـات الشاعرة (فطـيمة ال علـي) من عشيرة الظوالم كـلا من اخيها وابنها حيث ذهبا الى المعركة ولم يعودا، وحينما عاد اخوها لوحده سـالته عن ولدها؛ اجابها:

(جن لا هـزّيتي او لوليـتي) مشيرا الى استشهاده، فاجابته باباء مفتخرة (هزّيت او لوليت الـهذا)، اي انها قد ولدته وهزـّت مهده لمثل هذا اليوم الجهادي.

امّـا (عفتة بنت صـويلح) من عشيرة ال ازيريج فقد رات ولدها يسير مع الاسـرى، وخشيت ان يصيبه الضعف وينكر اشتراكه بالثورة. فصرخت بولدها مشيرة الى ما يقلقها:

(بـس لا يتعـذّر موش انه) اي انها تخشى ان يقول للانجليز انا لست معهم.. فطمانها وردّ عليها: (خـلوّني بحـلكة او كلت انه) اي انه وضع بفم الاسد وقلت نعـم انا.. فاطمانّ قلبهـا...

(عن مقال للمؤلفّ في صحيفة التيّار- لندن/العدد ـ 3/9 تموز- يوليو1983)

الصّفوة تقود مناطق ديالى

مع حلول 8 اب/اغسطس 1920 عمّت الثورة مناطق ديالى بكاملها تقريبا مما زاد من القلق الشديد لدى البريطانييّن (بسبب الاهميّة الاستراتيجيّة لتلك المناطق نظرا لانها مناطق حدوديّة مباشرة مع ايران)، فاضطرّت القوّات البريطانيّة الى الانسحاب من منطقة دلتاوة

في 12 اب، ثم انسحبت من بعقوبة (وهي مركز مناطق ديالى) في 13 منه وتمّ تشكيل ادارة مدنيّة فيها ضمّت الصّفوة من وجهاء واعيان مناطق ديالى الذين هم من الاعضاء القياديّين لحزب حرس الاستقلال كما اشرت سابقا.

بينما كانت اخبار انتصارات الثورة المشتعلة في الفرات الاوسط وفي المناطق الاخرى من العراق تصل مناطق ديالى، اخذت مشاعر الاهالي فيها تغلي بالسخط على الانجليز واعوانهم. ولذلك كان الانجليز على يقظة تامّة بانّ الثورة قادمة فيها لا محالة، واخذوا يستعدون لكل طارىء. فقد عزّز الانجليز مواقعهم على طول ضفاف نهر ديالى، وانزلت قوّاتها المتكوّنة من الجيش الاثوري، المدرّب منذ عام 1919، لغرض الحفاظ على الخط الاستراتيجي الذي يربط ايران ببغداد. وكثيرا ما كان الحاكم العسكري " الميجر هايس " يحذر ويهدّد رؤساء العشائر وزعماء بعقوبة من التورّط بالوقوف بوجه بريطانيا. كما وزّع الاموال سرّا على بعض رؤساء القبائل فيها.

لقد جاء تحرّك مناطق ديالى ايضا متاخرا عن ثورة الفرات الاوسط، وهذا دليل اخر ايضا على الافتقار لقيادة مركزيّة موحّدة لثورة العشرين، وكذلك عدم الاعداد المسبق بالتخطيط الاستراتيجي السّياسي والعسكري والاعلامي لها، وكذلك عدم وجود التنسيق المطلوب بين زعامات الصّفوة العراقيّة الوطنيّة التي قادت معركة الاستقلال الوطني والافتقار شبه الكامل للاتصالات الميدانيّة فيما بينها. ومع كل ما تقدّم، فقد اشتركت مناطق ديالى بالثورة لدوافع اهمّها:

اولا: ورود اخبار انتصارات ثوّار الفرات الاوسط ونجاحهم في دحر القوّات البريطانّية في معارك متعددّة وفوزهم بالاسلحة والغنائم، وانتشرت هذه الاخبار انتشار النار بالهشيم عبر الروايات والاخبار التي عادة ما يبالغ في روايتها الرّواة في المجالس والمضايف العشائريّة.

ثانيا: قرب مناطق ديالى من بغداد (جوارها الشرقي مباشرة)، جعلها على قرب من نشاطات الحركة الوطنيّة وسماعها عن اضطهاد السلطة البريطانيّة لقادتها، واضطرار بعضهم الى اللجوء الى عشائر مناطق ديالى (كالشيخ محمد الخالصي ومرتضى الخالصي) مما زاد من وعي وحماس ابنائها واندفاعهم لا سيّما وان لهم ابناء عمومة وخؤولة مباشرة مع القبائل المقاتلة مثل قبائل العزة وبنو تميم والعُبيد وطيّ وربيعة وغيرها.

ثالثا: لم يجد زعماء القبائل وشيوخ ديالى بدّا من الاستجابة لنداء الجهاد وخاصّة بعد ان زار الشيخ حبيب الخيزران زعيم قبائل العزة بغداد والتقى ببعض القادة الوطنيّين فيها وسمع عن بطولات قبائل الفرات وتكبيدهم الانجليز خسائر في المال والسلاح. كما ذكرّه قادة بغداد باهميّة واثر فتوى الامام الشيرازي ولزوم الاستجابة لها، كما ناشدوه بانّ لواء ديالى يمكن ان يلعب اهمّ دور في الثورة وذلك بقطع المواصلات البريطانيّة بين ايران وبغداد، حيث يمكن ايقاف نقل الجيوش البريطانيّة من ايران وابطال استخدامها في ضرب الثورة مما اثار الحماس والنخوة عند زعيم قبائل العزة وهو المشهور بغيرته العروبيّة والدينيّة.

رابعا: انّ وجود شخصيّات دينيّة قويّة حول الشيخ حبيب الخيزران قد قوّت معنوياته. فقد لعب السيّد محمد الصّدر ومرتضى الخالصي دورا مهمّا في اثارة الحماس الديني لدى ابناء العشائر كما لعب السيّد محمود متولي والسيّد حبيب العيدروسي مع فريق جاء من بغداد وانضمّ الى ثورة ديالى بينهم الضابط محمود قنبر علي وسعيد حمزة المعروف (سعيد سارة) ومكي الاورفه لي وعبد اللطيف فارس وهؤلاء لعبوا اهمّ دور في ادامة ثورة بعقوبة وانتشارها.

في6-8 آب/اغسطس1920 هاجم الثوّار على بعقوبة وطردوا الانجليز منها واعتقلوا الضبّاط والموظفين فيها. كما هاجموا سكك حديد بغداد ـ قرتو وخرّبوها. وفي 12 اب/ اغسطس تمكن الثوّار من حصار قضاء شهربان، وفي13 منه تمكن الثوّار من احتلالها وشكلوا في هذا التاريخ ادارة مؤقّتة فيها. وفي 14 منه سقطت قزرباطية وخانقين، وفي26 منه سقطت كفري القريبة من كركوك، ثم سقطت مندلي بدون قتال وشكل الثوّار فيها ادارة محلّية. (د.نظمي/المصدر../179 ـ 178) وفي 15 منه اسفر حصار شهربان عن سيطرة الثوّار عليها وقتلوا الحاكم وقائد القوّة المحاصرة وضابطين وأسروا الباقين وكانوا جميعهم بريطانييّن ونتيجة لذلك أصبحت جميع مناطق ديالى تقريبا في قبضة الثوّار ماعدا محطة اللاسلكي والجسر الذي يمرّ عليه القطار في الجانب الغربي من نهر ديالى حيث دافعت الحامية الاثوريّة مع جنود هنود دفاعا قويّا واستطاعوا منع الثوّار من احتلاله. وسرت اخبار ثورة ديالى الى لواء (محافظة) كركوك ولواء اربيل حيث جرت مناوشات وهجمات على قوّات السّلطة البريطانيّة.

لقد اقلقت هذه الاخبار السلطة البريطانيّة في بغداد حيث اصبحت العاصمة محاصرة من جميع الجهات وخشيت القيادة العامّة في بغداد من النتائج، فارسلت على الفور فوجين الى جبهة ديالى بقيادة الجنرال يونغ والكولونيل وليم، ومن حسن حظ الثوّار انّ هذه القوّات قد ضلتّ الطريق وكاد الثوّار ان يفنوهم عن اخرهم لولا مساعدة بعض المتعاونين مع الإنكليز من الاهالي الذين أرشدوهم الى الطريق الأمن والابتعاد عن مناطق الخطر، مما ساعد الانجليز على النجاة من فناء محقق كاد فيه الجنرال يونغ نفسه ان يقع في الأسر لقد خسر الانجليز في هذه المناوشات عددا غير قليل من قوّاتهم ولكن بعد فترة ساعات التقى الفوجان مرّة ثانية وهاجما وهما في طريقهما القرى والبيوت وأشعلوا النيران في مضارب عشائر الكرخيّة والسكوك وغيرها، ثمّ اتجهت القوّات الانجليزيّة نحو بعقوبة. ففي 30 اب/اغسطس ارسلت القيادة البريطانيّة قوّات اخرى الى بعقوبة تساندها الطائرات والمدفعيّة ومع ذلك قاوم الثوّار ثلاثة ايّام كبّدوا فيها القوّات البريطانيّة خسائر فادحة ودافع الثوّار عن مدينة بعقوبة دفاعا بطوليّا واشتبكوا مع الاعداء داخل المدينة ممّا اضطرّ الانجليز الى الاستعانة باصدقائهم من قبيلة العبيد لكي يهاجموا بيوت ومضارب قبيلة العزّة، حيث كانت خالية من رجالها الثوّار المنشغلين بالجبهة، فهاجموها وحرقوا بيوتها ونهبوا اموالها مما اضطرّ ابناء العزّة للعودة

وترك الجبهة للدفاع عن اهلهم وبيوتهم وحينما وصلوا كانت النيران لاتزال تشتعل فقاتلوا المغيرين من العبيد وطردوهم من ربوعهم. وبانسحاب مقاتلي العزة ضعفت جبهة الدفاع عن مدينة بعقوبة فتمكن الانجليز من احتلالها في 3 ايلول/سبتمبر1920.

بعد سقوط مدينة بعقوبة توجّهت القوّات الإنكليزيّة نحو شهربان واحتلّوها ثمّ نحو ديلتاوة التي صمدت ببطولة بوجه الانجليز ودافع ابناؤها عنها ببسالة واشترك حتى اعيان المدينة في الدفاع حيث استشهد منهم رشيد الفرج. وفي يوم احتلال الانجليز لبعقوبة 3 أيلول/سبتمبر1920، قتل القاضي المجاهد يعقوب بن ملا حسين من بني جميل بباب داره على يد ضابط بريطاني. كما احرق الانجليز دار ومكتبة ثمينة واثاث العالم الديني المجاهد الشيخ حبيب الخالصي. كما قتل الانجليز الشيخ مزبان بن كاظم من الرواشد قرب سكة الحديد. كما اغتال عملاء للسلطة البريطانيّة الشيخ مخيبر بن مرهج رئيس عشائر الكرخيّة في 5 ايلول/سبتمبر وهو من ابرز الثوّار المجاهدين، كما القى الانجليز القبض على الشيخ ناصر بن حسين (من عشيرة الكرخيّة ايضا) وعذبّوه حتى مات وهما من ابرز الثوّار المجاهدين ايضا. كما فرض الانجليز غرامة قدرها ثمانية وعشرين الف روبيّة على السّيد محمود المتولي وعشرة الاف روبيّة على السيّد حبيب العيدروسي.

وفي المناطق القريبة من الموصل (ابتداءا من دير الزور وحتى الرّقة ـ الخابور) اصبحت كلها تحت سلطة عشائر تلك المناطق وزعمائها. وفي اواسط شباط/فبراير1920 قاد ضبّاط عراقيّون العشائر المجاهدة وهاجموا البوكمال وتمكنوا من احتلالها وقد اعترف الانجليز رسميّا بذلك في5 ايّار/مايو/1920. واستمرّت غارات الضبّاط العراقييّن على حاميات ومنشآت تلك الانحاء لا سيّما خطوط المواصلات. ثمّ اخذوا يتغلغلون حتى شملت حركاتهم العسكريّة المنطقة الواقعة ما بين سامرّاء والشرقاط القريبة من الموصل. (د. نظمي179 المصدر/ص ـ 178).

اما تلعفر فقد كان الهجوم ومن ثمّ السيطرة عليها منظمّا وضمن خطة طموحة وواسعة، (من قبل الضبّاط العراقييّن من الشريفييّن جماعة العهد بقيادة جميل المدفعي) كمقدمة للسّيطرة على انحاء منطقة الموصل بكاملها وكبداية لـ (الثورة) فيها. (د. نظمي/المصدر/ ص188)

اخذت معنويّات الادارة البريطانيّة في الهبوط وتدق ناقوس الخطر في لندن، حينما كتب اي.تي. ولسون حول تفكير ادارته جديّا بالجلاء عن مدينة الموصل بعد ان تمّ اخلاء دهوك وعقرة، وان ترك الموصل اصبح:

"امرا محتملا.. وقد يصبح ضروريّا بعد فترة قصيرة...وعند ذلك اعتبرت السلطات العليا في لندن تقارير ولسون.."..اخطر ما وصلنا حتى الان... "لذا" ... يمكن دراسة احتمال اتصال زعيم عربي بالحكومة على الفور، حتى بدون انتظار السير بيرسي كوكس، الا انه يجب ان يكون من داخل ما بين النهرين، لا ان يستدعى من الخارج...".

هذا وقد بلغت خطورة الوضع بشكل عام في العراق "... بحيث اقترحت البنوك البريطانيّة احراق عملتها الهنديّة.." لا سيّما بعد ان تقرّر: ترحيل النساء والاطفال من كركوك في 19آب/اغسطس... وعن اتخاذ التدابير للجلاء عند الضرورة عن اربيل والسليمانيّة وكركوك... وبعد ان تمّ الجلاء فعلا عن عانة في الدليم ... وقد يضطر البريطانيّون الى مغادرة هيت... وتحدّثت التقارير البريطانيّة ايضا عن"...النشاط التحريضي للشيخين (المعتدلين)؛ حبيب الخيزران زعيم قبائل العزة وحميد الحسن زعيم بني تميم في مناطق ديالى... وعن انّ بعقوبة كانت دائما معادية للبريطانييّن وعن تأثير زعماء بغداد لا سيّما كل من السيّد محمد الصدر والشيخ يوسف السّويدي على هذه المناطق. (د. نظمي/ص 384 ـ 383)

وفي 15 آب/اغسطس سقطت قرة تبّة بيد الثوّار، وفي 18 منه سقطت طوزخورماتو واحتلت العشائر بلدة كفري في 26 اب/اغسطس، ولذلك توترت اعصاب الحاكم العسكري لكركوك الذي ارجع انتصارات الثوار الى ثلاثة اسباب " ...ضعف عسكري بريطاني في العراق.. ودعاية قويّة من دول الجوار سورية وتركية...دعاية دينيّة اسلاميّة فعّالة لطرد (الكفار من العراق) وان الالتحاق بالثورة واجب ديني مقدّس... وقوّة التضامن العشائري...".

ونتيجة للصّورة المختصرة هذه، فانّ واقع الحال يرينا انّ ارض العراق كانت كلها تقريبا انذاك قد اصبحت ثورة مشتعلة، على الرّغم من انعدام وحدة القيادة المركزيّة، وكذلك افتقار الثورة العامّة ايّ نوع من التنسيق الميداني او الاستراتيجي، لقد كانت مجرّد بؤر ثوريّة ملتهبة خطيرة.

لذا لجات الادارة البريطانيّة الى مجابهة الثورة سياسيّا وعسكريّا والانفراد بكل ساحة من ساحاتها لاخمادها على انفراد:

فقد سعت الادارة العسكريّة الى السيطرة على خط بغداد ـ وحتى الحدود الايرانيّة وتعزيز مواقعها دون معاقبة العشائر في تلك المنطقة. ومن ناحية اخرى بدات بالاتصال بزعماء العشائر واصحاب الاراضي الزراعية بهدف كسبهم بشتى المغريات، ويبدو انها نجحت في سياستها الجديدة فقد جاء في احد التقارير: "... امّا على الضفة اليمنى فاننا نعتمد على العزة، الذين كان شيخهم حبيب (الخيزران) من الفطنة بحيث تخلّى عن قضيّة الثورة في وقت مبكر وشروط مؤاتية. وقد عيّن في الوقت الحاضر معاونا للحاكم العسكري في ديلتاوة، ويقوم المعاون الإنكليزي السّابق بدور المستشار له"

(The Sudan Archives ،Box no.303، Secret ،no. 31323/54/102)

وفي مناطق الدليم التي شهدت انتفاضة قبيلة زوبع ومقتل اللفتنانت كولونيل ليجمان علي يد زعيم القبيلة الشيخ المجاهد ضاري بن ظاهر وولديه سلمان وخميس، قامت قوات بريطانيّة بتطويق الفلوجة والرّمادي وقصفت الطائرات البريطانيّة مضارب ومواقع الشيخ ضاري وضربها بعنف، وعلى الرّغم من المقاومة الباسلة لقبيلة زوبع، استطاع الانجليز

بمساعدة قويّة من الشيخ علي السليمان، ومحروث الهذال (شيخ عنزة) اخماد الثورة. وقد اعترف الانجليز بانّ لـ ".. علي السليمان فضل عظيم جدّا عليهم..." نفس المصدر . ومع كلّ انتصارات الثوّار فقد بقيت مدينة الموصل هادئة بسبب "...انعدام التعاون بين مختلف عناصرها المناوئة لبريطانيا.." وكذلك بسبب "عدم مساعدة الاتراك لهم وفشل العهديين في سورية بعد الاحتلال الفرنسي لها واسقاطهم حكومة الملك فيصل فيها..." كما ان الموصل لم تستجب لحركة المندوبين الخمسة عشر في بغداد. وبسبب هدوء الموصل، تمكن البريطانيون من نقل قوّاتهم منها والتوجّه بها نحو الفرات الاوسط الثائر.

مناطق كردستان

لم يحصل في السّليمانيّة ايّ تحرّك عدائي ظاهر ضدّ البريطانييّن بسبب انها كانت مستمرّة في تضميد جراحاتها بعد انتهاء ثورة الشيخ محمود الحفيد في العام السابق وما ارتكبته القوات الجويّة والارضيّة البريطانيّة من جرائم فيها كتدمير للمباني وحرق للحقول وقصفها بالغازات السّامة لمناطق وقرى في كردستان. ومع ذلك فقد هاجم الكرد السّورجيّة من جهة عقرة، وقاموا باحتلال باتاسين في اربيل، واجبروا البريطانييّن على الجلاء من راوندوز بعد ان احتلها السّورجيّون ومكثوا فيها نصف شهر، و بعد ذلك اجبرتهم، قوّات بريطانيّة/اشوريّة وصلت من اربيل على مغادرة تلك المناطق. (C.O.696/3،Mosul division،1920)

وبعد كلّ ما تقدّم من عرض مختصر للنجاحات التي حققتها المعارضة الوطنيّة المسلّحة لا سيّما في مناطق الفرات الاوسط وشرقها وفي جنوب السّماوة وسوق الشيوخ، حتى كادت سيطرة الثوّار على وادي نهر الغرّاف بكامله تكاد تكون كاملة لولا تواطؤ بعض زعماء قبائل الشطرة واتخاذهم موقف الحياد وحمايتهم للضباط الانجليز من وقوعهم بالاسر بيد الثوّار الذين استولوا على الشطرة بعد وصول الميرزا محمد الشيرازي اليها يوم 25 اب/ اغسطس فاضطر حاكمها السّياسي مغادرتها بحماية الشيخ خيّون العبيد بينما بقي نائبه (برترام توماس) حيث كتب في تقريره " ...انّ خيّون، الذي بقي مشاوري الدائم، اخبرني بانه، طالما انا باق في الشطرة، فان العلم [البريطاني] سيكون محترما ولن تتحرّك العشائر نحو الناصريّة، ولذلك اصبح بقائي مفيدا..". ومع ذلك تعترف التقارير انّ الثوّار قد اجبروهم على اخلاء كل من سوق الشيوخ والناصريّة بعد ان " ..وجد خيّون نفسه عاجزا عن صدّ الانتشار المتزايد لحركة وتنشيط الجهاد من قبل مبعوثين من النجف وكربلاء والدّعوة للثورة بين افراد عشيرته...". (د. نظمي/ص/387).

لم يؤيّد الشيخ خيّون العبيد الانجليز الا بعد ان استولوا على العراق بكامله عام 1918، وعيّنه الميجر دكسن ممثلا لبريطانيا في الشطرة،لانه اقوى شيوخها نفوذا منذ ان كان قائمقاما عليها زمن الاتراك، ووصفته التقارير السريّة البريطانيّة "...انه مكروه جدا ومرهوب الى درجة

لاتوصف، فقد كان يحكم الشطرة بقبضة من حديد..". (. C.O.696،/Administration Reports 1--،Shetrah،1918..). وكما يبدو من المطالب التي قدّمها زعماء الصّفوة من الشيوخ في 30 آب سواء منهم الشيوخ المتعاونين مع الانجليزاو اولئك الذين قاتلوهم؛ انهم كانوا واقعييّن في رؤيتهم وتحليلهم للموقف ومعرفتهم بانّ قدراتهم المادّية (وهي ذاتيّة) بدات تضعف، بينما كانت القدرات الماديّة والمعنويّة للقوّات البريطانيّة اخذت تزداد وتتقوّى يوميّا. فقد ذكر ولسون انّ زعماء منطقة قلعة سكر قد عقدوا ميثاقا فيما بينهم واتفقوا فيه على مايلي: (د.نظمي/المصدر../ص387-)

اولا: المطالبة بالاستقلال التام وتنصيب الامير عبدالله بن الحسين ملكا على العراق.

ثانيا: ان يقوموا بحماية المؤسسّات الحكوميّة المهمّة.

ثالثا: اطاعة المجتهدين.

ثالثا: تأليف لجنة محليّة في كلّ منطقة تحت اشرافهم لادارة شؤونها.

وكان من بين الموقعين على الميثاق هذا (ميثاق المصيفي): موحان الخير الله وعبد المهدي المنتفكي وخيّون العبيد.. لقد جاءت هذه الشروط معتدلة لانها لم تنصّ على انسحاب بريطاني من العراق، كما انّ اختيارهم للامير عبدالله ملكا سوف يرضي الانجليز لانه حليفهم، ولسوف يرضي اعضاء المؤتمر العراقي (وهم من حزب العهد وحلفاء لبريطانيا) الذي عقد في دمشق على هامش المؤتمر السّوري العام في دمشق في اذار/مارس1920 والذي انتخب فيه اخوه فيصل ملكا على سورية كما اشرنا.

وكما يبدو، فانّ قادة الصّفوة العراقيّة، سواء كانوا في المدن او في الرّيف، كانوا على مستوى عال من المسؤوليّة والقدرة على تفهّم الواقع الجديد المفروض عليهم، فقد بذلوا جهودا صادقة لخلق حالة من التفاهم والتوازن بين المصالح الوطنيّة العراقيّة وبين مصالح الدّولة المنتدبة عليهم (بريطانيا)، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك بسبب الاختلافات التي حدثت بعد ذلك في مواقف اطيافها المذهبيّة والاجتماعيّة والقوميّة، فهي لم تكن اصليّة ثابته؛ فقد كان لسّياسة فرّق ـ تسد والغطرسة الاستعماريّة البريطانية بشكلها العام، وللنظام السياسي الذي أنشاته بريطانيا (كما شاءت هي) في العراق من اهمّ الاسباب كما سنراها في ثنايا هذا البحث.

دروس من ثورة العشرين

يمكن القول؛ انّ ثورة العشرين الكبرى هي الثورة الوحيدة في تاريخ العراق الحديث التي ينطبق عليها المعنى العلمي الدقيق للثورة من حيث الاسباب والاعداد ومجريات الاحداث والنتائج في جميع مظاهرها. اذ انّها امتازت بما يلي:

اوّلا: كانت اوسع ثورة وطنيّة شعبيّة شملت غالبيّة انحاء العراق، وساهم فيها غالبيّة ابناء

الصّفوة العراقيّة على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم: من رجال دين الى علمانييّن، ومن زعماء قبائل الى فلاحين فقراء، ومن ضباط جيش سابقين الى الجنود، ومن كبار التجار الى صغار الباعة المتجوّلين، ومن اصحاب الاملاك والقصور الفخمة الى عامة الناس وسكان الاكواخ والعشش. كما انضمّ الى صفوف الثورة عدد من افراد الشرطة والجنود وحرّاس الحدود للحكومة المؤقتة، بل وحتى بعض الهنود المسلمين الذين كانوا يعملون في الجيش البريطاني المحتل قد انضمّوا الى صفوف الثوّار.

ثانيا: قامت ثورة العشرين على اسس واهداف واضحة ومحدّدة، ومتفق عليها من قبل خيرة صفوة المجتمع العراقي وهي "نيل الاستقلال التام واقامة حكومة عربيّة اسلاميّة يختارها برلمان منتخب بارادة حرّة وباصول دستوريّة" وعلى ان يتولى ادارتها ابناء العراق وتكون مستقلة عن إيّة سلطة اجنبيّة وتكفل للمواطنين حرّياتهم وكرامتهم، وبذلك فقد سجّل التاريخ لتلك الصّفوة انها كانت واضحة في اهدافها ومقدّرة ثمن حريّتها.

ثالثا: على الرّغم من وجود صفوة من القيادات المحليّة للثورة التي كانت تمارس ادارة المناطق وتنظيم شؤون الحرب بحريّة واسعة، الا انّ المرجعيّة العليا في النجف وكربلاء بقيت لها القيادة العليا تقريبا في اتخاذ القرارات الخطيرة لاسباب شرعيّة واعتباريّة، وكان لاوامرها قوّة الطاعة والتنفيذ من قبل الثوّار العراقييّن سواء كانوا شيعة ام سنة كما حصل في التجاء زعماء وطنيّون من صفوة سنّة بغداد الى مناطق الثورة في الفرات الاوسط حيث ساهموا في خدمة مجالات اعلاميّة وعسكريّة هناك، وكذلك استجابة منطقة ديالى وعشيرة زوبع ومناطق واسعة من الشمال والبادية الغربيّة (وهم سنّة) لفتاوى العلماء لا سيّما "للفتوى الدفاعيّة" كما اشرت سابقا.

رابعا: اعتمدت الثورة على نفسها في التموين بالمال والسّلاح. فقد كانت تكاليف الثورة (الاف الليرات الذهبيّة) تصرف من الاموال الخاصّة لصفوة زعماء الثورة وكذلك من ايرادات الحقوق الشرعيّة الدينيّة الى المرجعيّة العليا. كما كان السّلاح قد حصل عليه ابناء القبائل كغنائم او بالشراء باسعار رخيصة اثناء الحرب العالميّة الاولى وعن طريق تجار السلاح او على الأغلب على ما كان يغنمه الثوّار من العدوّ.

خامسا: لم تكن الثورة حدثا مفاجئا او انتفاضة وطنيّة مباغتة كما حدث في الانقلابات العسكريّة (سواء الوطنيّة او المخطط لها من الخارج) التي شهدها العراق الحديث، بل قامت بتخطيط وبالاعتماد على مادة الجماهير بوعي وتصميم على التضحية من اجل اهداف وطنيّة معيّنة.

سادسا: لم تكن ثورة العشرين من تدبير مجموعة معيّنة من الافراد المغمورين العاديّن او الطموحين او المغامرين من اجل السلطة والشهرة، بل كانت رغبة عارمة نمت في نفوس ابناء العراق وبزعامة قيادات ومرجعيّات من صفوة المجتمع التي عرفت الجاه والشهرة والثروة والسمعة الحسنة بين الناس مثلما عرفت بالتعفف وعدم مدّ ايديهم الى المال العام. تلك

القيادات التي امنت بها عامة الجماهير وسارت وراءها عن وعي وثقة لانها اهل للامانة والثقة.

سابعا: يمكن القول بكل انصاف وموضوعيّة انّه لولا ثورة العشرين الكبرى لما قامت المملكة العراقيّة الهاشميّة، ولولاها لما أنشات الدولة العراقيّة الحديثة بحدودها المعروفة التي كان عليها العراق حتى انقلاب 14 تمّوز1958، لا الحدود المنقوصة بعد هذا التاريخ والتي جاءت نتيجة تفريط الانظمة الجمهوريّة (الثوريّة) بحقوق العراق ثمنا لبقائها في الحكم.

ثامنا: لقد لقّنت ثورة العشرين بريطانيا درسا قاسيا، اذ كلفتهم الالاف من القتلى والجرحى من الضباط والجنود البريطانيين وكذلك من مجندين لها من المستعمرات وبعضهم كان من ذوي الرّتب العالية، كما كلفت دافع الضريبة البريطاني مقدار اربعين مليون جنيه استرليني وهو مبلغ جد ضخم انذاك وكان يعادل ما صرفته بريطانيا على ثورة الشريف حسين بن علي في الحجاز. ولهذه الاسباب طالبت الصحافة البريطانيّة ونوّاب في مجلس العموم انذاك الانسحاب الكامل من العراق؛ اصوات وعناوين تطالب ان "انسحبوا من العراق" .

تاسعا: اجبرت ثورة العشرين بريطانيا على الاقرار بحق العراقييّن في الاستقلال ووحدة بلادهم، ودفعتها ان تفكر جديّا في ضرورة قيام حكومة عربيّة مستقلة لهم (وهو الشعار المركزي لثورة العشرين) كما أشرت سابقا.

خلاصة:

لقد كتب السيّد محسن ابو طبيخ في مذكراته،وهو من صفوة قادة ثورة العشرين: " ...وبذلك انتهى فصل من تاريخ العراق خطه ابناؤه بدمهم في مواجهة اكبر قوّة عسكريّة في العالم في ذلك العصر، ولقد مرّغنا انف الامبراطوريّة بالتراب وهزمنا جيوشها المدججّة بالسلاح المتفوّقة علينا بكلّ شيء. وقفنا امامهم وكنّا في معظم الاحيان، لا نملك سلاحا غير الايمان بالله وعدالة قضيّتنا.."، "...وفي اخر المطاف انتصروا علينا لكنهم لم ولن يستطيعوا نزع الايمان من قلوبنا ولم يتمكنوا من كرامتنا وعزة نفوسنا...". السيّد محسن ابو طبيخ/ المصدر/ص165.

انّ الذي يطلع على بيانات كلا الجانبين، الثوّار والإنكليز، ويتامّل في احداث ثورة العشرين في العراق وفي السلوك السّياسي والعسكري لكلا الطرفين ويدرس النتائج التي توصّل اليها الطرفان فانّ اوّل سؤال يتبادر الى الذهن هو: من هو المنتصر؟ وهل انّ الثمن الباهض الذي دفعه الشعب العراقي للثورة جاء بمستوى نتائجها؟

وقبل تحديد الجواب، اود ان اعرض حقائق تاريخيّة عن تلك المرحلة متفق عليها من قبل كلا الجانبين؛ الثوّار والبريطانييّن، وهي حقائق مستقاة من وثائق رسميّة بريطانيّة ومؤيّدة من مصادر ووثائق الثورة العراقيّة.

اولا: على الرّغم من نجاح الإنكليز في استرداد مواقع مهمّة في مناطق الفرات الاوسط، في منتصف تشرين الاوّل/اكتوبر1920، مثل طويريج والهنديّة والمسيّب والكفل. الا انّ الثوّار استمرّوا في المقاومة المسلحة وبشكل عنيف في مناطق أبو صخير والسّماوة الى حين اعلان المنشور العام من قبل المندوب السّامي الجديد السير بيرسي كوكس في اواخر تشرين الثاني/نوفمبر 1920 والذي كان فيه تنازلا واضحا واستجابة لمطاليب الثوّار كما سناتي اليه في سياق البحث.

ثانيا: على الرغم من لجوء الغالبيّة من قادة الثوّار الى الحجاز وسوريا، واعلان كربلاء والنجف خضوعهما الى سلطة الحكومة المؤقتة في بغداد،الا ان غارات قبائل الجبور والبو سلطان وعفك والدغارة وهجمات متفرّقة من قبائل اخرى كانت مستمرّة على القوّات البريطانيّة حتى انّ الثوّار اسقطوا طائرة بريطانيّة بالقرب من مدينة الحلة في اوّل تشرين الثاني/نوفمبر1920. وقد لوحظ في تلك الفترة حدوث تحوّل في اسلوب الثوّار وانتهاجهم منهج حرب العصابات التي انهكت الإنكليز وأفقدتهم صوابهم بهجماتهم الصّغيرة الجريئة والمركزة على المعسكرات وخطوط المواصلات والدوريات واعمدة التلغراف التي كانت حيويّة للمحتليّن.

ثالثا: رفضت قبائل بني حجيم في قضاء السماوة بزعامة الشيخ عزارة المعجون الحمادي (رئيس فرقة آل غانم الصفران) ان تستجيب الى نداء وقف القتال مما دفع الإنكليز الى التوسّط والمفاوضة. وكان وفدهم برئاسة الوجيه محمد السيّد محمود، بينما كان وفد الثوّار برئاسة الشيخ غثيث الحرجان. ولما لم يحصل الاتفاق بين الطرفين عاد القتال بشكل اعنف وهجمات الثوّار على الاماكن الحيويّة اقوى واشدّ، وكانت معركة 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1920 في منطقة الامام عبدالله اشدّها ضراوة فعلى الرّغم من انّ الإنكليز دفعوا بقوّات السّيك والكوركة المشهورة باستعمال السلاح الابيض لارهاب الثوّار الا انّ الثوّار فتكوا بهم وردّوهم على اعقابهم مما دفع الإنكليز الى طلب وقف القتال من اجل التفاوض.

رابعا: على اثر نجاح الثوّار في معركة "الامام عبدالله" حصل الاتفاق بين الطرفين وتمّ التوقيع عليه في يوم 20 تشرين الثاني/نوفمبر1920 واهمّ ما جاء فيه:

1 – ان تكون للعراق حكومة عربيّة مستقلة. "وهذا كان المطلب المركزي لثورة العشرين"

2 – ان لايطالب من عرب قبائل بني حجيم بكل شيء خسرته الحكومة البريطانيّة اثناء الثورة عدا ما تراه اعين رجال الحكومة باقية في ايديهم.

3 – ان لا يؤدي عرب القبائل المذكورة شيئا من الضرائب الاميريّة لسنة 1920.

4 – ان يأخذوا على عهدتهم المحافظة على السكة الحديدية التي تمر بهم على طول منطقتهم.

5 – ان يتعهدوا بتوطيد الأمن وحماية السلم في جميع اراضيهم.

6 – ان يسلموا الى الحكومة 2400 بندقيّة.

خامسا: انّ قيام الحكومة البريطانيّة بنقل نائب الحاكم الملكي العام في العراق السير اي. تي. ولسون وابداله بالسير بيرسي كوكس – الذي كان وزيرا مفوّضا لبريطانيا في طهران – هو دليل على فشل سياسة القمع والشدّة ولذا لجأوا الى الاسلوب السّياسي لنسف مكاسب الثورة من الداخل بالاعتماد على سياسة فرّق – تسد بين ابناء البلد الواحد.

كتب بيرسي كوكس في احدى تقاريره: "... عند وصولي الى لندن بعد بضعة ايّام (في السّادس من حزيران 1920)، وجدت الرأي العام البريطاني قد اضطرب كثيرا من الوضع الذي وصلت اليه الامور في العراق، وحصل هياج شديد لدى فريق من الصحف البريطانيّة اذ أخذت تطالب الحكومة بوجوب الجلاء عن العراق وايقاف الخسائر التي تتكبدها هناك. وكانت الحكومة البريطانيّة نفسها مضطربة جدا من جراء البرقيّات المقلقة التي كانت ترد اليها من بغداد. وكان هناك خلاف كبير في الراي حول الخطة المثلى التي يجب اتباعها وعلى ايّ حال فقد كان واضحا انّ الثورة يجب ان تقمع قبل اتخاذ ايّة خطة في العراق.. واصبح السؤال الذي يشغل البال هو ماذا نفعل بعد عودة الاستقرار الى العراق؟ هل نوقف خسائرنا ونترك الانتداب ونجلو عن العراق؟ ام ننصّب حكومة وطنيّة – اذا كان في الامكان نجاح مثل هذه الحكومة؟ ولما سئلت عن رأيي في الموضوع بصفتي الضابط الموجود في الموضع الذي تجري فيه الاحداث؛ كان جوابي انّ الجلاء عن العراق لايمكن التفكير به، اذ انّ ذلك لايؤدي فقط الى التخلي عن العراق وعن سبعة ملايين باوند من رؤوس الاموال المستخدمة من قبلنا في العراق، انما يعدّ في الوقت نفسه خرقا كبيرا لجميع التعهدات التي قطعناها على انفسنا للعرب اثناء الحرب العالميّة، كما انّ البلاد ستعود الى الفوضى والى الحكم التركي حالما نترك العراق. واخيرا فانّ الجلاء عن العراق سوف يثير الكراهيّة النشطة ضدّنا لدى السكان الذين غدرنا بهم، وسوف نحتاج عندئذ الى فرقة عسكريّة اخرى لتامين جلائنا من البلاد. امّا عن السّؤال حول احتمال النجاح في تنصيب حكومة وطنيّة فكان جوابي انّ الامر يستحق المجازفة فيما اذا اعتبرناه الخيار الوحيد بدلا من الجلاء ولواني لست واثقا من ذلك كل الثقة. وبعد مناقشة طويلة سئلت هل انا مستعد لتحمّل عبء انشاء الحكومة الوطنيّة في العراق فيما اذا استقرّ الراي على ذلك، فاجبتهم بالايجاب...".

Lady Bell (The Letters of Gertrude Bell ، London 1947.pp.318-320

من خلال ما تقدّم، فقد كان امام الإنكليز- حسب ما جاء باعتراف كبار مسؤوليهم - خياران لا ثالث غيرهما:

اما الجلاء نهائيّا عن العراق او اقامة "حكومة وطنيّة"، ولكن الإنكليز وكما سنرى من خلال البحث ارادوا انشاء حكومة وطنيّة في العراق لكي تكون واجهة عراقيّة بادارة بريطانيّة في جميع جوانبها السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة. وقد انيطت مسؤوليّة تنفيذ

مشروع "اقامة نظام الدولة العراقيّة الحديثة" الى السير بيرسي كوكس احد دهاة الاستعمار البريطاني واخطر مسؤول بريطاني خبير في الشرق الاوسط انذاك حيث سبق له وان عمل في ايران وفي الخليج العربي حتى وطأت قدماه ارض العراق.

لقد انتصرت القوّات البريطانيّة المحتلّة عسكريّا واستطاعت ان تنتقم لقتلاها ولخسائرها الماديّة والمعنويّة بوحشيّة وبقسوة من جميع الذين ثاروا عليها وكان مستوى انتقامها بنسب متفاوتة وبموجب الضرورات السّياسيّة وحساباتها المستقبليّة لا سيّما مع صفوة الزعامات القبليّة في الفرات الاوسط وقادة المدن الكبرى في العراق، الا انّ المنتصر الحقيقي على ضوء ما تقدّم وحسبما جاءت النتائج هو الشعب العراقي بقيادة صّفوته المخلصة الذي فرض ارادته في اخر الامر على البريطانيين في بناء كيانه المستقل واعادة اعمارما دمّرته الحرب.

بيرسي كوكس والصّفوة العراقيّة

لقد نجح البريطانيّون في اخماد الثورة العراقيّة الكبرى بقسوة وبوحشيّة، اذ لم يستطع الثوّار ان يستمرّوا بعد ما اصابهم الاجهاد والعوز في المال والسّلاح والعتاد واختلاف المواقف بين قيادات الصّفوة العراقيّة. يقابلها تزايد القوّات البريطانيّة عدّة وعددا لا سيّما قوّاتها الجويّة التي كان لها الحريّة المطلقة في اختيار مناطق الثورة وهي مكشوفة وغير محصّنة. فقد اعلن الجنرال السير ايلمر هالدين قائد القوّات البريطانيّة متباهيا وبلا خجل بانّ جيشه قد "علمّ رجال القبائل ماذا يعني المبارزة مع الامبراطوريّة البريطانيّة.." متناسيا انعدام وجه المقارنة بين الجبهتين المتقاتلتين. لقد نجح البريطانيّون في اخماد الثورة وتصفية اهم قواعدها واجبروا بعضا من قادتها على مغادرة العراق واللجوء الى الشريف حسين بن علي ملك الحجاز حيث وصلوا المدينة المنوّرة في 6 اذار1921 وهم: من زعماء بغداد: ".. محمد جعفر ابو التمّن ومحمود رامز وزكي امين المدفعي وشاكر القره غولي وعلي البازركان، ومن زعماء الفرات الاوسط:" السيّد نور الياسري والسيّد محسن ابو طبيخ والسيّد هادي المكوطر ومرزوق العوّاد وشعلان الجبر ورايح العطيّة وصلال الفاضل. " ومن كربلاء الملا احمد الاخوندي. Haldane،A./pp.383 – 384.

كانت فترة ادارة نائب المندوب السّامي البريطاني اي.تي. ولسون للعراق تمثل وجهان لعملة واحدة للسّياسة البريطانيّة الاستعماريّة في العراق. لقد كانت سياسته متغطرسة وفاشلة تقوم على استعمال اساليب التجسّس والمراقبة الامنيّة (تقارير الـC.I.D) وارهاب السكّان بالسلاح الجوّي والبرّي واقامة المجالس العسكريّة لمحاكمة وزجّ الوطنيّن بالسّجون داخل العراق او نفيهم الى معتقلات خاصّة في الهند او في جزيرة هنجام عند مدخل مضيق هرمز في الخليج العربي، ولهذا السّبب وبسبب تنامي الحركة الوطنيّة في جميع انحاء العراق التي كانت تطالب بالاستقلال التام، والتي تتوّجت بثورة العشرين الكبرى؛ ادركت بريطانيا بانّ

العراق ليس كبقيّة البلدان التي استطاعت ان تحكمها حكما مباشرا، وانّ الغالبيّة العظمى من الشعب العراقي رفضت وقاومت بالسّلاح رغبة بريطانيا ان يكون ملكها او مندوبه السّامي ملكا عليهم. لذا فقد اقتنعت لندن بعد سنتين من الصراع السياسي والعسكري مع العراقيّن، بانّ ولسون لن يصلح للدّور المرجوّ منه، فقرّرت لندن استبداله بمندوب سامي جديد اوسع خبرة واكثرخبثا ودهاء وهو السير زكريّا بيرسي كوكس الذي لعب اخطر الادوار في تاريخ العراق الحديث. فمن هو بيرسي كوكس؟

السير بيرسي كوكس...

ولد بيرسي زكريّا كوكس في جنوب انجلترا "مقاطعة اسكس" في20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1864. ولم يكن لقب "كوكس" يطلق على عائلة ابيه (زكريا) بل هو لقب احد كبار الاقطاعييّن البريطانييّن الذي تزوّج من امه بعد وفاة ابيه الذي قيل عنه انه كان يهوديّا مغمور النسب.

درس "بيرسي" في طفولته في مدارس ابناء الذوات واظهر مقدرة متميّزة وذكاء بين اقرانه، ثمّ تخرّج من مدرستي هارو وساند هيرست الشهيرتين والتحق بالجيش عام 1884. وخلال سنوات 1914- 1889 تقلد الشاب بيرسي كوكس مناصب متعدّده بخدمة الحكومة الهنديّة. كما تقلد درجة وكيل قنصل في الصّومال ثمّ في بربرة ومسقط وبندر بوشهر في ايران ثمّ معتمدا سياسيّا في الخليج العربي من 1914 ـ 1909 ثمّ مديرا لدائرة الخارجيّة في حكومة الهند حتى 1914 حينما عيّن ضابطا سياسيّا عاما مرافقا ومستشارا لقيادة الحملة العسكريّة البريطانيّة في العراق، وعند احتلال بغداد عيّن حاكما ملكيّا عاما لعموم العراق واستمرّ في منصبه هذا حتى عام 1919، وقد اصبحت له علاقات قويّة وواسعة مع العديد من ابناء الصّفوة العراقيّة. ثمّ نقل وكيلا لسفير بريطانيا في طهران. وبعد فشل ادارة اي تي ولسون في معالجته للمشاكل في العراق، لا سيّما في مجابهة ثورة العشرين،عيّن السير بيرسي كوكس مندوبا ساميا في العراق.ومن خلال قراءة الاحداث اللاحقة انّ بريطانيا قد ارسلت كوكس للعراق ليحقق ثلاثة اهداف رئيسيّة:-

اوّلا: تصفية ثورة العشرين،وثانيا: انهاء النفوذ السياسي للحوزة العلميّة ولعلماء الدين.،وثالثا: تنظيم العلاقات البريطانيّة ـ العراقيّة بمعاهدة بدل الانتداب.

بقي السير بيرسي كوكس كمندوب سامي في العراق ثلاث سنوات 1923 ـ 1920. وهو حامل الوسام الاكبر للامبراطوريّة البريطانيّة ووسام نجمة الهند العالي من درجة فارس ووسام القديس ميخائيل والقديس جرجيس السّامي من درجة فارس. كان يتكلم اللغة العربيّة بشكل جيّد، ويجيد التفاهم باللغة الفارسيّة. وكان مشهورا بطبعه الهادىء وبشدّة ذكائه. له خبرة واسعة في شؤون الشرق الاوسط. وهو ذو مقدرة كبيرة في فهم نفسيّة

الرجال وفي كيفيّة التعامل مع زعماء القبائل وامراء البدو وله علاقات وثيقة جدّا معهم.

يلاحظ عند تعيينه في العراق بدلا من ولسون انه عيّن بلقب (مندوبا ساميا لاحاكما عاما)، ربما كجزء من الترضية والتودّد للعراقييّن. ففي 21 ايلول/سبتمبر1920 اصدرت الادارة البريطانيّة في العراق بيانا رسميّا نشرته الصحف العراقيّة جاء فيه:

".. سيمثل السير بيرسي كوكس الحكومة البريطانيّة في العراق بصفة مندوب سامي وتقع عليه مسؤوليّة ادارة الحكومة الملكيّة في البلاد الى ان يتمكن من تنفيذ سياسة حكومة جلالة الملك لتأسيس حكومة عربيّة، وستكون مهمته هذه الاولى التي يقوم بها عند سنوح الفرصة، وينتظر ورود السير بيرسي كوكس البصرة في الاوّل من الشهر المقبل تشرين الاوّل/اكتوبر، هي الاستمرار في القيام بالعمليّات العسكريّة...".

كانت عمليّات الثورة عند تعييّن كوكس لا زالت مستمرّة، والقتال ما زال قائما بعنف في مناطق الفرات الاوسط والاسفل، كما كانت الاحكام العرفيّة مازالت معلنة والتوتر على اشدّه في كافة ارجاء العراق. لقد اصبح خبر تعييّن برسي كوكس حديث الناس وشغلهم الشاغل، سيّما وانّ العديد من افراد الصّفوة العراقيّة سبق لهم وان عرفوا خطورة وقابليّات السير بيرسي كوكس منذ ان كان ضابطا سياسيّا للقوّات البريطانيّة اثناء عمليّات الاحتلال البريطاني للعراق (1919 - 1914). وكان بعض الزعماء من الصّفوة سبق وان تعاون معه وصدّق وعده الذي ورد في نصّ بلاغه الشّهير الموجّه للعراقيّين عند احتلال البصرة في 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1914. لهذا فحين عاد مرّة اخرى، والثورة لازالت مشتعلة، كمندوب سامي كثرت الاشاعات والتفسيرات وتنوّعت التحليلات والحدس والتخمين ما بين المتشائم والمتفائل (على الطريقة العراقيّة).

كان اشدّ الناس حذرا وتخوّفا من مقدم كوكس هم صفوة العلماء واعضاء الحوزة العلميّة في النجف وكربلاء والكاظميّة؛ بسبب علمهم بمشاعره غير الودّية لهم، وكذلك لمعرفتهم بعلاقات كوكس بشبكة واسعة مع عدد غير قليل من صفوة الاعيان والشيوخ ورجال الدّين، على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وقومياتهم، في كافة المدن العراقيّة من البصرة جنوبا وحتى الموصل شمالا. وقد اكدت التقارير السريّة البريطانيّة ذلك. كما رفعت تقاريرا عن النشاطات والاجراءات العمليّة التي اتخذها علماء المدن المقدّسة والقيادات الوطنيّة لمواجهة دهاء كوكس وتدابيره المتوقعة.

اللجنة الحيدريّة

ذكرت التقارير السرّية البريطانيّة بانّ العلماء قد الفوا لجنة اطلق عليها اسم "اللجنة الحيدريّة" لمواجهة مخططات القادم بيرسي كوكس. وقد تالفت اللجنة من:

السيّد ابو القاسم الكاشاني والسيّد المجتهد ابو الحسن الاصفهاني والميرزا عبد الحسن

(ابن الامام محمد تقي الشيرازي) وكذلك احمد ملا كاظم الخراساني والسيّد نور الياسري، وهذه اللجنة تتبع توجيهات المجتهد الاعلى.

لقد باشرت هذه اللجنة نشاطاتها فورا بشنّ حملة اعلاميّة واسعة تحذر فيها ابناء العراق من مغبّة التصديق بالاسلوب السياسي الماكر الذي اشتهر به كوكس، كما حذرت زعماء العراق بعدم اعطاء الوعود جزافا والا يقطعوا عهدا للمندوب السّامي الجديد الا بعد طول اناة وتفكير رصين. ومن الطريف ذكره انّ العلماء قد اباحوا لزعماء القبائل اخذ المال والسّلاح اذا ما عرضه عليهم الانجليز او اعطوهم، ثمّ يقوموا باعطائه الى الثوّار الوطنييّن حلالا طيّبا.

ومن جهة اخرى فانّ اللجنة الحيدريّة، وبموافقة المجتهد الاعلى بدات في اواخر ايلول/ سبتمبر باتصالاتها مع الخارج من اجل الحصول على الدّعم المادي والمعنوي لدعم الثورة (وهذا دليل اخر على تناقص قدراتهم الماديّة)؛ ولهذا توجّه محمد جعفر ابوالتمّن الى كل من والي بشت كوه في ايران والى اميرحائل ابن الرّشيد، كما ارسلت علي البزركان الى حلب لطلب المساعدة من الوطنيين في سورية ومن اجل امكانيّة الاتصال بالمسلمين الاتراك لنفس الغرض.

بيرسي كوكس وانقسام الصّفوة

كان زعماء الصّفوة العراقيّة، لا سيّما قادة ثورة العشرين، في المدن والرّيف على درجة عالية من الثقة بالنّفس والتصميم الكامل بقدرتهم على تحرير العراق بالقوّة من السّيطرة البريطانيّة. وزادت ثقتهم بانفسهم وارتفعت معنويّاتهم اكثر حينما أصبحت معظم اراضي العراق - في شهري تّموز واب/1920 - تحت هيمنة الثوّار، و كذلك حينما بدات مراكز اتخاذ القرارات ودوائر لندن المهمّة (مجلس العموم ووزارة الخارجيّة) تناقش موضوع الانسحاب الكامل من العراق داخل مجلس العموم البريطاني وعلى صفحات كبرى الجرائد. (د. نظمي/ المصدر/406 - 405)

وعلى الرّغم من نجاحات الثوّار ميدانيّا، وقيامهم بانشاء ادارات حكم مدنيّة محليّة واجهزة امنيّة لحفظ ارواح الناس وممتلكاتهم وحتى رفعهم العلم الوطني العراقي، والاعلان عن عزمهم تشكيل حكومة وطنيّة مركزيّة، الا انّ اصحاب القرار السّياسي البريطاني الفاعلين راوا في انسحابهم خطورة حقيقيّة لاعلى المصالح البريطانيّة في داخل العراق فقط، بل على مصالح امبراطوريّتهم في جميع المناطق العربيّة والاسلاميّة.

ومما شجعّ البريطانييّن على المضيّ في تعزيز عمليّاتهم العسكريّة وفي تنفيذ استراتيجيّتهم السيّاسيّة لضرب الثورة وتصفيتها؛ تعاون عدد من زعامات الصّفوة العراقية مع المحتليّن، لا سيّما بعض القادة البارزين من الاعيان وبعض زعماء القبائل والاقليّات الصّغيرة من المجتمع العراقي.

لقد ادرك صانعوا السّياسة البريطانيّة في لندن حقيقة الاوضاع في العراق وطبيعة مجتمعه، نتيجة لدراسات علميّة ومعلومات ميدانيّة غزيرة ودقيقة ترجع لفترة ماقبل احتلالهم للعراق وما بعده، وكذلك طيلة فترة الادارة العسكريّة المباشرة (1920- 1914) وحتى قيام ثورة العشرين. هذا بالاضافة الى نشاطات استخباراتيّة سبق وان ما قام بها الا ثاريّون (من بينهم كانت المس بيل) تحت غطاء دراساتهم الجيولوجيّة والاثاريّة السابقة في اواخر القرن التاسع عشر لمنطقة الخليج العربي والشرق الاوسط بشكل عام ولاوضاع سكان العراق بشكل خاص. ثمّ جاءت العمليات العسكريّة وتماسّهم المباشر بكافة اطياف المجتمع العراقي خلال ثورة العشرين الكبرى لتزيدهم معرفة وخبرة بالعراق لا سيّما عناصر القوّة والضعف في المجتمع العراقي وغربلة المعلومات المتوفرة لديهم عن صفوة زعاماته، حيث ميّزوا بوضوح اصدقاءهم من أعدائهم وحدّدوا مواقفهم من كل منهم.

وصل المندوب السّامي الجديد السير بيرسي كوكس ميناء البصرة في الاوّل من شهر تشرين الثاني/نوفمبر1920 بعد ان مهّد لتنفيذ مخططاته في العراق بان اجتمع مع اهم الامراء والشيوخ في منطقة الخليج العربي من اصدقائه، ومن يعتبرهم الاكثر ولاء لبريطانيا والاكثر استعدادا للتعاون معه ونجدته عند الحاجة. فقد سبق له ان اقام علاقات وثيقة بامير نجد عبد العزيز بن عبد الرّحمن ال سعود، وكذلك مع الشيخ خزعل الكعبي امير المحمّرة خلال زحف الجيش البريطاني لاحتلال العراق في الحرب العالميّة الاولى. وحينما وصل كوكس البصرة، لم يتعجّل بالتوجه الى بغداد فورا، بل استغرقت رحلته اليها عشرة ايّام حيث اجتمع اثناءها باصدقائه ومؤيّديه القدامى والجدد في الخليج ومدن العراق كالبصرة والناصريّة وسوق الشيوخ والعمارة والكوت وغيرها من المناطق بين البصرة وبغداد. ومن الواضح انه اراد بذلك التلاعب باعصاب اصدقائه قبل اعدائه وليعطيهم مهلة للتفكير بمشروعه و(بسياسته البريطانيّة) الجديدة والتي سمح بتسريب اخبار خطوطها العامّة عن طريق الصحف العراقيّة وانصاره وموظفيه لا سيّما تركيزه على تصريح رئيس الوزراء البريطاني، لويد جورج والذي قال فيه...:

بانّ "...السير بيرسي كوكس قد اعطي حريّة واسعة في التصرّف، وهذا يعني انّ سياسة بريطانيا العظمى في العراق لم تتحدّد بعد. وعليه ينبغي على الامّة العراقيّة ان لا تتردّد في عرض مطاليبها..." (صحيفة الاستقلال/17/12/1920).

وهذا التصريح قد اعطى دعما قويّا لكوكس مثلما اعطى انطباعا بانّه يعطي دعما للمصالحة السياسيّة مع العراقييّن بعد اخماد ثورتهم.

وفي يوم 11 تشرين الثاني/نوفمبر1920 وصل بيرسي كوكس محطة القطار في بغداد، حيث كان قد اعدّ له استقبال رسميّ ضخم في محطة باب الشيخ من قبل الموظفين الرسمييّن الانجليز، وكذلك من قبل اصدقائه القدامى من الصّفوة العراقيّة وفي مقدّمتهم السيّد طالب النقيب الذي خفّ لاستقباله على راس وفد (عراقي) ابتداء من البصرة.

بيرسي كوكس والتوجّه الطّائفي

لم تكن الطائفيّة في العهد العثماني تشكل خطورة حقيقيّة على وحدة ابناء العراق، بل لم تشكل تناقضا حادا بين الكتلتين المسلمتين الكبيرتين (السّنة والشيّعة) بقدرما كانت تمثل صراع مصالح بين المناطق الزراعيّة القبليّة الشيعيّة، وبين ما تفرضه السلطة العثمانيّة من سياسات، وفي مقدمتها رفض الخدمة العسكريّة في الجبهات العثمانيّة البعيدة (الرّوسيّة والبلقان) اودفع الضرائب التي كانت ترهق المزارعين المستقرّين في الاراضي الزراعيّة الواسعة في الوسط والجنوب، مثلما ترهق زعماء قبائلها وكلاهما من الاكثريّة العربيّة الشيعيّة، بينما غالبيّة القبائل السنيّة من البدو الرحّل تسكن مناطق مختلفة من البادية الواسعة في الغرب وفي الشمال الغربي من العراق،والتي من الصّعب على السّلطات العثمانيّة السّيطرة عليها، وكلاهما جزء من حالة عامة من الظّلم العثماني لكافة مكوّنات الشعب العراقي.

وحينما وقع العراق تحت الاحتلال البريطاني ابقت ادارة الاحتلال على القوانين ذاتها وكذلك على سياسة الضرائب العثمانيّة مما سبّب خيبة امل وزيادة في السخط العام الذي ادّى الى ثورة العشرين كما اشرنا. واذا كان الشيعة في العهد العثماني قد نالوا من العذاب ومن الاضطهاد اكثر من السّنة وهذا امر له بحثه الخاص في مجال اخر، فان الخطورة الحقيقيّة اصبحت تكمن في اسس الطائفيّة الجديدة التي وضعت على ايدي بيرسي كوكس للعراق (الحديث) من اجل خلق اوضاع شاذة وتقاليد اصبحت تتوارث، وقيم اجتماعيّة جديدة غريبة بقيت تشكل عقبة حقيقيّة في طريق تقدم وتطور العراق وتهدّم كل محاولة شريفة مخلصة قد تسنح لابنائه للنهوض والرّقي طيلة القرن العشرين وحتى اليوم.

فما ان وطات اقدام المندوب السّامي الجديد السير بيرسي كوكس مدينة البصرة حتى بدات تعمّ الاجواء موجة جديدة من الطائفيّة بالقول والفعل من هنا ومن هناك (سواء كانت مكشوفة ام مستترة) لتهدّم ما بداه الوطنيّون المخلصون من اجل الوحدة الوطنيّة بين الشيعة والسنة لمقاومة المحتل والتي بدات تمارس بنجاح اثناء تنظيم المواليد والاجتماعا ت السّياسيّة والتظاهرات خلال عمليّة استفتاء ولسون ثم تكللت بثورة العشرين الكبرى كما مرّ بنا سابقا.

لقد باشر السير بيرسي كوكس عمله يوم وصوله بغداد فورا. فقد ابتدا مستمرّا في تصفية الثورة وملاحقة رجالها (مستخدما العصا والجزرة) ومتظاهرا في الوقت نفسه بانّه يسعى للمصالحة ولكنّ واقع سلوكه اثبت غير ذلك.

ففي21 تشرين الاوّل/اكتوبر1920 وبعد عدّة مداولات مع مستشاريه الانجليز داخل مجلسه الاستشاري الخاص (والمكوّن من السير بونام كارتر ناظر العدليّة. والكولونيل هاول ناظر الماليّة ـ ومساعده الكولونيل سليترـ، والمس جرترود بيل السكرتيرة الشرقيّة للمندوب

السّامي وجون فيلبي ناظر الداخليّة والميجر بولارد ناظر الاشغال)، بلّغ الحضور عن رغبته في تأليف حكومة مؤقتة من ابناء العراق لتكون جسرا بين الانجليز وبين العراقيّن وغطاءا وطنيّا من اجل تهيئة الجو الملائم لاقامة النظام المقرّر في العراق ودون ان يمسّ جوهر السيّاسة البريطانيّة.

كما بلغ اعضاء مجلسه قراره النهائي بتولية السّيد عبد الرّحمن الكيلاني/النقيب لمنصب رئس الحكومة المؤقتة. وبعد مشاوراته معهم حول اسماء اعضاء مجلس الوزراء من العراقيّن، وبعد اتصالاته بلندن مع اللورد كيرزن وزير خارجيّة بريطانيا، دعا كوكس السيّد عبد الرحمن الكيلاني/النقيب (نقيب بغداد واشدّ المؤيّدين للادارة البريطانيّة) ليتقلد منصب رئيس وزراء الحكومة المؤقتة متجاهلا تماما القادة الوطنيّين وفي مقدّمتهم قادة ثورة العشرين وصفوتهم من المندوبين الخمسة عشر. لقد تعمدت ادارة الانتداب تسريب واشاعة الاخبار عن خطط القادم الجديد بيرسي كوكس لا سيّما خبر قيام حكومة وطنيّة عراقيّة ونجحت الاشاعات في استفزاز الشعور الطائفي عند الصّفوة الشيعيّة مثلما نجحت الاشاعات البريطانيّة في خلق حالة فزع دائم وخوف لا مبرّر له لدى الصّفوة السنيّة (التي اصبحت بيدها السلطة بكل امتيازاتها) من ايّ تهديد على مكتسباتها الجديدة.

اعضاء مجلس الوزراء

وفي الثالث والعشرين من تشرين الاوّل/اكتوبر1920 اتّمت ادارة المندوب السّامي ترتيب الدعوات لاعضاء مجلس الوزراء وهم من صفوة المجتمع العراقي بهدف توضيح مهام كلّ واحد منهم بشكل وبصيغة يعطي الانطباع بانّها مرسلة من النقيب نفسه، والاعضاء هم:

1 - السيّد عبد الرّحمن النّقيب/ الكيلاني... رئيسا لمجلس الوزراء...نقيب اشراف بغداد وراس

الاسرة الكيلانيّة، المولود بباب الشيخ في بغداد.

2 ـ السّيد طالب بن رجب النقيب... وزيرا للدّاخليّة.. نقيب اشراف البصرة.

3ـ ساسون حسقيل... وزيرا للماليّة... من صفوة الاسر البغداديّة اليهوديّة العريقة.. درس في فيينا واستامبول وبرلين ولندن.كان نائبا في العهد العثماني ونال لقب (سير) من ملك بريطانيا، يحسن سبع لغات قراءة وكتابة.

4 ـ الفريق جعفر باشا العسكري. وزيرا للدّفاع،من اسرة بغداديّة عريقة، درس العسكريّة في استامبول وبرلين، نال ارفع الشهادات والاوسمة العثمانيّة والالمانيّة بسبب كفاءاته وشجاعته في ميادين القتال، من مؤسسي حزب العهد، حاكم حلب في حكومة فيصل في سورية يحسن ثمان لغات قراءة وكتابة.

5 ـ مصطفى الالوسي... وزيراللعدليّة... قاضي وعالم دين واديب مسلم في بغداد

6 ـ عزت باشا الكركوكلي... وزيرا للاشغال العامّة.. جنرال تركماني من اعيان كركوك

7 ـ السّيد محمد مهدي بحر العلوم الطباطبائي.. وزيرا للمعارف والصحّة، من اعيان كربلاء

8 ـ عبد اللطيف المنديل... وزيرا للتجارة..من صفوة اعيان البصرة وصديقا لطالب النقيب

9 ـ محمد علي فاضل... وزيرا للاوقاف..

وبالاضافة الى الوزراء الثمانية، فقد تمّ تعييّن اثني عشر وجيها وشيخا وزراء بلا وزارة. كما كان معلوما لدى جميع اعضاء مجلس الوزراء بانّ مجلسهم خاضعا كليا في قراراته للمندوب السّامي بيرسي كوكس. كما تقرّر تعييّن مستشارا بريطانيّا لكلّ وزير ليدير الوزارة (باسم الاستشارة) وليكون في واقع الامرعينا للمندوب السّامي ويده الفاعلة داخل كل وزارة. كما تقرّر ان يكون من حق المستشار حضور جلسة مجلس الوزراء اذا ما نوقشت ايّة قضيّة تخص وزارته.

(Ireland، Iraq،App.4)، (F.O.371/5231/E14588)

وفي خلال تلك الايّام الاولى لعمل مجلس الوزراء، عمد المندوب السّامي كوكس الى اعطاء المؤسسّات الجديدة لحكومة النقيب المؤقتة المزيد من المظهر الوطني العراقي بهدف تعزيز موقعها وهيبتها في نفوس المواطنين؛ فبوشر باقرار العلم الوطني العراقي كعلم للعراق الجديد، وتمّ رفعه بدل العلم البريطاني فوق جميع الدوائر والمؤسسّات الرّسميّة العراقيّة (وهو نفس علم الثورة ذو الالوان الاربعة الذي رفعه الوطنيّون فوق متصرّفية كربلاء كما مرّ بنا سابقا مع تعديل واضافة طفيفة باضافة نجمتين تدلان على عدد الالوية – المحافظات- العراقيّة).

كما تقرّر نقل دوائر مجلس الوزراء العراقي الى المباني التي كانت تحتلها الدوائر الحكوميّة في العهد التركي (وهي الابنية المعروفة اليوم ببناية القشلة/ السّراي ايضا).

الصّفوة العراقيّة والحكومة المؤقتة

لقد كان اختيار بيرسي كوكس لعبد الرّحمن الكيلاني (نقيب بغداد وعميد الاسرة الكيلانيّة) كابرز اعيان الصّفوة العراقيّة السنّية اوّل رئيس للوزراء وكذلك اختياره لاعضاء اوّل حكومة مؤقتة من القرارات الخطيرة التي اتخذتها الادارة البريطانيّة في العراق في ذلك الوقت، وهي تستحق التامّل والمناقشة بكل جوانبها وبكلّ الظروف التي احاطت بها انذاك.

انّ تشكيل الحكومة العراقيّة المؤقتة برئاسة عبد الرّحمن النّقيب من حيث الشكل والاسلوب كان خطا جسيما في القواعد التي قامت عليها المملكة العراقيّة الحديثة حيث تمّ

انذاك تهميش واضح لاغلبيّة السكان وهم العرب الشيعة من المسلمين وتجاهل كامل للكرد، كما انّ الخطا الاكبر من ذلك هو سكوت غالبيّة اطياف الصّفوة العراقيّة على ذلك الخطا التاريخي والقبول به كواقع مسلّم به انذاك لا من قبل الشيعة فقط، بل ايضا من قبل الكرد و المكوّنات الوطنيّة الاخرى من ابناء الوطن الواحد. ولم يدركوا ـ كما يبدوـ انّ الضرر القادم سوف يصيبهم جميعا.

ولكي يكون البحث موضوعيّا في هذا الجانب، لابدّ لنا من مراعاة الحقائق التالية:

اوّلا: حينما وصل بيرسي كوكس للعراق كمندوب سامي جديد في منتصف تشرين الاوّل/ اكتوبر 1920، كانت ثورة العشرين لاتزال مشتعلة، الا انّها كانت مثخنة بالجراح وانّ النزيف البشري والمالي قد انهكها طيلة ستة اشهر.

ثانيا: كان مجيء بيرسي كوكس للعراق بما معه من امكانيّات ماديّة ومعنويّة جديدة، قد تزامن مع ظرف سيّء للثورة؛ فبالاضافة الى انّ قادة الثورة كانو في موقف الضعف والارتباك، فقد توفي المرجع الاعلى شيخ الشريعة في 18 كانون الاوّل 1920 وحدث بعده وفاة خليفته المرجع الاعلى الشيخ الاصفهاني وكذلك لجوء الكثير من قادة الثورة الى الحجاز والى مناطق اخرى هربا من الوقوع بايدي السلطات البريطانيّة.كلّ ذلك احدث فراغا كبيرا في قيادة الثوّرة وارتباكا واضحا في زعامة الصّفوة العراقية الراس المدبّر للسّواد الاعظم في المجتمع. مما اعطى بيرسي كوكس فرصة ليتشدد في موقفه ويرفض التفاوض المباشر مع المرجعيّة.

ثالثا: انّ غياب قيادة صفوة الحركة الوطنية عن السّاحة السّياسيّة العراقيّة، كان يقابلها تكتل العناصر الموالية للانجليز من الصّفوة العراقيّة واستغلالها ظرف فقدان التوازن في العلاقات بين زعماء العشائر في الارياف وبين القيادات الوطنيّة في المدن. فا ستطاع الموالون لبريطانيا ان يوحّدوا جهودهم وبدعم من الانجليز نجحوا في تصفية فعاليّات الثورة وبث الدعايات المثبّطة بين المواطنين لصالح تشكيل الحكومة المؤقتة كما ارادتها بريطانيا.

رابعا: لم تغفل السلطات البريطانيّة عن تحرّك القادة الوطنييّن سواء داخل العراق ام خارجه. وبينما كان تنفيذ مسالة (اقامة حكومة الكيلاني المؤقتة) تسيرحسب المشروع الذي جاء به بيرسي كوكس، كانت الطائرات الحربيّة البريطانيّة ما زالت تدكّ و تفتك بالمناطق الثائرة بوحشيّة (حتى منتصف تشرين الثاني/نوفمبر1920) لا سيّما عشائر الفرات الاوسط، وتقوم باعتقالات قادة الثورة الذين لم يهربوا الى خارج العراق من امثال الشيخ حمد البدن والحاج جاسم الجياد ومحمد الفليّح وجاسم الصّعب وصيفان ومحسن الحاج عبود والسيّد حبيب وادي والسيّد كاظم السيّد نور والسيّد جعفر ابو طبيخ وغيرهم. كما كانت القوّات البريطانيّة لا سيّما طائرات القوّة الجويّة الملكية البريطانيّة تفتك بالمناطق الثائرة كاهداف سهلة لانها بلا وسائل دفاعيّة، وتصبّ قنابلها بشكل متميّز على منازل ومزارع ومواشي ال فتلة ممّا جعل زعيمها المجاهد الشيخ عبد الواحد الحاج سكر ان يقوم بتسليم نفسه للسلطات البريطانيّة حقنا لدماء ابناء عشيرته وممتلكاتهم في اليوم الرّابع من تشرين الثاني/نوفمبر1920. وحول

دور الطائرات الحربيّة البريطانيّة انذاك رغم انها كانت بدائيّة وصغيرة ومحدودة التاثير قياسا باليوم، فقد كان المحتلّون يرون"..انّ الطائرات المقاتلة يمكن ان تستخدم لخلق حالة واسعة من الارهاب ضدّ المدنييّن العزّل، وقد استخدمت لاوّل مرة في العراق في سنوات 1920، ثمّ في مذبحة جرونيكا باسبانيا سنة1937...ثم استخدمت في العراق سنة1941.

(Europe at war 1939-1945،by:Norman Davies،pp29،92)

هذا وقد اتخذت السلطات البريطانيّة الاجراءات اللازمة لتتعقبّ قادة ثورة العشرين خارج العراق بمراسلات صريحة من التقارير السريّة وتوزّع نسخا منها الى دوائر المندوب السّامي البريطاني في العراق ومثيلاتها في فلسطين وايران ومصر وبلاد الشام حيث تشير المعلومات عن نشاطات زعامات من الصّفوة العراقيّة التي ساهمت في قيادة الثورة من امثال: السّيد محمد الصدر والشيخ يوسف السّويدي وعلي البزركان الذين اتجهوا الى سوريّة، وعن السيّد كاطع العوّادي الذي اتجه الى ايران حيث عرض عليه القنصل الرّوسي في طهران منحه اللجوء السّياسي الى موسكو ولكن السّيد العوّادي اعتذر. وكذلك عن الزعماء الذين توجّهوا عن طريق حائل والمدينة المنوّرة الى مكة المكرّمة وهم: الحاج مرزوق العوّاد والسيّد علوان الياسري والسيّد نور الياسري ومحمد جعفر ابو التمّن والحاج رايح العطيّة والسّيد محسن ابو طبيخ الذين وصلوا مكة في 9اذار/مارس 1921 بعد ان قضوا خمسة اشهر في الطريق ومثلها في مكة في ضيافة الشريف حسين بن علي واولاده.

انّ هروب بعض قادة ثورة العشرين من العراق كان واحدا من اكبر الاخطاء التي ارتكبها هذا الجزء من الصّفوة العراقيّة حيث اعطوا الانجليز وحلفائهم في العراق الفرصة للانفراد بالسّاحة العراقيّة لتنفيذ مخططاتهم كما يشاؤون.

خامسا: اصبح الانجليز على يقين تام باستحالة التفاهم مع غالبيّة علماء الدين (لا سيّما المرجعيّة) وممثليهم اعضاء "اللجنة الحيدريّة" كما اسلفنا والتي كانت الجهة المفاوضة مع بيرسي كوكس منذ وصوله الى بغداد حول قضيّة الاستقلال الوطني (المطلب الاساسي لثورة العشرين الكبرى) وترتيب مستقبل العلاقة بين العراق وبريطانيا.

وعلى الرّغم من الاتهام الموجّه لعلماء الدين وللمجتهدين، من قبل العديد من السّياسييّن والباحثين المعاصرين، بانّهم (العلماء) متزمّتون ومتشددّون في ارائهم المثاليّة ويجهلون متطلبات السياسة وفهم الواقعيّة السّياسيّة، وانهم اضاعوا فرصا كثيرة على ابناء الطائفة الشيعيّة للوصول للسلطة عن طريق (التفاهم) مع السياسييّن البريطانييّن انذاك.

انّ غالبيّة النقاد كما يبدو امّا ان يكون لهم موقفا مسبقا يعادي المؤسسّة الدينيّة ككل. اومدفوعين لاسباب طائفيّة او عقائديّة علمانيّة من الذين يريدون ان يضعوا جلباب السّياسة حسب مقاييسهم وعلى كتف من يشاؤوا هم وليس على كتف من هو القادر على تحمّل مسؤوليّتها او المؤهّل لها.

ومع انّ الاصلح لعالم الدين ان يقف موقف المراقب والمدافع عن حقوق الامّة والوطن ومظلوميّة الناس وان لاينغمس في تفاصيل السياسة والحكم والمسؤوليّة الوظيفيّة، الا انّ تاريخ الصّفوة العراقيّة بجميع مكوّناتها قد سجّلت لعلماء الدّين في العراق تاريخا وطنيّا مشرّفا تفوّق في العديد من المواقف على بقيّة مكوّنات الصّفوة الاخرى في الوعي والاداء والتضحيات.

لقد عادى الانجليز غالبيّة المراجع الدينيّة في العراق بسبب انحيازهم للاتراك بالفتاوى التي دعوا فيها المسلمين الى الجهاد ضد الانجليز في الحرب العالميّة الاولى. ثمّ تصلبهم الشديد ـ حتى بعد ان اصبح الاحتلال امرا واقعا ـ في التفاوض من اجل طلب (الاستقلال التام) للعراق. وربما جاء تشدد العلماء بسبب علمهم بانّ الانجليز ـ كغيرهم من المستعمرين ـ لا يشبعون من تنازلات خصومهم. فهم ما ان يحصلون على تنازل، حتى يطالبون بتنازلات جديدة اخرى وهكذا.

فعلى الرّغم من ذلك، فقد ابدى قادة ثورة العشرين وعلماء الدين الكثير من المرونة ومحاولة التفاهم مع الادارة العسكريّة البريطانيّة المباشرة ـ كما اشرنا ـ 1919/1917 ووقفوا موقف المترقب املين من البريطانيين تنفيذ وعودهم. فقد تعاونوا معهم في اوّل الامر، ولم يعارضوا اشتراك ابنائهم في الادارات المحليّة (مجالس البلديّات) وفي لجان التعليم وفي القضاء وفي الصحافة في جميع انحاء العراق.بل وحتى قدمّوا ابناءهم للانخراط في البوليس المحلي وقوّات الليفي وسارت الامور بشكل جيّد في اوّل الامر. ومن الادلة على المرونة انّ الاستفتاء الذي نظمته ادارة اي.تي.ولسون عام 1919 قد مرّ بسلام وبدون عنف، وفي تلك المرحلة ايضا حاول زعماء الصفوة من العلماء ان يقنعوا الادارة البريطانيّة بضرورة الاستجابة لمطاليبهم المشروعة طيلة اربع سنوات الا انّ البريطانييّن لم يستجيبوا بل استخفوا بالمشاعر الوطنيّة مما دفع الناس الى الثورة ضدّهم.

الصّفوة الكرديّة العراقيّة

يؤكدّ كبار علماء التاريخ والانثروبولوجيا في العالم انّ الكرد ينتمون الى الأصل الآري، وانهم عاشوا في مناطقهم الجبليّة منذ فجر التاريخ. فقد جاء ذكرهم في النصوص القديمة كالاشوريّة وكذلك ضمن الحديث عن اقدم الاقوام القديمة التي سكنت المنطقة الواقعة عند ملتقى السلاسل الجبليّة العالية الوعرة عند التقاء الحدود الروسيّة الايرانيّة العراقيّة التركيّة. (د. سعد ناجي جواد/العراق والمسالة الكرديّة 1970-1958/ دار لام- لندن- 1990) وقد هبطت البعض من قبائلهم واستوطنت الجبال والهضاب والمرتفعات لمناطق ديالى وكركوك وشمال شرق سورية.

انّ للشعب الكردي خصائصه وشخصيّته القوميّة المتميّزة من حيث اللغة والعادات

والاصول التاريخيّة. كما انّ له وطنه (كردستان) الذي لم نعرف شعبا غير الكرد قد عاش فيه وعمّر ارضه منذ اقدم العصور وحتى اليوم. وهذه حقائق تاريخيّة أصبحت مسلّم بها علميّا. وحينما اعتنق الغالبيّة العظمى من الكرد الدين الاسلامي في وقت مبكر وساهموا في الفتوحات الاسلاميّة الاولى، اصبح الكرد ضمن الامّة الاسلاميّة شانهم في ذلك شان العرب وبقيّة شعوب المنطقة التي اعتنقت باخلاص الدين الاسلامي وتحمّست له،فاثرّوا وتأثروا بالحضارة الاسلاميّة. فكانوا دائما سيفا من سيوفها ورافدا من روافد حضارتها حيث ساهم العديد من العلماء الكبار والفقهاء والمؤرّخين والادباء والشعراء والقادة العسكرييّن الكرد في خدمة الاسلام والانسانيّة جمعاء.

انّ طبيعة الكرد هي الشجاعة والصّراحة والكرم وعزّة النفس والاباء. وهم في علاقاتهم العامّة، الشخصيّة والجماعيّة، اوفياء مخلصون طيّبون ومؤمنون بوحدة الاسلام والمسلمين في كلّ مكان من العالم. نراهم عبر التاريخ يقفون بشجاعة وبصلابة بوجه الطغاة والظالمين والغزاة المعتدين مهما كانت جنسيّاتهم وعدّتهم وعددهم، والكردي لايابه بالزّمن مهما طال في صراعه مع الباطل حتى ينال في نهاية الامر حقه.

لقد تولّى قيادة الشعب الكردي حتى اواخر النصف الثاني من القرن العشرين صفوة من زعماء القبائل الكرديّة الذين أصبحوا "الصفوة التي تقود جماهير الكرد" بروح من الابوّة، وهم في الغالب ملاكون لاقطاعيّات واراضي واسعة، وتتراوح مكانتهم طبقا لما يمتلكوه من ثروات واتباع واراضي وماشية. وقد كان اولئك الزعماء دائما يسعون لتوسيع مقاطعاتهم ونفوذهم سواء بقواهم الذاتيّة او بالتحالف مع الدول المجاورة لمناطقهم التي تسعى لجعل الكرد خطوطا دفاعيّة على شكل امارات. ففي عام 1515 م اصدر السلطان العثماني مرسوما يقضي بتأسيس عدد من الامارات الكرديّة بناء على نصيحة مستشاره حكيم ادريس (د.كمال مظهر احمد/ص342،344)، وبالمقابل قام الشاه الصّفوي من الجانب الايراني بتأسيس امارات كرديّة لتكون خطا دفاعيّا عن الدّولة الصّفويّة مقابل عدوّتها الدولة العثمانيّة "فبحلول عام 1840 م بقيت امارة واحدة فقط هي العائدة للامير بدرخان" (د. سعد ناجي/ص16) وبسبب واقع مصالح الملاكين الاقطاعيّة الماديّة والاجتماعيّة، كانت علاقاتهم بالدول المجاورة تتحدّد وفق مقتضيات تلك المصالح. فمرّة يشكلون خطوطا دفاعيّة متقدمة امّا لايران او للدولة العثمانيّة، ومرّات كثيرة ترتبك العلاقات (فتكون سببا لاعلان الثورة والعصيان ضدّ تلك الدول كما حدث خلال سنوات 1831 ـ 1826)، (د.سعد ناجي/المصدر - ص16).

ومن دلائل تطوّر الوعي القومي منذ القرن التاسع عشر، ظهور اوّل صحيفة كرديّة تحمل اسم (كردستان) وقد اسسّها في القاهرة احد الافراد المبعدين من عائلة الامير بدرخان عام 1897م. وقد اخذت هذه الصّحيفة تشرح قضيّة الشعب الكردي ليس فقط في المنطقة العربيّة، بل وفي الدول الاوربيّة ايضا. ثمّ توالت نشاطات الكرد وازدادت بازدياد وتصاعد الحركات القوميّة في الشرق الاوسط لا سيّما الحركة القوميّة التركيّة (الطورانيّة) والعربيّة

وشعوب البلقان. كما كان للتطوّرات الفكريّة والسّياسيّة التي رافقت الحركة الدستوريّة في الدّولة العثمانيّة خلال سنوات 1914 - 1908 أثرا واضحا على تنامي الوعي القومي الكردي.

ففي خلال التاريخ الطويل للكرد وحتى القرن التاسع عشر لم تعرف المنطقة الاسلاميّة ما يسمّى بالمسالة القوميّة للعرب او للكرد او للاتراك او للبربر او لغيرها من الشعوب الاسلاميّة، حتى جاءت الافكار الاوروبيّة الجديدة ومنها " حكم الدولة القوميّة "التي اعطت للاتراك ثمّ للعرب - باعتبارهم ماسكي زمام الحكم والسّلطة - الادعاء بالتفوّق على غيرهم من شعوب الامّة الاسلاميّة فكان من الطبيعي والمتوقع حدوث ردة فعل قومي معاكس لباقي القوميّات في المنطقة ومنها الكرديّة. لذا يمكن اعتبار ثورة الشيخ عبيد الله سنة 1880 م اوّل ثورة ذات دلالات ومؤشرات قوميّة كرديّة لا سيّما بعد ان سعى هذا الثائر الكردي الى تأسيس (الرّابطة القبليّة الكرديّة) وهي محاولة تشبه الى حد كبير صيغ التحالفات التي تعقد بين القبائل العربيّة الكبرى بهدف الدفاع عن مصالحها في الأرض وعن مختلف الحقوق التي يطالبون بها. كما سعى عبيد الله للاتصال بدول اجنبيّة للبحث عن معونة وتأييد خارج حدود كردستان.

وخلال الحرب العالميّة الاولى كان للاكراد حضور ميداني في التطوّرات السيّاسيّة كشعب مسلم استجاب لدعوة الجهاد الى جانب الدولة العثمانيّة المسلمة. الا انّ الضبّاط والمثقفين الكرد لم يغب عن بالهم بانّ ضعف وانحلال الدولة العثمانيّة سوف يقوّي من موقفهم في المطالبة بحقوقهم القوميّة شانهم شان الضباط العرب فأخذوا يلعبون دورا ملموسا في التأثير على الحلفاء حينما تمّت صياغة "القسم الكردي" في نصّ معاهدة سيفر 1920 م. (حيث نصّت موادها 64،63،62 على منح الكرد الحكم الذاتي والاستقلال، وقد مثل الكرد انذاك الجنرال شريف باشا للقيام بهذه المهمّة).(د. كمال مظهر احمد/ص329)، (د. سعد ناجي/ص17). وقد حاول الشيخ محمود الحفيد ارسال وفد خاص الى باريس للالتحاق بشريف باشا الا انّ الانجليز حالوا دون وصوله الى هناك. لقد كان واضحا بانّ الحلفاء تجاهلوا حقوق الشعب الكردي في المؤتمر لحسابات سياسيّة ووفق صفقات الحصول على الامتيازات النفطيّة في منطقة الشرق الاوسط، (فاستبدلت معاهدة سيفر بمعاهدة لوزان سنة 1923م التي تجاهلت عمليّا وبشكل سافر حقوق الشعب الكردي وتقررّ بموجبها تقسيم منطقة كردستان بين خمس دول وهي: تركيا وايران والعراق وسوريا وروسيا.(د. سعد ناجي/المصدر/ص18).

كان العراق لايزال تحت الاحتلال حينما اصدرت ادارة الاحتلال سبعة صحف احداها كانت باللغة الكرديّة (د.سعد ناجي/ص29) كما تمّ تعيين الشيخ محمود الحفيد متصرّفا على لواء

(محافظة) السليمانيّة. وفي ظلّ الاجواء العراقيّة السّاخطة على الاحتلال الإنكليزي قام الشيخ محمود الحفيد بالثورة عام 1919 م ممّا دفع البريطانيين لتوجيه قوّاتهم البرّية والجويّة

لضرب المناطق الثائرة بوحشيّة بما في ذلك استخدام الغازات السّامة على المدنييّن وسحق الثورة ونفي الزعيم المجاهد الشيخ محمود الحفيد الى الهند.

سادسا: بيرسي كوكس والموقف من الكرد

لقد بقيت مناطق الكرد في الشمال والشمال الشرقي من ولاية الموصل (السليمانيّة واربيل ومدينة الموصل) خارج سلطة الادارة البريطانيّة ومن ثمّ خارج ادارة الحكومة العراقيّة حتى شهر ايلول/سبتمبر 1922 حيث تمّت انذاك تصفية الثورة الكرديّة التي بدات في ايّار/ مايو1919 بقيادة الشيخ السيّد محمود الحفيد بسبب رفض الاكراد السيطرة البريطانيّة ومطالبتهم تنفيذ وعود الحلفاء لهم بحق تقرير المصير كما ورد في معاهدة سيفر عقب الحرب العالميّة الاولى. وحينما أنشات المملكة العراقيّة، اصبح الاكراد من ضمن الدولة الجديدة طبقا للحدود الدوليّة للعراق والتي اتفق عليها الحلفاء انذاك، شانهم في ذلك شان الكرد الايرانيين والاتراك.

وعندما جاء بيرسي كوكس واختار الانجليز الحكومة المؤقتة برئاسة عبدالرحمن النقيب، لم يعط للاكراد دور مهمّ او مشاركة رئيسيّة في العمليّة السّياسيّة ولا في عضويّة الوزارة المؤقتة، علما بانّ من بين الوسائل البريطانيّة التي كانت تتبع للضغط على الملك فيصل الاوّل وحكومة عبد الرّحمن النقيب هي تشجيع الكرد على الثورة مثلما حصل اثناء المفاوضات والاختلاف حول نصوص المعاهدة الاولى. فقد جابه الانجليز تشدّد الملك فيصل بتصريح ادلى به ونستون تشرشل وزير المستعمرات في تشرين الاوّل عام1921 جاء فيه:

"...لاينبغي وضع الاكراد تحت سيطرة العرب اذا كانوا لا يرغبون بذلك..."

(...P ،Sluglett ،Britain in Iraq:1914-1921،London1974،p119)

واستمرّ تجاهل الحقوق المشروعة للشعب الكردي عند اختيار وتنصيب الامير فيصل بن الحسين ملكا على العراق، وكذلك عند بناء جميع المؤسسّات السّياسيّة والاقتصاديّة في الدولة الجديدة، فقد كان المندوب السامي هو الذي يقرّر الصّيغة النهائيّة لاسماء اعضاء مجلس الوزراء. اذ (لم يغفر الانجليز للاكراد اشتراكهم في مقاومة الاحتلال البريطاني في معارك منطقة البصرة عام 1914 بستمائة فارس كردي جاؤوا الى النجف تلبية لفتوى المرجعيّات الدينيّة بالجهاد، وقاتلوا البريطانيين تحت قيادة السيّد محمد سعيد الحبوبي في معارك الشعيبة والمزيريعة). (د.خالد التميمي/المصدر/82)

لقد استمر موقف الاجحاف بحق الكرد كتقليد مارسته جميع الحكومات العراقيّة المتعاقبة طيلة القرن الماضي، وأصبحت قضيّة مطالبة الكرد بحقوقهم المشروعة في نظر السلطة المركزيّة العراقيّة مجرّد (محاولات انفصاليّة عن الوطن الام لتفتيت وحدته) وقد استغلّ ذلك ايّما استغلال من قبل المغامرين لتكون مبرّرا للانقلابات العسكريّة اللاشرعيّة ولتعطي المجموعات الانقلابيّة وهيئاتها الحاكمة ولايّ دكتاتور جديد (الشرعيّة الثوريّة) لارسال

الجيش العراقي والهائه في جبال ووديان كردستان العراق الجميلة لتدميرها وللقتال في ربوعها الامر الذي يقود الى اطالة عمر ايّ نظام دكتاتوري لاشرعي. ولابد من الاشارة الى كلمة حق في هذا السّياق بانّ حكومات العهد الملكي بشكل عام كانت منصفة وعادلة في تعاملها واحترامها للكرد كشعب، فقد تبوّؤا خلال سنواته في اغلب الاحيان اعلى المناصب السّياديّة في الدولة سواء المدنيّة منها او العسكريّة.

انّ حرمان الكرد من المشاركة الفعليّة في السّلطة وبشكل يتناسب مع ثقلهم السكاني والسّياسي والاقتصادي في الدولة الجديدة اضاف عاملا مهمّا من عوامل ضعف الدعائم التي قامت عليها الدولة العراقيّة الحديثة. كما يعطينا الجواب المنطقي عن السّبب الحقيقي للنزيف البشري والمالي الذي لم يتوقف طيلة القرن السّابق في كردستان العراق.

لقد وضع السير بيرسي كوكس الاسس الاولى لسياسة "تهميش" الدور الكردي (كما فعل مع العرب المسلمين الشيعة) متجاهلا عن عمد ما سينجم عن ذلك من فقدان التوازن والانسجام في العلاقات بين مكوّنات المجتمع العراقي، مخالفا بذلك سياسة الملك الرّاحل فيصل الاوّل في معالجة القضيّة الكرديّة. فقد كان معروفا عن فيصل الاوّل محاولاته التي تخطىّ فيها ادارة المندوب السّامي في اتخاذ قرارات كانت لا ترضي الادارة البريطانيّة؛ فهو اوّل من امر بجعل الدراسة الابتدائيّة باللغة الكرديّة، وفي عام 1922 حاول الملك فيصل ان يجري اوّل انتخابات في مناطق كردستان العراقيّة، الا انّ المندوب السّامي شخصيّا (السير هنري دوبس) رفض ذلك وحذر الملك ان يفعل ذلك (د.سعد ناجي/ص30)، وهذا الموقف طبعا لا يمكن ان يكون الا بقرار من وزارة المستعمرات البريطانيّة.

وفي عام 1923م حاول الملك فيصل مرّة اخرى اشراك الكرد بالانتخابات وارسل اليهم رئيس وزرائه عبد المحسن السّعدون لاستطلاع ارائهم حول ذلك، وارسل السّعدون برسالة مفرحة للملك يعلن فيها اتفاق كافة رؤساء الطوائف في كردستان حول رغبتهم في الانضمام للعراق وعلى اداء قسم الولاء للملك وخوض الانتخابات العامة بشروط عادلة لا تتعارض مع وحدة العراق.الا انهم جميعا في اليوم التالي قد غيّروا موقفهم بتأثير المندوب السّامي البريطاني في العراق (د.سعد ناجي/ص30). انّ المندوب السّامي حينما قدّم حكومة النقيب الاولى المؤقتة، كان بهدف ان تكون نموذجا للحكومات التي سوف تعقبه في العراق الجديد، لا سيّما بما انجزته حكومة النقيب الاولى على صعيد التشريعات الدستوريّة وبناء المؤسسّات الاولى للدّولة الجديدة والتي زرعت من خلالها بذور التفرقة الطائفيّة والعنصريّة.

الصّفوة الكرديّة والدولة العراقيّة الحديثة

وكما اشرنا سابقا، حينما بدا تنفيذ المشروع السّياسي واقامة المملكة العراقيّة وتنصيب فيصل بن الحسين بن علي ملكا، كان الشيخ محمود الحفيد عمليّا على راس الناشطين في

الحركة الكرديّة وان كان قد عيّن متصرّفا (محافظا) على مدينة السّليمانيّة انذاك. ثمّ لم يلبث ان اعلن ثورته المسلحة في18 تشرين الثاني1922 وكان يوقع بياناته ورسائله بـ " ملك كردستان"

(Intelligence Report no.1،1st January1923،F.O.371 /9009.) (د.خالد التميمي/المصدر/ص195)

وفي اطار التسويات بين المملكة الجديدة وبريطانيا سواء في عقد المعاهدة العراقيّة ـ البريطانيّة الاولى عام 1922، او في عقود منح امتيازات استخراج نفط العراق لبريطانيا، حسم الخلاف حول ترسيم الحدود الشماليّة في فبراير/شباط 1923 حيث احتلت القوّات البريطانيّة مدينة السليمانيّة وقمعت بوحشيّة ثورة الشيخ محمود البرزنجي. وبذلك حسمت مسالة الموصل لصالح المملكة العراقيّة نهائيّا منذ عام 1925 بعد ان وافق العراق على استمرار نظام الانتداب البريطاني عليه لمدة (25 عاما).

لقد استمرت بريطانيا في دعم الحكومة العراقيّة خارجيّا وداخليّا لا سيّما بعد ان نجحت في ضمان مصالحها السيّاسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة بعقد معاهدة 1930 م التي حلت محل المعاهدة السّابقة، وتطبيقا لنصوص المعاهدة الجديدة قامت القوّات المشتركة للحكومة العراقيّة والقوّة الجويّة البريطانيّة في ضرب القوّات المشتركة لكل من الشيخ محمود الحفيد والشيخ احمد البارزاني عام 1932 م وتصفية ثورتهما المشتركة ونفي الشيخ محمود الحفيد الى جنوب العراق بينما التجا الشيخ احمد البارزاني الى داخل الحدود التركيّة. وفي تلك السنة دخل العراق (قبل جميع الدول العربيّة) عصبة الامم كدولة مستقلة ذات سيادة وحدود دوليّة معترف بها ومعلومة.

وبدخول العراق عصبة الامم وتقوية مؤسسّات الدولة العراقيّة ونمو جيشها وقوّاتها المسلحة بدات الحركة القوميّة الكرديّة تأخذ منحا اخر خارج الإطار العشائري. فقد بدات العناصر الكرديّة المتعلمة والمثقفة لا سيّما تلك التي دخلت مؤسسّات الدولة العسكريّة والمدنيّة ترفع شعارات المطالبة بحقوق الكرد ويرتفع صوتها عاليا كلما وجدت ظرفا جديدا ملائما. فحينما وقع الانقلاب الذي قاده الفريق بكر صدقي عام 1936م وهو ضابط كردي، وجد المثقفون الكرد القوميّون متنفسا لهم على الرّغم من ان بكر صدقي لم يكن قوميّا كرديّا بل كان تحرّكه (كبقيّة غالبيّة الصّفوة الكرديّة العسكريّة) عراقيّا ووطنيّا شاملا.

وفي ظل التطوّر السياسي السريع في العراق الملكي ونشوء الاحزاب السياسيّة العراقيّة (العلنيّة و السّريّة)، وجد المثقفون الكرد في الحزب الشيوعي العراقي الذي تأسس سرّا عام 1934، مظلة يمارسون تحتها نشاطاتهم ومطالباتهم القوميّة، وبالمقابل استغل الحزب الشيوعي العراقي قضية حقوق الشعب الكردي (وايضا قضايا الحقوق لبقيّة مكونات الشعب العراقي كالكلدان والصّابئة والارمن واليهود وغيرها) اسوا استغلال لكسب الراي العام العراقي لصالحه باعتباره (المدافع الامين)عن حقوقهم ومصالحهم بينما اثبتت الاحداث والتطورات

السياسيّة طيلة احداث القرن الماضي،لا سيّما في اواخره وبداية القرن الحالي، انتهازيّة غالبيّة قادة وكبار زعماء الحزب الشيوعي العراقي في العلاقات الوطنيّة والموقف من النضال من اجل الديمقراطيّة في العراق، فقد كان لتحالفهم مع كافة الانقلابات العسكريّة وما افرزته من الانظمة الفرديّة والدكتاتوريّة الشوفينيّة العنصريّة في العراق تحالفا ميدانيّا وعقائديّا الأثر المباشر في خسارتهم مساحة واسعة في الساحة السيّاسيّة العراقيّة، وكثير من خسارتهم جاءت لصالح الاحزاب الكرديّة ومن ثمّ افلاس الشيوعييّن جماهيريّا وتلاشيهم سياسيّا على صعيد العراق باجمعه في الربع الاخير من القرن العشرين.

لقد استغلت الحكومات العراقيّة المتعاقبة تلك العلاقة المتميّزة بين الحزب الشيوعي والحركة الكردية في العهد الملكي، ولم تعترف بالحزب الديمقراطي (البارتي) فكان موقفها غير عادل ولا متفهّم للطموحات والحقوق المشروعة للكرد،اذ اشاعت عنه انه حليفا وواجهة للحزب الشيوعي العراقي السّري، بدلا من ان تعترف به وتكسبه ضمن الاحزاب الليبراليّة الوطنيّة العراقيّة المجازة انذاك. ففي عام 1946 م رفضت وزارة توفيق السويدي اجازة الحزب الديمقراطي الكردستاني بحجة انه "متعصّب قوميّا ولا ينسجم مع الاحزاب الاخرى في البلاد" . وحينما رفضت الحكومة مرّة اخرى اجازته في عام 1950 م، فانها دفعته الى احضان الشيوعيين لقمة سائغة فكان ذلك احدى اخطاء حكومات العهد الملكي (على الرغم من علمها تماما بانّ هنالك تناقضا واضحا بين الحزب الشيوعي والبارتي عقائديّا وتنظيميّا) د. سعد ناجي/ص26. واذا نظرنا الى جانب اخر من الصّفوة العراقيّة العربيّة نجد موقفا سلبيّا اخر تقفه احزابهم تجاه الكرد لابد من مناقشتها ايضا، تلك هي موقف حزبي الاستقلال (وهو حزب وطني عراقي كان يدعو لاهداف القوميّة العربيّة) وكذلك الحزب الوطني الديمقراطي (وهو حزب وطني ليبرالي) حينما رفض كلاهما التنسيق ميدانيّا مع حزب البارتي (الديمقراطي الكردستاني)، وحتى بعد تشكيل (جبهة الاتحاد الوطني) من كافة الاحزاب الوطنيّة (المعارضة) في العراق في عام 1957، فقد رفضت احزاب الجبهة طلب الكرد الانضمام اليها.

وعلى الرّغم من انّ بعض قيادات الجبهة قد ألقت باللوم فيما بعد على حزب البعث العربي الاشتراكي السّري، الا انّ ذلك اللوّم لم يكن مقبولا اذ كان بامكان زعماء الجبهة (القياديّن الكبار كالاستاذ كامل الجادرجي وحسين جميل والشيخ محمد مهدي كبّة ومحمد صديق شنشل وفائق السّامرّائي ان يفرضوا قبول الكرد، بالتصويت بالاكثريّة) كشركاء داخل الجبهة، الا انّ رغبتهم في استرضاء (شوفينيّة) البعث من جهة، وتهدئة (حساسيّة) تنظيم ضباط الجيش من الحركة الكرديّة - حركة الضبّاط الاحرار السريّة - من جهة اخرى، دفعهم الى ذلك الموقف الانتهازي وان كانوا احيانا يتسترون بحجّة ارتباط الحركة الكرديّة بجهات اجنبيّة معادية لوحدة العراق. فكان ذلك الموقف خطا تاريخيّا سجّل على صفوة الاحزاب السّياسيّة العراقيّة العربيّة في تلك المرحلة. وكان ايضا سببا متوقعا ليدفعوا

باهمّ التنظيمات العراقيّة الكرديّة الى احضان الحزب الشيوعي العراقي انذاك الذي مارس ابشع انواع الاستغلال السّياسي للكرد لصالحه طيلة تلك الفترة وما بعدها،لا سيّما بعد انهيار النظام الملكي في 14 تموز1958 ودخول الشيوعيين في صراع مكشوف مع الاحزاب والتنظيمات القوميّة العربيّة،فقد دفع الشيوعيّون بالاعضاء الكرد (داخل حزبهم وخارجه) ليكونوا راس حربة لضرب خصومهم العرب في الموصل وفي المناطق العربيّة الاخرى ممّا سبّب عداوات وحساسيّات بين المكوّنات الاجتماعيّة لا زالت اثارها باقية.

وبقدر ما كان الحزب الشيوعي يبدو ظاهريّا مظلة تنظيميّة ووسيلة اعلاميّة متميّزة ومزايدة للدفاع عن حقوق الكرد وغيرهم من القوميات الاخرى في العراق، الا انّه من جهة اخرى قد برزت من بين صفوفه عناصر قياديّة من الاقليات التي استغلت امكانيات الحزب الشيوعي ونشطائه العرب في جميع انحاء العراق كغطاء لتحقيق اهدافها الخاصّة القوميّة والدينيّة، حتى اصبح الحزب الشيوعي العراقي ولجنته المركزيّة في كثير من الاحيان في قبضة واحدة من تلك الاقليات وحاضنة لمؤامرات وفتن هدّامة للكيان العراقي الموحّد الذي كان لايزال انذاك في طور الانشاء والبناء على كافة الاصعدة. فكثيرا ما اصبح غالبيّة اعضاء اللجنة المركزيّة من الاقليات الصّغيرة. فالسكرتير العام للحزب الشيوعي كان امّا يهوديّا صهيونيّا او مسيحيّا كلدانيّا او كرديّا فيليّا او صابئيّا مندائيّا ، وهو أمر لاضير منه اذا كان هنالك حقا تطبيقا وممارسة للديمقراطيّة داخل الحزب، الا انّ كوادر الحزب ومنتسبيه لم يكن لهم ايّ دور في انتخاب (القيادة) ولا يعلمون عنها ايّ شيء سوى اسماؤها المستعارة وما يروي عنها بطانتها من بطولات نضاليّة مزيّفة. ومع كل ما تقدم من الاختراقات، فقد بقي الشعور الديني الاسلامي اوّلا والولاء القبلي ثانيا اهم العوامل التي تقف حائلا امام تغلغل الافكار والعقائد السياسيّة الوافدة والطارئة على طبيعة واصالة الشعب الكردي وتقاليدهم كالشيوعيّة والبعثيّة وكافة اشكال التعصّب العنصري والديني.

لقد استمرّت القضية الكرديّة تنمو وتتسع حتى اصبحت من اهم القضايا التي تشغل بال الشعب العراقي برمّته طيلة تاريخ العراق الحديث. وانها لحقيقة تاريخيّة ان نقول ان غالبيّة السكان العرب الذين يشكلون الاغلبية العدديّة في العراق ناضلوا جنبا الى جنب فكريّا وعمليّا مع الكرد وساهموا بشكل فاعل لتحقيق حقوقهم القوميّة حتى وصلت حد التضحيات بالارواح في السجون والمعتقلات والتظاهرات في شوارع بغداد والمدن العراقيّة الاخرى التي كانت تطالب بـ (السلم وايقاف القتال في كردستان وبالديمقراطيّة لجميع ابناء العراق).هذه الظاهرة الشعبيّة لم نجدها في كافة الدول المجاورة للعراق التي تضم الكرد والمكوّنات السكانيّة الاخرى، ظاهرة دفاع غالبيّة عرب العراق عن الحقوق المشروعة للشعب الكردي.

وعلى الرغم من التطوّر الملحوظ في الحركة السّياسيّة العراقيّة وتغلبّ النزعة الليبراليّة الشعبيّة عليها طيلة النصف الاوّل من القرن العشرين، فانّ القضيّة الكرديّة بقيت تنمو

وتتسع في ظلّ قيادة الصّفوة الكرديّة التقليديّة ذات التاثير المباشر في حياة الجماهير الكرديّة والمتمثلة بزعماء العشائر وكبار الملاكين الاقطاعيين ورجال الدين لا سيّما اصحاب الطرق الصّوفيّة. ولم يستطع السّياسيّون اللبراليّون من المثقفين الكرد اخذ زمام المبادرة في قيادة الشعب الكردي، بل ظلوا في افضل الاحوال يسيرون بخط متواز لقسميّ الصّفوة الكرديّة: (شيوخ عشائر ورجال دين) من جهة و(علمانييّن ومثقفين من جهة اخرى) كل اصبح بحاجة الى الاخر لا سيّما في مجال خبرة التعامل مع الجماهير الواسعة وعرض قضيّتهم والاتصالات مع القوى الخارجيّة الكبرى والصّغرى، الاقليميّة والدوليّة، وهذا التحالف الواقعي كان ولايزال قائما حتى اليوم. وقد برز من بين صفوة الحركة الكرديّة في القرن الماضي مثقفون وسياسيّون قديرون واخرون ممّن يحملون الشهادات العليا في كافة الاختصاصات من امثال معروف جياووك ومحمد امين زكي وابراهيم احمد (الذي لعب دورا مخلصا لاخر لحظة في حياته لأجل تقوية عرى العلاقات الوطنيّة العراقيّة بين حزب البارتي وبين الاحزاب العربية الوطنيّة الاخرى لا سيّما خلال سنوات 1957-1946)، وحمزة عبدالله وجلال الطالباني ولطيف الشيخ محمود ورشيد عبد القادر وعلي العسكري وصالح اليوسفي (اغتيل بطرد بريدي ملغوم أرسلته مخابرات صدّام حسين) وعمر مصطفى (المعروف بعمر دبابة) وجعفر محمد كريم ونوري شاويس وحلمي علي شريف وعلي عبد الله وسامي عبد الرّحمن ومحمود عثمان ومحسن دزه ئي ونافذ جلال وفؤاد معصوم وبرهم صالح وكوسرت رسول وعوني يوسف وكثيرون اخرون برزوا في مختلف مراحل النضال الوطني للكرد وكانت ولا تزال لهم علاقات حميمية وأواصر متينة ومصاهرات مع نظرائهم من صفوة الديمقراطيين اللبرالييّن العرب في داخل العراق وخارجه.

ومما يجدر الاشارة اليه ان الصّفوة الكرديّة العراقيّة كانت جزءا اساسيّا وفي الدّائرة الاولى من النظام السّياسي في العهد الملكي فقد قدّمت العديد من خيرة موظفي الدولة العراقيّة الذين عرفوا بالكفاءة العالية وبالنزاهة بمختلف الاختصاصات لا سيّما في مجالات رئاسة الوزارة وتولي الوزارات السياديّة الحسّاسة كالداخليّة والدفاع والخارجيّة وكذلك في القيادات العليا بما فيها قيادة غالبيّة الفرق العسكريّة الخمسة (الموجودة انذاك). الا انّها تتشابه مع ـ نظيرتها العربيّة في العراق ـ كتوامين – في ظاهرة سلبيّة وهي التكتل الفئوي داخل التنظيمات والاحزاب، بل وتكتلات حتى في النشاطات الاجتماعيّة والفعاليّات الاقتصاديّة فقد "شكا الضباط البريطانيّون في كردستان العراقية باستمرارمن المنافسات المتاصّلة بين الرؤساء الاقوياء ـ بحيث لم يكن احد منهم يقبل بمشيخة ايّ قائد منفرد ـ والواقع انّ اوامر الشيخ محمود (الحفيد) لم تكن تسري قط الى مسافة ابعد من السليمانيّة" د.سعد ناجي/ص 30..".

(London1974 ،p116 ، P. Sluglett، Britain in Iraq: 1914 -1921)

الصّفوة العراقيّة والنظام السيّاسي الجديد

لقد جاء تشكيل مجلس وزراء الحكومة الاولى المؤقته برئاسة عبد الرّحمن النقيب وليس فيهم من سبق له وان دخل في صراع عسكري أو اختلاف سياسي مع بريطانيا، ليثبت بشكل لا لبس فيه عزم البريطانييّن على " انشاء دولة عربيّة في العراق بأسرع وقت مهمّتها: تقبل الانتداب، تقبل الوجود العسكري البريطاني على ارضها، تقبل الاشراف البريطاني على شؤونها العسكريّة و الاقتصاديّة والماليّة والخارجيّة، ان تتبّع المشورة التي يقدّمها لها رسميّا المندوب السّامي نيابة عن حكومة بريطانيا.. " F.O.371/5229/E10752..."، (د.غسان العطيّة/ المصدر/ص 466 ـ 462)

لقد عقد اوّل اجتماع لمجلس وزراء حكومة النقيب الاولى المؤقتة في الثاني من تشرين الثاني/انوفمبر 1920 بحضور السير بيرسي كوكس حيث ناقش الحضور مسالة اهميّة دور المستشارين البريطانييّن في كلّ وزارة. ولم ينس كوكس قبل خروجه التأكيد لمجلس الوزراء على انّ سلطة مجلس الوزراء مقيّدة رسميّا من قبل المندوب السّامي الذي له الحق في نقض او تعديل قرارات المجلس واحكامه. مثلما تحدّدت اهم اهداف المجلس هي العمل على:

1 ـ تشكيل الادارات الحكوميّة في جميع انحاء البلاد.

2 ـ تشريع قانون الانتخابات.

3 ـ العمل على ارجاع الضبّاط العراقييّن الموجودين في سوريا الى العراق [اي تحمّل التكاليف الماليّة لتحقيق ذلك].

4 ـ اعلان العفو العام واطلاق سراح السجناء الذين اعتقلوا واعادة المنفييّن الذين نفوا بسبب ثورة العشرين من منفاهم في جزيرة هنجام على ان يقدّموا تعهّدا خطيّا بعدم التدخل في الشؤون السّياسيّة او معارضة الحكومة القائمة.

5 ـ اتخاذ الخطوات الجدّية لانشاء جيش وطني للعراق.

لم يبق امام المندوب السّامي السيّر بيرسي كوكس من مهماته الرّئيسيّة التي كلّفته بها لندن سوى تنصيب الامير فيصل ملكا على العراق وهي اهمّ قضيّة كانت تشغل باله انذاك.

ازدياد قلق الصّفوة من نشاطات كوكس

لقد جاءت الخطوات الاولى التي اتخذها بيرسي كوكس، لتثير بعد فترة قليلة، الرّيبة والقلق الشديدين لدى الصفوة الوطنيّة التي قادت التحرّك السياسي والمسلّح ضد الانجليز. فقد كتبت صحيفة الاستقلال بتاريخ 17/12/1920 " تحت عنوان: لم يطرأ ايّ تغييّر جوهري: انّ الامّة تريد عفوا عامّا، وعودة المبعدين واعادة الضبّاط المحتجزين في سورية

وغيرها، واجراء تغيير كبير في الادارة الحكوميّة (احلال العراقييّن محل الاجانب). كما انّ اللغة العربيّة ليست اللغة الرّسميّة حتى الان.."، كما تنبأت الصحيفة بحصول انفجار اخر".. اذا لم يتم معالجة الوضع..". وفي مقال اخر كتبت في 19/1/1921 تحت عنوان: ".. لم يظهر لحد الان ايّ شكل من اشكال الحكم الوطني، كما انه ليس ثمّة ما يد لّ على انّ الحكومة البريطانيّة قد غيّرت سياستها المناهضة لاماني الشعب. الا ان الوطنييّن سينتصرون، ولا بدّ من ان يحرز العراقيّون في النهاية نصرا للقضيّة الوطنيّة" .

وفي صحيفة الاستقلال نفسها، العدد 30/1/1921، نشر حمدي الباجچي بيانا اعلن فيه انه...

"..لن يقبل على الاطلاق ايّة وظيفة في ظلّ الحكومة المؤقتة.."، وقد اعتبرت الادارة البريطانيّة في بغداد ذلك البيان:".. يعكس موقف حزب العربيّة الفتاة الذي ينتمي اليه(الباجچي) على الرّغم من انّه لا يمكن ادراجه ضمن الاشخاص الاكثر تطرّفا... انه لا ينظر الى الحكومة الحاليّة كمؤسسّة وطنيّة، ولا يرغب في تقديم ولائه لها... وحتى رشيد بك الخوجة (متصرّف بغداد) اعرب في مجالسه الخاصّة عن عدم ايمانه باخلاص النوايا البريطانيّة..". ولذلك يصل التقرير الى وجهة النظر البريطانيّة بانه " .. لا يمكن ان يزيل هذه الشكوك (عند العراقيين) الا بتشكيل الادارة العربيّة..". فعلى ضوء ما تقدّم من مواقف جماعة حزب العهد و(مجموعة الشريفيّين بشكل عام) حول المستقبل السّياسي للعراق، فقد وجد اصحاب القرار السياسي البريطاني، سواء في لندن او في بغداد، انّهم بين خيارين لمجموعتين من الصّفوة العراقيّة لا ثالث لهما؛ لذلك تبنوا نصيحة الميجر ديكسن وهي الرّكون الى (المعتدلين) بـ "..تعييّن الرّجال ذوي الاراء المعتدلة دون غيرهم، في المنا صب السّياسيّة، وضرب واضطهاد عناصر الثورة في حالة وجودها.." (Magor H. R. Dickson، Letters and Papers) نظمي/ص398)

وهذا ما حدث فعلا منذ انتهاء ثورة العشرين، وكما وصف الشيخ محمد باقر الشبيبي شاعر ثورة العشرين انّ الوضع قد اصبح انذاك كالاتي: بنينا وانشأنا ولكنّ غيرنا يخرّب ما كنا بنينا وانشأنا

لقد انقسمت الصّفوة العراقية منذ وصول السير بيرسي كوكس الى معسكرين وقطبين متنافرين: (مع أو ضدّ الانجليز) وقد ازداد الاستقطاب تباعدا منذ تشكيل الوزارة النقيبيّة المؤقتة الاولى ثمّ استمرّا بالتباعد متخذا صورا واشكالا ولبوسا متنوّعة،الا انّ جوهرها كان واحدا ومستمرّا طيلة العهد الملكي وما بعده؛ وهو الصّراع على السّلطة وما فيها من مغانم مادّية ومعنويّة.

انّ هذا الاستقطاب الثنائي لا يلغي وجود عناصر لمعسكر ثالث توفيقيّ المنهج؛ وهو ليبرالي ووطني مخلص ناكرا لذاته يهدف بناء العراق على اسس علميّه وحضاريّة تقوده دولة النظام والقانون وعدالة المؤسسّات الدستوريّة والمجتمع المدني وحقوق الامومة والطفولة، الا انّ هذا المعسكر الذي ولد في اوائل العهد الملكي، بدا يضعف ويغيّب منذ وقوع اوّل الانقلابات

العسكرية لافي العراق وحده بل في المنطقة العربيّة عام 1936، ثم بدا بالضعف والتأكل ليتوارى تماما منذ سقوط الملكيّة بانقلاب 14 تّموز 1958 حيث اصبح بعد هذا التاريخ مجرّد منتدى فكري (بلا مقرّ او وجود مادي) للمثقفين اللبراليينّ واماني ودعوات تنظيريّة بين سطور بعض المقالات والكتب ودواوين الشعر.

كان السير بيرسي كوكس يعلم تماما بانّه لا يستطع ان يضمن مصالح امبراطوريّة بلاده في العراق الا باقامة نظام سياسيّ عراقيّ موال تماما لبريطانيا، وهذا لا يمكن تنفيذه الا بالاعتماد على صفوة عراقيّة مهمّة وكفوءة ومؤهلة لهذا الدور. وان يكون لها الاستعداد الذاتي الكامل للتعاون والتنفيذ لصالح بريطانيا. ولاجل تحقيق ذلك، فقد بدا بتطبيق خطته (مستعينا بخيرة معاونيه وخبرائه) منذ اوّل يوم وصوله بغداد ـ وكما اتضحت عمليّا ووثائقيّا ـ كما مايلي:

اوّلا: لقد عمل بكلّ ما يملك من دهاء وقدرات (ومن معه من الموظفين والخبراء) على تفريق جبهة المقاومة الوطنيّة المتماسكة، مبتدئا بتفريق جبهة صفوة قيادات المدن وزعماء الريف (العشائر). فكثيرا ما كان كوكس وسكرتيرته المس بيل يكثران اثناء استضافتهما لبعض وجوه الصّفوة العراقية من اشاعة استعمال تعبير (الافنديّة) لزعامات المدن، و(الشيوخ) لزعامات الرّيف باسلوب التعالي الحضاري والتحصيل العلمي، و(المشايخ او الملالي) لعلماء الدين. ولكن الاسلوب الاكثر مضاء وفاعليّة كان هو الضرب على اوتار المحابات وتوزيع الوظائف،واثارة الطائفية واثارة العقد التاريخيّة الكامنة والجاهزة دائما للعمل التخريبي الهدّام.

ثانيا: مواصلة ضرب المعارضة المسلحة الوطنيّة العراقيّة عسكريّا بقسوة وبوحشيّة في كافة ميادين العراق، لا سيّما اخماد جذوة قلبها النابض في الفرات الاوسط (ثورة العشرين الكبرى). وقد فعل ذلك ايضا في جميع انحاء العراق بقسوة وبدون رحمة. فبعد ان اتمّ ضربته العسكريّة على نطاق واسع من الموصل وتلعفر وحتى اهوار الجنوب، بجميع انواع اسلحته الجويّة والبريّة (بما في ذلك استخدام الاسلحة الكيمياويّة والغازات السّامّة في السليمانيّة وقرى في كردستان)، قام بحملة واسعة من الاعتقالات والسجن والتشريد والنفي داخل العراق وخارجه لعدد كبير من قيادات الصفوة العراقيّة التي قادت الثورة ومعركة الاستقلال.

ثالثا: ضرب المعارضة المسلّحة الوطنية العراقيّة بالسّلاح المعنوي (الاعلامي)؛ فمنذ وصوله البصرة كمندوب سامي، طغت موجة من الاشاعات المفبركة في الاوساط العراقيّة تثني على عدالة كوكس وحكمته وانصافه ورجاحة عقله، وتهاجم سلفه ارنولد ولسون الذي وصف بالطيّش وبالحماقة حيث حمّل تبعة اراقة الدماء البريئة ! وتحميله مسؤولية عدم الانسجام بين الانجليز والعراقييّن بينما كان الاثنان وجهين لعملة واحدة. كما قام كوكس بتلبية الوليمة التي اقامها السيّد طالب النقيب في قصره بالسبيليّات في البصرة بمناسبة وصول بيرسي كوكس والوفد المرافق له، والتي حضرها كبار الاعيان والشخصيّات، كما اظهر كوكس

سروره بالكلمات الترحيبيّة التي القيت بين يديه. وكان بيرسي كوكس على علم بالكلمات التوديعيّة لسلفه ولسون والتي كان اكثرها ايلاما لمشاعر الوطنيين هي كلمة الوجيه مزاحم الامين الباجچي والتي جاء فيها تنديدا وذمّا بثورة العشرين وبزعمائها، وكانت الثورة انذاك مازالت مشتعلة، منها قوله:

"... ويؤسفني جدّا ان تؤدي حماقات الافراد العرب الى ازعاج الامّة البريطانيّة في مهمّتها المشرّفة. لقد ارتكبت هذه الاعمال بسبب احلام لا يمكن تحقيقها من جهة، ولمصالح شخصيّة من جهة اخرى. انّ الحركة الحاليّة (وقصد بها الثورة) ليست عربيّة خالصة. انما هي حركة يختلط بها عنصر اجنبي مع الاسف الشديد ناجحا في استغلال الشهرة والثروة والدّماء البريئة لمنفعته الخاصّة من اجل اضعاف مركز بريطانيا العظمى في بلاد اخرى. فلا تغترّوا بالمظاهر التي هي خدّاعة في الغالب ولا سيّما في الشرق. ولا تعتبر الثورة الحاليّة التي تقوم بها بعض القبائل البدوية ثورة وطنيّة حقة تنشد الاستقلال اذ لا يمكن ان تعتبر مثل هذه الحركة ممثلة لشعور المجتمع كله.انّ الاسر المتنفذة في بغداد لا تعطف على حركة خرّبت بلادها. انّ هذه هي مشاعر الناس الذين لارائهم وزنها، وهم يتلهفون الى نقل ما يفكرّون ويشعرون به الى اولئك الذين يطالبون في بريطانيا بالانسحاب من هذه البلاد فهم لايستطيعون ان يدركوا انّ الانسحاب لايعني اقلّ من انتهاك حرمة القانون وتدمير الشعب وما يعقب ذلك من انتشار الفوضى في انحاء البلاد الامر الذي قد ينطوي على نشوب حرب اسيويّة لا يمكن ان تقف في معزل عنها..)).

امّا في بغداد.. ففي حفل الاستقبال الذي جرى في محطة باب الشيخ لحظة وصول المندوب السّامي الجديد السير بيرسي كوكس، وقف الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي وخاطب كوكس بقصيدته الشهيرة والتي جاء فيها:

عد للعراق واصلح منه مافسدا وابثث به العدل وامنح اهله الرّغدا

انّ العراق لمسعود برؤيته ابا له من بلاد العدل قد وردا

اراف بشعب بغاة الشرّ قد قصدوا اثارة الشرّ فيه وهو ما قصدا

ومضى بشتم الثورة والثوّار الى ان يقول:

فيا لها فتنة عمياء ثائرة قد عذبّت من بنيها الرّوح والجسدا

احزم بنا س راوا في ارضهم فتنا فلم يكونوا لمن قاموا بها سندا

ثم تكلمّ الزهاوي نثرا مخاطبا بيرسي كوكس باعتباره ابا للعراقييّن: "..قد زال ايّها الاب المشفق بعدك الأمن الذي وطدّته في ربوع العراق وأخذت الفتن والاضطرابا ت والمخاوف ويا للاسف تحلّ مكانه فتبعث بالرّاحة التامّة...". وبقدر ماكان الشاعر جميل صدقي الزهاوي صديقا مقرّبا من الانجليز، كان الشاعر الكبير معروف الرّصافي عدوّا لدودا واقفا لهم بالمرصاد حتى انّ هنالك مراسلات ذات طابع غضب و تهديد مباشر موجّه من المس بيل الى الرصافي

تدلّ على انّ هنالك اعلام وطني مضاد لاعلام (الادارة البريطانيّة وعملائها في بغداد).

C.I.D.Reports،1st Sept 1922،no.S.B.1802/6،para.595.In:N.A.I.New Delhi

(د. خالد التميمي/المصدر/ص184 ـ 187)

وقد ردّ كوكس على كلمات الترحيب به (بالشعر والنثر) باللغة العربيّة التي كان يجيدها اجادة تامّة بكلمة ذات دلالة ودهاء وخبث اذ قال: "... ياجميل افندي، ويا ايّها المندوبين (وكان يخاطب المندوبين الموالين لبريطانيا الذين عينّتهم ادارة ولسون وليس بطبيعة الحال المندوبين الوطنيّين الخمسة عشر). انّ دولة انجلترا أرسلتني للمساعدة والاتفاق مع اشراف ورؤساء العراق لنحصل على الغاية المطلوبة للطرفين، وتأليف الحكومة العربيّة حكومة مستقلة بنظارة دولة انجلترا، ولقد جئت لهذا المقصد، ولكن ما زال الاغتشاش مستمرّا، وطبعا لا يمكن العمل، وانا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا شيء بيدكم...".

انّ هدف ردّ السير بيرسي كوكس على الشعر والنثر في الحفل كان اعلاميّا واضحا وهو تعميق الفجوة بين اعيا ن الصّفوة العراقيّة وتوسيع الشقة بين صفوفها حول الموقف الواجب اتخاذه من الثورة المسلحة التي كان مقاتلوها في اثناء ساعات الاحتفال قد احتلوا بتضحياتهم مدينة المسيّب ودخلوا المنطقة المعروفة اليوم امّ الطبول داخل حدود بلديّة العاصمة بغداد.

لقد ادرك المندوب السامي الجديد بيرسي كوكس ان وسائل اعلامه من صحف، وافراد من الشعراء والادباء قد اعطته اطمئنانا للمضيّ في تنفيذ مخططاته، بينما كانت مناطق الثورة لا تزال مشتعلة. لذا شدّد كوكس على ضرورة الضرب بقوّة، فاستمرّت العمليّا ت العسكريّة وكانت القوّات البريطانيّة البريّة والطائرات تنتقم من ابناء القبائل العربيّة في ابي صخير والمشخاب وتفتك بالقرى والمزارع والبيوت بما فيها من نساء واطفال وشيوخ، صابّة جام غضبها بشكل خا ص على مقرّات اجتماعات قادة الثورة ودواوين (مضايف) صفوة زعماء وقادة العشائر الذين حملوا على اكتافهم الاعباء الكبرى للثورة وفي مقدمتهم الشيخ المجاهد عبدالواحد الحاج سكر والسّيد نور الياسري والشيخ شعلان ابو الجون والسّبد هادي المكوطر والشيخ غثيث الحرجان وغيرهم من كبار الصّفوة وقادة الثورة.

رابعا: اضعاف دور علماء الدّين:

وجد السير بيرسي كوكس انّ القاعدة الاساسيّة التي تعتمد عليها المعارضة الوطنيّة في العراق هي المؤسسّة الدينيّة (الحوزة العلمية) في المدن المقدسة الشيعيّة والسنيّة، اذ انّ لعلماء الدّين تأثيرا ونفوذا مباشرا على غالبيّة الصّفوة العراقيّة المسلمة بشكل عام وعلى عموم الجماهير ولا سيّما المسلمين بشكل خاص. ولهذا فقد اعطى كوكس لهذا الموضوع جلّ اهميّته ووقته، ووضع قواعدا لسياسته أصبحت منهجا متبعا في العراق في عهد ادارته (في مرحلة الانتداب) مثلما تركت بصماتها على عموم السّياسة العراقيّة للدّولة العراقيّة لثلاث

عقود من السنين الاولى للحكم الملكي (فترة1951-1921).

هذه السّياسة (مدرسة بيرسي كوكس) تتلخص بما يلي:

1: تجريد كبار العلماء المجتهدين من الولاء (المسلحّ) الذي كان يقدّم لهم من صفوة الزعماء ورؤساء القبائل الكبيرة وقطعه عنهم فورا بوسائل متعدّدة؛ اهمّها فرض المزيد من الضرائب الزراعيّة، وانتزاع ملكية الاراضي او حق ايجارها واعطائها للمؤيّدين وانصار الحكومة الموالية لهم فقط (مثلما حصل مع السّيد كاطع العوّادي حيث كانت مقاطعة (الظليميّة) ممنوحة له منذ العهد العثماني، وهي ارض غنيّة انفق كلّ مواردها على الثورة ولما انتهى عقد استئجارها من الحكومة اصرّ الإنكليز ان يمنحوها لال الجريان اصدقائهم. وكلما دافع الملك فيصل وماطل انتصارا للسيّد كاطع العوّادي لم يجد من يسمع رأيه، وكان اخيرا ان انتزعت الارض من السيّد كاطع عنوة لصالح من يختارهم الإنكليز وان كان الملك فيصل قد عوّض العوّادي بأرض اخرى) وهنالك امثلة كثيرة مشابهة. ومن الوسائل الاخرى ايضا، استعمال الوسائل المغرية المادية والمعنويّة؛ لا سيّما منح الالقاب التشريفيّة والاوسمة والمقاعد البرلمانيّة وعضويّة مجلس الاعيان...الخ وتقريبهم للمؤيّدين المطيعين للسياسة البريطانيّة ومصالحها في العراق.

2: مراقبة السّوق والضغط على التجّار الوطنييّن بعرقلة اعمالهم ومصالحهم التجاريّة، الداخليّة والخارجيّة، وخاصّة مع اولئك الذين يعطون الحقوق الشرعيّة (كالزكاة والخمس وردّ المظالم) الى مراجع التقليد وعلماء الدين.

3: اتباع النهج الطائفي في تشريع قانون الجنسيّة العراقيّة الذي كان لبيرسي كوكس وموظفي ادارته وعلى راسهم المس بيل دورا مباشرا في تشريعه، حيث تمّ بموجبه تعريف العراقي.وفي ((...... قبيل ابرام القانون الاساسي (الدستور العراقي الاوّل) عام 1925، وبالتحديد في 9 تشرين الاول/اكتوبر1924 تمّ تشريع قانون الجنسيّة العراقيّة، وفقا لسياسة بريطانيا المعروفة (فرّق تسد) وعقابا لرجال ثورة العشرين، حيث تمّ بذر الطائفيّة على نحو قانوني، وذلك حين قسّم القانون الجنسيّة الى(ا) وجعلها اصليّة و(ب) وميّزها بالتبعيّة العثمانيّة وغير عثمانيّة)). (د. عبد الحسين شعبان/من هو العراقي؟/ط 1/يوليو- تمّوز/2002/ص49) وهذا من اغرب القوانين حيث فرض على العراقي ان يثبت عراقيّته لامن خلال ولادته هو وابوه في العراق، بل من خلال تبعيّته السّابقة الى شعب اخر وبلد اخر محدّدٍ: (العثمانيّون/ تركيّة)!!.

انّ العديد من اعيان الصّفوة العراقيّة، لا سيّما من الباحثين والمؤرخين يحمّلون " الاستعمار " وحده هذا الخطا التاريخي وينسون مسؤوليّتهم واجيال متعاقبة من صفوة المثقفين والسّياسيّين العراقييّن (لا سيّما من كان منهم في السّلطة) لمعالجة هذا الخلل الخطير الذي اوجد جرحا عميقا في الجسد الاجتماعي العراقي وزرع فيه جرثومة خبيثة (الطائفيّة) والتي لا زالت متوطنة فيه.

(لقد عالج الدكتور عبد الحسين شعبان،اشكاليّة الجنسيّة واللاجنسيّة في القوانين العراقي والدولي، بشكل علمي وبرؤية حضاريّة ووطنيّة وانسانيّة باقتدار وموضوعيّة في كتابه الذي أشرت اليه كمصدر).

4: ومن اجل اضعاف الولاء للدّين وللمؤسسّة الدينيّة، عمدت ادارة بيرسي كوكس الى ترسيخ منهج العلمانيّة في مؤسسّات الدّولة سواء في الدستور الاساسي وفي سن القوانين، او في التعليم وفي غالبيّة السلوك والمظاهر الاجتماعيّة. لقد اتبعت ادارة كوكس البريطانيّة في العراق والحكومة العراقيّة المؤقتة من اجل اهداف انيّة سياسة القفز على المراحل التاريخيّة في عمليّة تطوير مجتمع غالبيّته العظمى قبليّة وعشائريّة مسلمه، وقد كان لتوّه قد خرج من نفق مظلم وتخلف حضاري زاد على الاربعة قرون. مما اوجد انفصالا وتناقضا في طبقات المجتمع لا سيّما في انماط حياة عوائل وبيوتات الصفوة العراقيّة. فظاهرة علنيّة انتشار واجازة بيع وتقديم الخمور

وايجاد منطقة في وسط بغداد مخصصّة لبيوت البغاء والاكثار من الخمّارات. وكذلك ظاهرة سفور المرأة واختلاطها بالرّجال، وتقديم الخمور في اللقاءات الرسميّة والعائليّة للدولة، وتشجيع الدراسة المختلطة للجنسين بدا ت بها الادارة البريطانيّة وحكومتها المؤقتة في وقت مبكر جدا في العراق، وفرضتها بشكل رسمي في الدوائر الرسميّة الداخليّة والخارجيّة منذ عام 1923.

كان المندوب السّامي برسي كوكس وفريقه (وفي مقدمتهم المس جروترود بيل الشهيرة عند العراقييّن بالخاتون) يمارسون اسلوب اضعاف خصومهم وافسادهم بهدف اسقاطهم سياسيّا واجتماعيّا. حتى اذا ما تصعّب فريق او تعنّت لجاوا الى مفاوضته باللين والحسنى صراحة قبل لجوئهم الى القوّة والاضطهاد معه. فبعد ان انهى الثورة المسلّحة عسكريّا، طلب كوكس من

"اللجنة الحيدريّة" الاتفاق على اعلان هدنة ومن ثمّ الصّلح مع الثوّار كخطوة اولى للوصول الى تسوية شاملة. وكان المتكلّم باسم اللجنة هو السيّد ابو القاسم الكاشاني الذي اعلن انّ اللجنة ترفض الصّلح او التفاوض مع جيش الاحتلال والادارة البريطانيّة الا على اساس الاعتراف الكامل خطيّا من قبل الانجليز باستقلال العراق.

لجا كوكس الى اسلوب التفاوض المباشر وبشكل منفرد مع قيادات الثورة الاخرين. وفي نفس الوقت اخذ يبعث افرادا من المتعاونين معه الى المناطق التي كانت لا تزال ملتهبة لتثبيط همم الثوّار والقادة ولتحذيرهم من احتمال فقدان اراضيهم الزراعيّة وامتيازاتهم الاجتماعيّة. وفي نفس الوقت اخذوا يمنّوهم بالوعود البرّاقة ان هم توصّلوا الى حلّ واتفاق مع السّلطة. ومع كلّ ذلك رفض الكثير من زعماء القبائل مبدا الاستسلام والتفاوض بمعزل عن القيادة الدينيّة، بل طلبوا من مندوبي كوكس ان يتفاوض مع المجتهد الاكبر " وهو شيخ الشريعة انذاك " ، وكان الشيخ عبد الواحد الحاج سكر والحاج مرزوك العوّاد على راس الذين تمسّكوا

بهذا الشرط. الا انّ موقع كوكس والمفاوضين معه قد قوي بموت شيخ الشريعة في 18 كانون الاوّل/ديسمبر1920، وحدث تاخرّ في اختيار من يخلفه في موقعه ممّا اعطى بيرسي كوكس وفريقه فرصة ليتشدّد في موقفه حيث رفض الشرط السّابق الذي قبل به (التفاوض مع العلماء) فكانت اوّل ضربة يسدّدها كوكس لمركز العلماء المجتهدين. فقد ذكرت المس بيل في مخطوط لها بين اوراقها الخاصّة: "...بانّ السير بيرسي كوكس ضرب اوّل ضربة قاضية على سلطة اهل الحلّ والعقد تلك السّلطة التي يتمتع بها العلماء والتي تعتبر العقبة الكاداء الاولى امامنا !...".

اجراءات اخرى لبيرسي كوكس

اتخذ السير بيرسي كوكس خطوة اخرى بان وجّه مزيدا من القوّات والطائرات الحربيّة الى المناطق الثائرة وقصفها بوحشيّة. وفي نفس الوقت اخذ يبذل جهودا كبيرة لنزع السّلاح والذخيرة من ابناء القبائل.فقد كان يفرض على كلّ زعيم قبيلة تدخل اراضيه تحت سيطرة القوّات البريطانيّة غرامات ماليّة وعينيّة وهي تقديم قطع من السّلاح والذخيرة. فكان عدد ما جمع من القبائل الخاضعة حتى السّادس والعشرين من تموز/يوليو 1921 مقدار64435 بندقيّة وثلاثة ملايين ومائة وخمس وثمانين طلقة. وعلى الرّغم من استحالة نزع السّلاح من ابناء العشائر - وخاصّة في مناطق الاهوار والفرات الاوسط - الا انّ الانجليز ممّا لا شك فيه قد نجحوا بهذه العقوبات في اضعاف تسليح العشائر، سواء بضربات قوّاتهم العسكريّة، او بتخلّي السكان الحضر من (صفوة المدن) عن نصرتهم ماديّا او معنويّا. ولا ادري كم من زعماء الحركة الوطنية العراقيّة من (الافنديّة) يعلم ان انكسار العشائر عسكريّا انذاك كانت البداية الحقيقيّة للهيمنة البريطانيّة على مقدراتهم وعلى مقدّرات العراق؟.

فعلى صعيد المدن العراقيّة الرّئيسيّة وخاصّة بغداد والبصرة والموصل، كان بيرسي كوكس ومعاونوه ومستشاروه من الانجليز والعرب يرون ضرورة اشغال الرأي العام العراقي وخاصّة الصّفوة العراقيّة منهم بامر في غاية الاهميّة الا وهو اقامة الدولة العربيّة في العراق. اذ انّ الاسراع في اقامتها يعني الاسراع في عقد المعاهدة الاولى التي ستنظم العلاقات السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة بين الطرفين وتثبيتها رسميّا ودوليّا.وعلى الرّغم من انّ المنطق والعلم يؤكدان انّ ايّ بناء يبدا من ارساء القواعد والاسس الرّصينة وينتهي بقمّة البناء وراسه، نجد انّ بريطانيا اصرّت ان تبدا من القمّة نزولا الى الاسس في بناء الدّولة العراقيّة، وكان المندوب السّامي بيرسي كوكس يمثل القمّة في السياسة الاستعماريّة لتطبيق هكذا مشروع. ولهذا نجده يبدا بتشكيل حكومة (عراقيّة) ثم تنصيب الملك فالمعاهدة فعقد امتيازات التنقيب عن النفط ثم تشكيل الجيش العراقي واخر المطاف انشاء المؤسسات الدستوريّة الديمقراطيّة والانتخابات لمجلس تأسيسي وبرلمان وبالشكل الذي خططوه هم لضمان مصالحهم.

دور الصّفوة في اختيار ملك للعراق

لقد تميّزت مواقف غالبيّة الصّفوة في بداية تشكيل الدولة العراقيّة الحديثة، انها كانت تعي متطلبات الواقع الذي تعيشه وتتكيّف ضمن حدوده. لذلك نراها قد بدات مقاومة للاحتلال وقاتلت الى جانب الاتراك خلال سنوات الحرب العالميّة الاولى (1918 ـ 1914). ثم تحوّلت بعد ان وقع الاحتلال الى متعاونة مع الادارة العسكريّة البريطانيّة المباشرة (1919 – 1918) منتظرة بصبر ان ينفذّ البريطانيّون وعودهم. وحينما تأكدت ان بريطانيا لم تكن صادقة في وعودها، وهي ماضية في تنفيذ اهدافها الاستعماريّة في العراق وعازمة على تجاهل مشاعر العراقيّن وعدم الاعتراف بحقوقهم الوطنيّة المشروعة، قرّرت رفع السّلاح بانتفاضات متعدّدة والتي توجتها بثورة العشرين الكبرى عام 1920.

وبعد ان استطاعت بريطانية الاجهاز على ثورة العشرين في جميع المناطق العراقيّة وتشتيت قياداتها ما بين قتل وسجن وتشريد في المنافي داخل العراق وخارجه، فإنّنا نستطيع القول انّها نجحت باتباع اسلوب استعماري كريه ان تتبني منهجا طائفيّا في العراق ومتزامنا معه اتجاها عنصريّا كانتقام من ثورة العشرين وكحلّ استباقي يحول دون تفجير ثورة جماهيريّة (عراقيّة) من هذا الوزن والاتساع في المستقبل، وكان على راس معدّي هذا المنهج ومنفذه بقدرة واقتدار كبيرين هو المندوب السّامي السير بيرسي كوكس وطاقمه الاداري الذي كانت على راسه المس جيرترود بيل التي يعرفها العراقيّون بـ (الخاتون) كما اشرنا.

لقد ادرك البريطانيّون انّ اهمّ الدروس التي تعلّموها من ثورات العراق انّ من الصّعب عليهم حكم العراق بشكل مباشر كبقيّة مستعمراتها التي كانت تغطي معظم قارّات العالم انذاك. فهي قد تستطيع فرض هيمنتها على العراق لفترة قصيرة او طويلة، الا انّ ذلك يتطلب منها بذل أموال طائلة من خزينتها، وارواح بريطانيّة كثيرة. ولذلك اقتنعت ورضيت بفكرة تنصيب احد انجال الشريف حسين بن علي (امير مكة) ملكا على العراق كحلّ عملي وواقعي يناسب جميع الاطراف المعنيّة. فاستقرّ الرّاي على اختيار الامير فيصل بن الحسين بن علي الهاشميّ لما اشتهر به من مؤهلات سياسيّة فريدة وموقع محترم في نفوس العراقيّن والعرب وكبار السّاسة في العالم وكذلك فهمه للقبائل، وقبول العشائر العراقيّة به (لا سيّما الشيعيّة) بسبب نسبه الشريف لآل البيت عليهم السّلام. كما انّ بريطانيا سبق لها وان تعاونت مع فيصل سياسيّا وعسكريّا اثناء الثورة العربيّة التي ساهمت بشكل فعّال في انتصار الحلفاء على الدولة العثمانيّة في الحجاز وبلاد الشام، واعجبت باسلوبه الرزين وبكفاءته واعتبرته صديقا نبيلا لها ويمكنها ان تتعاون معه. فلا غرابه ان يعتبره بعض الباحثين "الابن المفضل للانكليز" ، (D.Pool،The Politics..in Iraq،pp.88،theisis). لانّ الإنكليز عرفوا فضائل فيصل وصدقه ومروءته وواقعيّته في التعامل مع ابناء جلدته وحتى مع اعدائه. وفي هذا السّياق نستطيع القول ان الإنكليز قد عرفوا فيصل واستفادوا من خصاله المتميّزة اكثر

من العرب لا سيّما ابناء العراق.

ومنذ ان احتلّ الفرنسيّون دمشق وألغوا حكومتها الوطنيّة واخرجوا منها مليكها الشرّعي فيصل بن الحسين الهاشمي في تموز/يوليو1920، اظهر البريطانيّون رغبتهم بتنصيب فيصل ملكا على العراق. وبعد ان ضمنوا عدم اعتراض فرنسا على ذلك وبعد تذليل عقبات اخرى قرّرت الدّوائر البريطانيّة وبشكل نهائي في الاسبوع الاوّل من شهر كانون الثاني/يناير1921 المضيّ في تنفيذ عمليّتها هذه. وقد حرص الإنكليز كلّ الحرص على جعل عمليّة تنصيب فيصل ملكا على العراق وكانها رغبة عراقيّة صرفة وليست بريطانيّة. وقد كان لبريطانية عذرها المقبول في ذلك حيث ارادت عدم استفزاز الشخصيّات الطامعة بعرش العراق انداك، وهم من اخلص اصدقائها، كي لا يسبّبوا مضايقات او يثيروا لها مشاكل هم في غنى عنها. كما وضعت بريطانيا في حساباتها اهميّة المحافظة على سمعتها امام الراي العام الداخلي والخارجي كبلد ديمقراطي يستجيب لرغبات الشعوب التي تطمح الى الاستقلال، كما ارادت بريطانيا بذلك ان تعطي لفيصل صورة الملك القويّ والوطني المختار من قبل الشعب العراقي وليس واجهة لحكم بريطاني كما يدّعي خصوم الاسرة الهاشميّة وحسّادها قديما وحديثا.

وعلى الرّغم من وجود بعض الاصوات العراقيّة التي كان يدعمها جون فيلبي والتي دعت لاقامة جمهوريّة عراقيّة، الا انّ بريطانيا - كدولة منتدبة - مضت قدما في تأييدها لانشاء مملكة عراقيّة تحت عرش فيصل بن الحسين الهاشمي. كما انّ النّظام الجمهوري لم يكن مألوفا انداك او حتى غير مرغوب فيه لدى مجتمعات الشرق حتى انها قد قبلتها على مضض فيما بعد كواقع مفروض بالقوّة والارهاب عقب الانقلابات العسكريّة التي صنعت غالبيّتها العظمى دوائر المخابرات الامريكيّة والبريطانيّة وفرضت اكثر جمهوريّات الشرق على سكانه.

المتنافسون على عرش العراق

لقد اتيحت فرصة المنافسة (التي كانت مفتوحة) لعدّة شخصيّات من داخل الصّفوة العراقيّة ومن خارجها للحصول على عرش العراق وهم:

المرشّحون من الدّاخل:

1 ـ عبد الرّحمن النقيب، عميد اسرة آل الكيلاني (نقيب بغداد)

2 ـ السيّد طالب رجب النقيب (من كبار اعيان البصرة)

3 ـ عبد الهادي العمري (من اعيان الموصل)

المرشّحون من خارج العراق:

4 ـ الشيخ خزعل الكعبي (امير المحمّرة من عربستان/ الاحواز)
5 ـ عبد العزيز بن عبد الرّحمن ال سعود (امير نجد)
6 ـ الامير فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي (اشراف مكة)
7 ـ الامير عبدالله بن الحسين بن علي الهاشمي (اشراف مكة)
8 ـ الامير برهان الدين بن السلطان العثماني (تركيـــا)
9 ـ الشريف علي حيدر (اشراف الحجاز)

وعلى الرّغم من انّ جميع هؤلاء المرشحين التسعة الخارجييّن كانوا من ذوي الولاء لبريطانيا وممّن قدموا لها خدمات جليّ ـ على مستويات مختلفة ـ قبل وخلال الحرب العالميّة الاولى وبعدها الا انّ اقوى المرشّحين الذين تنافسوا فعلا ودخلوا صراعا ت كمراكز قوى مؤيّدة من قبل فئات عراقيّة وانجليزيّة هم:

1 ـ الامير عبد الله بن الشريف حسين بن علي.
2 ـ الامير فيصل بن الشريف حسين بن علي.
3 ـ السيّد طالب بن السيّد رجب النقيب (من اعيان البصرة)

ومن بين هؤلاء الثلاثة ايّدت بريطانيا بكل قدراتها ترشيح الامير فيصل، لاعتقادها انّ الصّفات التي تتوفرّ في شخصيّة فيصل لا تجتمع في ايّ من المرشّحين الاخرين. لذا فانّ الادارة البريطانيّة لم تخش عليه بل تعمّدت وجود منافسين له ليفوز من موقع قوّة واقتدار.

انّ دخول فيصل حلبة التنافس على العرش العراقي مع وجود منافسين اخرين له سوف يقوّي موقعه اكثر وسيكون لفوزه متانة وشرعيّة اقوى ممّا لو تقدّم الى العرش لوحده. ولم يكن الدعم البريطاني له السّبب الوحيد الذي جعله على ثقة بالفوز. بل يمكن اضافة بعد المسافة بينه وبين ايّ منافس له قد يظهر على السّاحة.

انّ مؤهلات فيصل الشخصيّة وتأثيره السّاحر على كلّ من يتحدّث او يعمل معه من العرب او الاجانب، وتاريخ شجاعته كفارس مقاتل في ساحات القتال الفعليّة. وشخصيته النبيلة الصّادقة في ميادين السّياسة العربيّة والأوروبيّة قد رسمت له صورة فريدة في قلوب زعماء العرب والاجانب قبل ان تأسر قلوب العامّة من الناس، حتى وصفته صحف باريس وصحف أوروبيّة وامريكيّة حين ظهر بلباسه العربي البسيط والجميل اثناء عرض القضيّة العربيّة في جلسات مؤتمر الصلح في باريس 1919 (بانه في ملامحه وصوته كالمسيح). ولا اظنّ انّ اصحاب القرار السّياسي من الدهاة البريطانييّن تخفى عليهم لياقة شخصيّة تاريخيّة للدّور المهم في العراق. كما لا يخفى عليهم بالتأكيد ما تقتضيه ضرورات عمليّة انجاح تنصيب فيصل من فنون المناورات والمبادرات. وللاسباب المتقدّمة لم تمانع الادارة البريطانيّة ولا حكومة عبد الرّحمن النقيب ان يتقدم ايّ مرشح يجد في نفسه وفي شخصيّته

القدرة والكفاءة على منافسة فيصل.

انّ اهم الصّفات التي اجتمعت في شخص فيصل ولا يمكن ان تجتمع في غيره من المعاصرين له والتي أقنعت البريطانييّن انذاك هي:

اولا: انّ التجربة المرّة التي عاشها فيصل مع الفرنسييّن، وخسارته عرش سورية قد اعطته درسا قاسيا وستجعل منه ملكا مرنا وواقعيّا مع ادارة الانتداب في العراق اذا ما اراد ان يحتفظ بعرشه. وسوف تؤكد هذه الفرضيّة الاسلوب الذي اتبعته انجلترا فيما بعد بتهديدها فيصل بتنحيته عن عرش العراق في مناسبات متعددة حتى سنة وفاته.

ثانيا: انّ في نسب فيصل ما يرضي مشاعر العراقييّن، لا سيّما العرب الشيعة باعتباره من سلالة الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وفاطمة الزهراء عليهما السّلام، مثلما انّ مذهب اسرته السّني يرضي الطائفة السّنية في العراق. وضمن هذا السّياق كان فيصلا كثيرا ما يقول بلغته السّياسيّة المطلوبة للشيعة حينما يختلي بهم انّه ينتسب الى امّه (فاطمة الزهراء) وليس الى زوجة ابيه (ويقصد ام المؤمنين عائشة). وما ان يختلي بقيادة سنّية حتى يظهر تفاخره بامجاد (بني العباس) ابناء عمومته العباس بن عبد المطلب.

ثالثا: كان فيصلا صديقا وحليفا صادقا للانجليز، فقد حارب كحليف نبيل الى جانبهم اثناء الثورة العربيّة ضد الترك.وبقي مؤمنا بان ايّ بناء وتقدّم للعراق لايتم الا بمعونة دولة عظمى كبريطانيا. وبنظرته الواقعيّة هذه لم يعلن، في تلك المرحلة صراحة، معارضته لاتفاقيّة سايكس ـ بيكو، بل اراد مجابهتها بالحكمة وبالسّياسة وتقديم المهم على الاهم كما سنرى في هذا البحث.

رابعا: لم يكن خافيا على ذكاء فيصل وبقدر اطلاعه الواسع على السيّاسة الاوروبيّة خطورة المشروع الصّهيوني و "وعد بلفور" المطروح انذاك بقوّة وفي احرج ظرف للامّة العربيّة والاسلاميّة وتخلفها على كافة الاصعدة السّياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والثقافيّة والنفسيّة.

كما لم يكن خافيا عليه دور رجال الاستخبارات والجواسيس من البريطانييّن والعرب الذين عرضوا عليه رغبة الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان لمقابلته، فلم يرفض بل قابله في العقبة واقترح عليه فيصل حلا لم تجرا اكبر دولة عربيّة ان تطرحه حتى اليوم ولديّ قناعة انّ الصّهاينة راوا في دهاء فيصل وصداقاته الخارجيّة ومرونته خطرا على مستقبل مشروعهم في فلسطين، بينما هم كانوا يدفعون بسكان المنطقة الى التطرّف والى عداء عميق وصراع مسلح غير متكافيء ولو بحدّه الادنى مع الدّول الكبرى، ولهذا الموضوع حديثه الخاص.

خامسا: لم تقدّم بريطانيا دعمها لفيصل الا بعد ان قبل الاخير بنصوص الانتداب البريطاني على العراق اوّلا، وان لايقوم بايّ عمل عدائي ضدّ المستعمرين الفرنسيّين في سورية ثانيا (لقد اعطى فيصل عهده بالالتزام بهذه الشروط للميجر كورنواليس ممثل رئيس

الوزراء البريطاني اللورد كيرزن في المباحثات التي تمت بين الطرفين في فندق هايدبارك في لندن ليلة 7 كانون الثاني/يناير1921 والتي استغرقت من الواحدة حتى الثالثة صباحا

Col.K.Cornwallis: report of an interview with the Emir Faisal،) 7 January 1921.E553/100/93:F.O371/6349.Peter.Sluglett..ibid:pp46-.(47

لقد كانت المنافسات بين مرشّحي الصّفوة العراقيّة لا تعدوا كونها ضربا من المناورات ومتطلبات الإخراج للتمويه السّياسي جرى ترتيبها من قبل اعلى المستويات بين لندن وبغداد وحكومة الهند. فلو انّ الصّفوة العراقيّة ـ لا سيّما قادة المناطق الثائرة ـ قد سبق لها وان اتفقت على ايّ مشروع

(وطني عراقي) يحدّد مستقبل العراق قبل تصفية ثورة العشرين من قبل الانجليز خلال ستة اشهر(وهو زمن قياسي)، لاختلف الامر كثيرا ولا صبح العراقيّون و(مرشّحهم حتى وان كان فيصلا) في موقف تفاوضيّ اقوى واكثر حصانة ولتهيّات لهم (ولمرشّحهم) مساحة واسعة للمنارورة مع المحتلين البريطانييّن لوضع اسس مستقبلهم. ولكنّ قيادات الصّفوة العراقيّة كانت ـ ولازالت حتى اليوم ـ تعاني من اخطر الامراض السّياسيّة وهي الفرديّة في اتخاذ القرارات المصيريّة والانغلاق على الذات والتحكّم بما يجتمع لديهم من انصار ومؤيّدين (مهما بلغت درجة مؤهلاتهم من الضعف) واستغلالهم حتى دون الاستماع لوجهات نظرهم. لذا وللاسباب المارّة الذكر اصبح الطريق مفتوحا وسهلا للامير فيصل الى عرش العراق وفق المنهج والطريقة التي رسمته بريطانيا.

الصّفوة العراقيّة بين التهميش والمصالحة

كانت عمليّة تشكيل الحكومة الانتقاليّة الاولى برئاسة عبد الرّحمن النقيب باجهزتها الاداريّة في مختلف انحاء العراق تسير بعناية فائقة بموجب المخطط البريطاني، وبشكل يمهّد الطريق لانجاز المراحل المرسومة لبناء المملكة الجديدة وعلى عرشها الامير فيصل بن الحسين.

لقد كان الى جانب كلّ وزير(بما فيه وزير الاوقاف) قد تمّ تعييّن مستشار انجليزي يكون رسميّا هو صاحب الكلمة العليا والسلطة الحقيقيّة في التعيين والتشريع والتخطيط والتنفيذ.

لقد رجّحت الادارة البريطانيّة كفة مجموعة من صفوة الطائفة السنّية من المسلمين العرب على بقيّة مكوّنات سكان العراق في جميع وظائف الدّولة ومرافقها. وقد استغلّ البريطانيّون العقد التاريخيّة واختلاف الانتماءات والولاءات لدى بعض قادة الصّفوة السّنيّة ايما استغلال. ويكفي ان نتمعّن بقول اوّل رئيس وزراء للحكومة المؤقتة السيّد عبد الرّحمن

النقيب/ الكيلاني (الذي سبق له وخدم بنفس الدرجة من الحماس الحكومة العثمانيّة) لم يخف فيه مشاعره وهو يُطمئن المس بيل حين سالته عن موقفه من (اعداء البريطانيّين) اذ قال لها: "...خاتون، انني اكره ثلاثة اكثر مما اكره الشيطان نفسه؛ اليهودي والشيّعي والفرنسي، وانّ الشّيعة دائما عقبة كبيرة في اقامة امارة العراق.".

ومما يؤكد النهج الطائفي الجديد كوسيلة للاستئثار بالسلطة من قبل مجموعة بيرسي كوكس هو انّ اوّل تشكيلة وزاريّة للحكومة المؤقتة جاءت خالية من ايّ وزير شيعي، ومن ثمّ عدّلها النقيب باقتراح خبيث ومغرض من المندوب السّامي كوكس حيث ادخل شيعيّا واحدا من اصول ايرانيّة وهو السيّد محمّد مهدي الطباطبائي وزيرا للمعارف. ومنذ ذلك الوقت استمرّ هذا (التقليد الانجليزي) بحرمان العرب الشيعة من المشاركة الفعّالة في السلطة وتهميشهم وخاصّة من المناصب السيّاديّة والحسّاسة في الدولة الجديدة لفترة طويلة. فقد تمّ عن قصد تعيين جميع المدراء الاداريّين في مراكز المتصرّفيات – المحافظات - واطرافها وكذلك الحكام (القضاة) بما فيها المناطق الشيعيّة من ابناء الطائفة السّنية منذ ايّام الوزارة النقيبيّة الاولى المؤقتة وحتّى انتهاء الحرب العالميّة الثانية (سنة1945) حينما اخذ الوصي على العرش (الامير عبدالاله) يتبّع لاوّل مرّة سياسة تقريب الشيعة ومنحهم مناصب وزاريّة سياديّة - بما فيها رئاسة الوزارة - واداريّة وعسكريّة بشكل ملحوظ بسبب تجربته المرّة وما لاقاه من حركة رشيد عالي الكيلاني في مايس1941 التي شاء ان يكون جميع من قام بها ونفذها قيادات مدنيّة وعسكريّة من ابناء السّنة.

لقد اراد المندوب السّامي ان يهيّء الجوّ السياسي الهاديء للحكومة المؤقتة الانتقاليّة ليتسنّى لها كسب الراي العام العراقي ومن ثمّ المضيّ في تنفيذ عمليّة تنصيب الامير فيصل الاوّل على عرش العراق. فقد سبق لحكومة الاحتلال ان قامت بنفي مجموعة من الوطنيّين (من السنة والشيعة) الى الهند والى جزيرة هنجام التي تقع في مدخل الخليج العربي في اواخر عام 1919 وصيف 1920 كما اشرنا سابقا.

ومن اجل تهدئة بقايا المناطق الثائرة التي كانت لاتزال تقاتل، اعلنت وزارة النقيب المؤقتة باقتراح من المندوب السّامي بيرسي كوكس في 28 كانون الاوّل/ديسمبر 1920 بيانا ذكرت فيه انها قرّرت ارجاع جميع المنفيّين السيّاسيّين الى وطنهم على ان يوقعوا على تعهّدات بعدم التدخل بالسّياسة، وان يعلنوا تاييدهم لسياسة الحكومة الانتقاليّة القائمة، كما اعطى وزير الدّاخليّة الذي وقعّ البيان وعودا للشعب العراقي بتحقيق الاستقلال الوطني والرّفاه العام.

الصّفوة العراقيّة ومؤتمر القاهرة

اعلنت بريطانيا رسميّا دعمها لترشيح الامير فيصل لعرش العراق اثناء انعقاد مؤتمر القاهرة، الذي نظمّه قسم الشرق الاوسط في وزارة المستعمرات البريطانيّة خلال الفترة

الواقعة بين الثاني من اذار/مارس وحتى الثاني عشر منه لعام 1921 في القاهرة برئاسة ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني الذي اكدّ على انّ اهمّ اهداف المؤتمر هو تقوية السّيطرة البريطانيّة على العراق باقلّ كلفة. وقد حضره وفدٌ عن العراق يتكوّن من كل من: السير بيرسي كوكس والمس بيل وجعفر باشا العسكري وزير الدفاع والجنرال هالدين وساسون حسقيل وزير الماليّة وثلاثة مستشارين انجليز، ولم يدع للحضور ايّ احد من الشيعة او الكرد.

F.O371/6343/ The proceedings of Cairo Conference.
(Sluglett،Ibid pp،64)

لقد عززّت قرارات مؤتمر القاهرة اتفاق فيصل - كورنواليس في لندن والذي اشرنا اليه سابقا. كما اكدّت قرارات المؤتمر على ضرورة انشاء قوّات مسلحة عراقيّة لتقليل مصروفات الدفاع التي كانت تثقل كاهل دافع الضريبة البريطاني، وكذلك على ضرورة تقوية الرّوابط بين المملكة العراقية الجديدة وبريطانيا، كما اكدت على انّ المناطق الكرديّة ستبقى من ضمن حدود المملكة الجديدة. كما جاء ذلك في جواب للسيرا. وليامسون عن وزارة الدفاع لسؤال طرح في مجلس العموم البريطاني بتاريخ 17 فبراير1921 حول تكاليف القوات البريطانيّة في العراق (F.O،371/6343/ibid).

انّ اهمّ ما حققّه ونستون تشرشل في هذا المؤتمر هو بقاء القوّة الجوّية البريطانيّة في العراق تحت طائلة الدفاع عن الدولة الجديدة. كما وضع المؤتمر الخطوط العامّة لمعاهدة تحالف عراقيّة - بريطانيّة ضمنت فيها بريطانيا الهيمنة التامّة على سياسة العراق الداخليّة والخارجيّة والعسكريّة والماليّة. كما قدّم السير بيرسي كوكس وبالتفاهم مع وزير الدفاع العراقي جعفر باشا العسكري ومع ساسون حسقيل وزير الماليّة وايملر هالدين اقتراحا بضرورة مشاركة المملكة العراقيّة الجديدة بالاعباء الماليّة التي تصرفها بريطانيا بهذا الخصوص. وهكذا رجع وزير المستعمرات تشرشل ليزف البشرى لمجلس العموم البريطاني باخبار مؤتمر القاهرة وخاصّة مسالة تخفيف الاعباء الماليّة عن دافع الضريبة البريطاني (بلغ مقدار التخفيف من 35 مليون باوند سنويا، وهو مبلغ جسيم جدا انذاك، الى مليونين و300 الف باوند بعد ذلك (خطاب تشرشل في مجلس العموم ونقاش حول وضع الجيش البريطاني في العراق (F.O.371/6349l/e.2219/100/93).

كما انّ اهمّ ما حققه العراقيّون من مؤتمر القاهرة هو استبدال نظام الانتداب بمعاهدة دوليّة وولادة مملكة عراقيّة جديدة بحدودها الدّوليّة المعروفة انذاك، وعلى راسها ملك هاشميّ، هو من اشرف البيوتات العربيّة والاسلاميّة واكثرها حكمة ونزاهة واصالة. ولولا جهود الصّفوة العراقيّة في تلك المرحلة، وتضحياتها بكل غال ونفيس لما استجابت بريطانيا لها بتحقيق المطلب الاكبر لثورة العشرين الكبرى (تأسيس مملكة عراقيّة بحدودها المعلومة ويرأسها احد انجال الشريف الحسين بن علي امير مكة).

الامير عبد الله بن الحسين

لقد اشيع اثناء انعقاد مؤتمر القاهرة بانّ الامير عبد الله بن الحسين بن علي قد جمع قوّة مقاتلة من البدو قادما من الحجاز ومن بينهم بعض العسكريّين (كانوا ثلاثة ضباط عراقيّين فقط وهم: حامد الوادي ورؤوف الشهواني وسعيد الكلاك) كما التحق به بعض زعماء سوريا الذين هربوا من دمشق بعد احتلال الفرنسيّين لها. كما اشيع ايضا بانّ الامير عبد الله عازم على تحرير سوريا من الفرنسييّن الذين أنزلوا اخاه فيصلا عن عرشه واجبروه على مغادرتها. كما وردت انباء الى الامير عبدالله حول عزم الحكومة البريطانيّة تنصيب اخاه فيصلا على عرش العراق ممّا جعله في اشدّ حالات الغضب والهياج لانه يعتبر نفسه صاحب الحق الشرّعي بعرش العراق منذ ان نادت به مجموعة من العراقيّين اثناء انعقاد المؤتمر السّوري الاوّل عام 1920، ومنذ ان تلقى رسائل التأييد من بعض رجالات العراق من الداخل تؤيّد ترشيحه لعرش العراق في ذلك الوقت. وازاء تلك التطوّرات.

غادر وزير المستعمرات، ونستون تشرشل، القاهرة واجتمع بالامير عبدالله في القد س في 29 اذار/مارس1921 وقد حضر الاجتماع كل من ت. لورنس وعوني عبد الهادي و(الصهيوني) هربرت صاموئيل المندوب السامي البريطاني على فلسطين. وخاطب تشرشل الامير عبد الله بشدّة وذكرّه بانّ ايّ اعتداء على فرنسا هو اعتداء على بريطانيا لانّهم حلفاء. ثم اخذ خطابه يزداد حدّة وخشونة، وبكلّ غرور خاطب الامير عبد الله بن الحسين بقوله:

".. انّ فيصل قد ابحر من لندن وهو الان في طريقه الى القاهرة وسيذهب بعد زيارته لوالده الى بغداد حيث ينصّب ملكا على العراق. واني اعرف انّ فيصلا سيلاقي مشاغبين يعملون ضدّ انتخابه للعرش ولكنّ فيصل سيجلس على عرش العراق، وانّ هذين الكتفين ـ واشار بيديه على كتفيه اليمنى واليسرى ـ سيتحدّان هؤلاء المشاغبين..".(د. علي الوردي/ لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث/الجزء السادس/بغداد/1976/ص49 – 53)

لقد كان لحدّة ونستون تشرشل مع الامير عبد الله اثرها، حيث اخذ الامير يعاتب تشرشل ويذكرّه بمساعداته وخدماته في عقد الحلف بين بريطانيا والعرب، وانه كيف كان الوسيط بين لورنس وبين اخيه فيصل. وبعد ان استمرّ الامير في عتا ب طويل انهى كلامه لتشرشل: " واني معاذ الله ان اعمل ما لا يتفق مع سياسة الحكومة البريطانيّة.. " وهنا لم يكن من تشرشل الا ان لطّف من حدته وشرح للامير كيف انّ الظروف الحاليّة تتطلّب اعتلاء فيصل عرش العراق. ووعده باحتمال اعتلائه (عبد الله) عرش سورية. ولم ينس وزير المستعمرات البريطاني في نهاية الاجتماع ان يهدّد الامير بخطر جاهز اذا ما خالف السّياسة البريطانيّة بقوله:

"... انكم (ايّها الاشراف) ان لم تفعلوا هذا فسوف تضيّعون كلّ شيء وانّ في امكان ابن

سعود (بالوهابيين) ان يصلوا الى مكة في ثلاثة ايّام. وانّ انجلترا عملت ما تستطيع..." لذا لم يكن امام الامير عبدالله الا الامتثال وان يقبل بالبقاء في عمّان والاكتفاء بهذه (الامارة) التي سمّيت انذاك بامارة شرق نهرالاردن المجزوءة من الشام، ومنتظرا هربرت صموئيل المندوب السّامي في فلسطين للقدوم الى عمّان لوضع الاسس لتنظيم الادارة المدنيّة ومتطلبات الامارة الصغيرة الجديدة. (د. الوردي/المصدر ذاته)

السّيد طالب النقيب

السيّد طالب النقيب هو الابن الاكبر للسيّد رجب عميد اسرة النقيب في البصرة ومن كبار اعيانها، وهي اسرة تنتسب الى السيّد احمد الرّفاعي صاحب الطريقة الصّوفيّة الشهيرة المرتبطة باسمه. عرف السيّد طالب بقوّة شخصيّته وبسرعة بطشه باعدائه، كما عرف بغرابة اطواره سواء في العهد العثماني ام في عهد الاحتلال البريطاني. لقد كان طموحا للسلطة بشكل لاحدّ له. وهو لم يتوان ان يقدّم خدماته وولائه للدولة العثمانيّة ثمّ لم يلبث ان يعلن عصيانه عليها حينما واتته الفرصة في اواخر حكم العثمانييّن ويتامر على كبار مسؤوليها سواء بالاغتيال او بالبطش بانصارها من العرب والترك.

ترجع اتصالات السيّد طالب بالانجليز الى الفترة التي كان فيها متصرّفا على منطقة الاحساء والقطيف التابعة لولاية البصرة انذاك (حتى عام 1913). وفي تلك الاثناء توثقت علاقاته بالانجليز اكثر عن طريق اصدقائهم من ال الصّباح في الكويت وال خليفة في البحرين وكذلك امير المحمّرة الشيخ خزعل الكعبي. ففي سنة 1913 اي قبل الحرب العالميّة الاولى، اصطحب معه في سفرات عديدة ضباط المخابرات البريطانيّة وهم يرتدون الزيّ العربي ومنهم تي. اي. لورنس (العرب) واركبهم معه في زورق بخاري حيث قام هؤلاء برسم خرائط منطقة البصرة وملتقى نهري دجلة والفرات في القرنة قبل عام من نزول الجيش البريطاني في ميناء الفاو. وقد جاء في احدى الوثائق البريطانيّة اجتماع السيّد طالب النقيب بالقنصل الانجليزي في البصرة (في شباط/فبراير1913) عارضا خدماته لبريطانيا مقابل مساعدة انجلترا لحزبه (حزب الحريّة والاتلاف انذاك) وللحركة القوميّة العربيّة لاقامة دولة عربيّة تحت الحماية البريطانيّة. وقد مرّ بنا الحديث عن دوره في خدمة الاحتلال البريطاني وانّ السيّد طالب كان وراء القاء القبض وسجن ونفي او اعدام المجاهدين المقاومين للاحتلال من بعض زعامات حزب حرس الاستقلال وفي مقدمتهم الوطني المجاهد الشهيد عبد المجيد كنّة.

وعند تشكيل الحكومة الانتقاليّة الاولى برئاسة عبد الرّحمن النقيب، عيّن بيرسي كوكس السيّد طالب النقيب وزيرا للداخليّة. وبحكم موقعه الرّسمي والاجتماعي والنسب العائلي، صار بشكل جدّي اقوى المنافسين لفيصل. فقد اخذ السّيد طالب يجمع حوله المؤيّدين

والانصار ويصرف اموالا طائلة لتحقيق طموحه الشخصي للظفر بعرش العراق. وبمنافسته للامير فيصل يكون قد تجاوز الحدّ الذي سمح له الانجليز به. فعلى الرّغم من جميع الخدمات التي قدّمها السّيد طالب للانجليز، الا انهّم لم يثقوا به وكانو يخشونه بسبب طموحه الاعمى ولسرعة تقلبّ مزاجه وخشونة طباعه ولادمانه على الخمر. لقد كان نافعا للبريطانيين خلال فترة الاعداد لاحتلال العراق وحتى فترة تسلمه منصب وزارة الداخليّة نظرا لشدّته وخبرته في المجتمع العراقي، وقدرته على كشف ومراقبة الوطنييّن المعارضين وجراته على اعتقال ايّا كان منهم مهما كانت منزلته الاجتماعيّة والدينيّة. ولتلك الاسباب، فانّ الادارة البريطانيّة قد خصّصت له راتبا استثنائيّا مقداره ستة الاف روبيّة في الشهر وهو مبلغ يعادل ضعف راتب ايّ وزير اخر واقلّ من راتب رئيس الوزراء بالف روبيّة. ومع ما عرف به السيّد طالب النقيب من ذكاء وفطنه وشجاعة، الا ان طموحه اللا محدود نحو الموقع الاوّل وهو (عرش العراق) جعله يغامر بكلّ ما وصل اليه وحققه من انجازات لنفسه، بالدخول في منافسة الامير فيصل الاكثر شعبيّة والمدعوم من قبل بريطانيا. فجمع حوله انصارا بما كان يبذله من اموال، وقد سانده في نشاطاته ضابط المخابرات البريطاني جون فيلبي الذي كان هو الاخر يطمح ان يلعب دورا مع السيّد طالب النقيب كدور لورنس (العرب) مع فيصل. وبحكم كون السيّد طالب النقيب وزيرا للداخليّة، فقد استغلّ منصبه ايضا في تعييّن موظفين من انصاره. كما استغلّ منصبه ايضا في القضايا الامنيّة وفي الشؤون الداخليّة ليبدو امام بعض زعماء القبائل وكانه سيصل الى مرامه وانه يرغب ان يشاركوه المستقبل الباهر ومنهم كان امير ربيعة والشيخ سالم الخيّون، بالاضافة الى اعتقاد السيّد طالب بانه قد سبق له وان ضمن تأييد امراء المحمّرة والكويت وعبد العزيز بن عبد الرّحمن ال سعود (امير نجد انذاك). وربما كان هؤلاء الامراء على اتفاق مسبق مع صديقهم الحميم ايضا بيرسي كوكس لتشجيع السيّد طالب وزيادة طموحه ليندفع في تحدّيه اكثر بهدف الاطاحة به وازاحة خطورته نهائيّا عن طريق فيصل لا سيّما وانّ السيّد طالب النقيب معروف عنه قدرته على تد بير أخطر المؤامرات واكثرها جراة بما في ذلك تدبير الاغتيالات، فقد اشيع عنه في حينه انّه يعدّ تدبيرا لاغتيال الامير فيصل بن الحسين.

ان ما يعزّز هذا الاحتمال هو انه حينما عاد السير بيرسي كوكس بعد انتهاء مؤتمر القاهرة في 12 نيسان/ابريل1921 قامت ثلة من الجنود برئاسة الميجر بوفيل (وهو صديق شخصي للسيّد طالب) وباتفاق وبتدبير مسبق مع كوكس، باعتقال السّيد طالب بعد مغادرته لدعوة شاي عند زوجة بيرسي كوكس عصر يوم 15نيسان/ابريل1921 بكلّ هدوء وكان شيئا لم يكن ولم يتحرّك ايّ واحد من انصار السيّد طالب حيث سفرّ فورا من بغداد الى البصرة ومنها الى جزيرة سيلان في الهند، حيث بقي فيها ولم يسمح له بالعودة حتى الاوّل من ايّار/مايو1925.

انّ قصّة ماساة السيّد طالب النقيب مع الانجليز (وعشرات من مثيلاتها) تعكس لنا

التفاوت الكبير في طريقة التفكير والسلوك العملي لدى الطرفين: الصّفوة العراقيّة بمثاليّاتها (كبقيّة العرب)، والاوروبييّن ولا سيّما الانجليز بشكل خاص بواقعيّتهم في نظرتهم للامور بما يخدم مصالحهم. فقد اثبتت الاحداث دائما انّ هنالك فهما مختلفا بشكل جذري لدى كلّ طرف لقيم الصداقات وللولاءات وللحقوق وللواجبا ت ومتطلبات العمل السّياسي.

بعد التخلص من السيّد طالب النقيب بالطريقة (الإنكليزيّة) التي اشرنا اليها،لم يبق شخص يمكن اعتباره منافسا جدّيا او عائقا يقف امام فيصل ليكون ملكا على العراق، فقد تراجع بقيّة المرشحين لعرش العراق وخلا الجوّ للموظفين البريطانييّن ولانصار فيصل (الشريفييّون) لكي يوحّدوا جهودهم لاستقبال الامير فيصل القادم من الحجاز محاطا بمجموعة من الصّفوة العراقيّة التي كانت قد ساهمت بقيادة ثورة العشرين الكبرى.

الصّفوة والتغييرات الاقتصاديّة

انّ التغيير الاقتصادي الكبير الذي حدث بعد زوال الحكم العثماني ـ الذي دام لاكثر من اربعة قرون ـ وتحرير الاقتصاد العراقي من السّيطرة العثمانيّة وفسادها الاداري والمالي المشهور قد فسح المجال (للصفوة الوطنيّة العراقيّة) ان تحتل مكانتها وتبرز في الاقتصاد الوطني والسّوق وكذلك لادارة شؤون العراق الاقتصاديّة والاستفادة منه مباشرة وليس بشكل ذيلي وهامشيّ كما كان سابقا في العهد العثماني.

فبدخول الجيوش البريطانيّة جنوب العراق ومنذ احتلالها لميناء الفاو عام 1914 ومن ثم البصرة وبعدها بغداد عام 1917 ثم استكمالها احتلال العراق بكامله عام 1918. ونتيجة لذلك ازداد الطلب على السّلع بشكل كبير وسريع نظرا للزيادة الكبيرة في الاستهلاك سواء من قبل جيش الاحتلال والادارة البريطانيّة او بسبب زيادة دخل العمالة العراقيّة، فقد ارتفعت الاسعار اضعافا مضاعفة مما عزّز القوّة الاقتصاديّة للصفوة العراقيّة على كافة المستويات ابتداءاً من البصرة اوّلا ثمّ في المدن الكبرى الاخرى لا سيّما بغداد.

وبانشاء المملكة العراقيّة وقيام الحكومة الوطنيّة عام 1921، شهد العراق ولاوّل مرّة تنظيم الحياة الاقتصاديّة والماليّة والعملة الوطنيّة، وولادة الدينار العراقي بدل العملة التركيّة(الليرة) والهندية (الروبيّة) بأيدي ابنائه في الدولة والمجتمع على اسس حديثة، مما اضاف قوّة جديدة واساسيّة للصّفوة التجاريّة العراقيّة.

وحينما شهد العالم كسادا اقتصاديا كبيرا في اعقاب الحرب العالميّة الاولى (1926-1929) لم يكن العراق مستثنى من ذلك. وحينما اصاب الدول الصناعيّة قلق مالي واقتصادي بسبب ظهور الانظمة المتطرّفة كالنازيّة في المانيا والفاشيّة في ايطاليا واسبانيا واليابان، ثمّ بيان اجواء الاستعدادات للحرب العالميّة الثانية (1939-1945)، فقد تاثر العراق بذلك ايضا وبشكل كبير لا سيّما انعكاسات تلك الاجواء القلقة بعد الحرب وبشكل سلبي على مجتمع

العراق داخليّا وما صاحبها من هجرة كبيرة العدد ليهود العراق (بلغ عدد الذين اسقطت عنهم الجنسيّة العراقيّة وهاجروا للمستوطنات الصهيونيّة في فلسطين اكثر من 123603 مهاجر ثمّ استمرّت الهجرة حتى ما بعد عام1953). لقد خسر العراق بسبب ذلك واحدة من اهم شرائح المجتمع العراقي ذات التأثير المباشر اقتصاديّا واجتماعيا وثقافيّا. هذه الخسارة كانت كبيرة جدا على مجتمع صغير العدد لا يصل تعداد سكانه الاربعة ملايين نسمة انذاك حتّى وان جاءت نتيجة تلك الهجرة لصالح التجار واصحاب الحرف من المسلمين الشيعة الذين كانوا مهمّشين في العهد العثماني، فسدّوا الى حد ما الفراغ الذي تركته هجرة اليهود العراقيين في السّوق العراقي.

الصّفوة وانتقال القرار المركزي السياسي

كان لانتقال السلطة والقرار السياسي من الادارة العثمانيّة الى الادارة البريطانيّة اثرا كبيرا في تطور مواقف الصفوة العراقيّة وما صاحب ذلك من تغيير في ولاءاتها. فالادارة البريطانيّة حاولت جادة منذ ان وطأت جيوشها الفاو والبصرة ثم استكمالها لبقيّة الاراضي العراقية ان تستميل مختلف القوميّات والاديان والمذاهب، وفي مقدمتهم الشّيعة، باعتبار انّهم كانوا مضطهدين طيلة الحكم العثماني السّابق، ولكونهم يشكّلون عدديا القسم الاكبر من الصفوة العراقية. فابتدأت بتكليفهم بمهمات الادارات المحلّية و لجان التعليم ثم رئاسات البلديات في المناطق المحتلة (بما في ذلك امانة العاصمة بغداد؛ حيث اختير عبد المجيد الشاوي لكونه عربيّا سنيّا امين عاصمة جانب الرصافة بينما اختير محمد حسن الجوهر امين عاصمة لجانب الكرخ باعتباره عربيّا شيعيّا). الا ان الادارة البريطانيّة مع ذلك فشلت مع الصّفوة الشيعة بل وجدت منهم، لا سيّما مع الزعامات والقيادات الدينيّة والعشائريّة، موقفا معاديا ومسلّحا عنيفا كانت ذروتها (ثورة العشرين الكبرى). كما بقيت معارضة باستمرار للوجود العسكري وللنفوذ البريطاني طيلة العهد الملكي، فكان ذلك احد الاسباب الرئيسية الذي اعاق تطوّر القسم الشيعي من بين الصفوة العراقية واثرّت بشكل مباشر في تهميشهم مرّة اخرى بعد زوال العهد العثماني وابعادهم عن السلطة من جديد. كما اثرّ فيما بعد في تنوّع اتجاهات الولاءات الجديدة للصفوة الشيعيّة وانقساماتها. فقد شكلت تلك العلاقة العدائيّة مع واقع النفوذ البريطاني طيلة القرن الماضي عقدة ذنب وندم لدى عدد كبير من افراد (الصفوة الشيعيّة) بدت نتائجها واضحة بشكل جليّ بالموقف الايجابي لهم من الاحتلال الامريكي للعراق والتعاون معه في بداية القرن الحالي (2003)، وبذلك نجد انّ الصّفوة العراقيّة (بكافة اطيافها، السنيّة والشيعيّة والكرديّة) تقع خلال المئة سنة الماضية بذات الخطا مرّتين وتجاه احتلالين اجنبيّن استعماريّين والخاسر الاكبر فيهما هو العراق وشعبه بكافة اطيافه ومكوّناته...

انّ الزيادة العدديّة للشيعة بالنسبة لسكان العراق وارتفاع نسبة الفقر والجهل والتخلّف

العام بينهم، جعلت غالبيّتهم بعد تشكيل المملكة العراقيّة هدفا سهلا لنشاطات الاحزاب والتنظيمات السريّة اليساريّة المتطرّفة. كما نجدهم يحتلون الموقع الاوّل ـ للطبقة ـ المتوسّطة والانتليجينسيا عموما ذات التأثير الاول في السّياسة العراقيّة والمجتمع طيلة العقود اللاحقة من السنين.

لقد ظلّت المناطق الشيعيّة خزينا بشريّا كبيرا وغنيّا لجميع الوسائل الفعّالة التي كانت تستخدمها القوى المعارضة ضدّ الحكومات المتعاقبة بهدف اسقاطها او تغييرها؛ وانه لمن الملاحظ جدا انها في نهاية كل حدث تكون (هذه الشريحة من الصفوة)هي الخاسر الاكبر دون ان تشعر بفداحة الاضرار التي لحقت بها وبوطنها وفي مقدّمتها بقاؤها خارج مسيرة التطوّر، وبعيدة عن حقّها الطبيعي في المساهمة في الحكم وفي رسم واتخاذ القرارات السياسية والاقتصاديّة للبلد؛ ولا بد لنا هنا من الاشارة الى ما نال هذا الجزء من الصّفوة من اضرار نتيجة الاحداث (الكبرى فقط) كتمرّد الفلاحين في سوق الشيوخ في الفرات الاوسط عام 1935، وانقلاب بكر صدقي عام 1936، ثم من جرّاء حركة مايس/ الكيلاني عام 1941، ثم انتفاضات وتظاهرات اعوام 1948 -1952 - 1954 - 1956 - ثم الانقلاب العسكري في 14تّموز لعام 1958 الذي اطاح بالنظام الملكي وبهيكله السياسي بكامله؛ نجد ان الخاسر الاكبر بشريّا وماديّا هو هذا الجزء من الصفوة العراقيّة لا سيّما ـ الطبقة المتوسطة منها ـ التي كثيرا ما كان يطلق على غالبيتها بالهدّامة والمشاغبة والمخّربة بسبب كونها حاضنة الحزب الشيوعي وحزب البعث السريّن وعموم اليسار في العراق؛ فقد كان للشيوعيين خلال تلك السنوات هيمنة واسعة جدا على الانتلجنسيا، و كذلك على العامة خاصة عموم العمّا ل والفلاحين من المجتمع العراقي بسبب كثرة الفقر والجهل والتخلف بينهم.

وبمرور السنين وتعاقب الاحداث أخذت الهوّة تتسع بين شقّي الصفوة العراقيّة ليصبحا على طرفي نقيض، كل ينافس ويتربّص بالاخر، وحينما بلغ التنافس ذروته بعد انهيار النظام الملكي على قيادة الدولة والمجتمع (1963-1958)، حُسم الامر اخيرا بالقوّة لصالح صفوة طموحة متآمرة جديدة (كجهة ثالثة) مزيجة التركيب، وتمتلك المال والسلاح والدعم الخارجي، وتتكوّن عناصرها من خليط عجيب، متناقض طبقيّا وثقافيّا ودينيّا ومهنيّا وهي متناحرة ولا تجمعها الا شهوة جامحة لاختطاف السّلطة بغنائمها. فكانت النتيجة ان سلكت طريق التامر والانقلابات المتعاقبة (خلال الفترة 1963 ـ 1968)، وقادته فئة من المغامرين وعشاق السلطة من مدنيين وعسكريين. (ولابد لنا من الاشارة هنا الى المحاولة الوحيدة للمرحوم الدكتور عبد الرحمن البزاز لاعادة العراق الى النهج الدستوري الديمقراطي ليطاح بمحاولته وليدفع حريّته وحياته ثمنا لتلك المحاولة النبيلة)، ومن ثم لتسرق سلطة العراق من جديد بانقلاب دموي (على نمط الغدر في القلاع المملوكيّة) تآمري عسكري/مدني لا سيّما خلال الاعوام1968 - 1979. ولنرى منذ ذلك الحين وبما أفرزته تلك الانقلابات، في السنوات الاخيرة من تآكل وتلاشي الصّفوة العراقية التاريخيّة الى حد يشبه الانتحار

الجماعي حينما تخلّت غالبيّتها العظمى عن مسؤوليّاتها في قيادة المجتمع والدولة، ودلسّت امام اكبر عمليّة تشويه ومسخ لتاريخ العراق؛ حينما تمّ اختزال ستة الاف سنة من تاريخ العراق ـ بامجاده ومسيرة شعبه العريق وما قدّمه للانسانيّة من منجزات حضاريّة في ماضيه وحاضره ـ لصالح مجموعة متخلفة،مغامرة، طموحة هي اقرب الى عصابة مافيا المخدّرات وسلوكها المغامر وعلى راسها فرد مغامر فقد الاستقرار العائلي والتعليمي والتوازن النفسي وهو(الرئيس السابق صدّام حسين وبطانته). (ولأجل الاطلاع على المزيد من التفاصيل الدقيقة، لابد لمحبّي التاريخ والباحثين عن حقيقة تلك المرحلة من قراءة ما كتبه عدد من الصّفوة العراقيّة المثقفة ومنهم: الاستاذ كنعان مكيّة بالإنكليزيّة (كتاب جمهوريّة الرعب/ الخوف)، والاستاذ رفعت الجادرجي (جدار بين ظلمتين)، وكتاب الاستاذ المحامي السّيد احمد الحبوبي (ليلة الهرير) وكذلك جميع مؤلفات الاستاذ المفكرّ حسن العلوي لا سيّما كتابيه القيّمين:

-1 دولة المنظمة السّريّة/ و2 - دولة الاستعارة القوميّة.

لقد كان العلوي بعثيّا منذ ان كان في العشرين من عمره، واصبح واحدا من اهم مجموعة اعلاميّي ومنظرّي الحزب في تلك المرحلة وأحد شهودها والناجين من محرقتها. ولابدّ لنا من القول بأنّ تقييمنا لكتابات العلوي عن تلك المرحلة بانها قد سببّت اعلاميّا وسياسيا اضرارا لنظام صدام حسين ولحزبه قد تزيد على اعلام جميع تنظيمات المعارضة خلال العقدين الاخيرين قبل سقوطه.

ولكن مع كل ما تقدّم من الاحداث الجسام التي واكبت التاريخ الحديث للصّفوة العراقيّة، وظلام سنوات التجارب المرّة وعظم التضحيات التي قدمتها عبر تاريخ العراق الحديث، وفي اطار سنن التاريخ، لابدّ وان تبرز فئات وطنيّة من الصّفوة العراقيّة الاصيلة من مختلف المناطق والمنابت والاصول الدينيّة والقوميّة والمذهبيّة مرّة اخرى لتتحمّل مسؤوليّاتها التاريخيّة من اجل تصحيح المسيرة واعادة العراق الى وضعه الطبيعي وموقعه الذي يليق به بين شعوب الأرض وهؤلاء، مثلما رفع اجدادهم عبر التاريخ، سيرفعون هم راية معركة العراق مع الجهل والتخلف ومن التحرير من جميع الوان الغزوات الداخليّة و الخارجيّة ولوضعه من جديد بالمكان الذي يليق به على خارطة شعوب العالم المتمدّن. وهذا الامر ليس من التمنيّات بل هو واقع سكان العراق وقدرهم، وعطاء ارضهم الولاّدة عبر التاريخ...

الصّفوة والمؤسّسات الدّستوريّة

انّ من اهم الاسس التي قامت عليها الدولة العراقيّة الحديثة منذ انشائها عام 1921 هي بناء المؤسسات الدستوريّة على النمط الاوروبي؛ كالدستور الدائم والاحزاب السياسّية والبرلمان بمجلسيه النواب والاعيان والصحافة والمنظمات والنقابات المهنيّة وغير المهنيّة

الى غير ذلك من مؤسسات وتنظيمات المجتمع المدني الاهليّة والرسميّة. وقد تولّت الصفوة العراقيّة من خيرة ابناء عوائل وبيوتات التجار وزعماء عشائر العراق انذاك مسؤوليّة انشائها من حرّ مالها، كما تولت الدفاع عن وجودها، ففي السّنوات الاولى للادارة البريطانيّة المباشرة للعراق شكلت صفوة وطنيّة عراقيّة هيئة:

(اطلق عليها لجنة الصّحافة الوطنيّة وسعت الى جمع رأسمال لاسناد الصّحف ماليّا لكي تحافظ على استقلاليّتها ! ووطنيّتها. فقد تبرّع السّيد الشيخ كاظم العوّادي بما يعادل خمسين جنيه ذهب،كما سعى محمد جعفر ابو التمّن الى تنظيم وفود ومضابط للاتصال بالوجهاء والتجار في بغداد للاشتراك في عضويّة لجنة الصّحافة الوطنيّة. (د. خالد التميمي/المصدر/ ص53)،

(C.O.730/123)(F.O.371،5076/E8864/13/44)

ولذلك وبسبب استقلاليّتها مارست الصحافة منذ بداية نشاتها المبكرة دورا رائدا في نشر التوعية الوطنيّة والثقافة الحديثة ومباديء الديمقراطيّة والتحرّر والاستقلال، ولذلك أخذت تنتقد الحكومة المؤقتة والادارة البريطانيّة بروح ايجابيّة وباسلوب موضوعي عادل، لانها كانت حرّة ومستقلة ماليّا. (N.A.I، New Delhi. ،File no. 27 /211.pp.11- 17)

لقد سدّت المؤسسّات الدستوريّة الجديدة ذلك الفراغ الذي سبّبه غياب انماط الادارة العثمانيّة، سياسيّا واداريّا واقتصاديّا. وعلى الرغم من وجود العديد من المثالب والنواقص التي اعترت مسيرتها والمسيرة الديمقراطيّة بشكل عام في العهد الملكي، باعتبارها تجربة جديدة، الا انها كانت بداية متقدمة ورائدة لافي العراق وحده بل في دول اسيا وافريقية كافة تقريبا انذاك.

فمنذ بداية القرن الماضي، تحمّس عدد من اعيان الصّفوة العراقيّة لانشاء الاحزاب والتنظيمات السياسية والمهنيّة كالنقابات والصّرف عليها من اموالهم الخاصّة، كما اشرت سابقا، والدفاع عن حقوقها وان كان بمفهوم يختلف عن المفهوم الذي كان سائدا لدى شعوب الغرب او السياسيّين الغربييّن لها كما اثبتتها مسيرة الاحزاب والوقائع والاحداث للمؤسسّات الدستوريّة طيلة القرن الماضي في العراق.

لقد ظلّ (الزعيم أو القائد المؤسس او العم..) لكل حزب منذ بداية تشكيله هو المهيمن الاوحد طيلة حياته، والاغلبيّة منهم يعتبر حزبه ضيعته وملكا صرفا وشركته الخاصّة له ولاولاده من بعده، لا احد يعرف عن حقيقة مصادر ماليّته ولا اوجه صرفها. وقد يورّث مؤسسّ الحزب زعامة الحزب وامتيازاته من بعده لولده الاكبر او للاقرب له حسبا ونسبا سواء كان الحزب، كمنظّمة سياسيّة، خارج السلطة او قابضا عليها. حتّى اصبح من الطبيعي جدا والشّائع بين عامّة الشعب العراقي ـ وحتى لدى بعض الباحثين والمؤرّخين العراقيين ـ ان يسمّى الحزب باسم رئيسه وكانه شركة او دكان بقالة (مثلا حزب ابو التمّن، ويقصد به

الحزب الوطني، او الحزب السّعيدي لنوري السّعيد، ويقصد به الاتحاد الدستوري، وحزب الجادرجي ويقصد به الحزب الوطني الديمقراطي او حزب صالح جبر ويقصد به حزب الامّة الاشتراكي وهكذا..؟) ولم تكن الاحزاب السرّية الليبراليّة (الثوريّة) مستثناة من ذلك حتى اليوم، بل تميّزت جميعها عن العلنيّة انّها تموّل من قبل اجهزة الاستخبارات والمؤسسّات الخارجيّة، العربيّة والاجنبيّة منذ انشائها، ((لقد كشفت وثائق جيكوسلوفاكية بالارقام والاسماء لاحزاب ولزعاماتها (عراقيّة) التي كانت تموّل من قبل الكي.جي. بي قبل سقوط الاتحاد السّوفييت/ ومن المخابرات لدول عربيّة ومن السي. اي. ايه الاميركيّة ايضا التي انكشفت بعد سقوط حكم البعث باحتلال العراق عام 2003)).

امّا الانتخابات الداخليّة لجميع الاحزاب العراقيّة فهي مسرحيّة معدّة سلفا واقرب الى المهزلة و النّكته، فاذا ما اجريت ـ احيانا كاجراء شكلي – فانّ اسماء المرشحين (المتفق عليهم) تكون قد اعدّت سلفا، حيث نرى ظاهرة الاصطفافات للمرشّحين للمواقع القيادية ترتّب على اسس عبادة الفرد والمحاور والولاءات للانتماءات المذهبيّة والمناطقيّة الجغرافيّة والاصول العرقيّة او الانتساب الى المدينة او القرية. وتتخذ على الاغلب واجهتين: الاولى حضاريّة – ديمقراطيّة – لتغليف الواقع المتخلف اللاديمقراطي للانتخابات، ومعظمها في الغالب تجري داخل الاحزاب العلنيّة الليبراليّة. اما الثانية فتتخذ السلوك الارهابي والتآمر وكيل التهم بالانحراف العقائدي والاخلاقي للغير مرغوب فيهم، وهي في الغالب باطلة وبدون دليل او برهان. وقد أصبحت مثل هذه الممارسات مألوفة بين القيادات والكوادر المتقدمة في الاحزاب السرّية قبل موعد الانتخابات الداخليّة من اجل السّيطرة على المواقع العليا للحزب او للتنظيم السّياسي.

وهكذا ومن هذا المنظور نجد النزعة المذهبيّة والعقليّة القبليّة والذهنيّة البدويّة هي المتغلّبة في تركيبة التنظيمات الحزبيّة العراقيّة ومؤثّرة في سلوكها السّياسي العام مهما كانت الايديولوجيّة المعلنة لذلك الحزب او التنظيم يمينيا او يساريّا، علمانيّا او دينيّا، على الرغم من المستويات العالية احيانا لغالبيّة القيادات المدنيّة والعسكريّة سواء من حيث تحصيلها الفقهي او العلمي الاكاديمي او الثقافي العام فانها لم تستثنى من ذلك.

اننا لم نستطع ان نستثني الاحزاب السريّة (حتى التي تبالغ في ليبراليّتها وتقدميّتها وشعارات الديمقراطيّة)عن ذلك مثلما اشرت، ان لم تكن هي الاسوء في هذا المضمار، لان طبيعة العمل السرّي واستخدامها الاسماء الحركيّة يعطيها غطاءا واقيا ومحكما للتآمر التنظيمي الداخلي (تصل احيانا حدّ الوشايات باقرب المقرّبين منهم للاجهزة الامنيّة المعادية، بل وقد تصل ممارسة الاغتيالات بين الكوادر المتقدمة ولكبار المسؤولين ولبعض افراد عوائلهم في الحزب والدّولة.).

والتنظيم السرّي لطالما يستر عورات العديد من القياديّين الفاشلين في الحياة سواء منها المدرسيّة او المهنيّة او الانساب الاسريّة المتواضعة؛ فتستخدم الرتب الحزبيّة لكي تصبح القابا

مفخّمة تعوّض المغمورين في المجتمع، وقد تصل الالقاب الحزبيّة الى حد هيبة التقديس في تداولها بين الحزبيين.. مثل:

[السكرتير العام او العضو في اللجنة المركزيّة للحزب السرّي الفلاني او القائد المؤسس او عضو القيادة القطريّة او القوميّة او امين سر او مسؤول العلاقات في الداخل او الخارج.. او.. او.. غير ذلك من المسمّيات والعناوين الحزبيّة الطنانة والمبهرجة] مثلما تستخدم كاقنعة مزيّفة لتخدع الراي العام الداخلي والخارجي لعموم الجماهير، و لتقدم بدائل عن اسم لاسرة مرموقة ذات شرف رفيع وتاريخ حافل، او لقب علمي لمؤلف شهير او لجامعة مشهورة.

لقد بلغ الفساد التنظيمي والمالي وحتى الاخلاقي لبعض الاحزاب العراقيّة السريّة حدّ القرف ودرجة خطيرة جدّا لا سيّما تلك التي تتبع اساليب المافيات التي تتركز اهدافها فقط على اقتناص فرص الاستئثار والسلب المادي والمعنوي لمجموعة متضامنة من الاعضاء، مما وضع العراق اليوم في وضع مزر من التخلف والانحطاط على كافة المستويات الاخلاقيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعلميّة.

لقد كشف المخلصون للعمليّة الديمقراطيّة الجارية اليوم في العراق عشرات الالاف من الشهادات العلميّة المزوّرة التي اعطت لحامليها المزوّرين مواقع وظيفيّة عليا مهمّة (وبعضها فنيّة مهنيّة دقيقة وخطيرة) وكان التزوير يتمّ بعلم وبمعرفة من قبل قيادة احزابهم وبتدبير تنظيماتهم السّياسيّة، ولا يزال الناس والتاريخ بانتظار نتائج التحقيق وفرض العقوبات الرادعة بحق جميع المزوّرين. انّ ظاهرة تزوير الشّهادات والالقاب العلميّة تشكل اليوم واحدة من اشدّ الاخطار التي تهدّد مستقبل الديمقراطيّة وتطوّر المجتمع واستقراره في العراق.

وفي هذا السياق ايضا ومن خلال تتبّعنا لسيرة ولسلوك قادة وكوادر غالبيّة الاحزاب من الصّفوة العراقيّة، حتى وهم خارج ايّ نشاط سياسي نجدهم لا يتخلّون عن ولاءاتهم التقليديّة المعروفة عنهم (على منطق هذا ما وجدنا عليه ابائنا واجدادنا) وان كان من المفروض منطقيّا ومصلحيّا كطبقة ان لا يفعلوا ذلك. ولذا لايمكن ان نقول انّ الاحزاب شكّلت يوما ما لمصلحة (طبقة واحدة معيّنة) او عدد من الطبقات التي تشعر بوجودها وتدافع عن مصالحها الذاتيّة، بل نجدها قد فشلت حتّى في اقامة نظامها السياسي المستقر الذي يحافظ ويدافع عنها كما فعلت نظيراتها في اوروبا وامريكا مثلا، بل ان الأعجب من هذا انّ غالبيّتها حاربت وتآمرت وقوّضت الحكومات والانظمة التي كانت قد عززت مكانتها كطبقة، ومن المفروض علميّا وواقعيّا انّها كانت تمثل مصالحها وتضمن تنمية قدراتها وتوسّع امكانيّات تطوّرها؛ مثلما فعلت صفوة الغالبيّة من التجّار والمراجع الدينيّة العظام بمواقفها العدائيّة تجاه حكومات العهد الملكي وحكومتي عبد الكريم قاسم وعبد الرّحمن البزّاز في العهد الجمهوري.

لذا لايمكن اعتبار الصّفوة العراقيّة ككل، طبقة او مجموعة طبقات اقتصاديّة او اجتماعيّة ذات مصالح واحدة او متعدّدة كمثيلاتها في المجتمعات الاخرى بل يمكن اعتبارها مكوّن

اجتماعي ونمط من انماط سكان الشرق الاوسط. وان ما اطلقنا على بعضها مجازا (بطبقة متوسّطة) هي في الواقع مجموعات من المثقفين والتجار الصغار ومتوسّطي الثروة الذين ظهرت بصماتهم في العراق، وأثروا في الاحداث وبرزوا على السّطح بسبب ارتفاع واردات النفط خلال سنوات 1952- -1957 وما بعدها بشكل ملموس واخرين من المتعلّمين وطلاب البعثات الذين عادوا من الخارج وباعداد ملحوظة، اولئك الذين منهم من رفد الاحزاب السياسيّة العراقيّة بعناصر شابّة جديدة ومؤثرة وفعّالة وطموحة للمساهمة في السلطة دون ان يكون لصفوة السياسييّن السّابقين في العهد الملكي محاولة جادة لفهمهم او التعاون معهم والاستفادة من مؤهلاتهم وتقدير نواياهم الطيّبة وحماسهم الطبيعي؛ بل تمّ التعالي عليهم وتجاهل غالبيّتهم العظمى وسلّموا بذلك الخطا اعدادا كبيرة منهم للمغامرين والفاشلين في حياتهم الدراسيّة والمهنيّة الذين كانوا يسيطرون تماما على الاحزاب السريّة والتنظيمات السياسيّة الهدّامة للمؤسّسات الدستوريّة والمجتمع المدني. ولكي لانظلم اولئك الخرّيجين العائدين من الجامعات لابد لنا من الاشارة الى البعض منهم ـ وهم افراد قلائل جدا ـ من الذين امنوا بالحقوق الاساسيّة للشعب وبحرمة الدستور وبالمؤسسات الديمقراطيّة كوسيلة سلميّة وشرعيّة للوصول للسلطة باسلوب ديمقراطي سلمي ـ وفي مقدّمتهم: الاستاذ عبد الفتّاح ابراهيم والدكتور محمد فاضل الجمالي والدكتور عبد الرحمن البزاز رحمهم الله جميعا.

الاحزاب السيّاسيّة والصّفوة العراقيّة

ان كلمةّ حزب بمعناها اللغوي والسيّاسي معروفة ومستعملة عند العرب قبل استعمالها في الدول الديمقراطيّة الحديثة باكثر من الف وأربعمائة عام، والدليل على ذلك ما ورد في القران الكريم في مواضع عديدة في صيغة المفرد (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ـ المائدة/56) وفي صيغة الجمع (ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده.. هود/17)، كما ذكرت مرّة واحدة في القران الكريم بصيغة المثنّى (ثمّ بعثناهم لنعلم ايّ الحزبين احصى لما لبثوا امدا.. الكهف/12). وقد اجمع المفسّرون واللغويّون بانّ كلمة (الحزب ـ بكسر حرف الحاء ـ تعني الطائفة والجماعة؛ فيقال عنده حزب منهم اي طائفة وجماعة من الناس، وفي سورة المجادلة/19 (اولئك حزب الشيطان..) اي جنوده واتباعه.

وقد عرف العرب المؤسسة الحزبيّة السريّة لاوّل مرّة، وكذلك التنظيم السيّاسي بنشاطاته السريّة وشبكة دعاته المنضبطة المضحيّة منذ السنوات الاولى من الدعوة الاسلاميّة في مكة بزعامة الرّسول (ص) والسّابقون الاوّلون من الصحابة الاوائل الذين كانوا حوله، ثمّ اتسعت شبكة الدعاة نحو المدينة (يثرب) وبعدها في بلاد عُمان، لتمتدّ بعد ذلك نحو بلاد اليمن وبقيّة شبه جزيرة العرب خلال سنوات قليلة ولتتحوّل (مجموعة الصّفوة الاسلاميّة الاولى) الى حكومة الرسّول (ص) وهم قادة المجتمع،لا سيّما صفوة الصّحابة في المدينة التي اصبحت

قاعدة متينة للانطلاقة الكبرى لدعوة العالم اجمع شمالا وجنوبا، شرقا وغربا الى الاسلام. كما انّها قادت عمليّة التنوير والتطوير والنهضة في جميع جوانب الحضارة الاسلاميّة داخل شبه الجزيرة العربيّة وخارجها.

ومنذ لحظة وفاة الرّسول (ص) بدات بوادر تحرّك التكتلات (الحزبيّة) للصّفوة في الدّولة الاسلاميّة تتسع حتى تبلورت حول حزبين وقطبين رئيسيّين هما: حزب الهاشميين وعلى راسه يقف الامام علي بن ابي طالب واولاد عمومته من بني العباس وبني عقيل وبقيّة ال عبد المطلب، واخر وهو حزب بنو اميّة ويقف على راسه عثمان بن عفان واولاد عمومته من بني العاص وبني سفيان وبقيّة ال حرب. وقد تدهورت العلاقات تدريجيّا بين الكتلتين كالاتي:

فبسبب ردة الغالبيّة العظمى من القبائل لا سيّما الاعراب البدو في وسط وشرق الجزيرة العربيّة عن الاسلام وخطورة تهديدهم الجدّي لوجود الدين الاسلامي والدولة الاسلاميّة الفتيّة بما في ذلك عاصمتها المدينة المنوّرة بعد وفاة النبيّ (ص) مباشرة؛ بايع كبار صحابة الرّسول الاوائل الخليفة الاوّل ابو بكر(رض) والتفوا حوله يناصروه ويؤازروه، وخرج الامام علي راس بني هاشم من بيته بعد اعتكاف وامتناع عن البيعة طيلة ستة اشهر ليواجه الخطر الحقيقي الذي اصبح يهدّد وجود الاسلام، ولم يحدث ايّ احتكاك جدّي بين الحزبين وانصارهما خلال فترة حكم ابو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما الا من بعض المساجلات والتحدّيات الكلاميّة اثناء وبعد بيعة الاوّل للخلافة وحتى بعد تعيّين الثاني لها.

غير انّ الامر الجدير بالدراسه والاعتبار حول تلك الفترة هو عقائديّة الامام علي عليه السّلام ورفضه تطويع الدين لامور الدنيا ومتطلبات الظروف الجديدة وللواقع السياسي انذاك كما فعل ابو بكر وعمر وعثمان الذين اجتهدوا لما تتطلبه ادارة الحكم وضرورات الحفاظ على الدّولة الجديدة. هذا عدا ان الهاشميين لم يكونوا يملكوا من الاساليب والوسائل التنظيميّة والماديّة الكافية (المال والرجال عدّة وعددا) للوصول الى السلطة والحكم سوى ايمان جمهور الرّعيل الاوّل من صفوة الصّحابة وغالبيّتهم من فقراء وضعفاء المهاجرين والانصار وايمانهم بان الهاشميّين هم الاولى بالحكم لسابقتهم و لكونهم اهل بيت النبيّ (ص) ومهبط الوحي والرسالة، بينما على العكس نجد الحزب الاموي الذي قاد جبهة العداء والرفض للرسول (ص) وللاسلام منذ بدء الدعوة حتى يوم فتح مكة،فقد اعيد له اعتباره وترسّخت قواعد حكمه بقوّة منذ أن تولى ابناؤه، في عهد الخليفتين الراشدين ابو بكر وعمر، اهمّ ولايتين في الدولة الاسلاميّة واغناها(الشام ومصر)، ثمّ جاء عثمان ليضيف الى ولاياتهم ويطلق ايديهم باهم واغنى اجزاء ولايات العراق الغنيّ بالثروة والرجال (الكوفة والبصرة). هذا عدا ان الامويين كانوا الاكثر عدة وعددا وثراءا ونشاطا وبذلا للاموال من اجل ترسيخ ملكهم في الولايات الاسلاميّة؛ بل كانوا يتفوقون على جميع منافسيهم في قوّة التنظيم الحزبي والاعلامي والتكتيك وثبات الجراة ولو على الحق؛ كما استعملوا الترغيب والترهيب والرشوة، بل ومارسوا الاغتيال السياسي والاعلام المزّيف شعرا ونثرا وترويج الاشاعات

السياسيّة بما في ذلك اختطاف العقيدة الاسلاميّة وتطويعها لمصلحتهم بوضع الاحاديث الكاذبة عن الرسّول (ص) حول فضائل بني اميّة ومن انضووا تحت عباءاتهم وجعلوها مقدّسة لكي تنافس النصّ القرآني المقدّس، وهذا موضوع له بحوثه الخاصّة به.

لقد كان للعراقييّن اوفر الحصص في المعرفة والاطّلاع على التطوّرات السياسيّة في ما ل الخلافة والحكم منذ ان تتلمذوا على ايدي الرعيل الاوّل الذين عملوا في العراق من السّابقين اصحاب النبي (ص) كابي موسى الاشعري وعبدالله بن مسعود وسلمان الفارسي وحذيفة اليماني والمقداد بن الاسود وعمّار بن ياسر وابو ذر الغفاري وبقيّة القادة العقائدييّن من البدرييّن الاوائل المبشرين بالجنة وحفظة القران من المهاجرين والانصار واهل بيت النبوّة.

كما عرف العراقيّون (التحزب والعمل الحزبي) منذ ان اصبحت الكوفة عاصمة الدّولة الاسلاميّة الثانية بعد انتقا ل مركز الخلافة والحكم اليها من المدينة ايّام خلافة الامام عليّ بن ابي طالب عليه السّلام في سنة (36 هجريّة/657 م).

وحينما اغتصب بنو اميّة الحكم بعد استشهاد الامام علي بن ابي طالب غيلة في الكوفة، وبعد فترة من القلق الفكري والسيّاسي والنفسي للصّفوة العراقيّة الموالية لال عليّ ولخليفته ولده الامام الحسن عليه السّلام والتي انتهت كما هو معروف لصالح بني اميّة وانتقا ل مركز الخلافة والحكم الى دمشق(سنة40 هجريّة/662 م) لتصبح العاصمة الاسلاميّة الثالثة(بعد المدينة والكوفة)، كثرت الاصطفافات وتنوّعت المحاور والحركات السّياسيّة للصّفوة من زعماء اكبر القبائل وكذلك العامّة في العراق.

لقد أفرزت الفتنة الكبرى الاولى التي بدات ايام عثمان بن عفان (والتي اججّها وقادها اهل البصرة ومصر لاسباب كان ولا يزال مختلف عليها وهي موضع نقاش وجدل) فتنا اخرى كان نشطاؤها يعملون لاحزاب معظمها سريّة، وسالت بسببها انهار من دماء المسلمين في حروب داخليّة اشهرها حرب الجمل وصفيّن والنهروان في الشام والعراق، ومعركة الحرّة في المدينة المنوّرة التي انتقم فيها الامويّون من اهل المدينة (الانصار) لقتلاهم في بدر وفي بقيّة غزوات الرّسول. ولم تكن مصيبة (كربلاء واستشهاد الامام الحسين) الا البوّابة الواسعة لدخول الفتن والمصائب المتتابعة التي صبّها طغاة الامويين طيلة حكمهم على العراق والشام ومصر والحجاز واليمن ولم يسلم منها احد،لا البلاد ولا العباد، بل وحتى جدران الكعبة المقدّسة وبيوت واعراض مدينة الرسول (ص) من استباحات جيوش الامويّن.

لقد بقي العراق والصّفوة العراقيّة طيلة التاريخ الاسلامي بمثابة القلب الناشط والعقل المدبّر لجميع الاحداث الكبرى وقطب الرحي للمؤامرات التي دارت وافرزت ابشع الحروب واعقد الفتن الداخليّة ضد الامويّن حتى تمّ اسقاطهم وانهاء الحكم الاموي واعادة مركز الحكم الى العراق (الكوفة ثم بغداد سنة 132هجريّة/750 م). ولم يتوقف قهر الحريّات ونزيف الدمّ طيلة حكم 36 خليفة خلال العهود العبّاسيّة (524 سنة) والتي انتهت باعدام اخر خليفة عباسي في بغداد (المستعصم بالله واولاده ووزرائه) بسيف قائد المغول هولاكو سنة

656 هجريّة/1258 م فور دخوله بغداد.

لقد بقي العراق دائما بصفوة زعمائه واعيانه وعلمائه في قلب الاحداث الكبرى، حتى وان بعدت مسارح الاحداث والعمليّا ت العسكريّة والتنظيميّة السياسيّة عن ارضه، ولان البصرة والكوفة في صدر الاسلام قد تناوبتا على مراكز القيادات التنظيميّة السياسيّة والعسكريّة، السريّة والعلنيّة، فقد بقي العراق والصّفوة العراقيّة عبر التاريخ يمتلكان ويورّثان الثقافة الحزبيّة السريّة المقاومة والمتراكمة عبر العصور، وكذلك القدرة الفطرية على المعارضة والتامر والتجرّؤ على السّلطة مهما كان مقام رئيسها، ومهما علا جبروتها، سواء بالحق او بالباطل. كما اعطته خزينا هائلا من القدرات الكلاميّة اللفظيّة والبلاغيّة (شعرا ونثرا) على رصد واكتشاف وفضح عيوب الدولة وانتقادها والتجرّؤ على امرائها وحكّامها لا سيّما المستكبر منهم والاكثر اجراما واستعلاءا في الارض. لقد ميّز الجاحظ طباع العراقيّين ووصفهم دون غيرهم من الشعوب وضمن هذه المعاني اذ قال:

"..انّ العلة في عصيان اهل العراق على امرائهم. انّ اهل العراق اهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء واظهار عيوبهم..". (عن كتاب/دولة الاستعارة القوميّة/حسن العلوي/ط1/ص188).

انّ تراث الامام علي بن ابي طالب وملحمة موقف ولده الامام الحسين عليهما السّلام سبط الرّسول محمّد (ص) في كربلاء، قد اسّست عبر الزّمن مدرسة سياسيّة عراقيّة معارضة تتميّز بالقدرات التنظيميّة والخبرة القياديّة، كما وستبقى وراء السرّ الكبير لرفض العراقيّن للباطل في جميع مراحل التاريخ، وعدم خضوعهم لايّة سلطة جائرة او حاكم مستبد مستكبر مهما كانت قوّته وجبروته ومهما تفنن في ممارسة الارهاب. وكذلك من جانب اخر، فقد وضعت (مدرسة اهل البيت) على مرّ الزمن اسس حبّ العراقيّن وتعلقهم بالحاكم العادل المتواضع وبشكل رومانسي وبمثاليّة عالية الى درجة يضعونه موضعا من الحبّ والتقديس قد يصل حدّ التأليه والاسطورة والخيال. هذه المدرسة جاهزة وفاعلة لمعارضة ايّ نظام ولا علاقة لها بمذهب (شيعي او سنّي او ايّ مكوّن ديني او قومي اخر) لان جميع الاطراف العراقيّة مبدعين بثقافة المعارضة السّلبيّة لايّة سلطة تتراسّهم بامتياز حتى اليوم.

ومن المضحك المبكي في آن واحد هو ما شاهدته وقرأته (بالعربيّة وبالإنكليزيّة منذ الاحتلال الامريكي للعراق) في مقابلات صحفيّة وتلفزيونيّة وفي مؤلفات لكبار المسؤولين العراقيّن (من الصّفوة الجديدة التي جاءت مع الامريكان) الذين خدموا ولايزال بعضهم ضمن الدائرة الاولى للنظام السّياسي الحالي او للنظام الذي سبقه، جاء فيها انتقادات لاوضاع واحداث رهيبة مرّت على العراق منذ فترة جدّ قريبة، كانوا هم انفسهم قد ساهموا في تخطيطها وصناعتها، وفضحوا في كتاباتهم وبمقابلاتهم التلفزيونيّة انحرافات واعتداءات هم مارسوها بانفسهم او دلسّوا عليها، وسرقات ماليّة كبرى قاموا بارتكابها لاموال الدولة

كانوا هم انفسهم مؤتمنون عليها، ويبدون في نفس الوقت للقاريء وللمستمع المشاهد وكانهم ملائكة في النزاهة، او فرسانا امضوا جلّ اوقاتهم وهم في مناصبهم العليا يذودون عن حقوق الامّة والمال العام وعن استقلال الوطن !!.

لذا فانّ الصّفوة العراقيّة (على اختلاف مكوناتها العرقيّة والدينيّة والمذهبيّة) في العصر الحديث ماهي الا وريثة سابقاتها من العصور الماضية تتناقل اخبارها وتروي تراثها وحوادث ايّامها وتختزنها جيلا بعد جيل في وجدانها. وقد لعب المؤرّخون والرّواة لا سيّما عبر الفعاليّات والنشاطات المختلفة في المساجد والحسينيّات والتكايا ودور العبادة الاخرى دورا اساسيّا وخطيرا في تطويع الروايات والحوادث التاريخيّة والنصوص الادبيّة بل وحتى الايات القرآنية المقدّسة لصالح العقائد السياسيّة والتراثيّة في العراق. واستطاعت عبر ذلك الارث العميق الجذور ترسيخ قيما ومباديء سياسيّة معيّنة بحيث اصبحت من الثوابت المقدّسة او شبه المقدّسة عند العراقييّن وفي السّياسة العراقيّة. ولم يجرؤ احد على تغييّرها او يستطع حتى مجرّد المساس بها على الرّغم من تغيّر الاوضاع وثبوت واقع عالمي علمي وعمليّ جديد في العصر الحديث.

فللأسباب التاريخيّة المذكورة، اصبح التعصّب للراي الواحد وعدم المرونة في الحوار(ايّ حوار) هو الصفة المتغلبة على افراد صفوة المجتمع قبل الانسان العادي في العراق، بل ومن ابرز سماته، حتى اصبح للنصّ الفكري السيّاسي صفة مقدّسة عند معتنقيه لا يسمح ان يمسّ. وقد تسيل دماء وتزهق ارواح اذا ما تجاوز المحاور بعض الحدود المعلومة او اذا مسّ عصبا ذاتيّا معيّنا. وقد انعكس هذا الامر بشكل خطير على مسيرة العراق الحديث منذ بداية انشائه بمؤسّساته الدستوريّة في بداية القرن الماضي وحتى اليوم. لقد واجه العراق اشكالات بناء ذاته وهو يمرّ في مرحلة الخروج من النفق العثماني المظلم الذي استغرق من عمر العراقييّن أربعمائة سنة ونيف ليدخل العصر الحديث بقيمه الجديدة وبمؤسّساته المتعدّدة لا سيّما السياسيّة وفي مقدّمتها تشكيل الاحزاب وفق الانماط الاوروبيّة الحديثة.

لقد دخل غالبيّة العراقيّين القرن العشرين بجلباب القرن الاوّل الهجري، وظلّوا يمارسون السّياسة والعمل الحزبي واجراءات الانتخابات باجواء سقيفة بني ساعدة ومعارك الجمل وصفين وحوار الخوارج وظلامة الزهراء عليها السّلام وثارات معركة كربلاء حتى يومنا هذا.

دور الصّفوة في انشاء الاحزاب

حينما شارف القرن التاسع عشر الميلادي على الانتهاء، كان العراق بولاياته الثلاثة (بغداد والموصل والبصرة) لايزال تحت سيطرة الامبراطوريّة العثمانيّة. وكان لابدّ للعراق ان يتأثر بما كان يحدث من تطوّرات الحكم في العاصمة إستامبول التي كانت تشهد محاولات

الاصلاح وبدايات النشاطات الحزبيّة على غرار الانماط الاوروبيّة الحديثة. (وبحكم تبعيّة العراق للدولة العثمانيّة، فقد فتحت الاحزاب العثمانيّة فروعا لها في ولايات العراق الثلاث في عام 1908.

(عبد الرزاق الحسني/تاريخ العراق السياسي الحديث/ج1/طبعة 5/ص41)(ع.الحسني/العراق في دوري الاحتلال والانتداب/ج1/ص36-35).

كانت الاحزاب السياسيّة العثمانيّة تولد استجابة لرغبة المجموعات السّياسيّة والعسكريّة التي استولت على الحكم في إستامبول. لذا كان من الطبيعي، انّ الذي ينتمي للحزب (الحاكم) هو بمثابة تأييد علني للوضع الجديد. فحينما وقع الانقلاب (العسكري ـ المدني) العثماني عام 1908 وانشأ الانقلابيّون جمعيّة الاتّحاد والترقي وفرضوها على الدولة والمجتمع العثماني (F.O.371،1008/27430) .. افتتح اوّل فرع لها في بغداد في عام 1908 ثمّ تبعتها المدن العراقيّة الاخرى في البصرة والموصل والنجف وكربلاء في 1910 و1911). (F.O.371/5 46/30952،30149،35261)، (د. نظمي/ص91)(حسن شبر/ص13- 14).

وبسبب سياسة (الفرض القسري) للانتماء للحزب الحاكم سواء بالترغيب او بالترهيب فقد انضم العديد من رؤساء العشائر وصفوة المدن العراقيّة الى الجمعيّة من امثال الشاعرين الرصافي والزهاوي في بغداد، والوجيه السيّد طالب النقيب في البصرة. وبالمقابل تولدّ ردّ فعل طبيعي لمواجهة سياسة الاتّحاد والترقي.". فاقدم مجموعة من صفوة اشراف بغداد واعيانها على تشكيل تنظيم (جمعيّة المشور) للوقوف امام الاتّحاديين. فقد تشكلت هذه الجمعيّة من:

عبد الرّحمن النقيب (الذي اصبح بعد الاحتلال اوّل رئيس وزراء للعراق) وعيسى افندي الجميل وعبدالرحمن باشا الحيدري ومحمد فاضل باشا الداغستاني (والد المرحوم الفريق الركن غازي) وكاظم باشا وجميل افندي امين الادارة والملا نجم الدين الواعظ والشيخ عبد الوهاب النائب والشيخ سعيد النقشبندي والشيخ مصطفى الشهرباني وغيرهم " .(الوردي/ج3/ص164)

ومما يلاحظ على هذه الاسماء انها شخصيّات تمثل صفوة العوائل العراقيّة واكثرها وجاهة وثراء وجميعهم من المسلمين السنّة ومن مدينة بغداد (750 عضوا). كان التأثير التركي شديدا على الحزب الجديد، حتى انّ سليمان فيضي قد الفى كلمة الافتتاح باللغة التركيّة مبيّنا مظالم الناس ومطالبا بالاصلاحات الاجتماعيّة للعراق (F.O.371،1008/27430) وتوجد قائمة الاسماء كاملة في الوثيقة: (F.O.371،546/3323/13/44)، (د. خالد التميمي/المصدر/ص31).

لقد كان تحرّكهم يمثل وقوف صفوة اشراف بغداد والبصرة كممثلين لتيّار وطني عراقي حديث بوجه الاتحاديّن الترك، ثم اخذ بالتوسع نحو مدن عراقيّة اخرى فيما بعد. ففي 6 اب 1911 انشا السيّد طالب النقيب فرعا للحزب الحر المعتدل في البصرة. وبعد ثلاثة اشهر

من تأسيسه غيّر النقيب اسم الحزب نفسه في البصرة ليكون اسمه الجديد (حزب الحريّة والائتلاف) (د. خالد التميمي/المصدر- ص38)، (سليمان فيضي/ص101-99).

لم يكن للتنظيم الحزبي في العراق انذاك المفهوم السياسي الحديث القائم على ايديولوجيّة معيّنة وبرنامج عمل يتفق عليه اعضاء الحزب او ممثلوهم في مؤتمرات فصليّة او سنويّة، واهداف ذات مراحل، كما هو الحال في الدول الديمقراطيّة الحديثة في العالم.

لقد كان التنظيم الحزبي يولد ضمن اطار الصراعات والنزاعات بين الخصوم وما يتبعها من تسويات بين الاطراف المتصارعة للقيادات والزعامات العليا. " فمثلا عندما جاء مصطفى الواعظ من إستامبول الى بغداد لانشاء فرع لحزب الحريّة والائتلاف في اذار1912،اجتمع مع عبد الرحمن النقيب والسيّد علي الالوسي والشيخ يوسف السّويدي وعبدالرحمن الحيدري، واتفق معهم على معارضة الوالي جمال بك. وحين شرع الواعظ في انشاء فرع الحزب راح بالمقابل جمال بك يساومه على انضمامه لحزبه الاتحاد والترقي لقاء تعيينه عضوا في مجلس الاعيان " .(حسن شبر/ص18)

ومن الجدير بالملاحظة، انه على الرّغم من وجود تحرّك سياسي في المدن العراقيّة الكبرى، الا انّ حزبا موحّدا (عراقيّا) شاملا يضم جميع المناطق العراقيّة (او غالبيّتها على الاقلّ) لم ينشأ ولم تتبلور فكرته بعد. كانت الولاءات الجغرافيّة والطائفيّة والعرقيّة اقوى من الولاء الوطني الواحد لجميع العراق. ففي بغداد اسّست الصّفوة من اعيان بغداد (النادي الوطني العلمي) في اواخر عام 1912 وفي البصرة اسّست الصّفوة من اعيانها بزعامة السيّد طالب النقيب (جمعيّة الاصلاح) قبيل الحرب العالميّة الاولى (في 28 شباط 1913)،(د. نظمي/ المصدر/ص99). وعلى الرّغم من وجود لقاءات متباعدة بين واحد او اثنين من قادة هذا التنظيم او ذاك، فانّ ذلك يأتي في سياق الصداقات او العلم بالشيء وفي افضل الاحوال يأتي في اطار استعراض الوجاهة وتوازن القوى بين زعماء الصّفوة وبين السلطة المركزيّة التي يمسك بزمامها الوالي التركي في بغداد وحزب اللامركزيّة العثماني في إستامبول.

اما دور الجماهير في التنظيمات السّياسيّة او الاحزاب فقد كان غائبا او مغيّبا تماما في مجمل العمل السّياسي الحزبي بسبب انشغال الناس بهموم الحياة اليوميّة. وبعكس ما حصل في الدولِ الديمقراطيّة الغربيّة؛ حيث بدا التحرّك المعلن والمكشوف من قاعدة المجتمع، من قبل عامة الناس للمطالبة بالحريّات وبالحقوق المدنيّة؛ أنشات الاحزاب السّياسيّة العراقيّة الحديثة مع ولادة القرن العشرين من قمّة المجتمع، في صالونات الصّفوة الاجتماعيّة وفي اجواء تغلب عليها طابع التحرّك السرّي والنزعة التامريّة وبمبادرة من قبل فرد او مجموعة من الافراد. ومع ذلك، لقد كانت عمليّة انشاء الاحزاب السّياسيّة اوّل الامر ـ على قلّتها في العراق ـ قفزة وتجاوز على المراحل التاريخيّة قام بها بعض الطموحين والاكثر وعيا من بين زعماء الصّفوة العراقيّة وخاصّة في المدن الكبرى.

ومن الجدير ملاحظته انّ العراق، عند بدء تشكيل الاحزاب، لم يسبق له ان شهد او مرّ

بمرحلة اعداد وتهيئة المجتمع، من قبل الصّفوة القائدة، وهي مرحلة التنوير والتثقيف والتي سمّيت بعصر النهضة (مرحلة الـRenaissance) التي تشمل جوانب الفكر والفن والعلوم والاداب، كما حصل في اوروبا عقب القرون الوسطى. اذ هي مرحلة ضروريّة واساسيّة ولا يمكن القفز عليها لايّ شعب او امّة تنشد طريق التطوّر الطبيعي والسليم، والا ستبقى المسيرة الديمقراطيّة والحضاريّة للامّة عرجاء تتعثر وتعيش ضعيفة ومهدّدة وممسوخة ومقلدّة لغيرها وغير مبدعة في كافة جوانب التغييّر. لانها غير ثابتة وبلا جذور راسخة وتكون عرضة للانتكاسات والرّدة والتخلّف والانحطاط امام ايّة هزّة او ازمة داخليّة. مثلما تكون غير محصّنة وعرضة للانحراف امام الريّاح الخارجيّة كما حصل للعراق ولغالبيّة الدول العربيّة خلال النصف الثاني من القرن الماضي وفي العقود الاخيرة من السنين.

لقد شهد عام 1913 الذي سبق قيام الحرب العالميّة الاولى نشاطات سياسيّة متزايدة لسكان المشرق العربي، لا سيّما في مجال الاتصالات التنظيميّة والتنسيقيّة قامت بها زعامات عربيّة محدودة العدد تكاد تنحصر في اقاليم العراق وبلاد الشام والحجاز ومصر.

ففي 23 - 18 حزيران/يونيو عام 1913 نظمّت شخصيّات عربيّة نشطة اجتماعا في العاصمة الفرنسيّة باريس واطلقوا على اجتماعهم: " المؤتمر العربي الاوّل " . وكان من بين الحضور طالبان عراقيّان، من شباب الصّفوة، كانا يدرسان في باريس وهما توفيق السويدي وسليمان عنبر. وقد نظمّ ذلك المؤتمر بمبادرة من حزب اللامركزيّة الاداريّة العثمانيّة الذي اعطى زخما جديدا للحركة الحزبيّة في العراق. وقد تلقى المؤتمر خلال فترة انعقاده عددا من برقيّات التأييد من بعض الشخصيّات في البصرة وبغداد ومن بيروت ودمشق ومن فلسطين (وكان بعضها موقعة من سيّدات) كما وردت برقيات من مصر وبعض الجاليات العربيّة في الامريكيتين. (توفيق السويدي/مذكراتي../ط1/بيروت/تموز1969/ص30-26)، (د. نظمي/المصدر.../ص92).

لقد أصبحت للحركة السّياسيّة العربيّة (ومجالها الجغرافي بشكل رئيسي العراق وبلاد الشام والحجاز وعدد قليل من الافراد في مصر) في عام 1913 لون "قومي عروبي" بسبب تبلور المشاعر بالوجود كامّة عربيّة ذات خصوصيّة تميّزها عن غيرها من امم العالم لا سيّما في التاريخ واللغة والعادات والتقاليد والتركيبة الاجتماعيّة بامتدادات القبائل والأسر والعشائر وتداخل بعضها بالبعض الاخر قرابة ونسبا. وقد زاد من صفتها "العروبيّة" انها كحركة سياسيّة ولدت ونمت في اجواء التحدّي للسياسة الطورانيّة ومنهج التريك للمكونات التي كانت تعيش داخل الخيمة العثمانيّة (المسلمة) فبرزت القوميّة العربيّة لتضاف الى القوميّات الاخرى المحتجّة لكرامتها كالبلقان والسلاف والارمن والكرد وغيرهم، ولم يكن النشاط السّياسي العراقي مستثنى عن ذلك الوعي القومي العام لشعوب الامبراطوريّة العثمانيّة. لذا كان الشعور بالانتماء العروبي مع بقيّة رفاقهم الدافع الاهم في مساهمة الضباط العراقيين الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني في النشاطات والاحزاب السياسيّة سواء في المؤتمر

العربي في باريس او تشكيل حزب سياسي جديد (العهد) في 28 تشرين الاول عام 1913 مع اللواء عزيز علي المصري (من اصل عراقي)، وضباط اخرين من بلاد الشام. (د. نظمي/ المصدر/ص93 ـ 92).

وحينما بدات نذر الحرب العالميّة الاولى تلوح في الافق، توقفت الحياة الحزبيّة في جميع انحاء الولايات العثمانيّة وفي مقدمتها الولايات العراقيّة الثلاثة. وحينما أصبحت مواقف القوى السّياسيّة العربيّة وتحالفاتها واضحة الدلالات؛ وقفت مجموعة (جمعيّة العهد) من الضباط العراقيين مع قوّات الشريف الحسين بن علي الذي تحالف مع الحلفاء ضدّ الدولة العثمانيّة. وبعد اعلان الهدنة العامة في11/11/1918 وبعد غدر الحلفاء بالشريف حسين بن علي وخيانتهم لوعودهم له وللعرب، اصبح العراق بولاياته الثلاث تحت الاحتلال البريطاني المباشر، بما صاحب الاحتلال من تطوّرات سياسيّة واقتصاديّة وعسكريّة، ودخلت الحياة السّياسيّة العراقيّة (لا سيّما الحزبيّة منها) عالما اخر واتخذت ابعادا جديدة تختلف عمّا كانت عليه قبل الحرب.

لقد بدات الصفوة السّياسيّة العراقيّة تتعلم في ظلّ الاحتلال البريطاني اشياء جديدة في كلّ يوم يمرّ عليها. وكانت المجموعات الوطنيّة تتحمّل مسؤوليّاتها تجاه الشعب والوطن مستفيدة من تجاربها. وهناك على مسرح الاحداث يبرز القسم الاخر من ابناء الصّفوة اثر التعاون مع المحتل على كافة الاصعدة وكانت للانانيّة الفرديّة لهؤلاء الصفوة من زعاماته السبب المباشر في افشال ايجاد المشروع الوطني العراقي الموحّد لتحقيق الاستقلال التام.

ففي الوقت الذي كان فيه الضباط العراقيّون ـ كبقيّة جماعة العهد المتحالفة مع الحلفاء ـ منغمسون مع اخوانهم قادة الحركة الوطنيّة في سوريا والعراق لبناء مستقبلهم السياسي كما وعدهم الحلفاء، كانت انجلترا وفرنسا قد انتهيتا من وضع خارطة جديدة لتقسيم الشرق الاوسط فيما بينهما كغنائم حرب ومناطق لنفوذهما طبقا لما عرف باتفاقيّة سايكس – بيكو السيّئة الصيت.

وفي مؤتمر الصلح في فرساي/باريس عام 1919 وما افرزه من اتفاقيات سريّة وعلنيّة بين دول الحلفاء، لا سيّما مقررّات مؤتمر سان ريمو في (25 نيسان 1920) حيث نصّت على تقسيم المشرق العربي - كغنائم حرب – بواجهة نظام الانتداب الذي تمّ بموجبه انتداب فرنسا على بلاد الشام، وبريطانيا على مناطق العراق والاردن وفلسطين.

كان اخطر ما خططت له ثم نفذته (بريطانيا) هو قرار العمل على مسح شرعيّة وجود الوطن الفلسطيني نهائيا من خارطة العالم، وطرد الشعب الفلسطيني بكامله من وطنه بكافّة الوسائل وأحلال مهاجرين كان غالبيّتهم العظمى من اليهود العاطلين في بلدانهم لتستغلّهم منظمات الحركة الصّهيونيّة وتجمعهم من شتى بقاع الارض لتوطينهم في فلسطين لتصبح بذلك قاعدة استعمارية لتنفيذ مشاريع استغلاليّة اسطوريّة للمئة سنة القادمة وذلك بانشاء وطن قومي لليهود بدل فلسطين العربيّة المسلمة. علما بان فلسطين كبلد وشعب كانت

(حين اعلن وعد بلفور الظالم عام 1917) تضمّ 88% من سكانها شعب فلسطيني عربيّ مسلم، و12% من اليهود الفلسطينييّن وبقيّة المكونات الاخرى. كما كان فيها مدنا تاريخيّة عربيّة عريقة مشيّدة وعامرة بجميع مكوّنات ومظاهر الحضارة والتراث (بخصوصيّة تراثيّة فلسطينيّة بالبناء وبالبيوت والشوارع والاسواق والموانيء) وهي الاكثر عددا والاجود نوعا وجمالا ونظاما من جميع نظيراتها من مدن البلدان العربيّة جمعاء، سواء مدن الساحل او مدن الداخل بالاضافة الى الحقول والبساتين والمزارع غالبيّتها احتلت ونهبت وسكنّت من قبل موجات متعاقبة من اعداد العاطلين المهاجرين الصهاينة بدعم وباشراف ورعاية مادية ومعنويّة بريطانيّة مسلّحة وخلال مراحل وعمل دؤوب يزيد على ثلاثة عقود من السّنين وباشراف مباشر من قبل المندوب السّامي البريطاني الصّهيوني المعيّن في فلسطين هربرت صموئيل (لا سيّما خلال فترة الاحتلال ثم في مرحلة الانتداب البريطاني المتعاقبة على فلسطين1917 - 1947 وما بعدها وحتى اليوم).

وحينما بدا زعماء الحركة القوميّة العربيّة، اكتشاف ابعاد كارثة التحالف مع بريطانيا وفرنسا، كان الوقت قد تأخر جدا، فالاوطان قد احتلّت والحدود بين الاشقاء قد أخذت تظهر وتثبّت على الارض بعد ان كانت على الورق فقط، ومحرقة المشروع العنصري الصّهيوني الهدّام بدات تدور وتعمل في المنطقة بكل قوّة وحماس. لقد كانت الاسرة الهاشميّة لا سيّما عميدها الشريف الحسين بن علي الضحيّة الاولى والاكثر تضرّرا ومعاناة ماديّا ومعنويّا من المشروع الصّهيوني، لذا بدا صفوة الزعماء الوطنيّين من العراقييّن والعرب بالاتصالات واعادة تنظيم انفسهم بنشاطات علنيّة وسريّة على الرغم من ضعف الامكانيّات. ومما يمكن ملاحظته على كافة النشاطات والتنظيمات الوطنيّة منذ انطلاقتها مع بدء القرن الماضي وحتى اليوم، انّها كانت ولا زالت تقوم على ثلاثة اركان مقدسة:

تحرّير واستقلال الاوطان،الدفاع عن قيم ووجود الديّن الاسلامي، الدفاع عن شرعيّة وحقوق فلسطين والفلسطينييّن.

بدات صفوة الحركة الوطنيّة في العراق باتصالاتهم مع اخوانهم المقيمين في سورية، كما بداوا باتصالاتهم مجددا مع الشريف حسين بن علي لا سيّما وانّه قد اشيع في حينه انّ الشريف قد اختلف مع حلفائه الانجليز وبدا باجراء اتصالات مع تركيا للتعاون وللتفاهم معها مجددا.

طلائع الاحزاب السريّة في العراق

كانت الحركة الوطنيّة في العراق في تصاعد مستمرّ منذ ان اكملت القوّات البريطانيّة احتلال العراق. وأصبحت بوادر احتمال الصدام مع ادارة الاحتلال البريطانيّة واضحة المعالم منذ ان بدات صفوة الزّعامات الوطنيّة تلمس دلائل واضحة تشير الى تراجع البريطانيين

عن وعودهم التي قطعوها على انفسهم في منح العراقيين خاصّة والعرب عامة استقلالهم. وقد تجلى ذلك واضحا من خلال تحدي الوطنيين للاحتلال بعقد الاجتماعات السّياسيّة على الرّغم من منع سلطات الاحتلال لها ممارسة النشاطات بالقوّة او بارهاب الوطنييّن عن طريق النفي والابعاد الداخلي والخارجي. ولذا شعر صفوة الزعماء الوطنيّين بضرورة اللجوء الى تنظيم نشاطاتهم وفعاليّاتهم وتكثيفها وفي مقدمتها دعوة الرأي العام العراقي وتعبئته من اجل مجابهة الانجليز بمطلب انهاء الاحتلال وتحقيق الاستقلال التام للعراق.

وفي اواخر شباط/فبراير1919 تمّ تشكيل تنظيم عراقي بعيدا عن عيون السلطة المحتلة اطلق عليه اسم "جمعية حرس الاستقلال" من قبل بعض الشباب المتحمّس وكان اشهر مؤسسّيه: جلال بابان ومحمود رامز وعلي البزركان كما اشرنا سابقا. الا انّ هذه الجمعيّة لم تلق تأييدا شعبيّا واسعا في اوّل الامر بسبب انّ مؤسسّيها كانوا من الشباب الصغار السن المغمورين(حسب المقاييس الاجتماعيّة في ذلك الزمن)، اذ لا توجد بينهم زعامات ووجوه اجتماعيّة بارزة. وبعد ذلك أصبحت الجمعيّة اكثر نشاطا واهميّة حينما انضمّ اليها اخرون من صفوة الاعيان من ذوي النفوذ مثل الشيخ يوسف السويدي والسيّد محمد الصّدر وناجي شوكت ومحي الدين السهروردي والشيخ باقر الشبيبي وعبد الغفور البدري وعبد المجيد كنّة.

وحين عاد محمد جعفر ابو التمّن من رحلة عمل له في طهران في تشرين اوّل/اكتوبر 1919 وانضم لجماعة الحرس؛ حدثت نقلة نوعيّة في اوّل ممارسة ديمقراطيّة داخل التنظيم حينما تمّ انتخاب لجنة تنفيذية لها برئاسة السيّد محمد الصّدر واصبح ابو التمّن امين سرّعام فيها. ثم اتسعت القاعدة الشعبيّة لجماعة الحرس نوعا وكمّا حينما حلّت جمعية "الشبيبة الجعفريّة" نفسها وانضمّ اعضاؤها لجمعيّة حرس الاستقلال. وهنا لابدّ من الاشارة الى ان هذه التطوّرات السّياسيّة، كما نلاحظها، كانت تتفاعل وتنمو في اجواء مصلحة العراق والاهداف النبيلة الخالصة للوطن، بعيدة عن الحسّاسيّات الطائفيّة والمصالح الفرديّة الضيّقة بين زعامات الصّفوة العراقيّة.

لقد كانت تلك الصّفوة تبذل من حرّ مالها الخاص على تكاليف نشاطاتها داخل بغداد وفي بقيّة انحاء العراق (عبدالرزاق الحسني/ص58 - 57،ص138 - 137)(ناجي شوكت/ ص13).

وفي تلك الاونة ايضا تا لف حزب سرّي اخر من صفوة العناصر المتصلة بالعهد السّوري سُمّي "حزب العهد العراقي" ومن اشهر زعمائه الشيخ سعيد النقشبندي واحمد عزت الاعظمي ونوري فتاح وحسن رضا وبهاء الدين سعيد وعلاء الدين النائب وامين زكي (الوردي/لمحات/ج5/ص94).

بقي هذان الحزبان (حرس الاستقلال والعهد) يمارسان ميدانيّا نشاطا مشتركا محدودا جدّا بسبب العداء بينهما الذي وصل الى حدّ الشتم والطعن في الاخلاق والوطنيّة. وكان السبب

في ذلك العداء هو دعوة حزب العهد الى اتباع سياسة (الاعتدال والتفاهم) مع الحلفاء، والقبول بمساعدة بريطانيا الفنيّة والاقتصاديّة من اجل التوصل الى استقلال العراق.(وكان العهديّون يستندون في مناقشتهم هذه الى فقرة وردت في منهج حزب العهد السّوري تشير الى ضرورة الاعتماد على بريطانيا) بينما اعترض جماعة حزب الحرس على هذه الفقرة واعتبروا بريطانيا دولة استعماريّة ولا يمكن الوثوق بها ورجّحوا موضوع مساعدة دولة اخرى كحكومة الولايات المتحدة الامريكيّة التي كانت انذاك تتمتّع بسمعة حسنة جدّا لدى شعوب العالم بسبب بنود رئيسها ولسون الاربعة عشر ودفاعها عن حريّات الشعوب وعن حقوق الانسان.

لقد اضعف هذا الصّراع موقف شطريّ الصّفوة العراقيّة اللتان تقودان المجتمع العراقي انذاك سيّما وانّ جماعة الحرس كانوا يتهمّون العهديّن بانهم عملاء للانجليز وجماعة العهد يتهمّون مجموعة الحرس بالعمالة لتركيا. وبقيت الحالة هكذا ما يقارب السّنة والمستفيد من ذلك هم المحتلون.

انّ اهمّ المباديء التي نصّ عليها برنامج حزب حرس الاستقلال هي:

اوّلا: استقلال العراق بكامل اراضي الولايات الثلاث: بغداد والموصل والبصرة.

ثانيا: ان يكون على راس هذه الدولة ملكا عربيّا مسلما هو احد انجال الشريف حسين بن علي شرط ان يكون ملكا دستوريّا مقيّدا بدستور دائم مقرّرا من قبل ممثلي الشعب.

ثالثا: ومن اهداف هذا الحزب الهامّة ان يتخذ جميع الخطوات لتحقيق هذه الاهداف السياسيّة وسيستمر في العمل لتحقيق وحدة العرب.

رابعا: سيتعاون الحزب مع كافة الاحزاب التي تسعى لتحقيق هذه الاهداف وخاصّة الحكم الدستوري والعمل من اجل استئصال الطائفيّة والعنصريّة والتفرقة بين المواطنين بسبب الدين او الطائفة او العنصر. (مهدي البصير/المصدر/ص138 - 137)

كان جماعة الحرس اكثر نشاطا واكثر نجاحا في كسب المؤيّدين لوجهة نظرهم. وقد ساعدهم على ذلك سمعتهم الوطنيّة وتصاعد نشاطهم بين الشباب وخاصة الطلاب في المدرستين الجعفريّة والاهليّة التي وصفتهما التقارير البريطانيّة بانهما أصبحتا مقرّبتين للوطنييّن المتطرّفين.

لقد جرت محاولات لتوحيد الحزبين "الحرس والعهد" ؛ ففي كانون الثاني/يناير1919 تشكّلت لجنة مشتركة من ممثلي الحزبين واجرت مناقشات ولقاءات متعددة لم تسفر عن نتيجة ايجابيّة او اتفاق بل زادت الطرفين بعدا وتمسكا بمواقفهما وخاصّة فيما يتعلق بطبيعة مستقبل العلاقات مع بريطانيا.وبقي العهديّون معزولين عن الحركة الوطنيّة وانحصر نشاطهم على اسلوب الحوار والتفاوض مما دفع البعض منهم الى الانضمام الى جماعة الحرس وفي

مقدمتهم كان عبدالغفور البدري، بينما انحاز بقيّة العهديين الى المجموعة المؤيّدة للانجليز التي كان يترأسها عبدالرّحمن النقيب.(الحسني/الثورة العراقيّة الكبرى/ص49) (د.خالد التميمي/ص104 - 103).

استمرّت الصّفوة من زعامات حرس الاستقلال تخطط وتقود نشاطات حركة الاستقلال الوطني في بغداد وتجري اتصالات خارجها. واصبحت بغداد الراس المدبّر للحركة الوطنيّة المهيمنة على الساحة السيّاسيّة العراقيّة، تساندها صفوة الاعيان والمراجع الدينيّة في بغداد والكاظميّة والنجف وكربلاء بنفوذها الطاغي على غالبيّة سكان المدن والقبائل العراقيّة.

وحينما وصلت اخبار مقررات مؤتمر سان ريمو مدينة بغداد في بداية نيسان/ابريل 1920، قبل ان تنشر رسميًا، سبّب القرار القاضي بانتداب بريطانيا على العراق وفلسطين، وفرنسا على سوريا ولبنان نقمة وغضب الشعب العراقي وكانت من الاسباب المباشرة التي اشعلت نار ثورة العشرين على الانجليز. فقد بدات الاجتماعات والنشاطات السرّية بين عدد من صفوة زعامات المجتمع العراقي في بغداد وفي المدن المقدّسة من اجل اتخاذ الخطوات السّياسيّة اللازمة متزامنة مع الاعلان الرّسمي للانتداب.ودعا الامام والمرجع الاعلى الشيرازي كافة الرموز والفئات السيّاسيّة والقيادات الوطنيّة للاجتماع في مدينة كربلاء لبحث مسائل وطنيّة لغرض توحيد الجهود واتخاذ موقف حاسم تجاه اعلان الانتداب البريطاني على العراق.

وصل مندوب الامام الشيرازي (السيّد هادي زوين) الى بغداد للتعرّف على وجهة نظر وموقف قيادة الحركة الوطنيّة في بغداد وتبليغهم عن مكان وموعد الاجتماع والذي تقرّر ان يكون في مدينة كربلاء في الثاني من ايّار/مايو1920 وهو اليوم المصادف لزيارة النصف من شعبان (وهو تاريخ ميلاد الامام المهدي المنتظر عند المسلمين الشيعة الاماميّة). (الوردي/ لمحات/ج5/ص98)

اجتمعت الصّفوة من اعيان وزعماء بغداد بمندوب الامام الميرزا محمد تقي الشيرازي (السيّد هادي زوين) في دار الشخصيّة الكرديّة المعروفة حمدي بابان في 22 نيسان/ابريل، وبعد تداول الوضع السّياسي ومتطلبات الموقف، قرّر الحضور ارسال محمد جعفر ابو التمّن لحضور اجتماع كربلاء مندوبا وممثلا لقادة واعيان بغداد. وفي 4 ايّار/مايو1920 وصل ابو التمّن والسّيد هادي زوين مدينة كربلاء وفي دار السيّد ابو القاسم الكاشاني عقد الاجتماع الذي حضره ايضا الصّفوة من زعماء القبائل واعيان مناطق الفرات الاوسط وتباحثوا حول الوضع السّياسي وكان اخطر واهمّ امر تداولوه هو موضوع امكانيّة القيام بثورة مسلحة ضد الاحتلال البريطاني في العراق. ثمّ اختار الحضور خمسة شخصيّات من بين الحضور لمفاتحة المرجع الاعلى الامام الشيرازي. وحينما قابلوه في داره. فقال لهم:

"ان الحمل ثقيل واخشى ان لا تكون للعشائر قابليّة المحاربة مع الجيوش المحتلّة" . وحينما اكدوا له قدرتهم على الثورة.كرّر قوله لهم: "اخشى ان يختل النظام ويفقد الأمن فتكون البلاد في فوضى، وانتم تعلمون انّ حفظ الأمن اهمّ من الثورة بل اوجب منها" . وبعد

ان تأكد من تعهداتهم ونيّاتهم، دعا الله ان يعينهم على ماهم مقدمون عليه. (الوردي/لمحات/ ج5/ص128).

ان مثل هذا الحوار الذي دار بين الصّفوة التي تتخذ قرارا مصيريّا يدل بلا ادنى شكّ على الشعور العالي بالمسؤوليّة الوطنيّة والشرعيّة والحرص على مصالح وارواح الناس وامنهم وممتلكاتهم.

لم يكتف القادة بما اتفقوا عليه مع المرجع الاعلى بل سعوا لاقامة الحجّة القانونيّة والاخلاقيّة على الانجليز وهم المحتلوّن لبلدهم. فعقدوا في الليلة التالية اجتماعا اخر في دار السيّد نور الياسري في محلة السلالمة وناقشوا الامر مجددا وتوصّلوا الى قرارنهائي وهو: " الاستمرار في مطالبة الانجليز بالاستقلال بالطريقة السّلميّة، فاذا اصرّ الانجليز على رفض مطاليبهم وعاندوا في ذلك فانّ العشائر تلجا عندئذ الى القيام بالثورة المسلّحة. " وبعد انتهاء الاجتماع ذهب الجميع الى مرقد الامام الحسين بن عليّ بن ابي طالب واقسموا على القران المجيد واحدا بعد الاخر على تنفيذ ما اتفقوا عليه.(الوردي/لمحات/ج5/ص129) وبذلك اصبح قرار اعلان الثورة في حكم المؤكد.

عاد مندوب بغداد واجتمع فورا بقادتها في دار حمدي بابان مرّة اخرى في يوم 9 ايّار/ مايو، وكان الانتداب البريطاني على العراق قد اعلن رسميّا في 25 نيسان/ابريل1920 ممّا زاد من التوتر. وبعد ان شرح محمد جعفر ابو التمّن للحضور ما اتفق عليه في اجتماع كربلاء وموقف المرجعيّة العليا وقادة الفرات الاوسط على استحصال حقوق العراق وان ادّى ذلك الى الثورة المسلحة، ايّد الحضور مقرّرات اجتماع كربلاء كما قرروا البدء فورا بزيادة النشاطات السّياسيّة وتصعيد الموقف مع الاحتلال البريطاني ابتداءا من بغداد. وفي 10 ايار/ مايو عقدت اللجنة التنفيذيّة لقادة بغداد اجتماعا قررت فيه استغلال حلول شهر رمضان وكثرة المناسبات الدينيّة فيه لا سيّما خطبة الجمعة لاغراض التحرّك السّياسي الذي سيؤدّي الى التحرّك المسلّح. (مهدي البصير/ص143 - 142)

قرار التحرّك المسلح

ان اهمّ ما كان يميّز النشاطات السّياسيّة والفعاليّات الاجتماعيّة ذات الصلة بالاهداف السّياسيّة في بداية القرن الماضي في العراق، هو انّها كانت تنشا بعد دراسة شاملة واعداد مسؤول من قبل صفوة الصّفوة التي تقود التحرّك الوطني وتقدر النتائج المترتبة على ذلك لا سيّما اذا تطلب التحرّك تضحيات بالارواح وبالاموال. وكان قرار التحرك المسلحّ الذي قاد الى ثورة العشرين الكبرى من اخطر القرارات التي عرضت على الصّفوة القياديّة سواء كانت دينيّة ام سياسيّة مدنيّة في المدن والارياف. اذ لم يقدم الزعماء الوطنيون على رفع السّلاح الا بعد ان شعروا بانّ الادارة البريطانيّة في العراق وحكومتها المؤقتة قد أغلقت

جميع ابواب السّلام والتفاهم ولم يبق امام العراقييّن الا الثورة المسلحّة من اجل التحرّر والاستقلال. والسؤال الذي قد يرد على الباحث أو القاريء هو:

هل كانت بريطانيا عازمة بشكل متعمّد على تفجير صراع عسكري مع العراقييّن ليحلّ وضع الاحتلال بدل التحرير الذي اعلنه الجنرال مود عند دخوله بغداد عام 1917؟ وبذلك تدفع المعارضة الوطنيّة العراقيّة الى معركة غير متكافئة لكي تقضي بريطانيا عليها او تطوّع ارادتها ظنا منها بضعف العراقيين بشكل عام، وعدم قدرتهم على مواصلة ثورة مسلحة او استمرارهم في رفع السلاح ضد القوّات البريطانيّة في العراق؟ فاذا ما ثار العراقيّون ثم اخمدت ثورتهم بالقوّة فسوف تكون انتكاستهم النفسيّة والمعنويّة اقوى من العسكريّة وستبقى اثار الانكسار لامد طويل ولم يعد للعراقييّن بعد ذاك ذريعة لمطالبة بريطانيا للوفاء بعهودها السّابقة.

وعلى الرّغم من انّ المؤلف لم يجد بعد ما يثبت ذلك وثائقيّا، الا انه لا يزال يرجّح هذا الافتراض بسبب كونه ينسجم مع مكوّنات الذهنيّة الاستعماريّة لدى كبار المخططين الاستراتيجييّن الإنكليز سواء الذين تولوّا ادارة العراق ام غيره، وسواء في تلك الفترة او في الفترات اللاحقة.

وكذلك يرجّح هذا الرأي للاسباب التالية:

اوّلا: ان الصفوة الوطنيّة التي فاوضت البريطانييّن كانت معتدلة جدا ومتواضعة في مطاليبها قبل رفعها السلاح مفترضة حسن الظن بالوعود البريطانيّة التي اعلنوها قبل الاحتلال (كمحررّين لا فاتحين).

ثانيا: انّ قيادة الصفوة الوطنيّة سبق وان ابدت تعاونها مع البريطانيين على افتراض حسن الظن بوعود كبار قادتهم (كمحررّين لا فاتحين) خلال فترة الاحتلال والادارة البريطانيّة المباشرة، وتقلدوا بامرة بريطانييّن مناصب في الادارة والتعليم والبلديّات ما بين (1914 - 1920). ولكنّ البريطانييّن فهموا ذلك استسلاما ورضى لواقع الاحتلال، وراحوا يتعاملون مع اعيان العراق وقادة القبائل باسلوب الاذلال والاهانة والشتم للعراقييّن وبتنصيب رؤساء الدّوائر من عناصر اجنبيّة هنديّة اوارمنيّة اومن صعاليك العرب او العجم.(د.علي الوردي/ لمحات/ج 5/ص 20، ص 29 - 27،)

ثالثا: وبقدر ما كانت صفوة المعارضة الوطنيّة عقلانيّة في حوارها ومنطقيّة في خطابها، كان المسؤولون في الادارة البريطانيّة في العراق يزدادون في سلوكهم اليومي تعاليا وعجرفة وعدم احترام لها بشكل عام، بل أخذوا يتجاهلون المطالب الجوهريّة الوطنيّة ويتسامحون في القضايا السطحيّة منها. وكان اشدّ ما أغاض الزعماء الوطنييّن هو انّهم كانوا يلاحظون بألم ما كانت تقوم به ادارة الاحتلال من التفاوض وبحث مستقبل العراق مع عدد قليل من الوجهاء الثانوييّن الموالين لبريطانيا وتجميع الانصار والمؤيّدين من الموظفين السّابقين

في العهد العثماني (من المدنيّن والعسكريّن) الذين اصبحوا عاطلين بعد انهيار الحكومة العثمانيّة وكانوا على استعداد لتنفيذ ما تامر به دار الاعتماد البريطانيّة في بغداد او الحكام العسكريّون في جميع مناطق العراق لقاء ارجاعهم الى وظائفهم السّابقة من اجل لقمة العيش.

رابعا: كان البريطانيّون على علم تام برغبات العراقيين في الحريّة والاستقلال، وجاءت نتائج استفتاء عام 1919 لتؤكد لهم ذلك، ومع ذلك فقد استكبروا وتجاهلوا مشاعر كافة مكوّنات الشعب وفي حساباتهم للقدرة القتاليّة لدى الشعب العراقي وشجاعته ومدى استعداده للتضحية في سبيل مستقبل وطنه.

خامسا: ان تصفية ثورة الصّفوة المعارضة الوطنيّة وضربها عسكريّا،سوف تكون ضرورة ودعم (للصّفوة العراقيّة الجديدة) المؤيّدة للبريطانيين وعلى راسها السّيد عبد الرحمن النقيب والسيّد طالب النقيب وزعماء قبائل عربيّة وعناصر من المكوّنات القوميّة والدينيّة والمذهبيّة.

هذا الجناح من الصّفوة العراقيّة التي بدات ادارة الاحتلال بتبنيّه وتعزز قوّته وتسوّقه كطبقة سياسيّة ستتولى ادارة الحكم في العراق.ولذا بدات بعض عناصرها تظهر وتعبر بكل صراحة تأييدها للبريطانيين علنا بعد ان كانت تصرّح بها على استحياء. (د.خالد التميمي/ المصدر/ص94)

وعلى ايّة افتراضات قد تخطر على البال، فان دقة التنظيم والتحرك المسلح الذي تطوّر ليصبح ثورة العشرين الكبرى قد فاجأ مسؤولي ادارة الاحتلال البريطاني في العراق مثلما فاجأ اصحاب القرار السياسي في لندن من حيث قوّته وسرعة انتشاره وتلاحم كافة المكوّنات العراقيّة وسعة المساحة الجغرافيّة التي سيطر عليها الثوّار خلال فترة زمنيّة قصيرة وهي تقاتل باسلحة تكاد تكون بدائيّة وبسيطة القوّات المسلحة لبريطانيا العظمى المتنوّعة بما فيها الطائرات الحربيّة. وفي هذا الصّدد يقول المفكر والفيلسوف امين الرّيحاني ما يلي:

"... انه لا عجب ما حدث في العراق بعد الاحتلال الانجليزي.. هو ذا بلد لا صحافة فيه تذكر ولا طرق مواصلات حديثة صالحة، ولا قيادة، تعمّه الثورة فتربط اطرافه بعضها ببعض في اقلّ من شهر، ثمّ تستمرّ اشهرا وهي تزداد قوّة وهولا. حتى انّ العاصمة بغداد كادت تسقط في حوزة الثائرين...". (امين الريحاني/ملوك العرب/بيروت1951 ج2/ص362)

ويقول العالم الاجتماعي العراقي الدكتور علي الوردي:".. انّ ثورة العشرين هي اوّل حدث في تاريخ العراق يشترك فيه العراقيّون بمختلف فئاتهم وطبقاتهم، فقد شوهدت فيها العمامة الى جانب الطربوش، والكشيدة الى جانب اللفة القلعيّة، والعقال الى جانب الكلاو، وكلهم يهتفون: "يحيى الوطن !" . (الوردي/لمحات/ج5/ص15)

أثر الاحزاب على الصّفوة العراقيّة

لقد كان لظهور الاحزاب السياسيّة في العراق الحديث نتائج مهمّة جدّا في مسيرة وتطوّر (الصفوة العراقيّة)، بشقيّها الايجابي اوالسّلبي:

ففي الشق الايجابي؛ لعبت الاحزاب دورا هامّا في ترسيخ الشعور بالهويّة الوطنية العراقيّة (منذ بداية تأسيس المملكة العراقيّة) حيث نجدها قد ضمّت في صفوف منتسبيها ومؤيّديها معظم اطياف المجتمع العراقي [العربي والكردي والتركماني والارمني والمسلم (الشيعي او السنّي) واليهودي والمسيحي والصابئي المندائي....] كاعضاء ناشطين في كلّ تنظيم ومن اجل هدف مشترك واحد خدمة (اهداف الوطن)....، كما ساهمت (الاحزاب) الى حد كبير في الخروج من حالة عزلة ابناء المناطق الجغرافيّة عن بعضهم البعض وحالة الابتعاد التي كان عليها العراقيّون كل في منطقته طيلة ايّام العهد العثماني بسبب سوء الادارة وصعوبة المواصلات. فلاوّل مرّة وبحكم متطلبات الاتصالات الحزبيّة يتعرّف ناشطون من البصرة والعمارة والناصريّة والنجف او بغداد باخوة لهم في سامرّاء والرمادي وتكريت والسليمانيّة واربيل والموصل ويعملون سويّة بروح من الودّ والالفة والتلاقح الاجتماعي، مما زاد في عمليّة الاندماج ونشر الوعي الوطني ومفهوم حقوق وواجبات المواطنة، وتعبئة ابناء العراق لمواجهة مختلف التحدّيات الداخليّة والخارجيّة التي كان ولا يزال يتعرّض لها وطنهم.

امّا في الشقّ السلبي، فقد دأبت الاحزاب العراقيّة منذ بداية نشاتها وحتى اليوم على ممارسة اساليب تنظيميّة ودعائيّة بعيدة عن تراث المنطقة وعن النهج الديمقراطي الحديث، اذ هي اقرب الى الممارسات القبليّة داخليّا وخارجيّا،لا سيّما في العلاقات بين منتسبيها كافراد،او في تعاملها مع الاحزاب والتنظيمات العراقيّة الاخرى. كما نجدها (الاحزاب ايضا) تتعامل مع ايّة حكومة عراقيّة جديدة تتولى السلطة بروح من العدائية والكره لاعضائها كافراد لا لمنهجها او لمبادئها، وهي تسعى بشتى الطرق الى محاربتها داخل وخارج المؤسّسات الدستوريّة بمختلف الوسائل الموضوعيّة وغير الموضوعيّة، بهدف اضعافها ومن ثمّ اسقاطها، بما في ذلك ممارسة التآمر في الظلام وخرق حرمة الممتلكات وازهاق الارواح،وتعطيل دستور البلاد بل واستعداء قوى اجنبيّة خارجيّه (اقليميّة ودوليّة) والاستعانة بها ماديّا ومعنويّا ضد مصالح الوطن العليا؛

(ينقل عن مذكرات الفريق حردان عبد الغفّار التكريتي قوله: "..لقد سمعت وقرات تفسيرات كثيرة عن اسباب انقلاب 17 تموز 1968. وكنت في كلّ مرّة اشعر بالحاجة الى الضحك الطويل على ما يكتب... ولو أني سئلت الان عن اسباب انقلاب 17 تموز وانقلاب 30 تموز لما ترددت في الاشارة الى واشنطن، كجواب على السّؤال الاوّل، والى بريطانيا كجواب على السّؤال الثاني... "مذكرات سياسي عراقي/حردان التكريتي- وزير الدفاع العراقي السّابق/ص43 44-.).

كما اتبعت الاحزاب منذ وقت مبكر جدّا من عمر الدولة العراقية الحديثة اساليب توريط

الجيش والقادة العسكريين بانقلابات، لاهداف سياسيّة، والعمل معهم سرّا للتآمر المسلح وخلق الفتن العشائريّة والمذهبيّة والقوميّة وخرق نصوص الدستور والقوانين المصادق عليها من قبل البرلمان العراقي المنتخب من الشعب. فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ استغلت الاحزاب السّياسيّة بعض الافراد القلائل من ضباط الجيش العراقي وأغرتهم بشتى الوسائل لتنفيذ اوّل انقلاب عسكري جرى في العالم العربي عام 1936 (بقيادة الفريق بكر صدقي) ولم يمض على انشاء الجيش بعد سوى عشر سنوات، فكان من نتيجة ذلك فقدان الجيش ـ الحديث النشأة ـ لعدد غير قليل من منتسبيه ومن بينهم من ذوي الرّتب العالية مابين قتيل ومطرود سواء اثناء تنفيذ عمليّة الانقلاب او بعد التخلّص من حكم الانقلابيّين الذي دام اقلّ من عامين، بينما لم يمسّ في حينها ايّ من السيّاسييّن الذين خطّطوا وساهموا في ذلك الانقلاب وورّطوا ضباط الجيش فيه ايّ اذى وفي مقدّمتهم اعضاء مجلس الوزراء الذين فرضوا انفسهم حكومة (حكومة حكمت سليمان) بقوّة فئة قليلة من الجيش لأعبر صناديق الانتخابات كما نصّ الدستور على ذلك.

لذا يمكن القول ومن خلال دراستنا ومعايشتنا للاحداث السياسيّة لاكثر من نصف قرن انّ جميع الاحزاب السّياسيّة العراقيّة دون استثناء لم تقم بتربية منتسبيها، ناهيك عن المساهمة في تربية المجتمع، تربية سياسيّة سليمة تقوم اساسا على احترام الرأي الاخر والتمسّك بالمؤسّسات الدستوريّة والقانون والنظام وحراسة المال العام في الدولة. وكذلك لم تثقف منتسبيها بضرورات العمل والتضحية من اجل ضمان الحريّات والاخلاص لدستور يشرّعه اعضاء برلمان منتخبون انتخابا حرّا وللمؤسّسات الديمقراطيّة واحترام الرأي العام. لقد علمّت الاحزاب العراقيّة وروّضت منتسبيها على الولاء المطلق للحزب واطاعة قيادته التي عادة ما يكون فردا مطلق الصلاحيّات وابتكروا قانونا تنظيميّا داخليّا "نفذ.. ثمّ ناقش" يعتبر الخروج عليه خيانة للحزب ولعقيدته وزاد عليه بعض الحزبييّن السّاخرين "نفذ.. ولا تناقش" ولا اجد نصّا ساخرا معبّرا بصدق عن حالة (الحزبيّ) المتعطش للممارسة الديمقراطيّة داخل حزبه وخارجه كهذا النص.

فقد كتب المرحوم هاني الفكيكي في مقدمة مذكرّاته:

"..الغريب انني حينما شرعت في تسجيل تجربتي في البعث العراقي، شعرت بخوف مبهم، هزّني من الاعماق. خوف الفته وتعايشت معه. اذ ترعرع معي منذ طراوة وعيي وافكاري، ونما في ليل الاستبداد الطويل، ماؤه من بئر الموروث الثقافي والتقليد المرّ. وعلى رغم ما قدّمته الاحزاب والحركات السيّاسيّة من فرص للتمرّد، فانّ الشعور المزمن بالإتهّام والمروق الممزوج بالاحساس الدائم بالدفاع عن النفس، بقيا يسكنان نفوس العاملين في حقول النضال السّياسي والتحرّر الاجتماعي... ولقد ترددت كثيرا قبل الشروع في تدوين فصول هذا الكتاب...ومما زاد في ترددي ذلك الشعور بالمسؤوليّة تجاه النفس وامام الاخرين، الذي رافقني زمنا ورافقته، بسبب الجرائم والاخطاء التي ارتكبتها الحركة السّياسيّة العراقيّة

واحزابها، ومنها البعث، سواء من موقع المعارضة ام الحكم، ودفع شعبنا العراقي وشعوبنا العربيّة،ثمنا لها، من دمها وتقدّمها وامنها). (هاني الفكيكي/أوكار الهزيمة/ تجربتي في حزب البعث العراقي/ دار الريس- لندن 1993/ص 9).

والواقع انّ هاني الفكيكي بكتابه هذا، يكون اوّل سياسي عراقي قد سّجل بنفسه وبصراحة وبشجاعة متميّزة تجربته السياسيّة كاشفا بعضا من اسرار العمل الحزبي السرّي وان جاءت اسراره القليلة بشكل لم ترض الى حدّ كبير فضول باحث مثلي كما قلت له شخصيّا رحمه الله. بينما سبقته بفترة قصيرة كتابات الاستاذ حسن العلوي التي كشف فيها الغطاء عن جوانب خطيرة ومذهلة عن طبيعة العمل السّري لحزب البعث وان كانت في اطار معلومات البحث العام لا الخاص.

لقد بدات الاحزاب العراقيّة تبشّر عمليّا بثقافة العنف والدمّ منذ عهد الملك الشاب غازي الاوّل؛ ابتداءا بالتحريك المسلح للعشائر خلال اعوام 1933 - 1935، ثمّ بشكل اوسع واخطر بانقلاب بكر صدقي كما أشرت، اذ جاءت احداث انقلاب 1936 بسنن سيّئة اتّبعها المغامرون وعشاق الحكم في جميع الانقلابات اللاحقة في النصف الاول من القرن الماضي الذي اعقب ذلك الانقلاب المشؤوم تشابهه في الاسلوب وتتفوّق عليه بالدمويّة وبالنتائج الكارثيّة؛ بينما تأكد بالادلّة القاطعة حقيقة ملموسة وهي انّ جميع الانقلابات العسكريّة في العراق كان يخطّط لها السيّاسيّون (افرادا واحزابا) وينفّذها المغامرون من العسكريّين. وبينما يكون السياسيّون هم اوّل المستفيدين من كل انقلاب، نجد العسكريين هم اخر المستفيدين بل هم اوّل ضحاياه. وبعد كل ما تقدّم بهذا الصدد نستطيع القول ان الغالبيّة العظمى من اخواننا وابنائنا من العسكريّين العراقيّين الذين فقدناهم بسبب جميع الانقلابات التي وقعت في القرن الماضي وما رافقها من تخريب للمؤسسّة العسكريّة الوطنيّة وما جرى داخلها من اغتيالات وطرد للعسكرييّن من مهنتهم التي لا يتقنون غيرها كان بسبب النفاق السّياسي للقادة المدنييّن في الاحزاب السياسيّة وطموحهم الغير مشروع خارج صناديق الاقتراع. وكذلك روح المغامرة لديهم بهدف اختطا ف السلطة بكل ما فيها من امتيازات ومغانم ماديّة ومعنويّة. ولابد من الاشارة هنا ايضا الى انّ الانقلاب الذي قاده بكرصدقي (الذي كان الاوّل في العالم العربي كما اشرت) قد اصبح القدوة لانقلابات اخرى في سوريا ومصر واليمن فيما بعد كما اشار العديد ممن قادوها في مذكراتهم بما فيهم الرئيس المصري السّابق جمال عبد الناصر ومجموعته.

لقد اثبتت الاحداث المأساوية وحالة القلق وعدم الاستقرار والفوضى التي مرّ بها العراق طيلة العهدين، الملكي والجمهوري منذ بداية القرن الماضي وحتى اليوم، بان الاسراع في عمليّة انشاء المؤسسات الدستوريّة كصورة طبق الأصل عن مثيلاتها في بريطانيا والغرب كان خطا جسيما وقعت به بريطانيا (كدولة منتدبة من قبل عصبة الامم على العراق) مثلما وقع به الملك فيصل الاوّل والمؤسسون الاوائل للدولة العراقيّة الحديثة. فبالاضافة الى عدم

استعداد المجتمع العراقي بعد بكافّة مستوياته الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لتقبّل وتطبيق نمط النظام السياسي الأوروبي الجديد (البرلماني) بكل متطلباته. فانّ الاستغلال السّيء للمؤسسات الدستوريّة الجديدة من قبل قادة الاحزاب السّياسيّة، لا سيّما الاحزاب السريّة، قد أصبحت وسيلة فاعلة لزيادة وتعميق المشاكل والعقد التاريخيّة الموروثة وكذلك خلق الازمات التي كانت مصادر قلق وعدم استقرار في العراق لفترة تزيد على الاربعة قرون ونيف من حكم العثمانيّين؛ اذ لا يمكن القفز على المراحل التاريخيّة وتجاهل حقائق تخلف غالبيّة المجتمع وجهلهم، مهما كانت النوايا حسنة والاهداف نبيلة من قبل ايّ انقلابي قد ينجح في انقلابه ويتمكن من قيادة البلد وادارة شؤونه لفترة من الزمن.

انّ قراءة سريعة في الجرائم الكبرى كهدر الدمّاء البريئة وضياع الثروات الوطنيّة الطائلة على ايدي جهلة عابثين ولصوص متمرّسين الذين تسللوا الى الحكم كمحصلة للانقلابات المباغتة وافرازاتها، وكذلك التفريط بالفرص التاريخيّة للتطوّر الحضاري التي ضاعت من العراق والعراقييّن طيلة القرن الماضي، لا سيّما خلال النصف الاخير من القرن العشرين وكذلك في مطلع القرن الحالي واخرها كارثة فقدان الاستقلال الوطني بكامله عام2003، ما هي الا مسؤوليّة الصّفوة الجديدة التي تقود الاحزاب والقوى السّياسيّة العراقيّة الكبيرة التي تطلق على نفسها (التاريخيّة) سواء كانت في السّلطة ام في المعارضة سابقا ولاحقا بما فيهم العناصر والرموز المؤيّدة لها والتي تقوم عقب كلّ تغيير بدور العلق على الجسد انتهازيّة وانتفاعا.

لقد اثرّت الاحزاب والتنظيمات السيّاسيّة العراقيّة لا سيّما السريّة منها (وبشكل خاص الشيوعي والبعث العربي الاشتراكي وتنظيم الضبّاط الاحرار واخيرا الاحزاب السّريّة الاسلاميّة) على المجتمع العراقي سلبيّا خلال القرن الماضي، وشلتّ التطوّر الطبيعي لصفوته في قيادة المجتمع والدولة، مثلما اخلتّ بوحدة النسيج الاجتماعي وبالتقاليد وبالقيم والموازين التراثيّة التي تربط بين كافة افراد وشرائح المجتمع وفرّطت بثروات وطنيّة هائلة وفرص تاريخيّة خسرتها الاجيال في الماضي القريب والحالي وفي المستقبل. ولذلك فقد أعطت أسوء النتائج وسببّت اشدّ المحن و الاضرار خلال القرن الماضي وبداية القرن الحالي الذي لانزال نعيش احداثه وافرازاته حتى اليوم.كما وضعت العراق بشكل مؤكد امام مخاطر لاحدود لها ومستقبل مجهول من الصّعب التكهّن به... لذا فقد اصبحت مسؤوليّة الصّفوة العراقيّة الوارثة اليوم على اختلاف مكوّناتها ان تعي انّ متطلبات اعادة العراق الى وضعه الطبيعي اشقّ واصعب بكثير من مسؤوليّة شبيهتها صفوة بداية القرن الماضي. ففي بداية القرن الماضي كانت قيم النزاهة والامانة والحرص الشديد على المال العام هي القاعدة، والفساد هو الاستثناء،بينما العكس حصل في بداية القرن الحالي. وما فضائح الفساد التي نفاجأ بها كلّ يوم في هذه الايام، الا غيض من فيض نوعا وكمّا.

الصّفوة والتاثيرات الاقليميّة

يتأثر العراق دائما، كغيره من شعوب الارض، بما يحدث حوله في الدول المجاورة من تطوّرات واحداث (عقائديّة وسياسيّة) سواء في السلم او في الحرب. وللعراقيين عاطفة خاصّة وغيرة مشهودة تجاه الدول العربيّة و الاسلاميّة، لمؤثرات تاريخية ولاعتبارات قوميّة ودينيّة، و كذلك بسبب ترابط العديد من العشائر والعوائل العراقيّة مع مثيلاتها في هذه الدول بروابط النسب والقربى.وقد تبلغ مشاعر المسؤوليّة والولاء والمحبّة في كثير من الاحيان والمواقف لدى العراقي حدّا انّه قد يضع مصالحها فوق مصلحته الوطنيّة. لذا فقد تأثرت الصّفوة العراقية مثلما اثّرت بمثيلاتها في الدولتين الاسلاميّتين المجاورتين؛ تركيا وايران، وكذلك مع الاشقّاء في بلاد الشام وشبه جزيرة العرب ومصر وشمال افريقية منذ قرون عديدة، حتى يكاد يصعب على المؤرّخين والباحثين ان يجد حدثا تاريخيا مرّ على العراق دون ان يجد له جذرا او سببا يربطه بجيرانه.

وبالاضافة الى ما تقدّم فلابدّ لنا من ان نؤكد انّنا حينما نتحدّث عن الصلات الحميمية بين شعوب المنطقة بأسرها، فانّ حديثنا لا يتضمّن اطلاقا الانظمة السيّاسيّة المتسلطة عليها لا سيّما منذ بداية القرن الماضي وحتى اليوم. هذه الانظمة التي بذلت، خلال القرن الماضي ولا تزال، كلّ ما لديها من امكانيّات ماديّة ومعنويّة واساليب امنيّة وقوانين جائرة لعزل شعوب المنطقة عن بعضها البعض بحجج واعذار مختلفة ومتخلفة تصل احيانا حدّ السخف والاستهتار وعدم الاحترام لحقوق ولمشاعر شعوب هذه المنطقة.ففي الوقت الذي توحّدت فيه مجموعات الدول الأوروبيّة ودول القارّتين الامريكيّتين بعد قرون من الحروب والعداء العنصري و(الديني والمذهبي)، نرى شعوبها اليوم ترفل بنعيم وفوائد وحدتها ماديّا ومعنويّا ونفسيّا، وان كانت وحداتها جاءت باشكال وبنسب متفاوته، نجد ظاهرة ترسيخ حالة الانقسام والفصل بين ابناء هذه المنطقة الأوسطيّة يزداد يوما بعد يوم، علما بانها هي المنطقة الوحيدة في العالم التي يملك ابناؤها عوامل الوحدة والتفاهم اكثر من عوامل الفرقة والانقسام. وممّا لا شك فيه فقد آثرّت متطلبات تنفيذ مخططات المشروع الصّهيوني، وكذلك المواقف السّلبيّة للانظمة السياسيّة في المنطقة، تجاه اي شكل من اشكال التقارب والتوحيد، على الصّفوة في جميع بلدان المنطقة، والعراق بطبيعة الحال غير مستثنى من ذلك...

تركيـــا

انّ اربعة قرون ونيف من حكم الامبراطوريّة العثمانية للعراق قد تركت بصمات واضحة المعالم عليه وعلى جميع سكانه في كافة جوانب الحياة، لا سيّما على الصّفوة التي تربّت غالبيّتها في احضان الدولة العثمانيّة،ثمّ تولّت انشاء الدولة العراقيّة الحديثة (المملكة العراقيّة) وحكمتها مع مطلع القرن العشرين. وقد لا اكون مبالغا اذا ما قلت انّ البصمات العثمانيّة

لا زالت واضحة المعالم على العراق على الرغم من مرور تسعين سنة على انتهاء الحكم العثماني على العراق. انّ التأثيرات العثمانيّة على العراق لم تتوقف بانتهاء الحكم العثماني له بل استمرت، حتى بعد انهيار الدولة العثمانيّة وقيام الجمهوريّة التركيّة التي حلت محلّها، بسبب رابطة الجوار والنسب وتشابك المصالح والامتدادات الطبيعيّة وفي مقدمتها جغرافيّة المنابع الرئيسيّة لنهري دجلة والفرات ضمن الحدود المشتركة في المثلث الواقع ما بين تركيا والعراق وايران. ومثلما يوجد تداخل سكاني لجماعات مختلفه فيه. لذا فانّ الواقع الديني الاسلامي وتداخل المجتمعين والاحداث التاريخيّة والحضاريّة بين البلدين جعلت الصّفوة (لا سيّما التي تربّعت على الحكم في كلا البلدين) تدرك ضمن معطيات الواقع الدولي والراي العام المحلي انها لا تستطيع الاستغناء عن شقيقتها الاخرى في كلّ مرحلة من مراحل تاريخ البلدين في الشدّة والرّخاء. لقد تركت الاحداث التاريخيّة عبر القرون الماضية، لا سيّما الاربعة قرون العثمانيّة، تراثا حضاريّا غنيّا، لا يمكن الاستغناء عنه لدراسته لأجل تطوّر وتقدّم كلا البلدين، العراق وتركيا، ومن اجل الحضارة الانسانيّة جمعاء، ذلك التراث مدوّنا ومحفوظا في الخزائن ومراكز حفظ الوثائق (الارشيف العثماني) في إستامبول وانقرة ينتظر الدراسة والتحقيق بعد ان جمّدته السّياسة الأتاتوركيّة التي أفقدت الاتراك قبل غيرهم من شعوب الدولة العثمانيّة تراثا تاريخيّا ضخما وكنزا علميّا لا تستغني المعرفة عنه.

وحينما تقلصت الامبراطوريّة العثمانيّة، بعد الحرب العالميّة الاولى، الى حدود الجمهوريّة التركيّة الحاليّة،اصبحت علاقات الجوار مع العراق اقوى وضروراتها اكثر اتساعا على كافة المستويات السّياسيّة والاقتصاديّة وضرورات الأمن القومي لكلا البلدين الجديدين وهما يدخلان سويّة القرن العشرين. وقد لعب القائدان المؤسّسان (مصطفى كمال أتاتورك للجمهوريّة التركيّة) و (الملك فيصل الاوّل للمملكة العراقيّة) وحولهما الصّفوتان الاجتماعيّتان التقليديّتان دورا عظيما في ارساء اسس وقواعد وحقوق وتقاليد العلاقات العراقيّة - التركيّة على اختلاف الوانها ومستوياتها. انّ من اهمّ المشاكل التي تواجه البلدين اليوم وفي المستقبل غير البعيد هي؛ مصادر المياه التي هي عصب الحياة للعراق ولسورية، اذ انّ غالبيّة منابعها تقع داخل الاراضي التركيّة، وكذلك وضع حقوق ابناء القوميّتين، العربيّة والكرديّة، الذين يعيشون داخل سيادة الحدود التركيّة. وتستطيع الصّفوتان في كلا البلدين القيام بادوار تكامليّة ايجابيّة لدعم الروابط والمصالح الاستراتيجيّة في كلا البلدين،لا سيّما في المشاريع الاقتصاديّة الكبرى وتذليل ايّة عقبات قد تعيقها وبشكل استثنائي من اجل المصالح المشتركة.

إيـــران

ايران هي البلد المجاور الوحيد الذي تشكّل جميع حدوده الغربيّة جميع حدود العراق الشرقيّة من اقصى شماله الى ادنى جنوبه. كما انّ المنابع الرئيسيّة لاهمّ روافد نهر دجلة تقع

داخل الحدود الايرانيّة. وايران تشبه العراق في تعدّدها المذهبي والعرقي وسيرتها التاريخيّة منذ الاف السّنين، كما انّ لشعوبها صلات تاريخيّة وروابط قوميّة ومذهبيّة قويّة ومتداخلة مع نظرائها في العراق لاكثر من ستة الاف سنة؛ فقبائل الكرد والتركمان في شمال غرب ايران وغالبيّتهم اليوم من المسلمين السنّة الشافعيّة والحنفيّة لهم امتدادات وصلات رحم مع اخوتهم وابناء عمومتهم في كردستان العراق من اقصى الشمال الغربي الى ادنى الجنوب الشرقي وتمتدّ جغرافيّا حتى شرق محافظة ديالى العراقيّة. اما في منطقة الاحواز (عربستان) جنوب غرب ايران، فيشكل سكانها العرب المسلمون الشيعة الغالبيّة العظمى فيها وهم قبائل وعوائل عربيّة اصيلة من طيّ وتميم وكعب وربيعة والسّادة المشعشع والكرد الفيليّة وغيرها. كما انّ لهم صلات نسب وقربى مع ابناء عمومتهم في الجوار العراقي عبر التاريخ حتى انّ الشيخ خزعل الكعبي امير الاحواز سابقا كان احد المرشحين المنافسين للملك فيصل الاوّل على عرش العراق عند تشكيل المملكة العراقيّة عام 1921.

يشكل المذهب الشيعي الجعفري مذهب الاغلبيّة لمسلمي ايران والعراق، كما ان ولاء الايرانيين للاسلام ولائمة اهل بيت النبي (ص) ودورهم الاساسي في فتوحات مناطق أرمينية وبقيّة قارة اسيا وتطوير ونشر حضارته في العالم من اهم اجزاء تاريخ ايران والاسلام عموما.

لقد بقيت مدن بغداد و النجف وكربلاء وسامراء والكاظميّة في العراق ونظيراتها في طهران وقم واصفهان ومشهد (خراسان) في ايران على مر التاريخ مسرحا للتلاقح العلمي والدراسات التاريخيّه و الفقهيّه (الشيعيّة والسنيّة) وكذلك لعلوم اللغة العربيّة المختلفة ايضا، فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ انّ الغالبيّة العظمى من كبار الائمّة والمراجع العظام للطوائف الاسلاميّة الكبرى (السنيّة والشّيعيّة) اصولهم من ايران. وانّ معدّل ما تطبعه ايران اليوم وحدها من كتب تاريخيّة وفقهيّة لشتى المذاهب، وتراجم ومؤلفات تراثيّة باللغة العربيّة في السنوات الاخيرة تعادل عدديّا اربعة اضعاف ما تطبعه اليوم جميع الدول العربيّة من المطبوعات المشابهه لها، هذا عدا حقائق وجود علاقات النسّب والمصاهرة القائمة بين اشهر العوائل الايرانيّة والعراقيّة منذ قرون عديدة ولازالت مستمرّة حتى اليوم. واخيرا هناك اضاءات حق لابدّ لي من وضعها امام القاريء (العربي قبل الاجنبي) لا سيّما لاولئك الذين ورثوا العداء الغير مبرّر لايران:

اوّلا: انّ ايران بشعوبها المتعددة المذاهب والاعراق، وبامتدادها الجغرافي في قلب قارة اسيا وباشرافها المباشر على البحار والمضائق من خليج عُمان وحتى السواحل الشماليّة للخليج العربي/الفارسي بالامكان جعلها امتدادا وعمقا استراتيجيّا للعرب وللمسلمين باعتبارها جزءا من الامّة الاسلاميّة يخشاه اعداء العرب والاسلام ويحسبون له ادق الحسابات سابقا ولاحقا.

ثانيا: ان سياسة العداء والميل للنيل من ايران ومن الايرانيّن، ومحاولة المتعصّبين العنصريّن

التقليل من اهميّة دور ايران في تاريخ الاسلام والمسلمين، لايغيّر من حقائق الواقع التاريخي والحضاري والامجاد التي شرُفت بها ايران على صعيد الاداب والفنون والعلوم والفلسفة والفكر الديني والدنيوي عبر العصور وحتى اليوم. ونحن لا نتجاوز الحقيقة والواقع حينما نقول انّ ايران وحدها سوف تبقى تتميّز الى ابد الدهر كونها تمتلك رسولا حضاريّا وممثلا لها داخل بيوتات وغرف نوم غالبيّة اصدقائها واعدائها بما فيهم رؤساء وملوك العالم ليذكرّهم بروعة التراث والفن والحضارة والجمال للانتاج الانساني لايران، ذلك هو السّجاد الايراني. وهو جانب من جوانب الفخر والدليل التراثي للمسلمين جميعا.

ثالثا: لقد اكدت الاحداث القريبة قبل البعيدة انّ اعداء الامّة الاسلاميّة وفي مقدمتهم - الصّهاينة الشوفينييّن - يسعون للايقاع بين شعوبها كجزء من سياسة المحاربة بالضدّ النوعي لاضعاف الطرفين من اجل السّيطرة على اراضيهم ونهب خيراتهم الوفيرة.وهذا ما حدث للمنطقة العربيّة والاسلاميّة طيلة احداث القرن الماضي، حينما خدُع العرب المسلمون للتحالف مع اعداء الدولة العثمانيّة المسلمة ولا يزالون حتى اليوم يحاربون العربي بالعربي والمسلم بالمسلم.

رابعا: ان نزعة العداء لايران (ومثلها نزعة القوميين الفرس للعرب) تمثل النزعة الشوفينيّة العنصريّة المتخلفة التي لايخلوا منها ايّ مجتمع، بينما تتجه دول العالم وشعوبها اليوم الى التقارب والتعاون وتبادل الخبرات ضمن مشاريع وحدويّة سياسيّا واقتصاديّا وحضاريّا خدمة "للناس" وهي المباديء الاساسيّة للاسلام الذي جعل للانسان الفرد قيمة كبرى اغلى من الكعبة المشرّفة.

الحدود الغربيّة والجنوبيّة

اما الحدود الغربيّة والجنوبيّة للعراق مع بلاد الشام وشبه جزيرة العرب فهي لا تتعدّى كونها الخطوط الشهيرة التي رسمها باللونين الازرق والاحمر على خارطة المنطقة كل من مارك سايكس وجورج بيكو وزيرا خارجيّتي الدولتين الاستعماريّتين بريطانيا وفرنسا مع مطلع القرن العشرين عام 1916. هذه الحدود التي لم تستطع ان تضع في واقع الضمير والوجدان لكل اسرة اوفرد من ابناء هذه المنطقة، لا سيّما ابناء العراق، حاجزا نفسيّا او حدودا جغرافيّة حقيقيّة بل بقيت صلات التزاوج ومشاعر الحب ومسؤولية اداء الواجب حيال بعضهم البعض قائمة بين ابنائها وقبائلها لا سيّما لدى قبائل شمّر وربيعة وعنزة وتميم وكعب وطيّ والمطير وغيرها من العشائر وكبار البيوتات الذين ينتشرون في سورية والاردن والسعوديّة والكويت ولسوف تبقى تأثيرات الاواصر فاعلة ومتبادله بين الجهتين على مختلف الاصعدة ما بقي الدين الاسلامي وما بقيت العروبة وطبيعة المنطقة ثابتة.

لقد اكّدت مجرى التطوّرات السياسيّة واحداث التغييرات والانقلابات التي جرت في

دول الجوار وفي العراق تفاعل الصّفوة العراقيّة مع مثيلاتها في الدول المجاورة له. فقد أثرت وتأثر بعضها بالبعض الاخر على كافة الاصعدة السياسيّة والاقتصاديّة والفكرية والثقافيّة والعسكريّة (سلبا او ايجابا)؛ من ذلك على سبيل انتقاء الامثال لا الحصر ما جرى في العراق من اصداء بسبب ظهور حركة الاصلاح الدستوري العثماني وثورة الاتحاديين (1908) في تركيا ومن ثمّ تطوّرات الحرب العالميّة الاولى وما أفرزته من نشاطات سياسيّة وتنظيميّة في العراق، واثر الانقلاب العسكري الذي قاده مصطفى كمال اتاتورك في تركيا ضد الخلافة العثمانيّة حيث أصبحت (الأتاتوركيّة) قدوة متبعة ومثل يحتذى به من قبل ضباط الجيش العراقي منذ انشاء المملكة العراقيّة وحتى اليوم بغض النظر ان كانت التأثيرات سلبا او ايجابا.

مؤثّرات ايران

والامر لايختلف مع احداث الجارة ايران على امتداد التاريخ القديم والوسيط والحديث، ففي خلال القرون الماضية وحتى اليوم، اثرّت تطوّرات التاريخ، واحداث الثورات والانقلابات الحديثة التي جرت فيها ابتداء من الحركة الدستوريّة وتطوّراتها في ايران والتي اشعل فتيلها انذاك اعلان مظفر الدين شاه القاجاري دستور عام 1906 مرورا باحداث الانقلاب الذي قاده رضا بهلوي وقيام النظام الملكي (الشاهنشاهي)، وبعد ذلك تطوّرات تاميم الدكتور محمد مصدّق لنفط ايران في تأجيج المظاهرات والانتفاضات التي حدثت في العراق عام 1952، وكذلك اثر الاطاحة بالملكيّة في العراق عام 1958 على النظام الملكي في ايران وحتى سقوط النظام الملكي الشاهنشاهي وقيام الجمهوريّة الاسلاميّة عام 1979 ودور النجف وكربلاء والصفوة من الاسلاميّين العراقيّين فكريّا وحركيّا في ذلك، حتى انّ هنالك مقولة شائعة تقول: بانّ ثورة ايران الاسلاميّة قد ولدت في مدينة النجف في العراق.

ومن جانب اخر لابدّ من الاشارة الى اثر الثورات والحركات القوميّة للكرد عموما في العراق على اخوتهم وابناء عمومتهم في ايران وتركيا وسورية، والتأثيرات الخطيرة الاخرى في اواخر القرن الماضي وبداية القرن الحالي كالحروب التي اغرق فيها العراق مع ايران والكويت والسعوديّة واخرها تلك التي انتهت باحتلال دول التحالف للعراق عام 2003.

ومع كلّ ما تقدّم، لابدّ لي من الاشارة الى حقيقة وجود حسّاسيّة مفرطة وموقف سلبي غير مبرّر من قبل عدد غير قليل من العرب ومن وسائل الاعلام العربيّة وبعض الباحثين من العرب في الشؤون الايرانيّة، سواء من العراقيّين اومن العرب (لا سيّما ذوي النزعة القوميّة منهم)، تجاه ايران. فهم ينظرون الى طبيعة الصلات المتميّزة بين العراق وشعوب الدول المجاورة (لا سيّما المسلمة) لهم نظرة سلبيّة ضيّقة لاتخلو من تعصّب عنصري وطائفي، تجاه الايرانييّن والكرد بشكل خاص، وقليلا جدا من التعصّب تجاه الاتراك. وقد غاب عنهم

ـ كنظرائهم في الجهة الاخرى ـ عظم و اهمّية مثل هذه الخصوصيّة (التأثيرات المتبادلة) ليس لفائدة العراق وحده بل للدول المحيطة به ايضا في التلاقح الحضاري والعطاء الفكري والثقافي الغني والمملوء بالعطاء والخير للانسانيّة، وكذلك في الدفاع عن المصالح وعن وجود عموم المنطقة عبر التاريخ سواء في الماضي والحاضر أو في المستقبل.

ان من يدرس تاريخ الدولة العثمانيّة المدني والعسكري والتراث الحضاري لها ومثله لايران، وان من يقرا لحافظ والشيرازي وسعدي وعمر الخيّام وابن سينا وغيرهم من عمالقة الشعراء والفلاسفة في ايران، اومن يطلع على رحاب الدراسات الاسلاميّة وافا ق المدرستين (الشيعيّة والسنيّة) الفقهيّة والفلسفيّة بل وحتى علوم اللغة العربيّة لائمة الاسلام العظام في دول الجوار، يدرك حجم وفيض الرّحمة والنعمة الالهيّة العظيمة التي انعم الله بها على سكان هذه المنطقة الأوسطيّة بهذه الخصوصيّة، خصوصيّة عمق الصلات البشريّة؛ التاريخيّة و الجغرافيّة والحضاريّة فيما بينها على مرّ العصور.

وبالاضافة الى ما تقدّم من مؤثرات شاملة ومتبادلة بين شعوب المنطقة فقد بقيت بيوتات كبيرة ومرموقة من الصفوة العراقيّة ـ عوائل وافراد ـ على اتصال دائم بمثيلاتها في دول الجوار حتى اليوم مترابطين في كثير من الاحيان برابطة التزاوج والنسب على مختلف المستويات الاجتماعيّة مما زاد من تلاحم الطرفين صلابة رغم الام التجارب المريرة والقصص المرعبة التي صاحبت الحروب العبثيّة التي اجّجتها بعض انظمتها العنصريّة والمغامرون من حكامها.

لذا فان (التأثيرات المتبادلة) عميقة الجذور ومؤثرة وذات مساحة واسعة وعديدة بين الصّفوة العراقيّة ونظيراتها في الدول المجاورة وهي متشابكة ومن المستحيل اضعافها، لانّها متشابهه جدا في سلوكها وتركيبتها مما انعكست نتائجها بشكل واضح على عامة فئات مجتمعاتها في كافة جوانب حياتهم.

انه لمّا لاشك فيه انّ هذه التأثيرات لابد من مراعاتها بروح ايجابيّة وعلى اسس متينة من الثقة والقيم الحضاريّة من قبل كافة الاطراف لكي تنمو وتتسع ولتبقى القاعدة الصّلبة لتطوّر المنطقة وازدهارها والحفاظ على مصالح امنها القومي. ومما لاشك فيه ايضا انّ الصفوة العراقيّة،جنبا الى جنب مع نظيراتها في المنطقة، ستلعب دورا قياديّا ومتكاملا في تحقيق ذلك على غرار الصّفوة الاوروبيّة والامريكية والاسيويّة في الشرق الاقصى التي توحّدت بعد قرون من المشاعر العدائيّة المتبادلة ونيران الحروب التي أحرقت الأخضر واليابس انذاك.

الصّفوة وصراعات الأسر الحاكمة

ان سقوط الدّولة العثمانيّة مع مطلع القرن العشرين وامتداد الاستعمار الأوروبي نحو المشرق العربي كله (ونحو المناطق العربيّة في افريقيا:مصر والسّودان وأريتيريا والصومال وجيبوتي)، وبعد ان اكمل سيطرته المباشرة على ليبيا وبلدان المغرب العربي (تونس والجزائر

ومراكش) منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فرض بالقوّة وبما يسمّى الشرعيّة الدوليّة واقعا جديدا؛ وهو ولادة دول جديدة وكيانات سلخت عن وطنها الاصلي الام، وأصبحت لها حدود وكيانات وامن قومي ! ومسمّيات كدول مستقلة على خارطة العالم، كما اصبح لكل منها تاريخها الوطني المنفصل (عن الوطن الام) ردّه بعض المرتزقة ومزيّفي الفكر والتاريخ ككيان مستقل الى الاف السنين. كما صنعوا لها تراثا وادبا خاصّا الى درجة جعلوا من لهجاتهم المحلية الهجينة ولغو العامّة، وغالبيّته من الدخيل والسّوقي المبتذل ادابا لها خصوصيّتها ومطبوعاتها لتحتل مكانا على أرفف المكتبة العربيّة الى جانب عمالقة الفكر والشعر والادب العربي القديم والحديث. كما خصّصوا لها اوقاتا ومساحات واسعة في وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمشاهدة لادخالها في وجدان المتلقين لا سيّما من الجيل الجديد كحقائق ثابته.

ولم تكتف الدول الإستعماريّة بتقسيم المنطقة حسب ما تقتضي مصالحها الاستراتيجيّة القريبة والبعيدة، بل راحت تخطط وتنفذ سياسة تكريس حالة الانقسام والتجزئة هذه باعتبارها حقائق ابديّة ثابتة وواقع لامفرّ منه بشتى وسائل التزييّف والتجهيل. وقد نجحت في (تجزئة المجزّء وتقسيم المقسّم) الى حد كبير، بحيث أصبحت رؤوس هذه الكيانات والأسر الحاكمة مرتبطة بها، كما جعلتها تؤمن بشكل مطلق ولا تستحي ان تصرّح مرارا وعلنا بعجزها وبتبعيّتها وخنوعها المذل الكامل للهيمنة الاجنبيّة. ولا تتردّد من ان تعلن بانّ مصلحتهما باتت مشتركة ومستقبل وجودهما واحد. علما بانهما علاقتهما علاقة تابع ذليل ومتبوع متغطرس وليسوا شركاء، وانّ مستقبل وطريق كل منهما مختلف تماما عن الاخر، فللشراكة قوانين واصول وواقع ايسره استقلاليّة القرار والكرامة والتكافؤ والعدالة والاحترام. وبقدر ما يتعلّق الامر بالعراق فقد اصبح مع مطلع القرن العشرين (23 اب/اغسطس1921) كما أشرت سابقا دولة ملكيّة دستوريّة وعلى عرشها الملك الهاشميّ فيصل (الاوّل) بن الحسين بن علي (امير مكة المكرمة وملك الحجاز انذاك)، ولكون فيصل الاوّل سبق له وان اختير من قبل قادة وزعماء الشعب السوري في المؤتمر التأسيسي في دمشق وبويع ملكا على سوريّة في 8 اذار عام 1920، الا انّ الفرنسيّين بحملتهم العسكريّة اسقطوه عن عرشه واجبروه على مغادرة دمشق في يوم 1 آب/اغسطس/1920.

(Gaury، Three Kings in Baghdad pp.2)، Gerald D

سوريّــــــة

بعد احتلال جيش الاستعمار الفرنسي لسورية ودخوله دمشق كما أشرت، توجّه فيصل بعد ذلك للعراق استجابة لطلب العراقييّن وبعد ان ضمن تأييد بريطانيا (الدولة المنتدبة) لترشيحه ودعمه كما اسلفت. وكان بصحبته مجموعة من (خيرة الصّفوة العراقيّة من المدنييّن

والعسكريين الذين كانوا تحت قيادته وقيادة ابيه الحسين بن علي اثناء الثورة العربيّة الكبرى في ميادين الحجاز والشام). تلك الصّفوة من العراقيّين الذين شكلوا الجزء الاكبر من رجال الحكم الملكي في العراق واطلق عليهم فيما بعد بـ (بالصفوة الشريفيّة).

وبسبب خصوصيّة تلك الصلة الوثيقة كما تقدّم، بقيت (سوريّة) موضع اهتمام ومطمح الهاشميين لا سيّما بعد ان اختير لاحقا الامير عبدالله بن الحسين (اخو فيصل الاوّل) لامارة شرق نهر الاردن. وقد اصبح معلوما انّ ايّ نظام عربي يحاول ان يضمّ او حتى يمدّ نفوذه باتجاه سوريّة يكون قد تجاوز الخطوط الحمراء بالنسبة للهاشميّين سواء من حكم منهم الاردن او العراق. لقد زاد ذلك من التوترات السّابقة التي كانت قائمة في العلاقات بين الاسرتين؛ الهاشميّة في بغداد والسعوديّة في الرياض، لا سيّما بعد ان ضمّ السعوديون جميع مناطق الحجاز لسلطنتهم تدريجيّا ثمّ انتزعوا حكمها بعد ذلك من الاشراف تماما بمساعدة وتأييد الامبراطوريّة البريطانيّة لهم بالمال والسلاح وبالخبراء لا سيّما خلال السنوات الواقعة ما بين 1922 ولغاية عام 1932 وهو تاريخ اعلان عبد العزيز بن عبد الرّحمن ال سعود نفسه ملكا على ما اصبح يعرف عليه اليوم بـ (المملكة العربيّة السّعوديّة).

السّعوديّـــة

كانت للعراق علاقات ايجابيّة مع الحجاز ايّام كانت تحت حكم الاشراف الهاشميّين بسبب متطلبات الحج للحرمين الشريفين؛ مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة. كما كانت له علاقة متميّزة مع المنطقة الشرقيّة (الاحساء والقطيف) حينما كانت جزءا من ولاية البصرة حتى عام 1913 كما اشرت سابقا.

كما كان للعراق علاقات جيّدة لا سيّما التجاريّة مع امارة حائل وحكامها ال الرّشيد. ولم تكن علاقاته مع امارة نجد وامرائها ال سعود يوما ما جيّدة بسبب ما كانت تتعرض له قوافل الحجاج العراقيين ومناطق جنوب غرب العراق لا سيّما المدن الشيعيّة المقدّسة (النجف وكربلاء) من هجمات قبائل البدو الوهّابيّين وما كان يصاحب ذلك من قتل وسلب ونهب وترويع.

ولا بدّ من الاشارة الى انّ انفراجا نسبيّا قد حصل في العلاقات بين العراق ونجد بعد احتلال بريطانيا للعراق بسبب العلاقة الخاصّة بين الإنكليز وامير نجد، حتى انّ احد الذين رشحهم بيرسي كوكس لعرش العراق عام 1920 كان عبد العزيز آل سعود كما أشرت سابقا، وان كان الترشيح لم يكن جادّا، بل كانت مناورة من كوكس لتعزيز اختيار فيصل ملكا للعراق.الا انّ التوتر عاد مجددا بعد تنصيب فيصل ملكا واقامة الحكومة في العراق وترسيم حدوده وتنظيم علاقاته الخارجيّة الاقليميّة والدوليّة لا سيّما مع بريطانيا حيث أصبحت الهجمات الوهابيّة عبر الحدود الجنوبيّة الغربيّة وسيلة ضغط بريطانيّة لتحقيق

اهداف السياسة البريطانيّة في العراق.

ومن الاسباب الاخرى التي عمّقت العداء بين الاسرتين، الهاشميّة والسّعوديّة،هو نجاح السّعوديين في ضم مملكة الحجاز بعد الاطاحة بحكم الاشراف فيها بمساعدة بريطانيّة ونفي الشريف حسين بن علي واسرته الى العقبة ثم الى جزيرة قبرص حيث توفي ودفن في القدس.

لقد تأثرت العلاقات بين الصّفوة العراقيّة ومثيلتها في المملكة السعوديّة سلبيّا بسبب العداء بين الاسرتين الحاكمتين (الاشراف الهاشميّة والسّعوديّة). واستمرّت العلاقات بين الصّفوتين غير منسجمة بشكل عام حتى بعد انهيار النظام الملكي الهاشمي في العراق، بل ولتتخذ منحا اخر اشدّ عداءا وابتعادا في العهود الجمهورية واستمرّت حتى اليوم،حينما اصبح التدخل السعود السّعودي في الشان الداخلي العراقي (حتى بعد ازاحة سلطة الهاشميين منه) ايسر واوسع مساحة.

فخلال الحرب الباردة التي كانت قائمة بين المعسكر الاشتراكي (الشيوعي) وبين المعسكر الغربي (الرأسمالي) زاد اعتماد الغرب (لا سيّما الامريكان) على السّعوديّة في التصدّي لحركات التحرّر الوطنيّة والقوميّة في المنطقة العربيّة الحسّاسة، لا سيّما بعد زيادة تدفق العوائد الماليّة النفطيّة الهائلة لخزينة الاسرة المالكة السّعوديّة وتطلع رجال الحكم فيها للتحكمّ بالسياسة العربيّة وعدم فسح المجال لاي منافس لها بعد ان ضعفت ثم انهارت قوّتا كل من بغداد والقاهرة وحصول فراغ في القيادة السيّاسيّة العربيّة بعد انهيار النظامين الملكيّين الدستوريّين، الهاشمي في العراق، واسرة محمد علي في مصر، وبعد فشل تجربة المدرسة القوميّة العربيّة الوحدويّة و (نظام الحكم لجمال عبد الناصر) لاسباب يطول شرحها والتي لا بدّ ان يكون لها بحوثا خاصّة بها.

وبقدر ما يتعلق الامر بالعراق، فان هنالك الكثير من الادلة والوثائق الرّسميّة العراقيّة، العربيّة والاجنبيّة، وما كتبه السيّاسيّون المعاصرون من العرب والاجانب ما يثبت تدخل النظام السّعودي ودعمه لجميع الانقلابات والفتن والحروب المريرة التي أضعفت العراق وقاسى الشعب العراقي منها الامرّين خلال النصف الاخير من القرن الماضي وحتى اليوم. ولا يزال العديد من العراقييّن المتامرين على وطنهم، (عسكرييّن ومدنييّن وكتاب ومؤلفين) السّابقين واللاحقين، يعيشون على ما يرمي لهم بعض امراء ال سعود شيئا من فضلة الدولارات النفطيّة، وهم لايزالون في كنف ورعاية السّعودييّن ودعمهم. انّ هذا التدخل في الشان العراقي قد ترك أسوء الاثار في نفسيّة الخاصّة والعامّة من ابناء شعبه وبالاخص بقدر ما يتعلق الامر بالصّفوة السّياسيّة والعناصر المثقفة العراقيّة.

انّ قبول النظام السّعودي بهيمنة السّياسة الامريكيّة/ الغربيّة بشكل مطلق منذ عام 1933 وحتى اليوم (سياسيّا وعسكريّا واقتصاديّا وقد ثبتّت بموجب معاهدات واتفاقيّات دوليّة وانشاء قواعد عسكريّة علنيّة وسريّة على اراضيها لايدخلها ولايعلم اسرارها اعلى راس

في السلطة السّعوديّة)، وكذلك عدم معارضة السعوديين عمليّا لوجود الكيان الصّهيوني منذ بداية اغتصاب فلسطين المقدّسة وطيلة الستيّن سنة الماضية وحتىّ الاعلان بالاعتراف به حاليّا وبشكل مكشوف قد اضعف الموقع الديني والقومي العروبي لابناء السّعوديّة جميعا.

انّ التعصّب المذهبي والانغلاق الفكري لعلماء السلفيّة الوهّابيّة (وهم الحلفاء المشاركون في السلطة والثروة والمسؤوليّة مع الاسرة السّعوديّة الحاكمة)، يضيف عبئا كبيرا وعائقا حقيقيّا امام ايّة محاولة للتقارب، لامع الصّفوة العراقيّة وحدها، بل مع جميع الصّفوات العربيّة والاسلاميّة.

كما ان ما تسمح به اجهزة الاعلام المملوكة او المموّلة مباشرة وبسخاء من امراء من الدائرة الاولى للاسرة المالكة السّعوديّة من مفاهيم وسياسات وقيم جديدة غريبة معادية للقيم العربيّة والاسلاميّة.كما انّ ما تردّده وتنشره هذه الاجهزة من فساد للشباب منذ اكثر من ثلاثة عقود ومن خلاعة ومجون؛ هي امور مكشوفة وقد أصبحت خطيرة جدا على مستقبل الاسرة المالكة السّعوديّة اوّلا ثمّ على ابناء الجزيرة العربيّة وحدهم، بل على مستقبل وتراث الامّة العربيّة والقيم الاخلاقيّة الاسلاميّة قاطبة.

وبقدر ما يتعلق الامر بالعلاقة مع ابناء العراق، فانّ ما يروّجه بخبث ودهاء المزيّفون من مقولة (خشية النظام السّعودي من تأثير الاغلبيّة الشيعيّة في العراق على ابناء الجزيرة العربيّة لا سيّما انّ غالبيّة سكان المنطقة النفطيّة الشرقيّة من السعوديّة) هي حجّة واهية ولا يمكن لمنصف قبولها، لا سيّما بعد وقوع ثورة الاتصالات العالميّة واستحالة محاصرة ايّ فكر او عقيدة.

لقد اثبتت حقائق الاحداث الاخيرة ان مثل هذه التبريرات ماهي الا محاولة اثارة الخوف من عدو مصطنع ليثير قضايا مبالغ فيها ومحض اعذار ضعيفه لتبرّر سياسة العزل والاقصاء المقصودة وفرض جدار محكم حول سكان المملكة السّعوديّة لما يزيد على نصف قرن من الزمن، لاعن العراق وحده، بل عن بقيّة البلدان الاسلاميّة والعربيّة والعالم اجمع (على الرّغم من انّ غالبيّتها العظمى سنيّة). وقد استمرّ هذا العزل الطويل حتى استجدّت بعد ذلك حقائق سياسيّة وتطوّرات علميّة وتكنولوجيّة على الأرض في المنطقة العربيّة والعالميّة وداخل السعوديّة نفسها اسقطت جدار العزل هذا وهدّمته تماما. كان ابرزها واخطرها تأثيرا على النظام السعودي والمنطقة برمّتها؛ سقوط الملكية في مصر بانقلاب عسكري في 23 تموز/ يوليو عام 1952 ومجيء نظام جمال عبد الناصر وتبنّيه (التيّار القومي العروبي والوحدة) الذي دخل حماسُه في كل بيت عربي سواء عسكريا او مدنيا، ثم تورّط الجيش المصري في حرب اليمن وتصاعد احداث نكبة فلسطين وسخونة الحرب الباردة بين المعسكرين؛ الشرقي بزعامة الرّوس والغربي بزعامة الامريكان. كما تزايد الوعي القومي والثوري في المشرق العربي بقيام الوحدة بين سورية ومصر(السنيّتان) ثم انهيار الملكيّة في العراق بانقلاب 14 تموز/يوليو عام 1958 ثم نشوب الحروب العربيّة مع النظام الصّهيوني في فلسطين.

وبالاضافة الى ما تقدّم حصول تطوّر علمي وثقافي عالمي عاشته الاجيال الجديدة لعشرات الالاف من شباب الجزيرة العربيّة في السعوديّة، لا سيّما اولئك الخرّيجين الذين انهوا دراساتهم العليا من ارقى الجامعات الاوربيّة والامريكية الذين التقوا باقرانهم من العرب والاجانب حيث تتلاقح الافكار ضمن الاجواء العلميّة الرحبة وحريّة البحث وتقصّي الحقائق الموثقة وتطلع الجيل الجديد منهم الى حقهم الطبيعي في المشاركة في السلطة والثروة وحقهم في توليّهم اعلى المناصب السّياديّة (الحكوميّة المدنيّة والعسكريّة) بما فيها الوزارات التي لا تزال حكرا على كبار الامراء ومعظمهم غير مؤهّلين دراسيّا او علميّا كما انّ (بعضهم محتكرا وزارته منذ ما يزيد على مالا يقل عن الثلاثين عاما). وهناك امر اخر لا يمكن عزله او اقصاء الجيل الجديد عنه هو ثورة الاتصالات والانترنت التي دخلت حتى غرف نوم العلماء والمطاوعة من رجال الدين. هذه الحقائق قد اضافت الكثير من الوعي وصدقيّة الرؤية وفهم الكثير من هموم وطموحات شباب الجزيرة العربيّة ووسائل العمل الجديدة.

وبسبب ما تقدّم من تطوّرات جديدة والتي تركت بصماتها لاعلى مجتمع الجزيرة العربيّة وحدها بل حتى على جيل جديد وشباب واعي من ابناء الاسرة المالكة السّعوديّة، وازاء ذلك شجعت الاسرة الحاكمة السعوديّة منذ اواخر سنوات الستينيّات والسبعينيّات الاجيال الجديدة من ابناء البيوتات الكبيرة لا سيّما الخرّيجين واصحاب الكفاءات العليا قبول الوظائف في السلك الخارجي وفي المنظمات العالميّة لابعادهم برضاهم للعمل خارج وطنهم بهدف التخلص من تأثيرهم المباشر على ابناء شعبهم. كما شجّعت اصحاب رؤوس الاموال والمشاريع الاقتصاديّة من الصّفوة السّعوديّة للتوجّه نحو دول الغرب للاستثمار والتنمية (بدل التوجّه نحو دول عربيّة واسلاميّة)، لا سيّما الامريكية منها، لانشاء مشاريع اقتصاديّة واستثماريّة مشتركه مع مثيلاتها هناك بعيدا عن نظرائهم من العرب والمسلمين. واذا كانت عوامل ضمان الاطمئنان والثقة والحرفيّة لهم قد دفعتهم نحو ذلك، فان ظهور طبقات جديدة من الصفوة الخليجيّة والعراقيّة والعربيّة، وبالعقلانيّة السيّاسيّة الجديدة تفرض تعاون جديد وجاد من اجل النهوض باعمال اقتصاديّة ومشاريع عملاقة مشتركة لسكان المنطقة برمّتها، وبذلك تتوفر امكانيّة ولادة صفوة جديدة سعوديّة - عراقيّة - عربيّة موحّدة وقويّة تقود المنطقة بروح من المسؤوليّة العالية لا سيّما بما هو متوفر لديها من امكانيّات ذاتيّة ومن توفرّ سوق استهلاكي واسع كسوق منطقتنا المحلي والاقليمي والعالمي وبما تتميّز به من موقع استراتيجي عالمي فريد.

ومع الاعتراف بحقيقة عدم وجود علاقات ترابط وانسجام عمليّا للاسباب اعلاه بين غالبيّة الصّفوتين، العراقيّة والسّعوديّة، الا انّ الاواصر التاريخيّة والدّينيّه الاسلاميّة والعروبيّة لاتزال تفرض في ضمير الوجدان الشعبي لدى عموم سكان البلدين حقوقا وواجبا ت تجاه بعضهم للبعض الاخر، هذا عدا ما تفرضه على الأقل المصالح المتبادلة في كافة جوانب متطلبات الحياة. هذه الحقيقة أصبحت اليوم واقعا معاشا بين صفوف غالبيّة مكونات المنطقة

العربيّة، مهما قست الظروف وعارضت الانظمة او تعقدت المشاكل فيما بينها.

الكويـــت

انّ موضوع (العراق والكويت) لم يكن ليختلف عن ايّ موضوع في التاريخ يدّعي فيه طرفان مختصمان حول شرعيّة حقّ مغتصب لابدّ من استرجاعه. ومفهوم الشّرعيّة في قاموس السّياسة وفي العلاقات الدوليّة أصبحت اليوم يختلف باختلاف موقع المدّعي والمدّعى عليه من حيث القوّة والضعف.فالقوّة وواقع الاقوى على الارض في السّياسة العالميّة اليوم هما اللذان يحدّدان في النهاية انتصار الجانب الذي يمتلك الشرعيّة وينجح باسترجاع ما يدّعيه عائديّته ويحافظ عليها. فكما خاطب زعيم الوحدة الالمانيّة "بسمارك" اعضاء مجلس النوّاب لزيادة الاعتمادات الماليّة لقوّاته المسلّحة..:

"القوّة معي..فانا الحقّ..!". فانّ شواهد التاريخ، وحوادث الزمن تثبت انّ لا شرعيّة بدون قوّة.

لقد اصبحت الكويت دولة عبر سلسلة من التطوّرات التي املتها المصالح المختلفة المحليّة والاقليميّة والدوليّة العليا شانها شان الدول الصغيرة والكبيرة الاخرى في العالم.

وبعيدا عن المجاملات التي نراها في اللقاءات بين اعيان ورموز غالبيّة الصّفوتين، فانّ حقيقة وجوهر العلاقات العراقيّة/ الكويتيّة تفتقر تماما الى الثقة والانسجام لا سيّما طيلة العقود الخمسة الماضية،على الرّغم من انّ كلا البلدين غنيّين بثروات هائلة وليس لاحدهما الحاجة الى معونة ماديّة من الاخر او سلوكا قد يثير حسده وشكوكه.

وعلى الرّغم من انّ غالبيّة العشائر وصفوة الأسر المرموقة سواء من جنوب العراق اومن سكان الكويت وكذلك اشهر القبائل الكبرى على طرفي الحدود هما الاقرب من بعضهم البعض حسبا ونسبا وجوارا ودينا... ولكنّ الواقع المعاش يشير الى وجود تعالي الواحد على الاخر، وكذلك جفوة ظاهرة غير مبرّرة واحقاد متراكمة بين الطرفين مع وجود استثناءات قليلة فرضتها صلات النسب والمصاهرة التي هي الاخرى قد تناقصت بل تلاشت في العقود الاخيرة من السنين بسبب تدهور العلاقات والجراح العميقة التي تركها كلّ طرف في جسد وفي وجدان الاخر. وعدم رغبة عموم الناس في كلا المجتمعين التورّط بمشاكل رسميّة هم في غنى عنها. لقد اصبح واضحا ومن السّهل جدا اليوم ان يرتبط الكويتي او العراقي بالزواج من ايّة جنسيّة اخرى في اخر بلدان العالم ما عدا المصاهرة بين هذين البلدين مهما كانت صلات القربى والنسب وواقعيّة الاسباب والدوافع الانسانيّة.

انّ من المعلوم تاريخيّا انّ بريطانيا بهدف ضمان مصالحها هي التي أنشات دولة الكويت رسميّا عام1961 وفرضت حدودها ووجودها محليّا ودوليّا بالقوّة العسكريّة على العراق وعلى المنطقة وادخلتها عضوا في الامم المتحدة (بموجب صفقة لها مع الاتحاد السّوفيتي

رغم صداقة السّوفييت وقوّة ارتباطاته مع عبد الكريم قاسم انذاك). وهدف بريطانيا المعلن منذ اواخر القرن التاسع عشر هو الاستحواذ على ثروة الكويت النفطيّة والحفاظ على بقيّة مصالحها الاقتصاديّة والعسكريّة والسّياسيّة في الخليج العربي وفي بقيّة مناطق الشرق الاوسط لاغير..وقد سبق لبريطانيا ان عزّزت موقع اسرة ال الصباح كاسرة حاكمة فيها منذ اواخر القرن التاسع عشر بعقد معاهدة حماية ودعم لشيوخ ال الصّباح في عام 1899واخراجها اداريّا وعسكريّا من هيمنة ولاية البصرة احدى الولايات العراقيّة الثلاث التي كانت تابعة للدولة العثمانيّة.

وبالمقابل فقد بقي ال الصّباح اوفياء مخلصين للبريطانيّن واستطاعوا بمبالغ طائلة حشد وتعبئة الغالبيّة العظمى من خيرة العوائل وصفوة سكان الكويت للقبول بواقع الهيمنة البريطانيّة على الكويت وثروتها والسير في ركاب مخططات البريطانيّين وحلفائهم في المنطقة، وبذلك أصبحت دولة الكويت حقيقة واقعة في عالم السّياسة العالميّة، وانّ ايّ عدوان على الكويت هو عدوان على بريطانيا وحلفائها. وللاسباب المتقدّمة، فقد فشلت جميع المحاولات التي كانت تستهدف ضمّ او استرجاع او الحاق الكويت بالعراق، سواء كانت تلك المحاولات من الداخل ام من الخارج.

لقد حدث وان حاولت اسر كويتيّة وشخصيّات هامّة من صفوة المجتمع في الكويت ان تعمل على تحقيق الوحدة مع العراق ايّام الملك الشاب غازي الاوّل الذي كان محط حبّ و امال قطاعات واسعة من العراقيّن والشباب القومي لا سيّما في الكويت والشام، الا انّ الاستخبارات البريطانيّة ووكلائها كانت تقف لهم دائما بالمرصاد. وقد اشيع يوم وفات الملك غازي (4 نيسان/ابريل

1939) بحادثة السيّارة المشؤومة انّه اغتيل بتدبير من الإنكليز وشيوخ الكويت لا سيّما وانّ كليهما سبق وان كانا تحت هجوم قاسي ومستمر من قبل الملك غازي نفسه وبصوته عبر اذاعته الخاصّة (من قصر الزهور) (مذكرات فؤاد عارف مرافق الملك غازي/ط1/ص90) حيث كان يهاجم فيها شيوخ الخليج وجرائم عصابات الصّهاينة في فلسطين. وممّا عزز تلك الشكوك والاشاعات نجاة واختفاء الخادم (العبد الاسود) الذي كان يجلس في المقعد الخلفي وراء الملك الذي كان يقود سيّارته بنفسه ولا احد كان معهما، وسيبقى ذلك الحادث المأساوي واختفاء الخادم وعدم معرفة ايّ اثر له حتى اليوم، من الالغاز المحيّرة في تاريخ الاسرة الملكيّة الهاشميّة في العراق، وان كان طبيب العائلة المالكة العراقيّة، البريطاني المعروف "..سندرسن باشا.." الذي وقعّ على شهادة وفاة الملك غازي لحظة موته، ظلّ يعتبر مثل هذه الرّواية من افتراءات الدكتور فريتز غروبا وزير المانيا المفوّض في العراق والدعاية النازية انذاك. (مذكرات سندرسن باشا/المصدر/ص 197،203).

لقد حاول السّياسيّ المحنّك نوري السّعيد طيلة العهد الملكي، وهو الاعلم باهميّة الكويت لبريطانيا، وباعتباره أفضل واجهة للصّفوة العراقيّة، ان يؤسّس علاقة متينة وصادقة مع

الكويتييّن تقوم على اسس بناء جسور من الثقة والمصالح المتبادلة متمثلة بمحاولات عديدة قام بها اهمّها:

1 - محاولة تنفيذ مشروع مد انبوب (بمثابة نهر) من شط العرب الى الكويت لتزويدها بما تحتاجه من المياه ولكنّ البريطانيين رفضوا المشروع بشدّة في حينه وأخذوا يشككون في نواياه.

2 - اعطاء الكويتييّن حق تملك الاراضي لانشاء العقارات وبشكل حرّ، ومنح الاولويّة ومحفزات خاصّة للراس المال الكويتي اذا ما اريد استثماره في العراق وهذا المشروع قد تعرّض ايضا الى الرّفض البريطاني واثارة الشكوك والمخاوف حوله.

3 - كانت اخر المحاولات النبيلة لنوري السّعيد في هذا الصّدد مفاتحته للوزير البريطاني سلوين لويد وللحكومة البريطانيّة بشان تحويل الكويت من إمارة الى مملكة لآل الصّباح وتوحيدها مع الاتحاد الهاشمي باتحاد ثلاثي (العراق والاردن والكويت)، الا انّ الوزير البريطاني رفض المشروع بشدّة وجرت مشادة كلاميّة بينهما بسبب ذلك الرّفض، وكان ذلك عام 1957 (اي قبل اقل من عام واحد من وقوع الكارثة التي قتل فيها نوري السّعيد صاحب المشروع ابشع قتلة ضمن الشهداء الذين سقطوا بانقلاب 14تموز/ يوليو 1958).

انّ مشروع اعلان دولة الكويت في جنوب العراق قد خططّته وصمّمتهّ بريطانيا ثم ّنفذ بشكل مفاجيء لحكومة عبد الكريم قاسم بقصد محاصرته (ضمن الضغوط العديدة التي كانت تتعرّض لها حكومته لاسقاطه) وبدون ايّ اعتباراو مراعات للمصالح الوطنيّة والاستراتيجيّة البعيدة المدى لسكّان الكويت، ولبلد كبير وشعبه العريق كالعراق. انّ اخطر ما في المشروع انّه قد حرم العراق من منفذ بحري كاف وامن يطل على الخليج مباشرة ويتناسب مع حجم تجارته وجميع نشاطاته المدنيّة والعسكريّة، ومهما تكن طبيعة العلاقات بين الطرفين قد تبدو هادئة، فانّ قضيّة المنفذ البحري للعراق سوف تبقى دائما احدى اهم واخطر الالغام التي ستسمّم العلاقات بين العراق والكويت وتقلق السّلام في المنطقة مستقبلا ما لم يتم تسويتها بروح عالية من الواقعيّة ومراعاة المصالح الوطنيّة والشعور الكامل بالمسؤوليّة من قبل الطرفين.

لقد ضعفت الثقة تماما بين الطرفين عبر عقود من السّنين، وقد لعبت (ولا زالت تلعب) اصابع كبار رجال الاسرة الحاكمة لآل الصّباح والمحيطين بهم سويّة مع دوائر شركات النفط واصحاب القرار البريطانيّة ورعاة المشروع الصّهيوني في المنطقة اخطر الادوار في مواصلة غرس روح الشك وتعميق انعدام الثقة بين الصّفوتين (العراقيّة والكويتيّة) كي لا يلتقيا بمشاريع وبمصالح مشتركة قد تقرّب بينهما ولو على المدى البعيد. بل راحت تعمّق روح الشك والكراهيّة بينهما لا سيّما بعد الاحتلال العسكري الظالم الذي انتهكت به حرس و قوّات خاصّه لشخص الرّئيس العراقي السّابق (المدلل لدى الكويتيّين) صدام حسين كل ما في الكويت ارضا وسكانا ومالا، مثلما انتهك بفعلته الشنعاء تلك جميع القيم الاسلاميّة و

العربيّة والانسانيّة، على الرّغم من انّ الكويت واسرتها الحاكمة كانت من اقوى الدعامات والقواعد لتحرّكات ونشاطات نظام صدّام حسين الاجراميّة داخل العراق وفي المنطقة.

واذا كان لدى الكويتيّين اكثر من عذر وسبب في شكوكهم وقلقهم الدائم من انظمة الحكم العراقيّة المتعاقبة، الا انّ لا عذر لجميع الانظمة التي حكمت العراق، سابقا ولاحقا، ان يبقي او يبرّر هذا الوضع الشاذ. لقد فشلت جميع الانظمة العراقيّة السّابقة في سياساتها تجاه الكويت، لا سيّما فشلها في قبول واقع الظرف التاريخي والسّياسي الدّولي الذي جعل من الكويت دولة ذات كيان وحدود ووجود في الامم المتحدة. كما فشل الطرفان في بناء مشاريع اقتصاديّة مشتركه بين الصّفوتين ولو بأبسط اشكالها، ومثل ذلك ايضا عدم قيام تعاون علمي وثقافي معها. ان جميع اشكال التعاون لابدّ وان يكون في ظلّ مباديء احترام المواثيق وحفظ العهود للقيم العربيّة والاسلاميّة، وبذلك سوف يكون للبلدين بالتأكيد ثقلهما في الاستراتيجية الاقليميّة والدوليه وبشكل خاص في مجال الاقتصاد والطاقة النفطية ومشتقاتها ورعاية المصالح المشتركة لكلا الطرفين وخاصّة امن دول الخليج ومخططات الكيان الصّهيوني المستقبليّة تجاه العراق والكويت...

انّ التاريخ سوف يحمّل غالبيّة الصّفوتين المؤثرّتين في كلا البلدين (لا سيّما المثقفين منهم واصحاب الفكر والقلم)، من العراقيين والكويتيين، تبعة النتائج الكارثيّة التي وصلت اليه علاقات هذين البلدين الشقيقين على كافة الاصعدة في النصف الثاني من القرن الماضي وحتى بداية القرن الحالي، لتقاعسهما واهمالهما القيام بما تمليه عليهما شتّى الواجبات التي تليق بالعناوين الكبيرة والالقاب البرّاقة التي يحملونها. كما انّ الجراح النفسيّة والبدنيّة التي تركتها جريمة غزو واحتلال صدام حسين للكويت في كلا المجتمعين سوف لن تشفى وتندمل في المدى القريب، الا من خلال طمأنة الكويتييّن حتى وان كان الشعب العراقي، باعتباره اوّل الضحايا، لا يتحمّل جرائم ما فعله صدام حسين ونظامه لا بالكويت وحدها بل بالمنطقة برمّتها.

انّ غالبيّة الكويتيّين والعراقييّن والعالم قد يعلمون القليل عن انّ صدّام حسين قد غزا واستباح واحتلّ ونهب مناطق ومحافظات داخل العراق قبل المناطق التي تقع خارج الحدود العراقيّة. كما لابدّ من اقامة مشاريع نفسيّة وثقافيّة وفنيّة كبرى، وبذل جهود حقيقيّة مخلصة من اجل تصفية النفوس تتبناها انماط خاصّة من صفوة " الصّفوتين " بحيث يجب ان يكونوا على درجة عالية من العدالة والانصاف والحكمة والثقافة والشعور بالمسؤوليّة الدينيّة والوطنيّة والانسانيّة. ومما لاشك فيه ان واقع متطلبات المستقبل القريب سوف يكشف لكلا الطرّفين، العراق والكويت، ان حقائق وضرورات استراتيجيّة وجغرافيّة وحضاريّة ثابتة امام الطرفين لا يمكن تغييرها، وهي قدر مفروض عليهما يحتمّ ايجاد الصّيغة الامثل في التعاون والعيش بسلام وتعاون وبرخاء قائم على العدل والاحترام والثقة لكلا الطرفين.

مصـــر

وفي معرض البحث حول اثر صراعات الانظمة الاقليميّة المجاورة على الصّفوة العراقيّة، لابدّ لنا من تناول العلاقات المصريّة ـ العراقيّة باختصار وبحدود هذا الموضوع فقط على الرّغم من حائل البعد الجغرافي بين البلدين حيث لا يربطهما رابطة جوار مباشر. وكذلك نظرا لما تركته الصّفوة المصريّة على نظيرتها العراقيّة من تأثيرات هامّة ومتنوّعة، لا سيّما منذ اواخر الحرب العالميّة الثانية (1939 ـ1945)، وحتى اليوم.

ولأجل الاحاطة التامّة بخصوصيّة البعد التاريخي، فلابدّ من الاشارة الى انّ العلاقات تعود الى ما قبل الفتح العربي ـ الاسلامي لكلا البلدين بالاف السنين، واستمرّت تتراوح بين السلم والتعاون تارة، وبين الحرب والتنافر تارة اخرى. وقد كانت بلاد الشام (سوريا ولبنان والاردن وفلسطين) دائما هي المجال الحيوي في التنافس السياسي والعسكري والاقتصادي ومحاولة السيطرة وشن الحروب بين الطرفين لعصور طويلة. فالعلاقات الاشوريّة ـ الفرعونيّة انتهت باحتلال الاشوريّين للشام ثمّ لمصر حتى وصل الملك اشور بانيبال باحتلاله الى اعالي مصر ثمّ قفل راجعا بعد ذلك لبلده العراق تاركا وراءه هناك نصبا حجريّا باقيا حتى اليوم ومنقوشا عليه ما فعله الملك الاشوري في مصر الفرعـونيّة.

وحينما سيطرت الامبراطوريا ت الفارسيّة المتعاقبة على شرق ووسط العراق واتخذت من (المدائن/ طيسفون) عاصمة لها (تقع حوالي مائتي كم جنوب بغداد) وجعلت منها قاعدة اماميّة للانطلاق نحو مناطق الشام ومصر اللتان هما ايضا قد أصبحتا انذاك تحت سيادة الاغريق ثمّ الرّومان بشكل مباشر. واستمرّت الحروب سجالا بين الجبهتين لقرون عديدة حيث أنهكت الطرفين مما اضطرّ كلّ فريق ان يضع امامه (ساترا دفاعيّا) كيانا سياسيّا مواليا له من السكان المحليّين؛ فاعترفت الامبراطوريّة الفارسيّة بدولة المناذرة العربيّة وعاصمتها الحيرة غرب نهر الفرات لتواجه دولة الغساسنة العربيّة في بلاد الشام حيث تقطنها ايضا قبائل الغساسنة العربيّة والتي هي الاخرى قد حازت على اعتراف حكام مصر(من يونانيّين ورومانيّين بالتتابع) بها كدولة. وحينما انطلقت جيوش الفتوح الاسلامية نحو الشام، وجد قادة الفتح الاسلامي تجاوبا وعونا من سكانها من ابناء عمومتهم العرب الغساسنة ضد حكامهم (الرّوم النصارى الغرباء)، وكذلك حينما توجهت جيوش المسلمين لتحرير العراق من سيطرة الفرس، وجدوا ايضا اخوة لهم من القبائل العربيّة التي سبق لها ان شكلت دولة المناذرة قد سبقت الاحداث واوامر الخليفة ابو بكر(رض)؛ فقامت بالمناوشات المسلّحة مع قوّات الفرس، وبعد ان اذن لها الخليفة الاوّل ابو بكر الصدّيق (رض) ان تقوم بالفتح التحقت بجيوش الفتح الرئيسيّة القادمة من الشّام.

لقد تمّ فتح مصر بعد فتح الشام والعراق، لتصبح مصر القاعدة الاساسيّة للفتح الاسلامي في اتجاه السودان وشمال افريقية ثم الاندلس فيما بعد. وبذلك اصبح كل من العراق ومصر من اهم الولايات في الدولة الاسلاميّة بسبب غناهما وكثرة خيراتهما وموقعهما الاستراتيجيّين

(العراق بالنسبة للفتوحات الشرقية، ومصر للفتوحات الغربيّة في ذلك الزمان). وقد بقي كل بلد مشغول في جبهاته، حتى وقوع الفتنة الكبرى ايام الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رض) حينما اتفقت ومن ثم اشتركت جماعات متآمرة من مسلمي مصر واخرى من مسلمي العراق - من البصرة - في الثورة على الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (رض) ومن ثمّ قتلته في داره في المدينة. وحينما بويع الامام علي بن ابي طالب (رض) بالخلافة بعد عثمان واتخذ الكوفة في العراق عاصمة له، اعطى لمصر طيلة حكمه خصوصيّة واعتبارا واحتراما كبيرين وولّى عليها خيرة الولاة واقربهم اليه من اصحابه واكثرهم ورعا وتقوى كمحمّد بن ابي بكر الصّديق ومالك الأشتر النخعي الذي وصفه الامام علي بقوله (لقد كان مالك منّي كما كنت لرسول الله). وكثيرا ما اثنى الامام علي عليه السّلام في خطبه ورسائله على مصر ومدح اهلها واوصى ولاته بهم خيرا

(مجموعة خطب الامام علي واقواله في نهج البلاغة) وربما كان ذلك سببا تربويّا وجوهريّا لثبات ولاء العراقيّن وحبّهم الشديد لمصر وللمصريّن تحت ايّ ظرف من الظروف الّتي مرّت بها علاقات البلدين. وقد بقيت العلاقات موصولة بين صفوتي العراق ومصر حتى ال الامر، بعد استشهاد الامام علي، الى بني اميّة الذين اتخذوا دمشق عاصمة لهم ومن قبائل الشام انصارا لهم. ومع داب الامويّن على تهميش وتفريق العراقيّين عن المصريّين وحرمانهم عن اي موقع هام في الدّولة،الا انّ الصّلات الحضاريّة استمرّت قائمة بينهما لا سيّما في التجارة والعلوم اللغويّة والفقهيّة وغيرها وبقيت دور العلم في البصرة والكوفة ثمّ بغداد تستقبل أإمّة الفقه والعلماء وطلبة العلم القادمين من ارض مصر ليفيدوا ويستفيدوا لفترة طويلة من الزمن. وحينما عصف الغزو المغولي/ التتري العالم الاسلامي مكتسحة العراق ومستمرّا غربا عبر اراضي سورية تصدّت لها جيوش مصر وانتصرت عليها في اراضي الشام ومنعتها من التقدّم غربا. ولم يسبّب استيلاء صلاح الدين الايوبي (وهو من كرد العراق) على الحكم في مصر والشام ايّة حساسيّة بل ظلّت بطولاته وانتصاراته على الصّليبيّن موضع فخر للمصريّن ولجميع بقيّة المسلمين حتى اليوم. وحينما أعقبت تلك الفترة فترات اخرى عرفت في تاريخنا بعصور الظلام والتخلف، عاش سكان المناطق العربيّة منعزلين عن بعضهم البعض وضمن امارات واقاليم عديدة حتى ضمن البلد الواحد. كما تسلط عليهم حكام جبابرة وطغاة كان معظمهم من اصول مملوكيّة أو عبيدا كانوا يخدمون في قصور الخلافة او جنودا مرتزقة فيها للحراسة والدفاع عنها.

وعلى الرّغم من ماسي تلك الاوضاع الشاذة، بقيت شعوب المنطقة محافظة على شعور الانتماء والولاء للامة فيما بينها رغم انقطاع الاتصالات، وقد جاءت السّيطرة العثمانيّة على كل من العراق وبلاد الشام وكذلك مصر(1516 ــ 1534) ثم امتدت سيطرتها المباشرة او نفوذها على معظم انحاء شبه جزيرة العرب بما فيها مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، لتعطي شعورا ومجالا عمليا لالتقاء وحدوي عروبي - اسلامي لجميع سكان هذه المناطق

بما فيها العراق ومصر وان كان تحت مظلة الامبراطوريّة العثمانيّة. وحينما بدات سيطرة الدول الاوربيّة تحلّ محلّ العثمانيّة تدريجيًا منذ اواخر القرن التاسع عشر ثمّ بسطت نفوذها تماما على المنطقة واعتبرتها غنيمة انتصارها في الحرب العالميّة الاولى، احتاجت كل من بريطانيا وفرنسا وحتى حلفاؤها ان يعترفوا عمليّا بوحدة المنطقة بهدف تمشية مصالحهم، سواء عبر عقد مؤتمراتهم حول العراق (مؤتمر القاهرة في اذار1921 والذي تقرّر فيه فيصل الاوّل مرشحا رئيسيّا لعرش العراق) حيث تجدّدت وتوسّعت منذ ذلك الحين الاواصر القديمة بين الاشراف الهاشميّين (الحجازيّين) وبين الاسرة المالكة المصريّة (اسرة محمد علي باشا التي ادّعت النسب العلوي)، وكنتيجة لذلك تقاربت الصّفوتان المصريّة والعراقيّة وحدث تعاون سياسي وثقافي وكذلك مصاهرات بينهما منها؛ الزواج الاوّل والثاني للامير - الوصي على عرش العراق عبد الإله بن الملك علي (اخر ملك في الحجاز) من عوائل ارستقراطيّة مصريّة زمن الملك فاروق الاوّل (ملك مصر والسّودان انذاك).

وفي عام 1945 (بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية مباشرة) تتوّجت الجهود السياسيّة للمملكتين ونجحت في الحصول على دعم دولي لتحقيق اوّل محاولة للوحدة العربيّة ـ ضمّت خمس دول عربيّة كانت مستقلة انذاك ـ لانشاء الجامعة العربيّة القائمة حتى اليوم، ووافق العراق انذاك طوعا، من اجل وحدة الصّف العربي وجمع شمل العرب، ان تكون القاهرة المقر الدائم للجامعة العربيّة ويكون اوّل رئيس لها مصري.

استمرّت العلاقات بين الصّفوتين (العراقيّة والمصريّة) جيّدة على كافة الاصعدة حتى سقوط النظام الملكي في مصر بانقلاب عسكري قاده مجموعة من الضباط الصغار رتبا واعمارا في 23 يوليو/تموز 1952 حيث احدثوا تغييرا واسعا وجذريّا في كافة جوانب حياة مصر تقريبا، شمل الصّفوة الاولى في المجتمع المصري التي تراجعت مواقعها وتأثيرها على كافة الاصعدة نوعا وكما. مثلما تقدّمت صفوة جديدة غالبيّة قياداتها عسكريّة متأثرة بالدكتاتوريّات التي شهدتها اوروبا في فترة سنين الثلاثينيات، وهذه الصّفوة الجديدة معظمها من الشّباب ومن العامّة في الشعب المصري، لا سيّما القادمين من الارياف والقرى، وليس لها خبرة في السّياسة ولا في ادارة مؤسّسات المجتمع المدني المصري الذي كان قد قطع حتى ذلك الوقت شوطا كبيرا في الادارة والحكم منذ عهد محمد علي باشا في القرن التاسع عشر وحتى اسقاط الملكيّة في مصر.

انّ الصفوة المصريّة الجديدة كما أشرت (عسكريّة ومدنيّة) من اصول متواضعة اجتماعيّا وعلميّا واقتصاديّا. وهم كقادة بدائل كانوا بمستويات لا تقارن بسابقتها علما وكفاءة وعطاءا. لذا فقد انعكس ذلك التغيير بشكل سلبي على علاقة الصّفوتين، العراقيّة والمصريّة بعضهما بالبعض الاخر طيلة النصف الثاني من القرن العشرين وحتى اليوم.

انّ حكام مصر الجدد (العسكريون في مجلس قيادة الثورة) قد تعاملوا مع الصفوتين في كلا البلدين بريبة وبروح عدائيّة - لا سيّما مع القادة السابقين في السياسة والاقتصاد -، ولم

يميّزوا في تعاملهم وهم في خضم حماسهم (كثوّار شباب) بين زعماء المجتمع وقادة الاحزاب الذين قادوا حركة التطوّر والتحرّر الوطني المصري ومهاجمة معسكرات البريطانيين في قناة السويس بفدائيّيهم (وهم الغالبيّة)، وبين العناصر الفاسدة والمتعاونة مع الاستعمار ومع اعداء مصر (وهم الاقليّة). وقد انسحبت المواقف والسيّاسة الداخليّة لحكومة انقلاب 23 يوليو العسكرية على سياستها الخارجيّة الاقليميّة والعربيّة، كما أصبحت اكثر تطرفا وعدوانية تجاه الصّفوة العراقيّة (الملكيّة والجمهوريّة فيما بعد) منذ ان اختار المجلس العسكري لقيادة الثورة البكباشي جمال عبد الناصر رئيسا للجمهوريّة بدلا من اللواء محمد نجيب الذي هو الاخر سبق وان عيّن من قبل نفس مجموعة ضباط المجلس اوّل رئيس جمهوريّة لمصر بعد ان اتخذ الانقلابيّون قرار الغاء النظام الملكي واختيار النظام الجمهوري لها بعد نجاح انقلابهم في 23 يوليو/تموز 1952.

لقد حاولت الصّفوة العراقيّة طيلة السنوات الاخيرة للحكم الملكي (1958 - 1952) ان تستمر في تعاونها وعلاقاتها الجيّدة مع حكومة(الثورة) الجديدة لمصر ولكنّها فشلت في محاولاتها. ولابد من الاشارة الى المحاولات العديدة التي بذلها القادة والسيّاسيّون العراقيّون وفي مقدمتهم نوري السعيد والامير عبد الإله - الوصي على عرش العراق - ثم الملك فيصل الثاني والدكتور محمد فاضل الجمالي وعبد الجليل الرّاوي واخرين الذين حاولوا بشتى الوسائل اصلاح الامور سواء عن طريق التعاون داخل الجامعة العربيّة او باللقاءات المباشرة (من اهمها كانت زيارة الملك فيصل الثاني لمصر ايام كان اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهوريّة المصريّة (عام 1952)، الا انهم فشلوا في ذلك بسبب طموحات جمال عبد الناصر ومجموعته داخل (مجلس قيادة الثورة) للاستئثار والتحكم بالسياسة الخارجيّة العربيّة، حسب وجهة نظرهم، التي كانت قاصرة عن فهم واقع السّياسة الاقليميّة والعالميّة انذاك. ولم يكتف جمال عبد الناصر بمواقفه السلبيّة تجاه العراق والصّفوة العراقيّة ايّام العهد الملكي بل استمر بتلك السّياسة والمواقف السّلبيّة حتى في العهود الجمهوريّة التي مر بها العراق، حتى أصبحت قاعدة في السّياسة المصرية التي اضرّت بالعراق كثيرا وتتضح ملامح تلك السّياسة بما يلي:

1/كان عبد الناصر خصما لدودا لجميع الحكومات العراقيّة المتعاقبة في العهد الملكي بسبب قلقه من تنامي اهميّة موقع العراق وزعامته المتميّزة انذاك في الشرق الاوسط ولدى الدّول الكبرى وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة الامريكيّة لا سيّما بعد تحالفه معهم (بحلف بغداد). مع العلم انّ عبد الناصر لم يكن بعيدا عن فلك واشنطن وسياساتها انذاك. فقد ايّد مبدأ آيزنهاور وكان ردّ فعله ايجابيّا تجاه مشروع روجرز، كما لم يعترض على مشروع حلف بغداد في اوّل الامر الا حينما تقرّر ان يكون اسمه ومركزه بغداد، كما اثبتته الوثائق الرسميّة ووثائق مباحثات مندوبه الصاغ صلاح سالم مع الحكومة العراقيّة في مصيف سرسنك في شمال العراق عام 1954. لقد اراد عبد الناصر لنفسه ولنظامه الزعامة

المطلقة وقيادة العرب وتمثيل اكبر عدد ممكن من الدول العربيّة في السياسة الخارجيّة لا سيّما في العلاقة مع الولايات المتحدة. وحينما لم يلق الاستجابة والاعتراف به، تحوّل الى الرّوس ليحتمي تحت خيمة معسكر الاتحاد السوفييتي (انذاك) متبنيّا الشعارات الثوريّة والقوميّة والوحدة العربيّة وباساليب اعلاميّة ديماغوغية بعيدة كل البعد عن القدرات الحقيقيّة لمصر، وعن الواقع الدولي المعاش انذاك. لقد كان اشدّ المتضرّرين من سياسته تلك بعد مصر، هم: العراق وفلسطين واليمن (تقدر الاحصاءات الرسميّة عدد ضحايا العدوان الناصري على اليمن فقط بمائة الف يمني عدا ضحايا جانب الجيش المصري الذي لم يعلن عنهم لحدّ الان). كما لعب جمال عبد الناصر دورا مباشرا في ايقاف التطوّر الديمقراطي وشلهّا تماما في سوريا والعراق والسّودان بعد ان اقتلع من الجذور مؤسّسات ديمقراطيّة وطنيّة عريقة في مصروفي سورية بعد الوحدة (القصيرة العمر التي تمت بين مصر وسوريا) ووضعه البلدين تحت نظامه الديكتاتوري واساليب القمع في مؤسساته البوليسيّة ممّا قوّى بسياسته تلك ميول التمسّك بالدكتاتوريّة وبالقطريّة ومن ثمّ انفصال مصر عن السودان ومصر عن سوريا.

2/تدخل عبد الناصر المستمرفي شؤون العراق الداخليّة سرّا وعلنا (باسناده بالمال والسلاح والاعلام عناصر واحزاب سريّة عراقيّة مغامرة لمجرّد انّها كانت معادية للديمقراطيّة ولايّ نظام سياسي في العراق كما اثبتتها الوقائع والاحداث). ومثلما كان دعمه الاعلامي لها علنا بتهجّمه على زعماء العراق جهارا وبلغة استفزازّية بعيدة عن الاعراف الدبلوماسيّة وعبر وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمشاهدة بل وحتى باحاديثه الشخصيّة الى وسائل الاعلام الرسميّة وغير الرّسميّة، وبذلك فهو يعتبر اوّل رئيس دولة عربيّة فتح باب الشتم الشخصي المهين علنا لنظير له في الرئاسة (بحيث أصبحت سنّة اتبعها مسؤولون عرب اخرون وزاد عليهم صدام حسين رئيس جمهوريّة العراق السّابق سوءا، حينما تطاول نائبه عزّة الدوري على نظيره الكويتي في اجتماع القمة بشكل مهين بعد ان اشتد الحوار بينهما في اخر لقاء جرى بينهما)، بينما كان قادة العراق في العهد الملكي وحتى عهد عبدالكريم قاسم (لا سيّما كبار الرسمييّن) لم يجيبوا على شتائم عبد الناصر لهم الا باشارات عتاب عابرة او بتصريحات ذات مضامين احتجاجيّة..

وبتدخلات جمال عبد الناصر في شؤون العراق، ابعد الصفوتين عن بعضهما البعض. ولهذا ومنذ تسلّمه للسلطة لم نعد نرى علاقات حميميّة ومميّزة بين الصّفوتين؛ كعلاقة نوري السّعيد بالزعيم سعد زغلول وبعده بالنحاس باشا، وطه حسين بشاعر العرب الاكبر محمد مهدي الجواهري، وعلماء الازهر بنظرائهم من العلماء والمراجع العظام في بغداد والنجف وكربلاء، والعلاقة التنسيقيّة التي حصلت لنصرة فلسطين بين محمّد جعفر ابو التمّن ويوسف زينل (من الحزب الوطني) من جهة، وبين صفوة من زعماء (حزب الوفد المصري) منهم عبد الستّار الباسل (كما جاء في رسالة سريّة مرسلة من ب. بورديللون/الندن-الى المندوب السّامي في بغداد في -12/1/1929،ضمن ما وصفته امتداد نشاطات السوفييت في المنطقة

انذاك (N.A.I.File no.5/1/91.pp208-212)، أو علاقة زعماء قبائل العراق (كقبائل شمّر وربيعة والعُبيد مع نظرائهم من قبائل مصر حينما استقدم عراقيّون الشيخ حمد الباسل من صعيد مصر عام 1934 ليلعب دورا رئيسيّا في مجلس لزعماء قبائل بادية شمال العراق لحل النزاع والفصل بين قبيلتن عراقيتين كبيرتين وقبل الجميع بقرار وبحكم الشيخ الباسل لثقتهم بحياديته وبمروءته). لقد أصبحت العلاقات بين الصّفوتين السّياسيّتين بعد انقلاب يوليو في مصر علاقة تابع بمتبوع، اذ كان عبد الناصر وكبار مسؤوليه لا يقبلون بالندّية بالتعامل مع نظرائهم العرب بل بالتبعيّة وبالذيليّة لما يرسموه من سياسات ممّا سبّب الى عزلة مصر عن غالبيّة شقيقاتها العربيّة.

لقد كتب الاستاذ ناصر الدين النشاشيبي في مجلة "الحوادث" اللبنانيّة (24 ايلول 1982): انه التقى في بيروت في 28 حزيران 1956 بمصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا فاخبره انه اجتمع بنوري السّعيد في السّفارة العراقيّة في لندن، فاعرب له الرئيس العراقي نوري السّعيد عن اهتمامه بتحقيق التفاهم مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر وانه ارسل اليه برسالة سرّية يعلن له استعداده للتفاهم بشرط ان يكتفي العرب بحصر جهودهم في مواجهة اسرائيل وعدم السّماح للسوفييت بالتسلل الى الوطن العربي. وعرض على عبد الناصر توحيد الجيش العراقي والمصري.وقال انه جندي قديم يعتز بكل جرح اصابه في ارض الشام او غيرها دفاعا عن استقلال العرب.. وقال ابن حليم انه ذهب بعد يومين الى مصر وسال عبد الناصر عن حقيقة رسالة نوري السّعيد فاجابه بانها صحيحة، ولكن "عرض نوري السعيد كلها كذب لان صاحبها استعماري قذر!" وبعد شهرين وقع العدوان الثلاثي على مصر!)).

3/يعتبر عبد الناصر اوّل من ابتدع سياسة خلق المحاور المتصارعة في المنطقة العربيّة، وبذلك وضع اسس تجزئتها واستعداء كلّ دولة على الاخرى على الرّغم من ظاهر دعوته للوحدة العربيّة والعمل لتحرير فلسطين. ومن خلال تلك المحاور العربيّة، فقد بنى عبد الناصر جدارا نفسيّا وفكريّا داخل وجدان شباب العرب في الخمسينيات والستينيّات وقسّمهم حتى ضمن بلدانهم ومجتمعاتهم الواحدة الى معسكرين متعاديّين واصفا ايّاهما؛ امّا معسكر (القوميين الوحدويين) بكل ماكان تضفي عليه ماكنتة الاعلاميّة من نعوت والقاب تكريم وتشريف،او معسكر (الرجعيّين الانفصاليّن اعداء الوحدة العربيّة) بكلّ ما كانت تلبسه وتلصق به وسائل اعلامه من اتهامات ظالمة كالخيانة والعمالة اوالتشكيك بعروبتهم. وحينما قابلته شخصيّات وقيادات وطنيّة عراقيّة مرموقة بما فيهم صفوة قادة المعارضة العراقيّة للحكم الملكي من امثال محمد صدّيق شنشل وفائق السامرّائي وكامل الجادرجي وكثيرون غيرهم، لم يصغ لهم، بل لم يستقبلهم ولم يودّعهم بما يليق بمكانتهم او بمنزلتهم الرّسميّة والشعبيّة في العراق او كضيوف في مكتبه. لقد كان جافا معهم لمجرّد انهم حاولوا ان يؤكدوا له بان للعراق خصوصيّة سكانيّة وتركيبة عنصريّة وطائفيّة لا تسمح بالتسرّع في اقامة وحدة اندماجيّة او

فوريّة. بينما من جهة اخرى تحالف عبد الناصر مع امراء السعوديّة والكويت ودول خليجيّة اخرى (الذين طالما كان يغمزهم بالعمالة والرّجعيّة والتخلف والخيانة بهدف ابتزازهم ماليّا) واكتفى منهم، بدل مطالبتهم بتحقيق الوحدة العربيّة ومحاربة الصهيونيّة و الاستعمار واجلاء القواعد العسكريّة عن اراضيهم، ان اكتفى منهم ببعض المساعدات الماليّة (لازال المؤلف وهو معاصر لتلك المرحلة يتذكر بمرارة كيف امر عبد الناصر اعطاء الاولويّة للبوارج الحربيّة البريطانية للاسراع بعبور قناة السّويس لضرب العراق اثناء أزمتة مع الكويت عام 1961 في الوقت الذي كانت فيه دماء الشعب العراقي لم تجف بعد دفاعا عن مصر) بينما شجّع عبد الناصر المعارضين العراقيّين (واغلبهم كانوا في سن المراهقة وفي العشرينات وبطيش الشباب، وغالبيّتهم من الذين فشلوا في دراستهم في العراق(كمجموعة صدّام حسين) حيث منحهم حق اللجوء السّياسي في مصر وتنظيم انفسهم ومنحهم مجانا مقرّات مرموقة لتنظيماتهم كما خصّص لهم ساعات اذاعيّة للتحريض والتوجيه من الاذاعات المصريّة لاثارة النفوس ضدّ العراق، كما منح غالبيّتهم مخصّصات ماليّة و سكنيّة مرفهّة وحماية امنيّة ومراعاة دراسيّة جامعيّة خاصّة كان فيها احيانا تجاوزا على النظم والتقاليد العريقة التي اشتهرت بها الجامعات المصريّة الكبرى.

كانت الرّعاية الناصريّة، الماديّة والمعنويّة، تشمل جميع اطياف المعارضة العراقيّة ما زالت تعادي انظمة الحكم في العراق وتساهم في هدمها سواء الملكيّة او الجمهوريّة، حتى وان كانت عقائديا احزابا وتنظيمات محظورة في مصر(كالبعثيّة والشيوعيّة واخوان المسلمين)، وبما فيها الاحزاب العراقيّة الكرديّة المعارضة التي تتبنى رأيا في الوحدة العربيّة لا تسرّ دعاة الوحدة ولاجمال عبد الناصر نفسه. فقد استقبل جمال عبد الناصر في تشرين الاول/اكتوبر1958 الزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني ومن كان معه من قادة الثورة الكرديّة وهم في طريق عودتهم لوطنهم العراق من منفاهم في الاتحاد السّوفيتي بعد غياب احد عشر سنة ونيف وكان العراق انذاك بامس الحاجة للهدوء والاستقرار بسبب الفوضى التي أعقبت اسقاط النظام الملكي فيه، وقد (شعر البارزاني بعد تلك المقابلة انّ بامكان الاكراد التفاهم والتعاون مع جمال عبد الناصر..) (عبد القادر البريفكاني/مصطفى البارزاني/ط1/القاهرة/ص220).

و في عام 1971 منحت حكومة مصر دعما لحزب كردي اخر سبق وان تأسس في دمشق، (حزب الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتزعمه جلال الطالباني) ومقرّا للممثل الرسمّي له في القاهرة وهو(الدكتور فؤاد معصوم) كما منحتهم حكومة مصر ايضا مجانا اذاعة خاصّة لها ساعات برامج خاصّة تذاع باللغة الكرديّة (مقابلة مع الدكتور فؤاد معصوم في لندن -14/7/2006). كما كان عبد الناصر يبذل المساعدات الماليّة للمعارضة العراقيّة انذاك.

فقد " حدثني المرحوم هاني الفكيكي انه كان احد اللذين استلموا احدى الدفعات الماليّة كمساعدة من عبد الناصر لحزب البعث العراقي من يد عبد المجيد فريد – مسؤول مكتب عبد الناصر- وحينما رفض الفكيكي ما طلب منه فريد التوقيع على ايصال بالاستلام تدخل

عبد الناصر وقال له لا باس فنحن لا نأخذ ايصالا من الثوّار !!..". علما ان عبد الناصر كان يعلم تماما بان فقراء مصر كانوا اولى بتلك المبالغ من حزب البعث السرّي الذي كان بؤرة تخريبيّة من المغامرين المتآمرين وقتلة الشعب العراقي.

ولا بدّ في هذا السّياق من الاشارة الى منح حكومة جمال عبد الناصر لصدام حسين ومجموعته لجوءا سياسيّا ورعاية خاصّة وهي على علم تام بارتباطهم بالامريكان وبانهم هاربين من احكام القضاء العراقي بسبب ارتكابهم جرائم اغتيالات عاديّة ومدانين قضائيّا من قبل المحاكم العراقيّة ولا سيّما بسبب اطلاقهم النار بانفسهم وفي وضح النهار وبمنتصف شارع الرّشيد ببغداد على رئيس وزراء العراق السّابق الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بهدف اغتياله ومع ذلك فقد ظلّ عبد الناصر يرعاهم ويستقبلهم بمكتبه الرئاسي باحترام باعتبارهم سياسيّين ابطال، في الوقت الذي اساء فيه معاملة كبار السّياسيين المرموقين من صفوة العراقيّين، كما أشرت سابقا، مما ترك أسوء الأثر في نفوس العراقيّين لا سيّما الصّفوة المثقفة منهم. وحينما تمت الاطاحة بحكومة عبد الكريم قاسم بتواطيء الانقلابيّين مع مخابرات اجنبيّة (الـ C.I.A) وبوحشيّة ودمويّة عشوائيّة بحق خيرة صفوة العراق(واعدم عبد الكريم قاسم (مع خيرة كبار ضبّاط الجيش العراقي) في حركة 8 شباط/فبراير- 14 رمضان 1963 والتي ايّدتها القاهرة في الحال رغم عدم وضوح نواياها واتجاهها ثمّ سافر وفد عراقي للقاهرة برئاسة علي صالح السّعدي..(عبد الكريم فرحان -احد قادة الانقلاب- كتابه/ حصاد ثورة/ دار البراق/ط1/ص/147).

وعلى الرغم من انّ موضوع (العلاقات العراقيّة ـ المصريّة) واسع وشائك ويحتاج الى بحث خاص لوحده، الا اننا اشرنا اليها باختصار جدا نظرا لصلتها بالتأثيرات المتبادلة بين الصّفوتين العراقيّة والمصريّة ضمن حديثنا حول سياسة خلق المحاور العربيّة التي اوّل من ابتدعها وعزّز وجودها جمال عبد الناصر ونظام حكمه.

4/وبعد وفاة جمال عبد الناصر لم تتغيّر مواقف خلفائه من الحكومات المصريّة المتعاقبة تجاه العراقيين كثيرا وبقيت تتعامل بحذر معهم بحسب متطلباتها السياسيّة ومنافعها الاقتصاديّة. ولكنّها في نطاقها العربي العام أصبحت لها سياسة جديدة؛هي في الغالب ذيليّة وتابعة للمحاور الاقليميّة والدوليّة وضمن هيمنة الكيان الصّهيوني على المنطقة.

لقد تراجع كثيرا الدور القيادي المصري للعرب وللمنطقة وكانها تركت ادارة دفة سفينتها للمملكة السّعوديّة التي هي الاخرى لا تستغني ولا تتقاطع اطلاقا مع سياسات الولايات المتحدة ولا تتصادم مع الكيان الصّهيوني ممّا اثر سلبيّا على رؤية الصّفوة العراقيّة المثقفة ازاء القيادة المصريّة.

ومما يلاحظ انه على الرّغم من ان دور الصّفوتين، العراقيّة والمصريّة، ظلّ مهمّشا على مختلف الاصعدة بعد انهيار النظامين الملكيّين في كلّ من مصر والعراق، الا ان هنالك الكثير من الدلائل والبراهين تؤكد وجود شعور عارم ايجابي لدى الصفوتين لدفع البلدين لتحقيق

تغيير جذري في كافة المجالات ودفع العلاقات نحو الاحسن وضمن اطار وحدة المصير القومي، هذا التغيّير اذا ما تمّ سوف يفرض واقعا جديدا ايجابيّا في المنطقة يحقق المصالح العليا والمنافع المشتركة لكلا البلدين وللشرق الاوسط برمّته ويقف حائلا امام توسّع الهيمنة الصهيونيّة الخطير الذي بات يهدّد الجميع.

الصفوة وتعدّد مراكز السّلطة

اعتاد العراقيون طيلة الاربعة قرون ونيف من الحكم العثماني على وجود مركز واحد للقرار السّياسي. كما اعتادوا على معايشة الحكم المركزي الشمولي وقوانين السلطة المركزيّة التابعة للعاصمة إستامبول. وكان والي بغداد خلال تلك الفترة هو الحاكم المتسلط الأوحد في العراق، يقرّب من يشاء ويتقرّب اليه من يشاء. ولكن بمجيء البريطانيين بدا سكان الولايات العراقيّة الثلاث: البصرة وبغداد والموصل، اثناء تتابع عمليات الاحتلال 1920 ـ 1914، وعلى راسهم (الصّفوة) يتفهّموا ويتعلموا كيفيّة التقرّب والتعامل مع موظفي الادارة البريطانيّة الجديدة، كبارا وصغارا، نساء ورجالا سواء من المدنيين او العسكريين، في كل مدينة وقرية وناحية طيلة الستة سنوات الاولى خلال فترة الاحتلال والادارة البريطانيّة المباشرة. وقد نشا ت خلال تلك الفترة وبشكل تدريجي علاقات خاصّة بين الطرفين لا سيّما بين دوائر الحاكم العسكري العام ولسون ومن بعده المندوب السامي بيرسي كوكس، وبين غالبيّة افراد الصّفوة العراقيّة،وفي مقدمتهم معظم اعيان مدن بغداد والموصل والبصرة وغيرها وغالبيّتهم من الرجال وقليل جدا من النساء (كما جاء ذلك في كتابات ومذكرات البريطانييّن الاداريّين/لا سيّما رسائل المس بيل المشهورة) والامر نفسه حدث مع بقيّة سكان مدن العراق الاخرى. وحينما انتقلت الادارة الى حكومة المملكة العراقيّة بعد تتويج الامير فيصل(الاوّل) بن الحسين ملكا على العراق، في 23 اب 1921، وجد العراقيّون انفسهم خلال تلك الفترة (مرحلة الانتداب) يواجهون وضعا جديدا لم يألفوه سابقا.

لقد وجدت الصّفوة العراقيّة؛ انّ مراكز القوى السّياسيّة في العراق قد أصبحت تتآلف من ثلاث وهم كل من: المندوب السّامي البريطاني في العراق والملك/ القصر- ثم رئيس الوزراء للحكومة العراقيّة (التي كانت تتشكل عادة من كبار الصّفوة العراقيّة)، وهو وضع كان محرجا ومربكا لكافة الاطراف المذكورة حتى اطلق عليه الملك فيصل الاوّل في حينه (بالوضع الشاذ) اي ازدواجيّة السلطة.ودخل هذا المصطلح (الوضع الشاذ) في مقدمة مفردات الخطب والرسائل السّياسيّة لا سيّما الرسمية منها بين بغداد ولندن انذاك (وقد استمرّ ذلك حتى انتهاء الانتداب ودخول العراق عصبة الامم في عام 1932 كدولة مستقلة).

لقد بذل الملك فيصل الاوّل كل ما في طاقته لتحقيق هدفين اساسيّين هما:

الاول: تنظيم علاقة جيّدة لمملكته الفتيّة مع دولة الانتداب بريطانيا واستبدالها بمعاهده

تحالف وتعاون ذات شرعيّة دوليّة بين دولتين مستقلتين.

والثاني: توحيد الولاءات المتعدّدة لمكوّنات الشعب العراقي لتقوم بدل ذلك على اسس الولاء الواحد للوطنيّة العراقيّة من اجل بناء العراق الحديث على اسس عصريّة وحضاريّة.

ومما لاشك فيه لقد أثرت ثلاثيّة مراكز السلطة انذاك (الملك - المندوب السّامي - رئيس الوزراء) في القرار السيّاسي في اوّل الامر على نموّ وتطوّر الصفوة العراقيّة سلبيًا وكذلك على مستقبل نظام الدولة العراقيّة، لا سيّما في السنوات الاولى من حكم الملك فيصل الاوّل (1921- 1925). فقد خلقت مناخا جديداً زاد من المشاكل والعقد التاريخيّة الموروثة لا سيّما بتهميشهم العرب الشيعة عمدا عن الحكم استجابة لقرار كيدي وثاريّ بريطاني (بسبب قيامهم بثورة العشرين الكبرى)، هذا وبالاضافة الى ذلك فان تعدّد مراكز القوى السياسيّة العليا قد بلورت بمرور الزمن الوانا من (القبليّة) السيّاسيّة اذا جاز التعبير بين مكوّنات الصّفوة العراقيّة. فقد بدات قيادات التكتلات والمحاور السيّاسيّة تتبلور منقسمة مابين دائرة المندوب السّامي البريطاني و الملك ورئيس الوزراء. كل ذلك قد ساعد على ايجاد بيئة مناسبة لاستقطابات سياسيّة وبشكل تزيد من التوترات والتباعد النفسي بين رموز الصفوة ليتشتت الولاء الوطني الواحد الذي سعى الى تثبيته الملك فيصل الاوّل، الى ولاءات متعددّة ومتقاطعة احيانا طائفيّة وعنصريّة غالبا ما كانت مكبوتة وغير معلنة، وهو الامر الخطير الذي كان ولا يزال تعاني منه السيّاسة العراقيّة حتى اليوم وقد ادرك الملك الراحل خطورة ذلك الخلل في مملكته الفتيّة وبدا باعداد منهجا جادّا لسياسة جديدة حسب ما جاء بمذكرته الشهيرة التي وزّعها عام 1932على صفوة الصّفوة من رجال مملكته، الا انّ موته المفاجيء الغامض قد اعطى الفرصة للبريطانيّين ولاجنحة مؤثرة من الصّفوة العراقيّة المتسلطة الغاء تنفيذ مشروع المذكرة برمّته.

(توجد نصّ المذكرة في كتاب/مشكلة الحكم في العراق/عبد الكريم الازري/ص 9 ـ 2)

ان تعدّد مراكز السّلطة انذاك بثلاث (القصر والحكومة بمجلس نوّابها، والمستشارين الإنكليز) وكذلك ازدواجيّة راس الدولة خلال مرحلة الانتداب (الملك والمندوب السّامي) كانت بداية الرحلة الشاقة والمتعثرة للصّفوة العراقيّة التي قادت العراق طيلة القرن الماضي وزرعت اساليب التزلف والتدليس وتمحور المجاميع والكتل حول رموز السلطة ومراكز القوى المهمّة في الدولة والمجتمع فيما بعد، وهي سلوكيّات نفاقيّة واضحة المعالم أضعفت المؤسّسات الدستوريّة التي كانت لاتزال طريّة العود وفي طور التجربة انذاك، بحيث يمكن اعتبارها ظاهرة سياسيّة واجتماعيّة ما زالت مؤثرة لانّها قاعدة وليست استثناء حتى اليوم في السّياسة العراقيّة.

فبعد الوفاة المبكّر والمفاجيء للملك فيصل الاوّل عام 1933،عن عمر لا يزيد عن تسع واربعين سنة، توقّفت جهود بناء المؤسّسات الديمقراطيّة وجمّد الدستور عمليّا. كما انّه بمجيء ولده الشاب (عمره 21 سنة) القليل الخبرة (في الحكم وفي معرفة شعب العراق)،

الملك غازي الاوّل (ولد بمكة المكرّمة عام 1912 وقتل ببغداد عام 1939)، فقد تبلورت حالة الاستقطابات السيّاسيّة اكثر. وحصل فراغ سياسيّ كبير في القيادة العليا بغياب شخصيّة الملك فيصل الاوّل وحكمته المهيمنة باحترام كبير على غالبيّة صفوة الزعامات العراقيّة انذاك. لا سيّما عدم استطاعة الملك الجديد الشاب ان يتخذ القرارات الحاسمة في شؤون السياسة في الداخل، ناهيك عن الخارج، دون تدخل مؤثر من هذا السياسي او ذاك؛ مما اوجد بيئة مناسبة لصراعا ت وتكتلات سياسيّة عديدة ومؤامرات وفضائح واغتيالات متتابعة ومشهورة انتهت بمقتل الملك غازي نفسه في ظروف غامضة (حادث السيّارة الشهير) وهو في مقتبل شبابه (27 سنة). حيث برز منذ ذلك الحين المحور السّياسي الثنائي الشهير؛ الامير عبد الإله الوصيّ على العرش ونوري باشا السّعيد السّياسي الدّاهية، كاقوى ثنائي مؤثرّ مسك الحكم في العراق حتى سقوط النظام الملكي بانقلاب 14 تموز 1958.

لقد تطوّرت الصفوة العراقية على اختلاف مكوّناتها السيّاسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة خلال فترة حكم الملك الرّاحل فيصل الاوّل ضمن اطار الولاء الجديد (للوطنيّة العراقيّة)، وهو الشعار الذي تبناه الملك الرّاحل فيصل الاوّل بحماس ليصفيّ نفوس افراد شعبه عن مؤثرات وادران العقد التاريخية واساطين التفرقة الطائفيّة والعنصريّة وأحابيل السيّاسة البريطانيّة، لا سيّما دائرة المندوب السّامي البريطاني ومن بعدها السّفارة البريطانيّة في بغداد. وقد نجح في ذلك الى حدّ بعيد بوسائل متنوّعة ـ من ذلك انشائه مؤسّسة الجيش العراقي على اسس الانتماء الوطني فقط وعدم التدخل في السّياسة ـ كما نجح في اثارة غيرة وشهامة غالبيّة شيوخ وزعماء القبائل ورجال الدين واعيان المدن بما في ذلك القادة المؤيّدين او المعارضين للانتداب البريطاني انذاك. حتى بلغ به الامرانه كثيرا ماكان ينسّق سرّا مع زعيم المعارضة الوطنيّة محمد جعفر ابو التمن واخرين لتنظيم تظاهرات واضرابات شعبيّة كي يستخدمها الملك كوسيلة ضغط اثناء مفاوضاته مع البريطانيين من اجل تحقيق الاستقلال وتقصير فترة الانتداب (وقد نجح اخيرا في جعل مدّته خمس سنوات بدل خمس وعشرين سنة). الا ان الامر اختلف بعد غيا ب فيصل ومجيء ولده غازي كما أشرت، فقد كانت سنوات حكم فيصل العشر غير كافية لتحقيق اهدافه النبيلة وهي كبيرة وكثيرة، لا سيّما ترسيخ الوطنيّة العراقيّة وتخليص مكوّنات شعبه من ادران القرون التي سبقته. لذا فقد عادت بثور اوبئة الماضي تظهر على الجسد الطريّ للمجتمع الجديد بعد غيابه فورا. فقد عادت الصفوة العراقيّة تميل مرّة اخرى اكثر فاكثر الى التجمّع على اشكال ومحاور العنصريّة والطائفيّة والقبليّة سواء داخل الاحزاب والتنظيمات السيّاسيّة او خارجها، ولم تسلم بعد ذلك حتى النشاطات والمشاريع التجاريّة والصناعيّة ايضا من هذا الوباء اذ من النادر جدا ان تجد مؤسّسة تجاريّة او صناعيّة طيلة تاريخ العراق تضم شركاء من مختلف مكوّنات الاطياف المذهبيّة والعنصريّة العراقيّة.

الصّفوة العراقيّة والتيّارات الفكريّة الوافدة

لم يُعرف العراق طوال الاف السنين من تاريخه المثير، كبلد، بهذه المساحة الصغيرة التي حددّته له خرائط معاهدة (سايكس ـ بيكو السيّئة الصّيت عام 1916) ثم مؤتمر فرساي/ باريس ومعاهدات و تسويات ما بعد الحرب العالميّة الاولى- سيفر ولوزان... (1920 ـ 1918).. التي قسّمت بموجبها الامبراطوريّة العثمانيّة ليصبح العراق بموجب تلك التسويات ضمن حدوده الصغيرة والضيّقة المعروفة اليوم.

لقد عا ش العراق طيلة الالاف من سنين عمره امّا عاصمة ومركزا عزيزا لامبراطوريّة عالميّة قويّة وغنيّة مترامية الاطراف مهيبة الجانب، او جزءا متميّزا وقلبا حيويّا فعّالا من امبراطوريّة كبرى، ابتداءا من الامبراطوريّا ت العراقيّة القديمة ماقبل الميلاد (كالاكديّة والبابليّة والاشوريّة وهي اوّل الامبراطوريّات الاستعماريّة في التاريخ)، وحتى الامبراطوريّة العثمانيّة التي عا ش العراق كاهمّ اجزائها لاكثر من اربعة قرون؛ (مرورا بالفارسيّة واليونانيّة والرومانيّة والعربيّة الامويّة ثمّ العبّاسيّة وبعدها المغوليّة والتركمانيّة والصّفويّة.... الخ)، ثمّ اخيرا وقوعه محتلا مع مطلع القرن الحالي من قبل الولايات المتحدة الامريكيّة (الامبراطوريّة الوحيدة الباقية في العالم اليوم) وحلفائها حيث اكدت الاحداث والتطورات الاخيرة وجهة النظر هذه حيث عاد العراق مرّة اخرى مركزا للسياسة العالميّة متأثرا ومؤثرّا فيها في نفس الوقت. فلاوّل مرّة في تاريخ الولايات المتحدة الحديث دخل العراق بشكل مباشر في حملة انتخابات الرئاسة الامريكيّة الاخيرة كعامل خارجي مؤثر.

لقد جعل الموقع الجغرافي من العراق (سرّة الارض) في قلب العالم القديم (التقاء اسيا وافريقيا واوروبا)، كما اعطته تلك المساحة الواسعة من الامجاد التاريخيّة والتقاءات الاقوام والشعوب والعناصر المختلفة الالوان والحضارات والتجارب الانسانيّة التي اجتمعت كلها على ارض الرافدين لتجعل من الانسان العراقي متلقيّا ايجابيّا وفطنا ذكيّا لكل ما هو جيّد وجديد، وايضا لكلّ ما هو سيّيء ورديء. وربما كان لهذا التاريخ الصاخب العاصف، ولهذه الخصوصية من اهم الاسباب التي ولّدت عند غالبيّة العراقيين على اختلاف مراحل تاريخهم صفا ت شخصيّة ميّزتهم عن غيرهم؛ كالفطنة والاباء وعزّة النفس التي لا تذلّ ولا تنكسر، وكذلك لديهم قوّة تحمّل عجيبة على اشدّ المصاعب والظروف القاسية مرارة، ولفترات زمنيّة غير مألوفة

والعراقي كما وصفه اشهر المؤرّخين وعلماء الاجتماع القدامى والجدد يتميّز بالفطنة والقدرة الذاتيّة على تلقي المعرفة والعلوم النظريّة والتطبيقيّة بسرعة ومن ثمّ هضمها وبعد ذلك اداءها بشكل خلاق ومبدع وجديد.

فلا غرابة ان نجد العراقيين قد أنشاؤا اوّل حضارة في العالم؛ فهم اول من اوجدوا ادوات الانتاج والنقل (ادوات الزراعة و نظم الري-واختراع العجلة والعربات المدنيّة والعسكريّة)، وهم اول من اخترع الكتابة في التاريخ وانشاؤا المكتبات ونظموها، وجعلوا لمفردات اللغة

قواميسها. كما شرّعوا القوانين على الأرض وتلقوا رسالات السّماء بحماس ونشروا رسالة التوحيد بين بقيّة سكان الأرض، ومثلما كانوا اوّل المستعمرين والمستعبدين للأرض وللبشر (حينما اقام الأكديّون اوّل امبراطوريّة في التاريخ)، نجدهم اوّل من احترم وقدّس العدل والانصاف وحقوق المجتمع (للانسان وللاسرة وللامومة وللطفولة) مثلما سنّوا حقوقا وقوانين للنبات وللحيوان وللطبيعة، فقد نظّموا العلاقات بين افراد المجتمع وعلاقتهم بالدولة وفق شرائع وقوانين وعلى اسس شابهتها كثيرا ماجاءت به فيما بعد كافة النظم والتشريعات وقوانين المجتمعات المدنيّة في العصور الحديثة اليوم. وهذه حقائق كلهّا منقوشة ومدوّنة على المسلات والالواح الحجريّة والرّقم الطينيّة العراقيّة الموجودة اليوم في اشهر متاحف العالم وبشهادة كبار علماء الاثار والتاريخ القديم والحديث في العالم.

والعراقيين هم اوّل من وضع هندسة بناء المدن وتخطيط الشوارع والمزارع والبساتين وبناء القصور العظيمة وتشييد القلاع والحصون والابراج العالية ونظم تصريف المياه بما فيها ايصال مياه دجلة والفرات لاعلى برج فيها لارواء حدائقها المعلّقة. مثلما ابتدعوا وأبدعوا في علم الفلك وادواته، وعلوم الرياضيّات والجبر والمقابلة وعلوم اللغة وقوانين النحو والصرف (حيث لا توجد حتى هذه الساعة الا مدرستي الكوفة والبصرة النحو يتيّن في اللغة العربيّة)، مثلما يضاف إليهم وحدهم ايجاد بحور الشعر العربي وادوات الموسيقى وقوانينها وسلمّها، وقائمة العطاء العراقي للحضارة الانسانيّة لا مجال للأطناب فيها اكثر في هذا المجال.

لذا فمن الانصاف ان نزيد في القول، وعلى ضوء ما شهد به اعظم علماء العالم وما طرحته دلائل الاثار ومعطيات التاريخ على مرّ العصور؛ ان مساهمة الانسان العراقي في الحضارة الانسانيّة قديمة وعظيمة وهي مبتكرة. وعلى الرّغم من النكبات التاريخيّة الكبرى التي مرّبها العراق، هي حالة عطاء مستمر وغير منقطع على كافة الاصعدة الدينيّة والعلمية والادبيّة والفنيّة سواء عا ش العراقي ونشط داخل وطنه العراق او اضطرّ ان يعيش مهاجرا خارجه.

انّ الذي يعنينا مّما تقدّم ـ وضمن حديثنا عن العراقيين والصّفوة العراقيّة ـ هي عدم انغلاق ذهنيّاتهم و تفهّمهم وتلقّيهم السّريع للتيّارات الفكريّة الجديدة (في الماضي والحاضر)، لا سيّما تلك التي وفدت على العراق في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي.

انّ اوّل الافكار والمبادىء الوافدة كانت القوميّة الحديثة التي وردت الى العراق والتي جاءت على النمط الأوروبي The Nationalism (لا سيّما النمط الالماني والايطالي) والتي طرقت ابواب المجتمع العراقي وهزّته انذاك. لقد جاءته عبر العاصمة العثمانيّة إستامبول بحكم وجود الضباط وخيرة شبا ب الصّفوة العراقيّة الذين كانوا اما في خدمة مؤسسّات الدولة العثمانيّة او كانوا يدرسون ويدرّسون فيها ومن امثالهم ممّن كانوا يتلقون العلم ايضا في العواصم الغربيّة الأوروبيّة لا سيّما باريس ولندن وبرلين.

كان العراقيّون سواء في الجيش اوفي مجلس النواب (المبعوثان) العثماني هم الاكثر عددا

و الاعلى رتبا والاكثر تميّزا وحضورا في النشاطات العسكريّة والفكريّة والسياسيّة بين زملائهم من ابناء جميع الرعايا العثمانييّن الاخرين. وقد نقل اولئك الطلائعيّون العراقيّون تلك الافكار والمبادىء القوميّة الى العراق ضمن نشاطاتهم السيّاسيّة والفكريّة ومحاولتهم البحث عن السّبل الّتي قد تساعدهم في تحرير بلادهم من السيّطرة العثمانيّة. وقد خالف هذا الجزء قسم من الصفوة وهم (المحافظون) الذين كانوا يؤمنون بانه لا يجوز الخروج على الدولة العثمانيّة (المسلمة) فكان ذلك الاختلاف اوّل انقسام فكري بين ابناء الصّفوة العراقيّة.

وبعد توالي احداث الحرب العالميّة الاولى وانسلاخ العراق من الامبراطوريّة العثمانيّة بالاحتلال البريطاني ومن ثمّ قيام المملكة العراقية على النمط الملكي البرلماني البريطاني بمؤسسّاته الدستوريّة المختلفة، بدات الصّفوة من العراقيّين بالاطلاع والتعرّف اكثر وبشكل اوسع على الافكار والمباديء الاخرى، بالاضافة الى نموّ المشاعر القوميّة فيه سابقا، ولاوّل مرّة اخذ العراقيّون يسمعون باصطلاحات جديدة كالرأسمالية والاشتراكيّة والشيوعيّة والنازيّة والفاشيّة، وبالصّراع الطبقي وبالحتميّة التاريخيّة الى غير ذلك من المسّميا ت والمصطلحات الحديثة. وقد لعبت الصّفوة العراقيّة المتعلّمة (لا سيّما الذين درسوا في الجامعات العربيّة والاجنبيّة) دورا رئيسيًا في ترويجها ونشرها بين النا س. وانه لمن الواضح ان منظّري مجموعة الصّفوة المثقفة (لا سيّما اليساريّون منهم) أخذت تلك المباديء والافكار على علاتها دون ان تطوّع تلك الافكار والمبادىء الجديدة بما يتلائم مع الموروثات التاريخيّة والمعتقدات الدينيّة المتجذرة في وجدان المجتمع العراقي. ومع ذلك بقيت الخلافات مستمرّه بين المجدّدين والمحافظين حول مدى استعداد كل منهم تقبّل الافكار والمباديء الجديدة.

لم تلق الافكار والمباديء القومية الجديدة رّدة فعل قويّة معارضة في اوّل الامر، لامن عامّة العراقيين ولا من صفوتهم، نظرا لبساطتها وسهولة هضمها ولما فيها من شعارات واهداف نبيلة تتماشى مع امالهم وطموحاتهم (كالحريّة والاخاء والمساواة)، ثمّ وحدة العرب وارجاع امجادهم الغابرة والاخذ بايديهم نحو التطوّر والرقيّ والتمتع بخيرات وطنهم وثرواته..... الخ.

كما انّ الافكار القوميّة العربيّة في اوّل الامر لم تكن ذات منهج عدواني وسلوك عنصري متعالي علي حسا ب حقوق وكرامة العراقيينّ من العناصر غير العربيّة كالكرد والتركمان والاشوريين والكلدان وغيرهم. ويمكن القول انها (افكار القوميّة العربيّة) كانت انذاك لاتزال تنمو في حجر الاسلام وتنهل من قيمه وتاريخه وتراثه وادابه مثلما كانت تستظل بسقفه وتتقوّى بحججه وبادلته وبراهينه (سواء في المجال التنظيري او التنظيمي العملي) وقبل ان تُخترق من قبل الافكار والنظريّات الدخيلة كالشيوعيّة والنازيّة والفاشيّة والبعثيّة. لذا كانت بداية القرن العشرين عصر وئام وتصالح بين الافكار القوميّة الجديدة والاسلاميّة التقليديّة، وان كانت بداية استفزاز ومصدر قلق مشروع للعناصر الاخرى غير العربيّة من ابناء العراق والتي راحت هي الاخرى تتمحور حول ذاتها وهويتها القوميّة في تنظيمات

خاصّة بها كردّ فعل طبيعي للدفاع عن ذاتها ووجودها.

ويمكن اعتبار الافكار والمباديء الشّيوعية والاشتراكيّة الموجة الجديدة الثانية التّي دخلت العراق بعد القوميّة، فقد جاءت مع بداية القرن العشرين ودخلت العراق من مصدرين:

الاوّل: من الشام، من فلسطين، حيث انشا فيها المهاجرون اليهود (لا سيّما القادمون من المانيا وروسيا) اوّل حزب شيوعي في العالم العربي في عام 1919،(صلاح الخرسان/ صفحات من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي/ط1/ص 14)، ومن سوريا ولبنان حيث تأسس الحزب الشيوعي فيهما عام 1924.

والثاني: من ايران (عبر عبادان ثمّ البصرة فبقيّة انحاء العراق). وقد كانت النشرات والبيانات والكتب الشيوعيّة واخبار ثورة البلاشفة في روسيا بزعامة لينين وستالين تصل تباعا عبر إيران منذ عام 1917 مع الشخصيّا ت الناشطة سياسيّا وتنظيميّا والمبشرة باخبار وتطوّرات الثورة البلشفيّة الروسيّة التي كان يروّج لها دعاتها انذاك بهالة من المبالغات الاسطوريّة باعتبارها: (الامل الجديد للدول والشعوب المستضعفة و الخاضعة للاستعمار وللرأسمالية العالميّة للتحرّر والإنعتاق واقامة العدالة بين الشعوب).

لقد تركت مبادىء الاشتراكيّة والشيوعيّة على ابناء الصّفوة العراقيّة، لا سيّما الشباب منهم، اثرا واضحا وعميقا وبشكل يوازي تقريبا اثر الافكار القوميّة فيهم ان لم يكن اعمق واكثر ضررا نظرا لما للاولى من جاذبيّة وحداثة ومنطق مقبول في مسائل نشر العد ل والمساوات في توزيع الاملاك والثروات واحترام حقوق الانسان وموقع المرأة في الدولة والمجتمع. لذا فليس من الغريب ان نجد عددا كبيرا من ابناء الصفوة الموسرة وكذلك ابناء عشرات الأسر المرموقة الدينيّة - الشيعيّة والسنيّة - بما فيها ابناء كبار العلماء والمراجع قد احتلوا مواقع قيادية في الاحزاب اليساريّة السرّيّة سواء في بداية مراحل تأسيسها او ما بعدها.

لقد بقيت حالة الانقسام الايديولوجي والتنافس الحادّ(اللاديمقراطي) للصّفوة العراقيّة بين اتجاهين، القومي والشيوعي، حالة متكررّة منذ بداية تأسيس الدولة العراقيّة وحتى اليوم؛ لذا يمكن اعتبارها قاعدة ظاهرة وليست استثناء في السّياسة العراقيّة. واذا ما اردنا ان نكون اكثر دقة وعدالة في التحليل الموضوعي فلا بدّ لنا من الاشارة الى عامل تخلي المؤسسات الدينيّة منذ سنوات الثلاثينيات عن مسؤوليّاتها حيال الشبا ب طيلة النصف الاوّل من القرن الماضي وعزوفها عن التدخل في السيّاسة الداخليّة والخارجيّة وابتعادها عن كلّ ما كان يقلق الشباب حول القضايا والمصالح الحيوية والمصيريّة للامة والوطن؛ مما جعلوا الشباب صيدا سهلا للاحزاب والمنظمات السياسيّة السرّية والعلنيّة. وحينما تنبّهت بعض الزعامات الدينيّة للامر كالشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء والشيخ المجدّد محمد رضا المظفر وجماعة العلماء فانّهم قد حوربوا وواجهوا صنوفا شتى من التهم والاضطهاد النفسي والأمني من قبل العلماء (التقليديّين) داخل الحوزة العلميّة وحُجّموا من قبل خصومهم الى

درجة كبيرة.

وحينما انبرى، بعد فترة قصيرة علماء اخرون للعمل السياسي (كالشيخ عبد العزيز البدري والسيّد محمد باقر الصّدر واخرين)، كان الوقت انذاك قد تأخر لانقاذ الموقف وربما لم يعلموا بأنهم بصحوتهم تلك قد شكلوا جبهة ووضعا جديدا للصّفوة العراقيّة ولتصبح ثلاثة بدل اثنتين. مما زاد من التشنج القديم ولتصبح الصراعا ت اكثر عنفا ودمويّة مع السّلطة حيث طالت كبا ر العلماء والمراجع الاجلاء رجالا ونساء مابين اعدام واغتيال وسجن وتشريد ونفي الى خارج الوطن، وقد تمّ ذلك على ايدي ابنائهم وشباب الصّفوة (سواء الشيوعيّة او القوميّة لا سيّما البعثيّة المتطرّفة) ومن دون ان نستثني منهم ايّ انتماء لمدينة او قوميّة او لقبيلة او لاسرة او لدين او لمذهب او لفكر سياسي.

اوائل التيّارات الفكريّة التي سادت العراق

انّ اهمّ التيّارات الفكريّة التي أثرت في الصّفوة العراقيّة قبيل الحرب العالميّة الثانية هي:

اوّلا: التيّار الاشتراكي الاصلاحي:- وهو تيّار فكري تحمّس له ونادى به صفوة من الشباب المثقف من الذين تلقّوا علومهم في الجامعات ذات المناهج الأوروبيّة سواء في لبنان او في دول اوروبا وامريكا وفي مقدّمتهم عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد وابراهيم بيثون وحسين جميل وعبد القادر اسماعيل خلال اعوام 1932 – 1934 وهم المجموعة الاولى، ثمّ انضمّ اليهم كامل الجادرجي ومحمد جعفر ابو التمّن وحكمت سليمان. هذه المجموعة التي عرفت بجماعة الاهالي وأخذت تدعو الى أيديولوجيّة "الشعبيّة" .

لقد عُرفت الشعبيّة كونها اقرب الى تيّار اشتراكي – اصلاحي يدعو الى تحقيق الاستقلال الداخلي والخارجي للدولة. وانّ من حق الدولة التدخل في سياسة تنظيم المجتمع، وان من حقها السيطرة على الصّناعات المهمّة وامتلاك كافة الخدمات العامة كالسكك الحديديّة والبواخر ومشاريع الماء والانارة (الكهرباء). كما دعا هذا التيّار الجديد الى تدخل الدولة في السياسة الزراعيّة وتوزيع الاراضي على الفلاحين وكذلك ان تدافع عن مصالح الطبقة العاملة. وقد اصدرت هذه المجموعة المتحمسة من الشباب كرّاسات ونشرات بعناوين (مطالعات في الشعبيّة) و(رسائل الاهالي) بهدف تثقيف وتنوير المجتمع بما كانوا يدعون اليه.

لقد جاء في بعض رسائلهم ان من اهم اهداف الشعبيّة انّها كانت: "..تسعى لتنظيم الحياة الاقتصاديّة ومحاربة الرأسمالية ومنع استغلال الفرد لجهود الاخرين واعتبار العمل المنتج السّبيل الوحيد للحصول على اسباب العيش، ورفضت الشعبيّة مبدا الصراع الطبقي وحصر السّلطة في يد العمّال الصّناعيّين واكدت عدم التزامها بسلوك طريق الثورة – كالشيوعيّة – وانما فضلت الطريق الذي تصل بواسطته الى الهدف بأقل كلفة وباقرب وقت.." (مطالعات في الشّعبيّة،رسائل الاهالي- كامل الجادرجي/ المصدر/ص 33-35/

عادل غفوري خليل/ احزاب المعارضة العلنيّة في العراق/ 1946 – 1954/ص 35/الطبعة الاولى- بغداد 1984.

ثانيا: التيّار القومي العربي: وهو تيار كان يعتبر جديدا ايضا انذاك بشعاراته وبدُعاته الذين كانوا يعرفون " بجماعة نادي المثنّى " ، وهم صفوة سياسيّة من الشباب الذين تبنّوا الفكر القومي العربي في نادي المثنى بن حارثة الشيباني الذي تأسس عامَ 1935 برئاسة الدكتور صائب شوكت، ومحمد مهدي كبّة نائبا للرئيس وعضويّة كل من متي عقراوي وخالد الهاشمي ودرويش المقدادي والمقدم فهمي سعيد والدكتور صبري رشيد.."(عادل غفوري خليل/المصدر- ص36).

ويبدو ان تأسيس النادي جاء كتكتل وردة فعل للانتشار السّريع للشيوعيّة وللاشتراكيّة الماركسيّة التي أخذت تعمّ العراق في سنوات الثلاثينيّات. فقد راى جماعة المثنى ".. انّ طريق الخلاص لا يتأتى باصطناع الاشتراكيّة والمباديء اليساريّة المستوردة قدر ما تأتيه من بعث قومي شامل..". (العراق من الاحتلال حتى الاستقلال/عبد الرّحمن البزاز/ط 3 - ص238/ بغداد 1967). كما يؤكد محمد مهدي كبّة في مذكراته هذا الرّاي بقوله: " ...وراحت بعض الفئات تنحو بهذه المباديء منحى عالميّا محضا، من شانه ان يصرف النشا الجديد عن تاريخ امّته، ومقوّمات قوميّة ووطنيّة، فراى فريق من الشباب العربي المثقف ضرورة مجابهة هذا الخطر الوافد الذي يهدّد قوميّته وتراثه...وعلى هذا الاساس، ولتحقيق هذه الاهداف، انبرى هذا الفريق لتأسيس نادي المثنّى بن حارثة الشيّباني..).

(محمد مهدي كبّة/المصدر../ص54 – 55)

لقد نشطت الصّفوة العراقيّة القوميّة ضمن "نادي المثنى بن حارثة الشّيباني" وقامت بنشاطات متميّزة اهمّها:

1 - مطالبة امانة العاصمة (بلديّة بغداد) بابدال اسماء الفنادق والمحلات العامّة باسماء عربيّة.

2 - معالجة القضايا القوميّة.

3 - اقامة النادي سلسلة من المحاضرات لتوضيح ابعاد الحركة القوميّة.

4 - شارك اعضاؤه في جمعيّة الدّفاع عن فلسطين التي شكلت برئاسة طه الهاشمي ووضعت البناية تحت تصرّف الجمعيّة.

5 - اقام النادي بمظاهرات احتجاج وعقد ندوات متتالية بسبب احتلال الاتراك للواء الاسكندرونة السّوري العربي وحمّل الإنكليز واليهود المسؤوليّة.

6 - انتقد النادي اعمال الحكومات العراقيّة المتعاقبة وطالب بتعديل المعاهدة العراقيّة - البريطانيّة

لسنة 1930.

7 - طالب النادي بضمّ الكويت للعراق ودعا للوحدة العربيّة ولكن دعوته للوحدة العربيّة كانت غامضة. (عادل غفوري خليل/المصدر- ص 37)

لم تكتفي زعامات الصّفوة القوميّة بنشاطات نادي المثنى بل دفعها حماسها القومي العربي الى العمل في اوساط الجيش والقوّات المسلحة الاخرى.واصبحت لها صلات وامتدادات في الدول العربيّة الاخرى وبالتحديد بلدان الشام ومصر، وكانت قضيّة فلسطين هي المحور المركزي الذي تدور حولها جميع النشاطات السّياسيّة والفكريّة، العلنيّة والسّرّية.

تنظيم قومي سرّي في وقت مبكّر:

لقد كشف الاستاذ محمّد صدّيق شنشل (احد ابرز زعماء حزب الاستقلال والصّفوة القوميّة في العراق) في حديث خاص للاستاذ عادل غفّوري خليل بتاريخ 13/10/1977 مايلي:

"...كشف محمد صدّيق شنشل ولاوّل مرّة عن تنظيم سياسي سرّي نشا ضمن التيّار القومي العلني في العراق كان يمثل جزءا من حركة قوميّة عربيّة على مستوى الوطن العربي، وبانه كان قد انشيء في الثلاثينيّات من هذا القرن (العشرين) واستمرّ في نشاطه حتى عام 1941 حيث انحل بفشل حركة رشيد عالي الكيلاني. وقد تجسّدت اهداف هذا التنظيم - بتوضيح الفكرة القوميّة العربيّة – وابعاد الفكر العربي عن التعصّب الديني والمذهبي والطائفي والاقليمي، وافهام العناصر الاخرى التي يضمّها الوطن العربي حقيقة الاتجاه القومي العربي الانساني، الذي يتمثل في الدّين الاسلامي جزءا اساسيّا من تراث الامّة العربيّة، ومن مقوّماتها، دون ان يؤدّي ذلك الى اضطهاد الاقليات الاخرى التي يضمّها الوطن العربي، ودون اضطهاد الذين يؤمنون بالكتاب (المقدّس) من غير المسلمين. وقد انفرد هذا التنظيم دون غيره من التنظيمات السّياسيّة في العراق ابان تلك الفترة، باحتوائه على جناح عسكري، وقد تمثل بعضويّة كل من العقيد صلاح الدين الصبّاغ والعقيد فهمي سعيد والعقيد محمود سلمان والعقيد محمود هندي (سوري) حيث كان التنظيم يعتبر الجيش سند الحركة السّريّة.كما ضمّ طلاب الكليات وبعض طلاب الكلية العسكريّة والثانويّة العسكريّة. ولكنّه كان مقتصرا على بغداد وبقي محدود النشاط بسبب الاسس المقيّدة والشديدة التي يقوم على اسسها الكسب الحزبي.

كان راس التنظيم في الفترة الحرجة (فترة الحرب العالميّة الثانية 1939 – 1941) يونس السّبعاوي، الذي اصبح وزيرا للاقتصاد في وزارة الدفاع الوطني التي شكلها رشيد عالي الكيلاني في مايس 1941 والذي كان على اتصال بالقوميّن الفلسطينيين من جماعة مفتي القدس الحاج (امين الحسيني) وعبد القادر الحسيني، ويقول (شنشل)، الذي كان قد انضمّ الى هذا التنظيم عندما كان طالبا في باريس مع جماعة من الطلاب في الفترة بين 1936 –

1939، واصبح مديرا للدعاية (في وزارة الاعلام) في عهد وزارة الكيلاني، بانّ جميع اعضاء التنظيم كانوا قد انتموا الى نادي المثنى واخفوا وجود تنظيم سرّي حتى على نائب رئيس النادي الشيخ محمّد مهدي كبّة. ومن هنا يظهر بصورة جليّة، سرّ وقوف نادي المثنى او بالاحرى اعضاء التنظيم السّري بجانب حركة الكيلاني عام 1941...

(عادل غفوري خليل/احزاب المعارضة العلنيّة في العراق 1946- 1954/المصدر../ص 38 - 39)

وحول هذا التيّار القومي العربي في العراق، كتب طه الهاشمي في مذكراته يقول:

"...انّ القوميّين كانوا قد شكلوا جمعيّة سرّية ضمت كلا من امين الحسيني مفتي فلسطين، رشيد عالي الكيلاني، صلاح الدّين الصبّاغ، ناجي شوكت، فهمي سعيد، محمود سلمان، ويونس السّبعاوي. وخصّصوا لكل واحد منهم اسما مستعارا.(طه الهاشمي/مذكرات طه الهاشمي/دار الطليعة/بيروت 1967 - ص473). وقد ايّد العقيد صلاح الدين الصبّاغ ذلك في مذكراته، واضاف فيها الى انّ اوّل اجتماع لها كان في 28 شباط 1941.

انّ العمل السّري ليس بجديد على اهل العراق عبر تاريخه القديم والوسيط والحديث، وبامكان الباحث في تاريخ النشاط السّياسي في العراق المعاصر وكحصيلة لبحثه ان يشير الى مايلي:

ا: انّ التيّار القومي في العراق جاء كردة فعل طبيعيّة لمجابهة النشاط الشيّوعي الذي بدا يستشري منذ تاسيس الحزب الشيوعي العراقي السّري (1934) بالكفاءة والقدرات العالية لمؤسسه وزعيمه يوسف سلمان (فهد) ونشاطات مجموعته المتميّزة لا سيّما في بغداد والبصرة والعمارة وبقيّة الجنوب ذات الكثافة السكانيّة العالية.

ب: عدم مجابهة الدوائر البريطانية واصدقائها في العراق للنشاطات السرّيّة الشيوعيّة والقوميّة على حدّ سواء بشكل جدّي في اوّل الامربسبب انشغالها بمتطلبات الحرب العالميّة الثانية، ولكنها تصدّت للنشاطات القوميّة السّريّة حالما تعدّت التنظيمات القوميّة الخطوط الحمراء حينما تغلغلت بين ضباط الجيش العراقي وحازت السّلطة في حكومة رشيد عالي الكيلاني عام1941 التي كانت متعاطفة مع المانيا وحليفاتها.

ج:في ظل نتائج النشاطات التي قامت بها التنظيمات السريّة للحركة القوميّة العربيّة والتي كانت ذروتها حركة ضباط المربع الذهبي في مايس 1941 وحكومة رشيد عالي الكيلاني في العراق وكذلك تصاعد المدّ القومي العربي في فلسطين وسوريا ولبنان، قامت بريطانيا وفرنسا بدعم النشاطات الفكريّة والتنظيميّة لمؤسس البعث ميشيل عفلق لخلق حالة من التفرقة والصراع بين كافة التنظيمات القوميّة العربيّة على مبدا البريطانيين والفرنسيّين (المحاربة بالضدّ النوعي).

ثالثا: التيّار الماركسي والشّيوعي: كانت فلسطين ولبنان وجنوب غرب ايران (عبادان)

اهم مصادر التبشير الاشتراكي والتسلل الشيوعي للعراق منذ بداية القرن الماضي.وكانت الصّحف والكتب والنشرات وعموم المطبوعات تتسرّب من هذه الجهات الى داخل العراق.

كان الروّاد الاوائل للفكر الماركسي في العراق يشكلون مجموعة صغيرة كانت قد تاثرت بما كان يصلها من نشرات ومقالات في مجلة الحزب الشيوعي اللبناني، وفي صحيفة "اللومانتيه" لسان حال الحزب الشيوعي الفرنسي، وكانت تصلهم عن طريق لبنان.كان في مقدّمة الرّواد الاوائل لهذه المجموعة هم: (حسين الرّحال، ومحمود احمد السيّد، وعبد الله جدّوع، وابراهيم القزّاز، ومصطفى علي)، وقد وصف هؤلاء بانّ غالبيّتهم هواة فكر ومباديء رومانسيّة. "..فقد حاول محمود احمد السيّد الذي كان اديبا، ان ينطلق في كتاباته من منطلقات ماركسيّة، فقد وصف اوضاع الفلاحين العراقيين وتعاسة الحياة الرّيفيّة باسلوب اثار فيه ضمير الشّعب وايقاظه على صعوبات الحياة في الرّيف واخذ يركز على تنظيم النقابات العماليّة لا على التحريض السّياسي). [مجيد خدّوري: الاتجاهات السّياسيّة في العالم العربي/ص117/بيروت- 1972].

امّا اهم النشاطات التي قامت بها هذه المجموعة؛ وضعها تقريرا مفصّلا في عام 1923 تناولوا فيه الاوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة والطبيعيّة "..واكدّت فيه ظروف الاستغلال الاستعماري، وترجمته الى اللغة الفرنسيّة ورفع الى لينين (زعيم الحزب الشيوعي الرّوسي). كما اتجهت هذه المجموعة الى الميدان الصّحفي كمحاولة لترويج الافكار الماركسيّة. فاصدرت جريدة (الصّحيفة) في 18 كانون اوّل 1924.وطرحت حلولا لمشاكل العراق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة، ودعت الى تحرير المرأة وتعليمها، وهاجمت الاقطاع والرّجعيّة، كما تبنّت شعار الثوّار الايطاليّن الكاريبالديّين (الرّب والشعب) وهو يعني تحرير الدّين من الشّعوذة والايمان بالشّعب..". (مجيد خدوري/المصدر- ص40 – 41).

انّ اوّل منشور شيوعي كان يحمل اسم (الحزب الشّيوعي العراقي) ظهر في مدينة الناصريّة في جنوب العراق عام 1932. وقد اشار محتوى المنشور الى "...وضع الحكومة وتدخل الإنكليز في شؤون العراق الدّاخليّة والخارجيّة وسلبه ثرواته، وطالب النّاس بالاتحاد والحذر من المستعمر.." (عادل غفوري خليل/المصدر – ص 41).

امّا اوّل منظّمة شيوعيّة ظهرت في العراق، فقد "..تأسست المنظمة المركزيّة الاولى في عام 1934 تحت اسم (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار). ومن ثمّ تكامل الحزب عندما اتخذت اللجنة المركزيّة المنتخبة قرارا في تمّوز 1935 باعلان اسم (الحزب الشّيوعي العراقي) بدلا من (لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار). وقد ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي كل من يوسف سلمان يوسف (فهد) وعاصم فليّح بالاضافة الى "سامي نادر، مهدي هاشم، حسن عباس، زكريا الياس، داود سلمان – شقيق يوسف سلمان والذي كان اوّل طباع لمنشورات الحزب -، جميل توما، نوري روفائيل، ويوسف اسماعيل وعديد غيرهم..". (زكي خيري: الحزب الشّيوعي العراقي/ص 7، عادل غفوري خليل/المصدر—ص42).

علاقة الصّفوة الماركسيّة/الشيوعيّة بالانقلابات

على الرّغم من الحماس الظاهري للشيوعييّن والماركسييّن ودعاة الاشتراكيّة من العراقييّن لتطبيق النظام الديمقراطي في العراق، الا انهم اوّل من شجّع وناصر منذ وقت مبكر و باستمرار جميع الانقلابات العسكريّة وتحالفوا مع الدكتاتوريّات التي ظهرت في العراق الحديث. فمنذ وقت مبكر، وبعد عام واحد فقط من تأسيس الحزب الشيوعي العراقي، ساند الشيوعيّون واليساريّون العراقيّون فكرة تدخل الجيش في السّياسة وقيامه بخرق حرمة الدّستور والحياة البرلمانيّة في الانقلاب الذي قام به الجنرال بكر صدقي (عام 1936) وغيره من الانقلابات والانظمة الدكتاتوريّة اللاحقة.

وبسبب موقف اليسارييّن الإنتهازي المتكرّر هذا، اعتاد القادة الإنقلابيّون ان يسمحوا، ولو لفترة محدودة، للماركسييّن وللشيوعيين ولدعاة الاشتراكيّة بحريّة التعبير بواسطة جميع وسائلهم الاعلاميّة عن افكارهم ومعتقداتهم ونشر كتبهم وكذلك ممارسة نشاطاتهم وفعاليّاتهم المختلفة في اوّل الامر ولفترة لا تتعدّى الأشهر وربّما خلال عام واحد على الاكثر بعد نجاح انقلابهم، ثمّ ينقضّوا عليهم انقضاض الوحش الكاسر على فريسته. فبعد مضايقات وتدخلات بكر صدقي واركانه، تمّ محاصرة جماعة الاهالي ومن ثمّ اخراجهم من الوزارة، كما تمّ تعطيل جمعيّة الاصلاح الشعبي واضطهُد اليساريّون والشيوعيّون كما تمّ اسقاط الجنسيّة عن القيادييّن الشيوعييّن؛ عبد القادر اسماعيل واخيه يوسف اسماعيل باعتبارهما من اصل هندي، كما نفي كامل الجادرجي واعضاء بارزون من البلاد الى جزيرة قبرص".(د. خالد التميمي/المصدر- ص430).

واستمرّ الحال بالماركسييّن والشيوعيين واللبراليين ان يدفعوا اثمانا باهضة بسبب مساندتهم لنهج تدخل الجيش في السّياسة، وتأييدهم للانقلابات وللانظمة التي جاءت بها عبر السّنوات اللاحقة لانقلابات الفترات الواقعة بين (1941 - 1958)، وفترة انقلابات (1963-1968) وحتى سقوط حكومة ونظام البعث الذي تمّ في عهده وقوع الاحتلال الامريكي المذل عام 2003.

الصّفوة بين الدولة والمؤثرات الاجتماعيّة

تأثرت الصّفوة العراقيّة في مسيرتها الحديثة بقوّتين فعّالتين هما: تركيبة الدولة وسياستها من جهة، ثمّ بالموروثات التاريخيّة كالقيم الدينيّة و الاجتماعيّة من جهة اخرى. ولانّ الدولة بمؤسّساتها وسلطاتها تمتلك الوسائل الماديّة والمعنويّة التي تؤثر بشكل مباشر في الحياة المعيشيّة اليوميّة للمواطنين واستقرارهم، لذا فان تأثيرها (الدولة) واقعيّا اقوى من التقاليد والاعراف الدينيّة والاجتماعيّة (ذات التأثير المحدود وغير المباشر لانها قيم معنويّة واخلاقيّة).

فالمواطن قد يتساهل او يغض الطرف عن التجاوزات حيال القيم الدينيّة والاجتماعيّة، الا انه لا يصبر ولا يتساهل ـ ولو لفترة قصيرة ـ في موضوعي تهديد ديمومة العيش اليومي للاسرة (الرّزق)، ثمّ الأمن وما يتعلق بالارواح والاموال، لانّ كليهما اسا س الاستقرار بكافة ابعاده للفرد او للاسرة وللمجتمع برمّته. ولانّ الدولة تعي هذه الحقيقة نجدها (مهما بلغت من جبروت) تسعى بشتّى الوسائل وباقصى الجهود ان توفرّ الضروريّا ت اليوميّة لرعاياها، ولو بحدّها الادنى في السلم والحرب. ولاهميّة هذا الجانب نجد انّ الكثير من الانظمة الدكتاتوريّة الشموليّة راحت تستخدمها كسلاح ترويضي وتساومي مباشر مع مواطنيها، على طريقة استعمال العصا والجزرة في السيرك، ولكن بحذر شديد.

ولانّ الدولة تمتلك ايضا الوسائل الماديّة والمعنويّة المؤثرّة في سلوك رعاياها، وفي مقدمتها الاقتصاد والأمن والسّطوة والوظائف وادارة الحكم ومؤثرّات التعليم ووسائل الاعلام، فا ننا نجدها تبذ ل كلّ ما في وسعها لاحتواء الصّفوة المثقفة الى جا نبها باعتبارها الاداة الاولى في التأثير المباشر على الرّاى العام في الدّاخل وتجميل صورتها في الخارج؛ ومن هنا تبدا مواقف افراد الصّفوة في التصدّعات حتّى داخل الصّفوة الواحدة لتتجمّع ضمن محاور واصطفافات متنوّعة ومتناقضة احيانا الى حدّ العداء. وانّه لمن اخطر محاور الاصطفافات هو ذلك الصف الذي تقف السلطة الى جانبه وتدعمه بكلّ ما لديها من وسائل ماديّة ومعنويّة وبما تملكه من مؤسسات الارهاب الفكري والبوليسي، (لا سيّما الحكوميّون ووعّاض السّلاطين من علماء الدّين)، بينما يقف على الجانب الاخركلّ من يخالف السلطة الغاشمة وحلفائها ليدفعوا ثمن اختياراتهم ومواقفهم المبدئيّة، ليسوا لوحدهم فقط؛بل هم وكل من يتعلق بهم من افراد عوائلهم (وحتّى الدرجة الرابعة من ذوي القربى وبقوانين وبقرارات رسميّة لدى بعض الانظمة الدكتاتوريّة) و كذلك تلامذتهم ومريديهم وغالبا ما يكون الثمن باهضا جدّا الى درجة قد يكلّف حياتهم وحياة اسرهم في اكثر الاوقات.

ولعلّ مواجهات البعض من الصّفوة العراقيّة من العلماء والتجّار وكبار المثقّفين بوجه طغاة السلطات المتعاقبة بقيت مشهودة و مميّزة على مرّ العصور باعتبارها واحدة من اكثر المواجهات ضراوة وعنفا وتحدّيا في تاريخ الانسانيّة؛ حيث تتجلّى امامنا من خلال المحطا ت العديدة لمسيرتها التاريخيّة الطويلة. صور واضحة المعالم وبراهين موّثقة عن معاناتهم الالام وجسامة التضحيات، يرافقها في نفس الوقت سيل من العطاء الفكريّ والعلميّ للانسانيّة لا نظير له، والذي يرقى الى مستوى ما يطلق عليه اليوم (بالمدارس الكبرى في العلوم والمعرفة): فلولا سلسلة الشهداء لعمالقة الفكر والحريّة في تاريخ العراق من الفقهاء والشعراء والمفكّرين عبر القرون وحتى العقود الاخيرة من السنين والتي توّجها العلامة الشهيد عبد العزيز البدري ثمّ المفكر الشهيد السيّد محمد باقر الصّدر واخته امنة بنت الهدى وبقيّة الرّعيل الاوّل من الشهداء، لما رسم التاريخ حدّا فاصلا بين جناحيّ الصّفوة العراقيّة العالمة المثقفة؛ الاول ذلك الرّهط الذي يضع علمه ومعرفته وتضحياته في خدمة الحق والحقيقة

وافراد مجتمعه (بل ولصالح الانسانيّة كلهّا)، والجناح الثاني الذي يفرّط بجميع المصالح الوطنيّة (وان استطاع، مصالح الانسانيّة باكملها) من اجل خدمة ومنافع الدولة المتسلطة والتي تعني واقعيًا منافعه الشخصيّة المحدودة وباقي افراد اسرته.

وعلى الرّغم من انّ التناقض بين (هيمنة الدّولة المستبدّة بامكانيّاتها الواسعة) وبين (المدافعين عن الحريّات وحقوق الانسان) باق، ازلي - ابدي، ما بقي الانسان و بقي واقع الحياة المعقدة، الا انّ هنالك محاولات مستمرّة تجري دائما من قبل هذه الجهة او تلك لايجاد منطقة وسط قد تتصالح فيها الاقطاب المتنافرة. وتتولى هذه المهمّة عادة عناصر توفيقيّة من "كلّ صّفوة" التي تريد الحفاظ على مواقع ومصالح الدولة وعامّة افراد المجتمع (ومصالحها الذاتيّة خاصّة) سواء كانت الدولة ديمقراطيّة أم ديكتاتوريّة وتكثر هذه العناصر عادة بين صفوة الاوساط التجاريّة والدينيّة. الا ان خطورة عملها هذا انها ومن اجل الجمع بين النقائض (النافعة والضّارة) تضطر الى النفاق والتدليس والتحريف على صعيد السلوك والافكار والعقائد على المبدا القائل: (سيّدنا عليّ حارب سيّدنا معاوية) فتفسد بذلك جوهر العقيدة وتضعف نسيج المجتمع وطباعه. ولكون العراق مهد جميع الديانات السماوية والمذاهب والتيّارات الفكرية والفلسفيّة تقريبا، فانّ - العراق - بقي الاكثر تميّزا وعنفا في بروز هذه الظاهرة

مختارات من الصّفوة العراقيّة

الشريفيّون: تعمّدت ان ابدا بالشريفيّين لكونهم اهمّ شرائح الصّفوة العراقيّة في العهد الملكي، ولما كان لهم من دور اساسي في بناء العراق الحديث سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ووضع معالم مستقبله والتأثير العميق على الاجيال اللاحقة من بعدهم.

الشريفيّون او "الحزب الشريفي" تعبير حديث اطلق على تلك المجموعة من العراقيّين، وعدد قليل من الشخصيّات العربيّة (وغالبيّتهم العظمى من الضباط وبعض المدنييّن الذين خدموا في الدولة العثمانيّة) وهم الذين التفوّا حول قيادة الشريف حسين بن علي امير مكة المكرّمة اثناء ثورته على الدولة العثمانيّة خلال الحرب العالميّة الاولى (1914 - 1918)، ومن ثمّ خدموا تحت امرة اولاده لا سيّما (فيصل وعبدالله) في ميادين الثورة وساحات الحجاز وسوريا والعراق والاردن). وهذه المجموعة لم تكن حزبا بالمعنى التنظيمي والسيّاسي للحزب بل كان تجمّعا وتأييدا والتفافا حول اسرة عربيّة عريقة ذات نسب هاشميّ مبجّل لدى غالبيّة المسلمين والعرب. لقد كان اولئك الرجال بالنسبة للثورة العربيّة في الحجاز، ولادارة حكومتي فيصل في سوريا ثمّ في العراق ولحكومة عبد الله في الاردن بمثابة العمود الفقري للجسد.

لقد كان غالبيّة الشريفيّين من سكان مدينة بغداد ومن ابناء النصف الشمالي من العراق، وكلّهم من المسلمين السنّة لان الدولة العثمانيّة كانت تمنع رعاياها ماعدا ابناء السنّة من اكمال دراساتهم (ما بعد الدراسة المتوسّطة فما فوق)، كما كانت تحضر على غيرهم ايضا

الدراسات في الكليّات المهمّة، لا سيّما العسكريّة والقانونيّة والطب، ولهذه الاسباب اتيحت لاولئك "الشريفيّين" الفرصة ليصبحوا من ذوي الكفاءات العالية، في العلوم العسكريّة والقانونيّة والطبيّة، وذوي ثقافة حديثة حيث اتيحت لهم الاطلاع على علوم ذلك العصر بشكل او بآخر في عواصم الغرب مثل باريس ولندن وبرلين بالاضافة الى معاهد إستامبول التي درسوا فيها. كما كان لاولئك قدرات ذاتيّة عالية وسجلا علميّا ممتازا مثلما أظهروا براعة عسكريّة وشجاعة مشهودة في المعارك التي خاضوها في الجيش العثماني في مختلف الجبهات الحربيّة في اسيا وأوروبا وافريقية. وانّ قصّة انضمامهم للثورة العربيّة التي قادها اشراف الحجاز سبق وان بيّنوها في مذكراتهم الشخصيّة، كما تناولتها دراسات ورسائل اطروحات اكاديميّة قيّمة وبتوسّع وبموضوعيّة ولازالت الدراسات تتكرّر حول هذا الموضوع كظاهرة وكنقطة تحوّل في تاريخ العراق والعرب والمسلمين. وللمزيد راجع:

(David Pool،The politics Of Patronage Elites.. p.86)

لقد ترك الضّباط العراقيّون الجيش العثماني والتحقوا بجيش الثورة العربيّة لاسباب كثيرة:

فمنهم من امن بحق الثورة على الاتراك بدافع الشعور القومي العربي لديهم (وغالبيّة هؤلاء ممّن سبق لهم وان شكلوا تنظيما سياسيّا عربيّا عرف بحزب العهد)، وهناك من انضمّ اضطرارا بعد ان سادت الفوضى ارجاء الامبراطوريّة العثمانيّة اثر اندحار جيوشها في ميادين متعددّة لا سيّما في الشام والحجاز والعراق اثناء الحرب العالميّة الاولى، فما كان امامهم الا الانضمام الى جيش الثورة العربيّة. كما لم يكن خافيا على القيادة البريطانيّة الحالة النفسيّة التي كان عليها كل واحد منهم،لا سيّما اولئك الذين وقعوا اسرى حرب بأيدي الحلفاء حيث أرسلوا الى معسكرات الأسر في الهند وهناك خيّرهم الانجليز بين حياة الأسر وبين خدمة الانظمة الجديدة التي ولدت في المنطقة العربيّة كجزء من تسويات ما بعد الحرب (علما بان الكثير من مجموعات الترحيل من اماكن الأسر والاعتقال لم تعرف حتى موقع المكان او المصير الذي ستنتهي اليه رحلتهم !!).

صحيح انّ بعض ضباط المخابرات البريطانيّة من امثال تي لورنس وجون فيلبي قد فاوضوا باسلوب دبلوماسي حذر بعض الضبّاط العراقيّين من ذوي الرتب العالية من امثال الجنرال جعفر باشا العسكري ونوري السّعيد وابراهيم الرّاوي ومولود مخلص وعلي جودت الأيّوبي وطه الهاشمي ومحمد شريف الفاروقي وحببّوا اليهم الانضمام الى ثورة الشريف حسين بن علي (كما جاء في مذكراتهم)،الا ان تلك المفاوضات كانت تستهدف بالدرجة الاولى اقصائهم عن الجيش العثماني وكسبهم الى صفوف الحلفاء، باسلوب دبلوماسي فيه الشيء الكثير من ردّ الاعتبار لكراماتهم واظهار حسن نوايا البريطانييّن ومراعاتهم للحسّاسيّة المفرطة لدى العرب في مثل هذه الامور. لقد كتب الميجر كينيهان كورنواليس في بعض تقاريره الى وزارة المستعمرات ما يلي:

"...وكما يبدو لي اننّا لم نقيّم تماما قوّة واهميّة هؤلاء الضبّاط العراقيّين كونهم اقطاب الحزب القومي (العهد) وقد يسبّبوا لنا متاعب لا حدود لها في المستقبل. انّني اعتقد اننّا سوف لن نجد صعوبة في كسبهم فيما اذا اتبعنا معهم سياسة كريمة. انّ رجالا من امثال جعفر (العسكري) ونوري (السّعيد) ليسوا بالحمقى، انّهم يعرفون بانّ الدولة الجديدة لا تستطيع الوقوف على قدميها في الوقت الحاضر. انّهم يحّبوننا ويريدوننا ان نساعدهم ولكن على شرط واحد وهو ان نحترم قيمهم ومثلهم..".

وكورنواليس هذا هو الذي مثل الحكومة البريطانيّة لمفاوضة الشريف الامير فيصل بن الحسين في لندن بعد ان اختاره العراقيّون لعرش العراق. ثم اصبح كورنواليس من المقرّبين جدا لفيصل ومستشاره الشخصي بعد ان توّج ملكا على العراق، ثم اصبح مستشارا لوزارة الداخليّة العراقيّة خلال فترة الانتداب ومن ثمّ سفيرا لبريطانيا في بغداد سنة 1941.

امّا الميجر يونغ فقد خدم في جيش الشريف الحسين بن علي في الحجاز وسوريا واصبح مستشارا لشؤون الشرق الاوسط في وزارة الخارجيّة البريطانيّة ثمّ المندوب السّامي على العراق حتى انتهاء فترة الانتداب عام 1932 بدخول العراق عصبة الامم كدولة مستقلة. فقد ايّد في تقاريره السريّة ضرورة احتواء الضبّاط العراقيّين بقوله: "... انها لعين الحكمة التأكيد على ضرورة استخدام الضباط العراقيّين الذين كانوا تحت قيادة فيصل..".

ان معظم هؤلاء (الشريفيّين) كانت لهم صداقات واواصر قربى عائليّة قويّة تربط بعضهم بالبعض الاخر. فقد جمعتهم في البداية زمالة الدراسة في المراحل الثانويّة في بغداد، وبعدها في المراحل العليا في إستامبول؛ فمثلا كان نوري السّعيد وطه الهاشمي في نفس المدرسة الثانويّة في بغداد وفي نفس الصّف مع علي جودت الايّوبي والثلاثة أصبحوا رؤساء وزارات فيما بعد.

وبالاضافة الى زمالتهم الدراسيّة فانّ الكثير من هؤلاء الشريفيّين كانوا زملاء ورفاق في معسكرات الأسر، كما كانت تربط الكثير منهم علاقات مصاهرة وزواج وصلات قربى ومن هؤلاء الاخوين سامي وناجي شوكت، وجميل الراوي وابراهيم الراوي ورشيد الخوجة كانوا ابناء عمومة من الدرجة الاولى وكان هؤلاء يرتبطون مع جميل الوادي وشاكر الوادي وكلاهما ـ من الضباط الشريفيّين ـ بعشيرة الجميلات، وكذلك الاخوة تحسين العسكري وجعفر العسكري وعلي رضا العسكري. كما كان الاخوان العسكريّان ونوري السّعيد (صهر جعفر العسكري) وابراهيم كمال تربطهم روابط زواج عائلي. ومثلهم كان الحال بالنسبة الى ابراهيم قدري وجميل المدفعي، كما تزوّج اسماعيل نامق من اخت عبد الوهاب محمود كما تزوّج توفيق السّويدي من ابنة اخ عبد المحسن السعدون. وانّه لمن الجدير بالملاحظة اني لم اجد بين الشريفيّين احدا قد تزوّج من الطائفة الشيعيّة او بالعكس، كما لم يكن بين مجموعة الشريفيّين من هو من الشيعة غير محمد رستم حيدر (من بعلبك لبنان) الذي اصبح اوّل رئيس للديوان الملكي بعد تتويج فيصل الاوّل كما تولى عدّة مناصب وزاريّة، والسيّد

محمّد الصدر الذي التحق بركبهم في سوريا بعد انتهاء ثورة العشرين حيث التجا اليها ومن ثمّ التقى بفيصل بالقاهرة في اواخر عام 1920 واصبح المقرّب المؤتمن من قبل افراد العائلة المالكة في بغداد، لا سيّما من قبل الملكة الرّاحلة عالية بنت الملك علي وزوجة الملك غازي الاوّل وام ولدهما الوحيد الملك فيصل الثاني اخر ملوك الهاشميّين في العراق (اعلام السّياسة في العراق الحديث/مير بصري/الندن- ط1/ص 193).

كان عدد افراد صفوة "الشريفيين" الذين احاطوا بالملك فيصل الاوّل مباشرة لا يتجاوز عددهم السبعين اغلبهم كانوا من العسكريّين الا انّ اهمهم واكثرهم فاعليّة وتأثيرا في السّياسة العراقيّة طيلة سنوات العهد الملكي هم:-

جعفر باشا العسكري، محمد رستم حيدر، نوري السّعيد، طه الهاشمي، ياسين الهاشمي، ناجي السّويدي، توفيق السّويدي، جميل المدفعي، عبدالله الدليمي، ناجي شوكت وسامي شوكت، علي جودت الايوبي، ابراهيم الرّاوي، مولود مخلص، تحسين العسكري، صبيح نجيب، تحسين علي، اسماعيل نامق، وجميل الرّاوي. لقد اصبح تسعة من هؤلاء رؤساء وزارات، كما احتكروا المناصب العليا طيلة حياة المملكة العراقيّة. اما البقيّة الباقية من الشريفيّين فقد انحسرت فيهم فقط اهمّ المراكز الحسّاسة في الدولة من وزارات ووظائف البلاط الملكي والقيادات العليا في القوّات المسلحة ووظائف الدولة الداخليّة والخارجيّة. وقد ادركت "الصّفوة الشريفيّة" منذ وقت مبكّر انّ هناك رفاقا منافسون لها في داخل الدولة الجديدة يهدّدون مصالحهم مثلما يهدّدون كيان الدولة الجديدة وهي ما زالت بعد طريّة بسبب الحقائق التالية:

اولا: انّ غالبيّتهم العظمى (الضباط الشريفيّون) ينحدرون من مستويات اجتماعيّة متواضعة، متوسّطة ودون المتوسّطة؛ (ولم يكونوا ابناء اغنياء او من ذوي المواقع الاجتماعيّة المرموقة باستثناء امين العمري، قائد منطقة بغداد والفرقة الاولى من 1937 وحتى عام 1940، ومحمد السنوي متصرّف بغداد عام 1932 وجمال بابان، وزير العدل لاكثر من مرّة). فقد كان والد نوري السّعيد موظف حسابات صغير (مدقق)، ووالد علي جودت الايّوبي رقيب اوّل في قوّات الدرك، ووالد جميل محمد عباس (المدفعي) عسكريا اتخذ لقب مهنته العسكريّة (قسم المدفعيّة). ولهذا السّبب قابلوا عدم تعاطف اعيان الصّفوة من رؤوس الأسر العراقيّة الغنيّة والارستقراطيّة معهم، لا سيّما في بغداد في بداية القرن الماضي عند تأسيس المملكة العراقيّة بالتلاحم والتكاتف فيما بينهم لمسك زمام ومراكز السلطة و كيفيّة تداولها فيما بينهم، ومن ثمّ بدؤا بالتدريج يتلاحمون اقتصاديّا واجتماعيّا مع العوائل العليا الاكثر رسوخا وثباتا في المجتمع وبتشجيع من البريطانيّين ومن الملك فيصل الاوّل الذي لم يفضّل او يهمّش احدى كفتي الشريفيّين على الاخرى. ان الذي يجمعهم فوق كلّ هذا وذاك انّ كلا الطرفين (من صفوة الشريفيّين) كانوا من ابناء بغداد السنّة.

ثانيا: انهم (الشريفيّيون) قد جاؤا من الخارج مع الملك فيصل بن الحسين واستأثروا

لوحدهم بالسلطة بكافة امتيازاتها. ولولا دعم ادارة الانتداب لهم انذاك لما استطاعوا ان يرسّخوا سلطتهم في النظام السّياسي الجديد وفرضها كواقع جديد على قادة الحركة الوطنية في المدن وقادة ثورة العشرين من زعماء القبائل وكبار مراجع الدين في بغداد والمدن المقدسة وغالبيّتهم كانوا من صفوة اعيان الشيعة ومن مناطق توارثوا زعامتها كابرا عن كابر.

ثالثا: لم يكن لدى العسكريّين الشريفيّين ايدولوجيّة سياسيّة محدّدة (سواء كانت علمانيّة او دينيّة وان كانوا الى مظاهر العلمانيّة وممارساتها هم اقرب)، ولهذا لم يعرف عنهم تعصّبا مذهبيّا او عنصريّا او قوميّا وان كان بعض الباحثين والمؤرّخين، لا سيّما من الشيعة، يرون فيهم تعصّبا طائفيّا لابناء السنّة، وهو حكم غير دقيق لانّهم (الباحثون والمؤرخون) فسّروا تكبّر اهل المدن الكبرى ـ لا سيّما بغداد ـ على سكان المدن الصغرى، واهل المدينة الحضريّة على سكان البادية والريف الزراعي هو بسبب التعصّب المذهبي، بينما هي (صراع الحضارة مع البداوة) ظاهرة طبيعيّة موجودة في جميع مجتمعات العالم حتى اليوم. ولهذا نجد انّ (الصّفوة الشريفيّة) بسبب تواضع مستواهم الطبقي اتخذت من الوطنيّة العراقيّة والولاء للعرش الملكي وللاسرة المالكة الهاشميّة عقيدتهم السيّاسيّة ومحك اخلاص العراقي للعراق.

انّ الذي يتفحص المذكرات الشخصيّة والسير الذاتيّة التي كتبها (الزعماء السيّاسيّون واعيان بغداد والمدن الكبرى الاخرى) شيوع مثل هذه المفاهيم، لا سيّما ظاهرة تعالي وتكبّر هؤلاء على من سواهم. فا بناء الوسط و الجنوب في مفاهيمهم متخلفون ولا يرجى تطوّرهم لانهّم (شروك ومعدان) ولا امل فيهم مهما بلغوا من درجات الكفاءة والتحصيل العلمي من ارقى جامعات العالم. كما يرونهم لا يحسنوا ولا يصلحوا في نظرهم للادارة والحكم. وبالمقابل فان اعيان وكبار الأسر والبيوتات وزعماء القبائل والعشائر في الوسط والجنوب يرون عند (البغداديّن) و (الموصليّين) عجزا كاملا وعدم القدرة على الوفاء لمتطلبات الوطنيّة وقيم الكرم والشجاعة والتضحية والبذل لاجل الوطن، بل زاد بعضهم بالتشكيك في عراقيّتهم واصولهم العربيّة لا سيّما كل من يحمل لقبا او كنية (اسم العائلة) تعود به الى مدينة او حرفة او منصب (كالموصلي والبغدادي والبصري والعاني والكاظمي والنجفي والتكريتي والالوسي والباججي والجقمقجي والمدفعي والراوي والعسكري...الخ).

لقد ولّد هذا الوضع شعورا بالنقص عند غالبيّة الاطراف العراقيّة، لذا راح البعض ممّن تبوّء الحكم ان يختار له شجرة نسب تعود به جذورها الى افضل واطهر الأنساب وفي سياق هذا المعنى وكثرة الطعون والتشكيك بين ابناء الوطن الواحد انبرى شاعر العرب الاكبر محمد مهدي الجواهري لهذه الظاهرة منتقدا الجميع ضمن مرثيّته الخالدة للزعيم الوطني العراقي محمد جعفر ابو التمّن عام 1946 ومن بعض ابياتها:

ذعر الجنوب فقيل: كيد خوارج وشكا الشمال فقيل: صنع جوار

وتنابز الوسط المدلّ فلم يدع بعض لبعض ظنّة لفخار

ودعا فريق ان تسود عدالة فرموا بكلّ شنيعة وشنار

ومشى المغيث على الجياع يقوتهم وعلى العراة، بجحفل جرّار

وتساء ل المتعجّبون لحالة نكراء: من هم اهل هذي الدار؟؟

وسؤال الجواهري في هذه الابيات مشروع ووارد: " من هم اهل هذي الدار(العراق) " اذا كان هذا يشكك باصول ذاك وتلك الفئة تلغي الاخرى؟؟

رابعا: انّ من بين الطعون التي واجهت "الصّفوة الشريفيّة" هي شدّة ولاءها لملك غير عراقي جاءت به بريطانيا من مكة ونصّبته على العراق كجزء من تسوية شاملة اجرتها مع الاشراف الحجازيّين خاصّة، ومع العرب عامة بعد ان شعرت بانّ من مصلحتها ان تصالحهم نتيجة خيانتها لهم بترجيح كفة ال سعود عليهم، وكذلك بتراجعها عن الوعود التي قطعتها لهم اذا ما وقفوا الى جانبها اثناء حربها ضدّ الدولة العثمانيّة كما هو مشهور في تاريخ العرب الحديث.

ان هيمنة مجموعة الصّفوة الشريفيّة نفسها على السلطة كانت تلقى معارضة العائلات العراقيّة الارستقراطيّة وطبقات ملاكي الاراضي (عرب وكرد وتركمان) و (السّادة الاشراف الذين يدّعون النسب العلوي من السنّة والشيعة؛ كآل الكيلاني وال النقيب وال الراوي والهاشميّين بجناحيهم الحسينيّين والحسنيّين) وجميع هذه العائلات ذات جذورتاريخيّة عميقة في العراق تمتد الى قرون ما قبل العهد العثماني والتي كانت ترفض احتلا ل المجموعة الشريفيّة (الاغرار حديثي النعمة كما كان يطلقون عليهم) المفاجيء للمواقع العليا في المملكة العراقيّة الجديدة. ففي حديث منسوب الى واحد من اشهر رؤساء الوزراء للعراق في العهد الملكي (توفيق السويدي) قال فيه: ((من هو هذا الفلان ابن فلان لكي يصبح وزيرا او متصرّفا (محافظا)؟ وابوه لم يكن الا رقيبا في الجيش او بقالا !!)). وفي سياق حديثه عن نوري السّعيد يشير السّويدي في مذكراته بلغة التعالي "..على الأرجح لم اعرف شيئا كثيرا عن شبابه لانه يكبرني في العمر بسبع سنوات، ولم اكن من بيئته اجتماعيّا وثقافيّا، للفوارق الموجودة بيننا من كل الوجوه.."، ومثالا اخر جرى عام 1922 حينما قدمّ اربعون من زعماء قبائل عربيّة وكرديّه طلبا للملك فيصل الاوّل اصرّوا فيه على ضرورة ان يختار الملك اعضاء حكومته "فقط من اصحاب العراقة والمولد" . هذا عدا انّ "الشريفيّين" كانوا في نظر منافسيهم؛ لفيف من الضبّاط الذين عاشوا خارج العراق لفترة طويلة وفي اماكن معظمها نائية جدا (كميادين روسيا وشمال افريقية وأوروبا) وليست لهم معرفة مباشرة في شؤون العراق ومعاناته وكيفيّة حكم شعبه !!.

وعلى الرّغم مما تقدم الا انّ "الصّفوة الشريفيّة" نجحت في الامتحان الصّعب واستطاعت ان تبني عراقا جديدا موحّدا وان تنشيء فيه مؤسسّات دولة حديثة؛ سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وثقافية وتربويّة وتعليميّة، بحيث اصبح العراق خلال سنوات قليلة جدّا، ككيان

مستقل، محطّ اجلال واحترام معظم دول العالم. علما ان مادة النفط انذاك لم تستخرج بعد من باطن ارضه، وكانت ماليّة الدولة متواضعة جدا الى درجة ان الملك فيصل الاوّل كثيرا ما كان يقترض احيانا من بعض التجار ليصرف رواتب موظفي حكومته.

"..انّ الرّجال الذين حكموا العراق في العهد الملكي، على اختلاف مناهجهم وصفاتهم، ليبدون بالقياس الى من خلفهم ناصعي الجبين ممتازين في اخلاقهم واخلاصهم لبلادهم ومواطنيهم، ... وقد عرفت بعضهم وعملت معهم في وزارة الخارجيّة والماليّة والاقتصاد... فرايتهم واسعي الثقافة، مخلصين للواجب رائدهم ضمير حيّ وطموح الى الخدمة العامّة.. "

(مير بصري/اعلام السّياسة في العراق الحديث/لندن - ط1/ص11)

لقد بدات الصفوة الشريفيّة في بناء العراق الحديث من نقطة الصّفر تقريبا ونجحت تلك الصّفوة بزعامة الملك المؤسّس فيصل الاوّل في تحقيق ذلك للاسباب التالية:

ا ـ كان لدى غالبيّة العراقييّن عند بدء انشاء الدّولة العراقيّة الحديثة، لا سيّما الصّفوة الشريفيّة، رغبة عارمة وعزم قويّ لأجل النهوض بالعراق واعادته الى سابق امجاده، وبنائه كدولة عصريّة حديثة. وانّ معظم افراد تلك الصّفوة كانوا في اعمار متقاربة من الشباب والرجال الاشدّاء الذين عركتهم الحياة العسكريّة في ميادين وظروف قتاليّة ومناخيّة سيّئة للغاية سواء في ثلوج ووعورة جبال البلقان وقفقاسّية روسيا أو لظى صحراء شمال افريقية وقفار الحجاز التي طبعتهم على المواجهة والصّبر وروح التحدّي وعدم القبول بغير النصر والنجاح في ايّة معركة خاضوها.

ب ـ كان لقيادة الملك فيصل الاوّل للصّفوة العراقيّة (الشريفيّة، العسكريّة والمدنيّة) سواء من الذين جاؤوا معه من الخارج ام من الذين انظمّوا اليه من الداخل ابلغ الأثر في نجاح مسيرة مشروع تأسيس الدولة العراقيّة الحديثة. فقد كان فيصل سيّدا هاشميّا وعروبيّا شجاعا عزيز النفس ابيّا يحترم شعبه وصادقا معه في احلك الظروف. كما كان حكيما وذكيّا وصبورا وعارفا بالرّجال(لا سيّما قدرته الفائقة في تعامله مع رجال القبائل العربيّة وغير العربيّة) وفيّا ولا يغدر. لذا كان لوجود قائد محنّك على راس مجموعة معروفة لديه، سبق له وان خبر كفاءاتهم وصدق ولاءهم في السلم والحرب جعل منهم جميعا فريق عمل موحّد، وبمساعدتهم له بكل تفاني واخلاص استطاع ان يحقق اهدافه خلال فترة قصيرة في عرف جميع المقاييس لا سيّما في ذلك الزمن وبالامكانيات المتيسّرة لحكومته انذاك وهي متواضعة جدّا.

لقد قاد فيصل واعوانه الشريفيّين عمليّة التفاوض مع الادارة البريطانية المحتلة بحكمة وصبر ونجح بدهائه في خلق توازن بين القوى المختلفة؛ قادة الحركة الوطنيّة العراقيّة من جهة، وادارة الانتداب البريطاني في العراق من جهة اخرى.فهو من ناحية كان يظهر للبريطانييّن انه الصديق الصّدوق والحليف لهم وانه والعراقيّين لايستطيعون الاستغناء عن مساعدتهم

ودعمهم السياسي والعسكري والاقتصادي في بناء الدولة العراقيّة الجديدة، ومن جهة اخرى كان بصدق يظهر للعراقيّين حبّه ووفائه للعراق وللعراقيين ويحاول اقناع المتطرّفين منهم ان يتفهّموا ويتبنّوا سياسته الشهيرة "خذ وطالب" مع البريطانيّين ضمن الواقع المعاش انذاك داخليّا واقليميّا ودوليّا، وقد نجح نجاحا باهرا طيلة حياته على كافة الاصعدة وبشكل خاص في مسالتين اساسيّتين:

الحفاظ على وحدة حدود العراق لا سيّما في قضيّة مطالبة تركيا بالموصل وطمع الدول المجاورة بكردستان العراق، وفي تقليص فترة الانتداب الذي فرضته عصبة الامم على العراق من خمس وعشرين سنة الى خمس سنوات فقط استغلها كفترة بناء مؤسسّا ت دولته العسكريّة والمدنيّة والاقتصاديّة والثقافيّة بمساعدة بريطانيا. ولولا قيادة فيصل الفذة للصّفوة الشريفيّة لما نجحت هي في تحقيق ايّ هدف من اهدافها.

ج ـ لعبت بريطانيا دورا اساسيّا في تمكين "الصفوة الشريفيّة " من قيادة العراق وبناء دولته الحديثة لانها رات فيهم من بين اصدقائها، الطاقم الامثل والأكفأ لانجاز مهمة خطيرة وصعبة جدّا كمهمّة اعادة اعمار بلد كان قد خرج لتوّه من نفق القرون المتخلّفة، واقامة المملكة العراقيّة على اسس عصريّة حديثة.

وبسبب حقد بريطانيا على قادة ثورة العشرين الوطنيّة (وغالبيّتهم من العرب الشيعة المتشددين) وعلى ثورة الكرد التحرّريّة، فانها استبعد ت زعماء وقادة الثورتين من العمليّة السّياسيّة التي أدّت الى قيام المملكة العراقيّة، فكان ذلك خطا تاريخيّا فادحا حيث ولّد شرخا خطيرا في المجتمع العراقي، مثلما افرز اخطر النتائج على مسيرة وتطوّر العراق والصّفوة العراقيّة بكافة مكوّناتها منذ بداية القرن الماضي وحتى يومنا هذا. وبقدر ما كان لبريطانيا من دور ايجابي لا ينكر في انشاء العراق الحديث بكافة مؤسسّاته والمحافظة على كيانه وحدوده، الا ان عليها تقع مسؤوليّة دعم بؤر التوتر الطائفي والعرقي وزرع مفاهيم طائفيّة وعرقيّة وعنصريّة مقيتة ومتخلفة (نظريّا وعمليّا) لايزال المجتمع العراقي ينزف منها حتى يومنا هذا.

د ـ ومن اسباب نجاح الصّفوة الشريفيّة في انشاء العراق الحديث وجود الوعي السّياسي الوطني المسؤول لدى خصومهم ومخالفيهم من زعماء المعارضة العراقيّة سواء في بغداد او خارجها، او في المدن المقدسة. لقد كانت المسؤولية الوطنيّة والغيرة على مستقبل الوطن والاجيال القادمة اهم دافع في تحرّكاتهم ونشاطاتهم المعارضة لحكومة (الصّفوة الشريفيّة). فعلى الرّغم من رؤيتهم المثاليّة في المسائل السّياسيّة، الا انّ المعارضة انذاك كانت خير عون لحكومة فيصل حينما تشتدّ وتتعنّت الحكومة البريطانيّة اثناء مفاوضاتها مع فيصل حول مسائل مدة الانتداب او نصوص معاهد ة التحالف وضمان حقوق العراق فيها؛ فكثيرا ما كان الملك فيصل يجتمع سرّا بزعماء المعارضة (وفي مقدمتهم زعيمها محمد جعفر ابو التمّن) في الليلة التي تسبق يوم تفاوضه مع المندوب السّامي وكان هدفه تأجيج التظاهرات

المطالبة (بالاستقلال التام) كوسيلة ضغط على البريطانيّين، وكانت الاستخبارات البريطانيّة ـ كما ورد في وثائقها الرّسمية فيما بعد ـ على علم بذلك، وترصد كلّ ذلك حتى بلغ استياء البريطانييّن من فيصل بسبب ذلك انهم فكروا في عدد من المواقف تنحيته عن عرشه.

لقد كانت المعارضة السياسيّة في عهد الملك فيصل الاوّل هي الاخرى على درجة عالية من الوعي والشعور بالمسؤوليّة الوطنيّة والنزاهة والترفعّ عن الفرديّة والطائفيّة والعنصريّة مثلما كانت نبيلة ومنصفة مع خصومها، وبقيت على ذلك النهج حتى طغت نشاطات الاحزاب السّياسيّة السّريّة بعد وفاة فيصل عام 1933، وتمكنت من خطف الشارع السّياسي بالمزايدات الوطنيّة والقوميّة وديماغوغيّات الشعارات العاطفيّة ومناهج العمل المستوردة والمستنسخة من خارج الحدود لا سيّما (تجارب الأتاتوركيّة والالمانيّة والرّوسيّة)، فانحرفت بذلك عن النهج الديمقراطي السليم كممارسة واسلوب في المعارضة البنّاءة.

هـ ـ وعند الحديث عن اسباب نجاح الصّفوة الشريفيّة في بناء الدولة العراقيّة الحديثة، لابدّ لنا من تناول (شرعيّة) تنصيب فيصل بن الحسين بن علي واسرته على عرش العراق نظرا للصلة الوثيقة التي جمعت بين الطرفين (الاسرة المالكة والشريفيّين) واعتماد كل طرف على الاخر باعتبارهم كانوا في قافلة واحدة وفي طريق واحد ومن ثم ّواجهوا مصيرا واحدا ساعة انهيار النظام الملكي في العراق يوم انقلاب 14 تموز 1958.

انّ من الافتراءات التي دُ سّت على تاريخ الاسرة الهاشميّة المالكة في العراق؛ انّ بريطانيا اختارت او فرضت الشريف فيصل بن الحسين ملكا على العراق. وهذا قول غير منصف وظالم لانّ هنالك فرق شاسع؛ بين الظرّفين؛ الواقعي والاخلاقي (بين الفرض القسري والرّضا به).

نعم لقد رضيت بريطانيا بفيصل مرشحا لعرش العراق وساندته لانّ ذلك الاختيار يتماشى مع مصالحها ومع سياستها في استرضاء العراقيين وتهدئتهم باعتباره مختارا من قبل خيرة زعماء العراق لا سيّما ابرز قادة ثورة العشرين. انّ بريطانيا لم تفرض فيصلا بل ايدّت ترشيحه وساندته لانّ بريطانيا وجدته الاكثر شعبيّة وقبولا من بين منافسيه لدى كافة مكوّنات الشعب العراقي. انّ الملكيّة ليست بجديدة عليه ولاعلى ابائه. فقد سبق وان توّجه السّوريّون ملكا عليهم قبل عام من قدومه للعراق ولكن وبعد ان اسقطت ملكيّته بعد احتلال المستعمرين الفرنسيّين لدمشق في تموزعام 1920، وحينما اختاره العراقيّون فقد قبل بذلك الاختيار. هذا بالاضافة الى كون فيصل واسرة ابيه حلفاءا ليريطانيا ولهم دالة وحقوقا عليها. كما كانت بريطانيا تعلم جيّدا موقع فيصل في نفوس العرب والمسلمين عامة والعراقيّن خاصّة؛ فقد كان لنسبه الشريف، باعتباره الحفيد الخامس والثلاثين للامام الحسن بن علي بن ابي طالب (ع) سبط رسول الله محمد (ص)، قد جعل له ولاسرته موقعا خاصّا واحتراما لاينافسه فيه احد بين العرب والمسلمين. فالهاشميّن لايعتبرون (غرباءا) في نظر غالبيّة العراقيّن، بل هم اسياد المسلمين والعرب عامّة والعراقيّن خاصّة كما انّ تاريخ العراق

ظلّ وسيبقى دائما (هاشميّ) الهوى والولاء طيلة مراحل تاريخه منذ خلافة جدّهم الامام عليّ بن ابي طالب في الكوفة وحتى يوم الدين ولم يخسر الهاشميّون السلطة السّياسيّة عبر التاريخ الا بالغدر والاغتيال وبالخيانة وتواطؤ اعدائهم مع الاجنبي. وبالاضافة لما تقدّم فقد لقي السجلّ الشخصي للملك فيصل الاوّل وسيرته الذاتيّة وتاريخ حياته من قبل كبار علماء التاريخ والسّياسة، العرب والاجانب،ما لم يلقه ايّ زعيم او سياسي اخر من التكريم والتعظيم والاعتراف بخصاله النادرة.

لقد جاء فيصل للعراق بناء على ارادة صفوة الزعماء وقادة الرأي والدين من العراقيين. وبعد ان ناقشوا الامر في مؤتمرات واجتماعات شعبيّة عراقيّة عديدة لا سيّما في بغداد وكربلاء والنجف وتمّ نقل رغبتهم برسالة سريّة حملها سرّا الشيخ محمد رضا الشبيبي وهو واحد من خيرة العلماء ورجال الصّفوة العراقيّة الى الشريف حسين بن علي امير مكة الذي استجاب للطلب مرشحا ولده فيصل لعرش العراق. وحينما غادر فيصل مدينة جدّة متوجّها للعراق كان في صحبته مجموعة من خيرة قادة ثورة العشرين وغالبيّة الصّفوة من اعيان العراق، ورافقوه طوعا (وتخلف ثلاثة من قادة الثورة) كما هو معروف عن تاريخ تلك الفترة. لذا فانّ تبادل المصالح والولاء بين (الصفوة الشريفيّة والملك فيصل الاوّل) لانشاء قواعد واسس الدولة العراقيّة الحديثة هي من البديهيّات وضرورات الواقع المعاش انذاك، وقد نجحوا فعلا في ذلك. لقد خدم (الشريفيّون) العراق بزعامة الملك المؤسّس فيصل الاوّل حسب اجتهاداتهم ورؤيتهم للواقع وللظروف التي كانت تحيط بهم (مدرسة فيصل: خذ وطالب)، فكانوا بحق طليعة بناة الدولة العراقيّة الحديثة والصّفوة المسؤولة من شعب العراق بجميع مكوّناته الدينيّة والعرقيّة.

الشّريفيّون العائدون

حينما اصبح العراق تحت الاحتلال البريطاني (1914 - 1918) والادارة العسكريّة المباشرة، وحين قامت ثورة العشرين الكبرى (3 حزيران 1920)، كانت هنالك مجموعة من صفوة العراقيّين لا يزالون يعيشون في الخارج، وهم الذين كانوا سابقا من موظفي الدولة العثمانيّة ومعظمهم من كبار الضبّاط ذوي الكفاءات العالية، وكان غالبيّتهم يواجهون مصيرا مجهولا بعد انهيار الامبراطوريّة العثمانيّة. لقد أصبحوا موزّعين في المنافي ومعسكرات الاسرى والمعتقلات البريطانيّة من الهند وحتى مصر، وكان اغلبهم من كبار العسكريّين واركان الحرب من ذوي الرّتب العالية (وعددهم حوالي 350 ضابطا واذا اضفنا اليهم صغار الضبّاط وبعض المدنيّين فقد يصل عددهم الألف).ومثلما اصبح هؤلاء هدفا مقصودا من قبل ادارة الاحتلال وكبار موظفي الانتداب البريطاني للاستفادة من كفاءاتهم العالية لبناء مؤسّسات ودوائر العراق الحديث، فقد كانوا هم من جانبهم يرون وظائف الدولة الجديدة هدفا مقصودا لطموحاتهم الشخصيّة بعد ان أصبحوا بعد انتهاء الحرب عاطلين عن العمل.

وفي نفس الوقت فهم يتشوّقون للعودة الى وطنهم وذويهم في اسرع وقت ممكن. وكان لكلّ واحد منهم قصّة خاصّة به وباسرته لرجوعه لوطنه تتضمّن معانات الغربة ولهم في مواجهتها مواقف وعبر.

جعفر باشا العسكري

لقد بدات عمليّة تجميع الضباط العراقيّن من الخارج تنشط سويّة مع نشاطات بناء مؤسسّات الدولة الجديدة وتعيّين الموظفين فيها منذ اوائل تشرين الاوّل/اكتوبر1920 اي قبل قيام الملكيّة وتنصيب فيصل ملكا على عرش العراق.

كان الفريق جعفر باشا العسكري اوّل من عاد منهم؛ فقد وصل بغداد (في 16 تشرين اوّل/اكتوبر 1920) ليتولى وزارة الدفاع في الحكومة المؤقتة الاولى التي ترأسها عبد الرّحمن النقيب، وليلعب الدور الرئيسي في تأسيس الجيش العراقي وفي انشاء المملكة العراقيّة.

كان جعفر باشا العسكري يمثل البغدادي الاصيل بأريحيّته وبظرفه وكرمه وحبّه للدعابة وحسن العشرة مثلما كان على درجة عالية من الثقافة والاخلاق والذكاء والشجاعة والمروءة وعزة النفس. درس في الكلية الحربيّة مثلما درس الاركان في إستامبول وبرلين وتخرّج منهما بتفوّق. خدم في الجيش التركي ومع الالمان وحصل على اعلى الميداليات والنياشين الألمانيّة والعثمانيّة بسبب كفاءته وشجاعتة في الجبهات الرّوسيّة والأوروبيّة، كما خدم في ليبيا في جيش زعيمها السّيد السنوسي. وقع اسيرا لدى البريطانييّن وسجن في سجن القلعة بالقاهرة وقد حاول الهرب الا انه وبسبب ضخامة جسمه سقط من عال اثناء هروبه واصيب بجروح وعاد اسيرا. وبينما هو في معتقله فاوضه الانجليز للانضمام الى معسكرهم، ولكنه سمع انئذ بثورة الشريف الحسين بن علي امير مكة وشجعه زملاؤه العسكريّون من كبار الضبّاط العراقييّن وفي مقدمتهم نوري السّعيد ونصحوه للالتحاق بالثورة العربيّة ففعل. كان مقاتلا باسلا ونال شهرة عالية في حروب البلقان واليمن والدردنيل والعراق وفي ليبيا والحجاز. كان يتقن قراءة وكتابة ويتكلم بثمان لغات؛ العربيّة والفرنسيّة والانجليزيّة والالمانيّة والتركيّة والكرديّة والارمنيّة والفارسيّة. تقلد منصب قائد قوّات الجيش العربي خلال 1917 ـ 1918،كما اصبح حاكما لمدينة حلب حتى اخر 1920 وقد ساعد اللاجئين العراقييّن طيلة وجوده حاكما فيها. (طالب مشتاق/اوراق ايّامي/ص60). وكان في نفس الوقت كان مستشارا عسكريا للملك فيصل بن الحسين حينما كان ملكا على سوريا، وكان عضوا مؤسّسا وقياديّا في حزب العهد واحد قادة المؤتمر العراقي في دمشق حينما اختار المؤتمر، باقتراح من الملك فيصل، الامير عبدالله بن الحسين مرشحا لعرش العراق.

اصبح جعفر العسكري اوّل وزير دفاع عراقي عندما تأسس العراق الحديث. وكان يعتبر نفسه بحق بمثابة الوالد للجيش العراقي ومؤسسّه، ولهذا السّبب خرج بكل شجاعة وثقة

بنفسه، وبابنائه الضباط المشاركين بالحركة، بمفرده ليمنع تقدّم القوّات العسكريّة الزاحفة على بغداد صبيحة يوم انقلاب بكر صدقي عام 1936، فتصدّى له ضابط غرّ صغير السن والرّتبة (او اربعة من صغار الضبّاط) واطلقوا عليه النار من مسدّساتهم وقتلوه ثمّ دفنوه في حفرة ضحلة على جانب الطريق العام (بين بغداد وديالى).

(حسام السّاموك/ الملك غازي ودوره في اقلاب بكر صدقي عام 1936/ط2005/1/ ص83) F.O.371،6350/E3116/100/9

وبتلك الحادثة المأساوية الغادرة انتهت حياة ذلك البطل الحافلة الصاخبة المتعدّدة الالوان والمحطات. لم ينجب العراق بعد عسكريا متعدّد المواهب والقابليّات والثقافات وسجل الخدمات القتاليّة الميدانيّة مثل جعفر باشا العسكري رحمه الله، ولا شك انّ كتابة سيرته بحاجة الى مشروع وطني وعلمي دقيق وكبير، وستكون وزارة الدفاع العراقيّة اولى به ولابدّ من تنفيذه. (د. خالد التميمي/المصدر/ص134).

نوري السّعيد

عاد نوري السعيد الى بغداد في 18 شباط/فبراير1921، وتقلد منصب الوكيل لوزير الدفاع جعفر العسكري (ولابد من الاشارة الى انّ كلا منهما متزوّج من اخت الاخر) وكان برتبة عقيد، فهو بذلك احد المؤسّسين الاوائل للجيش العراقي قبل قدوم فيصل الاوّل الى العراق. وسيرة حياة نوري السعيد هو وبقيّة اقطاب الصّفوة الشريفيّة قد وردت في بحوث واطروحات اكاديميّة عراقيّة واجنبيّة معتمدة، لذا نكتفي بالاشارة الى اهم المحطات في حياة كلّ منهم. ففي 6 اذار/مارس 1921 وصل 111 ضابطا عراقيّا مع افراد عوائلهم عن طريق البحر.

اسمه الرّسمي؛ الفريق محمد نوري وابوه سعيد افندي (كاتب، او مدقق في محاسبة الولاية) ابن صالح افندي بن الملا طه من خطباء جامع الاحمديّة (منطقة الميدان) وهو من وجوه عشيرة القره غول. ولد نوري في محلة (حارة) الميدان في قلب بغداد يوم الاثنين 2 كانون الثاني1888م ويرجّح توفيق السويدي (ولادته سنة1885، حيث نشا وترعرع في بيئة بغداديّة مختلطة الجوانب من حيث الأصل والتهذيب عربيّة تركيّة. ويقال ان اصل عائلة نوري السّعيد من طوزخورماتو/اطراف كفري..ومن اصل تركي على الأرجح) (السّويدي/ المصدر/ص126)

وبعد ان اتمّ دراسته في الاعداديّة الرشديّة - العسكريّة سنة 1903، ذهب ليدرس في المدرسة العسكريّة في إستامبول في كانون الثاني1904. وتخرّج برتبة ملازم ثان في ايلول 1906. ثمّ الحق بالجيش التركي السّادس المرابط في العراق. دخل مدرسة اركان حرب، وخدم في حرب البلقان (جبهة تراقيا) سنة 1912. كان احد مؤسّسي جمعيّة العهد مع عزيز

علي المصري، وحينما اكتشف الاتراك نشاطات الجمعيّات العربيّة، وقدّمت احرار العرب للمحاكمات، فرّ نوري السّعيد متنكرا الى مصر(في ايّار سنة 1914) ومنها الى العراق حيث اتصل بالشيخ سعيد النقشبندي بعد ان وصلته انباء الحكم عليه غيابيّا بالطرد من الجيش التركي.

في تموز 1914 اعتقله الإنكليز بعد ان احتلوا البصرة في اواخر 1914 وارسلوه اسيرا الى الهند. وخلال وجوده هناك تعلم اللغة الإنكليزيّة حتى تمكن منها.كما وثقّ الإنكليز صلاتهم به (ومنحه البريطانيّون مخصصات شهريّة مقدارها 250 روبيّة، وتمتع بحريّة نسبيّة، اذ فسح له المجال للمطالعة والتنزّه، وباشر بتعلمّ اللغة الإنكليزيّة) (عبد الرزاق احمد النصيري/المصدر../ص43)، ثم سمحوا له بالذهاب الى مصر، وفيها كانت له اتصالات واسعة: فاتصل باعضاء المكتب العربي - الذي اسسّه البريطانيّون - وفي مقدمتهم عزيز علي المصري ومحمد شريف الفاروقي مبعوث الشريف حسين بن علي وممثله في القاهرة، وعبد الرّحمن الشهبندر، كما تعرّف في مصر على الزعيم سعد زغلول واستشاره بالالتحاق بثورة الشريف حسين فشجّعه الاخير اذا كان في الامر خدمة لاستقلال البلدان العربيّة. وفي المكتب العربي ايضا تعرّف على رجال المخابرات البريطانييّن الخبراء بالشؤون العربيّة وفي مقدمتهم تي لورنس، وكلبرت كلايتون والبروفسور هوغارث.

لقد كانت فترة اسر نوري السّعيد في الهند، ولقاءاته مع اعضاء جمعية العهد من العراقيين والعرب، ومع الإنكليز في القاهرة، فترة تأمل ودراسة، اقنعته بانّ من المستحيل على العراقيين ناهيك عن العرب عامة، تحقيق استقلالهم او بناء دولهم دون الاعتماد على دولة كبرى وبالذات بريطانيا. وبقي مؤمنا بعقيدته هذه ومخلصا لها حتى اخر لحظة من حياته

(لقد صرّح المرحوم الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم للمؤلف بانّه سمع من نوري السّعيد مباشرة؛ بانّ بريطانيا هي التي انشأت الدولة العراقيّة الحديثة، وانّ بامكانها تدميرها في اية ساعة تشاء./ المقابلة- 31 اب/اغسطس1979).

وبينما كان نوري السّعيد بمصر سمع من الفاروقي بثورة الشريف حسين في الحجاز فكان في مقدمة الضباط الذين التحقوا بالثورة. ومنذ حزيران 1916 اصبح نوري السّعيد رئيسا لاركان جيش الثورة الشمالي بقيادة الامير فيصل. وقد اشتهر نوري السّعيد بشجاعته وبقدراته العسكريّة في معارك معان ودرعا حتى دخوله دمشق مع فيصل. ومنذ سنة 1917. منحه الامير عبد الله بن الحسين لقب (باشا) تقديرا لشجاعته وكفاءته العسكريّة في ميادين الثورة العربيّة وظل يعرف بـ (الباشا) حتى يوم وفاته. كما اصبح كبير مرافقي فيصل بن الحسين وملازما له في جميع المؤتمرات الكبرى في لندن وباريس والقاهرة ودمشق وموضع احترامه واعتماده. ومنذ يوم رجوعه الى بغداد، بدا يدعوا لترشيح فيصل لعرش العراق.

قالت عنه المس بيل اثر اوّل لقاء لها معه: ".. اننا نقف وجها لوجه امام قوّة قهّارة مطواعة ينبغي علينا امّا ان نعمل يدا بيد معها او نشتبك وايّاها في صراع عنيف يصعب احراز النصر

فيه.."، (خيري امين العمري/الخلاف بين البلاط الملكي ونوري السّعيد/بغداد/ط1/ص12).

وحينما سئل عبد الرّحمن النقيب رئيس الحكومة المؤقتة، ايّهما يرجح جعفر العسكري ام نوري السعيد، كان جوابه؛ انّ الاوّل أطيب قلبا، والثاني ابرع سياسة..". وفي اليوم الثاني من وصول نوري السّعيد الى بغداد واجتماعه بالمس بيل والكابتن كلايتون والميجر موري؛ حدّد نوري منهاج عمله لتحقيق اربعة مهمّات:

تعيين مجلس للوزراء، واختيار حاكم للبلاد، ووضع قانون يسمح بشكل من اشكال التجنيد الالزامي، وتصميم علم وطني...".(عبد الرزاق احمد النصيري/المصدر – ص93 – 94)

ومنذ تتويج فيصل بن الحسين ملكا على العراق، برز نوري السّعيد بسرعة كاقوى رجالات الصّفوة الشريفيّة التي صاحبت الملك فيصل الاوّل. حيث اخذ يتقلد اعلى المناصب في السلطتين التشريعيّة والتنفيذيّة وبدات تجربته الاولى كرئيس للوزراء في 23 آذار عام 1930 ولم يبتعد عن وزارتي الدفاع والخارجيّة طيلة حياته السّياسيّة. رفع الى رتبة فريق في اب 1930. تقلدّ رئاسة الوزارة في العراق للمرّة الرابعة عشر في 3 اذار 1958، ثم استقال منها في 19 أيّار 1958 ليتقلّد رئاسة وزارة الاتحاد العربي الهاشمي بعد ان توحدت المملكتان الهاشميّتان؛ العراقيّة والاردنيّة وبقي متقلدا لها حتى وقوع انقلاب 14 تمّوز 1958 حيث تمّ تصفية حياته ضمن تصفية حياة الملك فيصل الثاني وبقيّة اعضاء الاسرة الهاشميّة المالكة في العراق في ذلك اليوم.

خدم نوري السّعيد في الجيش العثماني، ثمّ عمل مع بقيّة زملائه العراقييّن والعرب على تحرير اوطانهم من السّيطرة التركيّة. ثم انتقل لوطنه العراق (قبل وصول فيصل الاوّل) لاعادة بنائه واعماره ولم يسبقه من مجموعة الصّفوة الشريفيّة الا جعفر باشا العسكري، ومنذ ذلك التاريخ وهو يقدّم خدماته طيلة سبع وثلاثين عاما بكل همّة واخلاص ونزاهة، كان شعاره:

"... لاتكن مثاليّا ابدا، بل استعمل الوسائل التي تجدها، ولا تنتظر ان يكون كلّ شيء كاملا فتضيّع فرصتك..".

اقترن نوري السّعيد بالسيّدة نعيمة العسكري سنة 1909 وهي أخت جعفر باشا العسكري، وقد ولدت في بغداد سنة 1891 وتوفيت في لندن سنة 1964.وهي ام صباح الذي ولد في إستامبول في كانون الاوّل 1911، وكان ضابطا طيّارا ثم اصبح مديرا عاما للسكك الحديد العراقيّة سنة 1955، وقتل صبيحة انقلاب 14 تمّوز1958.

لقد اشتهر نوري السّعيد بين جميع من عملوا معه بالنزاهة والشجاعة وعفة النفس، فلم تعثر له بعد مقتله ايّة حسابات لثروة او عقارات تذكر، اما داره المطلة على نهر دجلة في "كرّادة مريم" فقد بناها له هديّة صديقه المليونير اللبناني اميل البستاني صاحب شركة (كات)، وهذه ميزة اشتهر بها اكثريّة رجالات الحكم في العهد الملكي عدا من كان منهم

بالأصل من اسر غنيّة وتجاريّة ارستقراطيّة منذ العهد العثماني كآل الكيلاني وآل الجلبي وآل الخضيري وال السّويدي واخرين وهم على قلّتهم كانوا يبذلون من اموالهم الخاصّة على مصلحة العراق ويتعففون من مدّ ايديهم على المال العام.

لقد جاء في مذكرات محمد مهدي الجواهري، في صفحة 209.. "..لقد ظلّ عبد الهادي الجلبي لسنين عديدة يمدّ ارملة نوري السّعيد في لندن بمائة وخمسين دينار شهريّا (وفاءاً للصّداقة) واعترافا منه بفضل نوري السّعيد على عائلة ال الجلبي..". (محمّد مهدي الجواهري/ ذكرياتي- الجزء الاوّل- ط1/1988).

كما الّف ولدمار غالمان سفير الولايات المتحدة في بغداد (1954 - 1958) كتابا عن نوري السّعيد جاء فيه؛ انّ نوري السّعيد قد: "..لعب دورا بارزا في انشاء الدولة العراقيّة الحديثة ودعم استقلالها وايجاد مقام لائق بها في الاسرة الدّوليّة. وساهم في رخاء البلاد واستثمار مواردها النفطيّة الى حدّ بعيد، وكان وطنيّا حريصا على مصالح بلاده غيورا على مصالح العرب وتفاهمهم ووحدتهم. وكان من اسباب نجاحه ايمانه بالواقع وبذله الجهود فيما يمكن تحقيقه خطوة خطوة. وكان يرى التعاون مع الاقطار المتجاورة غير العربيّة كايران وتركيا لتحقيق اهدافه، ويرى في الشيوعيّة اشدّ الاخطار على العراق وعلى السّلام العالمي على حدّ سواء. وكان نزيها لم يخلف عند مصرعه الأليم شيئا من الثروة...". وحول ما حدث في يوم 14 تمّوز 1958 فقد جاء في الكتاب ايضا:".. انّ ماحدث ذلك اليوم لا يمكن ان يدعى بايّ حال من الاحوال بثورة، انها وبكلّ بساطة الاستيلاء على السّلطة بالقوّة من قبل مجموعة مصممّة على تنفيذ غرضها..

Waldemar.J.Gallman،Iraq Under General Nuri،Baltimore،1964.)
.(p205

كان نوري السعيد يجيد خمسة لغات: العربيّة والتركيّة والإنكليزيّة والالمانيّة والفرنسيّة، وتأثر في حياته العسكريّة باستاذه الضابط الالماني (فون لوسو) الذي درّسه في الكليّة الحربيّة بإستامبول. كما قرأ لكافور زعيم الوحدة الايطاليّة وتأثر به، كما اعجب بافكار الزعيم المصري سعد زغلول واسترشد بارائه، كما تاثر بالزعيم التركي مصطفى كمال اتاتورك.

كانت فلسفة نوري السعيد "... ان اكون عمليّا لا مثاليّا.." وانّ على المرء ان يستعمل عقله وطاقته بما هو متوفر بين يديه..". ومع كثرة المعجبين به كرجل دولة ومن ابرز مجموعة الشريفيّن الذين انشاوا العراق الحديث، فانه اتهم بالشدّة وعدم التسامح مع مخالفيه، ووصفه البريطانيّون الذين عملوا معه بانّه (كثير الحيل يمتلك طاقة عجيبة في السير مع الطريدة وكلاب الصّيد.. طموح متعطش للسلطة.. ذكي جدا في التخطيط الى درجة يصعب معها ان يثق احد به.. وذو طاقة في الاعصاب كاملة..)(عبد الرزاق احمد النصيري/نوري السّعيد ودوره في السياسة العراقيّة/ ص18،26 - 31، 89). لقد كان مخلصا للعراق مثلما كان مخلصا وغيورا على الامة العربيّة والاسلاميّة،حسب رؤيته واجتهاده.وكثيرا ما نعتته

التقارير السريّة البريطانيّة بالتعصّب وبالتطرّف القومي.

اتهّم بلا دليل، او بادلة ضعيفة جدّا من قبل اعدائه، انه المدبّر لعدد من الاغتيالات السّياسيّة في عهده واهمّها: اغتيال توفيق الخالدي سنة 1924(الذي شغل مناصب متصرّف- محافظ- بغداد سنة، ووزارة الداخليّة سنة 1922) (عبد الرزاق احمد النصيري/ نوري السّعيد..المصدر- 1/1978). واغتيال الملك غازي الاوّل في حادث السّيارة الشهير سنة 1939. واغتيال محمد رستم حيدر سنة 1940، وغير ذلك من الاساليب التي لا تتفق مع ما عرف به نوري السّعيد من صراحة واساليب مجابهة مباشرة وشجاعة.

وعلى الرّغم من قوّة علاقة نوري السّعيد بالملك فيصل الاوّل، الا ان العديد من الاختلافات لطالما كانت تظهر بينهما، وهذا امر طبيعي لما يتمتع به الاثنان من قوّة الشخصيّة والرؤية الحكيمة المستقلة لكل منهما في مواجهة الازمات وفي كيفيّة معالجة الامور لا سيّما انّ الملك حجازي - مكيّ، ونوري السّعيد عراقي- بغدادي، ولكل منهما له رؤيته في معالجة ازمات الدّاخل. ولكن الذي كان يجمعهما اكثر واعمق ممّا يفرّقهما وهو حبّ العراق والعروبة والاسلام والسّعي لبناء البلاد. ولهذا ولاسباب اخرى لاعدّ لها فقد قلّده الملك فيصل الاوّل وساما لم ينله احدٌ بعد نوري السّعيد.

لا يوجد سياسي عراقي أو عربي او من دول العالم الثالث نال ثناء واعترافا ايجابيّا من قبل كبار رجالات العلم والسّياسة والفكر في العالم، بمثل الاعتراف بكفاءة ونزاهة نوري السّعيد ومقدرته المتميّزة كعسكري وكسياسي من الطراز الاوّل وكرجل دولة وكانسان نزيه عاش حياته ببساطه وبتواضع وباقدام عيشة الجندي في ميادين الصراع.

كتب شاعر العرب الاكبر محمّد مهدي الجواهري في كتابه "ذكرياتي/ج1 – ص460" مايلي:

"..كان نوري السّعيد - وانا اكتب للتاريخ – يحتقر من يتملق السفارة البريطانيّة ببغداد او من يعرض نفسه للاستئجار عندها، وهو يكشف عن هذا الاحتقار في العاصمة البريطانيّة نفسها، متحمّلا اثر ما يقوله عليه الناس حول علاقته بالانجليز. ولا احد ينكر انّ علاقته هذه قويّة ومتينة جدّا، ولكنها في الحقيقة مجرّد قناعة منه – ولم يتزحزح عنها ولا قيد انملة حتى يومه الاخير - بموالاة الغرب، وهو رجل دولة وليس اجيرا وبالمناسبة كانت السّفارة البريطانيّة ببغداد هي التي تتملّق لنوري السّعيد وليس العكس، لانّه لايوجد ثمّة بديل عنه في ادارة دفّة الدّولة كلها حينئذ. هذه صورة صغيرة أحببت ان اوردها، وهي تبيّن كيف يشير عليّ نوري السّعيد، بما ينطبق على بما يقضي على الاستعمار البريطاني وان استوفي حقي منه في سهراتي وساعاتي، او بعبارة ادق، في مباذلي [والجواهري يقصد هنا بما أوصاه نوري السّعيد وهو يصعد سيّارته اثناء مغادرته السّفارة العراقيّة في لندن قائلا له: انت الان في لندن فلا تقصّر وبكل ما تستطيع باخذ حيفك من الاستعمار !!]، بينما يخاطب بكلّ استهانة واستخفاف من استأجرته وكالة رويتر ليحصل على اجرة خدماته، هذا امر يجدر بالقاريء

ان يتوقف عنده مليّا.." (م.م.الجواهري/المصدر- ص 459 - 460).

هذا وقد (ذكر الاديب والمؤرخ العراقي مير بصري في كتابه- اعلام السّياسة – ص-137 132، عددا من كبار الشعراء والمفكرين والدبلوماسييّن العرب والاجانب الذين اثنوا على نوري السّعيد).وكذلك المؤرّخ والوثائقي العراقي (عبد الرزاق الحسني/تاريخ العراق السّياسي الحديث/ط1 –ج3/ص84-81، 96 – 99، 190 – 193.). هذا بالاضافة الى ما احتوته عنه (المؤلفات والمذكرات الشخصيّة لاشهر وابرز السّياسيّين العراقيين والعرب والاجانب).

رستم حيدر

لقد أفرزت الحركة القوميّة العربيّة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شعورا عروبيّا فيّاضا لا سيّما لد ى الشباب المثقف من العرب الذين درسوا في مدارس وجامعات بيروت وإستامبول ولندن وباريس وبرلين. فقد أخذوا يتجمّعون منذ بداية القرن العشرين، في تنظيمات سياسيّة ويدعون للقوميّة العربيّة، وكان في مقدّمة هؤلاء محمد رستم حيدر.

وهو محمّد بن رستم بن علي بن الحاج سليمان ويقال له المير حاج بن المير حيدر. واسرة حيدر من اشهر البيوتات المحترمة والمعروفة في بعلبك بلبنان. ويرجع البعض نسب العائلة الى العراق من قبيلة (بني اسد). (مذكرات رستم حيدر/تحقيق – نجدة فتحي صفوة/ط 1/ ص8).

ولد محمد رستم حيدر في بعلبك سنة 1889 م، ودرس في المدرسة الرشديّة فيها، وبعد تخرّجه منها انتقل الى (مدرسة عنبر) في دمشق حيث تخرّج منها بدرجة تؤهله للدراسة في "المدرسة الملكيّة الشاهانيّة" في العاصمة إستامبول وكانت تعتبر من ارقى الكليّات في العاصمة العثمانيّة التي تخرّج صفوة الرجال المؤهّلين في الادارة والقانون للعمل في الوظائف الدبلوماسيّة والاداريّة. وبالاضافة الى الاستفادة العلميّة من هذه المدرسة، فقد كانت ملتقى تعرّف فيه محمد رستم على عدد من الشباب العربي الذين كانوا يدرسون فيها وكانوا يشاطرونه انذاك هموم امتهم ويستشرفون امال مستقبلها، وقد اصبح عدد منهم اصدقاء العمر ورفاق الجهاد له قبل وبعد تخرّجهم وحتى مماتهم. ومن اشهر هؤلاء هم: طالب الحقوق عوني عبد الهادي من نابلس في فلسطين، وطالب الطب احمد قدري من دمشق. وقد اسّس الثلاثة اثناء الدراسة جمعيّة عربيّة سريّة باسم "الفتاة" لبثّ الرّوح القوميّة العربيّة. وبعد ان تخرّج محمد رستم في سنة 1910 ذهب لاكمال دراسته العليا في جامعة السوربون في باريس وكان معه زميل اخر وهو رفيق التميمي، وليلتقي هناك مجددًا بزملائه القدامى ويتعرّف على الجدد. وخلال فترة وجوده في باريس اخذ يساهم مع طلبة عرب اخرين نشاطات سياسيّة واجتماعيّة تخدم نشر الوعي القومي العربي. وقد تخرّج منها سنة 1912، ووضع انذاك كتابا

عن - حركة محمد علي باشا الكبير محيي مصر وباعث حياتها الاستقلاليّة العربيّة -. ومن ذكريات توفيق السّويدي عن محمد رستم حيدر..:

"... لقد تعرّفت عليه في إستانبول سنة 1912 وكان قد وصلها من باريس، حيث اكمل دراسته في الادب والتاريخ في كليّة الاداب (السوربون في جامعة باريس)، ولما سافرت الى باريس لاكمال الدراسة الحقوقيّة هناك كان مرشحا لان يكون مديرا لمدرسة في القدس اسمها (الكليّة الاسلاميّة) وهي مؤسّسة من قبل الاهالي لتدريس اللغة العربيّة والادب العربي وغيره. وكنت اسمع وانا في باريس مدحا وذكرا جميلا لصفاته ومؤهلاته وسعة اطلاعه ودراسته العميقة. وقد فهمت بعد ذلك انه من القائمين ببث الفكرة العربيّة وتنظيم شيوعها في باريس بين الطلاب...".

(توفيق السويدي/وجوه عراقيّة..ص135)، (مير بصري/اعلام السياسة../ ص193)،(مذكرات رستم حيدر/ص9).

عاد محمد رستم حيدر الى سورية سنة 1913 م وعيّن مديرا للمدرسة السلطانيّة في خربوط، ثم مديرا للمدرسة السلطانيّة في دمشق في تلك السّنة حتى أغلقت بسبب الحرب العالميّة الاولى، وتجنيده ضابطا احتياطيّا. وقد عيّن في تلك الفترة معاونا في المدرسة الاصلاحيّة في القدس التي اسّسها جمال باشا والي سوريا وعهد بالاشراف عليها الى الشيخ عبد العزيز جاويش وعبد القادر المغربي.

وفي سنة 1917غادرمحمد رستم حيدر القدس الى دمشق حيث كان شباب الجمعيّات العربيّة يتجمّعون بحماس للالتقاء بالشريف حسين بن علي الذي اعلن الثورة العربيّة على الاتراك من الحجاز.(وفي سنة 1918، التقى به توفيق السويدي ايضا في دار الامارة يعمل سكرتيرا للامير فيصل بن الحسين حيث بقي رستم ملازما لفيصل وللملك غازي من بعده الى اخر يوم من عمره)، ومن دمشق التحق رستم بعدد من الشباب الذين تجمّعوا في جبل الدروز ومن بينهم: رفيق التميمي وخليل السكاكيني وتحسين قدري والدكتور احمد قدري حيث انطلقوا من هناك الى البادية ومنها التحقوا بجيش الثورة الحجازي الذي كانت طلائعه مخيّمة في هويدة مقابل معان.(مير البصري/المصدرص193).

بقي محمد رستم حيدر ملازما لفيصل الاوّل كظله؛ سكرتيرا ومستشارا ووزيرا سواء في الشام ام في ميادين الثورة ام في الديوان الملكي الفيصلي بالمرحلتين: في سوريا وفي العراق. وقد شهد له جميع الذين عرفوه وعملوا معه بالاخلاص وبالكفاءة وبالمؤهلات العالية وبالعدل. رافق فيصلا في مؤتمر السلام والصلح في فرساي/ باريس سنة 1919، كما سافر معه الى ايطاليا والى بريطانيا وسويسرا بعد ان اطاح الفرنسيّون بعرش فيصل سنة 1920، ثم عاد الى الحجاز ليصاحب من هناك الامير فيصل المرشح لعرش العراق في حزيران 1921. وكان الى جانبه حينما بويع وتوّج ملكا على العراق فاختاره فيصل اوّل رئيس للديوان الملكي في2 اب/اغسطس 1921 م.

وفي بغداد ساهم كواحد من صفوة الصّفوة الشريفيّة في بناء المملكة العراقيّة على اسس حضاريّة ودولة المؤسّسات الدستوريّة والقانونيّة، ومن هنا بدات عيون الحسّاد والطامعين والفاسدين تراقب كل صغيرة وكبيرة تصدر عن محمد رستم حيدر وتحاول ابعاده عن الملك فيصل، ولكن الملك كان يزداد ثقة به يوما بعد يوم لكفاءته واخلاصه، وبقي معتمدا على وفائه طيلة حياته ومثله فعل خلفه الملك غازي الاوّل (لقد كان الملك فيصل الاوّل يعتقد انّ لدى رستم حيدر العلم الغزير والاخلاص الجمّ. فيعتمد عليه ويأخذ باستشاراته..) (توفيق السويدي/المصدر- ص138).

لقد لعب محمد رستم حيدر دورا بارزا في ترسيخ مكانة العراق بين دول العالم باعتباره ايضا الموفد الخاص للملك فيصل الاوّل؛ مثلما لعب دورا رئيسيّا في بناء مؤسّسات الدولة ودوائرها. فقد عيّن وزيرا مفوّضا في طهران سنة 1929، كما عيّن وزيرا للماليّة سنة 1930 وعضوا في مجلس الاعيان،ووزيرا للماليّة ايضا سنة 1932، كما تقلد فيما بعد وزارة الاقتصاد والمواصلات مرّتين سنة 1933 وكذلك في سنة 1934. وفي عهد الملك غازي الاوّل عاد رئيسا للديوان الملكي حتى وقوع انقلاب بكر صدقي سنة 1936 الذي فرض حكمت سليمان رئيسا للوزارة بالقوّة، فغادر محمد رستم حيدر العراق الى سوريا ولم يعد الا بعد فشل الانقلاب ومقتل قائده بكر صدقي وسقوط حكومة حكمت سليمان في تشرين الثاني 1937. وبعد عودته،انتخب نائبا عن الديوانيّة واصبح رئيسا للجنة الماليّة في مجلس النوّاب، ثمّ عيّن عضوا بمجلس الاعيان في 26 نيسان 1939.(فقد اختير وزيرا للماليّة في سنة 1938، ثم تقلد وزارتها للمرّة الثانية سنة 1939)، كما اسندت اليه رئاسة لجنة التموين المركزيّة في 1939 بسبب نشوب الحرب العالميّة الثانية سنة 1939.

يصفه المؤرخ مير بصري: " ... كان رستم حيدر واسع الثقافة عصري النزعة، اسدى للعراق وطنه الثاني اجلّ الخدمات في ميادين السّياسة والمال والاقتصاد. اصدر، وهو وزير الماليّة سنة 1931، قانون العملة العراقيّة لتحلّ محلّ العملة الهنديّة المتداولة انذاك في العراق منذ الاحتلال البريطاني (وهي الروبيّة). وبذل جهودا محمودة في سبيل استقرار الاوضاع الماليّة والاقتصاديّة بعد الازمة الاقتصاديّة العالميّة التي ظهرت سنة 1929..". (مير بصري/ اعلام السّياسة../المصدر – ص195).

ويصفه توفيق السويدي في موضع اخر بقوله: (لقد كان رستم حيدر في معيشته وتفكيره ومظهره أوروبيا كسائر الأوروبيين، وذلك لاتصاله الدائم بالأوروبيين منذ سنين طويلة. وكانت معرفته بالسّياسة العالميّة واسعة وعميقة، فكان يفيد منها الملك، ومن يحيط به من ارباب المسؤوليّة. وقد اوفده الملك مرّة الى بلاط شاه ايران بمهمّة خاصّة أدت الى التقارب ما بين العراق وايران وانتجت اوّل معاهدة عقدت بين البلدين في 11 اب 1929. (السويدي/ المصدر-ص135).

لقد كان محمد رستم حيدر يتمتع باكثر الصّفات واقواها مجلبة للحسد والغيرة منه والحقد

عليه من قبل عناصر الصّفوة الشريفيّة المتسابقة للتقرّب من الملك، عدا الاخرين، وهي:

1) كان غزير العلم والمعرفة والمؤهلات العالية

2) كان نزيها يحارب الفساد ويحتقر الفاسدين.

3) كان يطبق القانون بالتساوي وقصته بتطبيق انذار جباية رسوم الدولة وتحصيله ديون الدولة على مزرعة الملك فيصل الاوّل في الحارثيّة بحجزه اموال الملك فيصل حتى استحصل اموال الدولة من الملك بنفسه مشهورة وتشهد له بالنزاهة وللملك فيصل بالمروءة والعدالة.

4) كان من اقرب المقرّبين والمستشارين الى الملك فيصل والى الملك غازي والاسرة المالكة جميعا وموضع ثقتهم واحترامهم حتى اخر لحظة من حياته، مما جعله موضع حسد وهدف للوصوليّن والانتهازيّن. (للمزيد/مذكرات رستم حيدر..المصدر- ص59).

وعلى الرّغم من اجماع جميع من عرفوه وعملوا معه من رؤساء الوزارات والوزراء وكبار الموظفين وصغارهم، حول كفاءة محمد رستم حيدر العالية وخدماته الواسعة واخلاصه للعراق وللامة العربيّة، الا انّه كان من الواضح وقوعه بين براثن الحسد والغيرة والتعصّب الطائفي من قبل بعض رفاقه من الصّفوة الشريفيّة ناهيك عن الاخرين من ذوي الاطماع السّياسيّة والمرتشين والذين عرفوا بالفساد المالي والاداري. فما كان منهم الا ان اتهموه بالانحياز للشيعة الجعفريّة لمجرّد انه شجّع الملك فيصل الاوّل على اتباع سياسة المساواة بين ابناء شعبه ليكون ملكا لكلّ العراقيّن على اختلاف مذاهبهم ومكوّناتهم. بينما كان محمد رستم حيدر- بشهادة كبار رجال العلم والسّياسة من العرب والاجانب - يقوم باداء خدماته بانسانيّة عالية كمواطن عراقي عربي مسلم وليس فقط كعربي مسلم شيعي من لبنان يسعى لخير امته ووحدتها.

ان من يطلع على تاريخ تلك المرحلة ويقرا ما صرّح به او ما كتب من مذكرات وبحوث حولها يجد انّ هنالك مؤامرة محكمة جدا خفيّة استهدفت حياة الانسان الفذ محمد رستم حيدر حيث اطلق الرّصاص عليه مفوّض شرطة اسمه حسين فوزي توفيق يوم 18/كانون الثاني - يناير/1940 في مكتبه بوزارة الماليّة، وتوفي متأثرا بجراحه يوم 22 منه. ومن الادلة على خطورة الجريمة وحبكتها هو حالة الغموض والتستر على الكثير في مجريات التحقيق واعترافات القاتل، بل وحتى من قبل البعض ممن كتب عنه سابقا ولاحقا ورغم تقادم الحدث.

عبد المحسن السّعدون

على الرّغم من انّ عبد المحسن السّعدون لم يكن من الاوائل في "حزب الشريفيين" الذين جاؤوا مع فيصل الاوّل، الا انني فضلت اضافته الى الصّفوة الشريفيّة، حتى وان جاء

انضمامه الفعلي اليها متأخرا بست سنوات، لما كان له من دور خطير في تثبيت حكم مملكة فيصل في العراق وتوطيد الحكم الدستوري وعقد المعاهدات لتثبيت كيان وحدود العراق الجديد على خارطة العالم، لا سيّما مع بريطانيا ولرفع الانتداب والدخول في عصبة الامم (قبل ان تدخلها اية دولة عربيّة ودول اخرى كالهند)، بالاضافة الى دور السّعدون مع الشريفييّن المتميّز في استخلاص ولاية الموصل من الاتراك وتنظيمه لماليّة العراق وتهيئتة الموارد الماليّة (حيث لم يتمّ استخراج النفط وبيعه بعد) لتنفيذ مشاريع رائدة في التعليم ومؤسسّات الدولة الجديدة ودوائرها. وبعكس ما الصقت بالسّعدون من صفات التعصّب العنصري والطائفيّة، فقد كان رجل دولة واسع الافق والتفكير، متسامحا وذو ثقافة عالية ومؤهلات وطنيّة ونزاهة ونكران ذات. وهو حينما اضطرّ الى نفي عدد من علماء الشيعة الى ايران سنة 1923، فلم يكن امامه انذاك الا ابعاد المعارضين للاجراءات الدستوريّة، واستخدامه الحزم لتنفيذ الحياة الدستوريّة لفسح المجال لانتخابات المجلس التأسيسي انذاك، او تعريض كيان العراق الجديد برمّته لضربة بريطانيّة تقوّض كلّ ما قد تمّ تشييده انذاك.

لقد بذل السّعدون والملك فيصل الاوّل جهودا مضنية لتخفيف الموقف المتشدّد للعلماء وثنيهم عن الدّعوة لمقاطعة الانتخابات والرّكون الى المؤسسّات والاجراءات الديمقراطيّة، ولكن دون جدوى.

ولد عبد المحسن السّعدون في مدينة الناصريّة سنة 1879 وغادرها بطلب من السّلطان عبد الحميد الثاني الى إستامبول للدراسة في مدرسة العشائر وعمره انذاك ثلاثة عشرة وتخرّج منها سنة1897 حيث دخل المدرسة الحربيّة وتخرّج منها برتبة ملازم ثاني سنة 1899. عيّن سنة 1905 كاحد مرافقي السّلطان عبد الحميد ومنح رتبة بكباشي (مقدم). وحينما اطيح بالسلطان عبد الحميد بواسطة (الانقلاب الدستوري للاتحادييّن)، انزلت رتبة السّعدون الى ملازم ثان وتمّ نقله الى ادرنة مما جعله يقدّم استقالته من الجيش ويعود لوطنه العراق.

انتخب نائبا عن مدينة العمارة في كانون الاوّل سنة 1908 ثمّ عن المنتفك سنة 1912 وانتخب عنها ايضا سنة 1914.. وبقي في إستامبول حتى عاد نهائيّا الى العراق بعد قيام المملكة العراقيّة سنة 1921، واختاره الملك فيصل الاوّل وزيرا للعدليّة في نيسان سنة 1922 ثمّ وزيرا للداخليّة في 30 ايلول سنة 1922 ثم اصبح رئيسا للوزراء في 18 تشرين الثاني 1922. وبقي السّعدون يتقلد المناصب الوزاريّة او رئاسة مجلس الوزراء او رئاسة مجلس النوّاب طيلة حياته، وكان رئيسا للوزراء بالاضافة الى وزارة الخارجيّة حتى يوم انتحاره بمسدسه في بيته يوم 13 تشرين الثاني 1929 في بغداد.

واذا اردنا ان نضع مؤشرا في مستويات صفوة من خدموا وشيّدوا كيان العراق الحديث، فمما لاشكّ فيه انّ عبد المحسن السّعدون يحتل المقام الاوّل بين جميع رؤساء الوزارات العراقيّة في العصر الحديث لما اتصف به من نشاط وامانة ونزاهة ووطنيّة ضمن الواقع

الصّعب الذي كان يحيط به ويغلف كيانه النفسي والجسدي والذي قوّض حياته في نهاية الامر. لقد بقي وفيّا لمبادئه حتى اخر لحظة من حياته وكانت اخر جملة من وصيّة كتبها لولده عليّ:

".. ان تخلص لوطنك. وتخلص للملك فيصل وذريّته اخلاصا مطلقا..". (د. لطفي جعفرفرج عبد الله/عبد المحسن السّعدون – دوره في تاريخ العراق السّياسي المعاصر/ بغداد- ط1/ص375).

لقد مدحه في حياته ثمّ رثاه في مماته كل من امين الرّيحاني ومعروف الرّصافي وعلي الشرقي وجميل صدقي الزهاوي ومحمد مهدي الجواهري والشيخ محمد علي اليعقوبي ومحمود الملاح والدكتورعلي الوردي، بالاضافة الى الوزراء وكبار المسؤولين ورجال الدولة وصفوة المجتمع العراقي. ولم يتردد خصومه من الاجانب قول الحق في السعدون؛ قالت المس بيل: "..انّ السّعدون رجل جريء لايخاف وليس عنده اقلّ ميل للتردّد في ان يقف في وجه الملك حين يخالفه في الرّاي، وكثيرا ما كان يفعل ذلك..".

الشيخ يوسف السّويدي

اسرة آل السويدي من ابرز "مجموعة الشريفيين" وهي اسرة أرستقراطيّة عربيّة بغداديّة مسلمة تنتسب مباشرة الى الخليفة المتوكل بن الخليفة المعتصم بن الخليفة هارون الرشيد العبّاسي. واسرة آل السّويدي اصلها من قرية الدّور التي تقع شرقي نهر دجلة القريبة من بغداد شمالا، وقد اشتهر منها جدهم الاكبر الشيخ عبد الله بن حسين بن مرعي بن ناصر الذي ولد في بغداد (1693 – 1761) وكان من اعلام عصره وقد عرف بمناظراته المشهورة مع كبار علماء ايران وافغانستان ايّام نادر شاه. ويشير المؤرّخان عباس العزاوي ومير بصري الى انّ الشيخ عبدالله هو الذي تلقب بالسّويدي نسبة الى سويّد بن عمه الذي كان عنوانه البريدي وسيلة وصلة الشيخ عبدالله في مراسلاته مع الخارج علما بانه وعائلته كانو يعرفون باولاد مرعي. وبمرور الزمن غلبت هذه النسبة "السويدي" عليهم.

ولد الشيخ يوسف بن نعمان بن محمد بن سعيد بن احمد بن الشيخ عبد الله ببغداد سنة 1854 ودرس علوم اللغة والدّين فيها وتتلمذ على مشاهير عصره منهم الشيخ عبد السلام الشوّاف. وكان ميّالا الى الادب وقرض الشعر. تقلّد مناصب اداريّة وقضائيّة في العهد العثماني وزار إستامبول وكان من المقرّبين لوالي بغداد المصلح ناظم باشا. كان وطنيّا غيورا شاعرا بمسؤوليّة اسرته ومكانتها ازاء وطنها، وحينما اندلعت الحرب العالميّة الاولى وبسبب غيرته الوطنيّة ابعد الى لبنان سنة 1915 ومن هناك سيق مع احرار العرب الى قرى الأناضول وتمكن من هناك العودة الى بغداد سنة 1919 عن طريق سوريا حيث وجد وطنه محتلا من قبل البريطانييّن فاثر الانحياز الى الحركة الوطنيّة المقاومة للاحتلال واخذ

يبذل من ماله الخاص على النشاطات الوطنيّة. كان من اقرب المقرّبين اليه في العمل الوطني السّيد محمد الصّدر وعلي البازركان ومحمد جعفر ابو التمن ومجموعة شباب مجاهدين وفي مقدمتهم المجاهد الشهيد عبد المجيد كنّه الذي شنقه المحتلون البريطانيّون. اذ حينما حاول المحتلون القاء القبض على الشيخ يوسف السويدي بسبب نشاطاته الوطنيّة تمكن من الافلات ومغادرة بغداد والالتحاق بقادة ثورة العشرين في الفرات الاوسط سنة 1920، وبعد انتهاء الثورة وتفرّق قادتها، توجه السويدي من هناك الى سوريا ومنها الى القاهرة، ومنها توجه الي جدة والتحق بالشريف حسين بن علي وبقي هناك حتى عاد الى العراق بمعيّة الامير المرشح لعرش العراق فيصل في حزيران 1921. وبالامكان تصوّر مدى ايمان الشيخ المسن يوسف السويدي وصبره انذاك وتحمله معاناة ومشاق السّفر في ذلك الزمن وهو الغنيّ المترف، وصموده امام المغريات مشهودة، حتى انه رفض نصائح وتحذير ولديه ناجي وتوفيق السويدي بالاقلاع عن معارضة الإنكليز (لانهم اصحاب قوّة وصولة، وهم يؤيّدون العرب في مطامعهم) وقد نقل تلك النصيحة له الشيخ محمد رضا الشبيبي شخصيًا في سوريا لان ولديه لا يجران على مصارحته بمثل هذا الامر وجها لوجه، الا انّ الشيخ يوسف السويدي استمرّ في نشاطاته الوطنيّة ولم يأبه بتلك النصيحة. وحينما عاد مع فيصل وقامت الملكيّة في العراق، وكان احد رجالات الصّفوة الشريفيّة الذين بنوا العراق الحديث،اصبح عضوا في مجلس الاعيان ثمّ اختير اوّل رئيس له في 16 تموز/يوليو1925 وجددّ انتخابه لهذا المنصب حتى يوم وفاته في 28 آب/اغسطس 1929،وقد خلفه في رئاسة المجلس صديقه ورفيق جهاده السيّد محمد الصّدر.

كان للشيخ يوسف السويدي ثلاثة ابناء: علي ثابت بك وكان متصرفا في العهد العثماني وقد اغتاله الاتحاديون سنة 1915 بسبب دفاعه عن العرب النصارى في منطقة ديار بكر اثناء حدوث المجازر التي ارتكبها الاتحاديّون الاتراك بحق الارمن انذاك. كما كان له ولدان؛ ناجي وتوفيق اللذان تقلدا رئاسة الوزارة العراقيّة.(مير بصري/اعلام السّياسة في العراق الحديث/ط1/ص104).

ناجي السّويدي

وهو ابراهيم ناجي بن يوسف السويدي، ولد ببغداد في 22 اذار 1882 ودرس في مدارسها ومن اشهر مدرّسيه العلامة محمود شكري الآلوسي وغلام رسول المولوي. وانتقل الى إستامبول حيث درس في كليّة الحقوق تخرج منها سنة 1905 ثم نال شهادة الاختصاص في الادارة والسّياسة في دورة المدرسة الملكيّة. تقلد وظائف قضائيّة في اليمن والبصرة وبغداد والموصل. عيّن قائم مقاما في قضاء الكاظميّة، ثم في النجف سنة 1911 فالهنديّة سنة 1913، ثم متصرفا في الديوانيّة وكالة ثم انتقل مفتشا اداريًا في وزارة الداخليّة التركيّة. كما تقلد مناصب اداريّة وقضائيّة واستشاريّة في ولايات عثمانيّة عديدة. اشتغل في حكومة

الملك فيصل في الشام ومعاونا للحاكم العسكري في حلب ثم واليا عليها سنة 1919. عاد الى وطنه العراق ورشح مستشارا لحاكم بغداد العسكري في حزيران من السنة نفسها، الا انه لم ينسجم مع ادارة الاحتلال البريطانيّة فعاد الى سوريا في تموز1920.

عاد ناجي السّويدي الى بغداد مرّة اخرى مع خمسة عشر شخص في 14 آذار/مارس 1921 وعيّن بمنصب وزير العدليّة. وقد سبقت عودته ان جرت اتصالات ومراسلات عديدة بينه وبين الادارة البريطانيّة المحتلة في العراق وكانت المس بيل – سكرتيرة المندوب السّامي – تتولى مهمّة الاتصالات والرد نيابة عن دار الاعتماد في بغداد. وكما يبدو من دراستنا لفحوى الرّسائل التي بعثها ناجي السّويدي لدار الاعتماد والمس بيل فقد كان له موقفا ابيّا يختلف عن الكثير من مواقف العائدين الاخرين، اذ لم يظهر خضوعا او تزلفا او تقديم الولاء والطاعة كما فعل ولا يزال يفعل غيره. ويبدو انّ هنالك اسباب منطقيّة لموقفه اهمّها: ثقة ناجي باهميّة اسرته اذ انّ والد ناجي - الشيخ يوسف السّويدي – من كبار صفوة المجتمع البغدادي وزعمائه وقد لعب دورا قياديّا في النشاطات الوطنيّة والتعبئة للوقوف بوجه الاحتلال البريطاني كما مرّ بنا. كما انّ الحالة المادّية لاسرة آل السّويدي كانت جيّدة جعلتهم في غنى عن الارتماء في احضان الحكومة المؤقتة وادارة الاحتلال البريطانيّة دون قيد أو شرط. كما انّ ناجي السّويدي كرجل قانون كان على قدر كبير من الثقافة والواقعيّة بحيث تمكن بلباقته وقدرته على ادارة حوار معتدل مع ادارة الاحتلال ان يقنع البريطانيين لقبوله كوجه عراقي يهمّه الجّمع بين المصالح الوطنيّة العراقيّة والمصلحة البريطانيّة.

فمن رسائل ناجي السّويدي التي نجت من الضّياع رسالته الى المس بيل هذا نصّها:

(من مجموعة المراسلات في المركز الوطني لحفظ الوثائق في دلهي/الهند. ملف رقم:

(N.A.I،New Delhi ، File no. 27 /546/pp.3-:-34)

حلب/21 شباط – فبراير1920

المس جرترود بيل – بغداد

استلمت رسالتك الاخيرة المؤرّخة في اليوم الثالث من هذا الشّهر. وفرحت لانك تتمتعين بصحّة جيّدة ومعنويّات عالية. ولكنّي اسف جدّا لاني لم استلم رسالتك السّابقة المطوّلة التي قلت انك أرسلتيها من قبل. انني في غاية الشكر لما تكنيّنه من محبّة وصداقة لوالدي ولاخي، وانا متأكد انك تعرفين مقدار اخلاصهم للحفاظ على مصالح الطرّفين. سيهمّك معرفة انّ جعفر باشا العسكري قد استقال من وظيفته هنا وذهب الى دمشق ليستعدّ للذهاب الى باريس بصحبة الامير فيصل. انّني اثمّن مودّتك لسوريا ولشعبها واتمنى منك نفس الشعور للعراق ولشعبه.

وفيما يتعلق بالاخبار غير السّارة التي وصلتك مؤخرا عن عدم الاستقرار وفقدان الامن على حدود العراق، فانها بالرّغم من كونها صحيحة كلها فانها لاتشير الى منطقتنا

(D.E.T.A.East) التي تدار من قبل الحكومة العربيّة المحليّة. ان هذه الحالة المؤسفة لمجمل القضايا بدات وما زالت مستمرّة في المنطقة السّاحليّة، فلسطين، دير الزور، والاناضول والتي هي جميعها تحت الاحتلال الاجنبي.

لقد ذكرت التقارير بانّ القوّات الفرنسيّة. قد بدات بالانسحاب من مناطق معيّنة تاركة الواجبات الاداريّة للسكان المحليّن الذين اقتنعوا بقليل من الاشراف. اذا ما ثبت صحة هذه الانباء، فالمؤمّل انّ حالة القتال وعدم الاستقرار ستتوقفان وانّ الهدوء والأمن سيعودان قريبا جدا. وبصدد هذا الموضوع دعيني اؤكد لك بانّ حالة الأمن والسّلام التام تعمّ جميع المناطق الشرقيّة منذ ان انسحبت قوّات الاحتلال منها. انّ هذا سبب كاف لنا فيما اعتقد لان نكون فخورين بما اديناه من واجبات في حلب على الرّغم من حالة الفوضى وانعدام القانون الذين عمّا المناطق الحدوديّة المحتلة المجاورة لنا.

انني متأسف جدّا لحوادث دير الزور وسير الاحوال هناك. انا متأكد انها بسبب هياج الرأي العام هناك، وانّ الحكومة الوطنيّة لا دخل لها بذلك. كما اعتقد بانّ هذه الرّوح القلقة وتأكيد الذات تنتشر بسرعة في جميع انحاء العالم.لقد كنت اخشى احتمال حدوث مثل هذه التعقيدات التي دفعتني في العام الماضي لتحمّل اعباء السّفر القاسية والتوجّه الى العراق لألفت نظر السّلطات العسكريّة هناك الى ضرورة اجراء تعديل في جهازهم الاداري.ولو اني كنت اعلم بانّ ملاحظاتي تلك ربما ستعرّضني الى غضبهم والى فقدان الحظوة لديهم. لقد عبّرت عن رايي بلا خوف، وكما فعل والدي واخواي في مناسبات كثيرة والسّبب في ذلك هو اننا نرغب اوّلا وقبل كلّ شيء في عمل الخير والسّعادة لوطننا، مع عدم تجاهل تقوية علاقاتنا الشخصيّة وروابطنا معكم. وهذا يمكن انجازه بتبنّي الجهاز الاداري سياسة تلبية مطاليب الشّعب التي تتفق مع معتقداته وتقاليده والتي تقلل من جرح مشاعره. وطبيعي انّ قوّة توجيه حازمة لاغنى عنها لمؤسسّة امنيّة بين القبائل، وانّ ادخال وسائل التطوير والمدنيّة للأرض هي الاخرى ضرورة هامّة. انّ هذا حسب اعتقادي سيكون افضل خدمة لمصالحكم وكذلك الحال بالنسبة للوطن والتي هي حقيقة تعلمونها جيّدا. وانا آامل بانكم ستجدون قريبا الفرصة لتطبيقها من تلقاء انفسكم قبل ان يطالب بها الوطن منكم رسميّا.

واسمحوا لي ان اؤكد بانكم ستجدوني واقربائي وجميع اولئك العقلانيّن من الرّجال الذين يتمنّون لكم النجاح والذين اعتمد عليهم على اهبة الاستعداد ليسندوكم بجميع الوسائل.ارجو ان تسامحوني لطول رسالتي كما ارجو ان تذكروا سعادة الكولونيل ولسون والكولونيل بلفور بان يصدّقوني بانّي الاكثر اخلاصا لكم.

التوقيع ناجي السّويدي

كما كتب ناجي السّويدي رسالة اخرى الى المس بيل تبدو اشدّ لهجة من سابقتها واكثر صراحة في طرح وجهات نظره من اجل ايجاد الحلول المناسبة للمشاكل الناجمة عن الاحتلال الاجنبي للعراق وسورية وفلسطين،جاءت كالاتي:

من العباسي ابراهيم ناجي السّويدي
الى المس بيل 14 نيسان/1920

لقد تسلمت جميع رسائلك، وكذلك اليوم استلمت رسالتك المؤرّخة في 27 كانون الاوّل 1919 وقد كانت متأخرة جدّا. وقد اجبت على الجميع وخاصّة تلك التي بعثتها بواسطة ساسون افندي "ساسون حسقيل" وشاكر بيك. والان اكتب لك لأجيب على النقاط التي طلبتيها في رسالتك الاخيرة كلمة كلمة.

لك جزيل الشكر لزيارة والدي واخي وانا مسرور جدّا بانّ علاقتك بهما ما زالت جيّدة. واسف لسماعي بانك لم تتفقي معه في نقاط محدّدة وفي التفكير. على ايّة حال فانّ وجهة نظر والدي تتعجل بوضع البلاد امام لجنة السّلام بأسرع وقت. وحينذاك سوف لن يكون هناك اختلاف. وانّ جميع ابناء الشعب سيعمل من اجل رقيّ الوطن.

انّ حالة حلب التي ذكرتها لم تكن من صنع الخيال بل حقيقة وانّ احداثها قد رايتها وسمعتها. وانّ كلّ ما افكر به هو انّ الشعب لن يستطيع الوصول اليك ليطلعك على ما يشكو منه وانّ النّاس المرموقين الذين ذكروا الحالة يستطيعون ان يبيّنوا لك بوضوح اراء السكّان.

هنالك بعض الخلاف في وجهات النظر ولكنيّ اودّ ان ابيّن باني كنت على صواب وانّ الدليل كان الاساليب الاخيرة المتبّعة في العراق وفلسطين وخطاب المستر اسكويث واخرين من النواب والشعب البريطاني في مجلس العموم والصّحف الإنكليزيّة. وبما اني مضطران ارى ذلك الاستغلال لبلدي ولحضارته يتمّ باسنادكم وبالتعاون مع بعض المواطنين، لذا اجد نفسي مضطرّا لأخبرك بانّ الادارة العسكريّة الحاليّة هي ضد رغبة الشّعب وانّه يسبّب المشاكل لراحته. ولذا فانّه من الضروري تغييّرها لأجل مصلحة الشعب وحفظ حقوقه والتي بذلتم الدّماء والاموال لأجل هذه الحقوق والاهداف في الحرب العظمى ولا يوجد احد من ابناء الطّبقة العليا من لم يذكر ذلك. انّ هذا التدبير سوف يقدّم النفع العظيم للبلاد ويقلل بعض النفقات.

انّ جميع ابناء الشعب السّوري ينتظر نتيجة لجنة الاقطار. واعتقد انها سوف لن تتأخر بطبيعة الحال. لماذا لم يأت رمضان شلاش عن طريق الحكومة. انا شخصيّا ضدّ هذه الحالة وانّه ليس ذلك الشخص الذي يستطيع ابناء القبائل اطاعته ولكنّ طريقته يجب ان ينبّه عليها وان يعرف ما يخفيه الشعب في قلوبهم. انّ الشّعب السوري في وضع هاديء وسعيد جدّا لاعطائه السّلطة الكاملة على وطنه ولكنّي انتظر النتيجة. كما يوجد بعض الخلاف في الاراء بيني وبين الوزارة السّوريّة الجديدة، ومن اجل راحتي قدّمت استقالتي من وظيفتي في حلب واني ارغب في العمل في التجارة او في الزراعة وارغب في العودة الى بغداد.

اذا كان بامكانكم السّماح لي بالعودة فالرّجاء ان تبعثوا برقيّة وساكون مسرورا اكثر في لقاء ممكن معكم نفكر فيه في التدابير الضروريّة. ارجو ان تبعثوا بافضل احتراماتي

للكولونيل ولسون، وبلفور والضبّاط الاخرين كما أتمنى استمرار صداقتنا.

(انتهت الرّسالة)

(N.A.I.،New Delhi،File no.27/546،pp3-34)

لقد ساهم ناجي السّويدي في بناء المؤسسات والدوائر الهامّة في الدولة العراقيّة الحديثة من خلال خدماته الطويلة وقدراته المتنوّعة: كوزير للعدليّة سنة 1921، وكوزير للداخليّة في وزارة عبد المحسن السّعدون الاولى في 18 تشرين الثاني 1922، وكوزير للعدليّة مرّة اخرى من 9 كانون الثاني1922، وللمرة الثانية ثم للمرّة الثالثة ولغاية 1926. وكممثل لحكومة العراق في شركة نفط خانقين سنة 1927. كما وضع قواعد واسس اداريّة كوزير للداخلية.

وحينما تقلد وزارة الخارجيّة استطاع ان يبني افضل العلاقات الخارجيّة والتقارب مع دول الجوار والخارج ونظمّها بموجب اتفاقات ومعاهدات دوليّة ملزمة باحترام العراق وحدوده الدوليّة. وعلى صعيد ترسيخ النظام الدستوري وهيبة الدولة والقانون، فقد عزز المسيرة الديمقراطية بانشاء الاحزاب سواء بتأسيسه لحزب (الامّة) سنة 1924، او بانتمائه لحزب التقدم الذي ترأسه عبد المحسن السّعدون.

وفي سنة 1930 ساهم مع (شريفي اخر) وهو ياسين الهاشمي في تأليف حزب الإخاء. وناجي السّويدي بقي مخلصا لمبدأ خدمة العراق والاسرة المالكة سواء نائبا في البرلمان او مسؤولا في الحكم او معارضا خارجه حتى استقالته في شباط 1931. انّ لناجي السويدي سجلا مشرّفا يحق للعراق وللعراقييّن ان يفتخروا به كانسان وكمواطن عراقي وطني غيور، عرف بالنزاهة والاخلاص لوطنه ولدينه وبثقافته العالية وبالمعرفة الحديثة الواسعة ووصف بانه:

"... عرف ناجي السّويدي باناقته في ملبسه وتفكيره وكلامه. غلبت عليه دراسته القانونيّة، فكانت له اليد الطولى في وضع الدستور والقوانين حتى لقب بفقيه الدستور وكان خطيبا مفوّها ذلق اللسان، يرصّع خطبه النيابيّة بالايات القرانيّة وشواهد الشعر، ويسوق الحجج ويدلي بالاراء منسجمة ناصعة البيان، مشوبة بالسخريّة والتهكم، حتى اطلق عليه في مجلس النوّاب حينا لقب (خطيب الاكثريّة) وكان داعيا الى مراعاة القانون والاخذ بالمباديء البرلمانيّة الصحيحة ورقابة الامّة على الحكومة. كان كثير المطالعة، واسع المعرفة، سافر الى اوروبا مرارا ودعا الى الاخذ بمحاسن الحضارة الغربيّة والتطلع الى النهضة والتقدم..". وبسبب اشتراكه في حركة مايس 1941 كوزير للماليّة بحكومة الدفاع الوطني، فقد قبض عليه ونفي الى جنوب افريقيا في الاوّل من شباط 1942. وقد مرض في سالسبري- روديسيا وتوفي فيها في 17 اب 1942 ونقل رفاته الى بغداد في23 كانون الثاني1949(ميربصري/ اعلام السياسة في العراق الحديث.ص 116).

توفيق السّويدي

ولد سليمان توفيق بن يوسف السويدي، في محلة خضر الياس في بغداد في اذار سنة 1892، درس في مدرسة الاليانس والمدرسة السلطانيّة ثم مدرسة الحقوق البغدادية عند افتتاحها في ايلول 1908. ذهب الى إستامبول ودرس القانون فيها وتخرج منها سنة 1912 ومنها انتقل الى جامعة السوربون في فرنسا واستكمل دراسة القانون وكان العراقي الوحيد الذي شارك في المؤتمر العربي الاوّل في باريس في حزيران سنة 1913. تقلد وظائف مدنيّة في التعليم حينما عاد الى إستامبول عام 1914حيث خدم في نظارة المعارف التركيّة (23 تشرين الثاني 1914 وحتى 13 ايلول 1915) وكانت اهم اعماله انجازاته كسكرتير للجنة تصحيح القاموس التركي الفرنسي.

كما خدم في الجيش العثماني كضابط احتياط في اركان حرب الجنرال ليمان ساندرس. وعيّن معاون المشاور العدلي للفيلق التركي الثاني والعشرين سنة 1916، ثم اشتغل كمستشار عدلي لفرقة الخيالة الثالثة والفيلق الحادي والعشرين. وفي طول كرم بفلسطين انضم الى جيش الثورة العربيّة الزاحف في الشام. تقلد وظائف قضائيّة وتعليم الحقوق سنة 1919، ترأس المؤتمر العراقي المنبثق عن المؤتمر السّوري في دمشق الذي اخذ براي الملك فيصل، ملك سوريا، ورشح الامير عبدالله بن الحسين ملكا على العراق. وبعد ان اطاح الفرنسيّون بحكومة فيصل في دمشق، عاد الى العراق وشغل منصب مدير مدرسة الحقوق ودرّس فيها مادة القانون الرّوماني حتى سنة 1929. ولقدرته في القضايا القانونيّة شارك في المؤتمرات ممثلا عن العراق كمؤتمر لوزان مع جعفر باشا العسكري في تشرين الثاني 1922 وتراس الوفد العراقي في مؤتمر بحرة مع امير نجد سنة 1925 ومؤتمريّ جدة في ايلول 1925 وفي تموز 1928. خدم توفيق السويدي في الادارة العدليّة والتعليم، وتقلد وزارة التعليم في 14 كانون الثاني 1928، ثم اصبح لاوّل مرّة رئيسا للوزراء مع إحتفاضه بوزارتي الخارجيّة والاوقاف في 28 نيسان 1929 وقد اعترفت ايران انذاك بالمملكة العراقيّة في نيسان 1929. بقي توفيق السويدي يقدم خدماته في بناء العراق الجديد موظفا ونائبا ووزيرا على شتى الاصعدة التعليميّة والسّياسيّة والقانونيّة والبرلمانيّة. وقد لمع اسمه كمفاوض ودبلوماسي ناجح من الطراز الاوّل. وقد حقق شهرة واسعة حينما ذهب ممثلا ومندوبا عن العراق الى مؤتمر فلسطين في لندن.

في عهد وزارته الثانية في 23 شباط 1946 اطلقت الحريّات الديمقراطيّة واجيزت الاحزاب السّياسيّة. بقي يتقلد مناصب وزاريّة او رئاسة الوزراء وكان اخر منصب له توليه وزارة خارجية الاتحاد الهاشمي في 19 ايار1958واستمرفيه حتى انقلاب 14 تموز 1958.
(توفيق السويدي/مذكراتي/ط-1 دار الكاتب العربي)

ياسين الهاشمي

ولد "ياسين حلمي" في محلّة (الباروديّة) في بغداد عام 1844، وكان ابوه (السيّد سلمان) مختارا لتلك المحلة. درس ياسين في مكتب الشيخ حسن الافغاني وتعلّم قراءة القران على يد " ملا محمد نظر". وبدت عليه منذ وقت مبكّر علامات الفطنة والنبوغ وحب مساعدة ابيه، كما برز بين اقرانه بسمات قياديّة. وبعد ان اكمل دراسته الاعداديّة، ارسله ابوه الى إستامبول حيث درس في المدرسة الحربيّة. وبعد تخرّجه خدم كضابط متميّز وحاز اعجاب رؤسائه وكلّ من عمل معه من قادة اتراك والمان حتى اصبح قائدا لاحد فيالق الجيش الرابع التركي في الحرب العالميّة الاولى. احتجزه القائد العام للقوّات البريطانيّة في (اللد في فلسطين) ثمّ اطلق سراحه وعاد الى دمشق ايّام كان فيصل الاوّل ملكا فيها. (خيري امين العمري/المصدر)

في 21 تموز 1921، قرّر مجلس الوزراء العراقي تخصيص 75000 (خمس وسبعون الف) روبيّة لاعادة بقيّة الضبّاط العراقيّين الذين ظلوا في سوريا لعدم توفر نفقات السّفر لديهم !.

لقد كانت عمليّة تعيّن الموظفين في مؤسّسات الدولة العراقيّة الجديدة تسير جنبا الى جنب مع عمليّة تهيئة الجو العام المناسب لاقامة الملكيّة في العراق على نمط المؤسسّات البريطانيّة. فالموظفين الذين خسروا وظائفهم، بسبب الاحتلال البريطاني وانهيار دوائر الحكومة العثمانيّة وحوادث النهب والحرق الّتي صاحبتها، قد غادروا العراق امّا الى تركيا او الى سوريا وقليل منهم من بقي في العراق، وقد اصبح هؤلاء وعوائلهم في حالة ماديّة تعيسة وضنك اقتصادي شديد. وامتلأت المقاهي بالموظفين القدامى والضباط العاطلين عن العمل. وحينما تأسست النواة الاولى للجيش العراقي (فوج الامام موسى الكاظم) في 6 كانون الثاني/يناير1920، بدات هذه المؤسّسة تمتصّ قسما كبيرا من العاطلين على اختلاف مستوياتهم ومراتبهم وبالتدريج.

كان قادة ادارة الاحتلال البريطانيّة تعلم مدى حاجة هؤلاء الى العمل وبرغبتهم الجامحة للعودة الى وظائفهم التي لا يتقنون غيرها سببا للعيش، فعمدوا الى توظيف من يتأكدوا من ولائه للسّياسة البريطانيّة ولحكومة عبد الرّحمن النقيب المؤقتة وترويض من يشكوّن في ولائه. وكدليل على هذا، فقد وجد المؤلف وثائق رسميّة بريطانيّة كثيرة هي عبارة عن مراسلات سريّة بين القنصليّة البريطانيّة في دمشق ودائرة المندوب السّامي البريطاني في بغداد ووزارة الخارجيّة البريطانيّة توضح مدى اهتمام البريطانييّن بتعقيب ومتابعة اخبار ذوي الكفات العالية والذكاء والمتميّزين من العراقييّن في الخارج.

فمثلا وردت ضمن تلك المراسلات تقارير مفصّلة عن الوضع النفسي والمالي للجنرال ياسين الهاشمي الذي كان عاطلا عن العمل في سوريا بعد سقوط حكومة فيصل (N.A.I،New

Delhi:Baghdad High Commisioner Records‹Files‹letters‹telegrams ‹1921-1922).

ونظرا لخشية البريطانيين من (تطرّفه) على حد تعبير التقرير، فقد منعوه رسميّا من العودة الى وطنه وبلدته بغداد حتى بعد ان وصل الحال بياسين ان باع ملابسه الشخصيّة من اجل لقمة العيش (حسب ما جاء في التقرير السرّي) وحينما سمع الملك فيصل بذلك، وهو في العراق، بعث له 150 جنيها استرلينيّا عن طريق القنصل البريطاني في دمشق، فقبلها ياسين كياسة وسياسة منه لانّه ـ كما ورد في التقرير ـ اعتبرها فرصة اتصال بفيصل لكي يعود. ومع ذلك لم يسمح البريطانيّون برجوع ياسين الى بغداد الا بعد مراسلات بين دمشق وبغداد ولندن استغرقت ما يقارب السنة والنصف قاسى خلالها الهاشمي هو وعائلته عذاب العسر والحاجة والبطالة المفروضة عليه. فقد جاء في احدى مراسلات القنصل البريطاني في دمشق منتقدا الملك فيصل على مساعدته لياسين حيث كتب الى لندن يقول:

"...واستطيع ان اتجرّا واقول ان هذا البخشيش (يقصد رشوة ياسين) يبدو لي انتهازيّة وسياسة من الملك فيصل..."، وهنا يتحاشى كاتب التقرير جهلا او عمدا غيرة فيصل ومروءته على ذوي الكفاءات وعموم ابناء امّته، ثمّ يستمر التقرير السري بالقول:

"...وكما توقعت فقد اخبرني الهاشمي بانه سيكون مخلصا للحكومة التي توظفه، وانه سوف يحارب ايّ شخص من اجلها. وانا باعتقادي بانّ ياسين هو مخلص في ولائه الان فقد قاسى وتعذب اكثر من ايّ واحد من الشريفيّن الذين قابلتهم خلال مباحثاتي واتصالاتي معهم لتامين عودتهم وتوظيفهم...."

وفي التقرير نفسه يكشف القنصل البريطاني خشيته من عدم كسب ياسين وترضيته حيث مضى في تقريره يقول: ((... وبالتاكيد انّ من مصلحته ـ يقصد ياسين ـ ان يفضّل بيع قدراته ومواهبه وهو الغارق في الديون الثقيلة، على ان يقبل راتبا من الفرنسيّن لاثارة الدّعاية ضدّنا. انّني لا استطيع الحكم بانّ افكاره مطابقة للعاملين في حكومة العراق فاذا لم يكن كذلك فانه سيخلق لنا متاعبا في بغداد. ولكني بالتأكيد اعتبره مخلصا ووطنيّا ولا يمكن ان يكون (محتالا) انه سيكون من المفيد والمثمر جعله صديقا. انني شخصيّا أثق به جدّا اكثر من بقيّة اصدقائه....)).

لقد تمّ تحرّيك موضوع عودة ياسين الهاشمي بقبول مجلس الوزراء عريضة استرحام قدّمتها شقيقة ياسين الهاشمي الى عبد الرحمن النقيب رئيس الحكومة المؤقتة (في 23 مارت1921) التمست فيها السّماح لاخيها بالعودة الى وطنه. تبع ذلك اعطاء مولود مخلص تزكيته وكفالته الشخصيّة الى دائرة المندوب السّامي وللحكومة العراقيّة المؤقتة لضمان (السلوك الجيّد حسب ما جاء في التقرير) لياسين وابعاده عن المحيطين به (برقيّة مولود مخلص من دمشق الى المندوب السّامي في بغداد في6/5/1921). ومع ذلك بقيت المراسلات مستمرّة من تاريخ 23 مارت1921 وحتى حزيران1922، حينما اصدرت الحكومة العراقيّة

المؤقتة وبتدخل شخصي من الملك فيصل الاوّل قرارا بعودة الهاشمي وتعيينه متصرّفا (محافظا) للواء المنتفك في 24 حزيران 1922. × (مجموعة مراسلات دوائر المندوب السامي والبلاط الملكي ومجلس الوزراء والخارجيّة البريطانيّة بين بغداد ودمشق ولندن لا سيّما تقرير القنصل البريطاني في دمشق رقم 159 والمؤرّخ في 20/12/1921 حول عودة الهاشمي) حصل عليها المؤلف من المركز الوطني لحفظ الوثائق في دلهي/الهند:

N.A.I،New Delhi،Files no.27،28/9/1.REF،1013/5، Baghdad) (Commissioner Records ،ibid ومما تجدر ملاحظته انّ تعيين الهاشمي في المنتفك وهي منطقة قبائل عربيّة شيعيّة وتعتبر قلب الثورة على الإنكليز وعلى المعاهدة الاولى التى كان يجري طبخها على عجل انذاك له دلالاته ونتائجه في العلاقات بين مكونات الصّفوة العراقيّة الداخليّة (الشيعيّة –السنيّة) التي فوّتت الفرصة على الإنكليز واصبحت غالبيّتها فيما بعد من انصار الهاشمي من العرب الشيعة الذين ساندوه في جميع مواقفه الوطنيّة حتى وفاته على عكس ما خطط له الإنكليز من تعييّنه في تلك المنطقة بهدف ايجاد سببا للتفرقة الطائفيّة.

ان هنالك ادلة اخرى كثيرة مشابهه لما تقدّم تؤكد للقاريء انّ عملية (التوظيف وتوزيع المناصب في دوائر الدولة الجديدة) وارجاع الكفاءات العراقيّة من الخارج كانت تجريها ادارة الانتداب ضمن اطار عمليّة ترويض واخضاع الصّفوة المتعلمّة العسكريّة والمدنيّة من العراقييّن الذين خسروا وظائفهم بعد زوال الحكم العثماني لا سيّما اولئك الذين لجأوا مع عائلاتهم الى سوريا ايّام حكم ملكيّة الملك فيصل بن الحسين فيها. ومن هنا نتفهّم اهميّة اصرار القليل من قادة ثورة العشرين على ضرورة قيام حكومة وطنيّة مستقلة تعتمد على العراقييّن وتجميع غالبيّة الطاقات والكفاءات لبناء دولة قويّة على اسس سليمة من التكافؤ والتكافل بين كافة مكونات المجتمع العراقي، الا ان ذلك اصطدم بالاستراتيجية البريطانيّة في العراق القائمة على سياسة فرّق تسد باثارة الطائفيّة والعنصريّة واثارة العقد التاريخيّة الموروثة لدى اكثريّة العراقييّن.

علي جودت الايّوبي

وهو علي جودت بن ايّوب اغا بن محمّد، ولد في مدينة الموصل عام 1886ودرس مرحلة الرّشديّة فيها. ثم قدم الى بغداد وانضمّ الى المدرسة الرّشديّة العسكريّة، وانتمى الى المدرسة الاعداديّة العسكريّة. اكمل دراسته في إستامبول سنة 1903 م حيث دخل المدرسة العسكريّة وتخرّج فيها برتبة ضابط سنة 1906. وبعد تخرّجه عيّن في الشعبة الاولى من دائرة الاركان في جيش بغداد سنة 1906.

عرف عن علي جودت الايّوبي سعيه منذ مرحلة شبابه لبث المباديء العربيّة لا سيّما بعد

اعلان الدستور العثماني. عيّن في سنة 1910 معلما في مدرسة صغار الضبّاط التي انشاها الوالي ناظم باشا في بغداد. ذهب في اجازة لاداء فريضة الحج سنة 1912، وقد زار في طريقه الى الحجاز كلا من سورية ولبنان ومصر والحجاز. وبعد عودته الى بغداد، تمّ نقله الى الفرقة الخامسة والثلاثين في الموصل (عام 1912) حيث قام بالتعاون مع زميله جميل المدفعي بتأسيس جمعيّة العهد السّريّة فيها. وحينما نشبت الحرب العظمى الاولى نقل اليوزباشي (رائد) علي جودت مع فرقته الى حلب. وعلى اثر احتلال البريطانييّن لمدينة البصرة في 22 تشرين الثاني 1914،ارسلت فرقته (الخامسة والثلاثين) الى جنوب العراق ونشبت معركة الشعيبة في نيسان 1915 واسفرت عن اندحار القوّات التركيّة وانتحار قائدهم سليمان عسكري بك. فانسحبت الفرقة وفيها علي جودت الى الناصريّة. ثمّ اشتبك مع البريطانييّن في عكيكة وتفرّقت صفوف الجيش التركي. والتجأ علي جودت الى سوق الشيوخ التي وقعت في ايدي الجيش البريطاني. ونقل علي جودت الى البصرة وسمح له الاقامة فيها.وما ان أعلنت ثورة الشريف حسين بن علي في حزيران1916 حتى التحق بها الايّوبي واصبح من كبار ضباطها، فقد اوفد للقاهرة لجلب السّلاح للثورة. ثم التحق بجيش الشريف فيصل بن الحسين الذي كان متوجها لاحتلال العقبة، وقد شهد موقعة السّمنة والتل الاحمر.... ثم عهد اليه قيادة المفرزة الشماليّة في رابية ابي الليل قرب معان. ثمّ زحف على راس تلك المفرزة واحتلّ درعا ثمّ تحرّك متجها شطر دمشق في 25 ايلول ودخلها مع مفرزته في اوّل تشرين الاوّل 1918، وسار بعد ذلك الى حمص وحماة وحلب، ولما فرغ الجيش العربي من سوريا، عيّن علي جودت حاكما عسكريّا لمدينة حلب فمنطقة البقاع. ثمّ نقل مديرا للامن العام فمعتمدا في بيروت سنة 1920.

وفي الثامن من اذار 1920 حضر علي جودت الايّوبي المؤتمر العراقي في دمشق الذي نادى بالامير عبد الله بن الحسين ملكا على العراق. وفي الشام مضى مع جميل المدفعي وتحسين علي الى دير الزور، وكان متصرّفها انذاك مولود مخلص، فقاموا بتدبير حركات وطنيّة ترمي الى تحرير العراق من ربقة الاحتلال البريطاني. وفي الثاني من ايلول 1920، عاد الايّوبي الى دمشق وكان الفرنسيّون قد احتلوها، فبقي فيها الى حزيران 1921 حيث استدعاه الامير فيصل ليوافيه الى القاهرة. والتحق بالامير في جدّة، وغادرها في ضمن حاشيته في 12حزيران فوصلوا البصرة في 24 منه ثمّ انتقلوا الى بغداد بالقطار في 29 منه.

عيّن علي جودت الايّوبي متصرّفا (محافظا) لمدينة الحلة في 16 تشرين الاوّل/اكتوبر 1921، ثم استدعي الى بغداد في اب 1922 حيث اسندت اليه بعد ذلك متصرفيّة كربلاء في كانون الاوّل/ديسمبر 1922. ثم عهد اليه منصب وزير الدّاخليّة في وزارة جعفر باشا العسكري (22 تشرين الثاني/نوفمبر-1923 3 اب 1924).انتخب نائبا عن الموصل في المجلس التأسيسي عام 1924. ثم تقلد الايّوبي عدة مناصب اداريّة حتى اختاره نوري السّعيد لوزارة الماليّة في 23 اذار/مارس 1930. وبقي يتقلد المناصب الوزاريّة وعضويّة

مجلس النوّاب حتى شهر اذار/1931 حيث انضمّ الى المعارضة واصدر جريدة الإخاء الوطني في 2 اب 1931.وفي 22 اذار1933 اختاره الملك فيصل الاوّل ليكون رئيسا للديوان الملكي.

في 27 اب 1934 اصبح علي جودت الايّوبي رئيسا للوزراء ووكيلا لوزارة الداخليّة حتى الرّابع من اذار1935. وبقي الايّوبي يتقلد المناصب الوزاريّة والدبلوماسيّة الخارجيّة حتى عيّن عضوا في مجلس الاعيان في 27 ايلول 1948حتى اصبح رئيسا للوزراء للمرّة الثالثة في 20 حزيران 1957 حتى استقال في 14 كانون الاوّل 1957. وبعد انهيار الملكيّة عام 1958 سكن لبنان وكان موضع محبة واعجاب جميع افراد الصّفوة العراقيّة لا سيّما نوري السّعيد وتوفيق السّويدي وياسين الهاشمي (الذي اطلق عليه لقب الايّوبي لشدّة اعجابه به)، وبقي في لبنان حتى توفي ببيروت في اذار 1969 رحمه الله.

طه الهاشمي

وهو الفريق الاوّل طه باشا بن سيّد سلمان بن ياسين الهاشمي، الاخ الاصغر لياسين باشا الهاشمي ولد في بغداد في شهر شباط 1888 م وتوفي في لندن على اثر عمليّة جراحيّة يوم 11 حزيران سنة 1961. نشا في بغداد ودرس الاعداديّة العسكريّة فيها. ثمّ اكمل دراسته العسكريّة في المدرسة الشاهانيّة في إستامبول سنة 1903 م وتخرّج منها برتبة ملازم ثان ونظرا لقابليّته المتميّزة ادخل الاركان مباشرة وتخرّج برتبة رئيس ركن سنة 1909 م. عيّن في مقر الجيش الخامس العثماني المرابط بسوريّة بامرة الفريق سامي باشا العمري وساهم في اخماد التمرّد في الكرك. خدم في دمشق كاركان حرب سنة 1910. ومن دمشق ارسل للمشاركة في حرب البلقان سنة 1912 كما ساهم في انقاذ ادرنة وقرق كليّسا من البلغار. عرف عنه شغفه الشديد بالدراسة وحب العلوم والمعرفة، كما عرف عنه الاحاطة بالعلوم العسكريّة والفنيّة والتاريخيّة والجغرافيّة. كان اوّل عمل له بالسّياسة بعد لقائه باللواء عزيز علي المصري في إستامبول، قبوله الانضمام الى (جمعيّة العهد السريّة) سنة 1913. وفي تلك السّنة نقل للخدمة في اليمن كضابط ركن في الفيلق التركي المرابط فيها فذهب الى هناك ووصل اليها عن طريق سورية والعراق سنة 1914 وعمل في تهامة وصنعاء وتعز، والحرب العالميّة الاولى قد اشتعلت فشارك في الهجوم على عدن والاستيلاء على امارة لحج، وكان يقاتل الإنكليز في نواحي عدن من جهة، ويقاتل الادريسي في تهامة عسير من جهة اخرى، لقد اعطته تلك الميادين القتاليّة والظروف الصّعبة خبرة واسعة وعمّقت لديه الغيرة الوطنيّة والقوميّة العربيّة فقد بقي يقاتل في تلك الجبهات حتى وقع اسيرا بيد الإنكليز في عدن مع مجموعة ضباط فيلقه سنة 1919، وحينما سمح له بالعودة الى إستامبول في تشرين الاوّل 1919، التحق بحكومة الملك فيصل بن الحسين في دمشق وشغل منصب مدير الامن العام فيها في اذار1920. وبعد ان اجهز الفرنسيّون على ملكيّة فيصل وحكومته

اثر معركة ميسلون، غادر دمشق الى إستامبول وشغل رئيسا لقسم التاريخ العسكري بدائرة الاركان العامة التركيّة. لم يبق كثيرا في تركيا، فقد غادرها متوجها الى وطنه ووصل بغداد في ايار1922 ضمن المجموعة الشريفيّة التي اقامت المملكة العراقيّة، فعيّن برتبة عقيد امرا لمنطقة الموصل، ثمّ رئيسا لاركان الجيش العراقي خلال الفترة (تشرين الثاني 1923 - نيسان 1924). كما لعب دورا رئيسيّا في المفاوضات التي دارت سنة 1924 مع الحكومة التركيّة حول الموصل مشاركا مع السير بيرسي كوكس المندوب السّامي الذي كان رئيس الوفد المفاوض، وبعد نجاحه في مهمة الحفاظ على الموصل للعراق، عاد الى بغداد في ايلول 1924. وفي شهر تشرين الاول 1924 عيّنه الملك فيصل الاوّل مراقبا ورائدا للامير غازي ولي عهد المملكة وليشرف على دراسته لا سيّما في مهمّة تدريبه العسكريّ، وبوصيّة من الملك فيصل الاوّل، كان الهاشميّ يعامل ولي العهد كبقيّة الطلبة سواء في خشونة العيش او في صعوبة التدريب. لقد وصل الهاشمي انذاك الى رتبة زعيم (عميد) في حزيران سنة 1926.

لقد كان الشريفيّون - وكانهم في سباق مع الزمن - يشتغلون كفريق عمل واحد متضامنين يقودهم الملكَ فيصل الاوّل لاعادة بناء العراق الجديد. لقد برز العراق في المنطقة وهو ينفض عنه غبار التخلف الذي خيّم عليه لما يزيد على الاربعة قرون. وعلى الرّغم من تميّز غالبيّة هذه المجموعة من الصّفوة الشريفيّة العراقيّة بالاختصاصات العسكريّة العالية، الا انهم بثقافاتهم وبخبراتهم السّابقة التي حصلوا عليها اثناء دراساتهم وميادين عملهم، استطاعوا ان يخدموا في شتى الميادين.

لقد كانت خدمات طه الهاشمي لوطنه متنوّعة في اربع اختصاصات:

اولا - في الشؤون العسكريّة حيث بدا عمله وساهم في بناء الجيش العراقي ابتداءا من سنة 1923 كرئيس لاركان الجيش العراقي الجديد النشأة، ثمّ رئيسا لاركان الجيش مرّة ثانية سنة 1929 وبسبب كفاءته رفع الى رتبة فريق ركن ثم الى رتبة فريق اوّل (عميد) سنة 1936.

ثانيا - في الشؤون الدبلوماسيّة قدم خدمات جليلة لوطنه سويّة مع السير بيرسي كوكس في ضمان بقاء منطقة الموصل عراقيّة وانقاذها من الاتراك سنة 1924. وكذلك ما بذله من جهود دبلوماسيّة مضنية سويّة مع رئيس الوفد نوري باشا السّعيد في جولتهم الموفقة لتوثيق العلاقات والتقارب بين المملكة العراقيّة الجديدة وعقد معاهدات مع الدول العربيّة كالاردن والسعوديّة واليمن سنة1931. كما ساهم بوفد عراقي الى بريطانيا للحصول على السلاح للجيش العراقي سنة 1935.

ثالثا - في شؤون الادارة الحكوميّة والتعليم، فقد كان طه الهاشمي يهوى الاستزادة من العلوم والمعرفة مثلما كان يحب ممارسة التدريس؛ فقام في سنة 1926 بتدريس التاريخ والجغرافيا العسكريّة في المدرسة العسكريّة وكذلك تاريخ الاديان في كليّة ال البيت التي وضع اساسها وانشاها الملك فيصل الاوّل في بغداد. كما عمل في السنة نفسها مديرا عاما

للنفوس، كما عمل مديرا عاما للمعارف في آب 1927 – 1929. انتخب نائبا عن بغداد للمرّة الاولى سنة 1937 ثم وزيرا للدفاع في سنوات،1938،1939، ومرتان في1940، ووكالة وزيرا للماليّة سنة 1940، ووكالة وزيرا للاقتصاد سنة 1941، وانتخب نائبا عن بغداد للمرّة الثانية سنة 1939. ثم كلف بتأليف الوزارة مع احتفاظه بوزارة الدفاع وكالة في شباط 1941. انتخب عضوا مراسلا بالمجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1942 كما اختير عضوا فخريّا بالمجمع العلمي العراقي في كانون الاوّل 1949.

رابعا – وفي الشؤون السّياسيّة كان موضع احترام الجميع لما كان يتصف به من غيرة وطنيّة على مصالح العراق ووحدة ابنائه. فقد عرف عنه الاعتدال والاتزان وميله للتوفيق بين الفئات السّياسيّة المتخاصمة لا سيّما في اوقات الازمات والانقلابات التي حدثت في العراق. كان شديد الاعتزاز بدينه وبعروبته. فقد عمل كمفتش عام لجيش انقاذ فلسطين في شباط 1948. كما اشترك في تأليف الجبهة الشعبيّة واختير رئيسا لها سنة 1951. كما عيّن نائبا لرئيس مجلس الاعمار (الشهير في بناء واعمار العراق في العهد الملكي) في 21 ايلول 1953 وبقي يقدّم خدماته فيه بكل نزاهة واخلاص حتى ألغته حكومة انقلاب 14 تموز 1958.

أهم مؤلفاته: نهضة اليابان (1925)،السلاح (جزئين 1925)،التعبئة الاساسيّة(1925)، الخدمة السّفريّة (1926)، تاريخ الحرب (1927) جغرافية العراق العسكريّة (1928)، حرب العراق (مجلدين 1928 – 1930)، مفصّل جغرافية العراق (1929) اطلس العراق (1932) تاريخ الشرق القديم (1933) الجغرافية العسكريّة (1934) التاريخ والحضارة في الازمنة الغابرة (1936) خالد بن الوليد (1937) سفر خالد بن الوليد من العراق الى الشام،جغرافية بلاد العرب (1938) الوحدة الايطاليّة (مترجم 1952) تاريخ الاديان وفلسفتها (1963) حكومة عمر (مترجم عن الاورديّة لمؤلفه الشيخ نعمان الشبلي 1966)، مذكرات طه الهاشمي 1919 – 1943. انّ مثل هذا الانتاج الفكري- الثقافي المتنوّع لعسكري كبير بمثل مسؤوليّاته وانشغالاته يعطينا دليلا على اهميّة الوقت وكيفيّة استثماره لدى هذا الصّنف من الصّفوة العراقيّة انذاك.

وبسبب ثقافة طه الهاشمي العالية، وولائه لوطنه، وبسبب ما كان يتصف به من قيم اخلاقيّة عالية ومروءة، كان يعاني من ظلم ذوي القربى وهو اشدّ انواع الظلم. كتب ناجي شوكت،رئيس وزراء العراق الأسبق، في مذكراته:

".. انّ طه الهاشمي كان بين شقيّ الرّحى. وكانت اخلاقه حميدة بالقياس الى الاخرين، تثقف ثقافة عسكريّة عالية، وكان يطلب من مرؤوسيه طاعة عمياء، لكنه كان مترددا في اتخاذ القرارات الحاسمة في الازمات، فسيّرته الظروف بدلا من ان يسيّرها..". وصفه الكاتب المصري الكبير احمد حسن الزيّات: "...فطه الهاشمي عذب الرّوح، سريّ الاخلاق، وقور النفس، مصروف الهمّ الى القراءة المنتجة والتأليف المحكم فيما يتصل بالتاريخ والحرب. ولو ترك الى نفسه لما خرج من مكتبته...". وللمزيد عن سيرة طه الهاشمي: (ناجي شوكت/

سيرة وذكريات/ط2 -بيروت/1975/ص 431 432-).(توفيق السويدي/وجوه عراقيّة عبر التاريخ/ص -131 134)(مير بصري/اعلام السّياسة/المصدر/ص187 – 192) (مذكرات احمد مختار بابان/ط 1/1999/ص 122،37).

السّيد محمّد الصّدر

وهو المسلم الشيعيّ العراقي الوحيد الذي التحق في مجموعة "الشريفيين" الذين صحبوا الامير فيصل المرشح لعرش العراق حين جاء الى العراق في حزيران 1921. وهو السيّد محمد بن السّيد حسن الصدر، ولد في الكاظميّة في 30 تشرين الاوّل 1883 م ونشا في كنف والده السّيد حسن الصّدر وهو احد كبار مراجع عصره والذي ينتهي نسبه الى الامام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليّ بن ابي طالب عليهم السّلام.

نشا السيّد محمّد منذ وقت مبكر في اجواء اسرته الرّوحيّة والعلميّة. حتى اذا بلغ سنّ الرّشد شدّ الرّحال الى مدينة العلم والعلماء، النجف الاشرف، سنة 1898 م واخذ يتتلمذ ويتلقى علوم اللغة والنحو والمعاني والبيان والمنطق والعروض، وعلوم الدين والفقه والحديث والاصول والهيئة والرّجال على خيرة علمائها وفحول ادبائها مثلما نهل من معين مجالس وبيوت كبار العلماء وحوزة المجتهدين لما لاسرته من علاقات متينة معهم وبما لها من منزلة وشان عظيمين في الاوساط النجفيّة والكربلائيّة والمدن المقدسة الاخرى. وحينما عاد السّيد محمد الصّدر الى بلدته الكاظميّة، بعد غياب ثمان سنوات، بدا يلازم والده وينتفع من علمه ودروسه.

استفاد السّيد محمد الصّدر من جوار بلدته الملاصقة مباشرة لمدينة بغداد من جهة الشمال، حيث اقام علاقات واسعة جدّا صفوة كبار البيوتات والأسر البغداديّة العريقة. كما بنى له منذ بداية شبابه المبكر صداقات حميميّة مع صفوة المجتمع والأسر البغداديّة وكذلك مع زعماء القبائل المحيطة بمنطقة الكاظميّة سواء كانت شيعيّة ام سنيّة، حضريّة ام بدويّة او ريفيّة؛ هذا التنوّع قد اعطاه افقا واسعا وحكمة في التفكير وفي اتخاذ الاحكام والقرارات السديدة لا سيّما في القضايا الوطنيّة والسّياسيّة مثلما أعطته علاقاته المتينة والمتنوّعة مساحة واسعة وحريّة في التحرّك حتى اصبح واحدا من ابرز زعماء الصّفوة الوطنيّة العراقيّة طيلة حياته.

لقد وظف السيّد محمد الصّدر علاقاته المتنوّعة لتوحيد صفوف الوطنييّن من العناصر السنيّة والشيعيّة في المناسبات العامّة المشتركة كاقامة حفلات المولد النبوي والتعازي الحسينيّة المختلطة بين كافة الطوائف والمكونات العراقيّة، (حتى انه كان يأتي من الكاظميّة متوجها الى دار السّويدي ومعه عدد كبير من المواكبين وفي ايديهم الشموع وهم يصدحون بكلمة - لا اله الا الله - حتى يكتمل الجمع في دار السّويدي وتلقى الخطب وتتخذ المقررات.)

(توفيق السّويدي/وجوه عراقيّة عبر التاريخ/ط 1 - لندن/ص 40).

لقد استخدم السّيد محمد الصدر مكانته الرّوحيّة وموقعه والاجتماعي وعلاقاته المتميّزة لخدمة وطنه وشعبه وامّته، فكان نشطا شجاعا متحديا العدوّ البريطانيّ منذ احتلاله بغداد سنة 1917، ولم يعرف عنه التزلف او المسايرة اثناء حركة الاستقلال الوطني الذي كان احد كبار قادتها. قاد المظاهرات والاجتماعات التي كانت تطالب بالاستقلال، وكان احد رجال الصّفوة الذين اسسّوا (حزب حرس الاستقلال) سنة 1919 واختير السيّد محمد الصّدر رئيسا له وكان اوّل حزب وطني عراقي يضمّ بين صفوفه السني والشيعي ومن جميع انتماءات ومكوّنات الشعب العراقي.

لقد حاربت الادارة العسكريّة المحتلّة هذا الحزب بعنف وبدون هوادة والقت القبض على من استطاعت القبض عليه وأعدمت كوكبة من اشجع نشطائه منهم (مجموعة المجاهد الشهيد عبد المجيد كنة) وتفرّق الباقون ما بين اسير وسجين ومنفيّ خارج وطنه. واستطاع السّيد محمّد الصدر شانه شان امين سرّ الحزب محمد جعفر ابو التمّن ورفيق دربه علي البازركان وصديقه الاقرب الشيخ يوسف السّويدي الذين لجاوا الى مناطق ثورة العشرين في الفرات الاوسط، بينما اختار السّيد الصدر ساحة اخرى من ساحات ثورة العشرين الكبرى وهي مناطق ديالى شرق بغداد، حيث حمل البندقيّة وقاتل وكان احد قادتها وكبار رموزها، وحينما أخمدت ثورة دلتاوة توجّه السّيد الصدر الى جهات الفرات الاوسط ثائرا ومقاتلا. وحينما أخمدت نار الثورة تماما، خرج مع عدد من قادة الثورة والاحرار المجاهدين وتوجّهوا نحو الشام عبر صحراء نجد حيث تعرّضوا الى مخاطر السلب والنهب من قبل البدو الغزاة (الوهابيّن) ومضوا شمالا حتى دخلوا سوريا في تشرين الثاني 1920، ومن سوريا توجّه السيّد الصدر الى مصر حيث التقى مع قادة اخرين ثمّ توجهوا من هناك الى جدة للقاء الشريف الحسين بن علي.

وبعد اعلان الحكومة العراقيّة المؤقتة العفو العام عاد السيّد محمد الصّدر بصحبة الامير فيصل بن الحسين ليبدا مشوارا جديدا صعبا اخر لبناء المملكة العراقيّة سويّة مع صفوة زعماء اخرين. ولم تجر امور بناء المملكة بالسّهل وانما بالممكن المتيسّر وبقي يصارع من اجل العراق حتى اشتدت عليه الظروف السّياسيّة وطلب منه الخروج من العراق، فقصد ايران في اب سنة 1922 وبقي هناك سنة وعشرة شهور ثمّ عاد الى وطنه ليعاود جهاده ويساهم في بناء العراق الحديث من خلال دعمه للمؤسسّات البرلمانيّة الحديثة النشأة فاختير عضوا في مجلس الاعيان في 16 تموز1925 وبقي في خدمة العراق عضوا في مجلس الاعيان ثمّ اصبح رئيسا له منذ 2 تشرين الثاني 1929 وبقي رئيسا للمجلس خلال فترات متقطعة حتى اخر ساعة من حياته. وبسبب حكمته ومكانته في اوقات الازمات والظروف العصيبة، فقد كلف برئاسة مجلس الوزراء للفترة من 29 كانون الثاني 1948 ولغاية 26 حزيران 1948. كما تولى رئاسة هيئة الوصاية على العرش مرارا متعدده في غياب الوصي على العرش الامير

عبد الإله ومنذ تنصيب فيصل بن الحسين ملكا على العراق، اصبح السّيد محمد الصّدر من اقرب المقربين من مجموعة الصّفوة الشريفيّة للعائلة المالكة رجالا ونساءا وموضع ثقتهم واسرارهم.

لم يكن السّيد محمد الصّدر عالم دين متزمّت او متكلف الوقار في كلامه او في تعامله. فعلى الرّغم من مظهره المهيب في طوله وطلعته وزيّه وكعالم دين، فانّه كان سهلا متواضعا مخلصا في علاقاته مع اصدقائه، يتفقد جميع معارفه دون تمييز او محاباة.

كان منذ بداية شبابه مولع بالفروسيّة والقنص والصّيد والرّماية، وقد حدثني في لندن من أثق بصدقه عام 1989 انه راى بندقيّة الصّيد العائدة للسيّد محمد الصدر(المطعّمة برقائق الفضة وذات نقش مميّز ومعروفه لدى جميع معارفه واصدقائه) بحوزة احد كبار المسؤولين انذاك (برزان التكريتي الذي يعتبر نفسه من الصّفوة الجديدة) في نادي الصّيد ببغداد سنة 1983، وحينما سُئل برزان من اين حصلت عليها، قال بانه غنمها (من بيت احد اعدائنا) علما بانّ السّيد محمّد الصّدر قد توفي في بغداد في 3 نيسان 1956. عند وفاته رثاه محبّوه وعدد كبير من كبار الادباء والشعراء منهم الشيخ سليمان الظاهر عضو المجمع العلمي في دمشق بقصيدة مطلعها:

نور النبوّة من جبينك يصعد ن لم تكن طه فانت محمّد

ورثاه الشيخ الدكتور مهدي البصير بقصيدة جاء فيها:

وقد كلا الدّين الحنيف محمد كما ناضلت دون العرين ضراغمه

تسلحّ، لكن بالفضائل، فكره ليقضي على الرّوح الذي لا يلائمه

يقوم بما يوحي اليه ضميره وان عرضت صيد الرجال تقاومه

رضيناه محمود النقيبة مصلحا اذا جلّ امر راعنا متفاقمه

كما قال فيه الشيخ محمد اسد الله الكاظمي:

بلغت السّما عزا وفقت السّهى قدرا وطال بادنى مجدك الانجم الزّهرا

وأرغمت اناف الاعادي بهمّة لؤيّ سمت مجدا وطالت بها فخرا

وقال فيه العلامة الشيخ رضا ال ياسين قصيدة مطلعها:

قدم الزعيم واقبل العمل فاليوم لا وهن ولا كسل

قدم الزعيم فحيّ موكبه حيث الرجاء يسير والامل

واذا اطلّ بنور طلعته فقل: السّلام عليك يا بطل

ورثاه محمد رضا شرف الدين:

صدر النديّ خلا فاين محمد؟ هيهات يملا جانبيه سيّد

يا من فقدناه، واحدا في دهره انا فقدناه عالما بك يسعد
انا فقدنا فيك جامع حيّنا سيّان منّا مؤمن او ملحد

كما رثاه الشاعر جميل احمد الكاظمي بقصيدة جاء فيها:

يا حامليه، رويدا تحت محمله على الرّؤوس، فقد حملتم البطلا
ما كان اثقله يوم الرّحيل هدى والمجد والفضل في اعواده ثقلا
ان خفّ ماخفّ الا في الوغى ذربا سيفا بكفّ اله الكون قد صقلا

ورثاه الشاعر الكبير خليل مطران بقصيدة طويلة مطلعها:

روّعت بالفراق بعد الفراق وبها مابها من الاشواق
"بعلبك" تبكي وليدا تردّى نازحا واحتوته ارض "العراق"
الحق اليوم "فيصلا" فلقد كنت......لخير الملوك خير الرّفاق

(د.علي الوردي/لمحات اجتماعيّة/ط1 1977-/ج5/ص97)
(توفيق السويدي/وجوه عراقيّة عبر التاريخ/ط 1 – لندن40/1987 42-)
(مير بصري/اعلام السّياسة/ط 1- لندن 110/1987 – 113)
(مذكرات رستم حيدر/تحقيق نجدة فتحي صفوة/ط-1 1988/ص 821)

ناجي شوكت

هو محمد ناجي بن محمد شوكت باشا بن رفعت بك بن الحاج احمد اغا الذي كان رئيس شرطة بغداد (ينيجري اغاسي). ولد في مدينة الكوت الواقعة شرقي نهر دجلة جنوب بغداد بتاريخ 25 اذار 1893 وكان والده انذاك فيها يشغل القائم مقاميّة. والدته فاطمة بنت راغب بك اكبر انجال سليمان فائق بك (المؤرّخ العراقي الشهير) ابن الحاج طالب كهية الوالي داود باشا. انهى دراسته الابتدائيّة في مدينة الحلة حيث انتقل اليها والده كقائم مقام، ثم انهى الاعداديّة في بغداد، وحينما انتخب ابوه نائبا في مجلس المبعوثان في إستامبول صحبه معه لاكمال تحصيله العالي فيها حيث درس الحقوق وتخرج منها سنة 1913. وحينما عاد لوطنه العراق عيّن بوظيفة (معاون المدّعي العام) في محكمة بداءة الحلة في شهر شباط 1914. التحق بكليّة الاحتياط عند اعلان الحرب العالميّة الاولى في 14 ايلول 1914، وتخرج برتبة وكيل ضابط حيث الحق بفوج حراسة موقع بغداد الذي ساهم بمطاردة القوات البريطانية المنسحبة (بقيادة الجنرال طاونزند) من منطقة سلمان باك الى الكوت في 3 كانون الاول 1915 حيث حوصرت ثمّ وقعت في الاسر. وقد اصيب ناجي شوكت بجروح بليغة في المعركة قرب منطقة علي الغربي ونقل على اثرها الى بغداد حيث عولج وشفي ورفع الى رتبة ملازم ثاني ثمّ عيّن مرافقا لقائد الطيران الالماني في الجيش العثماني السّادس. وبعد انتصار القوّات البريطانيّة

فيما بعد، وقع ناجي شوكت اسيرا وارسله الإنكليز مع بقيّة الاسرى الى معتقل بلاري في حيدر اباد بالهند في اذار سنة 1917.

سمع ناجي شوكت وهو في الأسر بانطلاقة ثورة الشريف حسين بن علي على الاتراك، وانّ بريطانيا لا تمانع من يريد من الضباط العرب الاسرى لديها من الانضمام لقوّات الثورة ويذكر ناجي شوكت في مذكراته " .. وقد انتهزت هذه الفرصة فالتحقت بالثورة المذكورة، وعينت مرافقا لقائد الفرقة الاولى للجيش النظامي العربي الذي كان يقوده الامير فيصل.. " وقد اشترك ناجي شوكت في معركة معان، ومن هناك ارسل بمهمّة خاصّة الى العراق وكذلك الى القاهرة، كما عيّن في دمشق مستشاراً حقوقيّاً في ديوان الشورى الذي كان يرأسه ياسين الهاشمي (في كانون الاوّل 1918). (ناجي شوكت/سيرة وذكريات ثمانين عاما/ط2/ص12-11)

رجع ناجي شوكت الى بغداد في الاوّل من حزيران سنة 1920، ويروي في مذكراته انه ساهم في النشاطات الوطنيّة التي كان يقودها (حزب الحرس) وانتمى الى هذا الحزب الذي اخذ على عاتقه التمهيد لاشعال الثورة ضدّ الاحتلال البريطاني (ناجي شوكت/المصدر/ص13) الا انّ هذا الادعاء يتناقض مع السطور التي تتبعها مباشرة والتي يؤكد فيها على انّ الإنكليز عيّنوه عضوا في لجنة اعداد قانون الانتخابات للمؤتمر العام الذي يقرر مستقبل البلاد السياسي. ثمّ عيّن بمناصب اداريّة رفيعة متتابعة (ناجي شوكت/المصدر/ص15-13). وكما يبدو من دراسة سيرته الذاتيّة، انّ فيه قلقا مستمرّا واضحا (فكريّا وعمليّا) جعله متذبذبا ما بين التطرف الذي كانت تقوده صفوة العناصر الوطنيّة والقوميّة المعارضة، والاعتدال الذي كانت تقوده صفوة العناصر الوطنيّة المعتدلة التي تؤمن بضرورة التعاون مع دولة كبرى قويّة متقدمة من اجل رفعة العراق وتطويره كبريطانيا. وبقي ناجي شوكت هكذا قلقا مخلصا ووطنيّا عراقيّا حتى يوم وفاته في بغداد في 11 اذار1980.

جميل المدفعي

وهو جميل بن محمد عباس اغا ولد في مدينة الموصل سنة 1890. كان ابوه ضابطا بغداديا في الجيش العثماني برتبة يوزباشي (رئيس) من اصل كردي. امّا والدة جميل فهي عربيّة من عشيرة (البو فرج). درس في المدرسة العسكريّة ببغداد ثم اكمل دراسته العسكريّة في إستامبول – قسم الهندسة العسكريّة وتخرج ضابطا سنة 1911/قسم المدفعيّة وعيّن بالفيلق السّادس بالبلقان. شارك في حرب البلقان واسره اليونانيّون سنة 1912، وحين عقد الصّلح اطلق سراحه وارسل الى بغداد للخدمة ثمّ عيّن مدرسا لقسم المدفعيّة في المدرسة العسكريّة واختصاصه هذا (المدفعي) هو الذي منحه كنيته الدّائمة. ومن بغداد نقل الى الموصل، وكان فيها حينما أعلنت الحرب العالميّة الاولى سنة 1914 فذهب مع القوات التركيّة المنسحبة

وشهد معارك في مناطق ققفاسيا وامضى فترة في العاصمة إستامبول. ارسل الى ساحات سوريا وقاد فوج المدفعيّة في فلسطين وجرح في معركة في غزة ووقع في الأسر، وكغيره من الضباط العراقيين التحق بجيش الثورة الزاحف من الحجاز بقيادة الامير فيصل. خاض عدة معارك كمدفعي في مواقع سمنة ومعان والجردونة ودرعا وخربة والغزالة حتى دخل الشام وعيّن امرا لموقع دمشق ثم مستشارا عسكريّا للامير فيصل برتبة عقيد.

عرف جميل المدفعي باعتداله ومحاولته توحيد صفوف الحركة الوطنيّة العراقيّة، فقد ذهب الى بغداد في تموز 1919 بصحبة ابراهيم كمال واحمد جلميران لتوحيد الجهود بين الحزبين (العهد والحرس) السريّين المختلفين ولكنه فشل في مهمته مما نتج عنه انحلالهما ووقوع غالبيّة اعضائهما في الحبس والنفي.

اشتهر جميل المدفعي بقيادته من دير الزور لحركة عسكريّة وشاركه في العمليّة ضابطان عراقيّان هما علي جودت الايوبي وتحسين علي واتجهت نحو تلعفر القريبة من الموصل في 4 حزيران 1920 واصطدمت قواتهم مع القوّات البريطانيّة ولكن قوّته انسحبت وحكم عليه بالاعدام في العراق غيابيّا حيث ذهب الى دمشق وبقي فيها على الرغم من سقوط ملكيّة فيصل على ايدي الفرنسيين. وفي سنة 1921 ذهب الى عمّان وخدم في امارة الامير عبدالله الذي عيّنه متصرفا لمدينة الكرك ثم مديرا للأمن العام ثمّ متصرّفا للسلط. وفي سنة 1923 صدر عفو عنه فتوجه الى بغداد حيث عيّن متصرفا (محافظا) في المنتفق في 29 كانون الاوّل،1923 ثمّ في العمارة في 4 شباط 1923 ثم في الديوانيّة في1 حزيران 1927 ثمّ في ديالى في 10 كانون الاول 1927 ثم في بغداد في 26 حزيران 1928. (مير بصري/ المصدر/ص 155)

يعتبر جميل المدفعي اكثر رجالات الصّفوة الشريفيّة خبرة وتجربة في شؤون العراق الداخليّة بسبب كثرة المناصب الاداريّة التي تبوّءها وتنوّع اختصاصاتها حتى يوم تسلمه وزارة الداخليّة في 23 اذار1930. كما ازداد خبرة في شؤون البرلمان، فقد دخل مجلس النواب تارة نائبا، كما انتخب رئيسا له ولمجلس الاعيان عدة مرّات ولهذا اصبح مؤهلا لرئاسة الوزراء لاوّل مرّة في 9 تشرين الثاني 1933. كما اصبح مؤهلا لمواجهة اصعب الظروف والازمات السّياسيّة التي تعرّض لها العراق؛ فقد دعي لتأليف وزارته الرّابعة في 17 اب 1937 بعد اغتيال الفريق بكر صدقي قائد انقلاب 1936 واستقالة وزارة حكمت سليمان (الإنقلابيّة) حيث اصبح المدفعي رئيسا للوزارة وتقلدّ وزارة الدفاع وكالة فنجح في تهدئة الجيش وطمأنة الملك والسّياسيين والشعب انذاك. وفي الازمة الخطيرة التي تعرّض لها العراق وامن شعبه بعد انهيار حركة رشيد عالي الكيلاني كلف المدفعي ايضا لتأليف وزارته الخامسة في 2/حزيران 1941 فاعاد للعراق امنه وحفظ استقلاله. ان منهج جميل المدفعي واسلوبه الناجح في العمل السّياسي يمكن اعتباره مدرسة متميّزة تتناسب تماما مع مزاج السّياسيين والقوى السّياسيّة في المجتمع العراقي. وقد اثبتت الاحداث البعيدة والقريبة

حاجة العراق الى قيم ومباديء واسلوب جميل المدفعي في عمل ماكنة الدولة العراقيّة من جهة والتنظيمات والمؤسسات السّياسيّة فيه من جهة اخرى، لقد بقي جميل المدفعي متميّزا عن بقيّة رفاقه من رجال الصّفوة الشريفيّة حتى وفاته ببغداد في 26 تشرين الاوّل 1958. كان المدفعي موضع الاحترام والتقدير لكافة مكوّنات المجتمع العراقي لكفاءته ولانسانيّته، وقد مدحه العلامة اللغوي الكبير مصطفى جواد بقصيدة جاء فيها:

ضرع العراق اليك في اماله من بعد خيبته وسوء ماله

واوى اليك، وقد عرته مخافة في ماله ورجاله ومجاله

اعيت مقاصده الفحول فلم يجد بعد الحبوط سواك في تسأله

يا ايّها الشهم الهمام ابا المضا واخا الحجى في سلمه وقتاله

بوركت من ندب وملجا امّة ما اده امر لبعد مناله

لك في الرزانة والحصافة شهرة سيسوقها التاريخ في امثاله

نماذج من الصّفوة الليبراليّة العراقيّة

كامل الجادرجي

وهو كامل بن رفعت من عائلة بغداديّة تعرف بالجادرجي (صناعة وتجارة الخيام – الجوادر)، وقد ولد في عام 1897 م وتوفي فيها عام 1968، اسرته من الصّفوة الاجتماعيّة المرموقة اذ كان ابوه، رفعت الجادرجي ثريّا وله املاك ومزارع وبساتين. كما تولى امانة العاصمة لبغداد عدّة مرّات في العهد العثماني. وبعد الاحتلال البريطاني للعراق اصبح رفعت (والد كامل) احد اقطاب المندوبين الخمسة عشر الذين قدّموا مذكرة الى السير ولسون الحاكم العسكري العام في العراق تضمّنت ضرورة انشاء حكومة وطنيّة بدلا من الحكم البريطاني المباشر. كما عرف عنه (رفعت الجادرجي) تعاطفه مع الاتراك، وبدعوته الى مقاومة الإنكليز والتحالف مع جيش مصطفى كمال اتاتورك. نفاه البريطانيّون الى استامبول بعد انتهاء ثورة العشرين الكبرى، ثم عاد الى بغداد بعد صدور قرار العفو العام الذي اصدرته الحكومة العراقيّة المؤقتة في 30 كانون الثاني 1921، حيث توفي في بغداد في 21 كانون الثاني 1926مخلفا ثلاثة اولاد وبنت واحدة وهم: رؤوف الجادرجي وهو الاخ الاكبر لكامل من ابيه، وامّه من عائلة النقشلي وقد كان من ابرز رجال الصفوة المثقفة في المجتمع البغدادي وشخصيّة سياسيّة عالية الثقافة يتقن اللغات الفرنسيّة والالمانيّة والإنكليزيّة. امّا كامل وصبيحة وسليمان فهم من الزّوجة الثانية وهي وفيقة بنت رشيد الدّفتري.

درس كامل الجادرجي الابتدائيّة والاعداديّة في بغداد وتخرج فيها من كليّة الحقوق وصار محاميا ثمّ عيّن سكرتيرا لمتصرّف (لمحافظ) بغداد، ثمّ معاونا لوزير الماليّة لشؤون البرلمان في

عام 1926. بدا حياته السيّاسيّة عام 1927 حينما انتخب نائبا في البرلمان العراقي ممثلا عن حزب الشعب الذي كان يرأسه ياسين الهاشمي. مارس الصّحافة واصدر العديد من الصّحف منها "الاهالي" و "صوت الاهالي" و "صدى الاهالي" وجميعها كانت معارضة (د. محمد الدليمي/كامل الجادرجي ودوره في السّياسة العراقيّة/ط1 - 1999/ص9 - 11، ص23-22).

في عام 1930 انضمّ كامل الجادرجي الى حزب "الاخاء الوطني" الذي كان يتزعمه ياسين الهاشمي واصبح عضوا في لجنته المركزيّة.ثمّ اصبح وزيرا للاشغال في حكومة حكمت سليمان عام 1936م.

ثمّ صار رئيس الحزب الوطني الديمقراطي وبقي في رئاسته حتى يوم حلّه. كان زعيما لبراليّا وعاش معارضا وخصما عنيدا لنوري السّعيد. كان اقرب اصدقائه اليه محمد حديد وحسين جميل وعبد الفتاح ابراهيم وهم المجموعة الليبراليّة وقادة الديمقراطيّة الاشتراكيّة في العراق الملكي. مهّد فكريّا وحركيّا وبالتحالف مع حزب الاستقلال ومع الحزبين السّرييّن (الحزب الشّيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي ضمن جبهة الاتحاد الوطني لعام 1957) الاجواء السّياسيّة التي شجّعت مجموعة عسكريّة في تنظيم "الضباط الاحرار" لمباغتة النظام الملكي والاطاحة به بضربة خاطفة بنجاح في انقلاب 14 تمّوز/يوليو1958. ولكنّ الجادرجي لم يستطع ان ينسجم مع قائد الانقلاب الزعيم الرّكن عبد الكريم قاسم ومجموعته العسكريّة على الرّغم من ان الاخير قد عرض على الجادرجي تولّي رئاسة اوّل حكومة بعد انهيار اخر حكومة ملكيّة في العراق. وبذلك نجد انّ الجادرجي يكرّر الخطا ذاته الذي ارتكبه بمساهمته في انقلاب بكر صدقي عام 1936، ويدفع ثمن تشجيعه الجيش للتدخل بالسّياسة واختراقه لحرمة الدّستور وشرعيّة البرلمان. قام بتجميد حزبه ايام عبد الكريم قاسم في عام 1961، ثمّ ناى بنفسه بعد ذلك تدريجيّا عن ممارسة السّياسة حتى يوم وفاته.

صفوة مراجع الدّين

تمهيد

على الرّغم من انّ الدّين ظلّ يشغل الحيّز الاكبر في التاريخ العربي والاسلامي طيلة القرون الماضية ولا يزال، الا انّ عوامل اخرى داخليّة او خارجيّة قد تقفز وتحتلّ المرتبة الاولى في التأثير المباشر على مسيرة وتاريخ العرب والمسلمين. ومع ذلك فانّ العديد من الباحثين والمؤرّخين العراقييّن ـ لا سيّما في العقود الثلاثة الاخيرة من السنين ـ يحاولون تطويع او(قولبة) الاحداث التاريخيّة والتحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة وتفسيرها وفق تحليلات تخدم قناعاتهم أو انتماءاتهم الحزبيّة (الاسلاميّة)، شانهم في هذا شان الاحزاب والتنظيمات السّياسيّة الليبراليّة كالماركسييّن واللينينييّن والقومييّن (من اليمين واليسار) وكافة العلمانييّن اللذين لطالما ألبسوا الرّموز التاريخيّة الاسلاميّة لبوسهم العقائديّة، ومنحوها هويّات الانتماء

الى ايدولوجيّات حديثة لاحزابهم ومعتقداتهم حيث نعتوا الرّسول (ص) وعليّ بن ابي طالب عليه السّلام أئمّة الاشتراكيّة وابو ذر الغفاري وعمّار بن ياسر(رض) شيوعيّان والخليفة عمر بن الخطاب(رض) قومي عربي وهكذا....

لقد افرز التشدّد والتعصّب للايدولوجية وللعرق القومي لدى العديد من المؤرّخين نظرة منحازة، ونزعة انتقائيّة في قراءة الاحداث ومن ثمّ الحكم عليها ممّا ولّد عدوانا على المنهج العلمي والتحليل الموضوعي المطلوب والضروري في كتابة التاريخ. حتىّ اصبح منهج المؤرّخ او الباحث معروفا لدى القاريء ـ قبل الكاتب او المؤرّخ - فيقرّر القاريء هويّتة (بانّ هذا مؤرّخ او باحث اسلامي او ذاك قومي او شيوعي منحاز...الخ). وفي خضم الصراعات الفكريّة ما بين مهاجم ومدافع عن افكاره ومنحاز بتعصّب لوجهات نظره (ايّا كان ذلك الدين او المذهب فيه) نجد الباحث او المؤرّخ يصبح اسير انحيازه على الرّغم من انّ جوهر الاسلام المتمثل بالتنزيل الإلهي المقدّس قد منح المؤرّخ او الباحث في مسيرة التاريخ الانساني مساحات واسعة من الحريّة في التفكير والتحليل واستخلاص النتائج من السّنن التاريخيّة. وللامام المرجع الشهيد السيّد محمد باقر الصّدر كتابا مرشدا ومعلمّا في هذا الباب هو كتاب ـ المدرسة القرانيّة ـ اقتبس منه نصّا في بحث مسالة تاريخيّة والحكم فيها وفق المنهج العلمي اذ يقول:

((.... المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعيّة للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض ان ينتصروا، وخسروا المعركة في احد حينما كانت الشروط الموضوعيّة في معركة احد تفرض عليهم ان يخسروا المعركة. "إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الايّام نداولها بين الناس" ـ آل عمران/140، لا تتخيّلوا ان النّصر حق طبيعي لكم بقدر ما يمكن ان توفرّوا الشروط الموضوعيّة لهذا النصر بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيّا لا تشريعيّا، وحيث انكم في غزوة احد لم تتوفر لديكم هذه الشروط ولهذا خسرتم المعركة. فالكلام هنا كلام مع بشر، مع عمليّة بشريّة لا مع رسالة ربانيّة)). (محمّد باقر الصّدر/ المدرسة القرانيّة/ط 2/بيروت/ص50).

ويمضي الامام الشهيد السيّد الصّدر في واجبات الجماعة البشريّة (بما فيهم صفوة الامّة والمجتمع) تجاه القيام بدورهم الاساسي في تحمّل مسؤوليّة التغيير المطلوب بالجهد والعمل مهما كانت التضحيات وغلا ثمنها، فيقول في ص51 من المصدر:

"... بل يذهب القران الى اكثر من ذلك، يهدّد هذه الجماعة البشريّة التي كانت انظف واطهر جماعة على مسرح التاريخ، يهدّدهم اذا لم يقوموا بدورهم التاريخي، واذا لم يكونوا على مستوى بمسؤوليّة رسالة السّماء فانّ هذا لا يعني ان تتعطل رسالة السّماء، ولا يعني ان تسكت سنن التاريخ عنهم بل انهم سوف يستبدلون، سنن التاريخ سوف تعزلهم وسوف تأتي بامم اخرى قد تهيأت لها الظروف الموضوعيّة الافضل لكي تلعب هذا الدّور، لكي تكون شهيدة على النّاس اذا لم تتهيأ لهذه الامّة الظروف الموضوعيّة لهذه الشهادة: (..الا تنفروا

يعذبكم عذابا أليما، ويستبدل قوما غيركم ولا تضرّوه شيئا والله على كلّ شيء قدير..) التوبة/39..". (..يا ايّها الذين امنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه اذلة على المؤمنين اعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم..) المائدة/54..".(محمد باقر الصّدر.../ المصدر../ص 51-50).

لقد اكدّ القران المجيد في مواضع كثيرة على واقع الانسان في صفاته الطبيعيّة التي تؤثر على مسيرته فردا كان ام جماعة، الانسان في ضعفه وقوّته، في استقامته وانحرافه، في الظروف الواقعيّة التي تحيط به وتؤثر على سلوكه سواء كان سياسيّا ام حرفيّا ام عسكريّا... الخ. فلا مكان للجامد الغير منتج، المستهلك الغير عامل، سيّما اولئك الذين تمكنوا من ثروات الامّة واستأثروا بخيراتها الطائلة وهم مستأمنون عليها.

ولهذا فان حبّ الانسان للّه تعالى ولدينه ليس باداء الشعائر الواجبة والمستحبّة، أو التظهار بالتديّن وبالانحياز المتعصّب للدين بشكل غير موضوعي فقط، بل بطاعة الله تعالى والامتثال لاوامره ولنواهيه عمليّا بالقول والفعل "يا ايّها الذين آمنوا لم تقولوا ما لا تفعلون... كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون...". (الصّف/2).

وعلى الرّغم من انّ المؤسسّات الدينيّة في العراق على اختلاف مذاهبها تسعى جميعها في الظاهر المعلن الى تحقيق (حكم الله كما جاء في كتابه القران المجيد)، وهو اله واحد ونبيّ واحد وكتاب واحد نصّا وروحا، الا انّ الاستقطاب الطائفي كان ولا يزال هو السّمة الرئيسيّة والاكثر وضوحا على التنظيمات والاحزاب وقياداتها الاسلاميّة في العراق. فلا تجد عضوا واحدا من اعضاء ايّ حزب ينتمي الى مذهب مخالف لمذهب الحزب الذي ينتمي اليه. بل لا يوجد تحالفا ثنائيّا او جبهويّا يوحّد التنظيمات الاسلاميّة واحزابها في ميدان العمل السّياسي. عدا ما يلاحظ على صفوة جميع القيادات للتنظيمات الاسلاميّة من ادب جمّ وطراوة الحديث والكلام المنمّق والتقبيل الذي اشتهروا به حينما يلتقي الحزبيّون الاسلاميّون على اختلاف مذاهبهم، قادة وافرادا، في مناسبة او اجتماع او في ايّ نشاط خاص او عام. وقد اطلق الاستاذ عدنان عليّان رحمه الله على المجموعتين باعتبارها مدرستين اسماهما: مدرسة الخلافة ومدرسة الامامة...، (د.عدنان عليّان/الشيعة والدولة العراقيّة الحديثة/ط1/ ص270)، وان كان الاقرب للواقع والأجدر تسميتهما بشكل صريح بمسمّياتها، التنظيمات والاحزاب السنيّة والشيعيّة.

وانه لجدير بالملاحظة انّ اغلبيّة النشاطات السّياسيّة والاجتماعيّة العراقيّة كانت فعلا موحّدة وقويّة (السنيّة والشّيعيّة طيلة العقدين الاوّلين من القرن العشرين)، ولكن ومنذ مجيء المندوب السّامي البريطاني السير بيرسي كوكس للعراق في أكتوبر عام 1920 كما اشرنا سابقا، واتبّاعه سياسة تهميش الطائفة الشيعيّة في الحكم وابعادها عن المناصب السّياديّة والحسّاسة في الدولة الجديدة، بدا الاستقطاب يتبلور تدريجيّا بين الطائفتين. وقد عبّر الشيعة

عن (مظلوميّتهم) شعرا ونثرا وبعرائض كانت تقدّم الى الملك فيصل الاوّل والى ابنه غازي الاوّل من بعده، ثم أخذت تتصاعد مشاعر الحسد والغضب لديهم، الخفيّ والمعلن، على مرّ السنين وتركت اثارها السّيئة على المجتمع العراقي الذي لم يشف منها حتى اليوم. حتى اصبح واضحا انّ المؤسسّات الدينيّة والاحزاب (الاسلاميّة) في العراق قد غدت مذهبيّة - طائفيّة اكثر منها دينيّة اسلاميّة على كافة مستويات الانشطة والفعاليّات السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، الامر الذي اعطى اسهل الفرص الذهبيّة واقوى العوامل الميدانيّة للقوى الاستعماريّة المتربّصة والجاهزة للنهب لتسهيل عمليّة احتلال العراق من جديد عام 2003 م من قبل اعدائه والطامعين بكنوزه وثرواته.

لقد قرّرت ادارة الانتداب البريطاني منذ عام 1920 انشاء الدولة العراقيّة الحديثة على النمط العلماني الأوروبي وابعاد ايّ اثر فاعل للدين الاسلامي في مؤسسّات الدولة الجديدة وانظمتها وقوانينها على الرّغم من الاهتمام المعلن بالمظاهر الاسلاميّة العامة والطقوس الدينيّة كيف ما تكون وحيثما توجد في العراق. وكان جزءا من المنهج العام منذ بداية تشكيل الدولة العراقيّة تشجيع ظاهرة ابتعاد المؤسسّات الدينيّة والحوزويّة وعزوفها عن السّياسة وتقوية الاحزاب العلمانيّة بشكل مباشر او غير مباشر، حتى اصبح المهتمّون بالسّياسة وبمستقبل البلد من قبل كبار العلماء (كالشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء والشيخ امجد الزهاوي والشيخ محمّد محمود الصوّاف) قليلون ويضعهم علماء السلطة وكتابها في موضع اتهامات بالطموح والاطماع الدنيويّة والغايات الخاصّة، وقد انشا اولئك العلماء حركات وتنظيمات سياسيّة (كحركة الاخوان المسلمين في العراق التي تأسست عام 1948 ومن ابرز قياداتها الشيخ تحسين عبد القادر والشيخ محمد محمود الصوّاف وعلي فاطن وعبد الرّحمن الشيخلي وعبد الغني شندالة ومحمد فرج السّامرّائي) وكذلك حزب التحرير الاسلامي الذي تأسس في الخمسينيّات وكان من ابرز قياداته الشيخ الشهيد عبد العزيز البدري وصالح سريّة وابو علي الدبّوني ونزار النائب وابراهيم مكي ابراهيم ومحمد الكوّاز وطالب عبدالغني الشمّري (حسن شبر/العمل الحزبي في العراق- المصدر/ص-317 316).

وعلى الرّغم من قلة عدد العلماء المجتهدين الذين أظهروا اهتماما بامور السّياسة وبالشؤون الحياتيّة لافراد الامّة انذاك، الا انهم تركوا تاريخا جهاديّا حافلا:

" .. فالشيخ امجد الزهاوي عالم العراق، وهو بركة العصر. ما اعرف مثله في اهتمامه بامور المسلمين وحمله المشاق في سبيل القضيّة الاسلاميّة، على علوّ سنه وكثرة ماله. وانّه كان يستطيع لو شاء ان يقضي شيخوخته في راحة ودعة، ولكنه اثر الجهاد على القعود، وانفاق المال على الدّعوة على انفاقه في المتعة والرّفاهيّة..."، "...وانعقد المؤتمر في القدس، وكان (محمد محمود) الصّواف لولبه ومحرّكه لا يفتر ولا يستريح. ثم كان من ثمراته ان اوفد وفدا يطوف العالم الاسلامي، يؤسّس المكاتب لنصرة فلسطين ومساعدتها وامدادها بالمال، وكان الوفد مؤلفا من الشيخ امجد (الزّهاوي) والشيخ (محمد محمود) الصوّاف وانا...". ويمضي

الشيخ علي الطنطاوي في وصف العمل الجهادي للوقوف بوجه الموجة العلمانيّة التي شهدها العراق في الثلاثينيات حيث كان الشيخ مقيما فيه "...من سنة 1936 الى سنة 1939، فما كنت اجد من المتدينين الا طائفة من المشايخ، وما كان فيها من الجمعيّات الا جمعيّة الشبّان المسلمين وما لها من عمل الا انها تقيم كلّ سنة مهرجانا للمولد، ثمّ اذا انقضى نامت الى المولد القادم، وجمعيّة الهداية الاسلاميّة التي كان يقوم عليها الشيخ الطائي، واشهد انّ الطائي كان يتحرّق ألما لحال المسلمين في بغداد يومئذ، ويعمل كلّ ما يستطيع، تعطل الحكومة مجلة (الهداية الاسلاميّة) فيخرجها باسم (الصراط المستقيم) وكنت اكتب فيها احيانا، ونجتمع فنتشاكى ونتباكى ولكن لانقدر على شيء. فلما عدت مع الصوّاف، ودخلت دار جمعيّة الاخوّة الاسلاميّة، ووجدت الالاف من الشبان في دار(الاخوّة) وتذكرت الالاف التي رأيناها في القرى والمدن على الطريق لم اصدّق انني في بغداد، وعرفت مبلغ التوفيق الذي كتبه الله للصوّاف (الشيخ محمد محمود)، حين حقق هذا كله على يديه...". (الشيخ علي الطنطاوي من مقدمته لكتاب المخططات الاستعماريّة لمكافحة الاسلام/ط 3/1979 – للشيخ محمد محود الصوّاف). وبفضل كبار العلماء المجتهدين والشيوخ الاوائل، اصبح الجامع الملاصق لضريح الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت (رض) واحدا من اهم مراكز الدّعوة للنشاطات الاسلاميّة للتصدّي للغزو التغريبي العلماني المخالف للاسلام والمسلمين الذي انتشر بشكل وبائيّ في العراق خلال سنوات 1930 – 1952م. كما انّ منابر الخطابة والمدرسة الدينيّة في الاعظميّة ومكتبتها الغنيّة بالكتب الفقهيّة والتراثيّة كانت مصادر اساسيّة ووسائل فعالة استخدمها المدرسّون والعلماء وطلبة الدراسات الدّينيّة في تخريج الصّفوة من الشباب المسلم المؤمن الذين حملوا رايات الاوائل في العمل الجهادي وقدّموا في سنوات العقود الثلاثة اللاحقة (1958 – 1988) وما بعدها ارواحهم فداء للعراق وللقيم الاسلاميّة وفي مقدمتهم كوكبة الشهداء وعلى راسهم الشهيد العلامة الجليل عبدالعزيز البدري الذي يعتبر اوّل عالم اسلامي أعدمته الحكومة في العراق، وكان ذلك عام 1969 م. وقد الحقت به تلك الحكومة المعادية للفكر الاسلامي كوكبة اخرى من علماء اخرين؛ وهم العلامة الشهيد شفيق البدري والشهيد محمد فرج، والعلامة الشهيد عبد الغني شندالة والشهيد عبد الستار العبوسي، والعلامة الشهيد ناظم العاصي.

ولكي تكون حكومة البعث انذاك (عادلة في توزيع ظلمها) فقد أقدمت في نيسان عام 1980 م على اعدام عدد كبير من علماء الدّين الشيعة وطلبة الحوزة العلميّة ونشطائهم وفي مقدمتهم؛ المرجع الشيعي المجتهد والمفكر الاسلامي المعروف الشهيد السيّد محمد باقر الصّدر واخته العلويّة الكاتبة الاسلاميّة الشهيدة امنة الصّدر (بنت الهدى). فكان ذلك بداية الحقبة السّوداء في تاريخ العراق الحديث والتجرّؤ على مقامات العلماء وعلماء الدين (شيعة وسنّة من العرب والكرد وكافة القوميّات والديانات الاخرى) بعمليّة كانت اقرب الى مذابح جماعيّة لأسر علميّة بكاملها احيانا، ولم يستثنى من تلك الحملة كبار العلماء المجتهدين

ونسائهم وصغار شبابهم، وهي اسر لا يزال العراقيّون يعتبرونها رموزا تاريخية في العراق، كاسرة آل الصّدر وآل الحكيم وآل بحر العلوم وآل اليعقوبي وآل الحبوبي وآل الشيخ راضي وغيرهم (لقد تمّ توثيق تلك الجرائم بعدد كبير جدا من المؤلفات، ولكنّ من اهمّها هو التقرير الموثق القيّم الذي كتبه الدكتور السيّد صاحب الحكيم بمجلدّه الشهير عن حالة 4000 امرأة عراقيّة، ذكر فيه بالاسماء وبصور الضحايا وبالعناوين وبالتواريخ قصص تلك الكوارث وانتهاكات حقوق الانسان في العراق في عهد الارهاب البعثيّ ويقع المجلدّ في 931 صفحة من القطع الكبير).

الكوفة.. النجّف.. كربلاء.. الكاظميّة

على الرّغم من انّ الكوفة وما حولها من مناطق الفرات الاوسط بقيت قلب الثورات والنشاطات السّياسيّة لفترات طويلة من تاريخ الدّولة الاسلاميّة. وعلى الرّغم من انشغالها بذلك، الا انها كانت - وما زالت - ينبوع الفكر والتراث العربي/الاسلامي الاصيل. وما كان لتراث العروبة ليترسّخ في العراق عبر التاريخ، فكريّا وبشريّا لولا الكوفة والبصرة. فبعد ان امر ببنائها الخليفة عمر بن الخطاب (رض) خاطبها معرّفا العراق بها: ".. العراق بها كنز الايمان، وهم رمح الله يجزون ثغورهم، ويكفون الامصار.... يا أهل الكوفة انتم راس العرب وجمجمتها، وسهمي الذي ارمي به..". وحينما أصبحت الكوفة عاصمة الخلافة ايّام الامام عليّ بن ابي طالب عليه السّلام، خاطب الامام اهلها: ".. من أمير المؤمنين الى اهل الكوفة جبهة الانصار وسنام العرب.." وقال عنها ايضا: ".. كأني بك ياكوفة تمدّين مدّ الاديم العكاظي، تعركين بالنوازل، وتركبين بالزلازل، واني لأعلم انه ما اراد بك جبّار سوءا الا ابتلاه الله بشاغل، ورماه بقاتل.." د. علي عليّان/ الشيعة../ط1/ص 136 – 137) وقد تحققت نبوءة الامام عليّ عليه السلام بالكوفة في حوادث القرون الماضية وحتى الايّام الحاليّة.

وممّا زاد الكوفة شرفا ومكانة وجود الاضرحة المقدسة لشهداء آل بيت النبي (ص) واصحابهم في جوارها المباشر (النجف وكربلاء). وقد شيّدت فيها على مرّ العصور مدارس وحوزات علميّة تخرّج منها جهابذة العلوم الدينيّة واللغويّة. فمن الشعراء قدّمت الكوفة اجيالا من عمالقة الشعر العربي كمّا ونوعا ابتداءا من ابي الطيّب المتنبي وابي نواس والبحتري وحتى شاعرا خيرا العرب الاكبر في العصر الحديث محمّد مهدي الجواهري. واصبح للأسر وللبيوتات العلميّة في الكوفة والنجف وكربلاء علامات فارقة في العطاءات العلميّة والادبيّة تتوارث علوم الفقه والادب والشعر كابر عن كابر. وينتشر ابناؤها العلماء والشعراء خارج الكوفة سواء داخل العراق ام في بقيّة الدول العربيّة والاسلاميّة. ومنذ اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، برز عدد من العلماء ورجال الدين الذين شغلوا حيّزا كبيرا في تاريخ العراق الحديث وأصبحوا يشكلون جزءا مهمّا من الصّفوة القائدة والمؤثرّة في المجتمع العراقي. وعلى الصّعيد التنظيمي السيّاسي الحزبي تأسست حركة الشباب المسلم في النجف

عام 1950، كما انشا كل من صادق القاموسي والسّيد حسن شبّر والمجاهد الشهيد عبد الصاحب دخيل (الحزب الجعفري) والاخير وبعد ان عذبه دفعه مدير الأمن العام الطاغية (ناظم كزار) بنفسه اثناء التحقيق معه في 28 ايلول عام 1971 في حوض الاسيد في مديريّة الأمن العامّة حيث لم يبق لجسده ايّ اثر.

وعلى الرّغم من المحاولات الجادّة من قبل عدد من القيادات الاسلاميّة لتأسيس احزاب وتنظيمات على غرار التنظيمات العلمانيّة طيلة الخمسين سنة الماضية، الا انّها لم تنجح في التأثير المباشر على الجمهور كتنظيمات، بل كانت قوّتها ومدى تأثيراتها تتحدّد برموز ذلك التنظيم وقياداته من حيث المستوى العلمي وقوّة شخصيّته وحضوره الفاعل (الكاريزما). ولذا نجد ذبول تنظيم الاخوان المسلمين في العراق بغياب الصوّاف والبدري والسّامرائي والاعظمي. كما اصبح حزب الدعوة الاسلاميّة بعد استشهاد قياداته الاولى وعلى راسهم الشهيد السيّد محمد باقر الصّدر باهتا كما اخذ يفقد بريقه الاخاذ في مجرى الانقسامات الداخليّة وتناقض المصالح الشخصيّة الفئويّة في السنوات الاخيرة. لقد اثبتت الوقائع والاحداث البعيدة والقريبة، انّ العمل الاسلامي يحقق انتصارات ساحقة حينما يكون تيّارا عامّا جماهيريّا وغير حزبي، ورغبة جامحة تتجذّر في وجدان جمهور الامّة (مثلما اراد له الامام الشهيد السّيد محمد باقر الصّدر)، حيث قدمّت للامّة صفوة الصّفوة من القيادات التاريخيّة.

لقد كانت الزعامات الدّينيّة ذات الرّصيد الجماهيري اكثرهم صبرا وجلدا وتاثيرا في الاحداث في بداية القرن الماضي حيث كان من ابرزهم:

الشيخ مهدي الخالصي

وهو الامام المجاهد الشيخ مهدي بن الشيخ حسن بن الشيخ عزيز الخالصي، ولد في مدينة الكاظميّة الملاصقة لبغداد في 9 ذي الحجّة 1276 هجريّة وينتمي الى قبيلة بني اسد العربيّة. امضى دراسته الاولى في الكاظميّة التي نشا فيها وترعرع. ثم تنقل بين الكاظميّة والنجف وكربلاء، كما درس ايضا في مدينة سرّ من راى (سامراء). وبعد ان اكمل علوم الفقه واللغة

واصبح محققا معروفا، سكن مدينة كربلاء المقدّسة لفترة، ثم غادرها (في محرّم 1328 هجريّة/1920م) بتوجيه من الامام المقلد انذاك السيّد ابو القاسم الكاشاني الذي طلب من الشيخ مهدي الخالصي ان يغادر كربلاء لكي يسكن في الكاظميّة للاشراف على نشاطات الجمعيّة الاسلاميّة (التي كانت قد اسسّت لتوّها انذاك) وعلى بقيّة الفعاليّات الدينيّة كالمواكب الحسينيّة والاجتماعات. كما اخذ يمارس فيها ايضا تدريس علوم اللغة والفقه وعلم الكلام والاصول، فالتفّ حوله المزيد من الجمهور وطلبة العلوم والمريدين.

لقد برزت منطقة الكاظميّة كأشهر ضواحي العاصمة بغداد شمالا (الكرخ) روحيّا وسياسيّا نظرا لكونها احدى اهم المزارات المقدسة للمسلمين الشيعة في العراق وفي بقيّة انحاء العالم حيث تضم تربتها مرقد الامامين موسى الكاظم وحفيده محمد الجواد وكذلك مراقد لكبار العلماء والمراجع من الشيعة والسنة ايضا كمرقد الامام ابو يوسف صاحب الامام ابو حنيفة النعمان (رض). وقد أصبحت الكاظميّة بمرور الزّمن محط الرّحال لأشهر القبائل العربيّة القادمة من شبه جزيرة العرب عددا وابرزهم شجاعة حيث استوطنوها وأصبحوا اشدّ المدافعين عنها كقبائل بني تميم وشمّر وربيعة وبني اسد وطيّ، هذه القبائل التي تنتمي اليها اشهر الاسر في الكاظميّة، كاسرة الشيخ مهدي الخالصي وآل ياسين وآل الجلبي، كما ارتبطت بها اشهر عوائل الكاظميّة من السّادة الهاشميين كآل الاعرجي وآل اسد الله وال الصّدر وآل الحيدري.... (حسن شبّر/العمل الحزبي في العراق/ج1/ط1/ص77).

لقد عرف الشيخ مهدي الخالصي منذ بداية شبابه بالرّوح الوطنيّة ومقارعة الظلم والباطل والدفاع المستميت عن الاسلام والمسلمين اين ما كانوا. كما عرف عنه انه كان يمقت اسرة الشريف الحسين بن علي بسبب تحالفهم مع الإنكليز (النصارى) ضد الدولة العثمانيّة (المسلمة)،وكان ولده الشيخ محمد اشدّ مقتا لهم منه (د. علي الوردي/لمحات – المصدر/ ج6 – ص107) ويبدو ان هذا الشعور بقي فيما بعد صفة ملازمة ومتوارثة لاسرة الشيخ الخالصي ضد الاسرة المالكة الهاشميّة.

لقد وقف الشيخ مهدي الخالصي الى جانب الاتراك بقوّة وبنشاط، وجاهد مع المجاهدين ميدانيّا اثناء الحرب العالميّة الاولى كما اشرت، لاعتبارات دينيّة قد تكون مقبولة في حينها. ولكنه لم يكن معذورا تأييده لهم حتى بعد سقوط الدولة العثمانيّة وزوال حكومة (الخلافة الاسلاميّة) ومجيء نظام مصطفى كمال اتاتورك العلماني القومي الطوراني المعادي للدين الاسلامي في تركيا، وكذلك هو الذي امر بالغاء جميع المظاهر الاسلاميّة في تركيا بما فيها استخدام الحروف العربيّة واستبدالها باللاتينيّة كما امر بترجمة وقراءة القران الكريم والاذان بالتركيّة ومنع الزيّ الاسلامي للعلماء وللمرأة المسلمة. كما ان العراقيّين قد اقاموا مملكتهم (الهاشميّة العربيّة)، ولم يعد هنالك ايّ سبب للبقاء على الولاء القديم، اللهّم الا بغضا بفيصل وباسرة الشريف حسين بن علي.

لقد اشارت تقارير سريّة بريطانيّة الى نشاطات عسكريّة من قبل الاتراك في جزيرة بن عمر في البادية شمال العراق تستهدف منطقة الموصل، كما أخذوا يبثون دعاياتهم بانّه من الواجب قبول حكم الاتراك المسلمين بدل الإنكليز الكفار مستغلين المشاعر الاسلاميّة في العراق. وقد افتى بعض المجتهدين بذلك، بل انّ البعض منهم من افتى بتحريم الدفاع عن العراق ضدّ الاتراك وعلقت فتاواهم على باب صحن الامامين في الكاظميّة. كما قاموا باجراء اتصالاتهم ببعض الزعامات الوطنيّة والرموز الدينيّة منها الشيخ مهدي الخالصي وابنه الشيخ محمد وقد وقعت الكثير من رسائل الشيخ الخالصي التي كان يرسلها الى

مصطفى كمال اتاتورك في ايدي الإنكليز عن طريق جواسيسهم المندسّين في مجالس الشيخ الخالصي. (F.O.371/778)،(د.علي الوردي/لمحات..المصدر..ج6/ص214 212-).

لقد جاهد الشيخ مهدي الخالصي البريطانيين منذ ان وطات اقدامهم ارض العراق في اكثر من جبهة ووسيلة. فقد نظّم حركة الجهاد في الكاظميّة وقاد احدى كتائب المجاهدين التي قاتلت القوّات البريطانيّة حالما نزلت في البصرة سنة 1914. (محمد طاهر العمري/ تاريخ مقدرات العراق/ص 94). كما ساند الاحزاب الوطنيّة العراقيّة، التي تشكلت اثناء قيام الادارة العسكريّة البريطانيّة المباشرة (1914 - 1921)، وفي مقدمتها (الجمعيّة الاسلاميّة) وكذلك (حزب حرس الاستقلال) و(حزب النهضة) و(الحزب الوطني) وغيرها. لقد كان الشيخ الخالصي بحق السّند الاكبر لصفوة زعماء المعارضة الوطنيّة في بغداد ومؤثرا بشكل كبير على بقيّة انحاء العراق طيلة فترة الانتداب البريطاني وحتى قيام الحكومة الاولى في عهد الملك فيصل الاوّل. وكان اكثر الزعماء الوطنييّن ارتباطا به، الزعيم الوطني البغدادي محمد جعفر ابو التمّن وحزبه (الحزب الوطني). وكذلك كان تأثيره واسعا على شخصيّات وبيوتات اخرى كال السّويدي وال كبّة وال ياسين والسيّد محمد الصدر وعلي البازركان وغيرهم. وعلى الرّغم من اتساع جمهوره وشعبيّته، الا انّه بذكائه المميّز كان يعلم انه لم يكن بالزعيم المطلق الارادة والنفوذ. ولهذا اخذ يتعامل بحكمة وبواقعيّة مع كافة مكوّنات وانتماءات افراد الصّفوة العراقيّة. وكان الامتحان الاكبر لقوّة مركزه هو الموقف العام من اختيار المرشح المناسب لعرش العراق.

لقد كان الخالصي يعلم تماما مواطن القوّة عند المرشح لعرش العراق، الشريف فيصل بن الحسين وفي مقدمتها اتساع شعبيّته عراقيّا وعربيّا ودوليّا، ومساندة البريطانيين له والتفاف الضباط الشريفييّن (الذين جاؤوا معه من الشام والحجاز) حوله، ورغبة زعماء وقادة ثورة العشرين الكبرى في ترشيح فيصل، مثلما كان يعلم مواطن ضعفه واهمها انّ فيصل كان حجازيّا وليس عراقيّا كما انّ له ولاسرته صلة تحالف بالإنكليز. ولهذا لم يكن بيد الخالصي الا المبايعة بشروط يلتزم بها فيصل. ولكي تكون للخالصي دالة على فيصل امام الناس والتاريخ، قال لفيصل:

" .. يمكن ان أبايعك على ان تكون ملكا على العراق مستقلا منقطعا عن ايّ سلطة اجنبيّة بايّ اسم كان بحيث لايوب استقلال العراق ايّ شائبة مهما كانت، فان تمّ ذلك بقيت في العراق ملكا والا انصرفت وتركت العراقييّن والإنكليز حتى ياخذوا حقهم ويبلغوا غايتهم...".

وقد تجلت عمق نظرة الشيخ الخالصي وواقعيّته في ردّه على ولده الشيخ محمد الذي عارض البيعة وذمّ فيصلا ذمّا قبيحا غير منصف، فقال له: "... انّ فيصلا فوق ما ذكرت ولكني خشيت ان يبايعه الناس بيعة مجملة ولا قوّة لنا على طرده فيذهب حق العراقييّن بامضائهم صكّ العبوديّة جهلا ولو باسم فيصل، فاردت ان اعلمّ الناس كيف يبايعون ليبقى

حق العراق محفوظا متى طالب العراقيّون به...". وبناء على طلب من فيصل، نشر الشيخ مهدي الخالصي في اليوم التالي في الصحف العراقيّة نصّ البيعة كالاتي:

بسم الله الرّحمن الرّحيم وبه ثقتي

الحمد لله الذي نشر لواء الحق على رؤوس الخلق، فايّدهم بالنصر برئاسة من حاز الشرف والفخار، الملك المطاع، الواجب له علينا الاتباع، الملك المبجّل، عظمة مليكنا فيصل الاوّل دامت شوكته، نجل جلالة الملك حسين الاوّل دامت دولته، فاحكموا بيعته، وابرموا طاعته، واهتفوا باسمه، مذعنين لحكمه، ونحن ممّن قد اقتفى هذا الاثر، وبايعه في السرّ والجهر، على ان يكون ملكا على العراق، مقيّدا بمجلس نيابي، منقطعا عن سلطة الغير، مستقلا معه بالامر والنهي، ولله الامر.

7 ذي القعدة 1339 هجريّة الرّاجي عفو ربّه

محمد مهدي الكاظمي

عفي عنه (جريدة العراق/عدد- 16تمّوز/1921، د. علي الوردي/المصدر../ص-108 110). وهكذا بايع الشيخ مهدي الخالصي على مضض وبعد تردّد فيصل بن الشريف حسين بن علي ملكا على العراق سنة 1921.

الخالصي وكوكس

لقد سبق وان حاول المندوب السّامي البريطاني (السير بيرسي كوكس) على العراق انذاك ان يفاوض الشيخ مهدي الخالصي باجراء لقاء مباشر معه وكان الوسيط جعفر عطيفة رئيس بلديّة الكاظميّة انذاك ولكنّ الخالصي كان يعتذر عن لقائه. واخيرا ارتا ى السّيد جعفر انه من الممكن تدبير اللقاء اثناء مجيء الشيخ الخاصي للصّلاة في باحة (صحن) الامام الكاظم عليه السّلام، وقد وافق المندوب السّامي كوكس على المقترح. ووقف كلاهما بالقرب من الباب الصّغيرة التي اعتاد الشيخ الخالصي الدخول منها. ولما جاء الخالصي تقدّم منه السيّد جعفرقائلا: "..ياجناب الشيخ؛ ان جناب المندوب السامي يحب السّلام عليك، وما ان سمع الخالصي ذلك حتى وضع عباءته على راسه واسرع بدخول الصّحن دون ان يردّ بكلمة. لقد كلف ذلك الموقف الغير سياسي للشيخ الخالصي شيعة العراق عزلة وتهميش شبه كاملين لمدة قاربت المئة سنة وأفرزت نتائج خطيرة اثرت على النسيج الاجتماعي العراقي من عدّة وجوه.

لم يظهر المندوب السّامي وكذلك بقيّة الصّفوة الشريفيّة في حكومة النقيب اهتماما علنيّا بسلبيّة موقف العلماء (وفي مقدّمتهم آل الخالصي)، بل أخذوا يثيرون الاشاعات بين الناس مفادها،انّ تشدّد وتصلب العلماء يعرقل بناء دولة العراق وتطوّره، وانّ التشدّد والرّفض بلا وجود بديل واقعي هو تخلف وجهل بواقع السيّاسة انذاك. فلا عذر للمتشدّدين لا سيّما وان

الحكومة مسلمة والعمل في دوائرها حلال من وجهة النظر الشرعيّة وانّ موقفهم هذا سوف يحرم ابناء طائفتهم من الحصول على الوظائف، بينما ينعم بها (غيرهم) !!

لم تكتف ادارة الانتداب والحكومة المؤقتة عند هذا الحد من قلب الحقائق بتعميم الجزء على الكل، بل لجا الانجليز وحكومة النقيب ايضا الى اسلوب اخر حيث اصدرت وزارة الاوقاف باقتراح من مستشارها الانجليزي بزيادة رواتب ائمّة وخطباء ومتولّي مرقد ومسجد الامام أبو حنيفة دون المراقد الاخرى (تقرير سرّي من دائرة المندوب السامي في بغداد الى وزارة المستعمرات البريطانيّة رقم 6/730) وهذا بطبيعة الحال يثير الحسد والغيرة لدى جميع او معظم العلماء وائمّة وخطباء ومتولي المراقد الشيعيّة من زملائهم السنّة بالاضافة الى موضوع الاستئثار بوظائف الدولة الجديدة وخيراتها.

الاستفتاء والاستقطاب بين الصّفوتين

بينما كان التأييد بالنسبة لغالبيّة صّفوة العلماء ورجال الدين السّنة محسوما لصالح النظام السيّاسي الجديد ولقبول ملكيّة فيصل بن الحسين المدعوم من الدولة المنتدبة بريطانيا، هذا الترتيب الجديد الذي يقف على قمّة الموالين له الصّفوة من: آل الكيلاني (المتمثل بعميد اسرتهم السيّد عبد الرحمن النقيب رئيس الوزراء) وال الرّاوي وال النقيب (بفروعهم في بغداد والبصرة وديالى والموصل) وال الآلوسي وال الجميل وآل الحيدري (أربيل) وغيرهم، فانّ صّفوة علماء الدّين الشيعة اصرّوا على مطالبتهم بـ (الاستقلال التام) وتحميل الملك فيصل الاوّل تبعات الوجود البريطاني في العراق؛ وكان ابرزهم واكثرهم تشدّدا الشيخ مهدي الخالصي كما اشرت سابقا. لذا استمرّت الضغوط على علماء الشيعة لكي يغيّروا موقفهم من حكومة النقيب المؤقتة، فأخذت الصحافة الحكوميّة والموظفون البريطانيّون واعضاء مجلس الوزراء يزيدون من انتقاداتهم للعلماء الشيعة المعارضين لقانون التجنيد الاجباري ومبدا قبول مبايعة الشريف فيصل بن الحسين ملكا على العراق. ولاجل ذلك قام ابرز قادة الصّفوة الشريفيّة وهما جعفر باشا العسكري وزير الدفاع في الحكومة المؤقتة يصاحبه وكيله نوري السّعيد بجولة في مناطق الفرات الاوسط واتصل بزعماء القبائل ومختلف طبقات الناس لكسب التأييد لسياسة الحكومة المؤقتة مما دفع الشيخ الخالصي الى عقد اجتماع عام في الكاظميّة حضره زعماء القبائل وعدد من الاعيان والقادة الوطنيين... وبعد دراسة ومناقشتة للاوضاع السّائدة انذاك مع الحضور،ادرك الخالصي بقوّة موقف فيصل كمرشح وان لاقبل له على الحيلولة بينه وبين عرش العراق. وكحد ادنى ومنطقي استطاع الخالصي ان يحصل على تأييّد الحضور ودعمهم بانه اذا ماتقرّر مبايعة فيصل فلتكن المبايعة مشروطة بان يكون ملكا مقيّدا بمجلس نيابي منتخب دستوريّا. وقد وافق الحضور على ذلك فاذن الخالصي بارسال البرقيّات الى الشريف حسين في مكة يطلبون منه ارسال ولده فيصل ليكون ملكا دستوريّا مقيّدا بمجلس نيابي.

لقد وافق الشيخ الخالصي على مضض ـ كما اكدته الاحداث فيما بعد ـ لاسباب كثيرة اهمّها:

تزايد شعبيّة فيصل في العراق عامّة وبشكل خاص بين قبائل وعشائر الوسط والجنوب الشيعيّة وهي اهم القواعد التي ترتكز عليها قوّة المرجعيّات الدينيّة. وكذلك ظهور تيّار قويّ داخل اجتماع الكاظميّة نفسه يؤيّد ترشيح فيصل. هذا بالاضافة الى القوّة الماديّة والعسكريّة لانصار فيصل والمتمثلة بتأييد الصّفوة الشريفيّة من كبار الضبّاط والاعيان بالاضافة الى وزارة النقيب و ادارة الانتداب البريطاني في العراق. كما كان التأيّيد المعلن عن الخالصي للدولة العثمانيّة (وان كانت مسلمة) يمسّ شعور العراقيين بشكل سلبي في الناحيتين القوميّة والمذهبيّة فهم يفضلون فيصل ـ باعتباره عربي وهاشمي ـ على (الاتراك السنّة). واخيرا؛ منح الشيخ الخالصي فيصلا موافقته للترشيح ولكنه لم يمنحه مطلقا اخلاصه للعرش الهاشمي طيلة حياته.

لقد اراد المندوب السامي السير برسي كوكس ان يظهر للناس حياد الانجليز ازاء مسالة اختيار ومبايعة فيصل. فاوعز الى الحكومة المؤقتة ان تعلن عن ضرورة استفتاء الشعب العراقي لكي يعبّر عن ارادته في اختيار مليكه. وقد اتخذت وزارة الداخليّة الخطوات اللازمة لجراء الاستفتاء العام.

اهم الاتجاهات للاستفتاء العام

لقد ظهرت اتجاهات متعدّدة لتنصيب فيصل ملكا، ولكنّ ثلاثة منها كانت هي الاهمّ:

اوّلا: راي الصّفوة الشريفيّة والذي يدعوا الى اعلان فيصل ملكا على العراق في الحال دون الحاجة الى اجراء عمليّة استفتاء الشعب باعتبار انّ الامر محسوما شعبيّا لصالحه.

ثانيا: راي كبار المجتهدين من العلماء الاعلام والزعامات الوطنيّة في بغداد وخارجها تقول بضرورة قيام مجلس تأسيسي منتخب من قبل الشعب يتقرّر فيه اتخاذ قرار مصيري كهذا.

ثالثا: راي جاء به المندوب السّامي (وهو راي الحكومة البريطانيّة) يقول انّ مبايعة فيصل وتتويجه يتم عن طريق تنظيم مضابط "عرائض" يوقع عليها الناس بعد دعوتهم الى اجتماعات في اماكن معيّنة يحضرها الصّفوة من الوجهاء ورؤساء كلّ مدينة وناحية من نواحي العراق وينهض احد المسؤولين ليتكلم عن الغرض من الاجتماع ويذكر مناقب الامير فيصل واهليّته لتولي الملك ويسال الحاضرين من الموافق؟ ثمّ من المعارض ويوقع عليها الحضور ببيعة فيصل لعرش العراق.

وبعد مداولة،اتخذ القرار باتبّاع طريقة برسي كوكس لانّها ـ على حدّ قول المسؤولين البريطانيين والحكوميّين العراقييّن ـ بانها اكثر ملائمة وعمليّة في مجتمع كالمجتمع العراقي

انذاك. والواقع ان مثل هذا الرأي ظالم ومتجنّ. فعدا ان الاخذ براي كوكس كان خرقا فاضحا للشروط التي جاءت برسالة الزعماء العراقييّن التي نقلها الشيخ محمد رضا الشبيبي الى الشريف حسين بن علي امير مكة والتي طلبوا منه ترشيح احد اولاده لعرش العراق كما مرّبنا سابقا. فان طريقة برسي كوكس فيها خبث ودهاء (انجليزي) اراد بها ان يعطي الفضل والرّصيد الاكبر لنفسه ولموظفي ادارته البريطانيّة (الذين سيتولون تنفيذ عمليّة تنظيم المضابط ضمن حدود مناطقهم الاداريّة وباشرافهم المباشر)، كما اراد كوكس ايضا ان يظهر لفيصل بان الانجليز هم وراء نجاحه بالاستفتاء (ولا يزال هذا الرأي سائدا لدى الكثيرين) ولذلك فسوف يبقى مدينا لهم، بينما واقع الامر ان اختيار فيصل وتنصيبه ملكا علي العراق كان موضوعا محسوما لدى للعراقيّين ولا احد من المرشحين المنافسين له يحضى باقل رصيد من الهيبة والاحترام الذي كان يملكه فيصل في قلوب غالبيّة طبقات الشعب العراقي بما فيهم خصومه ومنافسيه. لقد كان الاولى والاجدر بالصّفوة العراقيّة على اختلاف اطيافها ان لا يخفى عليها مناورة المندوب السّامي تلك. ولكن حالة الانقسام التي دبّت في صفوفها والتنافس على السّلطة والتهافت بينهم لاسترضاء ادارة بيرسي كوكس- بيل في العراق، وخشية الصّفوة الشريفيّة (وواقع هويّتها سنيّة) من ان تاتي الانتخابات الحرّة باغلبيّة شيعيّة داخل المجلس التأسيسي هي التي دفعتهم الى القبول ودعم اقتراح المندوب السّامي كوكس مما ترك لوثة في تاريخ المملكة العراقيّة وسيرة الملك فيصل بن الحسين على الرّغم من طهارتها وعظمتها. ولو انّ اتفاقا واصرارا حصل من قبل صفوة الزعامات العراقيّة على رفض اقتراح المندوب السّامي لنجحوا في ذلك لانّ حكومة لندن وبنود الانتداب لعصبة الامم كانت مصرّة على احترام رغبة العراقييّن في اختيار مليكهم وتركت التفاصيل في التنفيذ للمندوب السّامي وادارته في العراق.

(وانه لمن العجب انّ الحدث يتكرّر بعد تسعين سنة؛ اذ انّ اثنين من صفوة قيادات الاحزاب حينما تقلدا منصب رئاسة الوزارة وهما - ابراهيم الجعفري وأياد علاوي - قد اعادا الخطأ ذاته في موقفها من قرارات مجلس الأمن الدّولي لا سيّما قرار رقم (1546) الذي صدر في 8 حزيران/يونيه 2004 حول ضمان استقلال العراق وطبيعة علاقته بدول التحالف بعد الاحتلال، وقرّرا تفعيل قراراته بالتنسيق فقط مع وزارة خارجيّة الولايات المتحدة الأميريكيّة مباشرة ارضاءاً لها وليس مع المنظمة الدوليّة كما كان مقرّرا دوليّا وبحماس من قبل كوفي عنان امينها العام الذي اراد تشكيل لجنة خاصّة لتفعيل القرار ولكنّ كلا منهما رفضا ذلك بالتتابع، والمفارقة في هذه المرّة انّ كليهما شيعيّان!!).

سير الاستفتاء

لقد جرت الاجتماعات لتنظيم المضابط (العرائض) باشراف المستشارين البريطانييّن حيث تقدّم المضابط للحضور جاهزة ومطبوعة للتوقيع عليها. ولم يحصل ما يعكر صفو

الاستفتاء وتنظيم المضابط سوى نشاط المعارضة في بغداد وكربلاء. ففي بغداد اصدر الامام الشيخ مهدي الخالصي فتوى اصرّ فيها على ضرورة احترام حريّة الناس والتحرّر من قيد كلّ اجنبي او تدخل خارجي. كما ظهرت في بغداد عرائض تدعوا الى عدم تدخل الانجليز. وبفعل هذا الضغط الشعبي دعا (محافظ) متصرّف بغداد رشيد الخوجة الى عقد اجتماع شعبي في سينما رويال في تموز/يوليو 1921 ضمّ وجهاء واعيان بغداد.وحينما تلا المتصرّف صيغة بيعة الامير فيصل قام الخطباء بقراءة القصائد والكلمات الثورية وكان اكثرهم حماسا هو الخطيب الشاعر الشيخ مهدي البصير ممّا اضطرّ المتصرّف الى الموافقة على اضافة فقرة لصيغة المضبطة وهي:

..((..ان تكون الحكومة مستقلة مجرّدة من كلّ قيد ومنقطعة عن سلطة الغير..)) وهي جزء من فتوى الامام الخالصي..، وكذلك جاء في الاضافة؛ ((.. ان يكون اوّل عمل يقوم به الملك فيصل هو تأليف وجمع المؤتمر العام الذي يسن القوانين والدستور خلال ثلاثة اشهر من حين تسلمه الامور..)). وامام هذا الحماس الكبير لم تستطع الصّفوة الشريفيّة المتفقة مع مشروع بيرسي كوكس والتي حضرت الاجتماع ان تعترض او تغيّر من مطالب الحاضرين. وفي اثناء الاجتماع حضر الاديب المرحوم فهمي المدرّس ومعه رسالة من ناجي السّويدي يطلب فيها من رشيد الخوجة اضافة المطالب التي رفعتها غالبيّة الحضور فامتثل المتصرّف ودوّن المطالب وكتب منها عدّة نسخ وزّعت على مخاتير المحلات والاحياء من اجل جمع التواقيع عليها. وفعلا تمّ التوقيع على المضابط بنصّ وبصيغة اجتماع سينما رويال في كافة مساجد بغداد. وبسبب ما تقدّم فقد أغضبت النتائج المندوب السّامي فارغم المتصرّف على تقديم الاستقالة من منصبه ففعل.

امّا في كربلاء، فلم تجر عمليّة توقيع المضابط حسب رغبة المستشارين الانجليز، فقد اضاف الموقعون اسئلة تتعلق بالانجليز وبوجودهم في العراق بالاضافة الى مطالب وطنية اخرى.

امّا في الكاظميّة فقد دعا السيّد محمّد الصّدر عددا من الوجهاء ورجال الدّين الى اجتماع في بيته لتحرير مضبطة تنصّ على رفض الانتداب البريطاني كشرط اساسي للمبايعة. الا انّ واحدا من الشخصيّات من الكاظميّة ذهب في نفس الليلة وايقظ الامير فيصل من نومه وحذره ممّا سمّاه بـ (مؤامرة الصّدر)، فارسل فيصل احد مرافقيه لاستدعاء الصّدر، فلما حضر أخبره بانه عمليّا ملك العراق وحذره من اثارة المشاكل بوجهه واعطاه مهلة ثلاثة ايّام ليغيّر موقفه من السّلطة وان يوقف وضع العصى في عجلة الدّولة والا فعلى الصّدر ان يتوقع النتائج القانونيّة المترتبة على نشاطه المعادي.

انّ تنظيم المضابط في الالوية سار بتنسيق وتعاون اداري وامني بين دوائر وزارات حكومة النقيب وبين موظفي المندوب السامي البريطاني وباشراف المستشارين الانجليز في الوزارات.

وكرد فعل لفتوى الخالصي وبسبب نشاطا ت الوطنييّن وضغوطهم، طالب المستشارون في

الالوية ان تضا ف الى نهاية كلّ مضبطة السّطر الذي ينصّ على: ((...أبايع الامير فيصل على ان يكون ملكا على العراق تحت وصاية الانجليز...)).

الشيخ مهدي الخالصي وفيصل

انّ علاقة الشيخ مهدي الخالصي بفيصل نموذجا واضحا للازمة التي كانت تعيشها الصّفوة العراقيّة في تلك المرحلة الدّقيقة التي كان يمرّ بها العراقيّون انذاك. وتتلخص الازمة بكلمة واحدة وهي ((الثقة)) التي كانت تكاد تكون معدومة دائما بين مكوّنات الصّفوة العراقيّة حتى ضمن اطار المكوّن الواحد (كما هو شانها حاليّا). وقد لعبت ادارة الاحتلال البريطاني، والحكومات الوطنيّة المتعاقبة فيما بعد، دورا خطيرا في تعميق الشكوك وترسيخها في وجدان غالبيّة افراد الصّفوة العراقيّة على مبدا فرّق تسد.

كان الشيخ مهدي الخالصي يمقت العائلة الهاشميّة لوقوفها في الحرب الاولى الى جانب الحلفاء ضدّ الاتراك المسلمين كما اشرت سابقا. وقد لعب الخالصي دورا قياديّا في مناهضة الانجليز والجهاد ضدّهم منذ بدء احتلالهم للعراق. كما كان خصما لدودا لمخططاتهم تسانده ابرز قيادات بغداد/الكاظميّة التي وقفت بشجاعة ضد استفتاء ولسون اثناء الادارة العسكريّة البريطانيّة للعراق. كما برز دوره وفاعليّته في ثورة العشرين الكبرى. وحينما انتهت الثورة بما الت اليه من انحسار في الحركة الجهاديّة، لجا الشيخ الخالصي الى تجميع ماتبقى حوله من مصادر القوّة واهل العزيمة لاعادة الكفاح يشدّ من ازره ويساعده ولده الاكبر الشيخ محمد الذي لايقل عنه كرها للانجليز وللعائلة الهاشميّة، وربما يمكننا القول انّ الشيخ محمد الخالصي الابن كان العقبة الكاداء امام ايّة محاولة اومشروع لقاء وتعاون بين الشيخ مهدي الخالصي الاب وبين الملك فيصل الاوّل وحكومته.

فحينما تشكلت الحكومة العراقيّة المؤقتة الاولى برئاسة السيّد عبد الرحمن النقيب، وقويت شوكة العناصر المتعاونة مع الانجليز من الصّفوة الشريفيّة، وكثرت الضغوط على الامام الشيخ مهدي الخالصي لانجاح مشروع ترشيح فيصل لعرش العراق، لجأ الخالصي الى مناورة كانت اكثر دهاء من مناورات المندوب السّامي برسي كوكس لاقامة (مملكة عربيّة هاشميّة) وشلّ المطالب الوطنيّة، فرفع الشيخ الخالصي بالمقابل شعارا استراتيجيّا وهو مطالبته باقامة.. " دولة ملكيّة مستقلة وعلى راسها ملكا منقطعا عن سلطة الغير ومقيّدا بمجلس منتخب يمثل الشعب العراقي.. "وهو نفس مضمون المطاليب والشعار المركزي الذي قامت من اجله ثورة العشرين الكبرى، وقد تحقق له عمليّا ما اراد حينما اصبح هذا الشعار هو نص بيعة العراقيّن على المضابط التي وقّعوها عند بيعتهم لفيصل كما مرّ بنا قبل قليل.

لقد كان فيصل خبيرا بالرّجال، لا سيّما علماء الدين منهم؛ فحينما وصل العراق اعطى لعلماء الاماكن المقدسة (سنة وشيعة) اهتماما خاصّا اذ لا تخفى عليه تأثيرهم على الرأي

العام. وكان على علم باهميّة وشعبيّة الامام الشيخ مهدي الخالصي. ولهذا اخذ يتحبّب ويتقرّب اليه بشتى الوسائل. وقد ذكر الدكتور علي الوردي جانبا من علاقة فيصل بالخالصي نقلا عن مخطوطة لمذكرات الشيخ محمد الخالصي الابن الاكبر حيث يروي كيف كان فيصل يكثر من زياراته لابيه في بيته او في مدرسته (متظاهرا بالتقوى والورع والحرص على مصالح الاسلام والمسلمين مرتديا الزي الحجازي حاملا معه هدايا منها قطعة من كسوة الكعبة الشريفة مكتوبا عليها بخطوط الذهب اية الكرسي الكريمة). ويمضي بالحديث عن تلك العلاقة بانّ فيصلا في احدى زياراته لابيه اختلى بوالده الشيخ مهدي، وحدثه بانّ غايته الاساسيّة هي ((.. نشر تعاليم القران الكريم وتأييد الكعبة وتخليص البلاد الاسلاميّة من تسلط الاجانب وانه جاء الى العراق لتخليصه من الانجليز وهذا لايتم الا ببيعته فا ن لم يبايعه فانه (فيصل) سيعود الى الحجاز..)). وقدردّ عليه الشيخ الخالصي بقوله:

((.. يمكن ان نبايعك على ان تكون ملكا على العراق مستقلا منقطعا عن ايّ سلطة اجنبيّة بايّ اسم كان بحيث لا يشوب استقلال العراق ايّ شائبة مهما كانت، فان تمّ ذلك بقيت في العراق ملكا والا انصرفت وتركت العراقييّن والانجليز يأخذون حقهم ويبلغوا غايتهم..))، وقبل فيصل بذلك الشرط واحضر القران الكريم تيمنا وتبرّكا وبا يع فيصل الامام الخالصي على ذلك كما بايع الخالصي الامير فيصل على ما اتفقا عليه من شرط. ويستمر الشيخ محمد الخالصي في مذكراته الخطية بانه بعد خروج الامير فيصل من دار ابيه احتج الشيخ محمد على ابيه لمنحه الثقة لفيصل الذي خذل السّوريّين واراد اخضاعهم للفرنسيّين. وقال ايضا انّ هذا الرّجل ـ فيصل ـ هو صنيعة الانجليز. فاجاب والده الشيخ مهدي وذكره بالاية الكريمة ((..فاتخذه ال فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا))، وقال ايضا يجوزان يكون الانجليز قد اتخذوا ال الشريف لمصالحهم فيجعل الله من ال الشريف انصارا للمسلمين اعداء للانجليز. ثمّ قال ايضا: ((اني خشيت ان يبايعه الناس بيعة مجملة ولا قوّة لنا على طرده فيذهب حق العراقييّن بامضائهم صك العبوديّة جهلا ولو باسم فيصل. فأردت ان اعلم الناس كيف يبايعون ليبقى حق العراق محفوظا متى طالب العراقيّون به..)).وبعد ذلك ارسل فيصل احد المقرّبين اليه (المرحوم فهمي المدرّس) لاخذ نسخة من صورة البيعة ونشرت في الصّحف. وهكذا شاع بين الناس صيغة البيعة وشرط الامام الخالصي على فيصل.(د. الوردي/لمحات../ج 6/ص107)

أهل الأعظميّة ومبايعة فيصل

تعتبر منطقة الاعظميّة (وفيها مرقد الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت) احدى اهم المناطق السكنيّة للصّفوة العربيّة السنيّة وترجع اصول غالبيّتهم العظمى من قبائل العبيد العربيّة القحطانيّة، وموقعها على الضفة الشرقيّة من نهر دجلة في الرّصافة وهي الجهة المقابلة لمنطقة الكاظميّة التي تقع غرب دجلة في جهة الكرخ. ولم يخف على فيصل اهميّة هذا الحيّ عربيّا واسلاميّا وشدة ولاءهم لقادتهم من الصّفوة الشريفيّة.

جرت بيعة الاعظميّة قبل بيعة الخالصي بيومين (في11 تموز/يوليو1921)، وهي اوّل بيعة مسجّلة وقد نشرتها صحيفة " العراق " تحت عنوان: ((مبايعة اهل الأعظميّة لسموّ الامير فيصل بملوكيّة العراق ـ اوّل بيعة صدرت)). ومجمل الحدث ان الاجتماع حصل في بيت ناجي الخضيري بناء على دعوة من من رئيس البلديّة وبحضور وجهاء ورؤساء العشائر المحيطة بها وهم بني ركاب والسّواكن والبو مفرّج وبني عمير والبو محلة وعشيرة اللهيب والجلاعطة والندوات، وبعد تلاوة اي من القران الكريم، القى السيّد عبد الهادي الأعظمي كلمة قصيرة دعا فيها الناس لمبايعة الامير فيصل بالملوكيّة. ثمّ قام رئيس البلديّة ليطبّق الاسلوب الذي اقترحه كوكس ونادى بالناس: "..هل بايعتم؟" فاجابوه بصوت واحد: "نعم بايعنا" .. ثمّ ناداهم مرّة ثانية: "هل فيكم مخالف؟" فقالوا: "كلا ثمّ كلا ثمّ كلا.." وبعد ذلك بدات عمليّة التوقيع على المضابط لارسالها الى الامير فيصل.(د. الوردي/المصدر/ص110 – 111)

امّا في بقيّة المناطق والمحافظات الاخرى خارج بغداد، فقد كان تنظيم المضابط واجراءات البيّعة متشابهة وبعضها فيها الكثير من الاستخفاف والتجاوز على حقوق العامة في الاختيارات، فقد ذكر كريفز في كتابه عن حياة السير بيرسي كوكس صفحة 300 انّ مجموعة من رؤساء عشائر العمارة اخبرت السير بيرسي كوكس حينما سالهم عن نوع الحاكم الذي يريدونه بقولهم: "الله والينا ومحمد نبينا وكوكس حاكمنا" ... وقولهم هذا، ان صحّت الرّواية، دقيق لا يفهمه الا العارفين باللغة السّاخرة لابناء العشائر الجنوبيّة على وجه الخصوص والتي تعرف بالعامّية "بالحسجه" بعد ان بلغ الاستهتار ذروته في هيمنة كوكس او في ايّ أمر اخر. ومشابه لهذا الحدث وقع ايضا حينما اخبر الشيخ علي السّليمان زعيم قبائل الدليم الامير فيصل بكل صراحة بانه يبايعه لانّ الانجليز يريدونه. وهنا ك قصة اخرى طريفة حدثت في محافظة كركوك وهي انّ مدير ناحية طاووق قد قدّم مضبطتين موقعتين من قبل اعيان ورؤساء الناحية؛ في احداها يبايعون الامير فيصل وفي الاخرى يرفضون بيعته وحينما ساله المستشار الانجليزي عن المضبطة اجابه مدير الناحية: ((ايّهما تريد؟)) ثمّ عرض عليه المضبطتين فاخذهما المستشا ر كلتيهما.

ونتيجة لكلّ ما تقدّم اسفرت النتائج الرّسميّة للاستفتاء انّ 96 بالمئة من المقترعين بايعت فيصلا وانّ اربعة بالمئة فقط كانت ضدّ مبايعته،وبموجب تلك النتيجة اصبح فيصل ملكا. (د.غسّان العطيّة/العراق- نشاة الدّولة/ص476).

الشيخ الخالصي واللعبة الدّيمقراطيّة

على الرّغم من انّ الشيخ مهدي الخالصي قد عرف بغزارة العلم وبقوّة المنطق وبالمعرفة الواسعة بمتطلبات الجدل والمحاورة، وبصلابة الموقف على ما كان يؤمن به من اراء وعقيدة، الا انه وكما يبدو كان بحاجة الى معرفة بمباديء الأوروبيين وطرقهم الملتوية في السّياسة وفيما

يطلق عليه اليوم بـ "اللعبة الديمقراطيّة" وما تتطلبه من مناورات وأساليب العمل والمواجهة.

فالخالصي لم يخف على ذكائه انّ الشعبيّة الواسعة التي حققها فيصل منذ يوم تتويجه ملكا على العراق سوف تؤثر على زعامته السّياسيّة بين انصاره ومريديه وعلى عموم المجتمع تدريجيّا. كما انّ انشاء المؤسّسات الدستوريّة كالمجلس التأسيسي ومن ثمّ مجلسيّ النواب والاعيان، وتشريع الدستور وسنّ القوانين الحديثة وتأسيس القوّات المسلحة واصدار الصحف وتثبيت اركان الحكومة والوزارات سوف تؤثر على موقع زعامته وقراراته الفرديّة التي اعتاد فرضها على اتباعه ومؤيّديه. وربما كان ذلك الوضع الجديد هو السّبب المباشر لازدياد تشدّد الشيخ الخالصي وتصلبّ مواقفه التي أصبحت متشنّجة وسلبيّة اتّجاه سياسة الملك فيصل والحكومة العراقيّة وهي مازالت في بداياتها الاولى في تجربة الحكم الوطني العراقي. كما دفع الوضع الجديد بالخالصي ان يوثق علاقاته اكثر مع المعارضة الوطنيّة لا سيّما الاحزاب الوطنيّة (القريبة من العلمانيّة) انذاك وفي مقدمتها (الحزب الوطني) الذي كان يتزعمه محمد جعفر ابو التمّن و(حزب النهضة) بزعامة امين الجرجفجي وعبد الرسول كبّة ومحمد حسن كبّة واخرين.

انّ من الامور التي تجلب الانتباه والتساؤل هي عدم دخول الشيخ الخالصي في اللعبة السّياسيّة الديمقراطيّة (التي هي نهج ونظام الدولة الجديد) للحصول على اصوات الاغلبيّة البرلمانيّة رغم علمه بانّ الشيعة هم الاغلبيّة السكانيّة في الوسط والجنوب على الاقل، بل عمد الى اسلوب مقاطعة الانتخابات البرلمانيّة وفرض ارائه ومواقفه السّياسيّة باسلوب تقليدي حوزوي (اصدار الفتاوى) على الخاصّة والعامّة مما اضعف موقفه امام خصومه بل وحتى امام انصاره ومؤيّديه من الاحزاب والقوى السّياسيّة الوطنيّة المعارضة واظهاره سلبيّا وبلا حلول واقعيّة.

لقد بلغ تشددّ الشيخ الخالصي درجة انّه اخذ يكفرّ بعض المعارضين لفتاواه السّياسيّة حول تحريمه المشاركة في الانتخابات (كما حصل حينما اتهم بالكفر كلا من السيّد علوان الياسري والسيد كاطع العوّادي وهما من خيرة صفوة زعماء ثورة العشرين الكبرى وابرزهم شعبيّة وثقة بين الجماهير) بسبب محاولتهما معه كي يسحب فتوى التحريم. وقد ازدادت الهوّة بين الشيخ الخالصي وبين الحكومة العراقيّة اتساعا حينما اكد الخالصي في ردّه حول تكفير مخالفيه بقوله

(نعم ما حكم به حجج الاسلام وايات الملك العلام ماضي والرّاد عليهم رادّ على الله وهو على حدّ الشرك بالله) (د.علي الوردي/لمحات.. المصدر/ج 6 - ص217).

وحينما اخذت الفتاوى تزداد وتظهر ملصقاتها على ابواب صحن الكاظمين وجدران المساجد وبدات التظاهرات الشعبيّة تزداد ضد المعاهدة العراقيّة - البريطانيّة الاولى وتعديلاتها، قرر رئيس الوزراء عبد المحسن السّعدون في اوّل الامر نفي علماء الدين الذين هم من اصل ايراني ويرفضون التجنس بالجنسيّة العراقيّة. ولكن حينما استمر العرب

العراقيّن من العلماء وفي مقدمتهم الشيخ الخالصي في نشاطاتهم وتظاهراتهم الرّافضة للمعاهدة ولسياسة الحكومة، اخذت الازمة تزداد حدّة وتحدّيا من قبل الطرفين، قررّت حكومة السّعدون وبتأييد من الملك والمندوب السّامي القاء القبض على الشيخ الخالصي وقد نفذت ذلك فعلا يوم 26 حزيران 1923 حيث ارسل بالقطار معززا مكرّما مع ولديه وعدد من مريديه الى ايران. وحينما اعلن المجتهدون وعلماء من النجف وكربلاء تضامنهم مع الخالصي وقررّوا مغادرة العراق، قامت الحكومة بتسهيل سفرهم الى ايران بمستوى التكريم والتقدير وتمّ ذلك في1/تموز1923. (د. علي الوردي/المصدر..ص 221 – 230).

لقد كان واضحا ان الشيخ الخالصي في تلك الايّام لم يعط اهميّة لا لواقع الامر ولا لمتطلّبات الدبلوماسيّة والمناورة في العمل السّياسي، كما لم يضع في حسبانه مدى جديّة الخطوط الحمراء في السّياسة الدوليّة (ربما لم يكن يعلم بها او يدرك بصدق خطورتها في السّياسة الدّوليّة).

كان يعتقد بانّ الحق الذي يجاهد في سبيله، وهيبته كعالم مجتهد وشعبيّته الواسعة وتأييد الجماهير له وشرعيّة مطاليبه سوف تجعل بريطانيا والحكومة العراقيّة تستجيب لارادته (رفض المعاهدة وتحقيق الاستقلال التام للعراق) دون ثمن. فهو لم يقرا مغزى الاحداث التي اوجدتها وحرّكتها بريطانيا انذاك للضغط على الملك وحكومته (وفي مقدمتها هجوم الاخوان الوهابيين في الجنوب الغربي من حدود العراق، ومطالبة تركيا بمنطقة الموصل والتهديدات الحدوديّة الاخرى) بهدف الضغط على فيصل وحكومته للقبول بشروطها. كما انّ سياسة فيصل ضمن الواقع المعاش (خذ وطالب) لم تكن مقبولة لامن قبل الشيخ الخالصي ولا من قبل غالبيّة المعارضة الوطنيّة.

ومع ذلك فقد كان الملك فيصل الاول مترددا بل رافضا لقرار الوزارة بنفي المجتهدين، بل ان العديد من الوثائق الرّسميّة اثبتت انّ المندوب السّامي نفسه كان ايضا مترددا في اعطاء موافقته على ذلك الاجراء خوفا من تداعيات الموقف. ولكن تشددّ حكومة لندن واصرار وزارة السّعدون على توقيع المعاهدة ضمانا لمصالح العراق، ويقابل ذلك عدم مرونة الشيخ الخالصي وتشدده وسلبيّته في العمل السّياسي قد فوّتت فرصة تاريخيّة امام الصّفوة العراقيّة من اجل وحدتها وتعاونها مع الملك المؤسس فيصل الاوّل لتحقيق المزيد من الانجازات لبناء العراق الجديد. كل تلك الظروف ادّت الى تنفيذ حكومة السّعدون اجراءات النفي التي بقيت اثارها السلبيّة تجرّح في جسد المجتمع العراقي حتى اليوم. وحالما وصل المنفيّون ايران، اخذ الحزب الشيوعي في ايران وكذلك البلاشفة الرّوس استغلال ذلك بشكل مكشوف حتى انّهم أخذوا يتظاهرون امام النّاس بتمسّكهم بالدين الاسلامي بشتى الاساليب بما في ذلك الصلاة بالمساجد والتزام القنصل الروسي بزيارة المجتهدين ومداراتهم.(د.علي الوردي/ المصدر../ص 9047،236 -F.O.371/37).

وبعد ان مكث الخالصي في مدينة قم لفترة قليلة، وعلى اثر خلاف بينه وبين بقيّة المجتهدين

والعلماء المنفيّن الذين ارادوا التفاوض مع الملك فيصل بهدف العودة، غادر الخالصي مدينة قم وذهب الى خراسان حيث بقي فيها حتى حانت ساعة وفاته في 11 رمضان 1343 هجريّة المصادف 5 نيسان 1925م.

السيّد محمد بن السّيد حسن الصّدر:

(وقد مرّ التعريف به سابقا ضمن مجموعة الشريفيّن)

السيّد محمد علي الطباطبائي

وكان واحدا من ابرز القيادات في مدينة كربلاء المقدسة، مارس السّياسة في وقت مبكر ولعب دورا قياديّا في ثورة العشرين الكبرى. وقد عرف عنه شدّة كرهه للإنكليز ومجاهرته بالعداء لهم، مما جعلهم يقرّرون اعتقاله ونفيه مع خمسة اخرين من قيادات كربلاء الى الهند في 2 آب/اغسطس1919 م ولكن وبتدخل الامام محمد تقي الشيرازي الذي طلب الافراج عنهم عند ا.ت. ولسون القائم باعمال الحاكم الملكي العام في العراق، استثني السيّد محمد علي الطباطبائي وتمّ ابعاده الى سامرّاء على الا يعود الا اذا يسمح له من قبل الإنكليز، بينما قامت ادارة ولسون باعتقال البقيّة وابعادهم. وبعد مضيّ اربعة اشهر لم يستطع ولسون سوى استرضاء الامام الشيرازي واعادة الجميع الى كربلاء حيث وصلوها في 2 كانون الاوّل 1919 فكان يوما حافلا في مدينة كربلاء وهي تستقبل المبعدين استقبال الابطال. (د.علي الوردي/لمحات..المصدر//ص106 – 109).

الشيخ محمد حسين ال كاشف الغطاء

الامام الشيخ محمد حسين بن الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء. ولد في النجف عام 1294 هجريّة ودرس التاريخ والادب والفلسفة والعلوم الدينيّة والفقه فيها حتى اصبح من كبار المجتهدين في العالمين العربي والاسلامي. وقد كانت له روابط شخصيّة وعلاقات واسعة مع علماء ومفكرين كبار في داخل العراق وخارجه. كما كانت له صلات مع قادة وزعماء وطنيّن عراقيّن وعرب ومسلمين، وقد وظفها من اجل نصرة الحق لوطنه العراق وللقضيّة الفلسطينيّة بشكل اميّ. ففي عام 1930حضرالمؤتمر الاسلامي في مدينة القدس لنصرة فلسطين، والقى خطابه الشهير فيه وقد قدمه العلماء الذين حضروا المؤتمر ليؤم- ما يزيد على الخمسين الف مصلي انذاك في المسجد الاقصى. كان متميّزا عن جميع العلماء العراقيّن بوعيه السّياسي العميق وبمعلوماته الواسعة في الشؤون الدوليّة. وكان يعيش كلّ حدث ويتفهّم ظروفه بشكل علمي وبعمق ويعطي وجهة نظره بواقعيّة وبعقلانيّة. وكانت مواقفه الوطنيّة الصّريحة والشجاعة مشهودة؛ وربما كان من ابرزها ردّه الشهير على دعوة (جمعيّة اصدقاء الشرق الاوسط في الولايات المتحدة الامريكيّة)

لسماحته للمساهمة في مؤتمر دولي تقرّر عقده في بحمدون في لبنان في سنوات الخمسينيّات يحضره كبار علماء الديانات والروحانيين من شتى الاقطار، بهدف تعبئتهم للتصدّي لما كان يطلق عليه انذاك بالخطر الشيوعي. ولم يكتف الشيخ الامام بالاعتذار عن حضور المؤتمر، بل كان ردّه للامريكان عبارة عن رسالة كانت في غزارة مادتها المكثّفة كتيّبا بتسعين صفحة من القطع المتوسّط بعنوان (المثل العليا في الاسلام لا في بحمدون- وقد طبع بالمطبعة الحيدريّة في النجف عام/1954) واصبح لتلك الرّسالة انتشارا واسعا اذ اعتبرها الكثير من المفكرين العرب والاجانب بمثابة ديناميتا نسف المؤتمر وافشل غاياته الخبيثة التي كانت تستهدف الطعن والتشكيك في حركات التحرّر والاستقلال في العالم وفي مقدمّتها فلسطين، تحت شعار مكافحة الشيوعيّة.

لم يعش الشيخ الامام طويلا بعد ذلك الموقف الشجاع حيث وافته المنيّة بعد ذلك بفترة قصيرة عن عمر (79 سنة) ودفن في النجف الاشرف.

علماء الدين والسّياسة

بسبب تعدّد وجهات النّظر السيّاسيّة، وتعصّب المنتسبين اليها، نسب بعض الباحثين لصفوة العلماء ولكبار مراجع الدين في تاريخ العراق الحديث صفاتا وادوارا مختلفة تتراوح بين القيادة المطلقة والتأثير المباشر للاحداث وبين موافع وتأثيرات ثانويّة بل والبعض يتجاهلها تماما، بينما هنالك فرق كبير بين حالتين للاحداث التاريخيّة من حيث الاسباب والنتائج:

فمسالة ان يتصدّى العلماء وكبار مراجع الدين ويساهموا في النشاطات الاجتماعيّة والسيّاسيّة كايّ شريحة من شرائح المجتمع وكجزء منه انطلاقا من واجبهم الشرعي والوطني فيتاثرّوا ويؤثروا بالاحداث. وبين ان يرجع المؤرّخ او الباحث جميع اسباب ونتائج الاحداث الى عامل الدين ورموزه الدّينيّة فيكون بذلك قد تجاوز الحياديّة والموضوعيّة المفروضة في المؤرّخ.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، يرى بعض الباحثين انّ جميع النشاطات السّياسيّة التي وقعت في العراق،خلال سنوات 1914 - 1920 وما بعدها، كانت بسبب العامل الذاتي الدّيني لافراد المجتمع او لقرار اتخذه هذا المرجع او ذاك، بينما هنالك مؤثرّات حياتيّة مباشرة، وعوامل اقتصاديّة وسياسيّة واجتماعيّة قد تطغي على العامل الدّيني أو على ايّ عامل آخر لتفعيل الحدث وتحريك النا س.فقد بقيت المدن والاماكن المقدّسة في العراق،لا سيّما كربلاء والنجف والكاظميّة والاعظميّة وباب الشيخ وسامرّاء، اماكن لها الطابع الرّوحي وممارسة الشعائر الدينيّة بعيدة عن السّياسة حتى اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الا انّه في عام 1908 وقع حادثان هامّان متزامنان وهما: قضيّة فتوى العلماء المراجع في

مسالة تحريم استعمال التنباك كوسيلة للاضرار بالشركات الاحتكاريّة الانجليزية العاملة في ايران. وكذلك اعلان كبار العلماء تأييدهم لحركة الاصلاح الدّستوريّة في الدولة العثمانيّة، وقد كان ابرز العلماء المتحرّكين سياسيا خلال تلك الفترة هو الشيخ الملا كاظم الاخوندي الخراساني.

ولا بدّ من الاشارة هنا الى انّ من ابرز النشاطات السّياسيّة لهم ايضا بعد ثلاث سنوات، افتاء كبار علماء النجف وكربلاء بواجب الجهاد الاسلامي ومناهضة الاحتلال الايطالي لليبيا عام 1911 حيث استجاب الناس انذاك لنداء العلماء للجهاد باموالهم وجاؤوا باسلحتهم وغالبيّتهم العظمى لا يعرفون مقدار المسافة بين العراق وليبيا.

وقد أضاف موقف صفوة العلماء ورجال الدين ضدّ الاحتلال البريطاني (1914 - 1917) رصيدا سياسيّا كبيرا لهم تتوّجت بذهابهم الى ساحات القتال بانفسهم على الرّغم من بلوغ بعضهم ما يزيد على الثمانين عاما (كالسيّد مهدي الحيدري من الكاظميّة)، وكذلك بفتاواهم المحرّضة بعد ذلك على ما عرف في تاريخ العراق الحديث بثورة العشرين الكبرى.

لقد ازدادت شعبيّة صّفوة العلماء ورجال الدّين في العراق مع مطلع القرن العشرين، حينما تجاوزت فعاليّاتها الامور الشرعيّة والنشاطات الرّوحيّة في المساجد والحسينيّا ت والتكايا، وبدات تخوض معترك السيّاسة وتولي اهتماما متزايدا في الشؤون الوطنيّة وهموم الا مّة، وتشاطر افراد المجتمع في التضحيات لا سيّما ثمن المطالبة باستقلال الوطن. وبسبب ذلك حققت هذه الصّفوة الدينيّة لدى الجماهير نجاحا وتأييدا واسعين اكثر من غيرها منذ مطلع القرن الماضي لانهّا أصبحت عنوانا للقيم الوطنيّة والاخلاقيّة النبيلة وفوق كل اتهام؛ وهذا امر طبيعي جدّا لانها كانت طيلة القرون الماضية تعلمّ الناس تربويّا مباديء الفضيلة والنزاهة وتغرس فيهم قيم الوطنيّة والمثاليّة العالية، وعاشت لقرون معارضة للسّلطة الظالمة والحاكم الجائر وهم في الغالب مع عامّة الشعب، يشاركونهم معاناتهم اليوميّة. لقد كان علماء الدين انذاك خارج السلطة السّياسيّة سويّة (مع المعارضين لها) يطالبون بانصاف المظلومين وضمان حقوقهم ويدفعون ثمنا لموقفهم. بينما الامر يختلف تماما حينما تكون صفوة رجال الدين(سلطة) ماسكة بزمام الحكم،او مساهمة وشريكة مع اخرين قد يكونوا مناقضين للقيم الدينيّة. فانّها عند ذلك تصبح في موقف المواجهة والمحاسبة وجها لوجه امام الشعب الذي يريد منها كلّ شيء ويحاسبها على كلّ شيء، صغيرة او كبيرة، ولا يرحم احدا منها مهما كانت منزلته الرّوحيّة والعلميّة، كما حصل في العراق بعد سقوط بغداد بيد الاميريكان وحلفائهم عام 2003.

فبسبب توليّهم مقاليد الحكم بشكل او باخر، فقد خسر عدد كبير من صفوة علماء الدين وقادة الاحزاب الاسلاميّة ذات السمعة الحسنة الكثير من ارصدتهم ومنزلتهم في المجتمع العراقي واتهموا باتهامات بعضها محققة واغلبها باطلة او مبالغ فيه، لانها بلا دليل ولا برهان. ولهذه الاسباب يرى الكثير من المفكرين والمراقبين لحركة المجتمع، انّ من الا نفع

للصالح العام ولجميع الاطراف بقاء صفوة رجال الدين والمؤسّسات الدينيّة في منأى عن تولّي مسؤوليّة الحكم سواء كان ذلك مباشرة او غير مباشرة، ولا سيّما تولّي مناصب الدولة العليا ومشاريعها. انّ من الاصلح لمقاماتهم ان يكونوا في موقع المراقب اليقظ لسلوك الحكومة واجهزتها وعينا على الحاكم وليس عونا له. فيكونوا بذلك كالاب الذي ينتفع بحكمته وبنفوذ مكانته في بيته، حاضرا للتدخل عند وقوع ايّ خطر او خطا جديّ يحرف مسيرة المجتمع والنظام والدولة.

موقف صّفوة العلماء من التوظيف

وعودة الى سياسة التميّيز في التوظيف في دوائر الدّولة الجديدة التي اتبعتها ادارة الانتداب البريطاني، لا سيّما منذ وصول المندوب السّامي السّير بيرسي كوكس بغداد عام 1920. وكذلك الحكومة المؤقتة لعبد الرّحمن النقيب وعبد المحسن السّعدون واخرين من بعدهم، فقد وقفت الصّفوة من رجال الدّين وعلمائهم (وفي مقدّمتهم الامام الشيخ مهدي الخالصي) بوجه اسلوب المساومة والتميّيز بين ابناء العراق. ففي مجال عمليّة تشكيل القوّات المسلّحة مثلا لم يقف علماء الدين الشيعة كما صوّر بعض المؤرّخين عن جهل او تعمّد ضد مشروع التجنيد الالزامي حينما تمّ انشاء الجيش العراقي لسبب طائفي او لمجرّد معارضتهم للحكومة القائمة انذاك وهم الذين قاتلوا بانفسهم وضحّوا بارواحهم وباموالهم حينما افتوا بواجب الجهاد الى جانب العثمانيّين (وهم سنّة حنفيّين) حالما نزلت القوات البريطانيّة في جنوب العراق، بل كان رايهم انّ عمليّة تشكيل وبناء القوّات المسلحة هي مسالة وطنيّة لا يمكن توفرها الا في دولة مستقلة وفي ظل حكومة دائميّة منبثقة من الشعب حريصة على اسرار القوّات المسلحة وسلامتها وان تحظى بدعم وتأييد مجلس تأسيسي منتخب تكون مهمّته الاولى؛ تشريع الدّستور الدائم وقانون الانتخابات والاشراف على انتخابات حرّة ينتج عنه ممثلوا الشعب الذين ينتخبون اعضاء الحكومة التي تنفذ السياسة التي يرسمها لها البرلمان " ..صحيفة الاستقلال عدد 32 في كانون الثاني/يناير1921...". وطبعا كان ذلك امرا بعيد المنال جدا في ظلّ واقع الاوضاع الرّاهنة انذاك (حيث الانتداب البريطاني المفروض على العراق من قبل عصبة الامم، بما فيه الوجود العسكري البريطاني، هذا بالاضافة الى واقع التخلف الشامل الذي كان عليه العراق وهو خارج لتوّه من نفق مظلم دام اكثر من أربعمائة عام..). لذا كان الاختلاف والصدام حتميّا بين النظرتين الوطنيّتين العراقيّتين للصّفوتين (الشريفيّة الواقعيّة) و (المثاليّة من صفوة المجتمع في المدن وزعماء القبائل والصّفوة العلمائيّة الدينيّة) في كيفيّة التعامل ومواجهة واقع الاحتلال ثمّ متطلبات واستحقاقات مرحلة انشاء مؤسّسات دولة العراق الحديث انذاك ماديّا ومعنويّا.

انّ عمليّة التوظيف في دوائر الدولة الجديدة للمملكة العراقيّة كانت تجري طيلة فترة الانتداب (1920 - 1933) بمقاييس واعتبارات يحددها المندوب السّامي البريطاني نفسه

(بالنسبة الى المناصب الوزاريّة والوظائف السّياديّة العليا العسكريّة والمدنيّة) وقصّة عودة ياسين الهاشمي ورفاقه للعراق خير دليل على هذا كما مرّ بنا سابقا. كما يقوم المستشار البريطاني المعيّن بجانب كل وزير عراقي باختيار من يراه مناسبا او يرضاه من مرشحّي الديوان الملكي اوايّ من الوزراء العراقييّن مثلما يمتلك حق رفضه.

هذا الوضع (الشاذ) لم تستطع الصّفوة الدينيّة ولا الزعامات الوطنيّة العراقيّة الاخرى استيعابه او قبوله كواقع مفروض ومعاش انذاك. ولهذا السّبب اصبح موقع الملك فيصل الاوّل وانصاره (الصّفوة الشريفيّة) بين مطرقة الوطنيين وصفوة العلماء من جهة وسّندان ادارة الانتداب البريطاني من جهة اخرى، حتى انتهاء فترة الانتداب ودخول العراق عصبة الامم عام 1933 حيث بدا العراق مرحلته الجديدة بالحكم وهو(الحكم الوطني).هذا الحكم الذي جاء يحمل التراث العثماني وينوء بثقل العقد التاريخية والعادات العشائريّة وبتعالي المدينة على الرّيف واحتكار السّنة للسلطة وحرمان الشيعة لقرون خلت، وحسد بدو البادية للمناطق الحضريّة، كل تلك الاخطار والاعباء التي لم تغب عن ذكاء وضمير الملك المؤسّس فيصل الاوّل (كما شخصّها هو بدقة الطبيب الخبير العالم وكتبها بقلمه بمذكرته الشهيرة في عام 1933) والتي عرضها على صفوة الصّفوة من وزرائه وكبار مملكته الوليدة بهدف دراستها والبدء بالعلاج حسب ما جاء بمشروعه النبيل الذي توقف ليموت بموت صاحبه المفاجيء بعد اشهر قليلة من توزيعها للبدء بالمرحلة الجديدة لمعالجة ما ورثته مملكته من الانتداب البريطاني من اخطاء وانحرافات.

الصّفوة وانشاء المملكة العراقيّة

كانت مكة المكرّمة هي نهاية رحلة بعض قادة ثورة العشرين الذين تركوا العراق بعد ان تمكّن البريطانيّون من اعادة سيطرتهم على معاقل الثوّار لا سيّما في الفرات الاوسط. وفي نيسان/ابريل اجتمعت لدى الشريف حسين بن علي مجموعة رسائل وبرقيّات من صفوة قادة واعيان العراق تطالبه بارسال احد انجاله ليكون ملكا على العراق.وبعد اطلاعه على نصوص تلك المراسلات، وبعد سماعه اراء زعماء العراق المتواجدين كلاجئين عنده، عرف الشريف حسين بانّ هناك اختلاف في الرّأي بين العراقيّين حول شروط قبول فيصل، فقرّر مصارحتهم، وفعلا اخبرهم بما دار بين فيصل والبريطانيّين في لندن حول العلاقات المستقبليّة بين الطرفين. (د.علي الوردي/لمحات اجتماعيّة/ج6/ص80-81).

انّ من الشائع في تاريخ العراق الحديث هو انّ سبب ذلك الاختلاف هو انّ العراقييّن كانوا بين مؤيّد لفيصل وآخر مؤيّد لاخيه عبدالله. وهذا راي غير دقيق، اذ انّ السّبب الجوهري هو سماع العراقيّين وهم بالحجاز بانّ فيصلا قد قبل بالانتداب البريطاني ثمنا لعرش العراق. ومن حججهم ايضا؛ قولهم بما انّ الامير عبدالله لم يعلن عن قبوله او رفضه للانتداب فقد

اظهر عدد من القادة العراقيّين تأييدهم لعبد الله بحجّة انّ في اعناقهم بيعة له والتيّ جرت في اليوم الذي بايع فيه السّوريّون فيصلا ملكا عليهم في دار بلديّة دمشق في 8/3/1920(العماد طلاس/المصدر../568- 567).

انّ المتتبّع للمناقشات بين الطرفين يجد انّ المسالة الاساسيّة المطروحة انذاك هي موقف المرشح من قضيّة استقلال العراق ورفض الانتداب جملة وتفصيلا. ولا اظن انّ في مقدور ايّ مرشح للعرش العراقي ان يعارض المقرّرات والتسويات التي وضعها الحلفاء المنتصرون بعد انتهاء الحرب العالميّة الاولى بما في ذلك نظام الانتداب، على العراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين،الذي فرضته عصبة الأمم كتسويه لممتلكات الدولة العثمانيّة التي خسرت الحرب واقتسام البلدان التي كانت تابعة لها والبلاد العربيّة جزءا منها.

لقد اكرم الشريف حسين بن علي وفادة الزعماء العراقيّن لا سيّما السيّد نور الياسري وعلي البزركان، وكثيرا ماكان الشريف حسين وولده الامير فيصل يكلفان الاخير بمهمات وصفتها الوثائق البريطانيّة بالخاصّة لا سيّما الاتصالات بالشام ومصر والعودة الى مكة (ايضا الوردي/لمحات اجتماعيّة/جزء 6/ص79-)،(د.خالد التميمي/المصدر../ص122).

وبعد ان ايقن الشريف حسين بترجيح كفة فيصل، حسم الموقف باحدى اجتماعاته حينما اخبر الحضور بانّ الحكومة البريطانيّة تفضّل فيصلا ليكون ملكا على العراق كما اعرب عن رايه بالوقت نفسه عن تأييده للرأي البريطاني بسبب معرفته الجيّدة بقدرات ولده فيصل.

لقد حاول الامير فيصل في مكة بكل ما أوتي من لباقة ودبلوماسيّة ان يقنع بعض القادة العراقيّن المعارضين للانتداب (وهم محمد جعفر ابو التمّن ومرزوق العوّاد ورايح العطيّة والسيّد محسن ابو طبيخ) بانّ الانتداب هو لمصلحة العراق وان لابد من قبوله ولو لفترة من الزّمن، ووعدهم بانه سوف يستبدله بمعاهدة بين الدّولتين، ولكنّ المعارضين لم يغيّروا موقفهم من الانتداب. ولهذا السّبب صحب الزعيم محمد جعفر ابو التمّن معه السّيد محسن ابو طبيخ وقابلا الشريف حسين من اجل انهاء الازمة. سال ابو التمّن الشريف حسين ان يوضح لهم الاساس الذي سيقوم عليه استقلال العراق؛ فردّ عليه الشريف حسين انّ استقلال العراق مشروط بقبول الانتداب البريطاني على العراق حتى تنتهي مرحلة الانتداب ويدخل العراق عصبة الامم. فسكت الاثنان وخرجا من عند الشريف وذهبا واجتمعا بالسيّد نور الياسري وحاولا الاتفاق معه على مقاومة شرط الانتداب ولكنّهما فشلا لانّ الياسري رفض وضع شروط على مبايعة فيصل.

اذنت الادارة البريطانية الحاكمة في العراق لفيصل ومن معه بالتوجّه للعراق على ظهر طرّاد حربيّ بريطاني اسمه "نورث بروك" في الاوّل من حزيران سنة1921، كما بعثت بالميجر كورنواليس من القاهرة ليرافق فيصل وليكون مستشاره الشخصي والوسيط بينه وبين المندوب السّامي في العراق. وقد تزامن في الوقت نفسه ان اصدرت حكومة عبد الرّحمن النقيب المؤقتة في بغداد في30 ايّار/مايو1921 بيان العفو عن جميع الذين شاركوا في ثورة

العشرين (عدا افراد قلائل) وكان الهدف من ذلك ان يسمح للزعماء العراقييّن مصاحبة فيصل ودخول العراق. فغادر فيصل ميناء جدّة في الوقت المحدّد يصحبه الضبّاط والزعماء العراقيّون الذين رافقوه في سوريا والقاهرة بالاضافة الى قادة ثورة العشرين الذين لجاوا الى الحجاز. ولم يتخلف عن مرافقة فيصل سوى اربعة زعماء وهم: محمد جعفر ابو التمّن ومرزوق العوّاد ورايح العطيّة والسيّد محسن ابو طبيخ. وحينما سالهم فيصل عن سبب تخلفهم اعتذروا برغبتهم في اداء فريضة الحج الذي كان موسمه قريبا. امّا ابو التمّن فقد ردّ عليه بقوله: "أرجو ان تعفيني من ان اكون من زّفافة هذا العرس" .

لقد كان واضحا انّ أبو التمّن والذين تخلفوا معه كانوا غاضبين بسبب قبول فيصل بالانتداب بعد تلك التضحيات الكبرى التي قدمها العرب عامّة كحلفاء لبريطانيا في الحرب العالميّة الاولى وما بذله العراقيون بشكل خاص من فداء من اجل الاستقلال في ثورة العشرين. وفي نفس اليوم الذي غادر فيه فيصل ميناء جدّة، ابرق ابو التمّن الى عمّه الحاج كاظم (الذي سبق له ان كان ناشطا جدا وحلقة الوصل بين قادة بغداد وقادة المدن المقدّسه وزعماء الفرات الاوسط في ثورة العشرين) ومضمون البرقيّة كانت: ((سموّ الشريف فيصل ابحر اليوم، اعدّوا الاستقبال اللائق !!))، ومضمون البرقيّة واضحا كما يبدوا وتعطي دليلا على انّ ابو التمّن اراد ان يصيب ببرقيّته

هد فين برمية واحدة؛ الاوّل ان ينبّه قادة الحركة المعادية للانتداب وفي مقدمتهم الشيخ مهدي الخالصي با نّ اللحظة الحاسمة لاختيار ملك العراق قد اقتربت وانّ عليهم ان يعدّوا انفسهم لذلك. والثاني اراد ان يكشف لخصوم فيصل ولمنافسيه على العرش بانّ فيصلا قادم الى العراق. وفعلا كان للبرقيّة اثرها فقد وقعت نسخة منها بيد عبد الرّحمن النقيب رئيس الوزراء واحد المنافسين لفيصل فاعطاها بدوره الى جون فيلبي (الذي كان لا يؤيّد ترشيح فيصل ومؤيّدا للمرشّح السيّد طالب النقيب) وساله عن صحة قدوم فيصل فانكر فيلبي علمه بالموضوع وطلب منه النقيب ان يعرض البرقيّة على المندوب السّامي برسي كوكس ليستفسر منه فوافق على ذلك. فاخذها فيلبي وقابل السير كوكس وقال له انّ الاسواق ملاى بالشائعات بانّ فيصل قد ابحر من جدّة متوجّها الى البصرة فهل ذلك صحيح؟ اجاب كوكس: "اؤكد لك يا فيلبي اني لا اعرف شيئا عن ذلك حيث لم تصلني مثل هذه الاخبار!!..". علما بان بيرسي كوكس كان يعلم بكل خطوة كان يخطوها فيصل وصحبه منذ انعقاد مؤتمر القاهرة الذي تقرّر فيه ترشيح فيصل لعرش العراق وحتى مغادرته جدّة. (د.خالد التميمي/ المصدر/ص121-124)

وبعد يومين من مغادرة فيصل جدة، 14 حزيران/يونيو 1921 القى ونستون تشرتشل بيانا، عن العراق، في مجلس العموم البريطاني بيّن فيه انه قد "أبلغت حكومة صاحب الجلالة البريطانيّة الامير فيصل انها لا تعارض ترشيحه، وانه اذا ما تمّ انتخابه فالحكومة البريطانيّة تؤيّده وهو الان في طريقه الى البصرة، ولاشك في انه اذا انتخب فيصل نكون

قد وصلنا الى حلّ فيه مستقبل ناجح سعيد للعراق.." /Letter no.153.F.O.371،6351 E6831/100/93.، (خالد التميمي/المصدر../ص124). وبثبوت اختيار فيصل لعرش العراق تبدا المرحلة العمليّة لانشاء المملكة الهاشميّة في العراق وبناء مؤسّسات الدّولة العراقيّة الحديثة وما رافقها من تطوّرات سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة والتأثيرات المختلفة التي تركتها مرحلة التأسيس على الصفوة العراقيّة.

الصّفوة العراقيّة وإقامة النظام الملكي

انتهت مرحلة الحكم العسكري البريطاني المباشر والتي امتدّت من سنة 1914 وحتى سنة1921، وفيها شهد العراق تطوّرات واحداث خطيرة اكتسب الشعب وصفوة قياداته منها خبرات سيّاسيّة واجتماعيّة كبيرة وواسعة واهمّ تلك الاحداث كانت ثورة العشرين الوطنيّة الكبرى.

لقد مارس الشعب العراقي بنفسه خلال فترة الادارة البريطانيّة المباشرة ولاوّل مرّة ادارة التعليم ودوائر البلديّات والبريد والتلغراف وبقيّة دوائر الدّولة على اسس واساليب حديثة وباشراف وتدريب بريطاني. كما استغلّ الوطنيّون مؤسّسات النظام الديمقراطي التي بدات بريطانيا بتطبيقه في العراق تدريجيّا وفي مقدّمتها اجازة اصدار الصّحف وحق التجمّعات والتظاهرات وانشاء الاحزاب السّياسيّة. وقد لعبت الصّحافة الوطنيّة والاجتماعات السيّاسيّة دورا رئيسيّا خلال تلك المرحلة في تعبئة الجماهير ونشر الوعي الوطني بين صفوفها ممّا عزّز من وحدة ابناء المجتمع ومن التفافهم حول قياداتها. كما لعبت المساجد والتكايا والحسينيّات دورها التاريخي كمراكز للفعاليّات وللنشاطات السّياسيّة والاجتماعيّة، وكانت اشهرها واكثرها نشاطا وفاعليّة هي باحات المساجد المحيطة بمراقد الائمة في النجف وكربلاء و في بغداد كالكاظميّة ومرقد الامام أبو حنيفة وجامع الحيدرخانة والسيّد سلطان علي وجامع الشيخ صندل وغيرها. (د. علي الوردي/لمحات اجتماعيّة/ج5 - القسم الاوّل/ص-180 194). ومثلما خرج الشعب العراقي وصفوته من تلك السّنوات بنتائج وتجارب ثمينة،عرف الاستعمار البريطاني وكذلك العراقيّون المتعاونون معه،لا سيّما بعد ثورة العشرين،اهمّ مصادر الخطر على مصالحهم الانيّة والمستقبليّة، كما حدّدوا هويّة خصومهم من ابناء العراق الذين أصبحوا (خصومهم التقليديّون)؛ الا وهم الصفوة من العلماء ورجال الدّين " من السنّة والشيعة " الذين تصدّوا للمشروع السيّاسي البريطاني الجديد ولايؤمنون بفصل الدين عن السيّاسة ونادوا باستقلال الوطن عن كلّ تبعيّة. لقد اصبحت هذه الصّفوة مصدر قلق شديد للبريطانيّين وحلفائهم من العراقيّين، ولهذا تقرّر تهميشها واقصائها عن ايّ دور سياسي حقيقي في المملكة الجديدة، كما صمّموا على اضعافها وتجريدها من مصادر قوّتها باساليب خبيثة حذرة وبدهاء شديد، ولكن من السّهل قراءتها تاريخيّا، وفي مقدّمتها خلق هوّة واسعة بين صفوة علماء الدين وبين الجماهير العريضة التي هي مادتها وذراعها. فمن

ناحية انسحب الانجليز من الادارة المباشرة للعراق وسلموا السلطة كاملة الى الملك والحكومة العراقيّة المؤقتة (الوطنيّة المنتخبة) لتقوم بادارة العراق وحكمه بعد تنفيذ سلسلة من الاجرات الدستوريّة والادارية والعسكريّة، وبذلك بعد ان كان الصراع مع البريطانيّين وجها لوجه،نجد الانجليز ينسحبون تدريجيّا من مقدمة المواجهة ليتستروا وراء الملك والصّفوة العراقيّة الشريفيّة التي تسلمّت السلطة الفعليّة بيدها وأصبحت وجها لوجه ومسؤولة امام كافة ابناء المجتمع العراقي. كما اصبح وضع صفوة العلماء ورجال الدين وبقيّة فصائل المعارضة الوطنيّة اكثر حرجا امام الناس لعدم تقديمهم البديل الواقعي لتمشية امورهم اليوميّة،فبدا المعارضون وكانّهم يقفون او يعارضون سلطة شرعيّة (وطنيّة وعربيّة واسلاميّة) منتخبة.

لقد حاول الملك فيصل الاوّل ان يوفق بين الطرفين ويراعي مصالح الجميع بكلّ ما عرف به من قدرات عالية ودهاء، الا انّ اهمّ العوائق التي حالت دون ذلك هي حالة التخلف والجهل الذي كان مخيّما علي العراق انذاك، وتشتت الولاءات وتمكن العقد التاريخيّة كالطائفيّة والعنصريّة والقبليّة من نفسيّة غالبيّة الحاكمين والمحكومين في العراق. وبنظرة فاحصة لمواقف الصّفوة العراقيّة خلال اهم الاحداث التي مرّ بها العراق نستطيع ان نلتقط ادلة كافية لمواطن الخلل التي كان عليها العراق منذ القرن الماضي والذي اصبح وباء متوطنا يعاني منه العراق حتى اليوم.

الصّفوة واجراءات تتويج فيصل

بينما كانت الباخرة التي تقلّ فيصل ومن معه تقترب من البصرة، سعى ناجي السّويدي واخرون من اعيان بغداد الى تشكيل وفد شعبي لاستقبال فيصل وعلى رأسهم جون فيلبي عن وزارة الداخليّة، وجعفر العسكري عن وزارة الدفاع، وقد تعمّد المندوب السّامي بيرسي كوكس البقاء في بغداد ليظهر حياديّته في مسالة انتخاب فيصل كمرشح للعرش.

وصل الامير فيصل ميناء البصرة في الخامسة والنّصف من عصر يوم 23 حزيران/ يونيو1921 وكان في استقباله وفد الصفوة العراقيّة من بغداد واعيان البصرة. ونزل فيصل في دار المتصرّف احمد باشا الصّانع.وفي صباح اليوم التالي اقيمت حفلة استقبال في دار المتصرّف حضرها صفوة الزعماء واعيان المدينة والمناطق المجاورة لها والقيت الخطب والكلمات الترحيبيّة بالمناسبة.

وبعد يوم واخر غادر ركب فيصل بالقطار الى بغداد مارّا بمدينة الحلة. كان الاستقبال في المحطات الواقعة بين البصرة والحلة ـ وهي من اهم مناطق الفرات الاوسط وقلب ثورة العشرين ـ فاترا = وقد اغاظ ذلك الفتور الامير فيصل.

.713-paras،712،3/15/C.I.D.Report،9 July1921،File no.7)
(.In:N.A.I،New Delhi

ومن مدينة الحلة توجّه فيصل الى النجف الاشرف لزيارة مرقد جدّه الامام علي بن ابي طالب عليه السّلام. وهناك قام بزيارة بعض العلماء والتقى في اجتماع كبير بوجوه واعيان المدينة والقى كلمة شكر فيها النجفيين ومدح ثورة العشرين كما مدح ثورة ابيه التي انطلقت من الحجاز ضدّ الاتراك. كما استمع الى خطباء النجف اثناء مادبة عشاء اقيمت على شرفه، وقد امتعض من الكلمة الحماسيّة التي القاها الخطيب الشيخ باقر الشبيبي (وهو احد رجالات ثورة العشرين وشعرائها) والتي جاء فيها:

"..واننّا قد ضحينا بكلّ غال ورخيص، فلا يمكن ان نسلم ثمرة جهودنا واتعابنا المريرة الا بيد امينة مخلصة على استقلال بلادنا واهدافنا ومصالحنا القومية والوطنيّة...".

لقد ادرك فيصل تماما بانّ هنالك هوّة عميقة تفصل قيادات الصّفوة العراقيّة وتقسّمها الى جبهتين متنافرتين وانّ مهمته صعبة وطريقه وعر لتوحيد العراقيّين. وفي يوم 27 حزيران غادر فيصل وموكبه متوجّها الى كربلاء المقدسة لزيارة مرقديّ الامام الحسين واخيه العبّاس عليهما السّلام، وقد وصف استقبال الناس له هناك بانه لم يكن حماسيّا، وهذا دليل جديد يؤكد ظنّه السابق. وبعد زيارة المراقد المقدسة عاد الامير ومن معه في اليوم التالي الى الحلة حيث تحرّك الرّكب بعدها الى بغداد. (د.خالد التميمي/المصدر/125).

وصل موكب الامير فيصل الى بغداد في 29 حزيران/يونيو حيث كان استقبال المدينة له اكثر حرارة، وعلائم الزينة والفرح واقواس النصر اكثر. وقد كان في استقباله في محطة القطار المندوب السّامي البريطاني السير برسي كوكس وسكرتيرته المس بيل والجنرال هالدين واعضاء مجلس الوزراء. كان وقت وصول فيصل في السّاعة السّادسة مساء.

باشر الأمير فيصل في استقبال الوفود الرّسميّة والشعبيّة ابتداء من كبار الموظفين البريطانيّين الى وفود الالوية (المحافظات) والمناطق المختلفة في الدّار التي كانت مقرّ الوالي العثماني السّابق في بغداد في بناية القشلة (المعروفة اليوم ببناية السّراي). وفي اليوم التالي قام الامير بزيارة مرقد الامامين موسى بن جعفر ومحمد الجواد عليهما السّلام في الكاظميّة، ولم ينس هناك زيارة اهمّ شخصيّتين في الكاظميّة وهما: السيّد محمد الصّدر والحاج عبد الحسين الجلبي وهما في بيتهما حيث القيت امامه قصائد الشعر والكلمات الترحيبيّة بالمناسبة.

يمكن ارجاع سبب برودة اللقاء وجفاف الاستقبال لفيصل من قبل صفوة العلماء ورجال الدين الشيعة في النجف وكربلاء والكاظميّة، هو انّهم لا يميلون الى اسرة الشريف الحسين بن علي بسبب تحالفه مع الإنكليز ضد الدولة العثمانيّة (المسلمة) كما ذكرت سابقا، واعتبروا فيصلا مرشّح الانجليز ورجلهم، وانّ جلوسه على عرش العراق يمثل استمرار الوجود البريطاني في العراق. وقد اجمل السيّد حسن الصّدر (والد السيّد محمد) راي العلماء بفيصل اثر اجتماع خاص عقدوه في الكاظميّة في اوائل محرّم 1921 (كما ورد في تقرير بريطاني سرّي):

"...انّ فيصلا من حيث النسب والخلق، رجل يليق به ان يكون محط امال العرب وامانيهم، ولكنّه رجل قد افسدته علاقاته وصلاته بالانجليز..." ثم استطرد التقرير البريطاني.. "... وفي خطاب فيصل الذي القاه يوم تسلّمه العرش واشارته الى صداقته مع الانجليز وثقته بالحكومة البريطانيّة ما يوفر الدليل القاطع - في زعم السيّد الصّدر - على انّ الرّجل فقد مكانته في أعين النّاس ولم يعد اهلا لها...".

وهكذا ومن خلال هذا التقرير وامثاله يمكننا التأكّد من ابتعاد غالبيّة قيادة الحركة الوطنيّة وفي مقدمتهم صفوة العلماء ورجال الدّين العراقييّن عن واقعيّة (الاحتلال والانتداب) ومتطلبات الخطاب السيّاسي ومناورات السّياسة لفيصل وما تتطلبه من مداهنات ومناورات ومساومات اذا ما اراد الدّخول، بقدراته المحدودة، في اللعبة السّياسيّة لا سيّما بين معسكرين غير متعادلين عسكريّا وسياسيّا واقتصاديّا انذاك: العراق، وبريطانيا.

وبعد يوم من زيارته الكاظميّة، قام فيصل بزيارة مرقد الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت في منطقة الاعظميّة، وقد قوبل بحماس مشابه لاستقبال اهالي الكاظميّة له. وبعد ذلك زار الامير مرقد وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وسط بغداد، وادّى صلاة الجمعة فيه وكان على راس المستقبلين هناك السّيد محمود الابن الاكبر للسيّد عبد الرّحمن النقيب (عميد الاسرة الكيلانيّة ورئيس الوزراء).

انّ جولة الزيارات للمراقد المقدّسة عند الشيعة والسّنة لتدلّ على انّ فيصل اراد ان يفهم الجميع بانّه سيكون ملكا للشيعة والسنّة على حدّ سواء.

وفي يوم 11 تمّوز 1921 وبناء على اقتراح من المندوب السّامي السير برسي كوكس، انعقد مجلس الوزراء برئاسة عبدالرّحمن الكيلاني حيث قدّم اقتراحا يطلب فيه المناداة بفيصل ملكا على العراق بشرط ان تكون حكومتة دستوريّة نيابيّة ديمقراطيّة مقيّدة بالقانون وقد وافق المجلس بالاجماع على ذلك.

تقرّر ان يكون يوم التتويج في 23 اب/اغسطس 1921، وقد اختار الامير فيصل هذا اليوم لكونه يصادف يوم 18 ذي الحجة حسب التقويم الهجري في ذلك العام، وهو اليوم المعروف عند المسلمين الشيعة باسم "عيد الغدير" الذي خطب فيه النبي (ص) اثناء حجة الوداع في موضع غدير خم، وممّا جاء في خطبته:" ... هذا عليّ من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه "ويعتبر الشيعة هذا النصّ اقرارا ووصّية من النبيّ صلى الله عليه وسلم بخلافة الامام علي بن ابي طالب عليه السّلام من بعده. ولا شكّ انّ الامير فيصل اختار هذا التاريخ كاقوى حجة شرعية يقدمها للعراقيين باعتباره هاشميّا لمبايعته بالملك.

جرى حفل التتويج المتواضع جدّا في الساحة الدّاخليّة لبناية القشلة (السّراي) قرب برج السّاعة حيث نصبت منصّة لجلوس الملك ومن معه، وقد فرشت بالسجّاد وكذلك الممر. جلس الامير فيصل على كرسيّ خشبي بسيط ووقف الى جانبه المندوب السّامي بيرسي كوكس

والجنرال هالدين وكورنواليس مدير الامور الشرقيّة في القاهرة (الذي طلبه فيصل ليصحبه في رحلته من الحجاز ليكون مستشاره في العراق) وكذلك قائد الفوج البريطاني في بغداد، والسيّد محمود النقيب(الابن الاكبر لعبد الرحمن رئيس الوزراء).

قام محمود النقيب وقرا نتائج الاستفتاء وقرار مجلس الوزراء والبيعة ثمّ هتف قائلا: "يحيى الملك"، ثمّ قرأ دعاء التتويج. (البازركان/ص239). وبعد ذلك رفع العلم العراقي اعقبه عزف النشيد الملكي البريطاني لعدم وجود نشيد وطني عراقي انذاك، ثمّ اطلقت احدى وعشرون طلقة. وبعد ذلك وقف الملك فيصل بن الحسين والقى خطبته المختصرة التي جاء فيها:

"اتقدّم الى الشعب العراقي الكريم بالشكر الخالص على مبايعته ايّاي مبايعة حرّة دلت على محبّته لي وثقته بي.. وهنا واجب اخر يدعوني لان ارتل ايات الشكر للامّة البريطانيّة التي أخذت تناصر العرب في اوقات الحرب الحرجة، فجاد ت باموالها، وضحّت بابنائها، في سبيل تحريرهم واستقلالهم.. وقد صرّحت مرارا بانّ ما نحتاجه اليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة امّة تمدّنا باموالها ورجالها، وبما انّ الامّة البريطانيّة اقرب الامم لنا، واكثرها غيرة على مصالحنا، فا نّنا سنستمدّ منها ونستعين بها وحدها على الوصول الى غايتنا المنشودة في اسرع وقت.. الا وانّ اوّل عمل أقوم به، هو مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيسي ولتعلم الامّة انّ مجلسها هذا هو الذي سيضع بمشاورتي دستور استقلالها على قواعد الحكومات السّياسيّة الديمقراطيّة ويعيّن اسس حياتنا السّياسيّة والاجتماعيّة ويصادق نهائيّا على المعاهدة التي سأودعها له فيما يتعلق بالصلات بين حكومتنا والحكومة البريطانيّة العظمى.. " وقد انهى الملك خطابه بفقرة مهمّة حيث قال: " واني لواثق تمام الوثوق بانّ الاستشارة مع فخامة المندوب السّامي جناب السير بيرسي كوكس الذي برهن على صداقته للعرب خلدّت له الذكر الجميل، سنصل الى غايتنا هذه بأسرع وقت ان شاء الله" .

لم يكن من بين الذين حضروا حفل التتويج واجراءاته ايّا من زعامات الصّفوة العراقيّة التي قادت الحركة الوطنيّة وثورة العشرين الكبرى،سواء من المدن أو من زعماء القبائل العربيّة او الكرديّة. وكانت مراسيم التتويج في شكلها العام على النمط البريطاني ولكنّها في غاية البساطة.

فيصل بن الحسين والواقع العراقي

كان لفيصل الاوّل تأثيرا مباشرا لاعلى تطوّر الصّفوة العراقيّة لوحدها، بل على مجمل حياة العراقييّن، فما ان انتهت مراسيم التتويج رسميّا، واصبح فيصل ملكا على العراق، حتى وجد نفسه امام واقع جديد وحقائق تختلف تماما عما كان الوضع عليه حينما كان في دمشق. ففي سورية كان التهديد له ولحكومته خارجيّا وهو الاستعمار الفرنسي الذي ازاحه

عن عرشه في نهاية الامر باحتلال عسكري لدمشق كما هو معروف. وكانت تجربته المرّة في سورية على كل حال قد علّمته الكثير لا سيّما في كيفية التعامل واقعيّا مع القوى العظمى وفي مقدّمتها بريطانيا الدولة المنتدبة على مملكته. لقد وجد فيصل نفسه ـ وهو في وضعه الجديد في العراق ـ مشدودا باتجاهات مراكز قوى مؤثرّة وفعّالة جدّا لا يمكنه تجاهل ايّا منها وهي:

اوّلا: الوجود البريطاني على ارض العراق بكل ما فيه من قوّة احتلال عسكريّ بقوّات بريّة وجويّة وباسلحة جبارة ومعنويّة موحّدة ومتكاملة تسير وفق مخطط مدروس ولاهداف محددّة. وقد سبق لفيصل ان عقد مع البريطانييّن اتفاقيّات وتعهّدات سياسيّة بشكل رسمي (في لندن مع كورنواليس ممثل رئيس الوزراء البريطاني، ومع ونستون تشرشل وزير المستعمرات في مؤتمر القاهرة) كما اشرنا. كما لابدّ من الاشارة الى (الشرعيّة الدّوليّة) للوضع البريطاني برمّته في العراق كدولة منتدبة مفروض بقرار دولي من عصبة الامم كجزء من تسويات ما بعد الحرب العالميّة الاولى.

ثانيا: الشريفيّون وكما اشرنا سابقا، وهم انصاره ومؤازروه من كبار الضبّاط وبعض العناصر المدنيّة التي خدمت تحت امرته وامرة ابيه في الحجاز واثناء ملكيّته القصيرة العمر في سورية؛ وهؤلاء رغم ولائهم واخلاصهم له، الا انّهم من ذوي المؤهلات العالية ولهم طموحاتهم الخاصّة وامال قوميّة مشروعة (في توحيد الهلال الخصيب: العراق والكويت وبلدان الشام بمساعدة بريطانيا). وهؤلاء الشريفييّن ـ في نظر فيصل ـ كانوا يظنون خطأ ان بريطانيا ستؤيّدهم في مشروعهم هذا وان عارضته حليفتها فرنسا المنتدبة والتي تحتلّ انذاك كل من سوريا ولبنان. هذا عدا انّ مثل هذا المشروع الوحدوي العربي كان وسيبقى دائما يتناقض جذريّا مع مخطط تنفيذ المشروع الصهيوني لمستقبل فلسطين والمنطقة برمّتها.

ثالثا: بقايا الارستقراطيّة العثمانيّة ذات الثقل والتاثير الاقتصادي والاجتماعي من صفوة العوائل العراقيّة المتنفّذة (كآل الكيلاني/نقيب بغداد ومن العلماء كآل الزهاوي وآل الشوّاف وآل النائب وآل النقشبندي وآل الالوسي وآل القيسي (ومنهم قاسم القيسي/مفتي الجزيرة) وآل الواعظ، ومن التجار كآل السّنوي وآل الشاوي وآل الحيدري وآل الجميل ومن الملاك الكبار كآل السّويدي وآل الخضيري. وجميعهم من ذوي الثراء والتجارة والاراضي الزراعيّة الواسعة في الريف والبادية ولهم املاك عقاريّة وسيطرة تجاريّة في المدن العراقيّة الكبرى ومعظم افرادها من جماعة كبار الموظفين من المتعلمين والمثقفين الذين يطلق عليهم انذاك بـ (الافنديّة). وكان لمعظم هؤلاء صلات زمالة وعلاقة حميميّة بالشريفيّين (مجموعة الملك فيصل) حيث سبق لهم وان درسوا سويّة في بغداد وإستامبول وعملوا معا في المشروع القومي العربي على الرّغم من انّ غالبيّتهم ترجع الى اصول غير عربيّة (تركيّة وكرديّة وكولمنديّة وداغستانيّة وغيرها).

لقد شغل ابناء هذه العوائل المناصب العسكريّة والمدنيّة وبعض الوظائف الدينيّة طيلة

العهد العثماني. كما برز من بينهم من لعب ادوارا خطيرة في تاريخ الدّولة العثمانيّة مثل شوكت باشا (والد ناجي شوكت رئيس وزراء عراقي سابق) والجنرال محمود شوكت (اخو حكمت سليمان احد رؤساء الوزارات العراقيّة) وصاحب انقلاب عام 1909 الذي اطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني في إستامبول. لقد ارادت هذه العوائل ان تبقى مهيمنة لوحدها على الدولة والحكم في العراق الجديد (بكل ما في الدولة من امتيازات ومنا فع) كما كانت في العهد العثماني. بل لم تكتف بذلك بل وبسبب نظرتهم الفوقيّة أخذت تنافس حتى الشريفيين وجميع اصحاب فيصل الاوّل وتحاول حرمانهم من الوظائف والامتيازات الاخرى في ظل الدولة الجديدة، وكانت ترى جميع العراقييّن الذين جاؤوا مع فيصل من الخارج وكأنّهم غرباء منافسين لها. فقد اعترض عزت باشا الكركوكلي على توزيع الرّتب وترفيع الضبّاط الشريفييّن في الجيش العراقي الحديث التشكيل، كما وقف بشدّة ضد تعيين نوري السّعيد رئيسا للاركان. بل اتصلت عناصر منهم بالاتراك ليعودوا للعراق مرّة اخرى وابدوا نشاطا ملحوظا بهذا الخصوص عندما اثيرت مشكلة الموصل مع تركيا ولكنهم تداخلوا وتصاهروا فيما بعد بالتدريج مع بعضهم البعض بفضل جهود فيصل وبواقع التركيبة السّياسيّة والطائفيّة التي اقرّتها وساندت امتيازاتها الدولة المنتدبة على العراق؛ بريطانيا.

لقد ادرك فيصل بانّ هؤلاء (الصفوة الارستقراطيّة، العثمانيّة - الشريفيّة) لم يستوعبوا ولا يريدون ان يتقبّلوا تحوّل الزمن وحلول الواقع الجديد والمجتمع الجديد في العراق الذي يتطلب توسيع عمليّة المشاركة في السلطة لجميع المكوّنات الوطنيّة للشعب العراقي. ولذلك بذل اقصى جهده لتوحيد جميع اطراف المكوّنات العراقيّة خلال فترة حكمه القصير.

رابعا: امّا الاتجاه الرّابع الذي ادرك فيصل قوّته وعمق جذوره في الارض واصبح شغله الشاغل فهم القبائل العربيّة المنتشرة في الوسط والجنوب.ولانّ غالبيّتهم العظمى من العرب القحطانيين المسلمين الشيعة الذين وقفوا الى جانب المسلمين الترك وقاوموا الانجليز منذ ان وطأت اقدامهم ارض العراق وحتى ثورة العشرين الكبرى. فقد عرف بحنكته السّياسيّة وباطلاعه الواسع بانّ غالبيّة الصّفوة من هؤلاء يشدّونه باتجاه مخالف لاتجاه التعاون مع البريطانيّين، في وقت كان فيه بامسّ الحاجة الى دولة عظمى تحمي مملكته الفتيّة من الطامعين المستنفرين المتربصين بحدوده، والتي تساعده في ترسيخ اركانها وتثبّت مؤسسّاتها السّياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والعسكريّة.

لقد كان فيصل على يقين بانّه مثلما هو مدين بعرشه الى بريطانيا، فهو مدين لهذه القبائل العربيّة ولمرجعيّاتها اكثر؛ اذ لولاهم ولولا ثورة العشرين الكبرى وقبولهم به لما اقتنعت بريطانيا بقبول ترشيحه ملكا وبالمطلب المركزي للثورة لاقامة (مملكة دستوريّة مقيّدة بمجلس نيابي منتخب وعلى راسها احد ابناء الشريف حسين بن علي).

لقد كان فيصل يرى انّه امام التزام شرعي وقانوني واخلاقي تجاه هذين الطرفين المتناقضين، وقد نجح طيلة حياته القصيرة ان يمسك العصا من المنتصف ويلعب لعبة التوازن بينهما ومع

الإنكليز بابتكاره فلسفته السّياسيّة وشعاره الشهير " خذ وطالب " . ولانّ البريطانييّن على يقين بهذه الحقيقة، فقد اتبعوا معه سياسة مرنة وضعوا فيها فيصلا وحكومته العراقيّة واجهة " وطنيّة عراقيّة " لتحقيق اهدافهم الاقتصاديّة والسّياسيّة والعسكريّة في العراق. وقد نفذت تلك السياسة بنجاح طيلة فترة الانتداب البريطاني على العراق (1932 ـ 1921) ووضعت الاساس للعلاقات العراقيّة ـ البريطانيّة استمرّت حتى انهيار النظام الملكي في انقلاب 14 تمّوز 1958.

خامسا: وجود صفوة من العلماء والمراجع الدينيّة الذين لهم مكانتهم الرّفيعة مثلما لهم نفوذ كبير على الغالبيّة العظمى من المجتمع العراقي سواء من الشيعة ام السّنة،كما انّ لهم احتراما واعتبارا لدى الديانات الاخرى في العراق وخارجه.

كان الملك فيصل الاوّل وموظفو الادارة البريطانية (لا سيّما دائرة المندوب السّامي في بغداد) يراقبون تصرّفات صفوة الحوزات العلميّة والجوامع والمدارس الدينيّة في بغداد والكاظميّة والاعظميّة وسامرّاء والنجف وكربلاء ويضعونها في حساباتهم وفي كافة خطواتهم السّياسيّة الـتي يتخذونها في العراق. ولهذا السّبب وضع بيرسي كوكس (وسكرتيرته المس بيل) مخططا، قبل قدومه الى بغداد، يتضمّن في مقدّمة اولويّاته اضعاف مكانة هذه الصّفوة الدينيّة والتخلص من نفوذها نهائيّا بشتى الوسائل التي كانت متيسّرة لديه انذاك. ومثلما فشل الملك فيصل الاوّل في محاولاته لاقناع الصّفوة العلمائيّة ليتقبلوا سياسته "..خذ وطالب.." ومداهنة موظفي الانتداب ويكسبهم الى جانبه، نجح بيرسي كوكس بمهمّته حينما استخدم سياسة فرّق تسد، وجعل حكومة عبد الرّحمن النقيب (الوطنيّة) وسيلة للتخلصّ من العلماء الغير مرغوب فيهم بتسفيرهم الى ايران باعتبارهم تبعيّة ايرانيّة، رغم عروبيّة غالبيّتهم. انّ من المع اسماء صفوة الافراد والعوائل من العلماء والمراجع الدّينيّة واكثرهم تأثيرا على كافة اصناف ومكوّنات المجتمع العراقي من الشيعة انذاك هم: آل محمد تقي الشيرازي (الحائري) وآل ابو الحسن الاصفهاني وآل مهدي الحيدري وآل الشيخ مهدي الخالصي وآل الياسري وال السيّد محمّد سعيد الحبّوبي وآل الشبيبي وآل الشيخ محمد جواد الجزائري وآل الخليلي وآل الشيخ راضي وآل الصّدر وآل الجواهري وآل بحر العلوم، ومن السنّة اشهرهم: آل الشيخ يوسف السويدي وال الشيخ سعيد النقشبندي وآل النائب وآل الزهاوي وآل الكيلاني وآل النقيب وآل الباججي وآل الشوّاف وآل القيسي. وفي الوقت الذي فشلت فيه محاولات الإنكليز المتكررّة ان تحصل على متعاونين معهم من صفوة العلماء والمراجع، الا انّ ادارة الانتداب نجحت مع عدد قليل منهم جدّا... "وفي مقدّمة المتعاونين واكبرهم سنّا كان السّيد كاظم اليزدي الذي رفض نداء الجهاد ضد الإنكليز..".

،،A History of Iraq ،pp:70 - 75 (Charles Tripp)

وكما وصفته الاستخبارات البريطانيّة ايضا بانّه ".. من المتعاونين معهم ويكره الدستوريين ويكره التعاون مع العلماء الذين يعادون بريطانيا..". (حسن العلوي/الشيعة والدولة القوميّة

في العراق/ط 2/دار الزوراء- لندن/ص 306 - 98). ومن الذين ايّدوا البريطانييّن ايضا: السيّد هادي الهندي ومحمد اغا الشيخ علي والشيخ محمد رضا آل كاشف الغطاء والسيّد جعفر بحر العلوم الطباطبائي. (د. وميض عمر نظمي/ثورة العشرين/ط2/ص307)،(د.علي الوردي/لمحات/ج5 – قسم1/ص90).

ازدواجيّة السّلطة ام ازدواجيّة الصّفوة

يمكن تسمية فترة حكم فيصل الاوّل بالملكيّة المزدوجة. ففي الوقت الذي نصّب فيه فيصل ملكا على العراق، كان المندوب السّامي البريطاني مفروضا عليه من قبل عصبة الامم، باعتباره ممثلا لدولة الانتداب، بريطانيا، ليمارس نفوذا لا يقل عن نفوذ الملك في تمشية امور المملكة ان لم يكن اكثر منه، ممّا ولّد تناقضا كبيرا بين ما يُعلن وبين الواقع المعا ش انذاك، وكان ذلك يشكل خرقا واضحا للدستور العراقي. وقد وصل تبرّم الملك فيصل الاوّل من نفوذ المندوب السّامي على شؤون المملكة العراقيّة انه سمّى ذلك الوضع "بالوضع الشاذ" . وعلى الرّغم من ان هذا الوضع كان متفقا عليه رسميّا وشخصيّا مع فيصل قبل وصوله للعراق، الا انّ فيصل كما يبدو وفي ظل واقع الانتداب المفروض عليه دوليّا، قد قبل اقتسام السلطة مع المندوب السّامي على مضض واطلق عليه " بالمشورة البريطانيّة " لحفظ ماء الوجه ولتهوين الامر عليه امام الرأي العام العراقي. وقد استطاع ان يبني علاقة شخصيّة خاصّة مع المندوب السّامي ومع كبار موظفي الادارة البريطانيّة في العراق ولندن (لا سيّما مع اربعة منهم وهم: السير بيرسي كوكس والمس بيل وكورنواليس وتي. لورنس صديقه القديم)، وقد نجح في ذلك الى حدّ كبير بمناوراته الذكيّة وبكفاءته النادرة وبشخصّيته الجذابة الاسرة واستطاع ان يأخذ ما يمكنه اخذه من السّيادة في ظل واقع علاقة الضعيف مع القويّ والخاسر مع القويّ المنتصر.

لقد عاش فيصل كملك على العراق احد عشر سنة (1933 ـ 1921) وهي حياة قصيرة ولكنّها كانت حافلة بالانجازات العظيمة للعراق. وكانت سنوات متعبة ومريرة وغير هانئة له ولاسرته الصّغيرة التي كابدت وعانت الكثير من الام غارات البدو الوهابييّن حينما كانوا في الحجاز اولا، وكذلك الام العراق محطتّهم الجديدة فيما بعد.

لقد كانت الصّفوة العراقيّة منقسمة على نفسها في تعاملها مع الملك فيصل الاوّل؛ فقد ساعدته مجموعة منها، واغلبهم من الرّجال المتعلمين الاكفاء وهم "الشريفيّون" وقد سبق الحديث عن بعضهم. هؤلاء وقفوا مع فيصل وآزروه في بناء مملكته الجديدة ووضع قواعدها واسسها. لقد كانوا على مستوى عال من الوعي والادراك بالواقع الذي يعيشه العراق (والمنطقة العربيّة برمّتها انذاك)، لا سيّما في كيفيّة التعامل مع واقع الانتداب البريطاني المفروض على العراق. وقد نجحوا في بناء العراق الحديث ضمن امكانيّاتهم المحدودة جدا

انذاك (حيث لم يستخرج مادة النفط بعد) وبواقع المجتمع العراقي المتخلف وتناقضاته.

وهناك القسم الاخر من الصّفوة التي أتعبت فيصل وأرهقته على الرّغم من انّها قد ساهمت باختياره وبايعته وتتمثل بالقادة الوطنيّن لا سيّما في المدن من التجّار والمثقفين والشعراء والادباء واصحاب الحرف. هذه المجموعات قادت معارضة وطنيّة قويّة وجريئة وكانت صعبة المراس ولها تأثير ساحر على الجماهير وتعباتهم وتحريكهم في ايّ وقت تشاء وبالاتجاه الذي تريده. ومثلما هي مكوّنة من عناصر ورموز وطنيّة متعاونه في ما بينها في نشاطاتها السّياسيّة لاسقاط ايّة حكومة (سواء في عهد فيصل او الحكومات التي تلته)، الا انها لم تستطع ان تقدّم حلولا واقعيّة وعمليّة بديلة تساعد فيصل على الوقوف بوجه السّياسة البريطانيّة انذاك، فلم يكن امامه الا الاستمرار بسياسته الشهيرة "خذ وطالب" والاعتماد على مجموعتة (الشرّيفيّن)، اذ بسياسته هذه استطاع فيصل ان يحقق ما يمكن تحقيقه ضمن الواقع والظرف الزمني والسّياسي والموارد الماليّة المتواضعة لمملكته الوليدة وبقيّة جوانب الواقع الذي كان يحيط به.

انه ليس من الدقة ان يقال انّ فيصلا نجح في خلق توازن بين الوطنيّن وبين الانجليز لانّ جوهر التوازن بالاساس يكون معدوما بين مصلحتين متناقضتين وبين كفّتين غير متكافئتين. فبريطانيا (او غيرها) لم تكن لتتخلى عن التحكم بشكل او باخر ببلد احتلته عنوة وبذلت الدماء والاموال من اجل السّيطرة عليه لاستغلاله، لا سيّما بلد الثروات والاهميّة الاستراتيجيّة كالعراق.

وعلى الرّغم من انّ العراق به شعب ابيّ صعب المراس،الا انّه كان لا يزال انذاك ينوء بمخلفات ما يزيد على الاربعة قرون من الحكم العثماني المتخلف، ومن تراكمات تاريخية معقدة. وحينما أصبحت بريطانيا منتدبة على العراق بموجب قرار دولي من عصبة الامم، فانّ ذلك قد اعطاها "شرعيّة" دوليّة لاستمراريّة احتلالها للعراق كراعية له وللاشراف على تطويره الى حين ان يكون مؤهّلا للاستقلال حسب التبريرات المعلنة انذاك من قبل عصبة الامم. ومما زادت بريطانيا قوّة وتحكمّا فيه،هو نجاحها في اخماد ثورة العشرين الكبرى وانتكاسة المقاومة الوطنيّة وتبعثر قياداتها في المنافي الداخليّة والخارجيّة وانقسام مواقف صفوتها القائدة. الا انّ من اهم ايجابيّات ثورة العشرين هو انّ بريطانيا قد تلقت منها درسا قاسيا، بخساراتها البشريّة والماليّة، جعلتها تخرج بنتيجة مهمّة؛ هي انّ العراق والعراقيّن لا يمكن ان يحكموا كبقيّة مستعمراتها، وانّ لابدّ لها من الوصول الى صيغة للتفاهم مع العراقيّن. وقد ادرك فيصل ذلك جيّدا واستثمره في لعبته السّياسيّة "خذ وطالب" مع شعبه من جهة، ومع البريطانيّن من جهة اخرى لدعم عرشه وكذلك لتثبيت اركان مملكته الفتيّة. لقد كان فيصل بامس الحاجة الى الدعم الداخلي والخارجي؛ وقد وجد بالصّفوة العراقيّة "الشريفيّون" انصارا مخلصين ومؤهلين علميّا وعمليّا للقيام بالدور المطلوب منهم، فرضي بهم ورضوا به لانجاز متطلبات الداخل، مثلما وجد في بريطانيا خير عون وسند له ولمملكته لصيانة حدوده من

الاطماع الخارجيّة، والنهوض ببلاده. وكان لابدّ له من قبول الاثنين (الشريفيّون وبريطانيا) على علاتهما على الأقل حتى انتهاء فترة الانتداب ودخول العراق كدولة مستقلة في عصبة الامم عام 1932. فبعد هذا العام بدا فيصل يتململ جهارا ويكشف الاخطاء المستشرية في مملكته وقد اعلنها صراحة بمذكرته الشهيرة التي وزّعها على صفوة الصّفوة في مملكته لدراستها وايجاد منهج جديد تسير عليه مملكته. (راجع عبد الكريم الازري/المصدر/ص2) كبداية لمنعطف جديد ومسيرة جديدة، الا ان موته المفاجيء عام 1933 وعمره انذاك لم يتعد الخامسة والاربعين سنة اوقف المشروع برمّته. وعادت الصّفوة العراقيّة مستقطبة ومختلفة الاهواء والاتجاهات ما ان تنتهي من ازمة حتى تدخل باخرى اكثر تعقيدا واشدّ ضررا. فبعد وفاة الملك فيصل الاوّل بدا الاستقطاب واضحا بين زعماء وقادة الصّفوة العراقيّة كافراد وكتل ومكوّنات حزبيّة جوهرها الاطماع الشخصيّة بالسلطة والاستحواذ على امتيازاتها وان كان احيانا مغلفا بقناع عقائدي، الا انّ جوهره اناني او طائفي او مناطقي او عرقي.

أزمة الحكم والسّلطة

لقد بدات ازمة الحكم في العراق عمليّا منذ اليوم الاوّل بعد انتهاء مراسيم التتويج. فتبعا للاصول الدستوريّة، قدّم رئيس الوزراء عبد الرّحمن النقيب استقالته في 23 اب/اغسطس 1921 وبات مؤمّلا (لدى زعماء الصّفوة المعارضة للبريطانيّن) ان يمارس الملك حقه الدستوري باختيار رئيس جديد لوزارة وطنيّة غير خاضعة للانجليز خاصّة بعد زوال مسبّبات مجيء الوزارة الانتقاليّة الاولى المعروفة بولائها التام لبريطانيا. وبدا فيصل بالاتصال برموز وزعماء ثورة العشرين؛ وقام الملك بتكليف زعيم ال فتلة الشيخ عبد الواحد الحاج سكر (المعروف بوطنيّته وبشدّة التزامه الديني وبثقة كبار علماء الدّين به) الذهاب الى النجف ليطلب من كبار العلماء التعاون مع الملك لتشكيل الوزارة الجديدة.

ذهب الشيخ عبد الواحد الحاج سكر الى النجف وبعد ان تحدّث مع كبار العلماء، بعث من هناك برسالة الى الملك نيابة عن العلماء جاء محتواها انّ العلماء عرفوا بانّ المندوب السّامي بيرسي كوكس كان مصرّا على اسناد رئاسة الوزارة الى عبد الرّحمن النقيب للمرّة الثانية، كما انّ بيرسي كوكس يتدخل باختيار الوزراء وخاصّة وزارة الداخليّة. لقد عكست رسالة الشيخ عبد الواحد ايضا وجهة نظر اخرى للعلماء فممّا جاء فيها:

"...وقد امروني (العلماء) ايضا ان اعرض لحضرتك انهم بعد ان ائتمنوك على ملوكيّة العراق فهم يأتمنوك ايضا على تعييّن الوزراء بنظرك العالي.. وانهم يأملون من جلالتك ان لا تجعل في هذه المناصب الا المتديّن المسلم الوطني خصوصا رئاسة الوزارة واخصّ منها وزارة الدّاخليّة...". وقد اكدّت الرسالة في اواخر سطورها على امر بالغ الاهميّة فيما يتعلق باهتمام العلماء بوزارة الداخليّة اذ جاء في نهاية الرسالة: "..واهم ما عندهم (العلماء) فعلا

سرعة اقدامك في تعيين وزيرا للداخليّة متديّن عارف بتعييّن المأمورين الذين بسببهم يصلح تشكيل المؤتمر (التأسيسي) او يفسد..." د. علي الوردي/لمحات/ج 6/ط 1976/ص-121 .122

انّ اوّل ما يلفت نظر قاريء الرّسالة انها تفتقر الى دبلوماسيّة التعبير والتخاطب، وكانّ محرّريها (الشيخ جواد صاحب الجواهر والشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ عبد الواحد الحاج سكر) لا يعلمون انّ كتابة الرسائل انما تعكس منزلة المرسل والمرسل اليه، وانّ هذه الرّسالة مرسلة الى ملك العراق، بكل ما في شخصه من مكانة موقرّة ومن قيم وامجاد حسبا ونسبا وتاريخا.

وبقدر ما أثقلت الرسالة من مطاليب هم يعلمون جيّدا انّ من الصّعب على فيصل تحقيقها، فانّها قد تجاهلت تماما واقع الوجود البريطاني في العراق ونظام الانتداب عليه. وكما يبدو من فقرات الرّسالة، انّ اهتمام هذه الشريحة من الصّفوة العراقيّة كان منصبّا على احراج الملك لكي يكشف عن نوعيّة الوزارة الاولى بعد التتويج لانها اوّلا ستكون محّكا وامتحانا لقدرة الملك ومدى مساحة حرّيته في التصرّف في امور الدّولة، او بمقدار امتثاله للانجليز، وثانيا سيكون لهذه الوزارة الدور الفعّال لانتخابات المجلس التأسيسي الذي يعوّل عليه سنّ الدستور الدائم وقانون الانتخابات ومستقبل العراق السياسي وبناء المؤسسّات الدستوريّة. وانّ مجيء رئيس وزراء ووزير داخليّة غير مشكوك في وطنيّته ونزاهته سوف يمنع تعيين المأمورين والموظفين الذين يخشى منهم تزييف ارادة الناخبين.ومع ذلك كان ردة فعل الملك للشيخ عبد الواحد الحاج سكر على درجة عالية من الهدوء والحكمة والتواضع، اذ انّه اعرب عن رغبته بتعيّين من يرضى عنهم جمهور العلماء وقادة الحركة الوطنيّة. الا انّه وكمناورة منه، ما ان اختلى بسكرتيرة المندوب السّامي (المس بيل)، حتى اعلن لها عن رغبته بتعيين رجل غير مكشوف بخضوعه للانجليز محاولا بذلك تهدأتهم، الا ان ذلك لم يرضي الإنكليز ممّا نتج عنه الازمة المعروفة بين الملك وبين المندوب السّامي والتي تضمّنت ثلاث مواضيع اساسيّة وهي:

تشكيل الوزارة بما فيها اختيار وزيرا للداخلية، والموقف من غارات ابن سعود/ الوهابييّن، وحضور الملك مؤتمر كربلاء. (د. علي الوردي/المصدر/ج 6/ص 123،161)(رسائل مس بيل/ ج2 ص 242).

لقد كان الملك فيصل يعاني كثيرا من تعنّت وضغوط العلماء والمراجع الدينية، وقد حصل المؤلف على وثيقة بريطانيّة سريّة تكشف ضيق صدر الملك من تدخل علماء الدين بالسّياسة ومحاولته تقويض مصادر الدعم المادي والمعنوي لهم من اجل اضعافهم ماديّا ومعنويّا. فقد كتب رسالة سريّة بخط يده الى المندوب السّامي بيرسي كوكس حيث جاء ببعض فقراتها:

"...واني على يقين تام باننّا اذا تمكنّا من استمالة المشايخ (زعماء القبائل) وفصلهم بهذه الكيفيّة عن العلماء الذين يظنونهم مطيعين لهم طاعة عمياء نبلغ ما نريده من النجاح في

الانتخابات وتصديق المعاهدة بدون قلق. والمعتقد انّ ذلك سهل المنال وانّه باتباع سياسة اللطف والنصفة (ويقصد الانصاف) مع كافة المشايخ على السّواء من قبل المأمورين والمشاورين (المستشارين الانجليز) لا يستطيع احد الوقوف امامنا...". كل ذلك كان يجري واعوان الملك واجهزة الحكومة ينشرون اشاعات تؤكدّ تصميم الملك على تشكيل وزارة وطنيّة برئاسة الشيخ يوسف السويدي واعطاء وزارة الداخليّة الى ناجي السّويدي والعدليّة الى عارف السّويدي والعمل الى نوري السّعيد والمعارف الى فهمي المدرّس والاوقاف الى الشيخ احمد الداود والماليّة الى حمدي الباججي والتجارة الى محمد جعفر ابو التمّن. وقد اراد الملك فيصل وحكومته من نشر مثل هكذا اشاعة استرضاء الصّفوة من زعماء الحركة الوطنيّة في المدن وفي منطقة الفرات الاوسط، بهدف عزلها عن القيادات الدينيّة المتشددّة. ومن جهة اخرى اثار حالة الشك والقلق في نفوس الشيعة حول مستقبل وحدود مشاركتهم بالسلطة السّياسيّة في النظام الجديد، لانه ليس من الصّدفة ان يكون المرشحين جميعهم من الطائفة السنّية عدا ابو التمّن كان من الشيعة. ومع كل تنازلات فيصل ومداهنته لبيرسي كوكس تلك، الا انّ الاخير كان يعتبر مرشحي فيصل للوزارة وللمتصرفيّات في الفرات الاوسط انذاك من المتطرّفين الذين ساهموا او تعاطفوا مع ثورة العشرين. ومع كلّ ما اشيع فقد انجلت الحقيقة في العاشر من ايلول/سبتمبر1921 حينما اسند الملك رئاسة الوزارة لعبد الرّحمن النقيب للمرّة الثانية صاحبتها انتشار خبر في المحافل والدواوين تقول انّ بيرسي كوكس قد فرض على الملك اسماء اعضاء الوزارة الجديدة. وكان امام الوزارة مهمّات اساسيّة وهي:

اجراء انتخابات المجلس التأسيسي، وسنّ الدستور للبلاد، تشريع قانون الانتخابات، والموقف من الانتداب البريطاني وتنظيم العلاقة مع بريطانية... وغير ذلك من الامور المصيريّة للعراق.

وفي تلك الاثناء لاحظ المراقبون انّ الاجواء السّياسيّة العراقيّة فجاة قد طغت عليها في تلك الفترة موجة صاخبة من الطائفيّة، وقد اصبح الشغل الشاغل للناس قضايا جانبيّة منها انشغال المجتمع البغدادي انذاك لفترة طويلة بموضوع يتعلق بموقف مدير مدرسة الحقوق (توفيق السويدي) من مسالة قبول الطلبة الشيعة لدراسة الحقوق واعتبار حجج رفضه لهم واهية، مما دفع اولئك الشباب المتقدمين وذويهم الى اثارة القضيّة لدى الوزارة والبلاط الملكي (د.علي الوردي/لمحات/ج 6/طبعة 1976/ص -125 128). وبعد مدّة من الاخذ والرّد وتدخل الملك فيصل الاوّل شخصيّا لحلّ الإشكالات، قبلت شهاداتهم الثانويّة مع العلم انّ شهادات الارمن واليهود والنصارى قد قبلت بدون تردّد. وبعد ان اثبت الطلبة للاستاذ ساطع الحصري (الذي كان يشغل مديريّة المعارف العامّة) انّ مدير مدرسة الاليانس اليهودي كان يبيع الشهادات المزوّرة بمبلغ خمسين روبّية للشهادة الواحدة، وانّ مدير مدرسة الارمن ارتين كيدوريان كان يبيعها بمبلغ ثلاثين روبيّة. بينما كانت المدرسة الجعفريّة هي المدرسة

الوحيدة للطائفة الشيعيّة الجعفريّة ومعترف بها منذ العهد العثماني سنة 1908 وانّ مديرها الشيخ شكر الله كان من افضل المربّين وقد شغل مركز القاضي الجعفري منذ سنة 1918، وانّ هيئتها الاداريّة قد ضمّت نخبة جيّدة من اعيان بغداد من السنّة والشيعة.

وما ان انتهت قضيّة مدرسة الحقوق، حتى هبّت هجمة اخرى قادها ساطع الحصري ايضا حول ظاهرة مواكب التعزية حول ذكرى استشهاد الامام الحسين بن علي في كربلاء في العشر الاوائل من شهر محرّم وتوجيه النقد الشديد للملك فيصل بسبب حضوره تلك المناسبة وتبرّعه بالمال للقائمين بالاحتفال (د.علي الوردي، المصدر ص129). هذا بالاضافة الى قضايا طائفيّة اخرى اثيرت في تلك الفترة ولم تنتبه لها او تتصدّى لها بجديّة غالبيّة الصّفوة العراقيّة انذاك.

الصّفوة العراقيّة والمؤسّسات الديمقراطيّة

اخذ الخلاف بين فيصل والصّفوة من علماء الدين الشيعة يتبلور ويزداد يوما بعد يوم منذ ان بدا فيصل يمارس مسؤليّاته كملك. فعلى الرّغم من انّ مظاهر فيصل كانت تبدو للكثيرين بانّه اراد التقرّب من العلماء (وكان جادا ومخلصا في ذلك) الا انّ الامور سارت خلاف ذلك. والسّبب هو اصرار الصّفوة من علماء الشيعة (بما لهم من نفوذ على الزعامات الشيعيّة في المدن والقبائل والعامّة من النّاس) على رفض سياسة فيصل (خذ وطالب) تجاه الانتداب، وكذلك رفضها ان تتخذ الحكومة ايّة خطوة او قرارات مصيريّة كعقد معاهدة او سنّ دستور دائم مالم تجري انتخابات حرّة لاختيار اعضاء المجلس التأسيسي وقد تفجّر الصّراع بين فيصل والعلماء علنا وبشكل فعّال حول عقد وابرام المعاهدة الاولى مع بريطانيا والتي كانت الطريق الوحيد لتثبيت كيان العراق الجديد وتحديد علاقاته بالدولة المنتدبة بريطانيا.

كان شعور فيصل ممزّقا بقوّة بين جبهتين قويّتين تتطلبان منه تبنّي موقفين متناقضين وكلاهما مفروضين عليه: بين غيرته الوطنيّة والتزامه بحقوق ومصالح شعبه الذي اختاره وبايعه، وبين الالتزامات التي قطعها رسميّا على نفسه مع بريطانيا كدولة منتدبة على العراق من قبل عصبة الامم، وكان لابد له من الوفاء بها والا فسوف يخسر عرشه وما حققه وما يريد تحقيقه للعراق. انّ الواقع الذي كان عليه العراق انذاك جعل موقفه كملك و(كحليف لبريطانيا) ان يدخل لعبة التوازنات والمناورات في اجواء توفيقيّة قاسية أنهكته وضغوط نفسيّة استهلكت صحّته وأضعفت بدنه النحيل في وقت مبكر.

كان اهتمام الصّفوة العراقيّة (وفي مقدمتهم كبار العلماء والمراجع الدينيّة) التي قادت حركة الاستقلال الوطني منصبّة على محور اساسي وهو:الاستقلال وكيف سيحكم العراق؟ وليس فقط من سيحكمه؟.

ومنذ اعتلاء فيصل عرش العراق، اكّدت معظم زعامات الصّفوة من خلال كافة وسائل

الاعلان والتعبير على انّ الافضليّة يجب ان تعطى الى انشاء مؤسّسات دستوريّة واقامة حياة ديمقراطيّة سليمة بغض النظر عن شخص الملك وطبيعة علاقته بالانجليز. وقد تمسّك الوطنيّون بالتعهدات التي صدرت عن حكومة عبدالرّحمن النقيب الاولى وبما جاء بخطاب الملك فيصل الاوّل اثناء تتويجه وبما عبّر عنه المسؤولون البريطانيّون بانّ النيّة متجهة الى بناء دولة حديثة تقوم على اسس ديمقراطيّة برلمانيّة وستبدأ اعمالها بانتخابات المجلس التأسيسي الذي سيشرّع الدستور الدائم وقانون الانتخابات وغيرها من التشريعات التي تكفل للشعب حريّاته وحقوقه المدنيّة. وعلى هذا الاساس اخذ القادة الوطنيّون يتصرّفون في نشاطاتهم السيّاسيّة بحريّة كاصدار الصحف واقامة التظاهرات وعقد الاجتماعات وتشكيل الاحزاب السّياسيّة والجمعيّات وفي انشاء النقابات العماليّة على اسس مهنيّة وليست حزبيّة وبحريّة كاملة. ومن اجل تحقيق بناء المؤسّسات الديمقراطيّة، حاول الوطنيّون تقليل حدّة التوتر بينهم وبين سلطة الانتداب وقبلوا دعوة المندوب السّامي بيرسي كوكس في منتصف ايلول/ سبتمبر1921 في مكتبه للمناقشة، وقد حضر الزعيم الوطني محمد جعفر ابو التمّن ممثلا لقيادات الحركة الوطنيّة.

لقد جاء في تقريربريطاني سرّي بعثه كوكس الى وزارة المستعمرات قال فيه: انه على الرّغم من انّ المفاوض (ابو التمّن) قد بدت عليه علائم ثورة وغضب الا انه قد قبل شكل العلاقات الحاليّة بين بريطانيا والعراق اذا كانت ستؤدي الى بناء مؤسّسات دستوريّة صحيحة. واستمرّ الوطنيّون يتصرّفون في نشاطاتهم السّياسيّة وكانّ الدولة الجديدة هي دولة دستوريّة ديمقراطيّة مستقلّة غير منقوصة السّيادة، متجاهلين المركز الإنتدابي الخاص لبريطانيا في العراق.

كانت اهمّ قضيّة اساسيّة مطروحة في الساحة السّياسيّة العراقيّة انذاك هي مسالة عزم بريطانيا على تنظيم علاقاتها بالعراق باحلال معاهدة محل الانتداب كما اتفق عليه سابقا. والواقع انّ توقيع المعاهدة الاولى هو جوهر اهداف السّياسة البريطانيّة في العراق منذ اتفاق فيصل مع كورنواليس ممثل رئيس وزراء بريطانيا في لندن عام 1920، ثمّ ما اتفق عليه في مؤتمر القاهرة الذي عقد في ايار/مايو1921 ومن ثمّ تمّ التوقيع على المعاهدة الاولى بشكلها النهائي.

موقف الصّفوة من المعاهدة الاولى

كان الوطنيّون على علم تام بانّ المندوب السّامي بيرسي كوكس قد قدّم للملك الصّيغة الاوّليّة للمعاهدة في 22 حزيران 1922، وانّ مباحثات سريّة كانت تدور بالخفاء لعقدها. فقد نوقشت اوّلا مسودة المعاهدة المكتوبة من خمسة عشر بندا من قبل دار الاعتماد البريطاني في بغداد ومع المسؤولين في لندن واقرّت مبدئيّا. كما أرسلت الحكومة البريطانيّة السير

هربرت يونغ لمساعدة كوكس من اجل التفاوض والتوقيع عليها في بغداد "باعتبارها افضل وسيلة مرضية للطرفين". وعند وصول يونغ الى بغداد جرت مراسلات بين البلاط الملكي العراقي وبين دار الاعتماد البريطاني وكانت مسودة المعاهدة تنتقل عدّة مرّات بين بغداد ولندن لغرض مراجعتها ومحاولة تعديلها من قبل الملك فيصل الاوّل.

انّ دراسة هذه المراسلات بالنصّين العربي والانجليزي تجعل الباحث يخرج بنتيجة هي حرص الملك فيصل الاوّل على ان يكون نصّ المعاهدة ـ لا سيّما نصّ مقدمتها ـ بشكل يظهر فيه امام الناس انّ سلطاته مثبّته كملك لدولة مستقلة وان يتمكن من القول بانّ انتهاء الانتداب كان حقيقيّا. لقد كانت التعديلات بالالفاظ دون المضمون. وبالتأكيد لم يكن للملك انذاك القدرة غير ذلك. فمثلا اصرّ الملك على ان تذكر في مقدّمة المعاهدة عبارة "قدرة العراق على تحمّل مسؤوليّته"، وان "الملك يتحمّل المسؤوليّة التي كان يتحملها ملك بريطانيا في ادارة العراق" وانّ "المعاهدة تعقد نتيجة لادراك الملك فيصل بانّ البلاد بحاجة لها" . كما اراد الملك ان تكون بنود المعاهدة ذات صيغة تظهر سلطات الملك فيصل وكانّها نابعة من مركزه كملك لدولة مستقلة وليست كمنحة من بريطانيا، كاصراره مثلا في احدى الفقرات؛ على انّ "الموظفين الاجانب يعيّنون عند طلبه هو"وانّ "تتعهّد الحكومة البريطانيّة بادخال العراق عضوا في عصبة الامم".

وعلى الرّغم من انّ التعديلات كانت بالصيغ اللفظيّة لحفظ ماء الوجه، ولم تمسّ جوهر الغبن السّياسي والاقتصادي والعسكري الذي لحق بالعراق بسبب بنود المعاهدة، الا انّ المفاجاة كانت شديدة الوطأة على فيصل حينما ارسل ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني المشهور بغطرسته وبعنصريّته النصّ الجديد للمعاهدة الى المندوب السّامي كوكس وهذا بدوره ابلغه الى الملك فيصل حيث تضمّن النصّ تعديلات والغاء حتى بعض النقاط المتفق عليها في بغداد. والذي يقرا مراسلات الملك فيصل مع البريطانيين انذاك يدرك مقدار الضعف الذي كان عليه موقفه معهم حيث يقف وحده بلا ناصر ولا معين عدا محاولته مداراتهم ومصانعتهم بالصداقة تارة، وبالودّ وبالحجج المنطقيّة تارة اخرى. فمن رسالة له الى المندوب السّامي بيرسي كوكس في اواخر اب/اغسطس1921 جاء فيها:

"... وعدا ما احمله من افكار شخصيّة تجاه القوميّة العربيّة. فانا اداة السّياسة البريطانيّة. انّ حكومة جلالة الملك البريطاني وانا في زورق واحد يجب ان نغرق او نعوم سويّة... واذا ما فشلت الوسائل وغادرتم العراق فعليّ ان أغادر ايضا. وما زلتم قد اخترتموني فيجب ان تعاملوني كواحد منكم...". ويستمرّ الملك في رسالته الودّية مصانعا ومداهنا بالاسلوب العربي المألوف:

" ... ويجب ان تثق بي كما وثقت الحكومة البريطانيّة بك... انني أتعهد بان اوجّه بنصيحتكم في جميع المسائل وانّ الحقيقة الوحيدة من وجودك ووجود مستشاريك هنا ان تكون ضمانا كافيا لاولئك الذين يهمهم الحفاظ على مصالحكم... " وفي رسالة سريّة اخرى من بيرسي

كوكس الى تشرشل يخبره فيها بانّ فيصلا قد اخبره بانّ مهمّة المحافظة على مصالح العراق وبريطانيا " موضوعان مرتبطان في ذهني. وبعد ان اخبرت من قبل المستر تشرشل في انّ مقدرتي على تنفيذ هذه المهمّة تعتمد على كوني انّ لي يدا مطلقة في عملي وعليّ التمكّن من التظاهر امام الشعب باني الحاكم الحقيقي...".

لقد كان فيصل صادقا في خطابه، وكذلك المندوب السّامي بيرسي كوكس، ولكن لكل منهما اسلوبه وسياسته اللذان ينبعان من واقع ذهنيّة وطريقة تفكير كلّ منهما،ومن الظرف الذي يحيط به ومسؤوليّة كل منهما: فيصل العربي بكل ما تعكس لغته من تراث مصانعة الضعيف للقويّ ومثاليّة الشرقيّ العربيّ وايمانه بقيم الصداقة والوفاء بالعهود دون حساب للواقع الذي كان يغلفه من كلّ جانب، وبيرسي كوكس الإنكليزي بكلّ ما تعكس سياسة الجانب الاقوى المتعالية ولغته المتغطرسة من واقعيّة التراث البريطاني/الغربي القائم على المصالح الدائميّة لاكبر واقوى امبراطوريّة إستعماريّة في العالم انذاك.

انّ الاشكال الذي وقع فيه فيصل (مثل ابيه من قبل) هو ثقته المطلقة ببريطانيا كدولة عظمى صديقة يمكنه الاعتماد على شرف كلمتها ووعودها في بناء مملكته الفتيّة. وبانّ الانجليز يثقون بامكانيّته وبقدراته على خلق توازن بين مصالحهم والمصالح الوطنيّة للعراق ولامّته. ولهذا طلب منهم السّماح له بالتصرّف بحريّة مطلقة كملك وكصديق مخلص لهم.

وكثيرا ما كان فيصل يبوح لكوكس وللمس بيل ما نصّه:

"... لقد وعدني المستر تشرشل وعدين؛ ان يلغي الانتداب، وان يعترف باستقلال العراق. وقد جاءنا الان (تشرشل) بمعاهدة طافحة بذكر الانتداب وعصبة الامم...اننا مصرّون على ما وعدنا به تشرشل، وهو ما يطلبه العراقيّون المعتدلون والمتطرّفون. واني لا ازال اعتقد وامل انه يبرّ بوعده..." . (مقابلة مع امين الرّيحاني/فيصل الاوّل ـ ص126)، بينما نجد انّ ما كتبه لونكريك في كتابه (العراق1950 ـ1900/ص139) يؤكّد انّ فيصلا قد اقرّ مضمون المعاهدة قبل وصوله الى العراق ليتوّج ملكا وهو قول غير دقيق لانّ المضمون العام غير النصوص التي كتبت فيما بعد وبموجب مراسلات دامت سنتان بين بغداد ولندن كما اشرت.

لقد أعطت صفوة الزعامات الوطنيّة العراقيّة الافضليّة من بين مطاليبها العديدة مطلبا لانتخابات حرّة لمجلس تأسيسي يضع اسس الدولة العراقيّة ويرسم سياساتها الداخليّة والخارجيّة كما اشرت سابقا. ولكنّ البريطانييّن اصرّوا على عقد المعاهدة كما يرونها هم ومن منظارهم، ولا بدّ من التوقيع عليها قبل انتخاب المجلس التأسيسي ولهذا بقيت الصّفوة الوطنيّة مصرّة على موقفها متخذة من شعار المطالبة بـ (الاستقلال التام ورفض الانتداب بجميع اشكاله رفضا باتا) سلاحا شهرته بوجه البريطانييّن.

لقد كان الملك فيصل ووزراءه على وعي وادراك بحقيقة الموقف، وانّه برضوخه لرغبات الانجليز سوف يفقد مركزه وهيبته امام شعبه، ولهذا التجأ الى ما بامكانه فعله؛ الى المناورة

والى اسلوب اطالة المفاوضات والمراسلات زمنيّا مع المندوب السّامي حول نصوص المعاهدة، والمندوب السّامي بدوره اطال المدة مع حكومته في لندن. كما التجأ فيصل ايضا الى اسلوب الضّغط على المعارضة بنشر التصريحات الشديدة اللهجة للمسؤولين البريطانيين كاشفا شروطهم الصّعبة من جهة، كما استفاد من زعماء المعارضة الوطنيّة وتعبئة الشارع وتوعيته بالتظاهرات وبالصحافة للضغط على المفاوضين البريطانيين من جهة اخرى. وبنتيجة وصول الامور الى طريق مسدود، توقفت المفاوضات بين الجانبين. وشعر المندوب السامي بيرسي كوكس بضرورة تخفيض الضغط على الملك وفي نفس الوقت عن حكومته، لجا الى الاشارة حول احتمال وقوع خطر حقيقي على العراق من خارج حدوده. واخذ المندوب السّامي وكذلك السير ونستون تشرشل وزير المستعمرات يلمحان عن احتمال تخلي بريطانيا عن التزاماتها تجاه حماية العراق من ايّ عدوان خارجي، وعن احتمالات جلاء البريطانيّن عنه حتى ولو ادى ذلك الى تعرّضه لاخطار خارجيّة (كهجوم وهّابي او تركي) على حدوده.

هجوم الوهّابيين "الاخوان"

بينما كان المجتمع العراقي يغلي سياسيّا ومنشغلا بصراعات المفاوضات حول عقد المعاهدة مع بريطانيا، وردت بغداد انباءٌ حول وقوع هجوم الوهابيين المباغت على مناطق جنوب غرب العراق. ففي 11 اذار/مارس 1922 هاجمت قوّة كبيرة من الذين يطلق عليهم "الاخوان" الوهابيين التابعين لابن سعود بزعامة فيصل الدويش زعيم قبائل المطير على موقع يبعد ثلاثين ميلا غرب مدينة الناصريّة وقتلت ما يقارب 700 من ابناء العشائر العزّل التي كانت ترعى هناك وسرقت 130 فرسا و2530 بعيرا و3811 حمارا و43010 خروفا ونهبت 781 بيتا (عبد الرزاق الحسني/تاريخ الوزارات العراقيّة/ج1/ص59). وقد رافق هذا الهجوم انتشار اشاعات منظمة عن انباء اخرى تتضمّن احتمال وقوع هجوم وهابي مباغت اخر على المدن المقدسة كربلاء والنجف لهدم الاضرحة المقدّسة ونهب نفائسها بحجّة محاربة الشرك والبدع، مما سبّب قلقا شديدا ودعوة واسعة للاستعداد للقتال والدفاع. (من اشهر الهجمات الوهابيّة على مناطق جنوب غرب العراق، كانت عام 1801 م حيث ادّت تلك الغارة الى استباحة المدن وسكانها وكذلك الاماكن الاسلاميّة المقدسة في كربلاء ونهبها والتي تسبّبت بسفك دماء غزيرة من كلا الطرفين) Burgoyne،E،p.266، (الحسني/ج1 ص35/د.خالد التميمي/المصدر- ص138).

ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن الهجوم ذاته من حيث كونه غزوا بدويّا لاسباب اقتصاديّة او لاخرى عقائديّة، بل لابد من تناولنا لنتائج هذا الهجوم على المفاوضات العراقيّة - البريطانيّة حيث انّه قد ادى الى:

اوّلا: قد اثرّ على نفسيّة فيصل تأثيرا شديدا اذ اعتبر الحادث تواطؤا بين الانجليز وبين ال

سعود لفرض المعاهدة الاولى على فيصل كما ارادتها بريطانيا. وبسبب العداء القديم بين العائلتين الهاشميّة والسّعوديّة فقد زاد ذلك من تباعدهما واتساع الشرخ بينهما. كما اوجد جفاء بين فيصل وبين المندوب السّامي بيرسي كوكس الذي (بدا متواطئا مع عبد العزيز ال سعود) بسبب وقوفه موقف البرود والتردّد وعدم اتخاذه خطوة جدّية لحماية حدود العراق الغربيّة كما نصّت عليه بنود الانتداب. ومما زاد من قلق الملك فيصل انه كان يعلم بانّ علاقة كوكس والانجليز با ل سعود هي علاقة قديمة وحميمة ترجع الى ما قبل الحرب العالميّة الاولى، وانّ الانجليز كانوا دائما مصدر دعم مال وسلاح رئيسي لابن سعود وللقبائل البدويّة الاخرى المتحالفة معه.

ثانيا: ان الهجوم قد وسّع الثغرة الموجودة بين الملك فيصل وبين بيرسي كوكس ولو لفترة محدودة، وقرّبه من العناصر الوطنيّة المناهضة لبريطانيا، سيّما علماء الدّين وعموم الحركة الوطنيّة وزعماء قبائل الفرات الاوسط التي استنفرت مقاتليها لاحتمالات حصول غارات وهّابيّة اخرى.

ثالثا: اثبت الهجوم عدم قدرة الحكومة العراقيّة على الدّفاع عن حدودها الطويلة، وحاجتها الماسّة الى القوّات البريطانيّة اوالى (انشاء جيش وطني عراقي) للقيام بالمهمّة الدّفاعيّة.لا سيّما وانّ حياة القبائل والعشائر العراقيّة مسالمة وهي اقرب الى الحياة الحضريّة وتمتهن الزراعة، وليس حياة الغزو والتعرّض للقوافل بهدف السّلب والنهب والابتزاز التي كان البدو يعتبرونها من اهم مصادر عيشهم.

رابعا: أصبحت هناك ضرورة، في نظر الانجليز، لترسيم الحدود الدوليّة وتحديد العلاقات الرّسميّة بين البلدين على الرّغم من انّ حدود السّعوديّن وسلطة حكمهم لم تتعدى انذاك نصف المساحة الحاليّة، اذ انّ الاشراف كانوا لا يزالون على عرش الحجاز ولم يقرّر البريطانيّون اسقاط مملكتهم واجلاء الاشراف عن وطنهم وتسليم الحجاز لال سعود بعد.

خامسا: وحّد العدوان الوهّابي العراقيّن، حيث شهد العراق لاوّل مرّة منذ انتهاء ثورة العشرين الكبرى تضامنا بيّنا بين ابنائه لا سيّما بين السّنة والشيعة. ودعوة مخلصة للوحدة الوطنيّة.

لقد وجد الانجليز انفسهم في موقف يحتمّ عليهم الدفاع عن حدود العراق لاثبات التزامهم ببنود الانتداب لا سيّما بمسؤوليّة الحفاظ على وحدة اراضي العراق من ايّ خطر خارجي. وكذلك لوقف الاشاعات القويّة التي راجت عن الحدث بانّه كان من تدبير وتآمر بين بيرسي كوكس وصديقه عبد العزيز بن عبد الرحمن ال سعود لفرض المعاهدة على العراقيّن كما تريدها بريطانيا. وبناء على الاسباب المتقدمة قامت الطائرات البريطانيّة بقصف القوّات المهاجمة قصفا شديدا تسببت في قتل عدد كبير من القبائل الوهابيّة كما دمرت اعدادا من المواشي والبيوت الآمنة العائدة للإخوان، وفي كلتا الحالتين كانت خسائر الطرفين من العرب المسلمين ولم يكن بينهم بريطانيّ واحد.

كتب كوكس للملك فيصل يخبره بما قامت به القوّات الجويّة البريطانيّة، وردّ فيصل برسالة شكر ولكنه طالب بضرورة اتخاذ اجراءات اشدّ قسوة. كما طالب ان تكون للحكومة العراقيّة سلطة وصلاحيّة اوسع للدفاع عن حدودها. (وثائق البلاط الملكي ة/4/5 ا - 45)، اجاب كوكس بانه ينتظر الاوامر والتعليمات من لندن، كما ينتظر جواب ابن سعود على برقيّة الاحتجاج التي بعثها كوكس اليه.

موقف الصّفوة العراقيّة من غارات الوهّابيّين

لقد حدثت تطورات مهمّة على المجتمع العراقي عقب اجهاض ثورة العشرين الكبرى، ولا سيّما بعد وصول فيصل وصحبه "الشريفيوّن" ومن ثمّ مبايعته ملكا ثمّ قيام حكومة النقيب الاولى و الثانية ورجوع عدد كبير من الضبّاط العراقيّن وتوظيفهم في الجيش العراقي الجديد، والمدنيين في مؤسسات الدولة ودوائرها.

فخلال تلك الفترة الحاسمة 1922 - 1920 أثمرت نشاطات المندوب السّامي بيرسي كوكس والمؤسسّا ت الجديدة لحكومة النقيب الثانية وبلاط الملك فيصل الاوّل عن تحقيق نجاح غير قليل وبشتى الوسائل في التأثير على ولاءات الصّفوة العراقيّة،لا سيّما زعماء العشائر وبعض القيادات الوطنيّة في المدن التي كانت طوع اوامر علماء الدين سواء في المدن او الاماكن المقدسة. ولكن عند ظهور الهجوم الوهّابي المباغت على الحدود الجنوبيّة الغربيّة العراقيّة وما اسفر عنه من ضحايا بريئة ومن سلب ونهب واستباحة وبشكل خاص تهديدها المباشر للاضرحة المقدّسة بادر زعماء القبائل العراقيّة الى عرض ما لديهم من مال وسلاح ومقاتلين لحكومة فيصل لصدّ ايّ هجوم اخر محتمل.

وقد قابل الملك فيصل عددا من زعماء القبائل الذين قاتلوا البريطانيين في ثورة العشرين من امثال الشيخ عبد الواحد الحاج سكر والشيخ شعلان ابو الجون والسّيد محسن ابو طبيخ والسيّد علوان الياسري والسيّد كاطع العوّادي واكدوا له قدرتهم على محاربة " الاخوان " الوهابيّن وكسرهم لو لم يجرّدوهم الانجليز من السّلاح والعتاد بعد انتهاء ثورة العشرين. كما شجّعوه على اعلان الجهاد على الوهّابيين باعتبارهم " بغاة " يجب قتالهم شرعا، كما شجّعوه على الصّمود بوجه مناورات بيرسي كوكس.(C.O.730/35/25338. Karbala Conference). لقد راقت مقترحات زعماء القبائل العراقيّة لفيصل لاسباب عديدة اهمّها:ضرورة توجيه ضغط شعبي عراقي على البريطانيّن. فطلب الملك من مجلس الوزراء الموافقة على زيادة حصّة وزارة الدفاع من الميزانيّة لتقوية جيشه ولكن ناجي السويدي عارضه وقال انّ غارة الاخوان هو نتيجة العداء التقليدي بين العائلتين المالكتين الهاشميّة والسّعوديّة، وانّ الدّفاع عن حدود العراق هو من واجب بريطانيا كدولة منتدبة عليه. وكان رئيس الوزراء وبعض الوزراء والنوّاب من مؤيّدي الإنكليز من امثال ساسون حسقيل وعزت

الكركوكلي وحنّا خيّاط وعبد اللطيف المنديل والحاج سري يؤيّدون موقف ناجي السّويدي، بينما ايّد جعفر باشا العسكري وزير الدفاع وبقيّة الوزراء طلب الملك. لقد أغضبت النتيجة الملك فيصل وطلب منهم الاستقالة، فاستقالوا جميعا عدا رئيس الوزراء ووزراء الماليّة والدّفاع والمعارف والاوقاف فانهم ظلوا في وزاراتهم، ثمّ عيّن في الاوّل من نيسان/ابريل وزراء جدد بدل المستقيلين. (د.علي الوردي/لمحات/ج 6/ص 134 – 132)

لقد ساهمت الصحافة الوطنيّة مساهمة فعّالة في استغلال حادثة هجوم الوهّابييّن لتحقيق اهداف سياسيّة مما اثار ذلك المندوب السّامي الذي كتب تقريرا مفصّلا عن ذلك الى وزير المستعمرات ونستون تشرشل. وممّا جاء في التقرير قوله:

"... انّ هذا الاجراء المتهوّر الذي اتخذه (الملك) في سورة من التهيّج دون استشارتي انا او ايّ شخص اخر... ولا سيّما الى عبد اللطيف المنديل... ومن سوء الطالع ان يتبع هذا استقالة ساسون (حسقيل) التي لم تقبل على ايّة حال... " وقد غضب تشرشل من عمل فيصل حيث جاء ردّه فورا وفيه: " ... ان هذا التصرّف ـ عدم استشارتك ـ لم يكن منطبقا مع روح تعهداته الشخصيّة باخذ نصيحتك في المسا ئل الهامّة. وساكون اسفا اذا اصرّ ساسون افندي على الاستقالة وبمكنك اخباره ببرقيتي هذه " .

(د. علي الوردي/المصدر/ص141 –139) (A Secret Report on the Karbala Conference..no.1/2127/of 28/4 ،p.6. In: C.O.730/35/25338.).

اعتقد قادة الصّفوة الوطنيّة بامكانيّة احتواء الملك فيصل الى جهتهم في تلك الظروف الصّعبة باظهارهم المزيد من الودّ والتأييد له ولا سيّما انّ الغارات الوهابيّة لم تنقطع حيث أعقبوا الاولى بثانية وثالثة ثمّ توقفت بتدخل من المندوب السّامي السير بيرسي كوكس، بينما كانت الحكومة العراقيّة واقفة موقف المتفرّج واكتفت بارسال لجنة تحقيق حدوديّة مؤلفة من نوري السّعيد عن وزارة الداخليّة وداود الحيدري عن وزارة العدليّة والرئيس الاوّل الحاج رمضان عن وزارة الدّفاع، على ان ينضم اليهم الميجر ييتس مستشار لواء المنتفق. وفي 29 اذار قدّمت اللجنة تقريرا مفصّلا بالارقام وبالاسماء عن نتائج ذلك العدوان. كما نشرت الصحف البغداديّة تفاصيل العدوان ومقابلات مع لجنة اعضاء من لجنة التحقيق (د.علي الوردي/لمحات/ج6/ص-137 138). لقد اتاحت تلك الاحداث للقادة العلماء ان يستأنفوا نشاطاتهم السيّاسّية ولا سيّما ان الانظار قد توجهت للمدن المقدّسة لاتخاذ موقف ازاء غارات " الاخوان " المتكررة.

اجتماع كربلاء

عقد علماء النجف وكربلاء اجتماعا مشتركا وناقشوا فيه مسالة هجوم الوهابيين من جميع جوانبه، وقرّروا عقد مؤتمر عام في كربلاء لغرض اتخاذ التدابير الحاسمة وبعثوا ببرقيّة في

هذا الموضوع الى الشيخ مهدي الخالصي وطلبوا منه الاتصال بالشخصيّات الوطنيّة في بغداد والكاظميّة وغيرها لأجل المذاكرة في وضع خطة للدفاع عن البلاد والعباد، وتقرّر ان تكون فترة انعقاد المؤتمر من 10 الى 15 شعبان (13 ـ 8 نيسان/ابريل). (F.O.371،7770/ E3828/33/65)

نجح الخالصي وبقيّة العلماء في تحشيد كافة الطاقات وغالبيّة العناصر الشيعيّة والسنيّة وبلغ عدد بطاقات الدّعوة مائتي دعوة الى كبار زعماء القبائل واعيان المدن لحضور المؤتمر الذي اختير له الخامس عشر من شعبان وهو تاريخ ميلاد الامام المهدي عليه السّلام (وهو الامام الثاني عشر الغائب المنتظر في اعتقاد الشيعة الاثنى عشريّة). كما وجّهت الدّعوة الى الملك فيصل الاوّل لحضور المؤتمر وقد قبل الدّعوة ووعد بالحضور الى كربلاء يوم 14 شعبان، الا انّ المندوب السّامي بيرسي كوكس نصح الملك بعدم حضور المؤتمر.

لقد جاء في تقرير سرّي بعثه كوكس الى وزارة المستعمرات في لندن جاء فيه:

"...انّ النقيب (رئيس الوزراء) قلق جدا وبشكل ليس اقلّ مني انزعاجا وبشكل جدّي بسبب حضور فيصل (الملك) بأيدي المتطرّفين والشيعة. وقد عمل(النقيب) ما بوسعه هو وكورنواليس وكذلك انا لاقناع فيصل بعدم حضور المؤتمر F.O.7770/E4033/33/65)).

لذا اعتذر الملك لمنظمّي المؤتمر عن حضوره، وقد اناب عنه وزير داخليّته توفيق الخالدي ونوري السّعيد الذي كان يشغل مدير الشرطة العام وقد كان مرتديا الزيّ العربي (الكوفيّة والعقال) عند حضوره، واخذ يتصل داخل المؤتمر بعناصر مؤيّده للملك وقد ساعده في ذلك مدير شرطة كربلاء هاشم العلوي وكل من السيّد كاطع العوّادي وعثمان العلوان.

لقد كان المندوب السّامي على علم بشؤون التحضير للمؤتمر خلال الفترة 15 ـ 10 شعبان (8 ـ 3 نيسان1922)،لا سيّما بالقرارات السريّة التي قد اتخذت في الاجتماعات السريّة كقرار تشكيل لجنة اسلاميّة تجمع السنة والشيعة، وتكوين جمعيّة فدائيّة اهدافها التوغل بين صفوف الجيش واغتيال الضباط البريطانيّن والشيوخ المؤيّدين للبريطانيّن..) C.O.730/35/25338 .)

لقد كان تنظيم المؤتمر انجازا كبيرا لعلماء الدين اذ في ظلّ اجوائه استعادوا مركزهم القيادي الذي قد تزعزع بعد القضاء على ثورة العشرين. وبتوجيه من الشيخ الخالصي، شكلت في الكاظميّة لجنة التنظيم والاشراف على المؤتمر وكان من اهم اعضائها:

السيّد كاطع العوّادي ومحمد جعفر ابو التمّن والسّيدين نور وعلوان الياسري والشيخ باقر الشبيبي والحاج كاظم ابو التمّن والحاج عبد الحسين الجلبي. وقد اختاروا اربع لجان فرعيّة لتنظيم واعداد شؤون واحتياجات المشاركين في المؤتمر كالسفر والسّكن وتنظيم الاجتماعات وتحشيد الراي العام.

وفي السّابع من نيسان/ابريل غادر الشيخ مهدي الخالصي ومرافقوه الكاظميّة الى كربلاء

وكان الناس يحيطون باعضاء الوفد ويحيّوه ابتداء من مدينة الكاظميّة وحتى وصولهم الى مدينة كربلاء.كما كان ابناء العشائرعلى جانبي الطريق يحيّون الوفد اثناء مروره بالهتافات وبالاهازيج الوطنيّة وكانّ اجواء ثورة العشرين قد عادت تلوح من جديد.

موقف علماء السّنة من عدوان الوهابيين

دعا الشيخ عبد الوهاب النائب عددا من صفوة علماء السنّة للاجتماع في تكية الخالديّة في بغداد يوم الرّابع من نيسان/ابريل 1922، وقد لبّى اكثرهم الدعوة وافتتح الشيخ النائب الاجتماع بسؤال:

" ماذا تقولون في هذه الطائفة المسمّاة بالإخوان، هل ترون وجوب قتالهم وردعهم عن امثال هذه التجاوزات نظرا لكونهم قد هتكوا حرمات المسلمين واستباحوا دماءهم واموالهم بغير ذنب وتأويل؟.. " ثمّ استشهد بما فعله الخليفة ابو بكر(رض) باهل الرّدة،وما فعله الامام علي(رض) بالخوارج الذين كانوا اكثر من هؤلاء صلاة وصياما. وبعد مناقشات فقهيّة وافق الحاضرون على انّ من يستبيح دماء المسلمين هو كافر يجب مقاتلته. فوافق الحاضرون على ذلك. (جريدة الاستقلال/عدد- 6 نيسان 1922).

وقال الشيخ احمد الشيخ داود بانّ هؤلاء "الاخوان" خوارج يجب مقاتلتهم اقتداءا بابن عمّ المصطفى. كما قال العلامة الشيخ امجد الزهاوي: "يجب تأديبهم بكلّ صورة" ثم قال العلامة الشيخ عبد الوهاب النائبَ "...انّ اخواننا الجعفريّة قد صمّموا على الاجتماع واعطاء الفتوى بهذا الخصوص ولما لم يكن بيننا وبينهم خلاف في ايّ شيء فكلمتنا واحدة" فقال الحاضرون: "لا شكّ في ذلك" . ثم اختار الحضور الشيخ عبد الوهاب النائب رئيسا للوفد الذي تقرّر ان يشارك في مؤتمر كربلاء، كما اختير الشيخ الداود والشيخ ابراهيم الرّاوي والشيخ عبدالجليل اعضاء؛ كما اصدروا فتوى بوجوب قتال "الاخوان" الوهابيين وقد وقع على الفتوى أكابر الشيوخ والاعيان وفي مقدمتهم عبد الوهاب النائب وعبد الملك الشوّاف وابراهيم الراوي وخضر القاضي ومنير القاضي وعبد الجليل الجميل وعلي القره داغي وأمجد الزهاوي وطه الرّاوي ونعمان الأعظمي واخرون. وفي صباح العاشر من شهر نيسان خرج موكب علماء السنة من جامع الفضل يحيط بهم عدد كبير من الشباب وخرج الجمهور يودعهم بالتهليل والتكبير حاملين الاعلام والطبول واتجهوا نحو مدينة كربلاء. (C.O.730/21/16849/22)

ولابدّ من الاشارة الى انّ الشيخ علي السّليمان (زعيم قبائل الدليم) ومحمّد الصّيهود (زعيم قبائل ربيعة) رفضا الذهاب الى المؤتمر بشكل صريح، واجابا بانهما كانا سيطلبان قبل الموافقة (على الحضور) مشورة المندوب السّامي البريطاني. كما رفض الذهاب ايضا ميرزا حسين النائيني احد علماء الشيعة البارزين في النجف مبررّا انه كان تحت ضغط من قبل

الملك فيصل بعدم المشاركة في المؤتمر، فكان ذلك بداية التصدّع في الاجماع الوطني.
((C.O.730/21/16849/22

مشاركة وفد من الموصل

كما شارك وفد من ابناء الموصل مؤلف من مولود مخلص وسعيد الحاج ثابت وايّوب عبد الواحد وعبد الله النعمة وثابت عبد النور وعبد الله ال رئيس العلماء وعجيل باشا الياور ومحمد اغا رئيس الكركريّة ونزلوا في دار عمر العلوان (جريدة دجلة/13 نيسان – ابريل 1922).

مشاركة ابناء تكريت وحديثة

وشارك ابناء تكريت وحديثة بان انتدبوا مولود مخلص بالمؤتمر ليمثلهم وعاهدوه على بذل الاموال والارواح في كل قرار يتخذه العلماء كما استلم الامام الخالصي رسالة مبايعة واستعداد للجهاد تحت امرة العلماء وقد وقعها صفوة من رؤساء العشائر: كل من النقيب السيّد احمد ومصطفى الحاج حسن والسيّد محمد عرب من رؤساء تكريت وكذلك احمد الخطاب وندا الحسين من رؤساء البيجات وكذلك صفوة من رؤساء الحديثيين منهم سلمان الحاج حميد. (جريدة الرافدان/11 نيسان – ابريل 1922)

لقد كان تجاوب صفوة الزعامات العراقيّة على اختلاف انتماءاتها الطائفيّة والمناطقيّة مع الدّعوة لعقد مؤتمر كربلاء كبيرا ومخلصا، فقد شهدت مدينة كربلاء يومذاك تضامنا وطنيّا واسلاميّا رائعا.

فقد بلغ عدد الحضور من العلماء وزعماء القبائل واعيان المدن والمجاهدين من مختلف مكوّنات المجتمع العراقي ما يقارب المائتي الف نسمة، حتى لتجد في البيت الواحد السنّي والشيعي والبغدادي والبصري والتكريتي والموصلي والحليّ يعيشون ايّام المؤتمر وكانهم باحتفال يصلوّن سويّة ويتسامرون ويأكلون ويشربون على مائدة واحدة. وكان من المؤكد انّ مثل هذه الوحدة الوطنيّة لم ترق للانجليز ولا لعملائهم، فراحوا يدسّون على المؤتمر والمؤتمرين محاولين اثارة الخلاف لامور تافهه وضغائن تاريخيّة عفا عليها الزمن،ولكنهمّ فشلوا في محاولاتهم بسبب يقظة المسؤولين عن سلامة ونجاح المؤتمر. وحينما حذرت جريدة " الاستقلال " المواطنين من المندسّين ومن الاشاعات الكاذبة التي كان الهدف من اشاعتها اثارة مخاوف الحضور، قامت وزارة الداخليّة بقرار من المستشار الإنكليزي كورنواليس بغلق الصحيفة لمدة ثلاثة اسابيع.

(جريدة الاستقلال عدد 5 ايّار/مايو 1922).

افتتح المؤتمر في صباح 9 نيسان/ابريل 1922، وقد تصدره علماء المسلمين من كبار المجتهدين والصّفوة من زعماء القبائل من السنّة والشيعة. وقد سبق الاجتماع العام، اجتماعات سريّة في الكاظميّة وكربلاء مابين 11 ـ 8 نيسان/ابريل لم يشر اليها احد غير التقارير السريّة البريطانيّة (التي افرج عنها حديثا) والتي تشير الى انّ تلك الاجتماعات التمهيديّة كانت مقتصرة على الشيخ مهدي الخالصي والشيخ عبد الواحد الحاج سكر زعيم قبائل آل فتلة وعالمين اخرين من السّادة. ويعتقد المخبر بالتقرير انّ هؤلاء قد نظموا صيغة المضبطة (البيان الختامي) النهائيّة للمؤتمر وجهّزوها للمناقشة ليتمّ اقرارها والتوقيع عليها من قبل الحضور. ويقول التقرير السرّي البريطاني انّ الزعيم الشيخ عبد الواحد الحاج سكر قد اعترض على الصّيغة المعتدلة للمضبطة وطالب بضرورة اضافة نصّ المطالبة بجلاء بريطانيا الفوري عن العراق وان تطلبّ ذلك بالقوّة وبالثورة المسلحة. وبعد جلسة الافتتاح اجتمع المؤتمرون في دار الشيخ محمد تقي الشيرازي يوم 12 نيسان/ابريل وقد تمّ التوقيع على المضبطة بعد مناقشتها من قبل كبار العلماء وزعماء القبائل واعيان المدن الذين شاركوا في المؤتمر وقد رفض التوقيع عليها الشيخ عدّاي الجريان رئيس البو سلطان، معلنا بانّ مهمّة العلماء هي شؤون العالم الاخر وليست السّياسة و سانده في موقفه عدد قليل من زعماء القبائل الذين غادروا معه ومن بينهم رشيد العنيزان رئيس عشيرة اليسار وعمران الزنبور رئيس بني عجيل وشمران الجلوب رئيس آل فتلة الهنديّة ومراد الخليل رئيس الجبور.

(A Secret Report،Karbala ،C.O. 730/35/25338،paras،5،7)

جريدة (العراق) عدد – 12 نيسان/ابريل 1922

ومع ذلك فانّ صيغة المضبطة جاءت كالاتي:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

((نحن الموقعين ادناه سادة وقادة وشيوخ قبائل العراق بالاصالة عن انفسنا وبالنيابة عن قبائلنا التي نمثلها، استجبنا بالدعوة التي وجهت الينا من قبل حجة الاسلام الذي يلزمنا الدين بطاعته في كلّ الاوقات، وحضرنا بانفسنا في كربلاء يوم الثاني عشر من شعبان (10 نيسان/ابريل1922) وبتوجيه رجال الدين، العلماء، وبسبب اعمال القتل الوحشيّة، والسّرقة والنهب التي ارتكبت بحق اخواننا المسلمين على ايدي المنشقين الاخوان. اقسمنا واتفقنا جميعا على ضرورة اتخاذ الاجراءات الضروريّة لصالح الوطن ومن اجل الدفاع عن الاضرحة والاماكن المقدسة لائمتنا ولأجل ذلك نعلن ما يلي: لابدّ من اتخاذ الخطوات الدفاعيّة اللازمة ضد الوهابيين البغاة حيث يجب محاربتهم بمساعدة الجيش النظامي لمليكنا. ويجب الا ندخر ايّ جهد او اجراءات او وسائل في سبيل ذلك. اخذين بنظر الاعتبار ارتباطنا بعرش صاحب الجلالة الملك فيصل الاوّل سواء باساليب الدفاع او في محاربة

الاخوان او في تقديم عدد المحاربين من القبائل للمساعدة في هذا الدفاع وكذلك الاسلحة والمؤونة لهذه القوّات في ايّ زمان او مكان تتواجد فيه القوّات على ان تترك قيادة وادارة هذه القوّات لحصافة وحكمة مليكنا صاحب الجلالة فيصل الاوّل. اننا على ايّ حال نطالب باعادة الاموال المنهوبة ودفع الديّات لذوي الضحايا الذين ذبحوا بدون ايّ استفزاز قاموا به او مبرر)) C.O.730/21/16849/22))

وقد جاء في نص آخر مشابه لما تقدّم في صحيفة "العراق" مضافا اليه:

((وتنظيم عائد لارادة صاحب الجلالة مليكنا وتدبيره الصّائب غير اننا نطلب استرداد الاموال المنهوبة وتأدية ديّات قتلانا التي سفكت دماؤهم ظلما وعدوانا، وقد نظمنا بذلك نسختين قدمنا واحدة لعرضها لاعتاب صاحب الجلالة والثانية تبقى تحت اشراف العلماء الاعلام والله المستعان))

(صحيفة العراق ـ عدد/15 نيسان/ابريل1922)

وفي الساعة الثامنة من صباح 13 نيسان/ابريل عقد اجتماع كبير في فناء (صحن) مرقد الامام الحسين (ع) حضره ما يقارب الالفين من زعماء القبائل واعيان مدن الفرات الاوسط بالاضافة الى كبار العلماء الاعلام (C.O.730/35/25338)

وقد القى محمد جعفر ابو التمن الكلمة الختاميّة للمؤتمر نيابة عن الشيخ الخالصي اكّد فيها على اهميّة المؤتمر وضرورة مساندة العلماء والعمل من اجل ايقاف غارات " الاخوان " كما توجّه بالخطاب الى زعماء القبائل مؤكدا على ضرورة الوحدة فيما بينهم ضد الاجانب خاصّة الاخوان وقد قرا توفيق الخالدي ـ وزير الداخليّة ـ برقيّة الملك فيصل الاوّل المرسلة الى العلماء والقادة وقد وقف الجميع احتراما... وهذا نصّها:

((لقد سمعنا باجتماعكم التاريخي والذي فيه تجلى نبل المشاعر الوطنيّة الصّادقة والحكمة. نحن نشكر ولاءكم جزاكم الله خيرا نيابة عني وعن هذا الوطن. انني أتضرع الى الله ان يساعدنا لما نصبوا اليه لحماية وطننا المحبوب ولنقوّي وحدة الشعب وان نرفع مقامه. لا شك ان الله احسن من يسمع دعاءنا. والسلام عليكم))C.O.730/21/16849))

(صحيفة دجلة/عدد133/16 ابريل 1922)

لقد كان واضحا انّ مؤتمر كربلاء كان ساحة سياسيّة حاولت فيه القوّتان (الملك والحكومة) من جهة و (العلماء والزعامات الوطنيّة) من جهة اخرى تريدان استغلال المؤتمر لتحققا اهدافا كانت مختلفة عن بعضهما البعض. لقد كان هدف الملك والحكومة هو اظهار مؤتمر كربلاء وكانّه تظاهرة تأييد للملك امام الادارة البريطانيّة لشخصه ولسياسته حيال الانتداب، بينما حاول العلماء والقادة الوطنيّون استغلال المؤتمر لادانة الانتداب او ايّ سياسة يكون

جوهرها التبعيّة لبريطانيا. وكذلك ارادوا تقديم الدليل للملك فيصل على ولائهم واسنادهم له ضدّ غريمه التقليدي والطامع في مملكة الاشراف بالحجاز، امير نجد عبد العزيز ال سعود، وانّ بامكانه الاعتماد عليهم في ايّة خطوة جدّية قد يتخذها ضده وكذلك من اجل تحقيق الاستقلال التام للعراق.

تقييم مؤتمر كربلاء

يمكن القول بانّ مؤتمر كربلاء الذي عقد بين 13 ـ 8 نيسان/ أبريل 1922 بعكس ما كان يبدو ظاهريّا انّه جاء لصالح نفوذ العلماء. لقد كان بداية النهاية للنفوذ السّياسي لعلماء الدين في العراق انذاك. فقد اثبتت نتائج المؤتمر انّ مساعي المندوب السامي بيرسي كوكس التي بدات منذ وصوله العراق في اواخر عام 1920 لاضعاف دور علماء الدين في السياسة قد بدات تعطي ثمارها لصالحه. فالمؤتمر لم يحقق ما كان يتطلّع اليه القادة علماء الدين ومن يؤيّدهم من الزعماء الوطنييّن للمدن من حيث تنظيم مقاومة وطنيّة موحدة تقف بوجه سلطة الانتداب وتقود الى ثورة عارمة شبيهة بثورة العشرين الكبرى.

وممّا يلاحظ على المؤتمرانّ عددا كبيرا من صفوة زعماء القبائل العربيّة الشيعيّة قد تخلوا عن تمسّكهم بالولاء التقليدي للمرجعيّة الدينيّة وان ابدوا ظاهريّا الطاعة لها، لقد كان واضحا تحوّل ولائهم الى مراكز الدولة الجديدة (الملك والحكومة) بهدف تعزيز مصالحهم الخاصّة، الاقتصاديّة والاجتماعيّة وبشكل خاص في قضايا ملكيّة الأرض وشؤون الفلاحين. فعلى سبيل المثال، فقد وصل صفوة من زعماء وشيوخ قبائل العمارة والكوت (مع زعيم قبيلة ربيعة) بعد انتهاء اعمال المؤتمر(اي في يوم 14 نيسان) وعلى الرغم من انهم سبق لهم وان وقعوا على المضابط في الكاظميّة واجتمعوا فيها وفي كربلاء بالعلماء، الا انّهم عادوا واجتمعوا في نفس الوقت مع الملك ومع المندوب السّامي لتقديم الولاء والطاعة لهما.

كما لاحظ المشاركون في المؤتمر امورا لم يكن يتوقعها العلماء انفسهم حول ظاهرة تحوّل ولاءات زعماء لهم ماض مجيد في الحركة الوطنيّة. وتأكيدا على هذا لقد جاء في تقرير بريطاني سرّي عن المؤتمر ما نصّه:

"..ولو ان المؤتمر قد نجح في جمع القوى المختلفة تحت مظلة الاسلام ومن اجل هدف التخلص من النفوذ البريطاني، الا انّ المؤتمرين قد قوبلوا بمقاومة غير متوقعة مثلا من زعيم قبيلة كالشيخ مخيف (احد ابرز قادة ثورة العشرين) ان يرفض اطاعة العلماء في القضايا السّياسيّة..."

لقد لاحظ الشيخ الخالصي منذ تحرّكه والوفد المرافق له من الكاظميّة باتجاه كربلاء، انّ هناك تحرّكا مضادا للمؤتمر. فحينما وصل وفدُه مدينة الحلة، كان الاستقبال الشعبي والرّسمي له رائعا ولكنه تغيّر في اليوم الثاني واصبح فاترا حينما زاره المتصرّف بصحبة

المستشار البريطاني.

وفي الوقت الذي كان فيه الخالصي وهو في طريقه الى كربلاء يستنهض الهمم ويجمع الانصار للدفاع عن الوطن، وصله خبر اعتذار الملك فيصل عن حضور المؤتمر بحجة انشغاله باحتفالات (عيد النهضة العربيّة) وهي ثورة ابيه الشريف حسين بن علي امير مكّة ضد الدولة العثمانيّة. كما سمع بانّ الملك في ذلك اليوم قد استعرض قطعات عسكريّة عراقيّة وبريطانيّة وطائرات القوّة الجويّة البريطانيّة في ذلك الاحتفال، وهي رسائل لا تخفى على ذكاء الشيخ مهدي الخالصي بانه قد اصبح في العراق دولة تمتلك قوّات مسلحة بريّة وجويّة تساند قراراتها السّياسيّة. ويضاف الى ما تقدّم انّه في يوم الثامن من نيسان (اي قبل يوم واحد من افتتاح المؤتمر) طارت 16 طائرة بريطانيّة لحراسة طائرة رئيس الضبّاط الانجليز في العراق الذي ذهب الى مدينة الحلة حيث قدّم هناك هدايا (سيوفا) الى بعض زعماء القبائل من امثال عدّاي الجريان وفارس ونايف (زعماء البو سلطان)اعترافا بخدماتهم للانجليز ولانقاذهم اثنين من الطيارين سبق وان اسقطهما الثوّار قرب الدغارة اثناء ثورة العشرين (سنة 1920). وقد تعمّدت الطائرات المشاركة في الاحتفال، ومنها التي كانت ترافق الزائر، التحليق فوق مدينتي النجف وكربلاء اثناء انعقاد الاجتماعات التمهيديّة من اجل استعراض قوّة الحكومة وتأكيد هيبتها.

اما من جانب العلماء انفسهم، فقد اظهر البعض منهم حسدا وعدم تأييد للمؤتمر فقد امتنع الميرزا حسين النايبني وهو من كبار علماء النجف المرموقين عن حضور المؤتمر بحجّة انّه كان تحت ضغط من الملك فيصل لكي لا يحضر. وهذا الادعاء لا يمكن قبوله لانّ المؤتمر قد اعطى لفيصل دعما قويّا سواء امام الإنكليز او امام ال سعود كما انّ بامكانه السّكوت على اسوء الافتراضات.

وكذلك نجد عددا من افراد عائلة ال بحر العلوم الطباطبائي وعلي الشهرستاني يمنعون الناس من غلق دكاكينهم او التظاهر لاستقبال الشيخ الخالصي، ويعلق التقرير البريطاني نفسه على ذلك انّه كان بسبب الحسد المعروف بين العلماء وانّ ذلك قد قلل من رصيدهم بين اتباعهم.

انه لمّا شك فيه انّ الحركة المضادّة للمؤتمر قد نظمّها الانجليز ونفذها اصدقاؤهم بزعامة الشيخ عدّاي الجريان، وقد ازره في ذلك منذ البداية الشيخ مخيف من الدغارة والشيخ عمران السعدون من زعماء بني حسن وعجيل باشا زعيم الزبيد ومراد الخليل زعيم الجبور وقد ساندهم زعماء اقل نفوذا من رؤساء الهنديّة مثل الحاج شمران وغالب السلطان من زعماء ال فتلة ومانع اللوتي وعبد الهادي من منطقة الغرّاف وزغيّر الطرّار من زعماء خفاجة.

امّا الشيخ علي السليمان فدوره الموالي للانكليز معلنا ومعروفا تماما، فمنذ البداية اجاب على برقيّة دعوة الخالصي له ولاعيان الدليم لحضور المؤتمر من اجل الدفاع عن الوطن بان هذه المسالة هي من اختصاص الحكومة وقد ردّ عليه الشيخ الخالصي بقوله:

" عدو حكيم خير من صديق جاهل. انّ حكومتك سوف لن تفرح بموقفك هذا بالامتناع عن صدّ الغزاة.انه من الواجب الالزامي على قبائلك ان تدافع عن نفسها وعلى هذا الهدف اتفق العلماء".

وقد جاء في التقرير ايضا انّ علي السليمان اراد ان يجيب الشيخ الخالصي بكلام مبتذل ولكن المحيطين به نصحوه بالعدول عن ذلك. كما ورد في التقرير انه لم يحضر للمؤتمر ايّ شخص من الدليم.

لم يقف علي السليمان زعيم قبائل الدليم عند هذا الحد بل حضر الى بغداد وقاد حوالي اربعين شخصا من زعماء القبائل وقابلوا الملك في 23 نيسان/ابريل واحتجوا لديه من تدخل العلماء المجتهدين بالسيّاسة، كما نبّهوا الملك بتعابير شديدة بانهم قد اقسموا الولاء له كملك لانه قد قبل الاستشارة البريطانيّة وانّ الانجليز اختاروه. وفي اليوم الثاني (24 نيسان) قدموا احتجاجا بنفس المضمون الى عبد الرحمن النقيب رئيس الوزراء الذي حيّاهم ودعاهم الى رفع مضبطة تحتوي وجهات نظرهم تلك. وحينما قابلوا المندوب السامي بيرسي كوكس لاخذ رايه حول ارسال العريضة المضادة لعرائض مؤتمر كربلاء نصحهم بيرسي كوكس بعدم تقديمها لانّ موقفهم معروف لديه ولدى السلطة وانّ تقديم مثل هذه المضبطة ستدفع الجهة الاخرى الى تقديم مضابط مضادة. وقال بانّ افضل موقف يمكن ان يتخذوه هو عدم حضورهم ايّة اجتماعات او لقاءات شبيهة بمؤتمر كربلاء. وقد استجاب الشيوخ لنصيحته.

هذا وقد حضر كذلك الى بغداد في25 نيسان الشيخ فهد الهذال وساند ما قام به علي السليمان ومن كان معه من الشيوخ. وقد ذكر الدكتور علي الوردي بانه قد عثر على عريضة علي السليمان تلك من ضمن وثائق البلاط الملكي في بغداد، ولكنها كانت خالية من التاريخ والتواقيع ولهذا اعتبرها غير صحيحة وليست اصليّة ولم يعتمدها. ولكن من الصدف اني (المؤلف) قد عثرت على النصّ الانجليزي لهذه العريضة كاملة ضمن تقرير سرّي كان المندوب السّامي بيرسي كوكس كان قد رفعه من بغداد الى وزارة المستعمرات البريطانيّة في لندن، ولهذا فقد اعتمدتها كوثيقة تاريخيّة، وهذا نصّ ترجمتها:

الى حضرة صاحب الجلالة الملك

الى معالي النقيب (رئيس الوزراء)

انّ عددا من اولئك المتصيّدين بالماء العكر وبدون مراعاة لسعادة او لالام الوطن، ولكي يحققوا اهدافهم الخبيثة قد استغلوا حادثة الاخوان لمنفعتهم الخاصّة واجتمعوا حول العلماء الذين يجهلون القضايا السياسيّة وليس لهم دراية بها وبعد ان أثاروا ضجيجا عاليا بدون سبب فقد اوعز العلماء الى ان يتقدموا الى رؤساء القبائل والاعيان للبلد من اجل اللقاء في كربلاء (مدينة سيّد الشهداء سلام الله عليهم). ان اهداف هؤلاء قد كتبت مقدما وقبل عقد الاجتماع بل ما ملته عليه اهواؤهم بدون انتظار القادة الذين كانوا على استعداد

لمناقشة القضيّة معهم. وهذا دليل على نواياهم الشريرة وتزييفهم. انّ هذه الاجتماعات خطرة على خير ورفاه الامّة. انّ هؤلاء على كل تقدير اشبه بالحركتين اللتين اعاقتا التطوّر في سوريا والعراق. ونحن لا نريد ان نذكر اسماء اولئك الذين لعبوا الدور المخزي ورموا سوريا بأيدي الفرنسيّين الذين كبلوهم بالاغلال وجعلوها تعاني من الاضطهاد الذي فتك بالشعب السّوري. اننا لسنا كاولئك الذين يعيدون حوادث الثوّرات السّابقة التي نشرت الهياج وعدم الطمأنينة ولا نحرّض بسطاء الناس والسّذج وجعلهم اهدافا للبنادق وللمدافع ولا نتكلم عن الخسائر التي يتحمّلون مسؤوليّتها. ولكن حينما ظهر الحق وزهق الباطل هرب اولئك وتركوا المغرّر بهم للعذاب. وكما نحن قد تكبدنا خسائر ماديّة ومعنويّة واحتججنا ضدّ اولئك الذين دعوا الى عقد المؤتمر حول مسالة خلق نزاع خطير بين القبائل وما ينتج عنه من اراقة الدماء وقد تجنبنا ذلك بمعجزة.

نحن زعماء القبائل قد قبلنا بالملك فيصل وفق شروط معروفة لحكومة العراق وللحكومة البريطانيّة باننا لانظهر غير الطاعة ويمكن لجلالته ان يعطينا ارادته لنا شخصيّا او من خلال موظفي حكومته. ماذا يريد هؤلاء غير مدّ نفوذهم في البلاد وتسبيب الفوضى وفقدان القانون؟ وماذا لدى هؤلاء من قوّة ليطمعوا بالمناصب العالية ويمنعوا العدالة عن المواطنين وخاصّة ان ليس لديهم خبرة او معلومات في السياسة والادارة؟ وعند حدوث ايّة خسا رة او انتكاسة فانهم جميعا يهربون او يخفون انفسهم. فبما اننا مصدر واردات الدولة وبما... ان مصالح الدولة تهمّنا وتهمّ قبائلنا فنحن ما نزال على تأييدنا للملك ورغبتنا هي تقدّم الحكومة. ولهذا فنحن لا نوافق بوضع انفسنا اهدافا ونعرّض انفسنا الى كارثة واهانة وذلّ او الى المصائب التي ستسبّبها مثل هذه الاجتماعات.

نحن نحتجّ ضدّ ايّة اعمال انانيّة متحيّزة وخاصّة النوايا السّيئة ونطالب الحكومة ان تعدّل الوضع بعناية وذلك بان تعتمد في ادارتها فقط على اولئك الذين هم من اصول نبيلة ومن ذوي الغريزة الشريفة الذين جبلوا على الاخلاق والعادات والتقاليد للوطن والذين يعرفون ويميّزون رغبات وطموحات المواطنين. وقد قابل علي السّليمان وموقعّوا العريضة الملك فيصل في 17 نيسان وطلبوا منه ان يبعث على بعض الزعماء مثل محمد جعفر ابو التمن والسيّد كاطع العوّادي والسيّدين علوان ونورالياسري والاستفسار منهم حول رايهم بحكومة العراق وبالانتداب. ولكن الملك صرف بوجهه عنهم ونصحهم بمراجعة رئيس الوزراء حول الاقتراح، وهذ دليل على انّ الملك كان مع المؤتمر.

لقد اكدت التقارير البريطانيّة السرّية انّ مؤتمر كربلاء كان موجها ضد الانجليز وقد اشارت التقارير الى انّ هناك اجتماعات سريّة عقدها صفوة العلماء والقادة خلال ايّام انعقاد المؤتمر لتأليف جمعيّة اسلاميّة لتوحيد السنّة والشيعة على اسس من المساواة التامة بين الطرفين وبموجب فتوى من الشيخ الخالصي بهذا الخصوص. كما اشارت التقارير الى تشكيل جمعيّة سريّة سميت "فدائيي الوطن" هدفها الفتك بالزعماء العراقيين الموالين للانجليز وكذلك الفتك

بالضبّاط الانجليز. وثائق وزارة المستعمرات البريطانيّة/في الـ PRO رقم: (A secret Report،Karbala Conference،no.1/2127،C.O.730/35/25338)

كما ورد في التقارير السريّة البريطانيّة تلك انّ القادة قد طرحوا خلال تلك الاجتماعات السريّة حاجة العراق وهو في حالة الجهاد الى مساعدة خارجيّة وقد فضلوا الاتصال بالاتراك (وزعيمها كمال اتاتورك) للتخلّص من النفوذ البريطاني نهائيّا. وقد ربط التقرير ذلك بنشاط او بما اسماه بمؤامرة الشريف حسين بن علي ملك الحجاز الواسعة للاتصال انذاك بالاتراك لاعادتهم مرّة اخرى بعد ان خانه الحلفاء بالتراجع عن وعودهم له (لقد كانت تلك المحاولات والاتصالات للشريف حسين المعادية لبريطانيا من اهم اسباب مساندة بريطانيا لابن سعود ماديا وسياسيّا وعسكريّا للاستيلاء على الحجاز). وقد ذكر التقرير ايضا ان بعض موظفي الحكومة قاموا بنشاطات في المؤتمر وتأييد اهدافه وعمل الدعاية المضادة لبريطانيا.

وينصح التقرير السرّي البريطاني ايضا بضرورة ارجاع نوري السّعيد (مدير الشرطة العام انذاك) الى الجيش وعزله عن مثل هذه الاجتماعات بسبب نشاطاته الوطنيّة. وقد ذكر التقرير ايضا ان نوري السّعيد ابدى نشاطا هو وصديقه السيّد هاشم من اجل انشاء جمعيّة فدائيّة سريّة من عامة الشعب وقد اوعز التقرير تصرّف نوري السّعيد الى رغبته في اثارة المشاعر الوطنيّة وتشجيع الناس للتطوّع في الجيش ولكن التقرير يقول "ولكن هذا شيء مزعج بالتأكيد لانه سيكون تحت سيطرة رجال شرّيرين" ويقصد بهم الوطنيّن.

ومن خلال ما تقدّم يمكن القول انّ الشيء البارز والواضح في مؤتمر كربلاء هو الاحساس بوجود

روح الثورة والتمرّد ورغبة تلك الصّفوة لمقاومة الاستعمار البريطاني وانصاره داخل العراق. وانّ بعض قادة المؤتمر الذين هم من صفوة قادة ثورة العشرين كانوا بالتأكيد يخططون لمشروع ثورة مماثلة لثورتهم الاولى، ولكن كان يبدو عليهم القلق وعدم الاطمئنان بسبب تغيّر الظروف العامّة داخل العراق تغيّرا كبيرا ولا سيّما التغيّر السريع في ولاءات الصّفوة العراقيّة على اختلاف مكوّنا تها وعدم اتفاقها بعد ثبات الدولة و جميع مؤسسّاتها لا سيّما الاداريّة والعسكريّة والامنيّة.

الصّفوة والمعاهدة العراقيّة ـ البريطانيّة

لقد اعاد مؤتمر كربلاء الى اذهان البريطانيّين ما سبق ان تلقوّه من دروس ثورة العشرين الكبرى وفي مقدمتها هو الا يتورّطوا في صراع مسلحّ ومباشر مع العراقيّن. ولذلك أصبحت سياستهم تقوم على التستر وراء واجهات عراقيّة معدّة اعدادا جيّدا بعد ان تمّ فرزها من صفوة الزعامات السّياسيّة والحزبيّة الوطنيّة لتكون مادة للحكومات العراقيّة المتعاقبة الموالية للانكليز لتحقيق ما يصبون اليه من منافع واهداف.

كان اوّل مهندس لهذه السّياسة كما أشرت سابقا هو المندوب السّامي بيرسي كوكس وفريقه البريطاني المتمرّس والخبير بطبائع العراقييّن. ولذا ومنذ ذلك الحين اصبح الصراع: عراقي - عراقي، وليس بريطاني - عراقي. امّا اذا وصلت الحالة في العراق الى الحدّ الذي ينذر بخطر جدّي قد يؤدّي الى تهديد مصالحهم وقد يقوّض النظام السياسي المتحالف معهم، ياتي الحل الاخير والمعدّ لديهم؛ وهو التدخل العسكري البريطاني المباشر لارجاع الامور الى الحالة التي يناسبها كما حدث في العقود التي تلت فيما بعد (لا سيّما في مواجهة حركة مايس 1941).

لقد كشفت مواقف وعلاقات الصّفوة العراقيّة فيما بينها وكذلك تغيّر ولاءات المؤتمرين اثناء وبعد فترة انعقاد مؤتمر كربلاء واقع السياسة البريطانية وتنامي نفوذها في اوساط شرائح جديدة من رموز الصّفوة العراقيّة الوطنيّة واعيانها. وعند ذلك أصبحت بريطانية جاهزة لتنفيذ اتفاقها السّابق مع فيصل وهو ابرام وعقد معاهدة لتحل محلّ الانتداب.

ولكي يتمّ ذلك على الوجه الاكمل الذي يضمن مصالحها وبالصيغة التي تناسبها بدات تضع الملك فيصل وحكومته والشعب العراقي امام ضغوط ومشاكل حقيقيّة كبيرة اهمها:

1 - اثارة مشاكل حدوديّة معدّة وجاهزة سلفا، وقد تمثلت بغارات " الاخوان " الوهابيين على الحدود الجنوبيّة الغربيّة للعراق، واثارة مطالبة تركيا الكماليّة بالموصل في شمال العراق، وتخطيط الحدود مع ايران بما فيها قضيّة شط العرب، وكذلك قضيّتي الكويت و المنفذ البحري المناسب للعراق على الخليج العربي.

2 - التهديد المبطنّ باعادة الاشاعات والاحاديث عن مشروع فصل الجنوب (ولاية البصرة) عن المملكة العراقيّة والدعوة الى تحقيق ذلك من قبل عوائل وزعماء من البصرة يعتبرون من اخلص اصدقاء الانجليز.

3 - سعي بريطانيا توقيع اتفاقيّة امتيازات استخراج النفط في العراق مع الحكومة المؤقتة قبل توقيع المعاهدة وقبل انشاء المؤسسات الدستوريّة وقبل اجراء انتخابات المجلس التأسيسي بل وحتى قبل انتخاب اعضاء البرلمان الذي سيوقع على المعاهدات، وهي من اغرب الحالات في العلاقات الدّوليّة.

4 - تصعيد حالة التوتر في المناطق الشماليّة والشماليّة الشرقيّة مع الكرد وابقاء القضيّة الكرديّة عالقة دون حلّ عادل يضمن حقوق الشعب الكردي.

وفي ظل اجواء تسليط الضغوط البريطانيّة على فيصل وعلى العراقيين، كانت هنالك تلويحات بريطانيّة بوجود مكاسب واغراءات للعراقيين عرضها البريطانيّون اهمها:

1 - عرض اسناد الامبراطوريّة البريطانيّة الدائم للمملكة العراقيّة الفتيّة لحماية حدودها من ايّ خطر خارجي.

2 ـ انّ التلويح بادخال العراق في المنظّمة الدّوليّة (عصبة الأمم) معناه الاستقلال التام وتثبيت شرعيّة حدودها الدوليّة.

3 ـ ان تشريع الدستور الدائم وقانون الانتخابات وتأسيس الاحزاب السيّاسيّة ستكون الخطوة الثانية التي ستاتي بعد توقيع المعاهدة والذي سيعطي الدليل على انّ الهدف النبيل لبريطانيا هو اقامة حكم ديمقراطي سليم في العراق.

لم يكن توقيت الغارات الوهّابيّة خلال فترة مناقشة بنود المعاهدة داخل مجلس الوزراء العراقي وعلى صفحات الجرائد المحليّة بالامر الخافي على الصّفوة الوطنيّة، فقد كانت الغاية من افتعالها هو تسليط الضغوط النفسيّة والسيّاسيّة علي كلّ من الجهتين داخل العراق؛ الجهة المؤيّدة للسياسة البريطانيّة ولعقد المعاهدة بالصّيغة التي قدّمها (الملك وحكومة النقيب الثانية)، والجهة المعارضة لها وتشمل زعماء الحركة الوطنيّة من صفوة العلماء ومؤيّديهم من زعماء العشائر والمدن. ولكن حينما انتقلت المبادرة من ايدي البريطانيّن ومؤيّديهم الى ايدي الزعامات الوطنيّة في مؤتمر كربلاء، وبدا لهم شبح ولادة قوّة شعبيّة مسلحة عراقيّة مماثلة للقوّة التي قاتلت في ثورة العشرين، لجا الانجليز الى مناورة جديدة بهدف اخذ المبادرة والظهور امام الملك وحكومته وكذلك امام الرّاي العام العراقي بمظهرالتزام بريطانيا بالدفاع عن حدود العراق وسلامة شعبه، فقامت طائرات القوّة الجويّة الملكيّة البريطانيّة بقصف تجمّعات القبائل البدويّة الوهّابيّة المهاجمة بقسوة وبوحشيّة، كما ارسل بيرسي كوكس رسالة تحذيرالى امير نجد عبد العزيز بن عبدالرحمن ال سعود يدعوه فيها الى ان يكف جماعته (الاخوان) عن غاراتهم. ولكنّ ابن سعود نفى علمه بتلك الهجمات وعبّر عن اسفه العميق، الا انّه اضاف بانه كان قد اوعزالى اتباعه بالانسحاب. (Burgoyne،E،op.cit.،p.266)

لقد اصبح الملك فيصل في هذه الفترة بين قوّتين متنافرتين تجذبانه بشدّة في اتجاهين متعاكسين؛ قوّة واقع السلطة الانتدابيّة البريطانيّة المفروضة عليه والصّفوة المتحالفة معها (بما فيها حكومة النّقيب)، وبين قوّة واقع الصّفوة الوطنيّة والقيادة الدّينيّة ومؤيّديها من زّعماء المعارضة في الرّيف والمدن التي تدعوا الى الاستقلال التام والتي تلقى دعم الراي العام العراقي.

كان الملك فيصل واقعيًا في تقديره للامور وعقلانيًا في سياسته فهو من جهة لايريد اغضاب البريطانييّن وحلفائهم من العراقييّن، لا سيّما انّ تجربته المرّة في سوريا لايزال شبحها يلاحقه حينما خسرعرشه واحتلت جيوش فرنسا عاصمة مملكته دمشق. ومن جهة اخرى فهو لايريد خذلان الصّفوة الوطنيّة العراقيّة من شعبه التي تؤازره وقدّمت له النّصرة والتاييّد في مؤتمر كربلاء ليكون في موقع قويّ وعزيز امام الانجليز، وامام غريمه عبد العزيزبن سعود (الطّامع في مملكته ومملكة ابائه واجداده الاشراف في الحجاز).

لقد كان فيصل على يقين بان زعماء الصّفوة المؤتمِرين في كربلاء ارادوا ايضا ان يشعروه

بانّه ملك العراق ومن ورائه شعب مستعد للتضحية ـ كما جاء في البيان الختامي للمؤتمر ـ ولكنّ منطق فيصل السياسي ورؤيته الواقعيّة لا تلتقي مع رؤية ومنطق الثوّار(لانّ الثائر ليس كالحاكم) حتىّ حينما عرض عليه القائمون على المؤتمر استعدادهم للتعاون معه لقبول صيغة معاهدة مع بريطانيا بشرط ان تقوم على اسس من المنفعة المتبادلة والصداقة والتعاون واحترام سيادة العراق واستقلاله.الا انّ الاتفاق لم يحصل، لانّ فيصل كان على يقين بانّ بريطانيا تريد من العراقييّن قبول المعاهدة التي صاغتها وفق حساباتها ومصالحها الاستعماريّة وانّ العراق ليس لديه القوّة والامكانيّات الكافيه بعد لمجابهتها كما اثبتتها التجارب. ومع ذلك فقد اظهر فيصل ابتهاجه وامتنانه من مؤتمر كربلاء وزاد من اقترابه من القيادة الوطنيّة سواء من علماء الدين اومن بقيّة الزعامات الوطنيّة وخاصّة حينما اختار احد زعماء وقادة المعارضة والمقرّب للامام الشيخ مهدي الخالصي، محمد جعفر ابو التمّن، ليتولىّ وزارة التجارة في 15 نيسان/ابريل 1922 مباشرة بعد عودته من المؤتمر الى بغداد.

(صحيفة دجلة عدد 136/ابريل1922) (الحسني/الوزارات،ج1،ص32).

وبالطبع لم يرق ذلك التجاوب والانسجام (بين فيصل وزعماء المؤتمر) للانجليز واعتقدوا انّ فيصلا قد تجاوز الحدّ المسموح به. اما الملك فيصل فقد اعتبر بانّ تعييّن الزعيم ابو التمّن سيليّن من مواقف الوطنيّين تجاه المعاهدة المطروحة وانّ التوقيع عليها سيتم بهدوء، الا انّ الاحداث اثبتت عكس ذلك، اذ اصبح للمعارضة وزيرا داخل مجلس الوزراء يعدّ على الوزراء حركاتهم وسكناتهم ـ وقد اشارت الى ذلك المس بيل في مذكراتها وقالت انّ ابو التمّن كان ينقل اسرار المناقشات الوزاريّة الى الامام الخالصي بالتفصيل.

انّ الذي يقرا محاضر اجتماعات مجلس الوزراء لشهر نيسان1922 وما بعده يجد انّ الوزير ابو التمّن كان يشكل مشكلة بالنسبة لهم وكثيرا ما كان المندوب السامي والمس بيل في تقاريرهم السّريّة يتذمرون من وجود ابو التمّن ومناقشاته داخل المجلس. ففي جلسة الثامن عشر من نيسان/ابريل، حثّ ابو التمّن ان تكون اولويّة قرارات مجلس الوزراء لمسالة الدفاع عن الوطن ضد المعتدين (الوهابيّين) وذلك بارسال قوّات مسلحة لمحاربتهم. الا انّ رئيس الوزراء النقيب ووزير داخليّته وكذلك وزير الماليّة ساسون حسقيل عارضوا الاقتراح ارضاءا للمندوب السّامي، بدعوى انّ اقرار ذلك القرار يمثل تأكيدا لمقرّرات مؤتمر كربلاء. (F.O.371،7771/E5311/33/65)

وفي الثاني والعشرين من ايّار/مايس1922 بعث ابو التمن برسالة الى رئيس الوزراء بيّن فيها رايه وراي المجلس بصدد رسالة المندوب السامي حول الدفاع عن الحدود العراقيّة. وبعد مناقشات تمّ الاتفاق على ارسال بعض قطعات من الجيش العراقي الى مدينتي الناصريّة والشاميّة القريبتين من مكان الغارات وأصبحت المدينتان تحت حماية القوّات العراقيّة والبريطانيّة، كما اتخذت الاجراءات اللازمة والتدابير مع مقرّات قيادات الجيشين لتجنب حدوث تجاوزات او تداخلات بينهما.

Inteleligence Report.. no.9، para.253،F.O.371،7771/) (.E5311/33/65

(كما اعرب ابو التمّن في رسالة له عن امتنان العراق فيما لو اتخذت بريطانيا من مبدا الصّداقة والتعاون اساسا لتحقيق مصالحهما المشتركة) لقد كان ابو التمن من الصّفوة الوطنيّة التي تجعل مصلحة العراق قبل كلّ شيء، ومن هذا المنطلق ولانه كان على علم بانّ القدرة الكلّية للجيش العراقي الجديد انذاك (26 نيسان/ابريل 1922) كانت تتألف من 3848 مجندّا، وانها بطبيعة الحال لم تكن كافية لحماية الحدود دون دعم من بريطانيا، ولهذا رفض فكرة انسحاب القوّات البريطانية من العراق دون اتفاق يضمن المصالح المشتركة لكلا الطرفين... وفي حالة عدم موافقة بريطانيا على انشاء مثل هذه العلاقات بين البلدين فانّ السلطة الشرعيّة الوحيدة التي لها الحق في اتخاذ القرار لمثل هذه القضيّة الوطنيّة البالغة الاهميّة (كالتوقيع على المعاهدة المقترحة) تتمثل في مجلس نيابي دستوري منتخب في العراق.

(Op.cit،para.260) C.O.730/21/24559)، (د.خالد التميمي/المصدر/ص147)

لقد كان الملك فيصل واضحا في رغبته في التعاون مع الصّفوة الوطنيّة العقلانيّة ذات الولاء العراقي. ولذلك قام بتعييّن ابرز السياسييّن المعارضين واكثرهم نزاهة وصدقا (على حدّ قول المرحوم الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم/المقابلة مع المؤلف/اب-اغسطس1979/بغداد) وزيرا للتجارة كابي التمّن، وكذلك للاستفادة من اعتداله وشعبيّته لاقناع العلماء باهميّة قبولهم المعاهدة لمصلحة العراق. ولذلك قام الملك في 28 ايار/مارس1922 بارسال ابو التمّن الى النجف للاتصال بعلماء الدين ورؤساء القبائل لنقل رغبة الملك في قبولهم المعاهدة.

(F.O.371،7771/E699/33/65). ولكنّ محمد جعفر ابو التمّن لم يستطع اقناع العلماء، بل انّ الجو المعادي للمعاهدة كان اقوى من محاولاته، فراح منغمسا هو ايضا في النشاطات الوطنيّة كجمع العرائض المعادية للانتداب في مدن كربلاء والنجف والكوفة وابو صخير وام البعرور، فقد جاء في احد تقارير الـ C.I.D السريّة انّ ابو التمّن كان يمارس نشاطا معاديا للمعاهدة ويقول كاتب التقرير: "انا لا استطيع ان افهم ايّ نشاط يتوقعّ من وجود جعفر ابو التـمّن هناك وهو الشخص الذي هيمن على مؤتمر كربلاء" . C.I.D.Report،May1922،no.S.B/536.File no.7/15/3 .New Delhi) (،N.A.I

ولم يكتف ابو التمّن بنشاطاته المعادية للمعاهدة، بل عاد برسالة من العلماء وزعماء المؤتمر الى رئيس الوزراء يحتجّون فيها على التأخير في تحقيق الاستقلال. كما عاد بعرائض مماثلة من زعماء الفرات الاوسط وقدمّها الى رئيس الوزراء عبد الرّحمن النقيب، وبسبب ذلك النشاط لابي التمّن ايضا كتبت التحقيقات الجنائيّة الـC I D" ... انه كان من الخطا ارسال ابو التمّن لهذه المهمّة.." C.O،730/30/22/30066)).

وفي الاوّل من حزيران/يونيو1922 قام ابو التمن بمقابلة المندوب السّامي واوضح له لماذا ذهب الى النجف وبماذا عاد، واخبره بانّ العلماء طلبوا منه عرض وجهات نظرهم وتتلخص بانهم لو اقتنعوا بان نصوص المعاهدة ايجابيّة وانّ لبريطانيا نوايا مخلصة للعراق فانهم عند ذلك سوف يقدمّون التأييد لسياستهم في العراق، وكذلك سيسعون بنفوذهم في ايران لصالح بريطانيا الامر الذي من شانه الحفاظ على المصالح البريطانيّة الاقتصاديّة والاستراتيجيّة في المنطقة بشكل عام..

(F.O. 371/7771/ Report.no.12. E6853/33/65) وقد نشرت الصحف (الاستقلال والعراق والمفيد والزمان) ذلك الرأي في17 مارس/1922، بينما هاجمت صحيفة دجلة ابو التمّن بسبب ذلك في عدد17تموز1922. (F.O371/7771/E8715/33/65. Report no15)

وعلى الرّغم من وجهة النظر البريطانيّة السلبيّة والمخالفة لسياسة الملك فيصل تجاه الصّفوة الوطنيّة، فقد كان من الطبيعي ان تبقى رغبته كملك على العراق ان يكسب قلوب صفوة رعيّته الى جانبه من اجل تقوية مركزه عند العراقييّن وامام الانجليز ايضا. لذلك فقد استمرّ في سياسته ومرونته مع الوطنييّن حتى مع من كان يعلن العداء له منهم. فقد زاد من تودّده واكثر من زياراته الى الشيخ مهدي الخالصي في الكاظميّة. كما فتح باب ديوانه ومجلسه الخاص لصفوة الزعماء الوطنييّن من امثال ابو التمّن والشيخ محمّد الخالصي (الابن) وحمدي الباججي وياسين الهاشمي والشيخ احمد الشيخ داود والسيّد محمد الصّدر والشيخ محمد مهدي البصير وجميعهم كانوا ضد الصّيغة البريطانيّة للمعاهدة، حتى انه كثيرا ماكان يجتمع بهم او بمبعوثيهم بهدف التفاهم والتنسيق معهم مثلما حصل اثر اجتماع القيادات الوطنيّة في جامع الحيدر خانة بتاريخ 28 ايار/مايس1922، اذ قابل مبعوثيهم واطلع على وجهات نظر الجماهير بالمعاهدة (Ireland، P.W.، op. cit، p.326). وبعد حوارات هادئة مع المعارضين طلب الملك منهم الموافقة على المعاهدة ولكن قادة المعارضة أظهروا له مؤازرتهم وتأييدهم له اذا ما تشدّد مع البريطانيين. ولذلك اظهر الملك تشدّدا في تفاوضه مع الإنكليز ولو الى الحد الادنى وخاصّة حول المادة الثالثة والتي جاء فيها "بانّ لائحة القانون الاساسي يجب ان تكون مطابقة لشروط نصوص المعاهدة" اذ انّ من ابسط شروط الاستقلال هو ان يهيمن دستور الدولة على جميع المعاهدات والاتفاقات لا ان يخضع الدستور لنصوص معاهدة. كما اعترض الملك ايضا على صيغة المادة الرابعة والتي تنصّ على انّ حكومة العراق يجب ان تستشير بريطانيا (بجميع الامور الخطيرة) حيث طالب الملك بتوضيحها وتحديد طبيعة الاستشارة. ولرغبة الملك فيصل ان يعالج الامر بمرونته المشهودة، فقد طلب استبدال الفقرة بعبارة: "بانّ ملك العراق يتعهّد باعطاء كل اعتبار للنصيحة المقدّمة له من جلالة ملك بريطانيا بواسطة المندوب السّامي في جميع المشاكل المهمّة والمختصّة بالتعهدات والالتزامات الدوليّة والماليّة التي تمسّ تعهدات جلالة ملك بريطانيا طول مدة هذه

المعاهدة، وانّ جلالة ملك العراق سيستشير المندوب السامي فيما يساعد على اقامة سياسة ماليّة ونقديّة سليمة ويؤمّن استمرار تنظيم تجارة العراق وماليّة الحكومة العراقيّة ما دامت تلك الحكومة تحت مسؤوليّة ماليّة صاحب الجلالة البريطانيّة" . وقد اغضب موقف الملك فيصل هذا البريطانيين واعتبروه تجرّؤا منه على الوجود البريطاني في العراق ولجأوا الى التهديد. فقد هدّد وزير المستعمرات البريطاني فيصلا بامرين وهما:

اوّلا الانسحاب البريطاني من العراق، وثانيا ايجاد بديل لفيصل لعرش العراق. ولهذا تراجع فيصل وغيّر موقفه موضّحا (بتصريح اخر من حكومته) "انّ اصرار العراق على الغاء الانتداب لا يقصد به اجلاء الانجليز عن العراق بل انّه (الملك) وحكومته غير مستعدّين اساسا فكرة تخلي الانجليز عن العراق" . ثم ارسل الملك برسالة ودّية الى لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني في 5ايّار/مايس1922 حملها ممثل الملك الشخصي الجنرال "حدّاد باشا" الى لندن ليتفاوض باسمه وليقدّم اقتراحاته الى الحكومة البريطانيّة حول مسالة الغاء الانتداب واستبداله بمعاهدة. كما بعث برسالة مماثلة الى ونستون تشرشل وزير الدولة انذاك. وقد استطاع اللواء حدّاد باشا ان يوفق بين وجهات النظر لما له من نفوذ وصداقات في الدوائر البريطانيّة وان يخرج بنتيجة هو الاتفاق على عقد معاهدة بلا انسحاب وبلا انتداب، (C.O.730/36/29407).

لقد اكدت حوارات الملك فيصل الاوّل مع المندوب السامي بيرسي كوكس وكبار مساعديه، و مفاوضات مندوبه حدّاد باشا في لندن وكذلك مقابلة ابو التمّن للمندوب السّامي في1حزيران1922 كما مرّ بنا حول المعاهدة، اصرار بريطانيا وتمسّكها بالصّيغة التي ترتايها هي دون اعتبار للملك او للمعارضة الوطنيّة رغم العروض المعتدلة التي عرضها الملك، وكذلك عروض علماء الدين وقادة مؤتمر كربلاء التي نقلها ابو التمّن الى بيرسي كوكس، ولهذا اصبح من المتوقع نشوء ازمة سياسيّة جديدة قبل التوقيع على المعاهدة.

وكما يبدو انّ من الاساليب الاعتياديّة التي تتبعها بريطانيا في مواجهة خصومها وفرض ارادتها عليهم،هي تفجير الازمة معهم قبل ان يكونوا جاهزين لمواجهتها وتحدّيها. ففي 17 حزيران/يونيو اعلن المستر ونستون تشرتشل في مجلس العموم بانّ العراقييّن كانوا قد قبلوا بالانتداب، وعلى اثر ذلك ومثلما تمنّت بريطانيا من حدوث ردود افعال سريعة، ثارت ثائرة العراقييّن وتمّ عقد الاجتماعات في المساجد وقام الوطنيّون بالتظاهرات في شوارع العاصمة. وقد نقلت صحيفة الاستقلال برقيّة رويتر بشكل اثار الرأي العام حيث جاء فيها نصّ تصريحات تشرشل مع نقد لاذع للغرور والتشدّد البريطاني في عدم احترام رغبات العراقييّن (جريدة الاستقلال – عدد/17 حزيران – يونيو 1922).

لقد هاج الشعب العراقي بسبب الاخبار المنشورة وقد صادف ذلك في اواخر شهر رمضان (28 ايار 1922) فجرت اجتماعات في المساجد وقام الوطنيّون بالتظاهرات في شوارع العاصمة. كما تمّ اختيار وفد ضمّ صفوة من علماء الدين والوجهاء لمقابلة الملك لعرض

وجهات نظر جميع المجتمعين. وكانت اهم الاجتماعات تلك التي عقدت في جامع الوزير وفي جامع الحيدرخانة ومن اشهر خطبائها كان الشيخ مهدي البصير ومحمد باقر الحلي. وقد اختار المجتمعون ستة منهم ليقابلوا الملك، وقد قابلهم في قصره وطلبوا منه تصريحا يقول فيه بانّ العراق مستقل لا يشوبه ايّ تدخل اجنبي بايّ اسم كان. وبعد حوارات مع الملك، سمح لهم بنشر بيان في الصحف يقولون فيه بانّ الملك لا يعمل ضد رغبات الشعب وانّه ساهر على مصلحة البلاد وان الامور جارية على احسن ما يرام. كما سمح لهم بارسال برقيّات الى العالم المتمدن يطالبون فيها رفض الانتداب والتمسّك بالاستقلال،ممّا يدلّ على وعي الصّفوة السّياسيّة انذاك حول اهميّة الرأي العام العالمي. (Ireland،P.W.p.326)

لقد أغضبت نشاطات الصّفوة الوطنيّة المعارضة للانتداب الانجليز، واصبح المندوب السّامي اكثر تشدّدا في المباحثات بشان المعاهدة. ففي الاوّل من حزيران/يونيو استلم مجلس الوزراء رسالة من المندوب السّامي بيرسي كوكس شرح فيها التزام بريطانيا بمسؤوليتها الانتدابيّة (في حماية حدود العراق من المعتدين الوهابييّن وغيرهم) كما اظهر في نفس الرسالة استجابة حكومته لطلب رئيس الوزراء النقيب لحماية الحدود الغربيّة حتى ولو ادّى ذلك الى ارسال قسم من قوّات الامبراطوريّة لاداء واجبها للدفاع عن منطقتي الشاميّة والناصريّة. ولم ينس بيرسي كوكس في رسالته ايضا ان يذكرّ مجلس الوزراء العراقي بضرورة الاعتراف مبدئيّا بالوضع الخاص لشركة النفط الايرانيّة ـ الانجليزيّة في حدود امتيازاتها داخل العراق. وقد اقترح بيرسي كوكس في رسالته على مجلس الوزراء ان يدخل وزيرا الماليّة والتجارة العراقيّين في مفاوضات مع الشركة المذكورة والوصول الى صيغة عمل مشتركة. (Longrigg،S.H.،Oil in The Middle East،p.17)

ويبدو مما تقدّم ما يلي:

اوّلا استطاع بيرسي كوكس ان يوجه ضغطا على الملك فيصل وعلى الصّفوة العراقيّة بكافة مكوّناتها لضمان امتيازات النفط للشركات البريطانيّة قبل التوقيع على المعاهدة.

وثانيا اثارة مشكلة الحدود مع ايران في المناطق الغـنيّة بحقول النفط. وقد احتج وزير التجارة انذاك (ابو التمّن) على تقديم صيغة اتفاقيّة النفط من حيث التوقيت المتزامن مع ازمة الغارات الوهابيّة التي شنّت على الحدود الغربيّة للعراق. كما فضح وزير التجارة ايضا الاجحاف الذي سيصيب العراق في حالة التوقيع عليها. الا ان مجلس الوزراء وقع الاتفاقيّة لصالح الشركة المذكورة ولكنّ وزير التجارة ابو التمّن قد اعترض لاسباب وجيهه، تاريخيّة وفنيّة، تتضمّن اربعة فقرات رئيسية. (د.خالد التميمي/المصدر/ص155 ـ 150)، (Intelligence Report no.11،para.449،dated 1st June 1922.In:F.O.371/7771/E6991/33/95)

لقد جرى التوقيع على اتفاقيّة النفط قبل اجراء انتخاب المجلس التأسيسي وكذلك قبل سنّ الدستور للبلاد وعقدت الاتفاقيّات والمعاهدات الدّوليّة ايضا قبل تثبيت الحدود مع

الدول المجاورة.

ثالثا: وبعد ان تمّ التوقيع على اتفاقيّة امتيازات شركات النفط، ارسل المندوب السّامي تأكيدا الى مجلس الوزراء العراقي يتضمّن ضرورة التوقيع على النّصوص النهائيّة للمعاهدة. ولكي يضع بيرسي كوكس مزيدا من الضغوط على الملك ومجلس الوزراء وعلى الوطنيين، اثار مشكلتين جديدتين هما:

الاولى: استفزازه للعشائر بمطالبتها بنزع سلاح عشائر الفرات الاوسط.

الثانية: اثارة قضيّة فصل ولاية (البصرة) عن بقيّة العراق.

(F.O.371/7771،no.11،para.449)

مطالبة الصّفوة بالديمقراطيّة

اظهر الشعب العراقي منذ وقت مبكر مطالبته بتطبيق النظام الديمقراطي قبل وصول الملك فيصل الاوّل وانشاء المملكة العراقيّة الهاشميّة. فقد نادى العراقيّون بوجوب ان تكون السلطة في العراق الحديث نابعة عن برلمان منتخب ودستور دائم ومؤسسات المجتمع المدني. وعلى الرغم من انّ العراق كان بلدا متخلفا في شتى جوانب الحياة، ونسبة الاميّة فيه كانت قد تجاوزت الـ 85%، الا انّه ظلّ يعبّر عن طموحاته تلك عبر انسجامه مع صفوة زعاماته التي وثق باخلاصها وبنزاهتها فاستجاب لتوجيهاتها ورضي بقياداتها من اجل اقامة حياة برلمانيّة حقيقيّة سليمة، وكانت قيادة صادقة وصريحة معه. وانها لظاهرة تاريخيّة تستحق التأمل انّ جيل العشرينيّات قد حقق ذلك (رغم العثرات والانتكاسات) وعاش في ظل المؤسّسات الدستوريّة البرلمانيّة بعد ذلك لاكثر من نصف القرن الماضي (سنوات النظام الملكي)، بينما عاش العراق وشعبه طيلة سنوات العهود الجمهوريّة (الثوريّة) في واقعه اليومي بلا دستور دائم وبلا حياة برلمانيّة وبلا مؤسّسات المجتمع المدني وحتى بلا ميزانيّة دولة معلنة او رقابة ماليّة (حقيقيّة ورصينة) لا سيّما خلال العقود الثلاثة الاخيرة من القرن العشرين. وعلى الرّغم من انّ اهتمامنا هنا ليس بصدد مقارنة بين عهدين (الملكيّة والجمهوريّة حيث لا وجه للمقارنة)،الا انّ بحثنا وحديثنا هوعن الجانب الاهمّ من ذلك، وهو عن دور الصّفوة العراقيّة ونوعيّة الزّعامة العريقة التي تحمّلت مسؤليّة قيادة البلد (الدولة والمجتمع) وتوجيهه خلال العقود الستة الاولى من عمر العراق، وهو ما يفتقر اليه اليوم بعد مرور مائة عام.

لقد انعكست حالة الانسجام والثقة بين الصّفوة القياديّة وجمهور الناس في بداية القرن الماضي من خلال الطّاعة والاستجابة السّريعة من قبل الجماهير لصفوتها القائدة والثقة بامانتها في النشاطات المختلفة في السّلم والحرب.

وبعكس ما يصوّره فلاسفة السّوء لتزيين منهج اللاديمقراطيّة والانظمة الشموليّة بان حالة الطاعة والانسجام تلك هي من طبيعة (الدّهماء) و (العامّة)، فاننا حينما نقرا نصوص العرائض

والمضابط الجماهيريّة المقدّمة انذاك من قبل الصّفوة باسمهم الى الملك والى المندوب السّامي، او صيغ البرقيّات والاحتجاجات المرسلة باسم الجماهير ايضا الى رؤساء الدول والحكومات والمنظمات الرّسميّة وغير الرّسميّة في العالم، او ما كان ينشر على صفحات الصّحف المحليّة والعربيّة والاجنبيّة، نعلم مقدار التأثير الايجابي لقيادة الصّفوة العراقيّة (على اختلاف وجهات نظرها واتجاهاتها) في ارشاد وتوعية الجماهير والتعامل معهم بصدق وامانة واحترام، علما بان الصّفوة القياديّة كانت تبذل من حرّ اموالها الخاصّة على متطلبات نشاطاتها الوطنيّة،ولم يطرقوا بابا لايّة جهة خارجيّة غيرعراقيّة. وبهذه الثقة الجماهيريّة بصدق ونزاهة القيادة واحترامها للعاملين معها، يكمن سرّ الولاء والطاعة والاستعداد للتضحية انذاك.

ففي خلال ازمة عقد المعاهدة الاولى بين بريطانيا والعراق، وبعد ان انفرد المحور الثلاثي: بيرسي كوكس ـ النقيب ـ الملك بقرار الموافقة والتوقيع على المعاهدة بصيغتها النهائيّة، وبعد ان وقعّ مجلس الوزراء على اتفاقيّة التنقيب عن النفط في العراق مع الشركة الانجليزيّة ـ الفارسيّة، عمّ العراق سخط شعبيّ كبير وشملته موجة من الاحتجاجات انعكست على صفحات العرائض والبيانات التي ارسلها العلماء والقادة الوطنيّون وكبار زعماء الفرات الاوسط.

ففي اواخر حزيران 1922 أرسلت الصّفوة من قادة القبائل المرموقون من الذين ساهموا بثورة العشرين الكبرى من امثال الشيخ المجاهد عبد الواحد الحاج سكر والشيخ مرزوق العوّاد برقيّات ترفض الانتداب البريطاني بجميع اشكاله مطالبين بالاستقلال، بينما بعث القسم الاخر من رؤساء القبائل ببرقيّات تؤيّد الانتداب البريطاني والملك فيصل وحكومته وعلى راس هؤلاء كان الشيخ عدّاي الجريان عن البوسلطان ومراد الخليل عن الجبور وراشد العنيزان عن اليسار وصغيّر الطرّاد عن خفاجة وعمران الزنبور عن بني عجيل. وهؤلاء الزعماء وان كانوا اقلّ عددا وشانا من المعارضين للانتداب الا انهم يعكسون بداية خطيرة في تحوّل الولاءات لدى الصّفوة العراقيّة.

عاد الانجليز مرّة اخرى يثيرون مشكلة نزع سلاح العشائر رغم علمهم استحالة ذلك لانّ السلاح هو رمز الرجولة والقوّة والدفاع عن الكرامة والشرف لابن القبيلة. واخذ المستشارون الاداريّون يجمعون شيوخ العشائر ويطالبونهم بالتوقيع على العرائض المؤيّدة لبقاء الانتداب البريطاني، ومهدّدين باخذ ما لدى العشائر من سلاح في حالة الرّفض، كما هدّدوهم بسحب اراضيهم الزراعيّة واعطائها الى الاشخاص الموالين لبريطانيا وكان هذا الامر اخطر سلاح تهديد ومسالة حياة او موت بالنسبة لهم. وكان اشدّ المستشارين الاداريين المتحمّسين لتنفيذ هذا السّلاح هو الميجر ييتس الذي كان يعمل على اقناع زعماء المنتفك (الناصريّة) لتأييد فصل الجنوب (ولاية البصرة) عن العراق. وهي مشكلة اخرى معادة (ترجع الى بداية استفتاء ولسون سنة 1919وما زالت تستخدم حتىّ اليوم) اثارها الإنكليز للضغط على العراقييّن لقبول المعاهدة معتمدين على بعض كبار عوائل البصرة من امثال ال المنديل وال بركات

وال الصّانع وال العبد الواحد. وعلى الرّغم من الضغوط البريطانيّة الشديدة الا انّ الملك فيصل وقف بوجه الضغوط التي كانت تهدّد وحدة مملكته وعرشه،واراد كعادته ان يرضي الإنكليز والوطنيّين في ان واحد. وقد كان رايه مخالفا للانكليز في كيفيّة التعامل مع زعماء القبائل لا سيّما الاقوياء منهم الذين اشتركوا في ثورة العشرين. ولهذا قام بتعيينّ ياسين الهاشمي العائد لتوّه من سورية متصرّفا (محافظا) على الناصريّة (المنتفك) رغم معارضة المستشارين الانجليز لذلك التعيينّ. وبذلك الموقف فقد طمان الملك الوطنيينّ في المدن من جهة باعتبار انّ الهاشميّ هو احد قادة المعارضة الوطنيّة في المدن، كما ارضى زعماء القبائل المعادية للانتداب لانّ الهاشمي قادر على ان يتحدى المستشار الانجليزي الميجر ييتيس بسبب تأييد الملك لياسين الهاشمي. وقد ارسلت احدى وعشرون برقيّة من المنتفك كلّها تندّد بالانتداب وتطالب بالاستقلال. الا انّ زعماء القبائل الموالين للانجليزاخذوا يشتمون الهاشمي سرّا وعلنا ويطلبون منه مغادرة المحافظة، ووصلت الحالة الى درجة من الخطورة ان اضطرّ الهاشمي الى المغادرة ليلا الى بغداد. وقد اعـقـب ذلك ان عادت سطوة المستشار الانجليزي اقوى ممّا كانت؛ فقد امر الميجر ييتيس بالقاء القبض على صّفوة من الوطنيّين منهم باقر الشبيبي وعبد المهدي المنتفكي ووضعهما في السّجن بتهمة اثارة الشغب.

لقد توترت الحالة بين فيصل والانجليز مجدّدا بسبب طيش وسوء تصرّف بعض الموظفين الانجليز مع العشائر حسب راي الملك. ولكنّ الملك فيصل لم يدع الامور تصل الى الطريق المسدود بل ارضى الانجليز وبرّر موقفه لسكرتيرة المندوب السّامي المس بيل حيث اخذ يفهمها كما جاء في رسائلها – (جرترود بيل/ج2/ص272) بانّ واجبه كملك يقضي عليه ان يطمئن الوطنييّن المتطرّفين وتستمر المس بيل في وصفها للمقابلة بانه حينما احتدّ ت المحاورة بينهما اخذ يسترضيها بشكل ابوي، وفي نهاية المقابلة سمح لها بنشر تكذيب رسمي لما نشرته الصحف من تقارير حول تايد الملك للعناصر الوطنيّة ووقوفه بوجه الانتداب.

مواقف الصّفوة من المعاهدة الاولى

على الرّغم من الاعتراضات والعرائض التي عكست السّخط الشعبي فانّ مجلس الوزراء قد ناقش في جلسته المنعقدة في 22 حزيران 1922 موضوع التوقيع على الصّيغة النهائيّة للمعاهدة؛ وقد اعترض عليها الوزير توفيق الخالدي وقال بانّ 95 % من الشعب العراقي يرفض المعاهدة لانها تتضمّن مبدا الانتداب. كما دخل الوزير محمد جعفر ابو التمّن في مناقشة حادة مع بقيّة الوزراء وخاصّة مع عبدالمحسن السّعدون ومع جعفر باشا العسكري. كان ابو التمّن يصرّ على رفض الانتداب وضرورة اعتراف بريطانيا بحق التمثيل الخارجي للعراق. (Intelligence Report،no.12،paras.522،523،C.O.730/22/32485)

كما وجّه ابو التمّن كلامه الى رئيس الوزراء السيّد عبد الرّحمن النقيب قائلا: انّ مجلس

الوزراء لا يحقّ له النظر في المعاهدة او التصديق عليها، بل يجب ان ينظر فيها مجلس تأسيسي منتخب من قبل الشعب. ثمّ اردف ابو التمّن بقوله "انّ السّادة المبجلين واقطاب الاسلام كلهم يعارضون المعاهدة" . وحينما ذكرّه عبد المحسن السّعدون باهميّة اسناد بريطانيا لادخال العراق في عصبة الامم، اجابه ابو التمّن محتدا وبحالة غضب شديد بانّ الانتداب هو العبوديّة بعينها. وبعد ساعتين من النقاش تدخل النقيب واجلت الجلسة لمدّة يومين. وقد تمكّن معارضو المعاهدة خلال ذلك من تنظيم نشاطات سياسيّة شعبيّة ضد عقد المعاهدة. (Intelligence Report،1st July1922،no.12،para.440،524،F.O.37 1،7771/E6991/33/65)

يتضح مما تقدّم من نقاشات وحوارات بين نموذجين من الصّفوة العراقيّة امران مهمّان؛ اوّلهما ارتفاع مستوى الوعي والحوار الديمقراطي لدى الطرفين سواء المعارضين او المؤيدين لعقد المعاهدة، وثانيهما انّ كلا الطرفين المختلفين يلتقيان بهدف وطنيّ واحد مشترك وهو خدمة العراق وان اختلفا في الاسلوب وبالاجتهاد في كيفيّة او في امكانيّة تحقيقه.

لقد بدت الصّفوة الوطنيّة العراقيّة منقسمة على نفسها ازاء التوقيع على المعاهدة الاولى: فالمعارضة للمعاهدة تقود النشاطات الجماهيريّة المختلفة، منها ارسال برقيّات الاحتجاج الى مجلس الوزراء من مختلف انحاء العراق لا سيّما من مناطق الفرات الاوسط وفي مقدمتهم بعض قادة ثورة العشرين من امثال الشيخ عبد الواحد الحاج سكر والشيخ مرزوق العواد وكلها كانت تندّد بالانتداب وبعقد ايّة معاهدة تحمل روح الانتداب. بينما من جهة اخرى ارسل عدد من زعماء قبائل اخرى رسائل مناقضة للاولى تؤيد الانتداب البريطاني من امثال الشيخ عدّاي الجريان شيخ البو سلطان ومراد الخليل شيخ الجبور وراشد العنيزان شيخ اليسار وزغيّر الطرّاد شيخ خفاجة وعمران الزنبور شيخ قبيلة بني عجيل. (Intelligence Report،13 June 1922، no.12، para.51 7.In:F.O.371،7771/E6853/33/65)

كما دعا المعارضون الى الاضراب العام والتظاهر ضدّ التوقيع على المعاهدة واستجابت الجماهير لدعوتهم؛ ففي يوم 24 حزيران أغلقت المحلات والدكاكين في محلة صبابيغ الآل ببغداد (وهي حارة الصّفوة البغداديّة) وسارت مظاهرات شعبيّة تقودها جماعة من اعيان عائلتي ابو التمّن وال كبة واتجهت نحو دار عبد الرّحمن النقيب رئيس الوزراء وهي تهتف بسقوط الاستعمار والانتداب وتهتف بحياة الوطن وتطالب بالاستقلال التام، وكان من بين الشخصيّات التي حاورت النقيب كل من الشيخ محمد مهدي الخالصي وعلي البزركان والسيّد محمد الصدر والسيّد نور الياسري وجليل السوز. ومما يجدر ملاحظته حول النشاطات والفعاليّات السّياسية ان الصّفوة من الزعماء والاعيان يقودون الجماهير في المحلات والشوارع ويقتحمون دواوين الوزارات – بما فيها ديوان رئيس الوزراء وكذلك البلاط الملكي- بانفسهم. /C.I.D.Report،June24th1922،no.17،para.403.S.B 536.In:N.A.I،NewDelhi

وقد ذكرت التقارير البريطانيّة بانّ تلك التظاهرات والاضرابات كانت من تدبير الشيخ مهدي الخالصي. وقد بعث الملك فيصل الاوّل على زعماء المعارضة وطلب منهم عدم اثارة التظاهرات، كما طلب من ابي التمّن عدم حضور جلسة يوم 25 حزيران، كما ذكرت تقارير اخرى انّ الملك طلب منه الاستقالة من وزارته. اجتمع مجلس الوزراء يوم 25 حزيران وصادق على الصّيغة النهائيّة للمعاهدة وقد اصرّ رئيس الوزراء النقيب على اضافة عبارة تقضي بوجوب اجراء تعديلات وان يتم تصديق المعاهدة من قبل المجلس التأسيسي وحينما عارض بيرسي كوكس اضافة هذه الجملة اصرّ النقيب على بقائها والا فسوف يستقيل، فوافق كوكس على ذلك. (د،خالد التميمي/المصدر/ص161).

وفي اليوم التالي(26 حزيران) وقعّ جميع الوزراء على صيغة المعاهدة ولم يعترض سوى وزير التجارة محمد جعفر ابو التمّن الذي سجّل ستة نقاط اعتراض بخطه في نهاية ملف المعاهدة اثبت فيها انّ المعاهدة هي وجه جديد للانتداب واستمرارا للنفوذ البريطاني. ثمّ قدّم استقالته وغادر المجلس حيث قبلت رسميّا في29 حزيران/يونيو1922.

((F.O.371،E7182/33/65.Intelligence Report،no.13،paras: 567، 571

وفي يوم التوقيع على المعاهدة (26 حزيران) برز ايضا نشاط معارض اخر في الكاظميّة، فقد اجتمع عند الشيخ مهدي الخالصي عدد غفير من كبار علماء الدين وزعماء المعارضة من صفوة بغداد وزعماء العشائر بعد ان انتشرت اخبار اجتماع مجلس الوزراء واستقالة ابو التمّن من وزارته. وقد القى الشيخ الخالصي على الحضور خطابا حماسيّا مؤجّجا للمشاعر وكان اخطر ما جاء في خطابه هو افتائه للجمهور:

"انّ بيعتهم للملك فيصل أصبحت لاغية لانه اخلّ بالشروط التي تعهّد بها اثناء البيعة والتي تنصّ على المحافظة على استقلال البلاد" . كانت نشاطات المعارضة تعكس واقعا مؤلما وهوان ضغوط الصّفوة المعارضة وقسوتها كانت منصبّة على الملك فيصل وحده الذي كان لا حول له ولا قوّة،فقد كان بين مطرقة المعارضة الوطنيّة وسندان تعنّت البريطانييّن، وبذلك وجد الشيخ الخالصي الفرصة المواتية لنفسه للتراجع عن بيعته التي كان قد اعطاها لفيصل محرجا اثناء لقائهما الاوّل وسط اجواء حماس وضغوط الاستفتاء على المرشحين لعرش العراق. ولا بدّ من الاشارة هنا الى انّ الشيخ الخالصي وبقيّة الصّفوة المتشدّدة المعارضة لم تطرح بديلا واقعيّا افضل من اجتهاد فيصل ورؤيته للواقع المعاش انذاك.

وعلى اثر ازدياد التوتر في بغداد والكاظميّة وفي عدد من مناطق العراق، ازداد ت مخاوف وقلق المندوب السّامي والملك فيصل. فراح بيرسي كوكس يسرّب اخبارا الى الصحف المحلّية مفادها بانّ المندوب السامي قد ارسل برقيّة الى القنصل البريطاني في بوشهر في ايران يسأله فيها عن امكانيّات بناية السجن في جزيرة هنجام لايواء معتقلين. كما ارسل الملك فيصل بعض خاصّته للاتصال ببعض زعماء المعارضة وحثهم على ان يرسلوا ببرقيّات الى المندوب السامي يشجبون فيها الانتداب. وحينما عرضت عليه الصّيغة النهائيّة للمعاهدة

رفض الملك التوقيع عليها وطالب ببعض التعديلات، وكتب تعديلاته بالعربيّة.

لقد كان واضحا انّ الملك فيصل ظلّ مرتبكا بين ضغط الانجليز من جهة وضغط المعارضة الوطنيّة من جهة اخرى، وفي الوقت الذي انعكست فيه احداث بغداد والكاظميّة على المدن المقدسة والفرات الاوسط. لجا بيرسي كوكس الى المدارات السّياسيّة والتخفيف على المعارضة ابتداءا منذ بداية شهر اب/اغسطس1922.

وبعد كلّ ما تقدّم يمكننا القول انّ من ابسط الاصول الدستوريّة وحفظ حقوق الامّة والدفاع عن مصالح البلاد هي عدم عقد ايّة اتفاقيّة او معاهدة او اتفاق على رسم الحدود مع الدول الاجنبيّة ما لم يتمّ اجراء انتخابات حرّة للمجلس التأسيسي ويسنّ دستور دائم للبلاد يحدّد شكل الدولة ونمط سياستها وعلى هداه يتمّ انتخاب برلمان ليضمّ ممثلي الامّة بحق ليتحمّلوا مسؤوليّات اتخاذ القرارات المصيريّة الكبرى وكيفيّة ادارة البلاد. وقد شعرت ادارة الانتداب بوجوب قيام الانتخابات لأجل تشكيل المجلس التأسيسي والذي كان سيتم من قبله اقرار القانون الاساسي والقانون الانتخابي. (/Report no.1 ،1922،In:F.O.371،7771 (E699 Telegram..no.463،1stJune

وقد شاع بين الاوساط السياسيّة واعضاء مجلس الوزراء ما دار بين الملك فيصل الاول والمندوب السامي حول حريّة تشكيل الاحزاب السياسيّة، لا سيّما انّ بيرسي كوكس الذي كان يريد ان تقدم برامج الاحزاب السّياسيّة اليه والي وزير الداخليّة للموافقة عليها. وفي اجتماع عقد في 29 حزيران/يونيو 1922 اصدر مجلس الوزراء مسودة قانون الجمعيّات لتطبيقه على كافة المنظمات الاجتماعيّة والسّياسيّة. وكانت المسودة نسخة عن القانون التركي لعام 1912 ولكن بتعديلات طفيفة. (.Intelligence Report،1st July1922،no.13 (para.572.C.O.730/23/34943

وفي يوم صدور القانون تمّت دعوة جميع المتصرّفين (المحافظين) الى بغداد لمناقشة التوجيهات والتعليمات الخاصّة بالانتخابات من قبل وزير الداخليّة ومما زاد من قلق دائرة المندوب السّامي والحكومة حينما رفع المعارضون باصرار شعارا "لا انتخابات بلا احزاب" .C.O.730/23/34943،para.588))، وكذلك رفعهم شعار" .... الانتخابات هنا – اين الاحزاب؟ "(صحيفة الاستقلال،اعداد 122،123 مارس وحزيران 1922

الصّفوة وتأسيس الاحزاب العراقيّة

مما لا شكّ فيه انّ العراقييّن مع بداية القرن الماضي قد واجهوا اوضاعا جديدة لم يواجهوها من قبل. فمنذ ان احتلّ البريطانيون بلدهم، أصبحت حياتهم خلال فترة قصيرة، تُسيّر وفق نظام جديد على النمط البريطاني الى حدّ ما في الادارة والحكم واستعمال الوسائل العصريّة الجديدة. الا انّ جميع السكان – وخاصّة سكان المدن – قد تعايشوا مع الانماط الجديدة

للحياة واستطاعوا خلال فترة قصيرة ان يحتلوا مكانة مرموقة في المنطقة وفي العالم اجمع.

لقد سبق للعراقييّن ان واجهوا وتعاملوا مع موجات متنوّعة وعديدة من الغزاة الاجانب عبر التاريخ وواجهوا ظروفا قاسية اعطتهم دروسا بالغة الاهميّة وفي مقدّمتها فهمهم لنفسيّة المحتل وكيفيّة التعامل معه سلبا او ايجابا. وكذلك في كيفيّة تلقي ممنوعاته ومسموحاته. ولهذا السّبب لم ينجح معهم من الاداريّن البريطانييّن (العسكرييّن منهم او المدنييّن) ممّن كان يعيش في احاديّة النمط الهندي في حكم المستعمرات مثل (ولسون ولجمن وغيرهما من الجفاة المتغطرسين). بينما نجح مع العراقييّن اخرون من امثال (السير بيرسي كوكس وسكرتيرته المس بيل وارشبيلاك وكورنواليس نجاحا يقارب نجاح تي. لورنس في الحجاز).

انّ من يتأمل في الاسباب المباشرة التي اشعلت ثورة العشرين الكبرى، يجدها تكمن في سوء معاملة الحاكم العام (ولسون) وغطرست بعض اركان ادارته العسكريّة مثل لجمن وعدم احترامهم للعادات والتقاليد العراقيّة، لا سيّما في تعاملهم مع الصّفوة من زعماء القبائل واعيان المدن الكبيرة في بغداد والبصرة والموصل. لذا أخذت الامور تميل الى الهدوء والتفاهم منذ ان تسلم السير بيرسي كوكس مسؤوليّته كمندوب سامي في العراق. وهنالك ادلة لا حصر لها على صحّة السّياسة التي اتبعها كوكس مع زعماء الصّفوة العراقيّة ووجوه المجتمع بما فيهم قادة ثورة العشرين الكبرى التي كلفت بريطانيا ثمنا غاليا بالاموال وبالارواح. وبعد ان نجح كوكس في خطواته الاولى بدا في بناء الكيان السّياسي الجديد للعراق وانشاء اجهزة الدّولة الحديثة على النمط الملكي الديمقراطي البريطاني. فبدا بتهدئة المناطق الثائرة مستخدما سياسة الترويض باستعمال (العصا والجزرة). ففي الخامس والعشرين من تشرين الاوّل 1920 م توصّل الى تشكيل اوّل حكومة عراقيّة (وطنيّة) مؤقتة برئاسة نقيب الاشراف في بغداد (عبد الرّحمن الكيلاني) ليفهم الشعب العراقي بانّ اخماد ثورة العشرين لا يعني سلب حق الشعب العراقي في حكم نفسه من قبل ابنائه. وبذلك الاجراء نجح عمليّا والى حدّ ما في عزل الصّفوة من قادة ثورة العشرين عن الصّفوة المتعاونة مع البريطانيين ومؤيديهم من سكان العراق لا سيّما في بغداد والمدن الكبرى مفهما الجميع بانّ الثورة المسلّحة ليست الاسلوب الوحيد والامثل لنيل الحقوق الوطنيّة. وقد اتبع كوكس تلك الخطوة باعلان استجابته لضغوط الحركة الوطنيّة التي كانت تطالب باعادة المنفييّن الى الوطن، وقد صدر فعلا قرار مجلس الوزراء باعادة المنفييّن في يناير/كانون الثاني1923 لقاء توقيعهم على تعهدات بعدم معارضتهم للحكومة العراقيّة (فوقعّ الجميع عدا محمد جعفر ابو التمّن الذي بقي وحيدا في منفاه في جزيرة هنجام، ثم اعاده الملك فيصل بقرار وزاري خاص في حزيران1923). (مجموعة قرارات مجلس الوزراء العراقي ابريل- يونيو/حزيران 1923)، (د. خالد التميمي/ المصدر/ص193-190)

وبعد ان حقق الوطنيون مطلبهم في عودة المنفييّن أخذوا يطالبون باصلاحات سياسيّة جذريّة متمثلة باجازة الاحزاب واقامة المؤسسّات الديمقراطيّة حيث "..قدّم جماعة حزب

النهضة طلبا الى المندوب السّامي البريطاني لتأسيس حزب سياسي في الكاظميّة، وكان راي المندوب السّامي يقضي بعدم السّماح لتأسيس الاحزاب السّياسيّة في العراق، مبررًا رفضه بانّ الاحزاب تثير الفرقة – وقد وجّه التهمة التي كرّرها بعده الكثيرون من الذين عارضوا العمل الحزبي – وقد احال المندوب السّامي الطّلب وملاحظته الى مجلس الوزراء العراقي.." (حسن شبر/المصدر- ص87).

لماذا عارض الملك فيصل الاوّل تشكيل الاحزاب

كانت وجهة نظر الملك فيصل الاوّل والمندوب السّامي تنبثق من حرصهم على التهدئة في بلد يقع تحت مسؤوليّتهم وعلى اساس انّ شعب العراق لم يكن مؤهّلا انذاك لنظام الاحزاب السّياسيّة على النمط الغربي بعد وللاسباب التالية:

اوّلا - كانت نسبة الاميّة عالية في المجتمع العراقي تصل الى85% من سكانه، وقد كان هذا العامل ولا يزال مع التخلف الحضاري المؤثر الاوّل في مواقف الرأي العام وتذبذب مواقفه ونمط تفكيره وقراراته.

ثانيا - كان غالبيّة القيادات والزعامات المؤثرة في المجتمع من زعماء القبائل والعشائر الذين يدينون بالولاء المطلق للمراجع الدينيّة وعلماء الدين ولا يستطيعون الا الامتثال للفتاوى وللاوامر التي يصدرونها. وعلى الرّغم من القدرات الواسعة للمراجع وعلماء الدين في قضايا الفقه والشريعة، الا انهم لا يستطيعون لعب دور السّياسيين والقيام بما تتطلبه السّياسة من مناورات قد تتطلب الاحتيال والكذب والمخاتلة لا سيّما في مجتمع غير محصّن بثقافة عالية وبتجربة ديمقراطيّة ذات بعد تاريخي.

ثالثا- لم تنشأ الاحزاب السّياسيّة في العراق وتتطوّر (كشأنها في الدّول المتخلفة) عبر مراحل وتطوّرات تاريخيّة اقتصاديّة واجتماعيّة عميقة الجذور، بل هي مستنسخة ومقلدة بمظهرها العام وباجراءاتها الشكليّة للغرب، وهي بذلك فاقدة للجوهر والمضمون (واهمّها حريّة المنتمي الحزبي في الاختيار او الاعتراض).

رابعا - لم يكن الملك فيصل الاوّل مؤيّدا لفكرة انشاء الاحزاب السّياسيّة في العراق في ذلك الوقت المبكر من عمر مملكته. فقد سبق له وان ارسل امين بلاطه المفكر والاديب العراقي فهمي المدرّس لفض اجتماع هدفه انشاء حزب موحّد عقد في منزل جعفر باشا العسكري وزير الدفاع العراقي، حضره كل من: السيّد محمد الصّدر والشيخ احمد الداود ونوري السعيد وناجي السّويدي ومحمد رضا الشبيبي ومحمد مهدي البصير وحمدي الباججي وبهجت زينل وجلال بابان. وبعد حوار و مناقشات تقرّر تشكيل لجنة من ناجي السّويدي وبهجت زينل ومحمد رضا الشبيبي وجلال بابان ومحمد مهدي البصير، وكانت مهمّتها وضع منهاج لحزب سياسي..".(حسن شبر/المصدر- ص 88). وعلى الرّغم من انّ الاجتماع

انفضّ انذاك احتراما لرغبة الملك، الا انّ اصرار قادة المعارضة للحركة الوطنيّة استمرّ لاجل المطالبة بالسّماح بتأليف الاحزاب.

خامسا - كان الوضع العام وتقاليد المجتمع العراقي يجعله مستغنيا عن العمل الحزبي وانشاء الاحزاب فالنشاطات السيّاسيّة واتخاذ القرارات في واقع الامر كانت تجري بالمداولات والمشاورات بين كبار زعماء الصّفوة، كما فعلوا في ثورة العشرين الكبرى، وبذلك تتحمل الصّفوة الاعباء المادّية والمسؤوليّة الاخلاقية، بينما تكون قراراتها ملزمة لابناء المجتمع كافة للطاعة والتنفيذ. بينما قرارات الاحزاب بموجب الانماط الاوروبيّة يتمّ تنفيذها عبر خطوات واجراءات تنظيميّة داخل المؤتمرات الفصليّة والمؤتمر السّنوي العام لكل حزب، وهو نظام - رغم نواقصه - بقيت تفتقر اليه الاحزاب العراقيّة ولا تأخذ بجوهره حتى اليوم.

لقد بقي العمل التنظيمي الحزبي في السّياسة العراقيّة مجرّد اجراءات شكليّة وتقليد سطحي مشوّه لمثيله في الاحزاب الاوروبيّة ودول أميركا الشماليّة. اما اساليب الاحزاب اليساريّة العراقيّة السّريّة فهي توائم غير شرعيّة للاحزاب الفاشيّة والنازيّة والشيوعيّة (قبل سقوطها) بل تفوّقت عليها في ممارسة اساليب القمع والارهاب وعدم احترام ابناء الشعب وكرامتهم وممتلكاتهم وحريتهم اطلاقا.

سادسا - على الرّغم ممّا كان يتمتع به الملك فيصل الاوّل من قدرات ومواهب عظيمة وزعامة اسرة واراء سابقة لزمانه، الا انّ نقطة الضعف التي وقفت امامه حائلا في تنفيذ منع تشكيل الاحزاب السّياسيّة في العراق وحسم هذا الامر - كما حصل في المواقف الاخرى - انه كان يقف على ارض غير صلدة. فعلى الرّغم من انتمائه للاسرة الهاشميّة النبويّة الشريفة التي تتجاوز الهويّات ومتطلبات عبور الحدود التي اوجدها وقوّاها الاستعمار الحديث في المنطقة، الا انه وبقيّة افراد اسرته بقيت لديهم مشاعر اشكاليات الانتماء الوطني وقلة الانصار في مجتمع عشائري وقبلي كالعراق. كما انهم لم يحملوا معهم ثروة او مال بعد ان بذلوا كل ما عندهم من ثروة ومال لأجل القضيّة العربيّة سواء اثناء الثورة العربيّة الكبرى او بعدها ايّام كان فيصل ملكا على سوريا. كما عرف عنهم في العراق انهم لم يملكوا مالا ولا عقارا ولا قصورا متميّزة حتى يوم استشهادهم عام 1958. لقد كانت المخصصّات الماليّة للبلاط الملكي العراقي بسيطة ولا توفر لهم الا سدّ النفقات اليوميّة المتواضعة، ناهيك عن متطلبات الملوك والامراء في بلد ذات التقاليد القبليّة المعروفة والتي تقوم على الكرم والبذل والعطاء (لا سيّما مع الاتباع) وغير ذلك من مظاهر العز والسّيادة. ولهذه الاسباب كان لزاما على الملك فيصل الاوّل ان يكون مطيعا ليّنا ومرنا مع الصّفوة العراقيّة التي امتازت انذاك بالشدّة والصّرامة بسبب غناها وقوّتها وكثرة اتباعها.

انه لمن النادران نجد الملك فيصل الاوّل كان يامر فيطاع فورا كبقيّة الملوك والرؤساء والامراء ودون حوار او مناقشة او حتى رفض، بعكس ما كان يحدث ولا يزال يحدث مع ملوك وامراء الجزيرة العربيّة وغيرها في العالمين العربي والاسلامي الذين يأمرون فيطاعون

طاعة عمياء. فحينما ابدى معارضته لانشاء الاحزاب في العراق، تمسّك السّياسيّون العراقيّون بقرار انشائها. وازاء تمسّك القادة العراقيين بارائهم، حاول الملك فيصل محاولة اخيرة كتسوية وسطيّة؛ اذ "...طرح الملك فيصل اقتراحا بتشكيل حزب سياسي واحد يتفق عليه اصحاب الاراء المختلفة. وروّجت الصّحافة العراقيّة لهذا الاقتراح الملكي.."(حسن شبر/ المصدر/ص89). وعلى الرّغم من انّ بعض الباحثين يرون بانّ الملك فيصل اراد بمقترحه ذاك تعويم الفكرة الحزبيّة واستهلاكها من خلال المناقشات التي ستطول دون الوصول الى نتيجة محددّة.الا انهم لم يقدّموا دليلا مقبولا على وجود " ...الاحساس بضرورة عودة النشاط الحزبي قويّا في الوسط الجماهيري.."، (حسن شبر/المصدر/ص89).

لقد التبس على اصحاب هذا الرأي مفهوم التنظيمات السّريّة القديمة منذ العهدين الاموي والعبّاسي والاف التنظيمات السّريّة التآمريّة الاخرى عبر التاريخ العربي والاسلامي، وبين مفهوم الاحزاب السّياسيّة الحديثة في الغرب الديمقراطي من حيث الجوهر والاهداف. التي تولد كنتيجة حتميّة لتطوّرات سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة في مجتمع وبيئة ديمقراطيّة ودستوريّة اوجدها ابناء المجتمع نفسه وسعى لتحقيقها بعد قرون عديدة من النّهضة الفكريّة والعلميّة والفنيّة والاقتصاديّة الخاصّة به.

سابعا- هنالك ادلّة عديدة وشواهد كثيرة في تاريخ الاحزاب للدّولة العراقيّة الحديثة تشير الى انّ الاحزاب السياسيّة العراقيّة تؤسّس لتنتهي اما كيانا مؤيّدا وخانعا للحاكم المتسلّط على الدّولة والمجتمع، او كمؤسسّه امنيّة خاصّة به (هو وعائلته)، فيصبح الحزب بذلك سيفه المسلط الذي يضطهد به بل ويقطع به رؤوس معارضيه، اوفي احسن الا حوال يكون الحزب جهازا اعلاميّا وحركيّا ينشط بهدف هدم السلطة المنتخبة القائمة باسلوب تآمري ليحلّ محلها وينعم بميراثها. او يهدّم كيان الدولة بكاملها انتقاما وثارا وحسدا شخصيّا لاغير، او لطموحات غير مشروعة حتى وان اقتضى الامر استخدام اقبح اساليب التشويه والكذب وتلفيق الاتهامات الباطلة وتزوير الحقائق بين الخصوم دون الالتفات الى مصالح الوطن العليا ووحدته الوطنيّة. ومما يثبت وجهت النظر هذه حول الاحزاب العراقيّة هو ما شهده العراق خلال النصف الاخير من القرن الماضي من الاوضاع الحزبيّة الشاذة وصراعاتها الدّاخليّة والخارجيّة التي انتهت بتدمير العراق وبكلّ ما شيّدته الصّفوة الوطنيّة السّابقة وما حققته من انجازات في بداية القرن الماضي.

العمل السّياسي والتنظيم السّري

شهد العراق الحديث العديد من التنظيمات السّياسيّة السّريّة منذ بداية القرن العشرين بشكل واضح وفاعل. وربما كان ذلك تراثا تاريخيّا ضاربا في القدم منذ فترة ما قبل الاسلام وما بعده، حيث أصبحت مدن عراقيّة مثل بابل والحيرة والكوفة والبصرة وبغداد اسماء

تضرب بها الامثال في التنظيم السّري والتامر والفتن والحركات الباطنيّة والغدر بالحكّام وتنظيم الانقلابات عليهم.

والتنظيمات السّريّة في الماضي القديم قد تكون مشروعة ونتيجة حتميّة بسبب طبيعة المراحل التاريخيّة السّابقة وممارسة الطغيان واهوال من الاستبداد وانماط الحكم للحكام المستبدين وكبتهم لرعاياهم حتى من ابسط الحقوق الانسانيّة. الا انّ الذي يصعب قبوله في العصر الحديث، هو لجوء مجموعات من الناس (الذين يدّعون الثقافة والحداثة) الى ايجاد تنظيم سريّ لهم قبل ان يعطوا للسلطة القائمة فرصة البدء بالعمل، او يبذلوا الجهد المطلوب لتحقيق ما لهم من حقوق في التنظيم السّياسي. او انهم يلجأون الى تشكيل تنظيمهم السرّي وهو في واقعه امتداد لتنظيم سرّي اخر من خارج حدود الوطن دون الالتفات الى مصالح الوطن العليا وامنه القومي كاستقلال البلد ومتطلباته من استقرار وانشاء البنى التحتيّة وتطويره ورصانة موقعه بين دول العالم.

لقد حذرّ وزير الماليّة العراقيّ (ساسون حسقيل) بكلّ موضوعيّة في عام 1922 اثناء حوار له داخل مجلس الوزراء في حكومة النقيب من " ..انّ رفض الحكومة – لانشاء احزاب سياسيّة – سوف يؤدي الى نشوء احزاب سريّة.. " علما بانّ بعض الاحزاب التي اتخذت السّريّة اسلوبا لها في العمل كانت قد بدات بالتنظيم السّري قبل صدور قانون الاحزاب والجمعيّات. (د. فاروق صالح العمر، الاحزاب السّياسيّة في العراق1922 – 1932/ ص 59).

وبعد مداولات واسعة بين المراكز الثلاثة للقرار السّياسي (المندوب السّامي، الملك،الحكومة العراقيّة ببرلمانها)، تغلب الرأي الذي يقضي بانشاء الاحزاب في العراق كقاعدة للعمل السّياسي في العراق، فصدر قانون تأليف الجمعيّات والاحزاب في تمّوز 1922 بكل ما فيه من ضوابط والتزامات وتعهّدات لأجل الصّالح العام وامن المجتمع وترسيخ الديمقراطيّة فيه؛ كان ذلك بعد عام واحد تقريبا من تتويج الملك فيصل الاوّل ملكا على العراق.

لم يرق لبعض الزعماء السّياسيّن وصفوة من المجتمع العراقي انذاك الخضوع لمتطلبات القانون والنظام، اذ لم يكن لديهم الاستعداد النفسي والاخلاقي للتفتيش والمساءلة الرّسميّة لكل تنظيم وحزب ٬ لا سيّما عن مصادر التمويل الداخلي والخارجي، كما لم يكن لديهم ايّ استعداد لمجرّد المناقشة في اوجه الايراد او الصّرف لماليّة كلّ جمعيّة او حزب او نقابة، فكان لخضوع اعضاء الاحزاب والتنظيمات لمثل ذلك الوضع الشاذ اكبر الأثر في ترسيخ دكتاتوريّة القيادة الحزبيّة وانحرافها وفسادها في كلّ تنظيم وحزب سواء قبل الصّعود الى السّلطة او بعد الوصول اليها حيث تكون الكارثة اوسع واشمل على كافة ابناء المجتمع ومستقبل الوطن بكامله. وبسبب تهرّب ذلك النوع من القيادات والصّفوة السّياسيّة من الالتزامات القانونيّة والاخلاقيّة فقد لجأت الى العمل الحزبي السرّي في وقت مبكر من عمر الحياة السّياسيّة في العراق.

لقد اثبتت احداث القرن الماضي بانّ التنظيمات السريّة في العراق،لا سيّما الاحزاب منها، قد لعبت أسوء الادوار في افساد وشلّ المسيرة الديمقراطيّة، التي وضعت اسسها صفوة التأسيس بقيادة الملك المؤسس الراحل فيصل الاوّل، ومنعتها عن التقدّم والتطوّر في العراق. انّ اخطر ما أفرزته نشاطات الاحزاب السّريّة، هي تهيئة واعداد نماذج سيّئة من القيادات والسياسات والشعارات والادبيّات الغوغائيّة غير الواقعيّة، وتخريج دكتاتوريّات متغطرسة ومدمّرة سواء داخل التنظيم الحزبي الواحد اوفي الحياة الديمقراطيّة في العراق ولمستقبله بشكل عام. لقد ولدّ العمل السّياسي السّري الكثير من العقد النفسيّة بين السّياسييّن؛ فقد زرعت الشكّ والسلبيّة مكان الثقة والايجابيّة بين العاملين في التنظيم الواحد داخليّا ناهيك خارجيّا، كما رسّخت نزعة الحسد والضغينة والترصّد وقسوة الواحد على الاخر بدل التعاون في العلاقات الفرديّة والوطنيّة بين الاحزاب العراقيّة بشكل عام.

انّ دراسة عابرة لاحداث التاريخ السّياسي للاحزاب السّريّة في العراق منذ وفاة الملك الرّاحل فيصل الاوّل عام 1933 وحتى الاحتلال المشين عام 2003 م للعراق، مرورا بعلاقات اعضاء التنظيم السّياسي السّري العسكري (المسمّى بتنظيم الضبّاط الاحرار) وتنكيل بعضهم ببعض. نعرف مدى الدرك الواطيء الذي الت اليه التنظيمات السياسيّة السريّة في العراق من مستويات اخلاقيّة متدنّية من غدر ومؤامرات واغتيالات وصراعات دمويّة قاسية بلا احترام لحقوق الانسان المكرّم، ولا الاخذ بنظر الاعتبار لابسط حقوق الشرّع والقانون ومستقبل الوطن. وعلى الرّغم ممّا تميّزبه بعض الكتّاب والباحثين (الموالين للاحزاب السّريّة) من قدرات جدليّة عالية المستوى في ايجاد الاعذار والتبريرات لتلك السّياسات المدمّرة (ومنطقهم كليّا مرفوض ومردود عليه لانّه كما اثبتته الاحداث غير صحيح ومضلّل)، الا ان النتيجة الكارثيّة واحدة وهي ما الت اليه الامور اليوم من تخريب شامل للعراق منذ اواخر القرن الماضي وحتى اليوم وشل مسيرة التطوّر لشعبنا الاسير المضطهد.

ولو انّ تلك السياسات المغامرة المتآمرة للاحزاب السّريّة العراقيّة وحجم الطاقات والضحايا الهائلة من خيرة الكوادر والكفاءات المدنيّة والعسكريّة التي اهدرت عبثا كنتيجة لتلك السّياسات المدمّرة قد وجّهت لتقويم الاخطاء وتفعيل الحقوق التي نصّ عليها دستور عام 1925، وكذلك لتطوير قوانين تأليف الاحزاب والجمعيّات وحريّة الصّحافة والدفاع عن حقوق الانسان في العراق في العهد الملكي الدّستوري بصورة سلميّة وعلنيّة، لكانت احتمالات نجاح العراقييّن لنيل الحقوق اكثر ولفرص التطوّر اقدر واوفر.

الصّفوة العراقيّة والحياة الحزبيّة

اشتهرت ادارة الانتداب البريطاني في العراق باستخدامها الدهاء مع الحزم لتحقيق اهدافها القريبة والبعيدة. وكان السيّاسيّون البريطانيّون على علم ووعي تامّين بالمستوى المهني العالي

للصّفوة التي كانت تقود الشعب العراقي على اختلاف مكوّناته العرقيّة والدينيّة والمذهبيّة. وقد اثبت السير بيرسي كوكس المندوب السّامي انّه كان الاقدر والاجدر بين البريطانييّن في التعامل مع صفوة الزعامات العراقيّة سواء كانوا من المؤيّدين للانتداب البريطاني او المعادين له. كما اثبت ايضا من خلال سلوكه انه كان يكنّ احتراما وتقديرا في تعامله مع كليهما على الرغم من صرامته ومعاقبته بعنف لمخالفيه (بما فيهم موظفي ادارته) مهما كانت مستوياتهم الاجتماعيّة والرّوحيّة والوظيفيّة.. فبعد ان نجح البريطانيّون في الحصول على توقيع الملك واعضاء مجلس الوزراء واقرار الصّيغة الاولى للمعاهدة، أخذوا يتبعون سياسة الترغيب لتهدئة خواطر الشعب العراقي وكسب الصّفوة من زعاماته.

ففي جلسة مجلس الوزراء التي تمّ فيها التوقيع على المعاهدة في 25 حزيران/يونيو 1922، اقرّ مجلس الوزراء مسودة قانون اجاز فيه تأسيس الجمعيّات والاحزاب السيّاسيّة في العراق، حيث صدر في 2 تموزمن السّنة نفسها. كما نصّ القانون ايضا على وضع عقوبات صارمة على ايّ نشاط يجري بدون اجازة رسميّة (على النمط البريطاني).

وعلى الرّغم من انّ اصدار قانون اجازة تأسيس الاحزاب السّياسيّة كانت خطوة ايجابيّة في اطارها العام وضمن سياق بناء المؤسّسات الديمقراطيّة، الا انه لابد من ابداء الملاحظات التالية:

اوّلا: انّ المندوب السّامي بيرسي كوكس (طبعا بتوجيه وبموافقة من لندن) قد اقرّ فكرة تأسيس الاحزاب السّياسيّة ونظام الانتخابات واصدار القوانين والتعليمات المتعلقة بذلك.

ثانيا: انّ وزير الماليّة العراقي ساسون حسقيل (المعروف بمنزلته الكبيرة عند ونستون تشرشل وزير المستعمرات) هو الذي اقترح اصدار قانون تشكيل الاحزاب السيّاسيّة بحجة تفادي لجوء الناس الى التنظيمات الحزبيّة السّريّة وما فيها من مخاطر على المجتمع والدولة. ففي برقيّة سريّة رقم197 بعثها المندوب السّامي الى وزارة المستعمرات في 11/3/1922 جاء فيها: "لقد تأكد للمندوب السّامي وللحكومة بانّ الوطنييّن سوف يشكلون حزبا سياسيّا سرّيا اذا لم نسمح لهم بالتشكيل العلني" (C.O.730/20/135)

ثالثا: وبتوجيه من وزير المستعمرات ونستون تشرشل، اشترط المندوب السامي ان على كل حزب يتقدم بطلب ترخيص ان يعرض برنامجه على المندوب السامي للحصول على موافقته ثمّ على موافقة وزير الداخليّة (حيث كان كيناهان كورنواليس مستشارا لوزير الداخليّة وصاحب القرار النهائي في الوزارة)..(C.O.730/20/12000/22)

رابعا: لقد اشترط المندوب السّامي ان لا تصدر قوانين تأسيس الاحزاب والانتخابات الا بعد التصديق على المعاهدة التي تمت صيغتها النهائيّة. (المصدرين السّابقين....)

خامسا: يلاحظ انّ عمليّة اصدار قوانين الاحزاب والانتخابات قد بدات بعد ان وصل عد د المؤيّدين للسياسة البريطانيّة ولحكومة عبد الرحمن النقيب المؤقتة درجة قويّة تمكنهم

من تنظيم انفسهم بحزب سياسي يستطيع الوقوف بشكل منظم وقانوني بوجه المعارضين لبريطانيا، كما جاء ذلك في تقرير سرّي بريطاني. وكما جاء ذلك في مذكرات المس بيل: "ان ابن النقيب السيّد محمود، قد اصبح رئيسا لحزب معتدل بعد الشيء الكثير من الدفع والحث...". ومما قالته ايضا: "امّا القوّة المحرّكة الحقيقيّة فهي الشيّخ علي السّليمان (زعيم قبائل الدليم)... وقد جاءني ومعه شيوخ العشائر الكبار حيث جعلهم يوقعون على الانتماء لحزب السيّد محمود. انهم ملاوا دائرتي بالامس فوق طاقتها واوضحوا لي انهم مستعدون لتنظيم البلاد كلها في سبيل تأييد العلاقات الانتدابيّة مع بريطانيا العظمى. انه كان شيئا مدهشا هذا الفوران التلقائي في الالوية من اجلنا... " (د.علي الوردي/لمحات/ج6/ص186).

سادسا: انّ قانون تشكيل الاحزاب وقانون الانتخابات هما نسخة طبق الأصل عن القوانين التركيّة لعام 1912 مع تغيير بسيط (كما اشار تقرير المندوب السّامي) مع العلم انه كان بامكان المندوب السّامي اصدارها وتفعيلها تنظيميّا بشكل مشابهة للنظم وللقوانين البريطانيّة الحديثة.

سابعا: انّ صدور قانون انشاء الاحزاب وتنظيم الانتخابات كانت خطوة حضاريّة في التاريخ السياسي العراقي كان لابدّ منها لاقامة نظام سياسي برلماني سليم ليحلّ النظام والقانون للسّيطرة على تنظيم النشاطات السياسيّة والاجتماعات والمظاهرات الجماهيريّة المجازة رسميّا، بدل استغلال مناسبات الموالد النبويّة والتعازي الحسينيّة وبقيّة المناسبات الدينيّة والاجتماعيّة بشكل استعراضي وبعواطف بدائيّة من قبل كلّ من هبّ ودبّ ولتمارس جميع المناسبات بمسمياتها وليس لاهداف خارجة عن الصّدد.

ثامنا: كان زعماء الصّفوة العراقيّة يبذلون على الفعاليّت السّياسية من اموالهم الخاصّة لا سيّما لتغطية تكاليف انشاء الاحزاب واصدار الصّحف التي تعبّر عن ارائهم الوطنيّة. فقد جاء في احدى الوثائق الرّسميّة البريطانيّة بانّ محمد جعفر ابو التمّن قد تحمّل تكاليف اصدار صحيفة (لحزبه الوطني) تحمل اسم "اعلام الاسلام".

C.O.730/24/45383 .no.16.para .771، Intelligence) (Report،12August

ومما لا شكّ فيه انّ تنظيم الحياة السّياسيّة والاحزاب والنشاطات المختلفة بموجب قوانين وتعليمات رسميّة قد اثر على موقع زعامات الحركة السّياسيّة حيث بدات تنتقل عمليّا من ايدي علماء الدين والمدن المقدسة الى مراكز الاحزاب والقيادات السّياسيّة المدنيّة في المدن والارياف. واصبح للشباب المتعلم في المدارس والجامعات سواء في بغداد او الذين درسوا في الخارج تنظيماتهم واجتماعاتهم الخاصة كما أصبحوا محط اعجاب واما ل غالبيّة افراد المجتمع المتطلع الى كلّ جديد. واصبح الناس يتوجّهون ويوجّهون في نشاطاتهم وفي مناسباتهم السّياسيّة الى مقرّات الاحزاب الليبراليّة بينما كانت التجمعات تحصل في الاماكن الدينيّة المقدسة وفي بيوت العلماء ومراجع الدين ومنها كانت تصدر اخطر القرارات.

وهكذا نجح المندوب السّامي السير بيرسي كوكس خلال الثلاث سنوات التي عمل فيها في العراق (1920 ـ 1923) في تنفيذ مخططه الذي اعدّه ونفذه بمهارة لاضعاف وتهميش دور علماء الدين في السّياسة، فظهر في العراق بعد ذلك قادة ليبراليّون - علمانيّون وسياسيّون جدد خارج المؤسسّات الدينيّة وبعيدا عن نفوذ العلماء يمارسون نشاطاتهم الفكريّة والتنظيميّة بصورة مستقلة تماما عن الزعامات والمراجع الدينيّة.

الاحزاب في مرحلة الانتداب (1921 - 1932)

لقد تأسست عشرة احزاب سياسيّة خلال مرحلة الانتداب البريطاني في العراق (1921 - 1932) التي دامت عشر سنوات لبناء اسس الحياة السّياسيّة الجديدة للعراق، وكجزء من تنفيذ المسؤوليّة البريطانيّة امام عصبة الامم في رعاية وتدريب العراقيّين على الحياة الديمقراطيّة واحترام حياة المؤسسّات الدستوريّة والمجتمع المدني. كانت الاحزاب التي قد تأسست هي:

1 ـ الحزب الحر العراقي. 2 ـ حزب النهضة العراقيّة. 3 ـ الحزب الوطني العراقي. 4 ـ حزب الامّة. 5 ـ حزب التقدّم. 6 ـ حزب الشعب. 7 ـ الحزب الوطني العراقي (الموصل). 8 ـ حزب الاستقلال (الموصل). 9 ـ حزب العهد العراقي. 10 ـ حزب الاخاء الوطني. (وزارة الداخليّة العراقيّة/الجمعيّات/اضبارة رقم26/63/ص3/المركز الوطني لحفظ الوثائق/بغداد)

لقد ارادت بريطانيا (كدولة منتدبة على العراق) ان تبني في العراق نظاما سياسيّا ديمقراطيا على النمط الغربي (بالتحديد بريطانيّ الشكل والمضمون)، ولهذا سمحت بتأليف الاحزاب واصدار الصحف لكل حزب. كما فرضت ان تكون جميع النشاطات الحزبيّة والاجتماعات والتظاهرات علنيّة ووفق النظام والقانون، فكانت بحق ظاهرة ديمقراطيّة وتجربة دستوريّة لم تتكرّر منذ وفاة الملك فيصل الاوّل.علما وفي هذا السياق لابدّ من الاشارة الى انّ الملك فيصل الاوّل كان يرى بانّ الوقت لم يحن بعد للعراقيّين بالسماح لهم بتأسيس الاحزاب السّياسيّة في بلد حديث النشأة ولا يزال شعبه يعاني من الجهل والاميّة (تقدر نسبتها انذاك اكثر من 85% من السكان). كما كان يرى انّ الاحزاب في بلد كالعراق بواقعه المتخلف وبما يحمل من تراكمات تاريخيّة وتركيبة قبليّة وطائفيّة وعرقيّة، سوف تكون الاحزاب فيه عامل تفرقة وزيادة في التناحر والانقسامات. وحينما وجد امامة معارضة من قبل صفوة الزعامات الوطنيّة له وكذلك اصرار المندوب السامي على تشكيل الاحزاب، ولكي يوفق بين الاراء المختلفة حول هذا الموضوع فقد اقترح الملك تشكيل حزب سياسي واحد لكافة العراقيّن يضم جميع الاطراف والاراء بهدف توحيد الصّفوف العراقيّة. وبالفعل تحمّس عدد كبير من السّياسيّين والصّحفيّن لاقتراح الملك وكان في مقدمتهم الاديب والمفكرالوطني وامين البلاط الملكي فهمي المدرّس. ثم اخذت الصّحف تنشر المقالات المؤيّدة لهذا المشروع، كما

عقدت الاجتماعات العديدة لتفعيل اقتراح الملك، الا انّ الاقتراح اخذ بالتلاشي ليحل محله ما رسمته ادارة الانتداب بمباركة وزير المستعمرات ونستون تشرشل. (الحسني/الوزارات/ج1/ص93)،

(C.O.730/20/12000/22 Telegram//no.188.From Mr.Churchill)،

وقد اثبتت الاحداث السّياسيّة اللاحقة (في كلا العهدين الملكي والجمهوري) صحة وجهة نظر الملك فيصل الاول وحكمته انذاك حول رفضه انشاء الاحزاب السّياسيّة في العراق في ذلك الوقت المبكر.

وفي 10 تشرين الثاني 1920 اصدر مجلس الوزراء للحكومة المؤقتة امرا باعادة المنفييّن الى العراق، كما تمّ في اوائل اب 1921اقرارقانون السماح باصدار الصحف والمطبوعات وبتشكيل الاحزاب السيّاسيّة. وفي خلال اوائل شهراب/اغسطس 1922 تشكلت ثلاثة احزاب سياسيّة بصورة قانونيّة وهي:

1) الحزب الحرّ العراقي: وهو حزب مؤيّد للحكومة المؤقتة وللسّياسة البريطانيّة يراسه السّيد محمود الابن الاكبر للسّيد عبد الرّحمن النقيب/ الكيلاني رئيس الوزراء؛ وكان اهم اعضاء لجنته التنفيذيّة هم؛ عبد المجيد الشاوي وتوفيق الخالدي وفخري الجميل وجميل صدقي الزهاوي وحسن غصيبة وصلاح بابان ويوسف رزق الله وصدر الدين ابراهيم الشوّاف. (عبد الجبار مصطفى/تجربة العمل الجبهوي في العراق- ص94) (وجميع مؤسسّيه كانوا من المسلمين السنّة).

2) حزب النهضة العراقيّة: وقد تا سّس في 2 اب/اغسطس 1922 ومقرّه في الكاظميّة واهمّ قياداته هم؛ امين الجرجفجي والشيخ محمد رضا الشبيبي وعبد الرّسول كبّة والسيّد كاظم العوّادي وعبد الرزاق الازري ومحمّد حسن كبّة واحمد الظاهر واصف وقائي ومهدي البير واسد الله الحسن وعبد الجليل عوني. (وجميع مؤسّسيه من المسلمين الشيعة) وكان هذا الحزب يلقى الدعم والتأييد من قبل السيّد محمّد الصّدر احد ابرزقادة ثورة العشرين الكبرى C.O.730/24/45383.

3) الحزب الوطني العراقي: وقد تأسس في 28 تموز واجيز من قبل وزارة الداخليّة في 2 اب/ اغسطس 1922 بزعامة محمد جعفر ابو التمّن واهم قياداته هم؛ الشيخ احمد الشيخ داود وحمدي الباجچي ومولود مخلص وعبد الغفور البدري والشيخ مهدي البصير وبهجت زينل. ويلاحظ في هيئته المؤسّسة التنوّع المذهبي والقومي وعدم اقحام علماء الدّين بالتنظيمات السّياسيّة على الرّغم من التأييد المعلن لهذا الحزب من قبل المرجع البارز الشيخ مهدي الخالصي. وهذه السّياسة البعيدة تماما عن المذهبيّة والعرقيّة كانت من اهم مميّزات وسلوكيّة ابو التمّن في نشاطه الاجتماعي و السّياسي العراقي. (صحيفة المفيد/8 اب/1922).

كان التنسيق والنشاطات السّياسيّة المشتركة بين حزبيّ النهضة والوطني قائما، والتعاون

بينهما مشهودا بسبب التقارب الطائفي/النفسي بين الحزبين في المباديء والاهداف وكذلك بسبب العلاقات الاجتماعيّة والشخصيّة بين القيادات وقواعد كلا الحزبين. وبينما بقي (الحزب الحر) حكوميّا بكافة ابعاده، وقياداته وكان منتسبوه في رعاية الحكومة، واجه الحزبان (الوطني والنهضة) الاضطهاد، ولاتباعه القمع العسكري ولزعمائه النفي الى خارج العراق. كما تقرر غلق الصحيفتين المؤيّدتين لهما (المفيد) و(الرّافدان).. (د.خالد التميمي/المصدر- ص168) (د. فاروق صالح العمر/الاحزاب السيّاسيّة في العراق../ص66 ـ 65)(الحسني/الوزارات/ج1/ص99) (C.O.730/24/45383/para:835) وفي الثالث من ايلول/سبتمبر1922 وبناء على اقتراح وبتوجيه من دائرة المندوب السّامي، قام السيّد محمود النقيب (ابن رئيس الوزراء عبد الرّحمن النقيب) بتأسيس حزب سياسي اطلق غليه اسم (الحزب الحرّ العراقي) وكان الهدف الاساسي من تأسيسه ـ كما تأكد فيما بعد ـ ان يقوم الحزب بتأييد المشاريع المطروحة واجراءات الحكومة المؤقتة ازائها لا سيّما الانتخابات وتصديق المعاهدة الاولى وامتيازات النفط وغيرها. ونظرا لما اشيع عن انّ هذا الحزب يلقى دعم الحكومة المؤقتة وادارة الانتداب، فقد كثر مؤيّدوه والمنتمون الى عضويّته في بغداد وفي جميع مناطق العراق لا سيّما من قبل العديد من الاعيان وكبار زعماء القبائل. وقد اصدر هذا الحزب صحيفتة (العاصمة) لتعبّر عن ارائه وسياسته التي تدعوا الى ضرورة التحالف مع بريطانيا. وفعلا انفرد هذا الحزب باعلان دعمه للمعاهدة العراقيّة ـ البريطانيّة حالما وقعّت الوزارة على صيغتها النهائيّة في 10 تشرين الاول 1922 ومما جاء في بيانه الصّادر في 20 تشرين الاول:

(يعتقد الحزب بانّ هذه المعاهدة وان لم تكن كافية لجميع مطالبنا وحقوقنا القوميّة، الا انها بالنظر الى الظروف الحاضرة تعدّ اوّل خطوة تخطوها امّة ناهضة لاسترجاع مجدها وتأييد عرشها...ولاينكر الحزب في دوام هذا الاخلاص المتبادل الذي يتأكد بانه سيسير بنا في طريق تقدّمنا الى نتيجة ترضينا) (د. فاروق العمر/المصدر- ص118)

ونظرا لانّ مثل هذه الاحزاب تنشا بالاساس لتحقيق هدف او مجموعة اهداف محدودة، نراها تتآكل وتضمر تدريجيّا ثمّ تزول بزوال الاسباب الذي أنشات من اجلها. فما ان انتهى دور الوزارة النقيبيّة، نجد انّ معظم القيادات المؤسّسة لهذا الحزب (الحرّ العراقي) أخذت بالتحوّل نحو القادم الجديد وتقدّم الدعم لوزارة عبد المحسن السّعدون الذي كافا رئيس تحرير جريدة (العاصمة) بمنصب رئيس ديوان الانشاء في المجلس التأسيسي الذي تقرّر اجراء انتخابات اعضائه في 12 تمّوز/يوليو1923.

ومن جهة اخرى حاول زعماء المعارضة توحيد صفوفهم مقابل الحزب الحكومي، وكان محور هذا التحرّك كل من محمد جعفر ابو التمّن وامين الجرجفجي والسيّد محمد الصّدر والشيخ محمد رضا الشبيبي؛ وقد جرت مفاوضات بين لجنتيّ الحزبين (الوطني والنهضة) خلال 21 ـ 20 اب/اغسطس 1922 في مقر الحزب الوطني، وتمّ الاتفاق على وجوب توحيد كافة الجهود والنشاطات السياسيّة وتكوين لجنة مشتركة برئاسة السيّد محمد الصّدر وقد

اصدروا قرارات تخص ذلك في 20 اب (ومن اهم النشاطات التي اتفق عليها هي تقديم احتجاجات ومطاليب كلا الحزبين يقدمها للملك كل من ابو التمّن والجرجفجي سويّة، وتنظيم تظاهرة في نفس اليوم تأييدا للمطاليب، وعلى الرّغم من انّ الجرجفجي لم يقبل بفكرة المظاهرة الا انه وقعّ على عرائض الاحتجاج والمطاليب (C.O.730./24/45383. para:835). وفي تلك الاثناء تسلم الملك والمندوب السّامي احتجاجات مماثلة من صفوة قادة وزعماء مناطق الفرات الاوسط، وفي 23 اب 1922 ترأس محمد جعفر ابو التمّن وفدا يضم اعضاء اللجنتين التنفيذيّتين للحزبين وقابلوا الملك فيصل الاوّل وعرضوا عليه احتجاجا مطوّلا (د. خالد التميمي/المصدر/ص170) تضمّن جميع المساويء السّياسيّة والاداريّة وما يشكو منه الشعب من معاناة والام. ثم ختم كلامه للملك بتقديم مطالب الحزبين وكانت اهمّها ما يلي:

اوّلا: تأسيس حكومة يتصف اعضاؤها بالاخلاص والمقدرة وتضمن للشعب الحقوق التي تساعد على انهاء اضرابه.

ثانيا: ان لا يتم التوقيع على ايّة معاهدة وان لا يتم الدخول في ايّة مفاوضات الى حين انعقاد مجلس نيابي دستوري، ينتخب اعضاؤه بحريّة.

التوقيع: جعفر ابو التمّن ـ السكرتير العام

Iraqi Parties Demands،File no.305-E،C.O.730/24/) (Report:page:586

كما اخبر ابو التمّن الملك برغبة الحزبين ان يعبّرا عن مشاعرهما علنا في ساحة القصر الملكي بمناسبة ذكرى تنصيب جلالته على عرش العراق وبحضور ممثل عن جلالته (حاجب الملك فهمي المدرّس). وقد نشرت صحيفة الحزب الوطني جميع تلك الاخبار(جريدة المفيد/ عدد106/23 اب/1922). وفي اثناء التظاهرة الاحتفاليّة ارتفع صوت اثناء مرور موكب المندوب السّامي المتجّه للقصر الملكي؛ يهتف (ليسقط الانتداب.. لتسقط انكلترا) ومن المحتمل جدا انّه كان صوتا مدسوسا من قبل ادارة الانتداب او انّه كان مبادرة عفويّة لشخص متحمّس، مما اعتبرها الانجليز فرصة لضرب المعارضة الوطنيّة فكان ذلك عبئا جديدا على كاهل الملك فيصل الذي كان يعاني من التهاب الزائدة الدوديّة وكان لابدّ من ان تجرى له عمليّة جراحيّة فورا. وقبل ساعتين من اجراء العمليّة للملك،جاءه كل من المندوب السّامي وكورنواليس مستشار وزارة الداخليّة وبيّنوا له مسؤوليّته عن حوادث يوم امس (23اب) وطلبا من الملك اعلان براءته من (المشاغبين) واتخاذ اجراءات حاسمة ضد حزبي الوطني والنهضة والا فليتنازل عن العرش

(C.O.730/24/42829.Augest26th ،Telegram no.605)

لقد ادى رفض الملك تلك الطلبات التي قدمّت اليه من قبل المندوب السّامي الى ان يتخذ

المندوب السّامي بيرسي كوكس الاجراءات الصّارمة ضد الوطنييّن مباشرة بنفسه في 26/ اب/1922 على الرّغم من معارضة الملك فيصل ورفضه التوقيع على قراراتها الرسميّة حينما عرضها عليه المندوب السّامي يوم 24 اب/اغسطس وهو في فراشه مريضا وهي:

1 ـ قرار بغلق الحزبين الوطني وحزب النهضة ونفي ابرز زعمائهما.

2 ـ قرار بغلق صحيفتي الحزبين (المفيد والرافدان) ونفي صاحبيهما ايضا.

3 ـ قرار بابعاد الشيخ محمد الخالصي وكذلك السيّد محمد الصّدر الى ايران.

4 ـ تمّ قصف مناطق الزعماء والشيوخ في الفرات الاوسط بالطائرات بسبب تأييدهم للحزبين المذكورين.

ورد نصّ مخاطبة الملك فيصل الاوّل لكل من المندوب السّامي وبيرسي كوكس والمستشار كورنواليس في ((كتاب/فيصل الاوّل لمؤلفه امين الرّيحاني ص118)) كالاتي:

"..دخل كوكس بصحبة كورنواليس وبعد التحيّة قدّم للملك امرا ليوقعّه، وحينما امر جلالته بدا عليه التأثر والحزن وهزّ راسه ووضع الخطاب جانبا... وحينما اصرّ المندوب السّامي على التوقيع قال الملك والامر بيده يخاطب بيرسي كوكس: بعد دقائق قليلة اكون بين ايدي هؤلاء الاطباء، وقد لا أعود من غيبوبتي الى الحياة. فهل تطلب مني يا سير برسي ان يكون هذا الامر اخر اعمالي في الدنّيا؟ هل تنتظر مني ان انفي هؤلاء النا س، اهل البلاد من بلادهم قبل موتي، لا والله. انه غير ممكن، غير ممكن.." قال هذا ودفع الامر الى المندوب السّامي، فوضعه في جيبه وخرج من القاعة دون ان يتفوّه بكلمة واحدة...). (د.خالد التميمي/ المصدر/ص177)

(Sinderson،Ten Thousand and one Nights- U.K،1973p.66-68)

وقد حضيت جميع تلك الاجراءات التعسّفيّة اللاديمقراطيّة بتأييد كامل من قبل من يعتبره البريطانيّون رمز الديمقراطيّة والحريّة ونستون تشرشل وزير المستعمرات انذاك برسالته الى المندوب السّامي؛ اذ انّ اهمّ ما جاء بمراسلات ونستون تشرشل بهذا الصّدد ما يلي:

" انني اؤيّد اجراءاتك. لقد دعي مجلس الوزراء بصورة غير متوقعة الى اجتماع لمناقشة البطالة والتعويضات (يقصد للبريطانيين)، وقد استطعت ان اطرح موضوع العراق امامه، الا اني اعتقد انّ من الافضل الانتظار الى اجتماع ايلول/سبتمبر نظرا لمرض فيصل (يقصد الملك) بالزائدة الدوديّة، وخلال ذلك سوف ابعث اليك ببرقيّة مفصّلة وأريدك ان تجيبني قبل طرح الموضوع على مجلس الوزراء. انّ اقتراحي عليك من حيث المبدا هو ان تستفيد من الوضع الحالي وتعزّز موقف النقيب (يقصد رئيس وزراء العراق) ووزارته وتجعله في موقع وقوّة اعظم بكثير ممّا هو عليه الان، وتقلل من سلطة فيصل الى درجة محدودة جدّا وتجعل دوره دستوري فقط..".

(C.O.730/24/42829/22.Telegram fromChurchill..28August،1922)

وبالفعل تمّ نفي مجموعة من خيرة زعماء الصّفوة الوطنيّة من امثال محمد جعفر ابو التمّن (تاجر) وحمدي الباججي (استاذ اقتصاد في مدرسة/كليّة الحقوق والشيخ محمد مهدي البصير (عالم دين واديب وشاعر) وسامي خوندة (مدرس وصحفي) والشيخ حبيب خيزران (زعيم قبائل العزّة المنحدرة من زبيد القحطانيّة) من الحزب الوطني، وامين الجرجفجي (تاجر) وعبد الرسول كبّة (تاجر) من حزب النهضة ووصلوا المعتقل في جزيرة هنجام الصخريّة (عند مدخل مضيق هرمز) في يوم 4 ايلول/سبتمبر1922 بينما استطاع الهروب كل من الشيخ احمد الشيخ داود وعبد الغفور البدري وابراهيم حلمي العمر مدير صحيفة المفيد.

ومما يجدر ملاحظته حول مستوى الاحساس باهميّة المؤسّسات الديمقراطيّة وكيفيّة عملها عند الزعيم محمّد جعفر ابو التمّن، انّ ابا التمّن كان يصرّح دائما؛ انّه يجب حثّ الامّة على ضرورة سيطرتها على السّلطة التنفيذيّة وهذا يرتبط بسيطرتها الحقيقيّة على السلطة التشريعيّة والمتمثلة بالبرلمان المنتخب من قبل الشعب انتخابا حرّا، وبمجلس الوزراء المنبثق عن الاغلبيّة البرلمانيّة،وبذلك تسيطر الامّة بشكل تلقائي على الحكم من خلال ممثليها في البرلمان.

لم يقف بقيّة قادة الصّفوة من الوطنييّن موقف المتفرّج ازاء عمليّة تسفير رفاقهم خارج الوطن، بل ادّت عمليّة التهجير الى توسيع المعارضة لتكون شعبيّة واسعة. ففي 30 اب/ اغسطس1922 بعث كل من الشيخ عبد الواحد الحاج سكر زعيم ال فتلة والسيّد محسن ابو طبيخ والسيّد علوان الياسري، وهم من صفوة الزعامات الوطنيّة في الفرات الاوسط ومن الصّفوة التي قادت ثورة العشرين الكبرى، برسالة الى المندوب السّامي " يعربون فيها عن قلقهم العميق ازاء كل الهجمات الجويّة التي قامت بها الحكومة على القبائل في مناطق العبادي والشاميّة والديوانيّة، وكذلك ازاء القبض على جعفر ابو التمّن ونفيه خارج الوطن " . وفي27/8 وكذلك في30/8 قامت الطائرات مجددا بقصف جويّ شديد على تلك المناطق انتقاما لتأييدها النشاطات الوطنيّة وبسبب احتجاجات زعمائها وشيوخ عشائرها على نفي الزعماء الوطنيّين.

(C.O.730/24/42829.Report no.18،para.852)

ومن النشاطات الاخرى التي تدل على تآزر وتضامن رجال الصّفوة الوطنيّة العراقيّة مجتمعين لمواجهة تعسّف المندوب السّامي ما يلي:

1 ـ معارضة زعماء القبائل لاجراءات النفي التي قام بها المندوب السّامي (المصدر السّابق)

2 ـ الاحتجاج الذي ارسله الشيخ مهدي الخالصي من منفاه في ايران ونشرته صحيفة الصّباح في كرمنشاه في الثامن من ايلول تحت عنوان (الاسلام يعلو فوق كلّ شيء).

3 ـ قيام الشاعر الوطني المشهور معروف الرّصافي بنشر قصائد وتوزيعها بصورة سريّة

معترضا فيها على تسفير ابو التمّن وبقيّة المنفيّن. وقد علم البريطانيّون بذلك ممّا سبّب مجادلات ومراسلات ساخنة بينه وبين المس جروترود بيل السكرتير الشرقي للمندوب السّامي. (النص الكامل لعدد من المراسلات/د.خالد التميمي/المصدر/ص189 - 184)،

C.I.D. Report، no.S.B.1802، para 4/ 6 ، p.595. In N.A.I. ، New) . (. Delhi

اصدار العلماء وكبار المراجع فتاوى تندّد بسياسة حكومة النقيب وتطالب بذات مطاليب المعارضة الوطنيّة وكان في مقدمتهم الشيخ مهدي الخالصي الذي "حرّم" على العراقيّن عامّة والشيعة خاصّة التوظيف والتعامل مع الحكومة او المساهمة بانتخابات المجلس التأسيسي مالم تطلق الحرّيات العامّة ويرجع المنفيّون الى وطنهم ورفع الحظر عن الاحزاب المحظورة وصحافتها. وعلى الرّغم من جميع محاولات الحكومة استرضائه، حينما زاره ثلاثة وزراء في داره وهم: ناجي السّويدي وياسين الهاشمي والحاج عبد الحسين الجلبي - مثلما قاموا بزيارة علماء اخرين لنفس الغرض، ولكن دون جدوى وبسبب هذه الازمة وتعذّرقيام اعمال الحكومة استقالت وزارة عبد الرّحمن النقيب في17 تشرين الثاني/نوفمبر1922 لتخلفها وزارة عبدالمحسن السّعدون في 18 منه ليتولى فيها ايضا وزارة الداخليّة بالاضافة الى رئاسة الوزارة.

انّ اهمّ ما جاء في برنامج وزارة السّعدون؛ التاكيد على اجراء انتخابات حرّة لاختيار اعضاء المجلس التأسيسي كما جاء في بيان الوزارة ايضا عن عزم الحكومة على السّماح للمبعدين بالعودة الى وطنهم (الا انّ صيغة البيان المعلن قد تجاوزت الاتفاق الذي كان قد تمّ بين الملك فيصل والمندوب السامي قبيل مغادرة الاخير الى البحرين يوم 19 تشرين الثاني والذي نصّ على وجوب السّماح لكافة المبعدين بمغادرة جزيرة هنجام شريطة ان يتقدموا بتعهدات خطية بتأييد المصادقة على المعاهدة وبقبولهم واسنادهم سياسة الملك والحكومة العراقيّة. وصيغة التعهّد كالاتي:

"...اقسم بالله انني اتبع سياسة جلالة ملك العراق واتحاشى عن القيام بايّ حركة تخلّ بالامن او تهيّج الافكار ضد الحكومة " .

هذا ومن جانب اخر فقد سمحت وزارة السّعدون بالبدء بتشكيل الاحزاب السّياسيّة، كما منحت حرّية الصّحافة وتنظيم الاجتماعات وبقيّة النشاطات بقانون.(/C.O.730/ 26 (63011

F.O. 371،7772/E14415. Intelligence Report،1st December) (1922،no.23

انّ تشكيل الاحزاب السياسيّة في اطارها الليبرالي - العلماني وبنمطها الاوروبي وخارج النفوذ التقليدي الذي كان يمارسه علماء الدين على السياسة والسّياسيين، جاءت ضمن

السّياسة العامّة للمندوب السّامي والملك فيصل الاوّل لايجاد وسائل تدعم التوجّه نحو منهج الليبراليّة والعلمانيّة تحت مظلة (الحداثة والتقدّم) في العمل السّياسي وكان الهدف الغير معلن من ذلك (كما اثبتتها الحوارات والرّسائل الموثقة) شقّ وحدة المعارضة الوطنيّة ولتقويض النفوذ السيّاسي للعلماء ومراجع الدين في العراق (سنّة وشيعة). فمنذ تلك المرحلة – وزارة السّعدون الاولى - فقد اخذ نفوذ علماء الدّين والمؤسسّات الدينيّة في التراجع والضعف بشكل حاد،وتحديدا منذ عام (1935) فقد اخذت الاحزاب والتنظيمات الليبيراليّة زمام المبادرة وقيادة النشاطات السّياسيّة، واستمرّ النفوذ السّياسي للصّفوة الدينيّة في تراجعه حتى وقوع انقلاب 14 تموز1958 حيث توقف ذلك التراجع في عام 1959 بسبب فزع الزعامات الدّينيّة ومؤيّدوها من خطر طغيان الليبراليّة الغربيّة والمدّ اليساري في العراق الذي وصف (بالموجة الالحاديّة/الشيوعيّة) وبدء التحرّك العنيف لتنظيمات ونشاطات قوميّة – اسلاميّة متحالفة (شيعيّة وسنّية) للوقوف بوجه ذلك الخطر الالحادي الذي اطلق عليه بالمدّ الاحمر، وكان لخطباء وشعراء المساجد والجوامع في بغداد (واكثرها نشاطا كانت في الكاظميّة والاعظميّة وجامع براثا والحيدرخانة والخلاني وحسينيّة الحاج عبد الرّسول علي)،وكذلك في النجف وكربلاء وسامرّاء والموصل اكبر الاثرفي التصدّي ونشر الوعي السّياسي الاسلامي الجديد.

احزاب ولاء... واحزاب معارضة

على الرّغم من انّ مصطلحيّ " حزب حكومي " و " حزب برلماني " قد استخدما في الحياة السّياسيّة العراقيّة طوال العهد الملكي، الا انّهما كانا مصطلحان غير دقيقين. اذ انّ الاكثر دقة في التسميات، لا سيّما اذا تزامنت ولادتهما مع ولادة كلّ دورة برلمانيّة جديدة،هي مصطلحي (احزاب ولاء) و(احزاب معارضة) والتي تكون قد حددّت موقفها مسبقا تجاه الوزارة القائمة ورئيسها. وانه من الصّعب على ايّ باحث ان يجد للعضو البرلماني (الحزبي) موقفا مغايرا لموقف كتلة حزبه، حتى وان كان موقف حزبه على خطا اومناقضا للصالح العام.

فالحكومة هي اجهزة الدولة بكل مؤسسّاتها الثابتة (جهاز تنفيذي) والمفروض بها انها تاتمر بامرة البرلمان (الجهاز التشريعي) الذي ينتخب اعضاؤه من قبل ابناء الشّعب عبر الانتخابات العامّة لكلّ دورة برلمانيّة جديدة حيث تشرّع من قبله القوانين واللوائح والانظمة ضمن رسم السّياسة الداخليّة والخارجيّة لتقوم الحكومة بتنفيذها ويحاسب اعضاؤها بقدرامانتهم وجودة ادائهم امام البرلمان في جلساته المتتابعة. ومنذ ان بدات الحياة البرلمانيّة تنشط في العراق الملكي، وعرف العراقيّون اللعبة البرلمانيّة، بدا اللاعبون السّياسيّون يمارسون فنّ المناورة والتكتّل لضمان الولاءات من قبل اكبر عدد ممكن من اعضاء البرلمان بشتى الوسائل بما في ذلك الضغوط بالاغراءات او بالتهديد والتخويف للنائب المعارض.

لقد كان ولادة (الحزب الحر) في الثالث من ايلول عام 1922 ردّة فعل طبيعيّة من قبل عبد الرّحمن النقيب/الكيلاني (اوّل رئيس وزراء في العراق الملكي)، لمواجهة تحالف الحزبين المعارضين له (حزب النهضة والحزب الوطني العراقي) وان كان قد اعطى رئاسة الحزب الى ولده محمود النقيب. (عبد الجبارعبد مصطفى/تجربة العمل الجبهوي في العراق/ص94)

لقد كان ولاء (الحزب الحرّ) لسياسة التحالف مع دار الاعتماد البريطاني في بغداد معلنا. ولهذا لقي هذا الحزب تاييدا كبيرا من قبل المندوب السّامي بيرسي كوكس وسكرتيرته المس بيل. ولانّ الهيئة المؤسسّة للحزب قد ضمّت مجموعة من صفوة المجتمع وقادته مثل: توفيق الخالدي وعبد المجيد الشّاوي وفخري الجميل وصلاح بابان وحسن غصيبة ويوسف رزق الله غنيمة والشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي وطه ياسين وصدر الدين ابراهيم الشوّاف. فقد تهافت الناس للانضمام الى هذا الحزب الجديد (باعتباره مدعوما من قبل بيرسي كوكس والنقيب)..."...فقد كثر الانتماء اليه ليس في بغداد وحدها بل في مناطق العراق المختلفة، وبشكل سريع حتى انّ بعض رؤساء العشائر والاقطاعييّن اعلنوا سيرهم وراءه مع عشائرهم، رغبة في الحصول على مكاسب سياسيّة او مادّية من الحكومة...".(عبد الجبار عبد مصطفى/ المصدر—ص96).

انّ مثل هذه المواقف تؤكدّ فقر غالبيّة الجماهير العراقيّة للوعي الديمقراطي ومتطلبات تفعيل المؤسسّات الدستوريّة، وانّ هنالك خطا جسيم في التربية السّياسيّة والوعي المطلوب لاهميّة الحزبيّة ومعنى الانتماء للاحزاب طيلة القرن الماضي وربما حتى اليوم. وللاسباب المتقدمة لم تكن (للقاعدة الجماهيريّة) اهميّة ايجابيّة تذكر في الحياة الديمقراطيّة في العهد الملكي وما بعده، لا سيّما بعد ان مسخت مبادراتها وقواها الذاتيّة المؤثرة الفعالة لتحوّل الى اعمال غوغائيّة وردود افعال انتقاميّة وثاريّة من(الخصوم - الاعداء) كالقتل والسّحل وتحطيم النصّب والتماثيل وحرق المكتبات ونهب الممتلكات العامّة بما فيها مؤسسّات الدولة ووثائقها ومتاحفها ومكتباتها التي هي ممتلكات الشّعب وذاكرته التاريخيّة.

الصّفوة العراقيّة داخل التنظيمات السّياسيّة

هنالك حالة تكاد تكون مستمرّة من الاستقطاب السّياسي المشوب بالريبة وعدم الثقة والحقد بين (احزاب الولاء) وبين (احزاب المعارضة). واصبحت منذ ذلك الحين المناورات الغادرة وتغيير المواقف المتناقضة من ابرز مظاهر العمل السّياسي العراقي.

ففي 20 اب/اغسطس1924، تاسّس (حزب الامّة) وتشكلت هيئته الاداريّة من: " داود السّعدي وشفيق نوري السّعيدي وعلي محمود الشيخ علي وعبد الهادي الظاهر " وقد سبق لاعضائه المؤسسّين، وغالبيّتهم العظمى من المحامين، ان اتخذوا مواقف متميّزة وملاحظات مهمّة اثناء الحوارات داخل المجلس التاسيسي منذ يوم افتتاحه في 17 اذار 1924 م حول

القضايا المصيريّة التي كانت تواجه الشعب العراقي وفي مقدمتها شكل العلاقة مع الدولة المنتدبة بريطانيا وحول القضايا الاخرى التي تخص انشاء مؤسّسات الدولة العراقيّة. كما كان للاعضاء المؤسّسين مواقف مهمّة جدّا خارج المجلس التاسيسي وابرزها قيام اولئك المحامين بعقد اجتماع كبير في سينما رويال في 17 نيسان 1924 حيث هاجموا فيه المعاهدة المقترحة وتحدّث سياسيّون بارزون عديدون وبيّنوا الجوانب التي تضرّ بالمصلحة الوطنيّة للعراق وكان ابرز المتحدّثين ياسين الهاشمي عضو المجلس التاسيسي مباركا الاجتماع ومثنيا على مجموعة المحامين الذين نظّموه رغم قوّة الوزارة القائمة انذاك والتي كان يتراسها جعفر باشا العسكري.

لم تترك حكومة جعفر العسكري امر منظمي الاجتماع يمرّ بسهولة بل اخذت تضيّق الخناق على مبادرة المحامين تلك " ... فاستغلت محاولة لاغتيال عضوين من اعضاء المجلس (التاسيسي)، فاعتقلت عددا من الشخصيّات المعارضة ومنهم بعض المحامين مثل داود السّعدي وشفيق نوري السّعيدي وعلي محمود الشيخ علي.."،(د.علي الوردي/لمحات/ المصدر../ج6/ص279). وما ان اطلق سراحهم، حتى تقدّموا بطلبهم الى وزارة الداخليّة في شهر تموز/يوليو 1924 لتاسيس (حزب الامّة)، الا انّ العسكري لم يستجب لطلبهم حتى يوم استقالة وزارته.

وما ان خلف ياسين الهاشمي وزارة جعفر العسكري حتى اجاز طلب اللجنة التاسيسيّة السّابق وصدرت اجازة التاسيس في 20 اب 1924. وقد وجد ياسين الهاشمي في حزب الامّة قوّة اضافيّة قد تسانده في الانتخابات القادمة، كما وجد مؤسّسوا الحزب في ياسين الهاشمي كسبا كبيرا لهم باعتباره شخصيّة لها وزنها ومكانتها الكبيرة سياسيّا وعسكريّا واجتماعيّا في تقوية جبهتهم المعارضة للمشاريع البريطانيّة في العراق.

كان ياسين الهاشمي واحدا من اقوى الشخصيّات السّياسيّة العراقيّة نظرا لتاريخه العسكري والسّياسي الحافل بالنجاحات في العهد العثماني وفي فترة الحكم الفيصلي القصير في سوريا. وقد اكتسب شعبيّة واسعة في العراق عامّة، وفي العاصمة بغداد بشكل خاص، بسبب حالة التنافر بينه وبين الإنكليز من جهة، وحالة الودّ والاحترام التي يكنها له الملك فيصل الاوّل الذي اصرّ على دعوته للقدوم للعراق رغم اصرار الإنكليز على ابقائه بعيدا في سوريا.

كان حزب الامّة قويّا باعضاء هيئته التاسيسيّة وبزعيمه غير المعلن (ياسين الهاشمي). وكان من الممكن جدا ان يكون له مستقبلا ناجحا ومؤثرا في السّياسة العراقيّة لولا الاخطاء التي صاحبته منذ تاسيسه والتي كان ينظر اليها كاخطاء هامشيّة بينما كان واقعها اخطاء جذريّة وهدّامة وهي:

اولا- كانت الغالبيّة العظمى من اعضاء هيئته التاسيسيّة من ابناء بغداد السّنة (عدا واحدا من الشيعة وهو عبد الهادي الظاهر)، مما اوجد موقفا حسّاسا وريبة لدى الحزب الوطني الذي

كان خليطا متعادلا ومتوازنا من جميع الاطياف العراقيّة. امّا حزب النهضة الذي غلبت عليه الصّفة (الشيعيّة) اعضاءا وسياسة، فقد كان له موقفا واضحا مناهضا للاحزاب وللتنظيمات ذات الاغلبيّة السّنية ولزعامة ياسين الهاشمي نفسه.

ثانيا- كانت وزارة ياسين الهاشمي التي اجازت حزب الامّة تضمّ زعيمين كبيرين من صفوة المجتمع العراقي لكل منهما رايه المستقل في ادارة دفّة الوزارة وسيرالانتخابات، وفي كيفيّة التعامل مع دار الاعتماد البريطانيّة وهما: ياسين الهاشمي رئيس الوزراء وعبد المحسن السّعدون وزير الداخليّة. وعلى الرّغم مما كان للهاشمي من تاريخ حافل وزعامة لامعة، الا انّ السّعدون قد تمكّن من فرض شخصيّته القويّة لما له ولاسرته القويّة (ال السّعدون) من تاريخ عريض منذ العهد العثماني وكذلك كانت تقف وراءهم قوّة عشائريّة كبيرة وعلاقات وتحالفات واسعة مع عشائر اخرى ومع قادة ووجهاء المدن،بالاضافة الى علاقته المتميّزة مع الملك فيصل الاوّل ومع بيرسي كوكس المندوب السّامي في بغداد. ونظرا لاستيعاب الهاشمي لوضعه مع وزير داخليّته السّعدون،لم يكن امامه من خيار الا الاستقالة التي رفعها للملك في 21 حزيران 1925؛ " ... وباستقالته فقد الحزب اهم دعاماته... " (حسن شبر/ المصدر- ص101).

ثالثا - واخيرا لابدّ من الاشارة الى انّ ياسين الهاشمي قد وقف، اثناء رئاسته للوزارة عام 1924 وراء تشكيل (حزب الامّة) داعما ومؤيّدا، حرص عبد المحسن السّعدون (وزير داخليّته) على تجميع النّواب حوله، لا سيّما رؤساء العشائر. حتى اذا ما تسلّم رئاسة الوزارة في 26 حزيران 1925،"... انشا السّعدون لنفسه حزبا سياسيّا خلال شهر واحد (حزب التقدّم) في 15 تمّوز 1925؛ اي قبل يوم واحد من افتتاح البرلمان، وكان طبيعيّا ان يلاقي هذا الحزب بارتياح (من قبل مؤيّديه) وان ينضم اليه خمسون نائبا وينتخب عبد المحسن السّعدون رئيسا له..". " ...وفي مقابل هذه الخطوة، اراد ياسين الهاشمي ان يقف امام حزب الاكثريّة فالّف حزبا (لنفسه) في تشرين الثاني1925 اطلق عليه اسم حزب الشعب.انتمت اليه الاقليّة النيابيّة الموالية له...".(عبد الجبار عبد مصطفى/المصدر... المصدر- ص105)

رابعا - كان حزب الامّة كغيره من الاحزاب قد ركز نشاطاته في العاصمة بغداد مكتفيا ان يكون له ممثلين في بقيّة الالوية (المحافظات) باعتبارهم رؤساء فروع للحزب فيها. لذا يمكن القول بانّ الاحزاب المجازة انذاك لم يمارس فيها اعضاء الحزب حقهم الديمقراطي في رسم وتنفيذ سياسة الحزب في مؤتمرات فصليّة اوسنويّة، بل كان الاعضاء متلقين للاوامروالتوجيهات الحزبيّة من زعيمه (القائد) الاوحد، بل وصل الامربالاحزاب العراقيّة فيما بعد عمليّا الى تبنّي شعار صريح وملزم تطبيقه لكافة الاعضاء وهو(نفّذ ثم ناقش).

امّا (حزب النهضة) فقد بلغ ذروة نجاحه السّياسي حينما تحالف مع الحزب الوطني العراقي الذي كان يتزعمه جعفر ابو التمّن بهدف التصدي لمشروع التوقيع على المعاهدة العراقيّة – البريطانيّة الاولى وعرقلة تمريرها وتصديقها من قبل مجلس تاسيسي منتخب كان يجري

التحضير له انذاك ومن ثمّ التوقيع عليها بشكلها النهائي في تشرين الاوّل1922.وبسبب التاثير المباشرلذلك التحالف؛ قامت حكومة عبد الرّحمن النقيب وبتوجيه مباشر من المندوب السّامي بيرسي كوكس، بغلق الحزبين وتعطيل صحيفتيهما (المفيد) و (الرافدان) ونفي زعماء الحزبين الى خارج العراق بسبب الحوادث التي سبقت واخرى صاحبت احتفالات الذكرى الاولى لتتويج الملك فيصل الاوّل كما مرّ بنا سابقا.

لقد استطاعت حكومة النقيب اخماد صوت المعارضة اثناء غياب زعمائها في المنفى كما مرّ سابقا. فاجرت انتخابات المجلس التاسيسي وابرمت المعاهدة الاولى بين العراق وبريطانيا في عام 1922 م بعد ان قام وزير الداخليّة العراقي المتشدد عبد المحسن السّعدون بنفي مجموعة العلماء المعارضين للمعاهدة وعلى راسهم المرجع الديني الامام الشيخ مهدي الخالصي، ولم يسمح لهم بالعودة الا بعد ان يعطوا تعهّدا خطيّا بعدم معارضتهم لاعمال الحكومة وبشكل خاص التوقيع على المعاهدة المذكورة.

وبمرور الاحداث وتنامي قوّة الحكومة وهيبة الدّولة وتراجع نفوذ علماء الدّين اثر الضربات المتتالية التي وجّهت الى مؤسسّاتهم ومريديهم الاقوياء (زعماء العشائر)، اخذت الانتخابات النيابيّة تظهر نجاح مرشحي الحكومة وتراجع مرشحي المعارضة، عدا زعماء الاحزاب ذات النفوذ الشعبي مثل (امين الجرجفجي) معتمد حزب النهضة و(ياسين الهاشمي) معتمد (حزب الشعب)، ومحمد جعفر ابو التمّن (معتمد الحزب الوطني) الذين فازوا بالانتخابات ليكون لهم حضور داخل المجلس مع اقليّة ضئيلة غير مؤثرة على نتائج التصويت.

لقد امتدّت المساجلات بين انصار الحكومة وبين المعارضة على صفحات صحفها لتنتهي بقرار غلق ايّة صحيفة غير موالية كما حدث لصحيفة (النهضة) التي اغلقت في 22 تشرين الاوّل 1927 م وما تبعها من ضعف ظاهر لحزب النّهضة الذي انتهى تدريجيّا.

ومن الملاحظات التي يجدر بالقاريء ان يلتفت اليها في معرض حديثنا عن نشاطات الصّفوة داخل الاحزاب والتنظيمات السّياسيّة في العراق؛ هي التطوّرات داخل حزب التقدّم.....

لقد اجازت وزارة الدّاخليّة العراقيّة (حزب التقدّم) في22اب 1925 خلال وزارة عبد المحسن السّعدون الثانية. واهم ما يلاحظ على هذا الحزب ما يلي:

1 - اختيرالسّعدون رئيسا له، كما اختير أرشد العمري معتمداعاما له. وقد تكوّنت هيئته الاداريّة من: فخري الجميل والسّيد كاطع العوّادي والسّيد محسن ابو طبيخ وابراهيم يوسف وامين زكي وسعيد العبد الواحد.

2 - يلاحظ انّ اعضاء الهيئة الاداريّة ينحدرون من مناطق مختلفة من العراق ومن مكوّنات متنوّعة من المجتمع العراقي دينيّا ومذهبيّا وعرقيّا.

3 - اصدر هذا الحزب جريدة له " اللواء " ومن ثمّ جريدة " التقدّم " في16 تشرين الاوّل

1928 لتكون الناطقة باسمه.

4 - جاءت اهداف الحزب متنوّعة شملت كافة اوجه الخدمات المطلوبة للدّولة وللمجتمع وللنظام الديمقراطي الدستوري في العراق،على الرّغم من انّ بعض الباحثين وجدوها انها " ...لم تكن اهدافا شعبيّة، بل كانت عبارة عن مشاريع حكوميّة تتعلّق بالزراعة والتعليم والاعمار والاشغال والقوانين وما الى ذلك..". (حسن شبر/المصدر – ص107 – 108)

5 - يلاحظ انّ حزب التقدّم لم ينشا على اسس ايديولوجيّة – عقائديّة، كما لم يكن له منهجا محدّدا او يتبّع مدرسة فكريّة معيّنة في السّياسة والاقتصاد. كانت افكاره بشكل عام تدعو الى الاخذ باسباب التطوّر والاصلاح من خلال حكومة وسلطة نزيهة وقويّة وحازمة.

6 - لقد اهمل حزب التقدّم الجوانب التنظيميّة والانضباطيّة فيه، ويلاحظ عمليّا ان كان له اكثر من رئيس في وقت واحد، وربّما كان ذلك بسبب وجود العديد من صفوة الزعامات القويّة على قمّته مثل نوري السّعيد وجعفر العسكري وأرشد العمري وتوفيق السّويدي (وهم من اكفا واقوى رؤساء الوزارات في العهد الملكي). لذا كان متوقعا بانّ رئيس الحزب عبد المحسن السّعدون رغم قوّة شخصيّته الكارزماتيّة وحزمه المعروف، الا انّه قد " ..فقد تاثيره على حزبه ' وهو ما بدا واضحا عندما حاول ان يرشحّ حكمت سليمان عن حزب التقدّم لرئاسة البرلمان في الاجتماع الذي عقد في الاوّل من تشرين الثاني1926، اذ فشل في ذلك، وفاز مرشح المعارضة رشيد عالي الكيلاني، فكانت هذه الحادثة صدمة عنيفة للسعدون لم يتحمّلها واضطرّته للاستقالة من الوزارة..".(للمزيد من التفاصيل والشرح الموسّع ينظركتاب مذكرات توفيق السّويدي).

7 - كان للملك فيصل الاوّل تاثيرا كبيرا على حزب التقدّم وربّما لانّ معظم قيادات هذا الحزب كانت من الصّفوة الشريفيّة التي منحت ولاءها الكامل للاسرة المالكة الهاشميّة منذ ان كانوا يخدمون تحت راية عميد الاسرة الاكبر الملك الحسين بن علي شريف مكة المكرّمة ايّام الثورة العربيّة ضدّ الدّولة العثمانيّة. وعلى الرّغم من انّ عبد المحسن السّعدون كان من اكثر الرّجال المقرّبين للملك فيصل الاوّل ومن اشد المخلصين للعرش الهاشمي في العراق، كما سطرّ ذلك في اخر لحظة من حياته في وصيّته الشهيرة قبل لحظات من انتحاره،الا انه كان ذو شخصيّة مستقلّة لاتخضع الا لارادته هو وقيمه الوطنيّة التي نشا عليها وقناعته الشخصيّة. لذا فكثيرا ما كان يختلف بشدّة مع الملك ومع المندوب السّامي ولا يهادن او يضعف على حساب قناعاته لا سيّما اذا ما تعلّق الامر بمصلحة وطنه العراق.

8 - حاول السّعدون اعادة بناء حزبه من جديد ليكون قاعدته المتينة التي يرتكز عليها في تعامله مع دولة الانتداب بريطانيا.ففي اثناء تولّيه رئاسة الوزارة للمرّة الثالثة في 14 كانون الثاني 1928،اصبح بحكم الواقع رئيسا للحزب خلفا لجعفر باشا العسكري الذي استقال قبله من الوزارة ومن رئاسة الحزب، فقام السّعدون بالاجراءات التالية:

ا - حلّ المجلس النيابي الذي يضم عددا كبيرا من اعضاء حزبه ليعيد انتقاء من يريد منهم وليثبت قبضته على البرلمان الجديد لا سيّما اعضاء حزبه.

ب - واصل اتصالاته ومفاوضاته مع المندوب السّامي البريطاني وتصدى له بقوّة ومن موقع قويّ يسانده برلمان منتخب وكانت المفاوضات متوترة (حول اتفاقيّات الشؤون الماليّة والعسكريّة لالحاقهما بمعاهدة عام 1927) وحينما وصلت المفاوضات طريقا مسدودا، قدّم السّعدون استقالته من رئاسة الوزارة، فكلف الملك توفيق السّويدي لتشكيل الوزارة فالفها في 28 نيسان 1929 ليبيّن الملك للراي العام وللبرلمان بانّ حزب التقدّم لانه صاحب الاكثريّة فيه، فهو لايزال في الحكم.

ج - بقي عبد المحسن السّعدون رئيسا للحزب واصبح رئيسا للبرلمان بالاضافة الى انّ زميله في الحزب توفيق السّويدي بيده رئاسة مجلس الوزراء وبذلك بقيت زعامته ونفوذه في الوزارة الجديدة مهيمنة.

9 - وحينما عاد السّعدون للوزارة في 19 ايلول/1929، اراد ان يضمّ بعض الشخصيّات السّياسيّة من خارج حزبه الى وزارته، وقد حاول العديد من قيادات حزبه عبثا تغيير موقفه، بل واصرّ على رأيه بانّ اعطاء بعض الحقائب الوزاريّة المهمّة الى شخصيّات اخرى من خارج حزبه سوف يدعم حزبه في العمل لا سيّما في علاقاته بالمندوب السّامي (لا سيّما ياسين الهاشمي المنافس له دوما) وقام بتشكيل وزارته حسب وجهة نظره، ممّا كان له اثرا سلبيّا في نفوس اعضاء حزبه. لقد ساعد تصرّف السّعدون ذلك على معنويّات المعارضة داخل البرلمان وخارجه بالاضافة الى انّ موقف البلاط الملكي كان معارضا بشدّة لوزارة السّعدون وسياسته.

10 - واجه حزب التقدّم ازمة حقيقيّة داخل البرلمان وتمثل ذلك بذروة الهجوم بشكل غير منصف ولا موضوعي على زعيمه السّعدون وتوجيه الاتهامات القاسية لشخصه. وقد المه جدّا انّ اعضاء حزبه داخل البرلمان خذلوه حينما أظهروا قبولا للاتهامات الباطلة ناهيك عن انهم لم يدافعوا عنه. وازاء ذلك الموقف وتحت ضغوط نفسيّة وعائليّة خاصّة اقدم عبد المحسن السّعدون على الانتحار حينما وضع حدا لحياته باطلاقة واحدة من مسدسه في بيته مساء 13 كانون الاوّل عام 1929، تاركا في وصيّته لولده علي جملته الشهيرة " ... ابناء الشعب يريدون والإنكليز لايوافقون...".

وبانتحار السّعدون تفتّت كيان حزب التقدّم سواء بسبب انسحاب اعضائه او بسبب انقساماته الى قسمين. لم يأت الى رئاسة الحزب زعيم بكفاءة وبمكانة عبد المحسن السّعدون على الرّغم من الكفاءات العالية والمواهب السّياسيّة العريضة التي كان يمتلكها خلفاؤه سواء ناجي السّويدي او اخوه توفيق السّويدي (الذي عيّنه انذاك الملك فيصل الاوّل سفيرا في طهران). وحينما تولى عبد العزيز القصّاب زعامة الحزب كان ذلك خاتمة المطاف والنهاية بالنسبة لحزب التقدّم.

امّا (حزب الشعب)؛ فقد امتاز بما يلي:

1 - فكما ذكرت سابقا فقد تاسّس سنة 1925 واختير ياسين الهاشمي رئيسا له. وقد ضمّت هيئتة التأسيسية كلا من: الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ احمد الداود وثابت عبد النور ومحمود رامز ومزاحم الباجچي وعبد اللطيف الفلاحي وفخري الجميل ورشيد الخوجة ونصرت الفارسي وسعيد ثابت وابراهيم كمال.

2 - أصبح حزب الشعب، بحكم موقع ممثليه داخل البرلمان،حزبا معارضا لحكومة عبد المحسن السّعدون (زعيم حزب التقدّم). وبذلك اخذ المبادرة لقيادة المعارضة داخل البرلمان وخارجه.

3 - لقد ازداد حزب الشعب قوّة بدعم الملك فيصل الاوّل له (الذي كان غير راض على سياسة عبد المحسن السّعدون زعيم حزب التقدّم وتشدّده بشكل عام وكثرة خلافاته مع السير بيرسي كوكس المندوب السّامي البريطاني).

4 - من المظاهر السّلبيّة التي تلاحظ على حزب الشعب،هو انّ نمط قيادته وسياسته العامّة تغلب عليها نزعة التسلـــط والقسر واتخاذ القرارات المفاجئـة. وكانت اساليب زعيمه ياسين الهاشمي لا تنسجم مع الرّوح الديمقراطيّة ومبدا التشاور داخل الحزب.ولهذه الاسباب بدا الحزب يتصدّع وهو لايزال في بداية الطريـــق، اذ انّ ياسين "..الهاشمي لا يؤمن بالعمل الحزبي الا بمقدار ما يحقق له من طموحات شخصيّة، وحين يستنفذ اغراضه من الحزب، فانه لا يتأخر عن ضربه بنفســه وهو ما حدث بعد فترة قليلة.." (حسن شبر/ المصدر...ص 113).

5 - من مفاجآت ياسين الهاشمي واتخاذه قرارات فرديّة؛ هو قبوله دخول الوزارة التي شكلها جعفر باشا العسكري في 21 تشرين الاوّل 1926 على الرّغم من انّ غالبيّة اعضاء الوزارة كانوا من حزب التقدّم المناوىء لحزبه. ومن الطريف ذكره انّ تشكيل الوزارة السّعدونيّة الرّابعة، لم تضم من حزب الشعب سوى ياسين الهاشمي ومحمود صبحي الدّفتري. وعلى الرّغم من احتجاجات العديد من قيادات حزب الشعب وكوادره، واستقالة بعضهم، الا انّ الهاشمي لم يابه لاحد منهم. وربما كان جلّ اعتماده على تأييد الملك فيصل الاوّل له واستماعه لتوجيهاته دون ان يابه لاعضاء حزبه. وفي الواقع انّ وضع حزب الشعب هذا وسلوك زعيمه ياسين الهاشمي لم يكن مستثنى في السّياسة العراقيّة. اذ انّ هذا النمط في العلاقات واتخاذ زعماء الاحزاب القرارات المفاجئة داخل احزابهم هو السّائد سابقا ولاحقا في السّياسة العراقيّة مع وجود اختلاف نسبي بسيط جدا (كان تحدث استشارة هنا او هناك او طرح زعيم الحزب منهجا معيّنا على ثلة من الاعضاء القياديّين المقرّبين اليه، الا انّ جوهر الهيمنة والنّزعة الفرديّة في اتخاذ اصعب القرارات لدى قيادات الاحزاب العراقيّة ظلت فرديّة بيد زعيم الحزب سائدة حتى يومنا هذا.

تنظيمات المناطق

شهدت السّياسة العراقيّة منذ بدء الاحتلال البريطاني للعراق انماطا من التنظيمات السّياسيّة ذات اهداف محددّة ومعلومة، ونشطت ضمن فترة زمنيّة معيّنة. ويمكننا ان نطلق عليها المبادرات الوطنيّة العفويّة. ويلاحظ ان تلك المبادرات كانت تنطلق من الاماكن الأعمق وعيا وطنيّا والاكثر التزاما بالدّين مثل كربلاء والنجف (التي شهدت مبادرات مبكرة في التنظيم السّياسي رافقت مراحل الاحتلال)، وكذلك الامر في بغداد والموصل والبصرة. فثقافة بغداد وارثها في الدفاع عن وجود الوطن عبر التاريخ، ومنهج الالتزام الشرعي في صدّ العدوان الاجنبي، ومطالبة تركيا بولاية الموصل جعلت الموصليين في حالة انتباه وانذار مستمر للدفاع عن عراقيّتهم وعروبتهم ايّام ماكان يعرف بازمة الموصل بالاضافة الى تمسّكهم بالوجود الاسلامي فيها وتصدّيهم لاعدائه. واستمرّت البصرة تتحمّل مسؤوليّة صد الاعداء باعتبارها ثغر العراق.

ففي 1/9/1924 قامت مجموعة معروفة من ابناء الموصل بانشاء تنظيم سياسي اطلق عليه: (حزب الاستقلال العراقي) وكانت هيئته الاداريّة تتألف من: اصف ال قاسم اغا ومكي الشربتي ومحمد صدقي سليمان وجميل الدلالي وسعيد ثابت وابراهيم عطار باشي والدكتور محمد محفوظ وعبد الله الفاروقي وشريف الصّابونجي.(عبد الجبار عبد مصطفى/ المصدر- ص97)

كان الاتجاه السّياسي لهذا الحزب هو اتجاها قوميّا عربيّا يؤكد على عروبة الموصل وعراقيّتها. وقد عكست جريدته الرّسميّة (العهد) اتجاه افكاره القوميّة في الاستقلال والوحدة العربيّة وهي افكار تؤكد مدى تأثر غالبيّة اعضاء هذا الحزب بالاحزاب العراقيّة السّابقة (حزب النهضة العراقيّة) و(حزب العهد) اذ كانوا اعضاء فيها وعلى اتصال دائم بالملك فيصل الاوّل ورجاله ويتلقوّن منه الدّعم المالي والمعنوي. فقد قام الملك فيصل والمندوب السّامي بيرسي كوكس وكذلك عبد المحسن السّعدون بزيارة الموصل عام 1924لتقوية التيّار الوطني العراقي. وقد دفعت الاحداث الى تشكيل ثلاث تنظيمات سياسيّة في الموصل وهي؛ حزب الاستقلال العراقي، وجمعيّة الدفاع الوطني والحزب الوطني. (د. فاضل حسين/ مشكلة الموصل – ص 226).

اما جمعيّة الدفاع الوطني: فقد تأسست كردّ فعل لوصول اللجنة الدّوليّة الى مدينة الموصل للاطلاع على اراء اهلها حول تقرير مصيرها. ففي 16 كانون الثاني،وهو اليوم الثاني من وصول اللجنة ' نظمّ صفوة من ابناء الموصل اجتماعا جماهيريّا واسعا ليستعرضوا قوّتهم وتصميمهم على بقاء الموصل ولاية عراقيّة. وفي ذلك الاجتماع اتخذوا خطوات عمليّة فانتخبوا هيئة تأسيسية وسمّوها (جمعيّة الدّفاع الوطني) وكان من ابرزهم: احمد

فخري وحبيب العبيدي (الشاعر) وأرشد العمري وثابت عبد النّور وكمال اصف ال قاسم ومحمد صدقي سليمان وجميل الدّلالي. (د. فاضل حسين/المصدر..ص116)

كما اسّس صفوة من وجهاء الموصل(الحزب الوطني العراقي في الموصل) في شهر مايس عام 1925. وتكوّنت هيئته الاداريّة من كل من: عبدالله ال سليمان وعبد الله العمري ومجيد العمري واحمد الجليلي واحمد الشربتي ومجدي النائب وتوفيق النائب والدكتور محمد محفوظ والدكتور استارجيان. ولم يختلف هذا الحزب عن سابقيه، لذا لم يلق النجاح الذي كان يتوقعه مؤسسّوه كما انّ الهدف الاوّل من تأسيسه هو حل (مشكلة الموصل). ولانّ توقيت تأسيس هذا الحزب جاء وقضيّة الموصل كانت على وشك الانتهاء لصالح العراق، لذا لم يستغرق بقاؤه اكثر من عام 1925.

صفوة الحزب الوطني العراقي (1928)

لم يتوقف الحزب الوطني العراقي، الذي كان مركزه في بغداد، عن نشاطاته رغم قيام الحكومة بتعطيله هو وغيره من احزاب المعارضة في عام 1922 ونفي زعيمه محمد جعفر ابو التمّن وكذلك نفي عدد من صفوة المعارضة الوطنيّة الى جزيرة هنجام في مدخل الخليج العربي.

لقد كانت لقيادات الحزب الوطني مواقف جريئة ومعارضة صريحة للمعاهدة الاولى مع بريطانيا والاتفاقيّات الملحقة بها اثناء فترة الانتداب. فقد كانت خطب وحجج وانتقادات الزعيم ابو التمّن قائمة على اسس موضوعيّة رصينة ولاهداف وطنيّة كبرى، لذا كان موضع احترام جميع السّياسييّن حتى المخالفين لارائه سواء كانوا اعضاء مجلس الوزراء، او رؤساء الوزارات كالنقيب والهاشمي والسّعدون ونوري السّعيد. وكان ابو التمّن مقرّبا من الملك فيصل الاوّل وموضع ثقته واحترامه. اذ لطالما نسّق الملك معه ومع صفوة اخرى من المعارضين الاخرين بهدف المناورة والضغط على الدّولة المنتدبة بريطانيا اثناء المفاوضات التي كانت تجرى معها.

لذا وافقت وزارة الداخليّة على طلب الزعيم محمد جعفر ابو التمّن لاعادة اجازة حزبه، وصدرت الموافقة رسميّا في 19 تموز 1928م. وقد أصبحت الهيئة المؤسسّة الجديدة للحزب الوطني - بالاضافة الى ابو التمّن – تضمّ كلا من: مولود مخلص واحمد عزت الأعظمي وعبد الغفور البدري ومحمد مهدي البصير ومحمود رامز وعلي محمود الشيخ علي وبهجت زينل. (عبد الجبار عبد مصطفى/المصدر...ص118).

لقد اشتهر الحزب الوطني العراقي وزعيمه ابو التمّن باسلوبه الديمقراطي الرّصين وبالحوارات المنطقيّة الهادئة، وبتمسّكه واحترامه للدّستور وبالقوانين وبمؤسسّات الدولة في احلك الظروف التي عاشها. مما اكسبه حب واحترام وثقة جماهير الشّعب وجميع السّياسييّن

له بما في ذلك خصومه المختلفين معه سياسيّا كما قلت. ومما زاد من احترام الشعب له وضوحه وصراحته في مواقفه منذ وقت مبكّر حول اهمّ قضاياه المركزيّة الوطنيّة والقوميّة والانسانيّة، وكان على راس نشاطاته العديدة التي يقوم بها بنفسه منذ عام 1924 داعما لها مادّيا ومعنويّا.

لقد اكتسب الحزب الوطني العراقي سمعة ممتازة وثقة الجماهير به بسبب الصّفوة التي كانت تقوده بزعامة ابو التمّن وما اشتهرت به من نزاهة وحرص على المال العام وصدق في القول والفعل واحترامه للعاملين معه والوفاء لهم. كما كان للمواقف الوطنيّة الشجاعة التي وقفها هذا الحزب في التصدي للانتداب البريطاني والمعاهدات غير المتكافئة لا سيّما معاهدة 1930 اهم الاسباب التي جعلته موضع الاحترام والثقة بين عموم الناس. كان هذا الحزب مدافعا امينا عن الديمقراطيّة، فقد جاهد من اجل حريّة الانتخابات ونزاهتها مندّدا بالتلاعب التي قد تجري هنا وهناك مثلما كان خصما عنيدا لتدخل الحكومة والضغوط في الانتخابات او تزويرها. ومن الاسباب التي تضاف الى السّمعة الحسنة للحزب الوطني العراقي هو سعيه الى وحدة القوى الوطنيّة في جبهة واحدة لتناهض النفوذ البريطاني في العراق. فكان ينجح تارة (كمحاولته انشاء جبهة معارضة مع حزب الاخاء الوطني) الا انّه في الغالب كان يصطدم بواقع انانيّة غالبيّة القيادات السّياسيّة وانتهازيّتهم.

الا انّ اهمّ ما كان يؤخذ على ابي التمّن اتباعه السّياسة السّلبيّة كمقاطعة الانتخابات كوسيلة رفض واحتجاج على تدخل الحكومة في سير عمليّتها، وكاسلوب ضغط بينما كان يعتبره البعض من قادة حزبه موقفا سلبيّا واسلوبا لا ينبغي اتباعه،اذ انه - برأيهم - يضعف معنويّات انصار الحزب واتباعه. حتى انّ بعض اعضاء هيئته الاداريّة (كالاستاذ بهجت زينل والدكتور مهدي البصير) قد استقالا احتجاجا على سياسة مقاطعة الانتخابات وكانوا يدعون الى التصدّي سلميّا والمجابهة قانونيّا ووفق الدستور وخوضها مهما كانت النتائج.

الصّفوة داخل حزب العهد العراقي

حينما شكل نوري السّعيد وزارته الاولى في 23 مارس/اذار 1930، كان هدفه ايجاد برلمان قويّ يضمّ غالبيّة اعضائه ممّن يؤيّدون التوقيع على المعاهدة الجديدة مع بريطانيا. لذا قام بحلّ البرلمان ودعا الى اجراء انتخابات جديدة في 10 تمّوز/يوليو 1930. وكانت النتيجة ان جاءت اغلبيّة اعضائه من المؤيّدين لسياسته (فوز 74 نائبا من مجموع 88). كان من اهم اسباب نجاحه هو مقاطعة الحزب الوطني العراقي للانتخابات، الامر الذي اسعد نوري السّعيد وان تظاهر بالغضب وهاجم الذين قاطعوا الانتخابات. لقد اصبح جميع اعضاء البرلمان المؤيّدين لسياسة نوري السّعيد اعضاءا في حزبه. في 14 تشرين الاوّل/ 1930، شكل نوري السّعيد حزبا جديدا ضمّت هيئته المؤسّسة كلا من:

ابراهيم الواعظ وعبد الرزّاق الرويشدي وعبد الرزاق منير وعبد العزيز السّنوي وصادق البصّام وجميل الرّاوي وعبد الرزاق الحصّان وداود السّعدي وعبد الهادي الجلبي وصلاح بابان...". (عبد الجبار عبد مصطفى/المصدر..ص 104).

ومما يلاحظ على اعضاء الهيئة المؤسسّة انهم خليط عراقي يجمع المسلم السّني والشيعي والعربي والكردي والتاجر مع الموظف والمحامي، بالاضافة الى وجود عدد غير قليل من الديانات المختلفة الاخرى خارج نطاق الهيئة التأسيسية

لقد كان نوري السّعيد كسياسي ورجل دولة من الطراز الاوّل؛ وطنيّا عراقيّا غيورا اوّلا، وقوميّا عربيّا ثانيا، ولم يعرف عنه ايّ تحزب او تعصّب ديني او مذهبي او عرقي. وفي سلوكه الشخصيّ كان نزيها، وطبيعيّا تلقائيّا على سجيّته، تطغي على طباعه الرّوح البغداديّة الاصيلة ونزعة الطيبة والتسامح والمرح وحب النكات الشعبيّة والبساطة والتواضع في الماكل والملبس والمسكن وكثيرا ما كان يشاهد عند بائع الفاكهة ينتقي الفواكه والخضار التي يشتهيها لعياله.

كانت جريدة الحزب (العهد) تتبنى مواقف نوري السّعيد وسياسة حكومته وتهاجم بعنف وبلا هوادة خصومه السّياسييّن وكانت اقوى سجالاتها اثناء وبعد التوقيع على معاهدة 1930. لذا فقد نجح نوري السّعيد وحزبه – سواء داخل البرلمان او خارجه في قبول واقرار معاهدة 1930، اذ حصّل داخل البرلمان علي (69) صوت مؤيّد مقابل (13) صوت معارض. لقد قبل نوري السّعيد والصّفوة السّياسيّة التي كانت معه وعلى راس الجميع الملك فيصل بنصوص معاهدة 1930 كواقع ينظم علاقات العراق باقوى دولة في العالم انذاك حيث نال باسنادها وبتحالفه معها المكاسب التالية:

1 - وقوف بريطانيا الى جانب العراق للاعتراف باستقلاله وادخاله عضوا في عصبة الامم، فكان اوّل دولة عربيّة يدخل اوّل منظمة دوليّة كعضو مستقل بحدوده المرسومة انذاك.

2 - تتعهّد بريطانيا بالدفاع عن حدود العراق وعن مصالحه الدّوليّة (السّيادة ومصادر المياه).

3 - تتعهّد بريطانيا بمساعدة العراق وتطويره اقتصاديّا وثقافيّا وعسكريّا وتقوم بتسليحه.

لقد نظمت معاهدة 1930مختلف العلاقات بين العراق وبين بريطانيا،الدولة المنتدبة عليه من قبل عصبة الامم. فكانت بحق واقعا دوليّا مفروضا، والاساس الذي شيّدت الصّفوة الشريفيّة عليه الدولة العراقيّة الجديدة.

ولذا فقد "... شهدت بداية الثلاثينيّات انعطافا في تاريخ العراق الحديث تكللّ بانتهاء الانتداب (البريطاني) بموجب معاهدة 30 حزيران/يونيه 1930 وهو يوم ابرامها من مجلس النوّاب.. وقد قبل العراق فعلا في عصبة الامم في اوائل تشرين الاوّل/اكتوبر1932 وكان

اوّل دولة عربيّة تقبل في عصبة الامم وبعد اربعة سنوات قبلت مصر وسوريا..". (زكي خيري/ المصدر/ص69).

انّ دخول العراق عصبة الامم كدولة مستقلة بحدودها السّياسيّة المعلومة على خارطة العالم في تلك المرحلة المبكرة من القرن العشرين ما كان يتم لولا ثورة العشرين الكبرى، وحكمة القيادة المتميّزة لمؤسّس العراق الحديث جلالة الملك الراحل فيصل الاوّل، ومؤهّلات واخلاص مجموعة الصّفوة العراقيّة (الشريفيّون) التي التفّت حوله وساهمت معه الجهود المضنية وكافة الوان التضحيات التي تطلبتها المواقف المختلفة.

حزب الاخاء الوطني

شهد العراق في عام 1930 تحرّكا جماهيريّا، سياسيّا قويّا ومنظّما لمعارضة مشروع حكومة نوري السّعيد للتوقيع على معاهدة جديدة مع بريطانيا لتحلّ محل المعاهدات السّابقة كشرط بريطاني مسبق لدخول العراق عصبة الامم كما اشرنا. وقد قاد هذا التحرّك الوطني صفوة الحزب الوطني العراقي بزعامة محمد جعفر ابو التمّن. لقد كان التحرّك واعيا ومسؤولا وناضجا استهدف بشكل مباشر ومحدّد مسوّدة المعاهدة وتبيان ضررها على مصلحة العراق ومقدار الاجحاف وانكسار الهيبة الوطنيّة الذي سيلحق بالعراق من جرّاء تدخل بريطانيا في شؤون العراق السّياسيّة والاقتصادية والعسكريّة.

بينما كان نوري السّعيد والصّفوة المؤيّدة لسياسته، ترى ضرورة التوقيع على المعاهدة ولا سبيل امام العراق غير ذلك في ظل ذلك الظرف التاريخي، لتحديد مستقبل علاقاته مع بريطانيا وانهاء الانتداب المفروض عليه من قبل عصبة الامم، ولتحقيق استقلاله وتثبيت حدوده دوليّا، وبقيّة المنافع السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والثقافيّة التي تضمّنتها بنود المعاهدة الجديدة... ضمن الواقع المتخلف الذي كان عليه العراق وحاجته الماسّة لدولة كبرى متقدمة كبريطانيا (التي كانت اكبر واقوى دولة استعماريّة في العالم انذاك واكثرها تطوّرا وتقدما على كافة الاصعدة) لمساعدته لتغيير واقعه المتخلف وتحقيق طموحاته من اجل التطوّر نحو الافضل. هكذا كان يبدو الامر بالنسبة للملك فيصل الاوّل وللشريفيّن وعلى راسهم نوري السّعيد.

كان الحزب الوطني العراقي بزعامة ابو التمّن هو المهيمن على السّاحة السّياسيّة الوطنيّة وعلى وجدان الجماهير العراقيّة. وعلى الرّغم من تنوّع الناشطين البارزين في حزبه دينيّا ومذهبيّا وقوميّا، الا انّ ظاهرة ابو التمّن وحزبه في حسابات العراقييّن تقيّم كقوّة سياسيّة فاعلة هي (رصيد وقوّة شيعيّة) بسبب الانتماء المذهبي الاسري لابي التمّن وعلاقاته القويّة بالمراجع وبكبار العلماء بالمدن المقدّسة وهو امر ورثه عن اجداده ولا دخل له بهذا الانتماء.

لقد كان ابو التمّن يدرك تماما بحسّاسيّة موقفه بسبب ذلك، ولكنه وعلى الرّغم من انه

كان يفرض وجوده بترفعه عن الطائفيّة بثقافته وباخلاقه الرّفيعة وبشخصيّته الاسرة، الا انّه بقي اسير انتمائه (هويّته) هذه، حتى انّ مظهر زيّه وملابسه كان يسبب ضيقا لدى البعض ممّن ابتلوا بالطائفيّة: ((لقد اخبرني يوما الباحث والوثائقي العراقي المعروف الاستاذ نجدت فتحي صفوت في اثناء حديثنا عن مدى زعامة محمد جعفر ابو التمّن وكان معاصرا له قائلا لي: "..بانّ زعامة ابو التمّن شيء مبالغ فيه، اذ كنّا انا وصديقي (رفعت) وهو ابن احد زعماء الصّفوة السنيّة نهزأ همسا، همزا ولمزا، ونردّد ما كان يغمز به البعض داخل مجلس (قبول) الاستاذ كامل الجادرجي على زيّ ملابس ابو التمّن بانه (قلم باندان) اي قلم حبر بسبب القفطان الذي كان يرتديه وعلى راسه الكشيدة (الطربوش)..". وكذلك اخبرني حميد العبّاسي، الاستاذ الصّحفي/رئيس تحرير، الذي قابلته في المكتبة المركزيّة للوثائق ببغداد عام 1980 والذي عاصر ابو التمّن "..بانّ محمد جعفر ابو التمّن لا يليق بزعامة العراق لانه ايراني الأصل، علما بأن آل ابو التمّن هم عرب من قبيلة ربيعة التي انحدرت من الحلة وسكنت في الكرخ في بغداد اوّلا ثمّ انتقلت وعاشت في محلة صبابيغ الآل في جانب الرّصافة لما يقارب من الثمانين عاما قبل ولادة جعفر الذي عاش فيها معظم حياته..". وخلال مقابلتي للزعيم السّياسي الليبرالي الرّاحل الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم في داره ببغداد عام 1980 (وهو عربي مسلم سنّي من الرمادي) باعتباره كان صديقا مقرّبا جدّا لمحمد جعفر ابو التمّن، فممّا قاله لي عن ابي التمّن ومواقف الصّفوة السّياسيّة منه: "..لقد خذله السّياسيّون العراقيّون لمجرّد كونه شيعي!..".

وبسبب تنامي شعبيّة ونفوذ الحزب الوطني العراقي، فقد اصبح مظلة وطنيّة وخيمة تضمّ تحت ظلالها العديد من النشاطات السّياسيّة والحرفيّة والنقابيّة الشعبيّة كنقابات العمّال والحرفيّين، (ولا بدّ من الاشارة هنا الى انضواء اليساريّين الحديثيّ التلقي للافكار الشيوعية بما فيهم يوسف سلمان (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي حينما كان عاملا في معمل ثلج الناصريّة حيث كان يدعي انتسابه للحزب الوطني انذاك، وانه تحت مظلة زعامة ابو التمّن المحب للعمال والفلاحين وللفقراء وللعدل والمساواة ومعادات الاستعمار).

لقد بادرت مجموعة من الصّفوة العراقيّة ذات التوجّه القومي (وجميعهم من السنّة) وشكّلت تنظيما حزبيّا في 25 تشرين الثاني 1930 واطلقوا عليه اسم (حزب الاخاء) وقد ضمّت هيئته المؤسسّة كلا من: ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وناجي السّويدي وحكمت سليمان وعلي جودت الايّوبي ومحمّد زكي المحامي وكامل الجادرجي (وجميعهم من السنّة). ونظرا لحاجة المؤسسّين الى وجوه شيعيّة لاضفاء صفة الشموليّة الوطنيّة العراقيّة للانتماء الى حزبهم كاعضاء، دون السّماح لهم الاقتراب من مركز القرار القيادي. فاستطاعوا ضمّ الشيخ محمّد رضا الشبيبي (وهو شيعي نجفي نقل سكنه الى بغداد) والشيخ عبد الواحد الحاج سكر والسيّد محسن ابو طبيخ (من صفوة قادة ثورة العشرين وابرز زعماء قبائل الفرات الاوسط ومن كبار اصحاب الاقطاعيّات الزراعيّة فيها) وهؤلاء معروفون بابتعادهم

عن التنظيمات السّياسيّة التي تضم غالبيّة شيعيّة لحسّاسيّتهم المفرطة وخشيتهم من (تهمة) الولاء او الالتزام الشيعي. وبصدور صحيفة الحزب باسم (الاخاء الوطني) التي اعتبرت قوّة اضافيّة للصحف المعارضة التي تتصدّى للحكومة. وعلى الرّغم من قوّة وهيبة اعضاء الهيئة الاداريّة - اذ كان معظمهم وزراء او رؤساء وزراء سابقين، الا انّ الانسجام كان ضعيفا فيما بينهم، اذ كان وجود ياسين الهاشمي كرئيس للحزب يجعل قراراته ومواقفه فرديّة ولا يستطع احد مخالفتها او تغييرها. لقد ادّت هذه الظاهرة الى وجود اكثر من زعيم للحزب يصرّح ويتصرّف حسب اجتهاده الشخصي وما تمليه عليه ضرورات اثبات وجوده كمرشح لاعلى المناصب المتاحة له. فقد قبل عضو الهيئة الاداريّة للحزب علي جودت الايّوبي منصب (رئيس الدّيوان الملكي بمجرّد عرضه عليه من قبل الملك فيصل الاوّل، وكذلك فعل اخرون في مناسبات ومواقف شتى. بل بلغ الامر انّ عضوا اخر (حكمت سليمان) وبسبب عدم تلبية رغبته ليكون وزيرا للداخليّة في وزارة ياسين الهاشمي الثانية، لم يكتف بخروجه من الحزب، بل نظّم وخطط وتامر بشكل رئيسي في اوّل انقلاب عسكري في العراق وفي المنطقة العربيّة مع صديقه وحليفه الفريق الركن بكر صدقي عام 1936.

ولم يختلف عضو الهيئة المؤسسّة الاخر (رشيد عالي الكيلاني) نفسه عن بقيّة اعضاء التكتل وجمع المؤيّدين له داخل الحزب واخذ يكثف اجتماعاته التآمريّة التي اشتهرت باسم (مؤامرات الصّليخ/نسبة الى المنطقة التي كان فيها دار رشيد عالي الكيلاني) من اجل اسقاط الحكومة القائمة الشرعيّة دستوريا والتي كان يناوئها.

مواقف الصّفوة داخل جبهة التآخي

كان عام 1930 من اشدّ الاعوام التي شهدت غليانا جماهيريّا ضد فكرة قبول ارتباط العراق ببريطانيا حسب ما جاء في مسودة المعاهدة الجديدة التي نُشرت للرأي العام، والتي ستحل محل المعاهدات السّابقة.

كان الاستقطاب واضحا ما بين مؤيّد لوزارة نوري السّعيد (الاولى) التي تبنّت التوقيع على المعاهدة الجديدة وسياسة الارتباط ببريطانيا كليّا، وبين معاد لها وللمعاهدة الجديدة التي يرى فيها قادة المعارضة السّياسيّة انتقاصا واضحا لسيادة العراق وتفريطا بكافة حقوقه.

لقد وقف حزب العهد الى جانب نوري السّعيد وحكومته مثلما وقف الحزب الوطني العراقي الى جانب زعيمه المعارض ابو التمّن فاصبحا على طرفي نقيض. ولم يظهر تيّار وسط او معتدل انذاك ليحاول التوفيق بين التيّارين. وراح السّياسيّون من شتى الاوساط الاخرى يركبون موجة المعارضة الوطنيّة لكسب الجماهير ويبالغون في التطرّف في مواقفهم بشعارات وبنشاطات ضد الوزارة بشكل يفوق احيانا نشاطات ابو التمّن وربما تتفوّق عليه (علما بان العلاقات الشخصيّة بين ابي التمّن ونوري السّعيد كانت على درجة عالية من

الاحترام والودّ وانصاف كلّ منهم للاخر).

وفي ظل تلك الاوضاع المتوترة بدا حزب الاخاء بزعامة ياسين الهاشمي يستوعب الاحداث بخبرته السّياسيّة العالية وبفطنته لمتطلبات اوضاع تلك المرحلة الدقيقة، فاخذ يتقرّب من ابي التمّن وحزبه ويجري معه لقاءات وحوارات لا سيّما انّه كان على يقين تام بحرص ابي التمّن على توحيد صفوف المعارضة السّياسيّة بعمل مشترك واحد من اجل مصلحة العراق وشعبه. وقد تمخضت تلك اللقاءات والمباحثات بين الطرفين عن اتفاق اندماج الحزبين والتوقيع على (وثيقة التاخي) بميثاق وطني واحد في 23/11/1930م، وقد اجازته وزارة الدّاخليّة في25/11/1930 كحزب سياسي. (عبد الجبار مصطفى/المصدر...ص131) (الحسني/المصدر/ج3/ص93)....)).

لقد اشار كامل الجادرجي - احد اعضاء الهيئة المؤسسة لجبهة التآخي - الى ضرورة انبثاق تنظيم سياسي ليبرالي ديمقراطي يجتذب الشباب. فقال في مذكراته:

"...لم يكن بامكان المعارضة القائمة انذاك ان تستوعب هذا الوعي الجديد.فهي من جهة معارضة شبه مصطنعة، وهي من جهة اخرى لا تضمّ الا افرادا قلائل من الوطنييّن الصّادقين، ومع انّ بعض الاحزاب، لا سيّما الحزب الوطني بزعامة جعفر ابو التمّن قد عملت على ان تكون مركز جذب لعناصر الحركة الوطنيّة الشابّة الجديدة، الا انّ هذه الاحزاب سرعان ما ظهر عجزها عن ان تلعب دور القيادة والتوجيه وجمع شمل العناصر الوطنيّة... " (كامل الجادرجي/المذكرات.. ص-20 23) وهذا يعطينا دليلا على انّ الجادرجي اراد ان يبرّر ويمهّد لخطوته القادمة التي عزم على اتخاذها لقيادة تنظيم جديد ليكون هو في موقع القمّة وزعامة اقوى. فممّا يلاحظ على كتابات الجادرجي في مذكراته انّه قد سمّى مرحلة ما قبل قيام جماعة الاهالي بانّها مرحلة الفوضى الفكريّة (وكانه نسي انه كان جزءا منها) حين قال:

"...وسط هذه الفوضى الفكريّة السّياسيّة ظهرت جماعات مشتّة التكوين من الشباب تميّز افرادها اوّلا بوعي سياسي عام، وثانيا باندفاع في العمل السّياسي، ضمنه مظاهرات الطلبة واضراباتهم، وفي مجال النشر المحدود في الجرائد والمجلات، ومن هذا المحيط تكوّنت جماعة الاهالي التي اصدرت في اوائل عام 1932 جريدة الاهالي..". انّ هذا يعطينا وجها اخر لصفوة الزعامة السّياسيّة العراقيّة حين يبدو القيادي في وقت من الاوقات منغمسا بحماس في عمل وتنظيم، بينما عينه تتّجه نحو تنظيم اخر يتوقّع ان يكون موقعه فيه اقوى وزعامته له اوسع ! (صدر العدد الاوّل للاهالي في 2/1/1932)[كامل الجادرجي/المذكّرات/ ص23].

انّ من يتمعّن في كتابات الاستاذ كامل الجادرجي - لا سيّما في مذكّراته – يجد فيها تعال على غيره، ومحاولة التقليل من القيادات التي رعته واخذت بيده وهو في بداية شبابه ويسّرت له السّبيل في عالم الصّحافة والقيادة مثل ياسين الهاشمي ومحمّد جعفر ابو التمّن واخرين. وضمن هذا السّياق ايضا، يتساءل الاستاذ حسين جميل: "...ماهي الظروف التي

جعلت كامل الجادرجي يشعر بانّه بعيد عن افكار ومسيرة (حزب الاخاء الوطني) ولماذا ترك هذا الحزب واتجه نحو (جماعة الاهالي)؟ (حسين جميل/الحياة النّيابيّة في العراق... المصدر/ص231) ثمّ يجيب في مقدّمة (كتابه/المصدر): "... انّه بسبب عقد معاهدة 1930 بين العراق وبريطانيا؛ تكوّنت كتلة سياسيّة ضمّت كلا من: ياسين الهاشمي (وبعض قادة حزبه، حزب الشّعب) ومحمد جعفر ابو التمّن (وبعض قادة حزبه،الحزب الوطني) ورشيد عالي الكيلاني وناجي السّويدي (الذي اصبح رئيس حزب التقدّم بعد انتحار زعيمه عبد المحسن السّعدون). كان الجادرجي انذاك يعتقد بانّ هذه الكتلة - رغم عضويّة حزبه حزب الشعب فيها - " ..قد تألفت سنة 1930 لمقاومة المعاهدة العراقيّة – الإنكليزيّة. وكانت تجتمع اجتماعات سريّة عديدة هدفها الظّاهري مقاومة المعاهدة، ومنع التصرّفات الشخصيّة، واحترام الدستور العراقي، وبالحقيقة مقاومة نوري السّعيد ومن ورائه الملك فيصل الاوّل..." [مذكرات الجادرجي/ص24 – 25] ولابد لنا هنا من طرح سؤال على الاستاذ الجادرجي؛ هل كان موقفهم ذاك واجتماعاتهم التآمريّة السّريّة تصبّ في خدمة المسيرة الديمقراطيّة ومؤسسّاتها الحديثة النشأة، وهل كانت مثل تلك الاساليب وسيلة ايجابيّة تساعد على تربية المجتمع العراقي الحديث العهد بالديمقراطيّة تربية ديمقراطيّة سليمة؟.

واخيرا وقفت الكتلة المعارضة للتوقيع على المعاهدة معارضة حينما طرحت للتوقيع بتاريخ 16/11/1930 حيث تمّ اقرارها حينما صوّتت الاغلبيّة لصالحها. ومن الذين صوّتوا ضدّها ناجي السّويدي. وبعد مرور سبعة ايّام من تصويت مجلس النوّاب على المعاهدة، سعى بعض الزعماء لترصين الجبهة فوقعوا في23/11/1930 ما اطلق عليه في حينه "وثيقة التآخي بين الحزبين الوطني وحزب الاخاء" فقد وقّع عليها كل من محمّد جعفر ابو التمّن ومولود مخلص ومحمود رامز وياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان وتوفيق السّويدي وقد نصّت الوثيقة على ما يلي:

اوّلا: انّ المعاهدة فاسدة وجائرة ويجب تعديلها.

ثانيا: انّ المجلس الحالي يجب ان يحلّ لانه لايمثل البلاد.

ثالثا: انّ الوزارة التي تؤلّف يجب ان تعمل على الاساسين الاوّل والثاني.

وقد تمّ اتفاق.."..بين ممثليّ الحزبين (الاخاء الوطني والحزب الوطني) على انِ يوحّدا جهودهما للوصول الى الاسس الثلاثة المدرجة اعلاه تنفيذا لاسس كتلة الاخاء الوطني..". (جريدة نداء الشعب في 23/11/1930) و (جريدة العالم العربي في 5/5/1931).

تسلل العمل السّياسي الحزبي في الجيش

لقد حرص البناة الاوائل للعراق الحديث وعلى راسهم الملك الرّاحل فيصل الاوّل على ابعاد القوّات المسلّحة عن السّياسة والاحزاب، وقد نجحوا في ذلك الى حدّ كبير بموجب

الانظمة والتقاليد الدستوريّة. ولكن الامور ما لبثت ان تغيّرت منذ عام 1934 للاسباب التالية:

اوّلا: انّ تنظيم الجيش العراقي منذ انشاء نواته الاولى (فوج الامام موسى الكاظم) في 6 كانون الاوّل 1921قد تمّ على ايدي الضبّاط العراقيّن السّابقين الذين سبق لهم وان خدموا في الجيش العثماني ، ثمّ أصبحوا تحت ادارة واشراف البريطانيّن في مدرسة عسكريّة ببغداد تقوم على اساس الانضباط والالتزام الكامل بمبدا عدم تدخل الجيش في السّياسة (كالجيش البريطاني). وكان للملك فيصل الاول وجعفر العسكري وزير الدفاع وبقيّة ضباط الاركان الكبار؛ كنوري السّعيد وطه الهاشمي وياسين الهاشمي وغيرهم اهم الادوار في ابعاد الجيش عن السّياسة والاحزاب.

ثانيا: بعد موت الملك فيصل الاوّل في عام 1933 وتراجع دور المؤسسّات الدستوريّة، ومجيء ولده الشّاب غازي الاوّل (12 سنة)، برز عاملان ساعدا على تدخل الجيش بالسّياسة؛ وهما: التفاف صغار الضبّاط الذين درسوا مع الملك او درّسوه في الكليّة العسكريّة والطيران حول الملك غازي. كما حدثت مؤثرات سياسيّة متبادلة كالشعور القومي العربي واثارة الحماس تجاه قضيّة فلسطين واذاعته المحرّضة من قصر الزّهور، وتفضيل روح التحدي والعنف في حلّ الازمات الداخليّة (قضايا الكرد والاشوريّن وعشائر الفرات الاوسط)،وغير ذلك شجّعت صغار الضبّاط كي ينظروا للامور بمنظار تلك الفترة التي اشتهر فيها: كمال اتاتورك في تركيا وهتلر في المانيا وموسوليني في ايطاليا وستالين في روسيا وغيرهم من قادة الانظمة الدكتاتوريّة.

ثالثا: بدء ظهور نوادي وتنظيمات سريّة كالدعاة الاوائل للحزب الشّيوعي العراقي السّري الذين بداوا بنشر عقيدتهم بحماس في مؤسسّات الدولة والمجتمع، ومنذ اوائل الثلاثينيّات، اصبح التنافس شديد الاستقطاب بين تيّارين قويّن هما:- تيّار اليسار الليبرالي/الشيوعي وانصاره والمتعاطفين معه، والتيّار القومي العربي من جماعة نادي المثنى بن حارثة وانصار القضيّة الفلسطينيّة والداعين الى (وحدة البلاد العربيّة) وهو الاكثر شمولا وقبولا بين ضباط الجيش.

لقد كان واضحا منذ وفاة الملك فيصل الاوّل ومجيء وريثه الملك غازي الاوّل على راس الدّولة انّ الاتجاه السّياسي العام كان يبتعد عن سياسة ترسيخ قوّة المؤسسّات الدستوريّة بعد ان اصبح في تلك الفترة (1933 - 1936) للقوّات المسلحة الدّور الاوّل في حفظ النظام وهيبة القانون في جميع انحاء العراق بعد نجاح الجيش في القضاء على تمّردات قبليّة سواء في المناطق الشماليّة او الجنوبيّة. ولهذا فقد اتجهت غالبيّة انظار السّياسيّن نحو الجيش لكسبهم والتسابق للحصول على رضاهم ودعمهم.

وعلى الرّغم من ظاهر دعوة الاحزاب العراقيّة وشعاراتها لاقامة نظام دستوري ديمقراطي حرّ في العراق، الا انّ واقع ممارساتها سواء داخل تنظيماتها او خارجها، يشيرالى ميلها امّا

الى اقامة دكتاتوريّة (الاشتراكيّة الوطنيّة القوميّة) في حالة التنظيمات والاحزاب القوميّة ' او الى اقامة (دكتاتوريّة البروليتاريا) في حالة الحزب الشيوعي العراقي السّري. امّا التنظيمات الاخرى الليبراليّة (كالحزب الوطني وحزب الاخاء وحزب الشعب والتقدّم واحزاب اخرى ذات شعارات ديمقراطيّة/دينيّة) فلم تكن، في واقع الممارسة والتطبيق داخليّا وخارجيّا، قريبة من النهج الديمقراطي اوغير بعيدة عن التيّار العام لشقيقاتها الاحزاب الاخرى لاحتكار السّلطة.

فممّا يلاحظ على سيرة الزعامات السّياسيّة العراقيّة وقادة الاحزاب كثرة دعوتها الى تطبيق الديمقراطيّة واطلاق الحريّات العامّة وفي مقدّمتها حريّة التعبيرعن الرّاي وتقوية المؤسسّات الديمقراطيّة لا سيّما دور سلطة البرلمان والصّحافة، بينما كانت في واقع نشاطاتها فعّالة في صفوف الجيش وتوريطه بالعمل السّياسي لا سيّما اذا ما اتيحت لها الفرصة خلال فترة من الانفراج السّياسي في ممارسة الحريّات.

يتحدّث القائد الشّيوعي العراقي زكي خيري عن تجربته في هذا الشان فيقول:

"..اعتقلت للمرّة الثانية في تشرين الثاني/نوفمبر1937 بعد كبس التنظيم الشيوعي في الجيش واعتقال كوادره من جنود وضبّاط صف على يد الاستخبارات العسكريّة التي كانت خططها اشدّ صكا من خطط الشرطة (التحقيقات الجنائيّة).فبعد نجاح انقلاب بكر صدقي وصدور الصّحافة الديمقراطيّة تصاعد نشاط الشيوعييّن في فوجيّ المخابرات اللاسلكي الاوّل والثاني في بغداد وكركوك وانتشر النشاط في الافواج والكتائب الاخرى...".(زكي خيري/صدى السّنين/ص106).

ومن الجدير ذكره ان في الفترة التي أعقبت انقلاب 14 تموز1958، استطاع الحزب الشيوعي التغلغل في الجيش العراقي فانضمّ الالاف من الضباط وبقيّة مراتب الجيش الى صفوفه خلال فترة قياسيّة قصيرة (اربع سنوات ونصف فترة حكم عبد الكريم قاسم).امّا في الفترات اللاحقة من حكم القومييّن والبعثييّن فقد اصبحت الحزبيّة والولاء لعقيدة الحزب داخل الجيش الشرط الاساسي لبقاء منتسبيه في مواقعهم ومراتبهم والحفاظ على مصدر ارزاقهم.

انّ اسوا ما جرى على الجيش العراقي بسبب تسلل الحزبيّة والانتماءات السّياسيّة اليه ما يلي:

اوّلا: تمزّق وحدة القوّات المسلّحة الى انتماءات متعارضة متصارعة متقاتلة ادّت الى حدوث سلسلة من الانقلابات المتتابعة وما كان يصحبها من حمامات الدم وفقدان اعداد لا حصر لها من اشجع واكفا منتسبي الجيش العراقي، وقد استمرّت هذه الحالة المأساوية الهدّامة حتى يوم الاحتلال الامريكي المهين في عام 2003.

ثانيا: تعرّض منتسبو الجيش، بما فيهم ذوي الاسماء المشرّفة والتاريخ المجيد والمؤهلات

النادرة والرّتب العالية،الى الاذلال والحط من الكرامة العسكريّة بسبب متطلبات قواعد التنظيم الحزبي من طاعة مطلقة وتلاشي اهميّة الرّتب العسكريّة في المواقع التنظيميّة والتدرّج الحزبي بشكل مهين سواء داخل التنظيم او خارجه.

ثالثا: بسبب الانتماء الحزبي لمنتسبي الجيش، استبدل الهدف السّامي الذي اراده الملك المؤسسّ فيصل الاوّل والصّفوة التي أزرته، وهو ان تكون مقرّات الجيش ووحداته منتدى وبيتا ورمزا للوطنيّة العراقيّة تتجمع وتلتقي فيه وتتعاون كافة المكوّنات العراقيّة؛ القوميّة والطائفيّة والدينيّة لابناء العراق. فاستبدلتها الحزبيّة وانتماءاتها بحالة من التنافر الحزبي والسّياسي والتباغض والغدر بين رفاق السّلاح والاخوّة والالفة.

رابعا: استبدال المهمّات الوطنيّة النبيلة للجيش وفي مقدّمتها الدّفاع عن الوطن وحراسة شعبه وحدوده (الجيش سور للوطن)، الى مهمّات امنيّة داخليّة ووسيلة قمع ارهابيّة لحماية السلطة او الحزب الحاكم تحت شعار كاذب ومخادع (الجيش حامي الثورة والمكاسب الثوريّة).

الصّفوة والاضراب العام للعمال 1930

لم تكن في العراق مصانع تذكر في الثلث الاوّل من القرن العشرين، وبالتالي لم تكن هنالك طبقة عماليّة بالمعنى العلمي (البروليتارية)، بل كان في العراق انذاك حرفيّون وشغيلة بنّاؤون وعمّال في مشاريع خاصّة وكذلك في دوائر الدولة ونشاطات خدميّة لعمّال البلديّات بالاجرة اليوميّة وبقليل جدّا بالاجرة الشهريّة. ولأجل ضمان حقوقهم والدفاع عن مصالحهم، سمحت الحكومة العراقيّة منذ عهد الملك الراحل فيصل الاوّل بانشاء نقابات حرفيّة لهم حسب اعدادهم و اختصاصاتهم المهنيّة كجزء من عمليّة بناء المؤسسّات. الا ان تسرّب السّياسة للنقابات (الحديثة الولادة) منذ وقت مبكر اخرجتها عن طريقها الصحيح وحرّفتها عن اهدافها المهنيّة لتصبح اداة بيد السّياسيّن واحزابهم (وانصافا للحقيقة ينفرد الزعيم السّياسي ابو التمّن باصراره على ان تكون نشاطات واهداف النقابات العمّاليّة مهنيّة للدفاع عن منتسبي النقابات وضمان حقوقهم المهنيّة فقط. وقد كان محمد صالح القزاز وهو اوّل زعيم عمالي في العراق يلقى دعما ماليّا ومعنويا من ابي التمن)، (د.خالد التميمي/المصدر/ ابو التمّن- ص248، 299). ولكن كان لتسلل تنظيمات الاحزاب السّياسيّة السرّية الى صفوفها منذ وقت مبكرّ اكبر الأثر في تعطيل التطوّر الطبيعي للتنظيم النقابي منذ ثلاثينيّات القرن الماضي في العراق وحتى اليوم.

ففي ازمة التصدي لمعاهدة 1930 التي تمّ التوقيع عليها انذاك من قبل مجلس النوّاب، نجحت المعارضة في تصعيد الازمة واستطاعت ان تعمّق الخلافات التي نشبت بين النقابات والحكومة بسبب زيادة رسوم البلديّات. وقد وصلت الازمة ذروتها باعلان النقابات الاضراب

العام في 10 مايس 1931 م احتجاجا على صدور قانون رسوم البلديات وقد افرز الاضراب وضعا تصادميًا بين الحكومة والمضربين ادى الى استقالة الوزارة الاولى لنوري السّعيد في 19 تشرين الاوّل 1931 مما عزّز وضع المعارضة لكي تتخذ مواقف اكثر تشدّدا تجاه الحكومة.

ويؤكد زكي خيري، احد اوائل كبار قادة الحزب الشيوعي العراقي السّري، في مذكراته حول (ضرورة استغلال النقابات المهنيّة لاهداف سياسيّة) فيقول: "... صحيح انّ الاحزاب الوطنيّة دافعت عن الاضراب، وعن مطاليب المضربين ولكنها لم تحاول قطّ تطوير المحتوى السّياسي او الاهداف السّياسيّة للاضراب بتوجيهه ضدّ قيود معاهدة 1930 التي حلت محل الانتداب او لتطوير الديمقراطيّة السّياسيّة او حتّى لاجراء انتخابات عامّة حرّة.." (زكي خيري/صدى السّنين/ص73). بينما لم يشر خيري ولا غيره من زعماء الاحزاب العراقيّة انّ الغرض الاساسي من اجازة النقابات المهنيّة المعلن رسميًا وقانونيًا هو الدّفاع عن مصالح منتسبيها وضمان حقوق العمال وكافة المهنييّن فيها، وكذلك خلق حالة من التوازن والانسجام بين العمّال وارباب العمل.

انّ تاريخ العمل النقابي في العراق يؤكّد انّ في طليعة المؤسسّين الاوائل للنقابات، كان محمّد صالح القزاز وهو اوّل زعيم نقابي عمالي في العراق، ومن صفوة السّياسييّن المتحمّسين والداعمين لانشاء النقابات العمّاليّة الزعيم الوطني محمّد جعفر ابو التمّن وهما من اوائل الذين ارادوا للنقابات العماليّة دورا مهنيًا صرفا، وان تترك للاحزاب النشاطات السّياسيّة المختلفة. وهذا يتفق مع مبدا ترسيخ المؤسسّات الديمقراطيّة ويدلّ على نضوج سياسي ونقابي مبكّر في العراق قبل ان يجهز عليه من قبل الانحرافات والتيّارات المخرّبة في العمل السّياسي الحزبي في العراق طيلة القرن الماضي.

ولمواجهة موقف المعارضة، سعى نوري السّعيد يسانده الملك فيصل الاوّل حينما كلفه تشكيل وزارته الثانية، [كان شغل الملك الشاغل انذاك هو التخلص من الانتداب البريطاني على العراق لادخاله في المنظمة الدوليّة (عصبة الامم) كدولة مستقلة] الى اتباع اسلوب تفكيك وحدة الاخاء الوطني واضعافها داخل البرلمان وخارجه. فقام نوري السّعيد بمناورة حينما اصبح رئيسا للوزراء للمرّة الثانية بتعيين احد اقوى زعماء الاخاء، رشيد عالي الكيلاني، رئيسا للدّيوان الملكي بتاريخ 26/6/1932،[جريدة الوقائع العراقيّة عدد 1149 في 30/6/1933]. وقد اشار طه الهاشمي في مذكراته الى انّ الملك فيصل قد استعمل "... جميع نفوذه لحلّ الحزب فلم يوفق، وفي الاخير قرّر ان يأخذ رشيد عالي الى جانبه بتوظيفه في البلاط..". [مذكرات طه الهاشمي – ج 1/ص 172]. ثم حقق الملك ونوري السّعيد نجاحا اكثر حينما كلف الملك رشيد عالي الكيلاني بتأليف الوزارة، واسندت وزارة الماليّة فيها الى زعيم اخر من مجموعة زعماء الاخاء الوطني المناوئة للمعاهدة وهو ياسين الهاشمي.

انّ اهمّ ما جاء في برنامج الوزارة الكيلانيّة هو ما يتعلق بالمعاهدة التي سبق وان حاربها الكيلاني وغالبيّة اعضاء وزارته وتكتلوا بجبهة الاخاء من اجل الغائها هو ما يلي:

"...القيام بتقوية صلات المودّة والصّداقة مع كافة الدول الاجنبيّة واحترام العهود الدّوليّة والسّعي لتحقيق الاماني الوطنيّة وتعزيز كيان الدّولة...". [محاضر مجلس النوّاب/ جلسة27/3/1933/ص70] وهكذا نجد كلا من الهاشمي والكيلاني يعلنان التزامهما الكامل بالمعاهدة التي سبق وان وصفوها منذ فترة قريبة بالفساد والجور واثاروا بسببها الجماهير وعرّضوا امن البلد واستقراره الى الخطر.

وهكذا نرى انّه ما ان اعطيت لصفوة حزب الاخاء - وعلى راسهم ياسين الهاشمي - الفرصة للفوز بكراسي الوزارة، حتى تفتتت وتصدّعت جبهة التآخي وبقي الحزب الوطني العراقي لوحده في الميدان. وازاء الضغوط النفسيّة التي كان يعاني منها الزعيم محمد جعفر ابو التمّن من خذلان حلفائه له،فقد استقال من زعامة حزبه في اجتماع المؤتمر العام الذي عقده حزبه في1/11/1933 ثمّ اعلن اعتزاله العمل السّياسي [جريدة الاستقلال/30/11/1933].

لقد اراد بعض قادة الحزب وكوادره الاستمرار في عملهم، واصدروا جريدة "الثبات" الا انّهم لم يفلحوا، فأعلنوا في 2/4/1934عن توقفهم عن عمل الحزب وغلق الصّحيفة [جريدة الثبات/عدد – 20/4/1934]، وبذلك وضع ابو التمّن بصورة عمليّة النهاية المؤكّدة لحزبه حسب القاعدة السّياسيّة العراقيّة التي تثبت تفتّت وجود الحزب بانسحاب وانزواء مؤسسّه وقائده.

وعودة الى بقيّة زعامات الاخاء الوطني وقياداته، فاننا نشير الى ما كتبه الاستاذ كامل الجادرجي في مذكراته عن نفسه وعن الطريق الذي قرّر ان يسلكه انذاك بعد ان تأكد له تصدّع البنيان الذي دخله مع ياسين الهاشمي والكيلاني. وازاء كلّ ما تقدّم وبسبب الانسجام الفكري والنفسي لكامل الجادرجي مع المجموعة الجديدة " الاهالي " وتوقعاته صعود زعامته وقيادته للقمّة، كتب في مذكراته يقول:

"...عند صدور الجريدة (الاهالي) تعقبتها شخصيّا ووجدتها جريدة حرّة تتفق مع ارائي في كثير من النواحي..!"، واضاف ايضا، "...صارت علاقتي الودّية تزداد مع اصحاب الاهالي... ثمّ حصلت رغبة من الجهتين على ما اعتقد، فمن جهتي كنت أود ان اتصل بهذه الجماعة، وكانت نفس الرّغبة من جهتهم، فاتصلت بعبد الفتاح ابراهيم ثم بعبد القادر اسماعيل، وكلما كان اتصالنا يزداد كانت الصّلة تتوثق. واجتمعنا يوما بداري، وكان الحاضرون عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد وعلي حيدر سليمان وبحثنا في لزوم وضع منهج اجتماعي سياسي يكون اساسا لجمعيّة سياسيّة، وخطة تسير عليها جريدة الاهالي وكان ذلك في اوائل سنة 1933. فصدرت الجريدة تدعوا الى خطة معيّنة ومبدا مقرّر هو الشعبيّة. وأصبحت جماعة الاهالي تضمّ عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد وعلي سليمان وعبد القادر اسماعيل وانا...". [كامل الجادرجي/المذكرات/ص25 – 26].

وبصدد حديثنا عن تغيير المواقف للعديد من زعماء الصّفوة في ذلك العام، لابدّ لنا من الاشارة الى انّ الاستاذ حسين جميل قد انسحب من العمل المعارض (لجماعة الاهالي) بسبب

تعيينه موظفا في المحاكم المدنيّة منذ منتصف سنة1933 وبقي في القضاء حتى استقال في شهر شباط 1946لمساهمته بتأليف الحزب الوطني الديمقراطي. [حسين جميل/الحياة النيابيّة/ المصدر/ص233].

مؤتمر كربلاء عام 1931

سبق لصفوة قيادة جبهة التآخي ان مارست نشاطات مختلفة ضد مشروع المعاهدة الجديدة (لسنة 1930)، وضد حكومة نوري السّعيد وانصاره سواء من حزب العهد العراقي، او من ايّة جهة اخرى تؤيّد سياسة نوري السّعيد القائمة على التحالف والتعاون الكاملين مع بريطانيا كما نصّت عليها المعاهدة الجديدة.

وقد لعبت جريدة "صدى العهد" دورا متميّزا وحوارا موضوعيّا في الدّفاع عن حكومة نوري السّعيد والتصدّي للهجوم الذي كانت تشنّه المعارضة العراقيّة ضدّها انذاك.

كان الحزب الوطني العراقي بزعامة محمّد جعفر ابو التمّن قلب التحرّك المعارض ومركز ثقل المعارضة للمعاهدة وللحكومة التي كانت تحسب له اكثر من حساب نظرا لشعبيّته العريضة وتاييد المرجعيّة الشيعيّة له.

في كانون الثاني 1931 عقد مؤتمر عام في كربلاء وكان السّبب الظاهري هو مناسبة زيارة النّصف من شعبان، وهو تاريخ ولادة الامام الثاني عشر عند الشيعة (الامام المنتظر المهدي بن الحسن العسكري عليهم السّلام). وقد حضر المناسبة زعماء سياسيّون لاحياء المناسبة. امّا السّبب الجوهري فقد كان لاستغلال الاحتفال والتجمّع الجماهيري لاتخاذ قرارات مناسبة حيال المعاهدة الجديدة التي جاءت بها حكومة نوري السّعيد. لم يحقق المؤتمر ما كان يرجى منه لتحشيد القوى المعارضة بحيث تؤثر نشاطاته على مصير معاهدة 1930 او ايقاف تنفيذها.

فعلى الرّغم مما كان لوجود صفوة من زعماء الفرات الاوسط ووجوه المجتمع من تاثير في تصعيد الحماس لدى الحضور. وبقدر ما كانت اهداف جبهة التاخي قويّة وشعاراتها مدعومة من قبل الجماهير العراقيّة، الا انّها كانت تقف على ارضيّة رخوة وثقتها بالنجاح مهزوزة للاسباب التالية:

اوّلا: فقدان ثقّة ابو التمّن بجديّة صفوة قيادة الجبهة على تحمّل استحقاقات معارضة المعاهدة.

ثانيا: لم تتفق قيادات الجبهة على مشروع موحّد ليكون بديلا ليحل محل ما ينتظر من فوائد تطبيق بنود المعاهدة المطروحة مع بريطانيا لصالح العراق على كافة الاصعدة السّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والثقافيّة.

ثالثا: لم يكن زعماء الصّفوة القائدة لجبهة التآخي معارضين جدّيّن وضدّ المعاهدة كليّا،

بل كانوا مختلفين مع الحكومة في تفسير نصوصها. ولهذا فقد قبل احد قادة الجبهة وهو (مزاحم الباجةجي) منصبا وزاريا في حكومة نوري السّعيد اثناء انعقاد مؤتمر كربلاء. وحينما شكل بعض قادة جبهة التاخي (وهم ياسين الهاشمي وحكمت سليمان ومحمد زكي) ثلاث وزارات في 19 ايلول 1933، فانّهم في الواقع قد اقرّوا المعاهدة علنا وكذلك اقرّوا صراحة تمسّكهم بالتعامل مع الدّولة التي سبق وان عادوها ثمّ اطلقوا عليها (الحليفة بريطانيا).

رابعا: كان رئيس الوزراء نوري السّعيد، بما عرف عنه من قوّة الشخصيّة والحزم والفطنة، يدرك ويقدّر اهميّة وشعبيّة الشعارات والاهداف النبيلة لنشاطات المعارضة ضد سياسته. الا انّه كان يعلم ايضا انّ تلك الشعارات سوف لن تتحقق على ارض واقع العراق انذاك. لقد كان يفرّق بين نشاطات الحزب الوطني العراقي ويحترم زعيمه محمد جعفر ابو التمّن لصدقه وعفة لسانه وفروسيّته في التعامل مع خصومه السياسييّن في جميع الحكومات المتعاقبة التي عاصرها بما فيها وزارات نوري السّعيد نفسه. بينما كان السّعيد يتعامل مع بقيّة قيادات حزب الاخاء تعامله مع المنتفعين والوصولييّن من تجار السّياسة. فقد اثبتت الاحداث صدق رؤية نوري السّعيد وحدسه اذ لم يتردد غالبيّتهم من ادارة ظهورهم لجبهة الاخاء متى ما لوّح لهم نوري السّعيد بمنصب وزارة كما فعل مع مزاحم الباججي ومع رشيد عالي الكيلاني وغيرهما.

ولهذا فقد كانت معارضة جبهة التآخي للاسباب المتقدمة لا تشكل تهديدا حقيقيّا لمنهج حكومة السّعيد، بل كان نشاط اعضائها بنظر السّعيد مجرّد فعاليّات غير بنّاءة تقوم على الاثارة العاطفيّة وهوس الشعارات غير الواقعيّة، والتظاهرات الغوغائيّة التي تقوم على الشتم والتخريب التي طالما أبعدت الجماهير عن ثقافة التمسّك بالدستور والمطالبة باحترام النظام والقانون بالاساليب الدّيمقراطيّة وعبر المؤسسّات الدستوريّة الحضاريّة كالصّحف المعارضة، والحوارات البنّاءة داخل البرلمان وخارجه وكذلك في الاجتماعات العلنيّة المجازة......

خامسا: اما موقف النقابات والمنظمات المهنيّة والحرفيّة، فلطالما سعت حكومة نوري السّعيد الى ابعادها عن ان تستغلّ سياسيّا او ان تكون في مواضع طالما زجّتها اليها الاحزاب السّياسيّة عمدا خارج اهدافها المهنيّة وجعلتها وسيلة لتحقيق اهداف حزبيّة ضيّقة، فسنّت بتدخلها بالسّياسة سنّة سيّئة استغلتها الاحزاب السريّة لصالحها اسوا استغلال، مما قوّض عمل النظام النقابي وخدماته تماما، كما اضعف موقع النقابات في عيون منتسبيها وامام القانون.

سادسا: لقد كانت اخطاء "التآخي" وتردّي العلاقات بين بعض اطرافها قد اعطت للعاملين مثلا سيّئا في السلوك الانتهازي الذي لطالما سارت عليها الاحزاب السّياسيّة العراقيّة، لا سيّما السّريّة منها، فيما بعد. فما ان تولد جبهة بين الاحزاب، حتى تحتضر بعد فترة قليلة ثمّ تموت دون ان تحقق الحدّ الادنى من اهدافها سواء كان ذلك في العهد الملكي ام الجمهوري فيما بعد.

(كانت جبهة الاتحاد الوطني قد تشكلت في عام 1957، الا انه ما لبثت ان أخذت الاحزاب اعضاء الجبهة تتصارع فيما بينها للهيمنة على السّلطة فدخلت صراعا وحشيّا بدا بالضرب والرّكل في الشوارع والمساجد واماكن العبادات وداخل الحرم الجامعي وانتهت بالقتل والسّحل والتعذيب (للانسان الذي كرّمه الله) بعد ثلاثة اشهر فقط من انهيار الملكيّة وقيام الجمهوريّة عام1958).

ظاهرة أبو التمّن بين قادة الصّفوة العراقيّة

يمكن اعتبار محمّد جعفر ابو التمّن ظاهرة فريدة في السّياسة العراقيّة بكل ما كان في شخصيّته من نزاهة ونكران ذات ووطنيّة وثبات الايمان بما يعتقد، كان عادلا وشريفا منصفا مع كلّ من يتعامل معهم حتىّ وان كانوا خصومه ومعارضيه من شتى المكوّنات الدينيّة او العرقيّة. كان يرى انّ النظام البرلماني ومؤسسّاته هو خير ضمانة لحكم الشعب، وانّ تشريعاته هي التي تحدّد سياسات الحكومة وتحرس حقوق البلاد. كان يرى بضرورة انشاء الاحزاب السّياسيّة وفق اسس وقواعد وطنيّة و دستوريّة. كما كان يضع شروطا اخلاقيّة واجتماعيّة وعلميّة لطالبي الانتساب لحزبه: يروي الاستاذ زكي خيري (احد كبار القادة الاوائل للحزب الشيوعي العراقي) في مذكراته عن البدايات الاولى لعمله الحزبي ما يلي:

"...قرّرنا نحن الثلاثة؛ لبيب الآلوسي وحسين فوزي وانا، ان ننتمي الى الحزب الوطني الذي كان يترأسه محمد جعفر ابو التمّن... ودخلنا الدار (مقرّ الحزب) وطلبنا لقاء الزعيم... فجاء ثلاثة للقائنا نحن الثلاثة.. وبعد ان فرغنا من حديثنا تولى الرّد الزعيم ابو التمّن بحديث ناعم مخملي متانّي يتساقط على السّمع كنقاط الماء الصّافي يقطرّ نقطه على مهل فلا يخدش الاذن ولا يثير احد ولا يستجيب لشيْ. والخلاصة هي اننّا مادمنا لا نزال طلابا فما علينا الا ان ننصرف كليا للدراسة حتى نتخرّج وعندئذ، وعندئذ فقط يمكننا ان نتعاطى السّياسة..". (زكي خيري: صدى السّنين/مركز الحرف العربي/ط2/ص 54).

انّ هذا المثل يكشف لنا جانبا من القيم السّياسيّة التي كان يتحلىّ بها قادة الصّفوة الاجتماعيّة في اوائل القرن الماضي، بينما نجد انّ الانحدار في العمل السّياسي العراقي قد وصل في اواخر القرن ذاته ان فتحوا ابواب احزابهم للصبية وللمراهقين وهم لم يجتازوا بعد مرحلة المتوسط الاعدادي.

ومما رواه هذا القائد الشّيوعي المخضرم (زكي خيري) عن اسباب تورّطهم المبكر في السّياسة اذ يقول: ".. في الاوّل من ايار 1928 تركت المدرسة من الصّف الثاني متوسّط (السنة الثامنة من الدراسة النظاميّة) الى غير عودة... وتوظفت في الكمارك والمكوس براتب شهري قدره (80) روبّية هنديّة اي نحو ستة دنانير عراقيّة... وكان ذلك بعد مظاهرتنا ضدّ الزعيم الصّهيوني الفريد موند وقد ضقنا ذرعا بالمدرسة وبحثنا عن مهرب...!" (زكي خيري/

ص66). وتتكرّر حالة مشابهة للتخلص من مسؤوليّات واعباء المدرسة بالارتباط بحزب يدفع مرتّبا شهريّا وسيّارة للمتفرّغين لمهمّاته الحزبيّة.كما حصل حينما قرّرت قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي تكليف صدّام حسين (طالب ثانويّة سنة 1959) للقيام باغتيال رئيس الوزراء الزعيم الرّكن عبد الكريم قاسم اثناء مروره في شارع الرّشيد في وضح النهار.

لقد كان غالبيّة اعضاء الاحزاب السريّة هم من المغمورين وممن تركوا الدراسة او فشلوا في اتمام دراساتهم. بينما كان غالبيّة قيادات الاحزاب العراقيّة المجازة وفق القانون في العهد الملكي ممّن عرفوا بالسمعة الطيّبة من خيرة صفوة المجتمع العراقي حسبا ونسبا وكفاءة، ومن حملة الشهادات المعتمدة من ارقى جامعات استامبول وباريس ولندن وبرلين.

لقد عرف عن محمّد جعفر ابو التمّن شدّة تدقيقه بمواصفات المنتسبين الى حزبه من حيث ايمانه بمبادئه، وكذلك حرصه على سلامة المنتسب وكرامته وحسن سمعته لانه حسب اعتقاد ابو التمّن انّ المنتسب للحزب سيمثل سمعة جميع اعضاء الحزب وصفوة قياداته.

[لقد روى لي الاديب والمؤرّخ اليهودي العراقي الاستاذ مير بصري، اثناء لقاءاتي معه في لندن، وقد كان يعمل في غرفة تجارة بغداد ايّام كان ابو التمّن رئيسا لها، احاديث وامثلة ايجابيّة لا حصر لها عن سيرة ابي التمّن السّياسي الوطني والانسان ذكرت جوانبا منها في كتابي عن ابي التمّن كدراسة في الزعامة السّياسيّة العراقيّة].

واستمرارا للبحث عن دور ابي التمّن بعد اعلانه الاعتزال عن العمل السّياسي سنة 1933؛ فقد اعلن مباشرة في 3/5/1933 انهاء تآخي الحزبين (الوطني والتآخي) مؤكدا تمسّكه بمباديء التآخي ومعارضة المعاهدة. وقد ظلّ لفترة يراقب عن كثب السّاحة السّياسيّة ونشاطات السّياسيّين وكانّه يبحث عن العناصر الشابّة التي لم تفسدها بعد المصالح الشخصيّة والارتزاق في اسواق السّياسة. كان اعلانه اعتزال السّياسة لا يعدو سوى الابتعاد عن الاجواء الملوّثة لفترة وكانّها فترة استراحة محارب يستردّ خلالها انفاسه ليبدا بجولة جديدة وبخطّة جديدة.

وكما يبدو من مذكرات وتصريحات قيادات جماعة الاهالي، فانهم كانوا هم ايضا يراقبون الاوضاع ويبحثون عن الشخصيّات البارزة من صفوة المجتمع ذات التأثير البالغ والمكانة في قلوب افراد المجتمع العراقي لكي يفاتحوهم لضمّهم الى صفوفهم. في الوقت الذي كان فيه جماعة الاهالي يسعون الى انشاء "..جمعيّة السّعي لمكافحة الاميّة.." لتكون واجهة لعمل سياسي منظم وجاد. يقول كامل الجادرجي في مذكراته:

انّ اوّل من فكّر في مفاوضته حول الموضوع هو "جعفر ابو التمّن، وبعد تردّد قليل، ولمّا تأكد ان غاية الجمعيّة غير سياسيّة، قبل ان يكون من بين مؤسسّيها..." (الجادرجي/ المذكرات..ص - 29)، ثم قال ايضا: "... وبعد ان اطمأن جعفر ابو التمّن الينا تمام الاطمئنان،

بدانا بالتفاوض معه في تكوين جمعيّة سياسيّة سريّة على اسس الشعبيّة..." وهي "...التي أصبحت فيما بعد اساسا لمنهج (جمعيّة الاصلاح الشعبي) وقد اطلع ابو التمّن على تلك النقاط ودرسها سرّا فقرة فقرة فقبل مبدئيّا تأليف الجمعيّة على اساس (الشعبيّة) وقد كان تفهّمه في الحقيقة والواقع لها دقيقا، وكانت مناقشته لها مدعاة للاعجاب بالنظر الى نشاته وبيئته.."!!. [كامل الجادرجي/المذكرات – ص29]

ومن صفوة القيادات التي سعى اليها مخططو انشاء (الاصلاح الشعبي) هو حكمت سليمان. وعلى الرّغم من انّ اسرته تركيّة، الا انّه عراقي ونشا في بيئة عراقيّة بغداديّة، كما تربّى وتثقف ثقافة تركيّة عثمانيّة بكل ما فيها من قيم الالتزام والصّرامة والمنهج المتشدّد. درس الحقوق واختصّ بمادة علم الماليّة. صار وزيرا للمعارف لاوّل مرّة في وزارة عبدالمحسن السّعدون الثانية. ثم اسندت اليه وزارة الدخليّة في 25/7/1925 م، ثم اصبح رئيسا لمجلس النوّاب في 8/5/1926.

وفي وزارة السّعدون الثالثة في14/1/1928 تقلد منصب وزارة العدليّة. وفي وزارة رشيد عالي الكيلاني الاولى في 20/3/1933والثانية في9/9/1933 اصبح وزيرا للعدليّة ثمّ وزيرا للداخليّة في وزارة الكيلاني ايضا في 28/10/1933 م.عرف حكمت سليمان بشدّته في تطبيق النظام وفرض القانون. نال شهرة بعد قمعه لتمرّد الاشوريين في شمال العراق حينما اطلق يد الفريق الرّكن بكر صدقي قائد الفرقة الثانية لتصفية حركة الاشوريين بمباركة ودعم من الامير غازي وليّ العهد الذي تولى شؤون المملكة اثناء غياب والده الملك فيصل الاوّل في أوروبا. وباستقالة رشيد عالي الكيلاني في28/10/1933 لم يشترك حكمت سليمان بايّة وزارة حتى تولّى السلطة بقيام انقلاب بكر صدقي في 29 تشرين الاوّل 1936.

لقد ايّدت جماعة الاهالي قيام حكومة الكيلاني بقمع تمرّد الاشوريّن بالقوّة المسلحة وضرب قراهم المدنيّة بشدّة واستباحتها بقسوة غير مبرّرة. ولانّ الزعيم محمد جعفر ابو التمّن هو الاخر قد ايّد متسرّعا اجراءات حكومة حكمت سليمان وضمّ صوته الى صوت جماعة الاهالي(باعتبار انّ الإنكليز كانوا وراء تمرّد الاشوريّن)، لذا فقد اغتنم جماعة الاهالي الفرصة وقرّروا جمع حكمت سليمان بابي التمّن وقد اختير كامل الجادرجي لتنفيذ ذلك.

كان حكمت سليمان يعتقد بانّ ابو التمّن يرفض العمل معه، فحينما فاتحه كامل الجادرجي بالامر اجابه حكمت بارتياح "..وهل يرضى جعفر ان يشتغل معي؟..لا اظنّ انّه يثق بي كثيرا..". (كامل الجادرجي/ المذكرات—ص30)

استطاع كامل الجادرجي ان يجمع في داره حكمت سليمان وجعفر ابو التمّن حيث تمّ استعراض الوضع الراهن انذاك وتمّ الاتفاق على تأليف جمعيّة سرّية من اناس جدد وعلى اسس جديدة واتفقوا " ..على ان لا يدخل فيها من رجال الماضي الذين خانوا العهود وضربوا بالمباديء عرض الحائط وعلى ان يكون جلّ اعتمادنا على الشباب المثقف.."[حسين جميل/ الحياة النيابيّة../ص 243].كما تقرّر وضع صيغة قسم لاعضاء الدرجة الاولى وهم؛ (محمد

جعفر ابو التمّن وحكمت سليمان وكامل الجادرجي ومحمّد حديد وعبد الفتّاح ابراهيم..) ومن هؤلاء تكوّنت اللجنة المركزيّة برئاسة جعفر ابو التمّن واصبح فيها عبد الفتاح ابراهيم سكرتيرا ومحمّد حديد محاسبا. [حسين جميل/الحياة النيابيّة... ص243]

وبعد اداء اعضاء اللجنة المركزيّة القسم، قرّر المجتمعون توسيع دائرة القيادة بالاتصال بزعماء وقادة اخرين من مدنيّين وعسكريّين وان يتولى الامر كل حسب قدرته وتاثيره كالاتي:

اوّلا: يفاتح محمد جعفر ابو التمّن صفوة من قادة (الحزب الوطني العراقي).

ثانيا: يتصل كامل الجادرجي وعبد الفتاح ابراهيم بعدد محدّد من الموظفين والشباب المثقف.

ثالثا: يقوم حكمت سليمان بالاتصال بالجيش مستعينا بالفريق بكر صدقي الذي لمع نجمه الوطني على حساب دماء ابناء شعبه سواء من الاشوريّين في الشمال او من القبائل العربيّة في سوق الشيوخ في الجنوب.

وبعد ان تقرّر الانفتاح على الشباب لكسبه، قررّت اللجنة المركزيّة السريّة ايضا تأسيس (نادي للشباب) المثقف واصبح فيه عبد الفتاح ابراهيم معتمد النادي.[حسين جميل/الحياة النيابيّة.../ص244].

يتّضح ممّا تقدّم ان اعضاء اللجّنة المركزيّة للتنظيم الجديد – والمفروض انّهم من الصفوة المثقّفة المؤمنة بالديمقراطيّة الليبراليّة – قد خططوا بالخفاء ليمارسوا عملا تآمريّا سريّا وصمّموا على توريط الجيش بالعمل السّياسي بهدف اختطاف السّلطة بالقوّة المسلّحة وهذا بالتأكيد خروج على الدّستور ومناقض للديمقراطيّة ولمستقبل تطوّر مؤسسّاتها في العراق.

خروج ابو التمّن على الشرعيّة الدستوريّة

روى لي الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم اثناء مقابلتي له في بغداد عام 1980 في بيته، انّه (عبد الفتاح) كان رافضا لفكرة (تعاون جماعة الاهالي مع الجيش، وكذلك فسح المجال لمحترفي السّياسة القدماء ان يستغلّوا تنظيمهم (الشعبيّة) لغاياتهم السّياسيّة، لذا فانّه – اي عبد الفتاح ابراهيم – قد ابدى قلقه لحكمت سليمان حينما فاتحه بذلك. وحينما جرى اللقاء في بيت الجادرجي مع الفريق بكر صدقي ولم يظهر الاخير ايّ دليل على استعداده بالالتزام بمباديء الشعبيّة وغادر بيت الجادرجي مثلما دخل. جرى نقاش حاد بيني (عبد الفتاح) وبين حكمت سليمان الذي كان مصرّا على التعاون مع الجيش، وحينما رأيت جماعتي – لا سيّما كامل الجادرجي – مؤيّدا لحكمت سليمان، غادرت المكان وقلت لهم: " ...انكم اقحمتم الجيش بالسّياسة وسوف تندمون على ذلك وتتحمّلون مسؤوليّة عملكم هذا.ثمّ انقطعت عن حضور الاجتماعات وصلتي بجماعة الاهالي نهائيّا..).

وروى لي المؤرّخ الاستاذ خيري العمري في بغداد اثناء مقابلتي له في داره عام 1980؛ بانّ صديقه الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم قد اخبره بانّ نقاشا حادا جرى بينه وبين حكمت سليمان اتّهمه فيه ".. انّه- حكمت - بسبب خصومته مع ياسين الهاشمي يريد ان يدفع بجماعة الاهالي الى مغامرة لا نعرف نتائجها، وحينما اتجهت ببصري الى كامل الجادرجي لعله يؤيّدني في موقفي فلم اجد عنده ميلا الى ذلك فانصرفت عنهم مودّعا اجتماعهم.." واضاف عبد الفتاح ابراهيم للعمري "..ومنذ ذلك الوقت انقطعت صلتي بجماعة الاهالي..وقد حاول ابو التمّن اقناعي بالعودة وتمّ عقد اجتماع لهذا الغرض،الا انّه لم يسفر عن شيء...". ومما يرويه الاستاذ المؤرّخ خيري العمري ايضا انّ الاستاذ عبد الفتّاح ابراهيم كان متخوّفا من انضمام حكمت سليمان نفسه الى جماعة الاهالي (ربما بسبب ما عرف عن ميل حكمت لدكتاتوريّة الدّولة وتاثرّه بنظام مصطفى كمال اتاتورك في تركيا)، الا انّه وباسناد من كامل الجادرجي، دخل حكمت التنظيم وادّى القسم.

كان الخلاف بين عبد الفتاح ابراهيم من جهة وبين كامل الجادرجي وحكمت سليمان من جهة اخرى يعكس واقع وطبيعة كلا الموقفين. فالاوّل – عبد الفتّاح – اراد ان يكون التغيير جذريّا (عقائديّا وتربويّا للمجتمع) كمقدمة لتغيير السّلطة او النظام السّياسي برمّته. بينما اراد حكمت سليمان اتباع الاسلوب الاتاتوركي الانقلابي السّريع، وقد ايّده الباقون من مؤسّسي جماعة الاهالي حرصا منهم على تقويض سلطة وزارة ياسين الهاشمي والفوز بالحكم واجراء التغيير بأيديهم بشكل اسرع. (ايضا راجع...حسين جميل/الحياة النيابيّة في العراق/ص245)

لقد كانت خطوة اشتراك محمد جعفر ابو التمّن بمؤامرة انقلاب بكر صدقي عام 1936 خروجا على الشرعيّة الدستوريّة، وليس لها اسم اخر. ولانّها كانت خطا جسيما تتنافى مع المباديء والقيم التي سعى وضحّى من اجلها ابو التمّن، فانها قد أودت لا بحياته السّياسيّة واعتزاله السّياسة بعد عام واحد فقط من قيام انقلاب بكر صدقي اسفا وندما، بل كانت سببا مباشرا لاعتلال صحّته ثمّ اصابته بنزيف الدّماغ ووفاته عام 1945 رحمه الله.

انحراف المؤسّسات الدستوريّة وتامر الصّفوة

بعد موت الملك الرّاحل فيصل الاوّل ومجيء خلفه ولده الملك غازي الاوّل سنة 1933، توقفت تقريبا عمليّة تطوير المؤسّسات الدستوريّة الحديثة الولادة. فقد اصبح الملك الشّاب العديم الخبرة بالحكم وبالرّجال يترنّح بين ايدي حفنة من السّياسيّن الطّموحين الذين اشتهروا بالمكر والدّهاء وبكيفيّة الالتفاف على نصوص الدستور وشرعيّة البرلمان. واصبح الملك غازي الاوّل وهو في مقتبل العمر(21 سنة) تشدّه تيّارات واهواء حيتان السّياسة الكبار الذين اتقنوا اللعبة السّياسيّة بخبث، بينما أخذت سفينة الدّولة تبتعد شيئا فشيئا

عن نهج المؤسّسات الدستوريّة الديمقراطيّة لتستقر باحضان حفنة من السّياسيّين الذين ورثوا خصال المدرسة العثمانيّة القائمة على التسلّط وفرض الرأي الواحد وقد اطلق عليهم العراقيون الليبراليّون بـ "الفئة الحاكمة" وان كانت في واقعها "الفئة المتحكمّة" .

وبسبب رفض "الفئة الحاكمة" لمعارضة برلمانيّة حقيقيّة وعدم الاعتراف بشرعيّتها كجزء من النظام السّياسي الملكي الدّستوري الديمقراطي في العراق.اخذت كلّ صفوة من الفئات الليبراليّة والديمقراطيّة واليساريّة وحتى بعض القوى الدينيّة تنظمّ وتنمو تدريجيّا كقوى سياسيّة معارضة فاعلة لتقف بوجه صّفوة الفئة الحاكمة المتحكمة بتنظيمات علنيّة مجازة واخرى سريّة. فقد بدات بعضها كاحزاب رسميّة علنيّة مستفيدة من هامش الحريّات المحدود التي كات تمنحه بين فترة واخرى "الفئة الحاكمة" لاسباب تكتيكيّة في ظلّ ظروف محليّة ودوليّة معيّنة.لقد شهد العراق اجازة وزارة الداخليّة لـ (الحزب الوطني العراقي) الذي كان يتزعمه محمد جعفر ابو التمّن، واجازة (حزب النّهضة) بقيادة امين الجرجفجي، بالاضافة الى عدد من الاحزاب الاخرى وان كانت خلال فترات متباعدة كما اشرنا سابقا.

كما شهد العراق منذ وقت مبكرّ ايضا اجازة النقابات العماليّة والجمعيّات المهنيّة والحرفيّة والفنيّة والاجتماعيّة والرّياضيّة وان بقيت تحت طائلة الشك والمراقبة من قبل المؤسسّات الامنيّة "للفئة الحاكمة" . امّا الاحزاب السّريّة كالحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث العربي الاشتراكي وحزب الدّعوة الاسلامي واحزاب وتنظيمات دينيّة اخرى (سنيّة وشيعيّة) فقد كانت الاكثر نشاطا واتساعا وهي الادقّ تنظيما والتزاما. كما كانت تقوم بفعاليّات سياسيّة سرّا وان كانت تتستر بواجهات ادبيّة وثقافيّة ودينيّة مشروعة. امّا الاحزاب والتنظيمات القوميّة فهي الاخرى ذات طموحات سياسيّة ولكنّها تتستر بواجهات التقاليد العشائريّة والدّينيّة المشروعة التي لايمكن لمؤسسّات "الفئة الحاكمة" ان تنكر واقعها كالعشائر الكرديّة والتركمانيّة والطوائف اليزيديّة والمسيحيّة واليهوديّة والصّابئة والجاليات المقيمة في العراق.

وعلى الرّغم من انّ القوى السّياسيّة المعارضة تعتقد انّ اسلوب نشاطاتها وسلوكها وممارساتها يختلف عن الاولى (الفئة الحاكمة)، الا انّها في الواقع العملي لا تختلف عنها عند التطبيق.فهم ايضا (يقولونِ ما لا يفعلونِ) حينما ينتقلونِ من موقع المعارضة الى موقع السّلطة الا افرادا قلائل وليس تنظيمات:

فالحزب الوطني العراقي الذي اجيز من قبل سلطة " الفئة الحاكمة " قد مارس نشاطه بزعامة محمّد جعفر ابو التمّن وعارض قبول او التصديق على المعاهدات مع بريطانيا وانتقد بشدّة الاتفاقات الاقتصاديّة او النفطيّة، كما راح يعبّيء الجماهير ضدّ الغبن والحيف الذي لحق بالعراق بسببها، الا انّه لم يتخذ ايّ اجراء يغيّر الوضع السّياسي الذي كان عليه العراق انذاك مع بريطانيا حينما ساهموا بالسّلطة بعد نجاح انقلاب بكر صدقي عام 1936 الذي ساهموا به كاحد مخططيه الرئيسيّن وكاعضاء في حكومة الانقلاب.

وعلى الرّغم من انّ (جماعة الاهالي) تعتبر معارضتها " للفئة الحاكمة " هي معارضة من نوع اخر وانّ قواعد (الشعبيّة) هو المباديء التي كانت جماعة الاهالي تسعى الى تحقيقها (الا انّها وان لم تر في القانون الاساسي العراقي (دستورا كاملا) يحقق للشعب سيادته، وللمواطنين حرّياتهم وحقوقهم بما تتطلب من ضمانات لممارستها.. الا انّ موقفهم من الدّستور كان من حيث الاساس احترام نصوصه، ووجوب تطبيق احكامه على وجه سليم مع الدّعوة في الوقت نفسه الى تعديله على وجه يزيل عيوبه، ويضيف الى احكامه ما يحقق سيادة الشّعب ويضمن حرّيات وحقوق المواطنين، ويقيم السّلطات على اساس التوازن السّليم بينها..". (حسين جميل/المصدر- ص218).

وفي مقال افتتاحي لصحيفة الاهالي(عدد 24/11/1933)وصف كاتب المقال "الفئة الحاكمة": "..انهم خدعوا الشعب ويخدعوه وسيبقون يعملون تحت ستار الوطنيّة وباسم الشّعب في سبيل مصالحهم ومصالح المستعمرين،يشتم بعضهم بعضا، وكلّهم سواء، ويتفاضل بعضهم على بعض وكلهم جبلوا من طينة واحدة...". (حسين جميل/المصدر- ص224).

وفي مقال اخر للاهالي (عدد 2/5/1935) كان موقفها واضحا من "الفئة الحاكمة" :-

"...يجب ان لايخطر بالبال انّ اصلاحا سيتمّ على ايديهم سواء في تشتتهم او في تكتلهم، لانّ الاصلاح يستلزم زوالهم (!!) قبل كلّ شيء ويتطلب وضع حدّ لسوء التصرّفات..."، "..انّ تراصّ جماهير الشّعب وتكاتفها لاشكّ وان يكتسح تلك الطبقة الخاصّة مهما تكتلت او اجتمعت كلمتها، لانّ الشّعب يطالب بالحق وهم يؤيّدون الباطل...".

انّ دعوة جريدة الاهالي الى (ازالتهم) لا تخلو في مضمونها من التحريض الى اتبّاع الاسلوب الانقلابي وما يصاحبه من فوضى وعنف وسفك دماء بريئة كما حصل بالفعل بعد اقل من عام، وكان على راس قائمة ضحايا انقلاب بكر صدقي وجماعة الاهالي عام1936 الفريق الرّكن جعفر باشا العسكري مؤسسّ الجيش واوّل وزير للدفاع في العراق واخرين من كلا الطرفين.

وهنا لابدّ من الاشارة الى انّه لم يجري تحقيق عادل يكشف ملابسات تلك الجريمة لامن قبل الانقلابييّن ولا حتى شجب او استنكار من قبل القادة (الديمقراطيّين) لجماعة الاهالي وفي مقدّمتهم حكمت سليمان وكامل الجادرجي ومحمّد جعفر ابو التمّن واخرين..، وانه من مفارقات الزمن ان يعاد المشهد المأساوي مرّة اخرى بكل فصوله وبعض شخصيّاته (كالجادرجي) في انقلاب 14 تموز1958 حيث لم يجري تحقيق عادل ينصف الضحايا الابرياء الذين قتلوا بدم بارد وفي مقدّمتهم الاسرة المالكة الهاشميّة وضيوف من الخارج كانوا في زيارة خاصّة للعراق.

اسلوب حلّ المجالس النيابيّة

لقد اصبح من تقاليد تشكيل الوزارات العراقيّة بعد موت الملك فيصل الاوّل، ان يقوم رئيس الوزراء الجديد بحلّ مجلس النوّاب الذي أجرت الوزارة السّابقة انتخابه. وهكذا فعل علي جودت الايّوبي حينما الّف وزارته في27/8/1934. فامر بحلّ مجلس النوّاب الذي انتخب في وزارة ناجي شوكت السّابقة حيث اعلنت نتائج انتخاب المجلس الجديد في 6/12/1934.

وفي اليوم التالي بدات اجتماعات تعقد في داريّ رشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان في منطقة (الصليخ) وكان يحضرها عدد من صفوة الشيوخ وزعماء القبائل وعشائر الفرات الاوسط وزعماء(مناطق ديالى التي تقع شرق بغداد).كان في مقدّمة الحضور: رشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان والسيّد محسن ابو طبيخ ثم انضمّ اليهم ياسين الهاشمي. وكان هدف تلك الاجتماعات معارضة الوزارة القائمة بهدف اسقاطها. [السيّد محسن ابو طبيخ/ المباديء والرّجال/ص 37]

لقد اثمرت اجتماعات الصّليخ عن تحالف اطلق عليه (مؤتمر الصّليخ) بينما اطلق عليه مناؤوه (بمؤامرة الصّليخ). لقد اتخذ مؤتمر الصّليخ قرار معاداة حكومة الايّوبي باسلوب عبّر عنه احد قادته في اجتماع 7/12/1934 في دار رشيد عالي الكيلاني "...معارضة الحكومة بالطرق الادبيّة المجرّدة من الامور الحزبيّة، وان نقدّم الاحتجاجات الى جلالة الملك فنذكر فيها مساويء الوزارة ونطلب اسقاطها، فاذا لم تسقط قمنا عليها بقوّة السلاح..." [السيّد محسن ابو طبيخ/ المباديء والرّجال - ص 37].

لم تكتف المعارضة بهذا القرار المنافي للدستور وللديمقراطيّة، بل قرّرت اتباع اسلوب اخر ظاهره ديمقراطي وهو عرقلة اجتماعات مجلس الاعيان بمقاطعة جلساته وعدم حضور الاعضاء المعارضين اجتماعاته. وفعلا لم يتم اكتمال نصاب المجلس ولم تنعقد جلساته خلال الفترة (9/2/1935 ولغاية 23/2/1935).وكانت غاية المعارضة شلّ اعمال مجلس الاعيان لكي لا يصادق على التشريعات التي كان يبعث بها مجلس النوّاب كقانون الميزانيّة العامّة التي لم يصادق عليها. فكان ذلك السّبب المباشر لان يقدّم علي جودت الايّوبي استقالته في 23/2/1935 (مذكّرات توفيق السّويدي/ص 246). وبعد استقالة علي جودت الايّوبي، اصبح الطريق ممهّدا لمرشّح مؤتمر الصّليخ ليتولى رئاسة الوزارة.

ديمقراطيّة الصّفوة بين النظريّة والتطبيق

يمكن القول انّ هناك اجماعا ظاهريّا بين زعماء الصّفوة العراقيّة، لا سيّما بين القادة السّياسيّن، على ضرورة اعتماد الديمقراطيّة منهجا واسلوبا في الحكم. وقد بدا هذا الاجماع والدّعوة للديمقراطيّة شعارا وطنيّا منذ قيام الدولة العراقيّة في بداية القرن الماضي، واستمرّت

حتى اليوم. الا انّ دراسة الوقائع التاريخيّة للفترات المذكورة وما بعدها، ومعرفة طبيعة الحكام وحكوماتهم فيها، وسبر اغوار سلوكيّاتهم الخاصّة والعامّة تكشف لنا حقيقة البون الشاسع بين النظريّة والتطبيق، وبين القول والفعل في هكذا ادعاء.

انّ ايّة نظرة عدائيّة للمعارضة البرلمانيّة او عدم السّماح لها بالوجود كمؤسسّة مكمّلة للمؤسسّات الديمقراطيّة ومعترف بها دستوريّا من قبل النظام السّياسي القائم يجعل ذلك النظام السّياسي يفقد صفته الديمقراطيّة ويقرّبه تماما من الدكتاتوريّة وبذلك يفقد شرعيّته في الحكم. كما انّ ايّة معارضة سياسيّة تمارس فعاليّاتها خارج النظام والقانون والدستور تعتبر فوضويّة مضرّة بالمجتمع وسلامته ويجب منعها ومحاسبتها ومعاقبتها وفق القانون.

انّ اوّل اجتماع لاوّل مجلس نوّاب عراقي منتخب كان - في 16 تمّوز/يوليو1925 - في فترة وزارة عبد المحسن السّعدون. لقد اراد السّعدون انذاك ان يدعم موقفه داخل المجلس (وخارجه) فالّف حزبا اسماه "حزب التقدّم" وقد اجازته وزارة الدّاخليّة في 22/8/1925. ولم يكن هذا الحزب قائما على القاعدة الجماهيريّة، بل كان مؤلفا من عدد من النوّاب المؤيّدين لوزارته داخل البرلمان.كما كان ياسين الهاشمي معارضا داخل البرلمان، لذا الفّ حزبا برلمانيّا اخر من النوّاب المعارضين لرئيس الوزراء اسماه (حزب الشّعب)، وقد اجازته وزارة الداخليّة ايضا في3/12/1925. (د. فاروق صالح العمر: الاحزاب السّياسيّة في العراق- 1978/ ص324-321،161،167). ولأن هذا الحزب لم يوسّع قاعدته على اساس جماهيري ولانّه بقي في نطاق المجموعة السّياسيّة، ولاشتراكه في وزارة جعفر باشا العسكري التي كان اكثر اعضاؤها من حزب التقدّم فانّ هذا الحزب بقي ضمن نطاق (الصّفوة) وبقي نشاطه محدود التأثير ولم يستطع مدّ جذوره في عامّة المجتمع العراقي كما فعلت الاحزاب السريّة العراقيّة فيما بعد كما سنرى.

ويرى الاستاذ حسين جميل انّ "..المعارضة التي شهدها مجلس النوّاب (منذ بداية تأسيسه) والى 1946، انّها معارضة ضمن النظام القائم، وعناصرها من عائلة الحكم بوجه عام. لذلك نجد انّ وقائع انتقال المعارض من المعارضة الى الحكم مشتركا في وزارة برئاسة من عارضه بالامس..". (حسين جميل/الحياة البرلمانيّة.. المصدر/ص 210).ويقول ايضا.. "..كما نجد انّ بعض المعارضين مارسوا وهم في الحكم اعمالا شبيهة بتلك التي سبق ان نقدوها او هاجموها عندما كانوا في المعارضة، وقامت بها الوزارة التي كانوا يعارضونها حينذاك..".

ويضرب امثلة كثيرة على ذلك اشهرها معارضة ياسين الهاشمي لمعاهدة 1922 في المجلس التأسيسي في وزارة جعفر باشا العسكري الا انّ الهاشمي حينما الف الوزارة نفّذ تلك المعاهدة. كما ضرب مثلا اخر حول موقف ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ضد معاهدة 1930التي ابرمها نوري السّعيد مع بريطانيا، الا انّ المعارضة حينما الفت الوزارة برئاسة رشيد عالي الكيلاني في 20/3/1933 وعضويّة ياسين الهاشمي لوزارة الماليّة ونوري السّعيد للخارجيّة اقرّت في منهاجها المعلن (احترام العهود الدّوليّة) ومن البديهي انّ

المعاهدة في مقدّمتها وبذلك انتهك كلّ من الكيلاني والهاشمي (حزب الاخاء) وثيقة التآخي التي وقعّوها مع الحزب الوطني الذي كان يتزعمّه محمّد جعفر ابو التمّن.. (حسين جميل/ المصدر نفسه/ص 211 - 210).

وبينما كان ياسين الهاشمي في المعارضة داخل البرلمان خطيبا مدافعا عن المؤسّسات الديمقراطيّة في جلسة مجلس النوّاب في 3/1/1935:- " ..امّا والبلاد تدار بموجب دستور يتمشى على اسس ديمقراطيّة، فلا يمكن والحالة هذه ان تتكتل كلمة الامّة او تتبلور الا بتأليف الاحزاب السّياسيّة.."، وان "..الواجب يسوقنا لان ننتحي ناحية دستوريّة وهي ان نتقدّم الى المجلس الذي يؤلف على هذا النمط اذا كنّا معتقدين بعدم فائدة الاحزاب ونطلب منه تعديل الدستور لكي نلغي المجالس النيّابيّة، وليتحمّل المسؤولون تبعات اعمالهم مباشرة..". نرى ياسين الهاشمي بعد مرور شهرين ونصف فقط 17/3/1935 يعطّل الحياة الحزبيّة بما فيه حزبه (حزب الاخاء الوطني) كما مرّ بنا سابقا، ويغلق صحفا ويعطل اخرى. وكذلك يقوم الهاشمي ووزير داخليّته بحلّ مجلس النوّاب واجراء انتخابات نيابيّة جديدة (بنفس اسلوب التدخل المباشر فيها وغير المشروع الذي سبق ان انتقداه عندما كانافي المعارضة).. (حسين جميل/المصدر- ص216 - 213).

ويقترب الاستاذ محمّد حديد في رأيه من اراء زميله حسين جميل حول المعارضة ويقول انّها "..لم تكن الا معارضة مصطنعة، بمعنى انها لا تستند الى نوّاب منتخبين فعلا من قبل الامّة بناء على راي او منهج خاص لهم،اذ انّ نوّاب جبهة الحكومة، ونوّاب جبهة المعارضة كانوا وما يزالون يعيّنون تعيينا من قبل السّلطات التنفيذيّة.. " (صوت الاهالي 3/2/1946).

الموقف من وزارة الايّوبي نموذجا اخر

لقد اثبتت الاحداث انّ شعارات الاحزاب السّياسيّة العراقيّة ودعوتها من حين لاخر الى تطبيق (الدّيمقراطيّة) (طيلة القرن الماضي) ما هي الا وسيلة تتخذها لاحراج انظمة الحكم المتتابعة والانتقاص من انجازاتها لاضعافها امام الجماهير بهدف اسقاطها والحلول محلّها، اكثر مما هي دعوة هادفة لتطبيق الديمقراطيّة لتربية ابناء المجتمع لبناء نظام سياسي سليم ومعافى في العراق. وفي سياق ما تقدّم بامكاننا تقديم نموذج مبكّر يثبت هذا الرأي وهو (موقف جماعة الاهالي من وزارة علي جودت الايّوبي).

لقد كان موقف جماعة الاهالي واسلوب معارضتهم لوزارة علي جودت الايّوبي والاحداث التي رافقتها لا ينسجم مع مباديء الديمقراطيّة ومنهج بناء نظام سياسي دستوري بمؤسسّاته البرلمانيّة التي كانوا يدعون اليها. فقد كتب الاستاذ كامل الجادرجي معترفا في مذكراته يقول:

(... بعد ان عمّ الاستياء وتكوّن راي عام واع ضدّ الوزارة القائمة نتيجة لسعة ما قمنا به

من دعاية في البلد، كان من الضروري اصدار صحيفة تغذي الرأي العام وتهاجم الوزارة...". مذكرات الجادرجي/ص34 – 35].

فمن جهة نجد الجادرجي يعترف بانّ حالة الاستياء وتكوين راي عام معاد للوزارة هي نتيجة لنشاطاتهم ودعاياتهم وكانّ مهمّة الصّحافة فقط اثارة البلبلة وتنشيط مشاعر العداء ضدّ الحكومة. فبدل ان تسعى الصّحافة الى خلق راي عام واع يراقب الاوضاع العامّة ويقدّم النقد البنّاء الهادف بروح ايجابيّة ومنصفة، نجد الجادرجي يلجا – باعترافه هو بمذكراته – الى اسلوب الاثارة وزرع الضغينة بلغة مثيرة لمشاعر السذج وتغذية روح الثورة ضدّ الحكومة المنتخبة.

لقد كان الاستاذ كامل الجادرجي، وهو من اشهر زعماء المعارضة وابرزدعاة الديمقراطيّة مكانة، على معرفة تامّة بانّ اجتماعات " مؤتمر الصّليخ " هي اجتماعات تامريّة يجري فيها تواطؤ (الصّفوة الليبراليّة المثقفة) على حكومة شرعيّة منتخبة دستوريّا بهدف الاطاحة بها وبشكل يتنافى مع الاساليب الديمقراطيّة. وباعتراف الجادرجي في موضع اخر ايضا كقوله:

"..كانت المؤامرات تحاك في الصّليخ، وكنّا على اطلاع تام على تلك الحركة بواسطة حكمت، والواقع انّ موقفنا كان غريبا من هذه الجماعة، فلم نتمكن من البت بصورة قطعيّة هل نحن من مؤيّدي الحركة ام من معارضيها. كانت هناك اسباب كثيرة لذلك، فقد كنا نحبذ كلّ معارضة للحكومة، ومن جهة اخرى كان حكمت من اشدّ انصار الحركة ان لم نقل من جملة مدبّريها. وعلى ما اظن اننا لو قرّرنا في حينه معارضة الحركة لكان من المحتمل جدّا الا يطيعنا حكمت وينفصل عنّا... " [كامل الجادرجي/المذكرات..ص35 – 36]

فالجادرجي كما اعترف بهذا النصّ وبغيره، كان على علم تام باسلوب حياكة المؤامرات الخفيّة ونقل الصراعات السّياسيّة من مكانها الطبيعي – داخل البرلمان وعلى صفحات الجرائد ووسائل الاعلام المشروعة الى اجتماعات التآمر داخل الغرف المغلقة البعيدة عن انظار الرأي العام ومشاركة الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقيّة في كلّ تغيير مفترض. وانه لمن المفارقات انّ الاستاذ كامل الجادرجي، على الرّغم من انه يسمّي تلك الاجتماعات (بالمؤامرات)، الا انّه يرضى لنفسه ان يخذل صديقه الاستاذ عبد الفتّاح ابراهيم كما أشرت سابقا، ويشارك المتآمرين شخصيّا او ممثلا باحد رفاقه (حكمت سليمان) الذي كان يلعب دورا رئيسيّا في مخططات التآمر وليكون عينا لهم ليطلعهم على اخر الاخبار من اجتماعاتهم في منطقة الصّليخ. [السّيد محسن ابو طبيخ/ المباديء والرّجال/ص37].

انّ صراحة الجادرجي في مذكراته حول موقفهم من التآمر، تعكس واقع ما كان يؤمن به في العمل السّياسي في تلك المرحلة. فهو لا يريد ان يفرّط بشخصيّة مهمّة لنشاطاته مثل حكمت سليمان حتى ولو كان موقفه على حساب مباديء الديمقراطيّة وطموحات المخلصين لبناء النظام السّياسي السليم، وهذا النوع من التدليس في العمل السّياسي العراقي صار ملازما لسلوك غالبيّة صفوة السّياسيّين العراقيّن ومناقضا لمباديء الديمقراطيّة ولمصالح

الامّة. والجادرجي لم يكن دقيقا في وصفه موقف محمد جعفر ابو التمّن بانه، موقف " ...الحائر المتردّد في ذلك الوقت كموقفه في كثير من الاحيان، فبالنسبة للقضايا السّياسيّة المعقّدة لم يكن ليجزم بشيء، وكان يرجّح ان يكون على اتصال تام بالقائمين بالعمل من جهة، وان لا يكون من ضمنهم من جهة اخرى.. " [مذكرات الجادرجي/ص 35 – 36].

انّ الذي يدرس حياة محمد جعفر ابو التمّن يجده رجل مباديء ومواقف ثابتة وصلبة تجاه الاحداث منذ بداية حياته السّياسيّة – لا سيّما تجاه ادارة الانتداب البريطانيّة – وحتى وفاته.

انّ الذي جذب شخصا مثل ابو التمّن الى جماعة الاهالي شيئان هما:

الاوّل هو مباديء الشعبيّة التي تتلائم مع امنياته واحلامه الرّومانسيّة في العدالة ومساعدة الفقراء وتغليب مصالح الشعب في الحريّة والاستقلال والتطوّر الاقتصادي والعلمي.

والثاني هم الشباب الذين قصدوه مرارا حاملين له عزمهم على العمل من اجل تحقيق مباديء الشعبيّة والاصلاح الجديد.

انّ بقاء ابو التمّن ضمن جماعة الاهالي كان غريبا، لا سيّما بعد انسحاب الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم منهم ودخول حكمت سليمان ذلك السّياسي المتآمر حتى على المجموعة المتآمرة معه. وربّما قد يجد البعض انّ له عذرا في ذلك الموقف؛ وهو ميل ابو التمّن الى التسامح والتعاون واجراء تسويات توفيقيّة وهي من بعض صفاته.

فممّا قاله لي (للمؤلف) الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم اثناء لقائي معه في بغداد ايضا بهذا الصّدد بانّ:"..جعفر جلبي (ابو التمّن) قد خدع واستدرج بوعود كالها له حكمت سليمان واخرون..". ورأيي في هذا القول هو ما يحاوله صديق محبّ لتبرير خطا لصديق يحبّه ويكنّ له كلّ تقدير واعجاب، شانه في ذلك شان الاستاذ عبد الكريم الازري.

فممّا قاله لي الاستاذ عبد الكريم الازري (اخر وزير ماليّة في حكومة الاتّحاد الهاشمي) اثناء احاديثي المتعددة معه في لندن عن ابي التمّن:

"...انّ جعفر ابو التمّن كان طيّب القلب وصدّق بوعود حكمت سليمان وبقيّة جماعة الاهالي الذين خدعوه..". وبنفس هذا الرأي والمعنى اكّد لي الاستاذ حسين جميل اثناء لقائي معه في بغداد وكذلك وبنفس الرأي ما قاله لي الاستاذ محمّد حديد في لندن. كما يروي الاستاذ حسين جميل، ان الاستاذ محمّد حديد قد اكد له بانّ محمد جعفر ابو التمّن لم يكن راضيا تماما بل كان متحفظا في تلك الظروف كتسوية منه للموقف.." [حسين جميل/ الحياة النّيابيّة في العراق/ص 250]

وعلى الرّغم من انّ ابو التمّن قد اتخذ في نهج صحيفته (المبدا) موقف المدافع عن حقوق الفلاحين وما كانوا يعانونه من اوضاع معاشيّة سيّئة، الا انّ (المتآمرين) عمليّا قد استفادوا من موقف ابو التمّن الذي ايّد ضمنا في كتاباته حركات التمرّد العشائريّة ممّا دفع الحكومة الى

غلق صحيفتة المبدا. وحينما اصدر بدلها ابو التمّن صحيفة (البيان)، قامت الحكومة بتعطيلها هي الاخرى لنفس الاسباب [مذكرات الجادرجي/ص35 – 36]

وعلى الرّغم من كلّ ما ابداه معاصروا ابو التمّن من تبريرات، الا انّ الواقع لا يبرّيء ابو التمّن من مسؤوليّة اشتراكه في (مؤامرة مجموعة الاهالي) التي أضرت بتاريخه الناصع، وما سبّبته تلك المؤامرة من اضرار ومن نتائج سيّئة على المسيرة الديمقراطية في العراق.

موقف الصّفوة من وزارة ياسين الهاشمي

كان (ياسين الهاشمي) على راس المعارضة التي تبنّت مباديء واهداف "مؤتمر الصّليخ" . لذا كان من الحكمة ان يتفاوض الملك غازي الاوّل معه بهذا الشان. وبعد ان استشار الملك كلا من علي جودت الايّوبي ورئيسيّ مجلسيّ النوّاب والاعيان، طلب الملك حضور ياسين الهاشمي وكلّفه بتشكيل الوزارة وفق الشروط التالية:

اوّلا: ان تكون وزارته ائتلافيّة تضمّ اعضاءا من الاحزاب والقوى السّياسيّة الوطنيّة.

ثانيا: ان لا يكون في عضويّتها ايّ احد ممّن شارك في التمرّد العشائري الذي حدث في الديوانيّة (مناطق الفرات الاوسط) او ممّن تامر معها.

ثالثا: عدم حلّ المجلس النيابي الحالي.

[F.O.371/18945- (E1792/278/93)March18،1935]

الصّفوة والتمرّد القبلي المسلح

وبما انّ حزب ياسين الهاشمي (الاخاء الوطني) لا يمتلك الاكثريّة في مجلس النوّاب بل انّ (حزب الوحدة الوطنيّة) الذي يتزعّمه رئيس الوزراء المستقيل (علي جودت الايّوبي) له الاكثريّة في المجلس، فانّ ذلك لم يرق للمعارضة (مجموعة الصّليخ). لذا فانّ ياسين الهاشمي وبتشجيع من جماعته (اعضاء مؤتمر الصّليخ) اعتذر للملك عن تاليف الوزارة. (علما انّ حزب الوحدة الوطنيّة كانت قد اجازته وزارة الداخليّة في 6/12/1934، وهو حزب برلماني الّفه علي جودت الايّوبي وسبعين عضو من اعضاء مجلس النّوّاب. (حسين جميل/الحياة النيابيّة في العراق/ص - 247). وبعد اعتذار ياسين الهاشمي عن تأليف الوزارة، طلب الملك غازي الاوّل من جميل المدفعي تشكيل الوزارة فشكلها في 4/3/1935 ممّا زاد من غضب ياسين الهاشمي ومجموعته اعضاء مؤتمر الصّليخ، فقاموا (خلافا للاجراءات البرلمانيّة) بتحريض مؤيّديهم من العشائر في الفرات الاوسط من اجل التحرّك المسلحّ فبدات حركة عصيان مسلح واسعة كان ابرزها احتلال جماعة مسلحة من قبائل ال فتلة، التي كان يتزعمها الشيخ عبد الواحد الحاج سكر،مواقع الجسور في منطقة الفيصليّة والجسر

الكبير في المشخاب، والطرق الواقعة ما بين (الفيصليّة وابي صخير). كما قام شعلان العطيّة (رئيس قبيلة الاكرع) باحتلال صدر شط الدغارة ودائرة الريّ هناك. [انظر عبد العزيز القصّاب/المذكرات..ص304-302].

وفي مناطق ابي صخير والشاميّة قام المتمرّدون بحرق الجسر الخشبي لمنع وصول القوّات المسلحة. وقد كتب توفيق السّويدي، الذي كان يشغل وزارة العدل في وزارة المدفعي، في مذكراته جزءا مهمّا من تفاصيل تلك الاحداث [انظر مذكرات توفيق السّويدي/ص259].

وفي منطقة ديالى هاجمت جماعات مسلحة من قبائل العزة التي يتزعمها الشيخ حبيب الخيزران منطقة (منصوريّة الجبل) واحتلتها في 9/3/1935. وازاء هذا التخريب في الممتلكات العامّة وتفاقم الاحداث والاختلاف الواضح داخل مجلس الوزراء حول اتخاذ الموقف المناسب ازاء العشائر المتمرّدة، قدّم رئيس الوزراء جميل المدفعي استقالته للملك غازي الاوّل في 15/3/1935وقد قبلت. [توفيق السّويدي/المذكرات/ص260 263-].

.(F.O.371(18945-E2096/278-93.April1935)

لم يكن امام الملك غازي الاوّل الا ان يستدعي ياسين الهاشمي ليؤلف الوزارة، فاستدعاه وكلّفه، فالّف وزارته في 17/3/1935 وقام فورا باتخاذ الخطوات اللاديمقراطيّة التالية:

اوّلا: في 9/4/1935 صدرت الارادة الملكيّة بحلّ مجلس النّواب -بناء على رغبة الهاشمي- بحجة ان "يسود التأزر بين السّلطة التشريعيّة والسّلطة التنفيذيّة" وهو اجراء غير ديمقراطي ويتناقض مع ارادة الناخبين الذين اختاروا ممثليهم بالاغلبيّة.

ثانيا: في 29/4/1935 قرّر المؤتمر العام لحزب الاخاء الوطني الذي يراسه ياسين الهاشمي وقف اعمال الحزب[جريدة البلاد 1/5/1935]. وهذا الاجراء فردي وغير ديمقراطي وكما يبدو من صيغة قرار المؤتمر العام انّ ياسين الهاشمي كان يفكر بحكم البلاد على طريقة الممالك الدكتاتوريّة (ايطاليا واليابان واسبانيا)، وقد برّر في بيانه ذلك بانّ "...البلاد في امسّ الحاجة لتوحيد الكلمة والجهد لقطع المراحل الاخيرة لتصل الى اهدافها الوطنيّة سواء من النواحي السّياسيّة او الاقتصاديّة او الاجتماعيّة، ولأجل تنفيذ هذه الغاية النبيلة لابدّ من افساح المجال لابناء البلاد الغيارى على مصلحتها ان ينبذوا التحزّبات القديمة ويتّحدوا لتكوين جبهة واحدة تعضّد الخطط الاصلاحيّة المنوي تطبيقها..." وممّا جاء في بيانه ايضا: "...وعليه توقف جلسات الحزب وتعطّل اعماله السّياسيّة. على ان يسعى رجاله لتوحيد كلمة الامّة وادماج الاحزاب في هياة واحدة...". [حسين جميل/الحياة النّيابيّة...ص 149].

وفي 4/8/1935،اجرت حكومة الهاشمي انتخابات نيابيّة اسفرت عن فوز 108 نائبا بزيادة عشرين نائب نظرا لازدياد عدد السّكان انذاك. وبقي المجلس الجديد يمارس دوره حتى سقوط حكومة الهاشمي بالانقلاب العسكري الذي قاده بكر صدقي عام 1936ضدّه.

واجه الهاشمي الوضع السّياسي الدّاخلي وما كان يدور حوله في اوّل الامر بتفهّم ووعي

كاملين، فعرض على حكمت سليمان وزارة الماليّة ارضاءا لجماعتيّ الصّليخ و الاهالي في ان واحد. الا انّ حكمت سليمان اصرّ على ان يتولىّ وزارة الدّاخليّة استنادا الى قرار اتخذته جماعة الاهالي باجتماع لهم في بيت ابي التمّن (وهذا الطلب غير ديمقراطي لانه من اختصاص البرلمان). رفض الهاشمي اعطاء الدّاخليّة لحكمت سليمان واعلن عن تشكيل وزارته ناشرا منهاجها. ولم يمض على تولّي الهاشمي رئاسة الوزارة اكثر من شهر مطلقا خلالها الصّحف المعطلة، حتى بدا التآمر على وزارته يدبّر من قبل خصومه، بادئين التنفيذ من مناطق قبائل الرّميثة في الفرات الاوسط.

ومنطقة الرّميثة هي التي سبق وان انطلقت منها ثورة العشرين الكبرى ضدّ البريطانيّن، لذا فقد اكتسبت ولازالت بذلك فخرا وطنيّا. وقد سعى العديد من السّياسيين والاحزاب، في تاريخ العراق الحديث الاستفادة من عشائرها واستغلال سمعتها الكريمة لمصالح حزبيّة ضيّقة بينما لم يجن منها ابناؤها الطيّبون من الفلاحين البسطاء غير الهدم والدّم والدّموع ولم تمتد اليها يد الاعمار حتّى كتابة هذه السّطور.

لقد حرّك خصوم ياسين الهاشمي الشيخ خوّام العبد العبّاس رئيس عشيرة بني زريج في الرّميثة، فقام بتمرّد مسلّح حدثت خلالها الكثير من التجاوزات والتخريبات لاملاك الدّولة ممّا دفع الهاشمي الى ارسال قوّات عسكريّة وتمّ اخمادها بشدّة وكان على راس الحملة العسكريّة الفريق الرّكن بكر صدقي الذي بدا نجمه كقائد عسكري يصعد لنجاحه في اخماد (الفتن الدّاخلية) بقسوة سواء مع الاشوريين او مع قبائل الفرات الاوسط. فكانت تلك الاحداث تلمّع نجمه وتعدّه لاوّل انقلاب عسكري في تاريخ العراق والعرب الحديث.

الصّفوة وحريّة الصّحافة

حينما اطلقت حكومة ياسين الهاشمي الصّحف المعطلة، اعاد جماعة الاهالي اصدار صحيفتهم (صوت الاهالي) في 18/4/1935 التي أخذت تهاجم الوضع القائم على اساس انه لم يتغيّر من الوضع العام شيء على الرّغم من انّ عمر الوزارة لم تتعدّ شهرا واحدا بعدا!.

وأخذت الصّحيفة تدافع عن حركة الشيخ خوّام على اساس"..انّ العوامل التي ادّت الى حركة الشيخ عبد الواحد الحاج سكر ادّت الى حركة الشيخ خوّام.." غامزة بذلك الى انّ الشيخ عبد الواحد كان من حزب ياسين الهاشمي الذي جاء بثورة عشائريّة. لذا امر الهاشمي بتعطيل الصّحيفة لمدّة ستة اشهر ولم يمضي على صدورها سوى ثلاثة اسابيع. [كامل الجادرجي/ المذكرات/ص35 – 36].

كان حكمت سليمان قد استطاع الحصول على اجازة اصدار صحيفة (البيان) بعد غلق سابقتها (المبدا) التي اجيزت باسم محمد جعفر ابو التمّن والتي كانت تعبّر عن جماعة الاهالي. وما ان نشرت حكومة ياسين الهاشمي اتفاقيّة السكك الحديديّة التي عقدتها

الحكومة مع بريطانيا، حتى تناولتها (البيان) في عدد خاص بمقال افتتاحي كتبه الاستاذ محمّد حديد بيّن فيه عيوب الاتفاقيّة وما تسبّبه للعراق من خسائر. وقد سبّب ذلك المقال ردود فعل قويّة واهتمام من قبل الراي العام العراقي وزاد من قلق الحكومة من احتمالات تزايد نشاطات المعارضة.

لقد لعبت الصّحف ومن ورائها قادة الاحزاب دورا اساسيّا في اثارة الرأي العام العراقي ضدّ حكومة ياسين الهاشمي. وكانت اخطاء وزارة الهاشمي تزيد النار اشتعالا وتلهب الرأي العام العراقي ليطالب بالتغيير. وكان لقصَر نظر الملك الشاب غازي الاوّل وقلة خبرته في ادارة الازمات دورا اساسيّا في تقوية دَور السّياسيّين القدماء الذين جبلوا على الاختلاف والتحاسد وتامر بعضهم على البعض الاخر حتى ضمن الحزب الواحد.

انّ من اهم الاخطاء السّياسيّة في تلك الفترة (والنظام السّياسي العراقي كان لا يزال في مرحلة التأسيس) هي اعطاء الصّحافة العراقيّة مساحة واسعة من حريّة النشر والنقد بلا ضوابط او مراعاة للواقع السّياسي والاقتصادي والاجتماعي للعراق انذاك ممّا سبّب قلقا فكريّا، وفي كثير من الاحيان تضليلا مضرّا للراي العام بكافة مكوّناته.

الاطاحة بحكومة ياسين الهاشمي

لم يرق لحكمت سليمان وصول ياسين الهاشمي ومؤيّديه (جماعة الصّليخ) الى الحكم على الرّغم من انّه كان واحدا منهم !. لذا فانّه اخذ يدبّر مؤامرة بالتعاون مع صديقه الفريق الرّكن بكر صدقي الذي كان يتزعم كتلة عسكريّة داخل مؤسسّة الجيش مكوّنة منه ومن الفريق الرّكن عبد اللطيف نوري وكان معهم ايضا قائد القوّة الجوّية محمّد علي جواد. وكانت هنالك مجموعة اخرى مدنيّة مهمّة من الصّفوة السّياسيّة (الديمقراطيّة الليبراليّة) على راسها: كامل الجادرجي ومحمّد جعفر ابو التمّن وبقيّة جماعة (الشعبيّة) تسعى للاطاحة بحكومة الهاشمي.

لقد كان كامل الجادرجي ومحمد جعفر ابو التمّن وبقيّة قادة جماعة الاهالي على علم بما كان يدبّر في الخفاء لحكومة الهاشمي؛ فقد كتب الجادرجي في مذكراته.... انّ:

"...حكمت سليمان اجتمع به وبجعفر ابو التمّن وبمحمّد حديد قبيل الانقلاب واخبرهم انّ بكر صدقي وعبد اللطيف نوري قد هيّا للانقلاب..وانّ حكمت روى الخبر بصورة فهموا منها انّ الامر معدّ ومنته منه. وقال لهم انّ عدم موافقتهم سوف لا يغيّر من الامر شيئا، وفي هذه الحالة يتعاون العسكريّون مع اناس اخرين..". [مذكرات الجادرجي/ص42 – 43].

وقد ايّد الاستاذ محمد حديد رواية الجادرجي مؤكدا للاستاذ خيري العمري انهم عقدوا الاجتماع واستمعوا الى ايضاحات حكمت سليمان وقرّروا مساندة الانقلاب ووضعوا صيغة البيان الذي سوف يذاع من الرّاديو كما كتبوا صيغة البيان الثاني الذي سوف يحمله حكمت

سليمان ويقدّمه الى الملك غازي، وكذلك تمّ في ذلك الاجتماع تشكيل الوزارة وتوزيع الحقائب الوزاريّة، كما تقرّر ان يأخذ البيانين حكمت سليمان الى بكر صدقي. [خيري العمري/ذكريات عن كامل الجادرجي/ص49].

لقد اصاب الكثير من المثقفين الخيبة والذهول – سابقا ولاحقا – بسبب اشتراك عدد من الصّفوة الليبراليّة المثقفة وهم الروّاد الاوائل من دعاة الديمقراطيّة وحملة لوائها مثل: كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل وعبد القادر اسماعيل، بل وشخصيّة تعتبر عنوان الوطنيّة والنزاهة والتجرّد عن طلب المنافع الذاتيّة كجعفر ابو التمّن بتآمر انقلابي عسكري ينتهك الدستور ويغلب عليه الطموح لحفنة من العسكريّين الذين قاموا بانقلاب 29 تشرين الاوّل/اكتوبر 1936. ومما تجدر الاشارة اليه؛ انه لم ترد في كتابات الاستاذ كامل الجادرجي ومجموعته – لا سيّما في مذكّراتهم – ايّ ايضاح او تبرير منطقي مقبول حول اسباب تآمرهم وخرقهم للدستور وعدم الوفاء للنهج الديمقراطي الذي طالما كانوا يدعون اليه سواء قبل توليّهم الحكم او بعده. بل نجدهم يعودون الى الاساليب التآمريّة والانقلابيّة مرّة اخرى بمساهمتهم (الاحياء منهم بطبيعة الحال) في انقلاب 14 تموز/يوليو1958 بنفس الاسلوب والتكتيك ولكنّه في هذه المرّة جاء اشدّ عنفا ودمويّة وانتهاكا لحريّة الانسان وكرامته من السّابق.

الصّفوة ومراجعة المواقف

اعتادت غالبيّة التنظيمات والاحزاب السّياسيّة العراقيّة ان تقوم بدراسة نقديّة لذاتها بسبب سياستها في مرحلة سابقة لها (او لمراحل) امّا في اجتماع استثنائي طاريء للقيادة، او داخل مؤتمر حزبي او بايّة صورة تنظيميّة اخرى حيث تنتهي ببيان مخادع او بايضاح او بتقرير سياسي مفبرك تقوم بنشره على نطاق واسع ضمن حملة دعائيّة منظّمّة ومتقنة. ومهما تكن نسبة النجاح في حملتها الاعلاميّة، الا انّ واقع الاحداث وصدق النتائج كشفت لنا عن تلك العقود الماضية ما يلي:

1 - انّ هنالك شبه اجماع من قبل القادة السّياسيّين لتلك المرحلة على ندمهم وتراجعهم عن مواقفهم السّابقة وان كانت تعابيرهم تبريريّة واعترافهم بالخطا جاء على استحياء.

2 - لم يعط الجادرجي (كابرز داعية للديمقراطيّة) التبرير المقنع حول اشتراكه في انقلاب 1936. بل واجاب مدافعا عن نفسه حينما نشرت جريدة الزمان (عدد 31/12/1945) تصريحا للدكتور سامي شوكت نال فيه من الجادرجي بسبب اشتراكه بانقلاب 1936 معتبرا ذلك عملا معاديا للديمقراطيّة. فكتب الجادرجي ردّه في جريدة "صوت الاهالي" في ثمان مقالات تحت عنوان "بعث الفاشيّة في العراق" جاء فيه: [حسين جميل/الحياة النّيابيّة../ ص 62 – 63]:

"...انّ الديمقراطيّة كما يعلم الجميع هي النظام القائم على حريّات اساسيّة تتعلق بحقوق الانسان، منها حرّية الرأي وحريّة العقيدة وحريّة الاجتماع وحريّة النشر، فيكون هذا النظام والحالة هذه نظاما ترتضيه اكثريّة الشعب، امّا طريقة التوصّل الى تحقيق هذا النظام فهي الدّعوة اليه بوسائل سلميّة، وبدون عنف عن طريق التنظيمات السّياسيّة والحزبيّة، وانتخاب البرلمانات الحرّة التي تمثل الامّة تمثيلا صحيحا.

والظاهر انّ الدكتور يعتقد بانّ الديمقراطيّة لا تبيح لنفسها ان تتجاوز هذه الحدود في جميع الظروف والاحوال، حتي وان لم تتوفر لها امكانيّات ممارسة حريّة الرأي والتنظيم، وهذا خطا فاحش، لانّ الديمقراطيّة ترى من حقها، بل من واجبها عدم التقيّد باساليبها المعتادة، حينما ترى في البلاد حكما مطلقا غاشما لا يسمح بحرّية الرأي ولا بحريّة النشر ولا بحريّة الاجتماع ولا بتأليف الاحزاب، وحينما تستولي على البلاد دكتاتوريّة غاشمة تخنق انفاس الديمقراطيّة، ولا تدع لها مجالا لايّ عمل اخر. وحينئذ تسلك الديمقراطيّة طريق الثورة، ولو كانت بقوّة السّلاح. وهذا حق من حقوق الديمقراطيّة لا يختلف فيه اثنان سواء من العلماء الذين يقومون بتدريس هذه النظريّات في الجامعات، او من السّاسة الذين يدينون بهذا المذهب...". وممّا جاء في الردّ ايضا:

"...والانقلاب الذي اشار اليه الدكتور لم يكن ليستهدف اقامة دكتاتوريّة عسكريّة، وانما كان يرمي الى ازاحة حكم دكتاتوري ضجّت منه البلاد يومذاك من اقصاها الى اقصاها..."، ومما جاء في ردّ الجادرجي ايضا؛ "..امّا كيف تطوّر هذا الانقلاب الديمقراطي، ولماذا تطوّر، ومن المسؤول عن تطوّراته، وما اذا كنت انا المسؤول عن ذلك التطوّر، لا اريد بحثه الان، لا لانّ الجراة الادبيّة تنقصني، وانما للسبب الذي بيّنته انفا، وهو انّ البحث التاريخي النزيه يحتاج الى جوّ خال من التهويش والتهريج، ولكن لا بأس من ان اشير مؤكدا انّ للدكتور وامثاله من الرّجعييّن كان القدح المعلىّ في ذلك التطوّر المعكوس الذي يندّد به الكتور الان..."[حسين جميل/الحياة البرلمانيّة../ص255].

ومن تبريرات الاستاذ كامل الجادرجي لاعتماد الانقلاب كوسيلة في العمل السّياسي قوله:

"...اذا سدّت بوجه الشعب جميع السبل الديمقراطيّة فلابدّ انذاك من اللجوء الى استعمال القوّة...". [مذكرات الجادرجي/ص 210]، [حسين جميل/المصدر...ص 255]

وفي مجال نظريّة (الثورة) و (استعمال القوّة) لتحقيق هدف اسقاط نظام مستبد واقامة نظام ديمقراطي، لابدّ من الاشارة الى ما جاء في مذكرّة كامل الجادرجي التي قدّمها الى اللجنة الاداريّة المركزيّة للحزب الوطني الديمقراطي عام 1950 باعتباره زعيم الحزب ومفكره، قال: "...انّ الاشتراكييّن الديمقراطييّن يعتبرون الثورة مشروعة لازاحة نظام حكم رجعيّ للمجيء بنظام تقدّمي على شرط ان تكون الوسائل الديمقراطية متعذرة... واذا كانت الضرورة تحتم النضال ضدّ الاستبداد والدكتاتوريّة وانظمة الحكم غير الديمقراطيّة لانّه الطريق الوحيد

المتيسّر في مثل تلك الحالات، فانه عند وجود حياة ديمقراطيّة حقيقيّة فانّ كلّ شيء يجب ان يكون براي الاغلبيّة ورضائها، اي بالطريق الديمقراطي فقط...". [حسين جميل/الحياة النيابيّة... ص 256]، [كامل الجادرجي/من اوراق كامل الجادرجي/ص141-140].

ولم يختلف محمّد جعفر ابو التمّن في وجهة نظره عن الجادرجي حول تبريره لاسناده العمليّة الانقلابيّة عام 1936.فقد عرف عنه انّه سبق وان جاهد، طيلة حياته السّياسيّة منذ مطلع القرن العشرين، من اجل انشاء نظام ديمقراطي برلماني تعدّدي وتحقيق الاستقلال التام للعراق. وقد ضحى بالكثير الغالي مادّيا ومعنويّا، مثلما عانى العذاب النفسي والبدني خلال سنين الاغتراب والنفي عن وطنه مابين التشريد في الدول المجاورة والنفي الى جزيرة هنجام الموحشة من اجل تحقيق قيمه و تمنيّاته لوطنه وشعبه. لقد كان بامكانه ان يعيش في نعيم اسرته الموسرة وخير تجارته الناجحة الرّابحة، ولكنّه ابى كلّ ذلك واختار اتباع رسالة الصّفوة الوطنيّة في خدمة العراق وارساء القواعد السّليمة لبناء العراق الجديد يكون فيه شعبه صاحب الامر والنهي عبر دستور دائم وبرلمان منتخب وحياة ديمقراطيّة سليمة. كما فهم الديمقراطيّة منهجا عادلا للحكم يقوم اساسا على مبدا احترام الحكومة لراي الشعب وارادته، كما فهمها انها ترسّخ العدالة في توزيع الثروة وانصاف الفقراء لا سيّما الفلاحين الذين يشكلون الغالبيّة العظمى من الشعب العراقي. ولهذه الاهداف ومن اجل العراق رأينا ابا التمّن يتقبّل مباديء "الشّعبيّة" ويتحمّس لها، بل واصبح عنصرا رئيسيّا فاعلا بين قياديّي جماعة الاهالي.انّ اخلاق جعفر ابو التمّن لا سيّما صراحته وشجاعته في التعبير عن الرّاي وميله لاسلوب الحوار البنّاء المكشوف لا ينسجم مع اسلوب التآمر في الخفاء واعداد انقلاب عسكري للوصول الى السّلطة. ولهذه الاسباب كان اشتراك ابو التمّن في انقلاب بكر صدقي عام 1936موضع استغراب الباحثين والمتخصّصين في السّياسة العراقيّة.

لقد عبّر جعفر ابو التمّن منذ الايّام الاولى للانقلاب عن وجهة نظره حول مشاركته في انقلاب 1936 لجميع ابناء العراق في خطاب له من دار الاذاعة جاء فيه:

".. انّ الظروف الاستثنائيّة التي اضطرّت المخلصين من اخوانكم الى ان يتكاتفوا ويتعاضدوا وضباط الجيش الاشاوس، هي وليدة سياسة الحكومة الطاغية التي تجاوزت حدود الحكام المستبدّين في تجاوزاتها غير القانونيّة وتحدّيها دستور البلاد. فاستهانت بالدّماء التي اهرقت، وتفننّت في اضطهادها الحريّات، فخنقت الصّحف الحرّة قبل ان تنشر، ولاحقت الاحرار من ابناء البلاد اينما ساروا وحيثما توجّهوا. فمضى على البلاد عهد لم تعهده من قبل هذا العهد، عهد الاحكام العرفيّة الذي ملئت فيه السّجون بابناء البلاد اخوانكم لأقلّ شبهة.."

"... وليت طغيان الحكومة البائدة واجراءاتها الجائرة كانت في سبيل اصلاح عام، ولكنّها ان تكن لتامين اتباع سياسة التحزّب، وتقديم المحسوبين عليها والمنسوبين اليها، وتحقيق المصالح الشخصيّة، والمنافع الذاتيّة، ذلك ممّا زاد في الاستياء العام، وسخط الجمهور العراقي،

وتقريب ساعة الانفجار والانفراج معا، ودعا قوّاد القوّة الاصلاحيّة الوطنيّة الى ان يطلبوا الي جلالة الملك المعظّم دعوة فخامة السيّد حكمت سليمان الى تأليف الوزارة تحقيقا لرغبات الشّعب ونزولا عند الرأي العام العراقي، لعلم قوّاد القوّة الاصلاحيّة بما تجشّمه حكمت واخوان حكمت من المتاعب والتضحيات، وما لاقوه من الاضطهادات والاهانات في سبيل مصالح البلاد...". [جريدة الاهالي/7/11/1936]، [حسين جميل/ الحياة النيابيّة.../ص 257]

امّا حكمت سليمان وهو من الصّفوة السّياسيّة المتميّزة في الكفاءة الاداريّة وشؤون الحكم، فلم يشعر بايّ حرج، ولم يتردّد لحظة في الدّفاع عن مساهمته الفعّالة في التخطيط والتدبير الذي اقتضاه تنفيذ انقلاب بكر صدقي عام 1936. فبالاضافة الى واقع انحداره من اسرة تركيّة ارستقراطيّة لعبت دورا مهمّا في تدبير وتنفيذ انقلابات البيت العثماني وتغيير سلاطينه، فهو سياسي مؤمن بضرورة تدخل الجيش بالسّياسة من اجل تحقيق اهداف سياسيّة تخدم الدّولة والمجتمع.

انّ حكمت سليمان من المدرسة السّياسيّة التركيّة المتزمّتة التي تؤمن بحكم "صفوة المجتمع" التي قد تجيز وجود البرلمان والانتخابات النيابيّة، الا انها هي التي ترسم خط سيره وبرامج اعماله. والانقلاب العسكري في رأيه ضرورة لاحداث التغيير ضمن برنامج ومنهج قد يكون جزءا من فقراته وجود برلمان. ففي مقابلة صحفيّة مع حكمت سليمان اجراها معه الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك (صاحب كتاب المحرّرون - بيروت 1937/ص 72 - 75) واعادت نشرها صحيفة الاحرار اللبنانيّة - اعداد 22،22، -23/11/1936 كما نشرته جريدة الحارس في بغداد عدد 28/11/1936 صرّح فيها حكمت سليمان ما يلي:

" ... يجب احداث انقلاب، والانقلاب امّا ان يكون سلميّا وامّا ان يكون ثوريّا..."

ومما قاله ايضا في المقابلة:

"... ولكنّ وسائل الانقلاب الدّستوريّة،اي الوسائل الديمقراطيّة القانونيّة مفقودة، فالمجلس النّيابي صنيعة الوزارة، الفته من اخصّائها وانصارها ومحاسيبها، والاجتماعات العامّة ممنوعة، وصحف المعارضة مسدودة (معطلة) والجواسيس في كلّ مكان.. وكلما اجتمع ثلاثة كانوا موضع الظن والاشتباه، واذا دعوت بعض المحامين الى شرب الشاي في منزلي، ألقوا القبض على بعضهم حال خروجهم من داري. فما عاد ضميري يطاوعني على دعوة لازجّهم في ظلمات السّجون..." ومما قاله ايضا " ... واخيرا بقي امامنا الانقلاب الثوري، ايش نعمل؟ الثورة اشكال، هل نحرّض القبائل كما هم حرّضوها؟ انّ هذه المجازفة المجرمة تنتهي الى هرق الدّماء العراقيّة بسلاح العراقيّن... وممّا قاله في المقابلة ايضا:

"... الجيش العراقي ايضا ضاق ذرعا بقمع الفتن، وفي اقلّ من سنتين نشبت ستّ ثورات في العراق...". وردّد ايضا قوله "...ايش نعمل؟ هل نقوم بمظاهرات شعبيّة لاسقاط الوزارة؟ انّ باستطاعة الوزارة ان تحصد الجماهير بالرّشاشات حصدا، اذا ايش نعمل؟، لم يبق امامنا

الا الالتجاء الى الجيش، الجيش ايضا من الامّة وللامّة، والجنود هم اخوة الملايين المظلومة المضطهدة، وضباطه اكثرهم يشعرون بشدّة الضّغط، ويتبرّمون بقتل الحرّيات فالتجانا الى الجيش وكان الجيش عند حسن ظننّا بتحسّسه وصدق وطنيّته، اتصلنا بالامرين (القادة) الذين نثق بجراتهم واخلاص وطنيّتهم واتفقنا معهم.[صوت الاحرار- بيروت- 22،23 تشرين الثاني 1936] [جريدة الحارس – بغداد 28/11/1936].

كيف تمّ تنفيذ الانقلاب العسكري

في صباح يوم 29 تشرين الاوّل/اكتوبر1936 م وقع اوّل انقلاب عسكري في العراق (وكان ايضا الاوّل في المنطقة العربيّة). ومن اذاعة بغداد قرا الزّعيم الوطني محمّد جعفر ابو التمّن البيان (الاوّل) للانقلابيّين عن الجيش (القوّة الاصلاحيّة) والذي بيّن فيه الحيثيّات والمبرّرات التي دفعتهم لذلك. وكان جلّ محتوى البيان، نقد لاذع لحكومة ياسين الهاشمي ووعود باجراء اصلاحات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة بعد الاطاحة بها.

وبسبب الموقف المتساهل للملك غازي الاوّل من الحركة الانقلابيّة (بحيث بدا وكانّه مؤيّدا لها بينما لم يكن له لا حول ولا قوّة لديه)، وبسبب ما جاء ببيان الانقلاب من تجريح وهجوم شديد على الوزارة، قدّم ياسين الهاشمي رئيس الوزراء استقالته للملك الذي قبلها فورا وكلّف حكمت سليمان بتشكيل الوزارة الجديدة وبذلك نجح الانقلاب في تحقيق هدفه الاوّل الرئيسي. وفي مساء يوم الانقلاب اذاع رئيس الوزراء الجديد، حكمت سليمان، اسماء اعضاء مجلس وزرائه وهم:

1 - حكمت سليمان رئيس الوزراء ووزيرا للدّاخليّة

2 - محمد جعفر ابو التمّن وزيرا للماليّة

3 - كامل الجادرجي وزيرا للاقتصاد والمواصلات

4 - يوسف ابراهيم وزيرا للمعارف

5 - الفريق الرّكن عبد اللطيف نوري وزيرا للدفاع

6 - صالح جبر وزيرا للعدليّة

7 - د. ناجي الاصيل وزيرا للخارجيّة

انّ اهم ما يلاحظ على اعضاء الوزارة هوانّ جميعهم يمثلون مجموعة تنظيم الاهالي (ما عدا الفريق الرّكن عبد اللطيف نوري الذي اختصّ بوزارة الدّفاع، والدكتور ناجي الاصيل لوزارة الخارجيّة). كما يلاحظ انّ قائد الانقلاب والرّجل الاوّل فيه (الفريق الرّكن بكر صدقي) لم يتخذ لنفسه ايّ منصب وزاري او لقب كقائد للانقلاب مفضلا موقعه الرّسمي كرئيس لاركان الجيش.

وفي اليوم الثاني من نجاح الانقلاب صدرت الارادة الملكيّة في 31 تشرين الاوّل/اكتوبر تقضي بحلّ مجلس النوّاب والبدء بانتخابات جديدة لاختيار نوّاب جدد. وعلى الرّغم من انّ هذا الاجراء لا يجيزه الدّستور العراقي انذاك، الا انّه لم يلق اعتراضا من ايّة جهة سياسيّة (ربما لانّ الجميع قد مارسوا ذلك سابقا؛ فحكمت سليمان قد حلّ مجلس النوّاب الذي جاء ت به وزارة الهاشمي، والهاشمي سبق له وان حلّ مجلس النوّاب الذي جاءت به وزارة علي جودت الايّوبي، والايّوبي قام بحلّ مجلس النوّاب الذي جاءت به وزارة ناجي شوكت..وهكذا...)، حتى وكانّ مسالة حلّ المجلس النيابي اصبح حقا مشروعا وتقليدا بعد كلّ تشكيلة وزاريّة جديدة رغم مخالفته للدستور.اذ [تنصّ الفقرة الثانية من المادة الاربعين من القانون الاساسي (الدستور) على انه: "...اذا حلّ مجلس النّواب لامرٍ ما فلا يجوز حلّ المجلس الجديد من اجل ذلك الامر.."،]

الانتخابات الجديدة وارادة الناخبين

منذ ان حُلّ مجلس النّواب في 31/10/1936 أخذت الصّحف اليوميّة تناقش موضوع الانتخابات القادمة، فبعضها (جريدة الاهالي) طالبت (بانتخابات مباشرة لكي يعبّر الشعب عن حريّة ارادته وينتخب ممثليه الحقيقيّين)، [الاهالي 11/11/1936]. وحينما اصدر وزير الداخليّة امرا ببدء الانتخابات في 2/12/1936، واصلت صحيفة "الاهالي" مطالبتها بضرورة اجراء الاصلاحات والمطالب السيّاسيّة لا سيّما... ان تكون الانتخابات مباشرة.." وان تكون "..الدائرة الفرديّة وحق التنظيم السّياسي والنقابات..... وان يعلن الذين يرشّحون انفسهم للنيابة وجهة نظرهم ازاء المشاكل العامّة، وما ينوون ان يحققوه للشعب من خدمات في المجلس النيابي...". [جريدة الاهالي 11/11/1936، جريدة الحارس وجريدة الاهالي اعداد 2 – 25/1/1937م – جريدة الحارس صاحبها ومديرها المسؤول المحامي مكي الجميل احد اعضاء الهيئة المؤسسّة لجمعيّة الاصلاح الشعبي التي انبثقت عن جماعة الاهالي، اصبح وكيلا لوزارة الشؤون الاجتماعيّة في حكومة عبد الكريم قاسم في14 تموز 1958.

لم يستطع جماعة الاهالي ان يحققوا ايّ مطلب من مطاليب الاصلاح التي وضعوها في منهجهم على الرّغم ممّا بذلوه من جهود اعلاميّة. وبقيت طريقة الانتخابات التقليديّة هي المتّبعة.لذا حينما جرت الانتخابات في 20 شباط/فبراير1937، وفق قانونها السّائد انذاك (قانون انتخاب النوّاب لسنة 1924). وعلى الرّغم من التعبئة والتهيئة والغطاء السّياسي، الا انّ النتيجة لم تأت لصالح مجموعة حكومة الانقلاب. اذ لم تحصل على المقاعد في مجلس النّواب الجديد من مجموع مائة وخمسة نوّاب الا الاسماء التالية:

1 - محمد جعفر ابو التمّن (عن لواء بغداد)

2 - كامل الجادرجي (عن لواء الحلة)

3 - محمد حديد (عن لواء الموصل)

4 - عبد القادر اسماعيل (عن لواء بغداد)

5 - عزيز شريف (عن لواء البصرة)

6 - حكمت سليمان (عن لواء ديالى)

7 - صادق كمونة (عن لواء كربلاء)

8 - يوسف عز الدين ابراهيم (عن لواء كركوك)

9 - مكي جميل (عن لواء ديالى)

10 - عبد الجبار الملاك (عن لواء البصرة)

11 - نعمة المنصور (عن لواء البصرة)

12 - ذيبان الغبّان (عن لواء الكوت)

13 - محمّد الجرجفجي (عن لواء المنتفك)

هذا وقد قلّ عددهم الى اثني عشر نائبا حينما عيّن جعفر ابو التمّن عضوا في مجلس الاعيان [الوقائع العراقيّة/عدد 1559/في 8/3/1937][حسين جميل- الحياة النيابيّة/ ص277].

كما انتخب ايضا من جماعة الاهالي الاستاذ صادق كمّونة نائبا ثانيا لرئيس المجلس الاستاذ فخري جميل وهو ليس من جماعة الاهالي، وهذه النتيجة تؤكد اهميّة وعدالة نظام الانتخاب واخذ راي الجمهور الذي يرفض اسلوب الانقلابات ومفاجأتها.

ديمقراطيّة "جماعة الاهالي"

على الرّغم من انّ "جماعة الاهالي" قد رفعوا بحماس شعار تطبيق الديمقراطيّة، الا انّهم كانوا اوّل من سعى الى تحقيق اهدافهم عن طريق غير ديمقراطي بحجّة انّه الطريق السّريع والحاسم (بالانقلاب العسكري) لاجراء التغييرات في العراق الحديث. وكذلك بهدف اجراء اصلاحات شاملة على كافة الاصعدة و تطويره نحو الافضل حسب ادعائهم. الا ان الصّفوة التي نظّرت وقادت التغيير لم تعط للنظام السّياسي الديمقراطي وللمؤسسّات المطلوبة له اهميّة حقيقيّة عند التطبيق. فمنذ بدء تحرّكهم سلّموا زمام امورهم بيد الجيش الذي قام بالتغيير واصبح بذلك صاحب السّلطة الفعليّة في النظام الجديد.

لقد سبق وان حذر الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم رفاقه قادة التغيير (جماعة الاهالي) من خطورة زجّ الجيش بالسّياسة وتنبأ لهم "...انّ قبولهم مبدا تدخل الجيش بالسّياسة سيوقعهم بأيدي قادته وسيكونوا في قبضته وتحت رحمته.وانّهم بفعلهم ذلك يدمّرون الحركة ويتحمّلون مسؤوليّة ذلك..". [مقابلة المؤلف مع الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم في بغداد عام 1980]

انّ الدّعوات المثاليّة والمقالات النظريّة على صفحات الجرائد والخطب الحماسيّة داخل البرلمان لم تستطع تغيير الواقع انذاك؛ اذ لم يكن هنالك شعب معبّا ومسلّحا بارادة قويّة تطالب بتحقيق الاهداف الاصلاحيّة التي ينادي بها "جماعة الاهالي" انذاك. وقد اكد الاستاذ كامل الجادرجي ذلك في مذكراته: "... ومنذ البداية بدا اتجاهان مغايران في المحيط السّياسي الجديد؛ الاتجاه الاوّل

اتجاه يميني دكتاتوري كان يمارسه بكر صدقي...امّا الاتجاه الثاني والمغاير للاتجاه الاوّل فهو التطرّف اليساري عند كثير من التقدّميين..". [كامل الجادرجي/ المذكرات – ص44 – 45]، [حسين جميل/الحياة البرلمانيّة في العراق/ص272].

انّ هذا الفهم للوضع انذاك لم يكن وليد ساعته. وانّ سياسيّا قياديّا قديرا كالجادرجي لا يخفى عليه نزعات السّياسيّين وطموحات العسكريّن وتعاليهم على المدنيّن وعنادهم وعدم مرونتهم في مواجهة المعضلات علما انّه (الجادرجي) يعرف تماما انّ ما قام به الفريق الرّكن بكر صدقي بفلاحي الفرات الاوسط من مذابح وبزعماء عشائرهم (ابطال ثورة العشرين الكبرى) من احكام عرفيّة، رغم علمه ببساطة الفلاحين ومن هو الذي قام بتحريضهم قبل عام تقريبا من الانقلاب. كذلك كان الاستاذ الجادرجي يعلم جيّدا بتفاصيل ما قام به بكر صدقي والقوّات العسكريّة التي كانت بامرته في تلك الفترة تقريبا من مذابح في كردستان العراق (لا سيّما في قرى الاشوريّن). كلّ ذلك السّجلّ الدمويّ القاسي لا يمكن ان يكون رصيدا ديمقراطيا لبكر صدقي والمجموعة العسكريّة التي كانت حوله ليجعله الاستاذ كامل الجادرجي (والصّفوة التي كانت تقود جماعة الاهالي) بين عشيّة وضحاها قائدا للقوّة الاصلاحيّة التي ستقيم النظام الديمقراطي التعدّدي الذي يحترم ارادة الشعب والنظام الانتخابي الحر وانتقال السّلطة عبر صناديق الاقتراع.

انّ اشارة الجادرجي الى "التطرّف اليساري عند الكثير من التقدميين" لا يعفيه من مسؤوليّة رعايته لهم رغم علمه بشيوعيّتهم ونزعتهم المتحمّسة نحو اقامة نظام معادي للديمقراطيّة (دكتاتوريّة البروليتارية). انّ يوسف متي وعبد القادر اسماعيل البستاني كانا يلهبان مشاعر القرّاء بمقالاتهما المتشنّجة وبالاراء المتطرّفة في صحيفة الاهالي التي اشتهرت بمقالات وباراء كانت تستفزّ مشاعر شرائح هامّة وفاعلة في مجتمع تغلّبت عليه الرّوح القوميّة والاسلاميّة على هويّته الوطنيّة العراقيّة. وقد اثبتت السّنوات فيما بعد ان كليهما (متي والبستاني) من كبار قادة الحزب الشيوعي العراقي السرّي.(كان عبد القادر اسماعيل المسؤول عن شؤون جريدة الاهالي انذاك،وكان يوسف متي يشاركه في مسؤوليّة الجريدة واستمراريّة التحرير والكتابة فيها). [حسين جميل/الحياة النيابيّة../ص273].كما اصبح عبد القادر اسماعيل بعد 14 تّموز 1958 صاحب امتياز ورئيس تحرير صحيفة اتحاد الشعب لسان حال الحزب الشيوعي العراقي السرّي. ومن الأوجه الاخرى لقلق الصّفوة العراقيّة هو اعتماد غالبيّتها النزعة التوفيقيّة التصالحيّة على حساب الحزم وضرورات التمسّك بالعدل ومتطلّبات الثبات

على المبدا. يقول حسين جميل عن كامل الجادرجي ".. بانّ حكمت سليمان قد اخبرهم انّ بكر صدقي ورفاقه العسكريين قد اتصلوا بهم وأقسموا يمين الجمعيّة السرّية التي الفّها جماعة الاهالي على اساس مباديء الشعبيّة ورغم ذلك فانّ بكر صدقي بعد نجاح الانقلاب سرعان ما تنكرّ لجماعة الاهالي واتخذ موقف المناويء لهم، ذلك لانه - وهو ينزع الى ان يكون الحاكم الفرد للعراق - لم يكن ليرتاح من وجود هيئة عقائديّة منظّمة في الحكم، وقد كان يقدر انها لو فسح لها مجال العمل فانّ ذلك سوف يوسّع قاعدتها الشعبيّة ويزيد التفاف الناس حولها ويوطدّ مركزها في المجتمع وفي الحكم، مما يجعلها عائقا مهمّا امام ما كان يعتزم لنفسه من مركز ينفرد به في الحكم.." [حسين جميل/المصدر..ص273] وهذا تبرير ضعيف اخر يقدمه الرّجل الثاني في حزب الجادرجي حول اعتمادهم على الدكتاتوريّة لاقامة الديمقراطيّة وكانهّم يجهلون قوانين واقع انّ من يمتلك قوّة التغيير يمتلك السّلطة وقبضتها الضاربة. وكانهم ايضا يتجاهلون طموحات ضابط كبير مثل بكر صدقي ومجموعته العسكريّة وهم يعيشون عقليّة سنين الثلاثينيات وهي سنين دكتاتوريّات أتاتورك في تركيا وفرانكو في اسبانيا وهتلر في المانيا وموسوليني في أيطاليا ورضا شاه في ايران وسالازار في البرتغال والفاشيّة في اليابان. انّ كامل الجادرجي يمثل جيل السّياسييّن الذين يطمحون ان يحقّقوا لانفسهم زعامة شعبيّة عريضة عن طريق رفع الشعارات ذات الامال الخلابة والرؤية الرومانسيّة لتحقيق نظام سياسي مثالي في مجتمع كان لا يزال ينوء باثقال اربعة قرون عثمانيّة متخلفة على ظهره.

خلاف بين الصّفوتين: العسكريّة والمدنيّة

اوّلا: وقف الفريق الركن بكر صدقي موقف المناويء لمباديء جماعة الاهالي قبل شروعه بتنفيذ الانقلاب حينما رفض ان يؤدي القسم على مباديء الشعبيّة في اوّل اجتماع له مع زعماء الاهالي في بيت كامل الجادرجي (حينما انتحى بحكمت سليمان على جانب وتهامس معه ببعض الكلمات التركيّة لبضع دقائق وانصرف مودعا ومعتذرا) [كامل الجادرجي/ المذكرات - ص31].

لقد كان ذلك التصرّف من بكر صدقي كاف لخلق اوّل تصدّع في صفوف جماعة الاهالي حينما احتجّ عبد الفتاح ابراهيم على سلوك بكر صدقي ودخل في حوار ساخن مع حكمت سليمان كان سببا لانسحابه نهائيّا من التنظيم الذي كان هو من نظمه وبناه.

ثانيا: في منتصف تشرين الثاني1936 اعترض بكر صدقي على مباديء "جمعيّة الاصلاح الشعبي" التي اسسّها جماعة الاهالي على الرّغم من انّ منهاجها كان معتدلا وطلب اجراء تغيير في مبادئها وتركيبتها، وقد ايّده في ذلك حكمت سليمان رئيس الوزراء انذاك.

ثالثا: كان حكمت سليمان، رئيس الوزراء، ميّالا الى احتواء طلب بكر صدقي القاضي باحداث تغيير في منهاج الجمعيّة عن طريق قلب جمعيّة الاصلاح الشعبي الى حزب عام

يساعد رجال الانقلاب في مسك زمام الامور(على طريقة الاحزاب الفاشيّة). وقد قبل الفريق بكر صدقي بذلك على مضض ارضاء لحليفه حكمت سليمان، الا انّه وضع احد رجاله داخل لجنة وضع المنهاج الجديد المقترح، وهو المحامي سلمان الشيخ داود. [مذكرات كامل الجادرجي/المصدر/ص45] وقد لاقى المقترح قبولا، ومع ذلك بقيت الامور تدار مباشرة من قبل حكمت سليمان وبكر صدقي.

لم تكن الخلافات بين قيادات الصّفوتين (العسكريّة والمدنيّة) اللتين توليّتا الحكم امرا مفاجئا للمراقب العارف بواقع السّياسة العراقيّة؛ اوّلا لانها خلافات بين خطّين فكريّين سياسيّين متعارضين لا يلتقيان. وثانيا انّ الخط الاوّل (بقيادة الفريق بكر صدقي وحليفه حكمت سليمان) يملك القوّة العسكريّة التي تحسم الامور بالسّلاح في حالة وصول الخلاف الى طريق مسدود. وامّا الجهة الثانية فهي لا تملك القوّة سواء كانت مسلحة (استخدام الجيش في السّياسة) او بقوّة شعبيّة معبّاة بما تنادي له من مباديء وافكار. لذا كان الاختلاف متوقّع والجفاء بينهما حتميّ الوقوع.

ذكر زعيم الاهالي الاستاذ كامل الجادرجي في مذكرّاته انه منذ ربيع (نيسان)1937 توصّل الى قرار الاستقالة من منصب الوزارة وانّه قدّمها فعلا الى رئيس الوزراء حكمت سليمان، الا انه لم يعرضها على مجلس الوزراء لاتخاذ قرار بشانها. كما ذكر الجادرجي نصّ صيغة اخرى لاستقالة له قدّمها في 26/5/1937 الى حكمت سليمان ايضا، الا انّها بقيت معلقة. ويذكر الجادرجي انّ اهمّ ما جاء فيها انّ الامال التي كان جماعة الاهالي يعلقون عليها لاصلاح الوضع السّياسي واجراء تغيير في النظام السّياسي تغييرا جوهريّا الا انهم وجدوا انّ الامال التي كانوا يصبون اليها لم تتحقق ولم تتغيّر الاوضاع السّابقة تغييرا جوهريّا. ويذكر الجادرجي ايضا بانّ هذه الاستقالة هي الاخرى بقيت بحوزة رئيس الوزراء حكمت سليمان.[كامل الجادرجي/المذكرات – ص45]

وعلى ايّ حال ومهما كتب الجادرجي وجماعة الاهالي مبرّرين مساهمتهم بالانقلاب العسكري، فانهم لا يستطيعون نفي حقيقة انهم ارتضوا لانفسهم ان يكونوا غطاءا سياسيّا لانقلاب عسكري لم تحدّد بعد حقيقة موقفه من مستقبل النظام السّياسي الديمقراطي ومؤسسّاته المنشودة.

الاستقالة الجماعيّة

لقد ازدادت حدّة التوتر والخلافات بين اركان النظام الجديد بمرور الايّام، واصبح الافتراق بين زعمائه قاب قوسين او ادنى متخذا شكل الاستقالة الجماعيّة للاسباب التالية:

اوّلا: انّ السبب المباشر الذي افصح عنه المستقيلون هو عدم رغبتهم في البقاء في تحمّل المسؤوليّة بعد قيام حكومة حكمت سليمان بارسال قطعات عسكريّة الى منطقة الفرات

الاوسط (السّماوة) وضرب القرى الزراعيّة وعشائرها بقسوة بسبب تمرّدها على الحكومة.

ثانيا: استمرار تدخل الفريق بكر صدقي في شؤون مجلس الوزراء وكذلك في التعيينات وفي سّياسة الدولة على الرّغم من انّ موقعه الرّسمي هو (رئيس اركان الجيش). ووصل تدخله حدّا انه كان يحضر جلسات مجلس الوزراء. كما اخذ يمس شؤون جمعيّة الاصلاح الشعبي ومنهاجها لا سيّما حينما رشّح احد اعوانه (المحامي سلمان الشيخ داود) ليكون عضوا قياديّا فيها. وحينما واجه بعض الاعتراضات من قبل جماعة الاهالي سواء داخل مجلس النوّاب او خارجه، اخذ يتهمهم بالافكار الشيوعيّة وهو سلاح لطالما كانت تشهره الانظمة المتسلطة والفاشية انذاك بوجه دعاة الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي.

ثالثا: بسبب المواقف السّلبيّة لرئيس الوزراء ولقائد الانقلاب بكر صدقي من جماعة "جمعيّة الاصلاح الشّعبي" وعدم وضعهم موضع الاعتبار بشكل علني. لذا حينما جرت الانتخابات النّيابيّة الجديدة وبالاسلوب القديم، لم يستطع جماعة الاهالي ضمان دخول اكثر من ثلاثة عشر نائبا فقط في مجلس النّواب الجديد ثمّ اصبح عددهم اثني عشر نائب فقط بعد ان عيّن محمد جعفر ابو التمّن في 8/3/1937 عضوا في مجلس الاعيان.[جريدة الوقائع العراقيّة الرّسميّة عدد1559- - في 8/3/1937].

رابعا: تعرّض قيادة جمعيّة الاصلاح الشعبي وبقيّة زعماء جماعة الاهالي وفي مقدّمتهم ابو التمّن الى حملة اتهامات عنيفة وحتى اتهامه بالتطرّف (الشيوعي)، فتولدّ ازاء ذلك حالة استقطاب وتوترّ شديدين بين كتلة تدّعي لنفسها صفة الدّيمقراطيّة والتقدّم وحبّ التطوّر وطلاب الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي، وهي كتلة جماعة الاصلاح الشعبي. واخرى التفّت عناصرها حول حكمت سليمان وبكر صدقي واخذوا يثيرون لديهما مخاوف التطرّف وتغلغل الشيوعيّة ومعاداة الاسلام والعروبة. وفي مقدّمتهم المحامي داود السّعدي نائب عن لواء الكوت الذي امتازت خطبه داخل البرلمان بالمبالغة والتجريح والتجاوز على الخصوم لا سيّما دعوته "ضرورة الوقوف بوجه الخطر الشيوعي". ومثله الاستاذ روفائيل بطي (نائب في مجلس النوّاب وصاحب جريدة البلاد التي سخرّها لخدمة بكر صدقي واهدافه وطموحاته) وكذلك المحامي سلمان الشيخ داود (نائب في مجلس النوّاب)، [محاضر مجلس النوّاب العراقي/جلسة 29/12/1937 – ص8 – 12].

خامسا: توتر الجوّ السّياسي وتوجيه ضغوط نفسيّة كبيرة على قيادات جماعة الاصلاح الشعبي سواء داخل مجلس النّواب (حينما انقطع نوّاب جماعة الاهالي عن حضور جلسة 6/6/1937) وخارجه، كما حصلت بعض التجاوزات والاعتداءات ضدّهم من قبل عناصر تدّعي الانتساب لتيّارات قوميّة عربيّة واسلاميّة. كلّ ذلك جعل وجود وعمل الوزراء الاربعة صعبا ان لم يكن مستحيلا على كافة الاصعدة، لا سيّما موقف رئيس الوزراء وكذلك قائد الانقلاب الذي شعروا به انه غير متعاون ان لم يكن معاد لهم، فكان لابدّ لهم من الاستقالة.

وبعد المداولة واستعراض الاوضاع، اقترح محمد جعفر ابو التمّن على زملائه الوزراء من

جماعة الاهالي ان يستقيلوا سويّة، فقدّموها في 19 حزيران/يونيه1937 برسالة مختصره هذا نصّها:

"...فخامة رئيس الوزراء.. لما كانت اماني البلاد التي طالما ضحّينا في سبيل تحقيقها حرصا على سعادة ابناء البلاد ورفاههم واطمئنانهم وتامين العدل بين الجميع، قد حيل دون تحقيقها والتدابير الحكيمة السّليمة التي قرّرناها في سبيل استقرار البلاد والتي اجمع الرأي العام على تحبيذها، وتوخيّ الجميع حسن نتائجها، فقد شاءت الاقدار الا ان تنعكس الاية فتهرق دماء ابناء البلاد ضحيّة لتصرّفات بقيت مكتومة علينا لولا شيوع استهجانها في كثير من الاوساط. ولانّ التمّادي في اتباع السّياسة المحسوسة والاندفاع اليها لا يتفق مع السّياسة الرّشيدة الواجب على المخلصين اتباعها فلم يبق لنا ايّ امل في الاشتراك في المسؤوليّة. ولذلك قدمّنا استقالتنا مع الاحترام."

هذا وقد وقّعّ الاستقالة كلّ من:

محمد جعفر ابو التمّن وزير الماليّة

كامل الجادرجي وزير الاقتصاد والمواصلات

يوسف عزالدين ابراهيم وزير المعارف

صالح جبر وزير العدليّة

تصاعد الخلافات وسقوط حكومة الانقلاب:

ممّا لا شكّ فيه انّ الاستقالة الجماعيّة كانت النتيجة الحتميّة بعد وصول الخلافات ذروتها بين الكتلتين المختلفتين داخل مجلس الوزراء الذي جاء به العسكريّون بزعامة بكر صدقي. وقد سببّت تلك الاستقالة الجماعيّة ردّ فعل كبير معاكس ضد حكومة حكمت سليمان وأفقدتها شرعيّة وجودها نظرا لشعبيّة المستقيلين وابتعاد جماعة الاصلاح الشعبي عنها مثلما كشْف بيان الاستقالة زيف ادّعائها بالاصلاح الذي وعدوا به الشعب برمّته.

كانت الحكومة التركيّة قد دعت الفريق بكر صدقي لزيارة تركيا لحضور مناورات الجيش التركي فغادر بغداد في 11 اب/اغسطس1937 في طريقه الى هناك عبر مدينة الموصل ولم يمضي على على الانقلاب سوى عشرة اشهر. واثناء استراحته في حديقة المطار، تمّ اغتياله بمسدّس من خلف راسه، كما اغتيل رفيقه المقدّم محمد علي جواد امر القوّة الجويّة الملكيّة العراقيّة الذي كان جالسا بجانبه وحاول مسك الجاني.(مذكرات سندرسن باشا/المصدر.../ ص192)

كان لحامية الموصل وامرها الفريق الرّكن محمّد امين العمري دور في منع اجراء التحقيق من قبل وزارة الدّفاع في بغداد، فقد اعلن عن قيام حكومة عسكريّة في الموصل مستقلة

عن بغداد، وطالب باستقالة حكومة حكمت سليمان فورا. كما رفض تسليم بعض الضبّاط والمراتب الذين استقدموا الى بغداد وقام بقطع علاقة حاميته مع بغداد واصدر بيانا بهذا الشان بتاريخ 14 اب/اغسطس1937 موقعا باسمه. وفي بغداد اعلن آمر قوّة بغداد (في معسكر الوشاش) العقيد سعيد التكريتي تأييده الى حامية الموصل في موقفها. فما كان امام حكمت سليمان ازاء تأزم الاوضاع غير الاستقالة، فقدّم استقالته الى الملك في 17/8/1937 وقبلت، ثمّ كلّف الملك غازي الاوّل جميل المدفعي بتأليف وزارة جديدة لتعيد الامور الى وضعها الطبيعي.

ما بعد الانقلاب العسكري الاوّل

كان لنجاح انقلاب بكر صدقي في اسقاط وزارة ياسين الهاشمي القويّة عام 1936 الأثر الاوّل في ظاهرة استمراريّة تدخل الجيش العراقي في السّياسة وخرقه للدستور. وكذلك في نشوء كتل سياسيّة داخل مؤسسّاته منذ وقت مبكر من عمره الفتيّ الذي لم يتجاوز الخمسة عشر سنة انذاك. فبعد ان كان الجيش اداة بيد السّياسيّين القدامى يستغلّونه لاغراضهم السّياسيّة الخاصّة (كما حدث في سنين 1933 – 1935) اثناء قمع تمرّد العشائر الكرديّة/ الاشورية في الشمال، والعربيّة في الفرات الاوسط والجنوب، اصبح السّياسيّون المدنيّون منذ انقلاب بكر صدقي سنة 1936 اداة بيد الكتل العسكريّة المتسيّسة داخل الجيش. ومثلما قادت مجموعة الفريق بكر صدقي والفريق عبد اللطيف نوري انقلاب 1936 ووزارة حكمت سليمان، قامت مجموعة عسكريّة اخرى تدين بالولاء لافكار القوميّة العربيّة بتدبير انقلاب عسكري داخل المؤسسّة العسكريّة حيث دبّروا ونفّذوا في الموصل مؤامرة اغتيال الفريق بكر صدقي وحليفه المقدّم محمّد علي جواد قائد القوّة الجوّية كما مرّ بنا سابقا.

كان على راس المجموعة الجديدة الفريق الرّكن محمد امين العمري (امر منطقة الموصل) والعقيد سعيد التكريتي امر معسكر الوشّاش في بغداد والعقيد الرّكن صلاح الدّين الصّباغ الذي كان يشغل مدير الحركات العسكريّة ومعاون رئيس اركان الجيش في بغداد ثمّ صار قائدا للفرقة الثالثة، والعقيد فهمي سعيد قائد القوّة الاليّة والعقيد محمود سلمان امر القوّة الجوّية والعقيد كامل شبيب قائد الفرقة الاولى. هذه المجموعة هي التي قادت العراق الى احداث مايس 1941 م الشهيرة كما سنرى فيما بعد.

انّ المجموعة العسكريّة التي تولّت اغتيال بكر صدقي وتصفية جماعته ورفضت اطاعة اوامر حكمت سليمان رئيس الوزراء مما ادّى الى استقالتها. توجّهت نحو الملك غازي الاوّل وطلبت منه تكليف جميل المدفعي لتشكيل الوزارة خلفا لحكمت سليمان. [مذكرات صلاح الدّين الصبّاغ/فرسان العروبة في العراق/دمشق 1956 ص 67 – 68].

وحينما اراد جميل المدفعي العودة بالبلاد الى حكم البرلمان واطاعة الدستور والقانون

وابعاد الضباط عن بغداد كاجراء احتياطي، طلب قادة المجموعة العسكريّة (وكان المفاوض هو العقيد الرّكن صلاح الدّين الصبّاغ) من الملك غازي الاوّل ان يتخلى جميل المدفعي عن الوزارة ويعهد بتشكيلها الى نوري.[مذكرات صلاح الدين الصبّاغ/ص68 – 95].وبناء على ما تقدّم فبامكاننا القول:

كان سقوط انقلاب 1936 نهاية المرحلة الاولى، وبداية مرحلة جديدة من تدخل الجيش في الشؤون السّياسيّة في العراق،كما اصبح قدوة للعسكريين العرب لتدبير الانقلابات مثلما اشار ذلك الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر في كتاباته عن (ثورة يوليو). لقد اراد جميل المدفعي ان يلعب دورا توفيقيّا بهدف العودة بسفينة الدولة الى شاطيء النظام والشرعيّة الدستوريّة والى سلطة مجلس النوّاب والى تقوية سلطة الحكومة المدنيّة وهيبة القانون. فحينما استقالت وزارة حكمت سليمان في 17/8/1937، وألّف المدفعي الوزارة في اليوم ذاته، امر بحلّ مجلس النوّاب فيي يوم 26/8/1937. وجاءت تبريرات حلّ المجلس ضمن نصّ الارادة الملكيّة التي اشارت الى انّ: "...الوزارة عازمة على اتخاذ التدابير اللازمة لتوطيد دعائم الطمأنينة في البلاد، وذلك لضمان تقدّمها مادّيا وادبيّا، وحيث انّ ذلك يتوقف على اتخاذها خططا تتفق وهذه الغاية، فقد شعرت بلزوم الوقوف على راي الامّة بواسطة ممثلين تنتخبهم لهذا الغرض...". [الوقائع العراقيّة – عدد1589 في 30/8/1937].

لقد اجريت الانتخابات للمجلس النيابي الجديد في 18/12/1937. وبنفس الاساليب التي اتبعتها الحكومات السّابقة. ومما يجدر ملاحظته انّ (جماعة الاهالي) امتنعت عن المساهمة بالانتخابات المذكورة باعتبارهم القاعدة السّياسيّة للحكومة التي جاء بها انقلاب بكر صدقي و "..للاسباب نفسها التي دعتهم الى اتخاذ الموقف السّلبي من الانتخابات النيابيّة من قبل – عدا الانتخابات التي اجرتها وزارة حكمت سليمان – وقد بيّنا من قبل انّ اشتراكهم في هذا الانتخاب كان لظرف خاص هو انهم شركاء في العهد السّياسي الذي قام به انقلاب 29 تشرين الاوّل 1936.

وبقي موقف جماعة الاهالي من الانتخابات والمجالس النيابيّة هذا الموقف السّلبي نفسه الى ان تالف الحزب الوطني الديمقراطي في نيسان 1946 م.." [حسين جميل/الحياة النيابيّة في العراق 1925 – 1946،ص 353]. انّ هذه شهادة لاحد ابرز قادة الحركة الديمقراطيّة في العراق (الاستاذ حسين جميل) وكانّ القاعدة هو الاشتراك في انتخابات مضمونة النتائج سلفا. وانّ الهدف هو الفوز بالانتخابات مهما كانت الاساليب والطرق والا فلماذا يجوز لهم (مجلس نوّاب 31/10/1936) مالا يجوز لغيرهم؟ ولماذا لم يغيّر قانون الانتخابات في عهدهم نحو الاحسن وبقي النظام القديم حتى شهر نيسان 1947م. وبسبب مقاطعة جماعة الاهالي للانتخابات، فانه لم يستطع احد منهم ان يدافع او يناقش ما سيطرح في المجلس الجديد.

عودة المبعدين من خارج العراق

كانت حكومة الانقلاب (وزارة حكمت سليمان) قد قرّرت ابعاد كل من رئيس الوزراء السّابق، ياسين الهاشمي ووزير خارجيّته نوري السّعيد ووزير داخليّته رشيد عالي الكيلاني الى خارج العراق. وكان في مقدّمة ضحايا ذلك الانقلاب وزير الدّفاع في وزارة الهاشمي وصهر نوري السّعيد الفريق الرّكن جعفر باشا العسكري، وانّ الذي ارتكب جريمة قتله ضابط غرّ صغير العمر والرّتبة في السّاعات الاولى من يوم الانقلاب كما اشرنا سابقا.

وبعد الاطاحة بحكومة انقلاب بكر صدقي وبدء انعقاد مجلس النوّاب الجديد اولى جلساته في 23/12/1937 ظهرت بوادر الدّعوات للاقتصاص من رجال العهد السّابق واجراء تحقيق بالجرائم وبالتجاوزات والخروقات وفضحهم. الا انّ رئيس الوزراء الجديد، جميل المدفعي، اراد اتباع سياسة تهدئة الخواطر و"..توطيد دعائم الطمأنينة والاستقرار في البلاد..." [نصّ الارادة الملكيّة في 26/8/1937 بحلّ مجلس النوّاب].الا انّ عددا من النوّاب، سواء بدافع شخصي او بتحريض من جهة معيّنة، قاموا بشنّ حملات شديدة على وزارة حكمت سليمان السّابقة وعلى رجالاتها لا سيّما التأكيد على شعار(محاربة الشيوعيّة). [محاضر مجلس النوّاب - جلسة 29/12/1937].

وعلى صعيد الجيش، اخذ الضبّاط القوميّون - وعلى راسهم العقيد صلاح الدين الصبّاغ وبتحريض من مجموعة نوري السّعيد - يعملون على اسقاط وزارة جميل المدفعي حتى نجحوا في ذلك بتاريخ 24/12/1938. وقد روى العقيد الصبّاغ في مذكراته قصّة اسقاط وزارة المدفعي كالاتي:

"...تحدّث معي الملك غازي بالهاتف ليلة ارغم الجيش وزارة جميل (المدفعي) على الاستقالة وقال لي "ياصلاح الدين لقد استدعيتم جميلا على متن طيارة من لبنان بعد مقتل بكر(صدقي) ليرأس هذه الوزارة، وكان ذلك خلاف رغبتي، فماذا تريدون الان؟.." وانّه – اي صلاح الدين الصبّاغ – اجابه: نريد الوفاء بالعهد، وقد حنث جميل بعهوده، وقسّمت وزارته الجيش الى معسكرين. ونحن يا سيّدي طوع يدك، ونبذل ارواحنا في سبيلك..."، واضاف الصبّاغ انّ الملك قال له: اقبل الاستقالة يا صلاح الدين بشرط ان لا يأتي نوري بعده، وانا أوافق على اسناد الوزارة لايّ رئيس باستثناء نوري (السّعيد) فاجابه صلاح الدين " .. ولكنّ نوري هو المطلوب يا سيّدي بعد ان رفض طه رئاسة الوزارة..!!. " [حسين جميل – الحياة النيابيّة../المصدر.. ص151]، [مذكرات صلاح الدّين الصبّاغ/ص95]،[مذكرات طه الهاشمي/ج1/ص291 – 298]،[مذكرات توفيق السّويدي/ص306 – 308]، [تاريخ الوزارات العراقيّة ط - 5/ج5/ص45 – 49]. وهكذا نرى هنا مرّة اخرى كيف اسقط الجيش وزارة المدفعي ونصّب وزارة نوري السّعيد خارج اطار الاجراءات الدستوريّة. كما نرى ايضا مدى بساطة الملك والاسرة المالكة الهاشميّة وتواضعها في التعامل مع رعيّتها والخوف الذي كان يشعر به الملك غازي من نوري السّعيد.

خلاف السلطة مع القضاء العراقي

ألّفَ نوري السّعيد وزارته في 25/12/1938، وقد بدا عمل وزارته بتأجيل جلسات مجلس النّواب شهرا اخر بعد التأجيل الاوّل الذي قام به سلفه جميل المدفعي في 1/12/1938. وبعد انتهاء مدّة التأجيل انعقدت اولى جلسات مجلس النوّاب في 20/2/1939 وكان من ضمن مواد الجلسة دراسة التقرير الذي قدّمه نائب الكوت الاستاذ داود السّعدي حول (جرائم معيّنة) يعاقب عليها القانون واهم ما جاء في التقرير هو:

1 - اصدرت وزارة جميل المدفعي قانون منع الدعايات المضرّة رقم 20 لسنة 1938 والمادّة الرّابعة فيه تجيز لمجلس الوزراء منع ايّ شخص من الاقامة في مكان او امكنة معيّنة داخل العراق وجعل الشخص تحت مراقبة الشرطة. ومما تجدر الاشارة اليها ان [قرّرت المحكمة العليا بعد ذلك –بالاكثريّة– عدم دستوريّة هذه المادّة لانها اناطت بمجلس الوزراء سلطة هي من سلطات القضاء حصرا بموجب القانون الاساسي. [الوقائع العراقيّة/العدد - 1739 في 18/9/1939]، [حسين جميل/الحياة البرلمانيّة... المصدر- ص152]

2 - قامت وزارة المدفعي بالقبض عليه (داود السّعدي) وكذلك على النائبين رشيد عالي الكيلاني وعبد الوهاب محمود وأبعدت الآخيرين الى اماكن متفرّقة من العراق.

3 - قيام عناصر من حكومة المدفعي بتحرّي دار المحامي النائب داود السّعدي وفتشوا بيته دون اذن من حاكم التحقيق وهذه جريمة يعاقب عليها القانون بموجب المادة 224 من قانون العقوبات انذاك. وكذلك وفق المادة 115 منه.

4 - قيام حكومة المدفعي بمراقبة تلفون مسكن النائب السّعدي وكذلك بعض مراسلاته وكان هذا العمل ايضا يخالف المادة 15 من الدّستور ويعتبر جريمة يعاقب عليها بموجب المادة (112) من قانون العقوبات انذاك. وعلى الرّغم من طلب النائب داود السّعدي احالة وزارة جميل المدفعي رئيسا وأعضاءا للمحاكمة، الا انّ نتيجة تصويت مجلس النوّاب على هذا الطلب جاء بالرفض من قبل 76 نائبا وواحد فقط كان موافقا(وهو صاحب الطلب)، وغاب عن الحضور 35 نائبا.

حلّ مجلس النوّاب

اصدر الملك غازي الاوّل ارادته الملكيّة بحل مجلس النوّاب السّابق في 22/2/1939 من اجل "...ان يسود التأزر بين السلطتين التشريعيّة والتنفيذيّة..." وان "...الظروف التي تجتازها البلاد في الوقت الحاضر تتطلب اعمالا اصلاحيّة هامّة تستدعي وجود تآزر بين السّلطتين مما يمكّن الوزارة من القيام بها.." وانّ "...الوزارة غير شاعرة بهذا التآزر بينها وبين المجلس النّيابي الحاضر...". وبموجب الارادة الملكيّة انحلّ مجلس النوّاب وأخذت المملكة تستعد لاجراء انتخابات عامّة. لقد كانت الاجواء مشحونة بالمخاوف من انتقام نوري السّعيد من

قتلة صهره المرحوم جعفر العسكري ومن بقيّة خصومه، وكان الملك الشاب غازي الاوّل يعيش في تلك الايّام اصعب ساعاته القلقة وفي خوف مستمرّ بسبب تواتر الانباء عن وجود مؤامرة على حياته لقتله والتخلّص منه لاسباب عديدة ذكرها كتّاب سيرته فيما بعد، ثلاثة منها رئيسيّة وهي:

الاول: عدائه للمشروع الصّهيوني واسناده المادّي والمعنوي للعمل الجهادي في فلسطين.

والثاني: كرهه الشّديد للانكليز ولاصدقائهم شيوخ وامراء الكويت والبحرين وال سعود ودعوته العلنيّة بحق سيادة العراق التاريخيّة على الكويت باعتبارها جزءا من اراضيه.

والثالث: وهو المباشر؛ محاولته الاتصال بدول المحور الالماني - الايطالي بهدف كسر طوق احتكار بريطانيا تسليح الجيش العراقي (وبذلك كانت اوّل محاولة في المنطقة لكسر طوق احتكار التسليح من جهة واحدة)، واختفاء حقيبة بكر صدقي (ساعة اغتياله في الموصل) والتي كانت تحتوي على اوراق وتقارير غاية في السريّة ومنها رسالة من الملك غازي الى هتلر والحكومة الالمانيّة وطلبه شراء السلاح في وقت كان العالم على ابواب الحرب العالميّة الثانية.

هذا عدا (اذاعة اللاسلكيّة الخاصّة) التي كان الملك غازي الاوّل قد نصبها في قصره (قصر الزهور) منذ عام 1937 وكان يذيع فيها ما شاء بنفسه ويهاجم بشكل رئيسي بريطانيا والصّهيونيّة وشيوخ وامراء دول الخليج العربي بمشاعر وحماس الشباب دون اعتبار لمتطلبات السّياسة وضرورات الحكم والظرف الدّولي الخطير (بوادر نشوب الحرب العالميّة الثانية).

تتابع الاحداث الخطيرة - مقتل الملك غازي الاوّل

بينما كان العراق يستعد لاجراء الانتخابات العامة التي اصرّ على إجرائها رئيس الوزراء نوري السّعيد، فوجيء العراقيّون والعالم بنبأ مقتل الملك غازي الاوّل في يوم 4/4/1939م بحادث اصطدام سيّارته التي كان يقودها بنفسه بسرعة شديدة والادعاء بأنّ سببِ وفاته هو سقوط عمود كهربائي على راسه بينما كان على مقربة من قصره. ولان ولده ووليّ عهده فيصل الثاني كان طفلا صغيرا، فقد دعي اعضاء مجلس النوّاب المنحل الى الاجتماع يوم 6/4/1939 للموافقة على قرار مجلس الوزراء في اختيار الامير عبد الإله بن علي بن الحسين (ملك الحجاز سابقا) وهو ابن عمّ الملك غازي وخال وليّ العهد الطفل فيصل الثاني، وصيّا على العرش العراقي ريثما يبلغ فيصل الثاني السّن القانوني لتسلمّ العرش، تطبيقا لحكم المدة 22 من الدستور العراقي.

وبسبب التغيير الذي طرا على رئاسة المملكة قدّم نوري السّعيد رئيس الوزراء استقالته ثمّ كلفه الوصي عبد الإله باعادة تأليفها فالفها في 18/4/1939 وضمت الاعضاء السّابقين لمجلس الوزراء المنحل.

اغتيال رستم حيدر

بينما كان محمد رستم حيدر وزير الماليّة في مكتبه في ديوان وزارته، دخل عليه مفوض شرطة مفصول يدعى حسين فوزي توفيق واطلق عليه النار من مسدسه في يوم 18/1/1940 وتوفي يوم 22/1/1940. (مذكرات رستم حيدر/بيروت/ط 1/ص 77). وقد وصف نوري السّعيد رستم حيدر بانّه "من اعظم رجال العراق والعرب، واصدقهم وطنيّة وابرزهم كفاية وأنصعهم ماضيا..". كما وصفه سندرسن باشا طبيب العائلة المالكة بانّه.." من اقدر ابناء العراق المختارين، وهو رجل له سحره الطاغي، ولقد كنت اكنّ له الودّ العميق..". (سندرسن/ المصدر/ص190). لقد كان محمد رستم حيدر من المقرّبين جدّا للملك فيصل الاوّل في فترة ملوكيته في سورية وجاء معه الى العراق وصار اول رئيس للديوان الملكي وساهم مع الصّفوة الشريفيّة في بناء المملكة العراقيّة. دفن في المقبرة الملكيّة في بغداد بالقرب من ضريح الملك الراحل فيصل الاوّل. وقد تحدثنا عن سيرته سابقا كواحد من المع واخلص افراد الصّفوة الشّريفيّة التي ساهمت في بناء العراق الحديث.

استقالة وزارة نوري السّعيد

ازاء تطوّر الاوضاع وما خلفّه انقلاب بكر صدقي من نتائج سيّئة، لم يرق لنوري السّعيد البقاء في الحكم، فقدّم استقالته الى الملك في 18شباط 1940م. وقد اشار في استقالته الى انقلاب بكر صدقي الذي سبق وان حدث في 29 تشرين الاوّل 1936 واصفا ايّاه بالمؤامرة، كما هاجم فيها رجال الانقلاب لانّهم: "..عرّضوا البلاد لاعظم الاخطار وحرموها من خيرة رجالها..."، مشيرا بذلك الى مقتل صهره جعفر باشا العسكري وزير الدّفاع على يد الانقلابيّين. كما هاجم سياسة الوزارة التي سبقته (وزارة جميل المدفعي) واصفا ايّاها بانّها كانت على خطا باتباعها سياسة "...اسدال الستار والتساهل في المؤامرة الاولى، فقد افسح المجال مجدّدا لهذه السّياسة عينها وعملت الرّافة عملها في خفض عقوبات القائمين بالمؤامرة الثانية [المقصود بالمؤامرة الاولى اتهام نوري السّعيد لحكمت سليمان بانّه وجماعة الانقلاب كانو قد اعدّوا خطة لقتل الملك غازي وكبار رجال الدّولة سويّة في اليوم الاوّل. امّا المؤامرة الثانية فيقصد نوري السّعيد بها ان سياسة التساهل وتبديل عقوبة الاعدام التي اصدرها المجلس العسكري ضدّ حكمت سليمان واخرين شجّعهم للقيام بتنفيذ المؤامرة الثانية وهي تنفيذ اغتيال وزير الماليّة محمد رستم حيدر] [جريدة الاستقلال عدد 21/2/1940] [حسين جميل/الحياة النيابيّة...ص95]

لم يخفي نوري السّعيد تصميمه على تنفيذ الاجراءات القانونيّة بحق منفذي انقلاب 193 حين قال: "...ارى انني اكون مقصّرا بواجبي اذا لم انزل عند رغبات الرأي العام الملحّة في اتخاذ تدابير حاسمة للمحافظة على سلامة المملكة وتامين سيرها الطبيعي نحو اهدافها

السّامية التي خطّها لها مؤسّسها فيصل الاوّل...". ولكي يعيد تشكيل وزارته من الوزراء الذين ينسجمون مع ارائه واهدافه فقد قرّر الاستقالة في 21/2/1940،ولما كنت اعتقد انّ استقالتي من منصبي مما يفسح المجال لتحقيق رغبات الامّة ويساعد على تامين المصلحة فانني ارفع استقالتي.." [جريدة الاستقلال 21/2/1940].وكما يبدو من تسلسل الاحداث فانّ هناك اتفاقا بين نوري السّعيد والوصي على العرش الامير عبد الإله، فبعد استقالة السّعيد باربعة ايّام كلّف الامير عبد الإله نوري السّعيد تشكيل الوزارة الجديدة. ويلاحظ من المقارنة بين الاعضاء القدامى والجدد، فانّ نوري السّعيد استبعد بالتشكيل الجديد كلا من ناجي شوكت وزير الداخليّة السّابق ومحمود صبحي الدفتري وزير العدليّة السّابق لمعارضتهما بشدّة التصديق على احكام الاعدام التي صدرت بحق حكمت سليمان وعدد من رجالات انقلاب بكر صدقي وقد نجحا فعلا في ابعاد تصديق وتنفيذ احكام الاعدام بحقّ المجموعة المذكورة، وخففّت احكام الاعدام الى السّجن.

انتقاد استقالة وزارة نوري السّعيد الرّابعة

كانت اهداف استقالة وزارة نوري السّعيد الرّابعة واضحة لدى العديد من اعضاء البرلمان بمجلسيه (النوّاب والاعيان)، الا انّ عددا محدودا منهم ابدى وجهة نظر محدّدة او تعقيبا صريحا

حول ذلك. واشهرهم كان النائب عبد المهدي المنتفكي – نائب المنتفك – والشيخ عبّود الهيمص – نائب الحلة. وقف السيّد عبد المهدي المنتفكي في مجلس النوّاب وقال:

"...قرانا استقالة فخامة السيّد نوري السّعيد في الصحف العراقيّة وسمعنا مضامينها من الاذاعة العراقيّة، فكانت الاستقالة هذه في حدّ ذاتها وحسب ما ورد فيها استقالة فريدة في بابها اذ انّها جاءت باسباب ما جاءت بها الاستقالات السّابقة لوزراء الدولة السّابقين. كل هذا وقع والمجلس منعقد وكنا نأمل ان يكون المجلس قبل وقوع هذه الاستقالة المهيبة الرّهيبة الفريدة في بابها على علم بذلك ويناقش هذه الاسباب ويخوض في هذه المواضيع التي خاض فيها رئيس الوزراء في استقالته. ولكن ويا للاسف لم يفتح هذا الموضوع قبل ان تقرا الاستقالة فبقي معظم النوّاب وهم ينتهزون الفرصة التي تمكنهم من الخوض في هذا الموضوع حتى اذا ما اعيد اسناد منصب رئاسة الوزراء الى رئيسها السّابق فخامة نوري السّعيد راوا انّ الواجب المحتّم عليهم يقضي بان يفتحوا الموضوع في اليوم الاوّل الذي يعلن فيه تأليفها في المجلس وفي هذه الجلسة قد اعلن تأليفه ولكن اعلن ورئيس الوزراء لم يكن حاضرا فانا بدوري كنائب اراني مكلفا بواجباتي النيابيّة اسال من الوزراء الحاضرين هل في امكانهم اجابة النوّاب على هذا الامر؟ امر الاستقالة وامر التعيين اللذين لا يزالان غامضين؟ واذا كان في نيّتهم هذا " فانا اسالهم انّ الاستقالة عرفنا اسبابها او بعض اسبابها

من كتابها فنودّ ان نعرف على ايّ استناد كانت عودة الوزارة الى الحكم؟ وما هو منهاجها وما هي الخطة التي ستتبعها؟ وهل يصحّ ان نعتبر كتاب الاستقالة هو منهاجها وكما هو الواجب ان يكون؟.." [محاضر مجلس النوّاب – محضر جلسة 25/2/1940 – ص160]

واوضح عبود الهيمص نائب الحلّة بانه واعضاء المجلس قد: "...سمعنا من فخامة رئيس الوزراء نوري السّعيد مرارا بانّه يرغب في تركيز الحياة النيابيّة وتوطيدها، ولكنّ هذا المجلس لا يعلم شيئا عن امر استقالته قبل وقوعها وقراناها في الصّحف ووجدنا فيها حقائق مرّة وتفصيل دواعي تلك العواصف الهوجاء الخطيرة التي مرّت على البلاد.." [محاضر مجلس النوّاب – جلسة 24/3/1940/ص 266].

تآمر الصّفوة على وزارة نوري السّعيد الخامسة

في اليوم الرّابع من استقالة نوري السّعيد، عهد الوصيّ على عرش العراق الامير عبد الإله الى نوري السّعيد ليشكل الوزارة فقدّمها له في 22/2/1940 واصبح طه الهاشمي فيها وزيرا للدّفاع (وهو شقيق ياسين الهاشمي رئيس الوزارة التي اسقطها انقلاب بكر صدقي). ولم يشرك نوري السّعيد بوزارته الجديدة كلّ من عارض احكام الاعدام الصّادرة بحقّ بعض قادة انقلاب بكر صدقي عام 1936 كما أشرت سابقا. ومع انّ بعض قادة الجيش وفي مقدمتهم العقيد صلاح الدّين الصّباغ هم الذين فرضوا على الوصي عبد الإله تكليف نوري السّعيد رئاسة الوزارة، الا انهم انفسهم قد تواطئوا مع رشيد عالي الكيلاني وبتدخلات تآمريّة من مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني (الذي كان لاجئا في العراق انذاك) لدى قادة الجيش، شعر نوري السّعيد بضرورة الانسحاب من مسؤوليّة رئاسة الوزارة فاستقال عارفا انّ الجيش يريد رشيد عالي لرئاسة الوزارة.وفعلا قدّم استقالته في 31/3/1940، وحينما اصبح رشيد عالي الكيلاني رئيسا للوزراء دخل نوري السّعيد فيها وزيرا للخارجيّة وطه الهاشمي وزيرا للدفاع.

وزارة الكيلاني وحركة مايس - 1941

استمرّت وزارة رشيد عالي الكيلاني في الحكم ما يقارب عام واحد (من 31/2/1940 لغاية 30/1/1941) حينما بدا العراق يشهد احداثا خطيرة كان لها ابعد الأثر على مستقبله ومستقبل ابنائه من شتى النوّاحي، كما غرست تلك الاحداث احقادا دفينة اثرّت سلبيّا على مستقبل النظام الملكي الدستوري برمّته في العراق.

بدات الوزارة الكيلانيّة عملها بالتشهير وبمعاقبة اعضاء وزارة انقلاب بكر صدقي لا سيّما بعزم واصرار اثنين قد وترتهم احداث الانقلاب المذكور وهما: وزير الخارجيّة نوري السّعيد (صهر جعفر العسكري الذي قتله الإنقلابيّون)، ووزير الدفاع (طه الهاشمي شقيق ياسين

الذي اطاح بوزارته الانقلابيّون). والواقع يمكننا اضافة عامل اقوى من الدّوافع الشخصيّة والمصالح الخاصة (رغم اهميّتهما) وهوانّ شخصين قديرين ورجلا دولة (مثل نوري وطه) كانا يضعان مصلحة المملكة العراقيّة ومؤسسّاتها فوق كلّ اعتبار شخصي او عاطفي رغم اهميّة ذلك، ولانّ كليهما من صفوة قادة الثورة العربيّة وبناة العراق الحديث وكانا يريان في الانقلابات طيشا ومغامرة مضرّة وخروجا على الشرعيّة الدستوريّة، وتفريطا برجال وبكفاءات نادرة كان العراق وشعبه، وهو في مرحلة البناء، بامسّ الحاجة اليها كجعفر العسكري وياسين الهاشمي ومحمد علي جواد قائد القوة الجويّة الملكيّة العراقيّة واخرين.

كانت حملة الفضح والتشهير بحكومة حكمت سليمان وحليفه الفريق بكر صدقي قد بدات داخل مجلس النّواب وتناولت وقوع مخالفات قامت بها وزارة الدفاع في عهد الانقلاب 1936/1937 في عمليّة شراء اسلحة للجيش، واصاب التشهير ثلاث شخصيّات هي: رئيس الوزراء السّابق حكمت سليمان ووزير دفاعه الفريق عبد اللطيف نوري، ورئيس اركان الجيش وقائد الانقلاب الفريق بكر صدقي. كان التحقيق قد بدا في عهد وزارة نوري السّعيد الخامسة كما اشرنا الى ذلك سابقا. وحينما جاء رشيد عالي الكيلاني كرئيس للوزارة، نوقش الموضوع داخل مجلس النوّاب اعتمادا على تقرير اعدّته وزارة الكيلاني.

الازمة مع بريطانيا

ظهرت بوادر لازمة حقيقيّة تلوح في الافق بين بريطانيا والعراق حينما طرحت حكومة رشيد عالي الكيلاني داخل مجلس النّواب مسالة موقف العراق من ايطاليا بعد اعلان الاخيرة الحرب على بريطانيا انتصارا وتحالفا مع المانيا النازيّة.

وحينما ناقش مجلس النوّاب العراقي في جلسته المنعقدة في 30/1/1941 ذلك كان لابدّ من الاخذ بعين الاعتبار العلاقات العراقيّة - البريطانيّة والازمات التي مرّ بها العراق داخليّا وخارجيّا وتنامي الشعور المعادي لبريطانيا والذي جذرّته ثورة العشرين الكبرى وعموم الحركة الوطنيّة العراقيّة في احساس العراقييّن بجود هيمنة بريطانيّة مباشرة (او غير مباشرة) على الدّولة العراقيّة سواء قبل او بعد دخول العراق عصبة الامم كدولة مستقلّة. كما كانت اصابع الاتهام تشير الى انّ بريطانيا كانت وراء الموت المفاجيء الغامض للملك المؤسسّ فيصل الاوّل وكذلك الحادث الغامض الذي ادّى الى مقتل ولده الشاب الملك غازي الاوّل ذو الشعبية الواسعة بين كافة مكوّنات الشعب العراقي لا سيّما في الجيش العراقي، بالاضافة الى نشاط السّفارة الالمانيّة في بغداد المعادي لبريطانيا.

وبسبب ما تقدّم، كان الرأي العام العراقي بشكل عام مشحونا ومعبّا ضدّ بريطانيا، وقد زادت المشاعر اشتعالا قضيّة فلسطين ومعاناة الشعب الفلسطيني وما تقوم به العصابات الصّهيونيّة داخل المدن والقرى من مذابح ونشاطات ارهابيّة برعاية ودعم من حكومة

الانتداب البريطاني في فلسطين. يضاف الى ذلك اخبار وصول موجات متتابعة من اليهود المهاجرين ضمن مخطط تنفيذ وعد بلفور البريطاني في انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بعد ارهاب اهلها وتشريدهم بشتى الوسائل. وقد نجح مفتي القدس الحاج امين الحسيني، الذي كان يسكن في بغداد انذاك، في ممارسة نشاطاته العربيّة والاسلاميّة والدوليّة. وبسبب ظروف الحرب العالميّة الثانية التي كانت مشتعلة انذاك لعب السفير الالماني في بغداد فريتز غروبا نشاطا متميّزا في نشر دعاية للفكر النازي وللفلسفة الاشتراكيّة الوطنيّة بين الضباط القوميّين العراقيّين الذين اقتنعوا باحتمال فوز دول المحور الالماني على بريطانيا وحلفائها. وكان لحياد تركيا في الحرب العالميّة الثانية اثرا كبيرا في تشجيع السّياسيّين العراقيّين وضباط الجيش المعجبين بنظام كمال أتاتورك دورا في محاولة حكومة الكيلاني التمرّد او التخلّص او الالتفاف على بنود معاهدة 1930 مع بريطانيا.

مراحل الازمة مع بريطانيا

اوّلا: حينما نشبت الحرب بين بريطانيا والمانيا في 3 ايلول 1939، كان العراق مرتبطا بقوّة مع بريطانيا. فقد كان للاخيرة معسكران جوّيّان داخل العراق (الشعيبة في البصرة والحبانيّة غرب بغداد).كما كان البلدان مرتبطين ببنود معاهدة التحالف السياسي والاقتصادي والعسكري والثقافي تلك (معاهدة 1930).

ثانيا: كان مركز العراق وموقعه الاستراتيجي يمسّ العصب الرئيسي للامبراطوريّة البريطانيّة انذاك من ناحية تامين مواردها من الطاقة البتروليّة من العراق ومن الدول المجاورة له (ايران ودول الخليج العربي بشكل رئيسي)، بالاضافة الى حماية خطوط المواصلات الامبراطوريّة لا سيّما مستعمرات بريطانيا في افريقيا واسيا (الشرّقين الاوسط والاقصى).

ثالثا: كان مركز القرار السّياسي الاقوى داخل العراق متمثلا في (الوصيّ على العرش الامير عبد الإله ونوري السّعيد وعلي جودت الايّوبي وبقيّة الصّفوة الشريفيّة) الذين يريدون ان ينفّذ العراق التزاماته التحالفيّة ويقف مع بريطانيا ضد دول المحور. بينما يرى رشيد عالي الكيلاني ووزرائه وبعض قادة الجيش بضرورة بقاء العراق محايدا. لذا حينما اجتمع مجلس الوزراء في 11حزيران 1940 للنظر بالموقف حيال ايطاليا التي دخلت الحرب الى جانب المانيا يوم 10/6/1940 انقسم مجلس الوزراء في الرأي، فقد طلب نوري السّعيد وزير الخارجيّة قطع علاقات العراق مع ايطاليا والمانيا فورا تنفيذا للمعاهدة. وقد ايّده بهذا الموقف محمد امين زكي وزير الاقتصاد. [مذكرات ناجي شوكت/سيرة وذكريات اربعين عاما/ ط3/ص388]

بينما كان رئيس الوزراء، رشيد عالي الكيلاني، يرى ان تتريّث حكومته في موضوع قطع العلاقات مع ايطاليا. ولكي يعزّز موقفه هذا فقد اصدر مجلس الوزراء العراقي بيانا هذا

نصّه:

"..انّ الحكومة العراقيّة متمسّكة بمعاهدة التحالف المنعقدة بينها وبين الحكومة البريطانيّة وماضية في وفائها لعهودها بروح مشبعة بالعطف والولاء...وتقوم بما يترتّب عليها من واجبات وفق احكامها لصيانة المواصلات والمنافع المشتركة العراقيّة – البريطانيّة في البلاد. وترى الحكومة العراقيّة في الوقت نفسه ان تتريّث في امر النظر في قطع الصّلات السّياسيّة بينها وبين ايطاليا..". [مذكرات ناجي شوكت/المصدر/ص -389 367].

رابعا: كان للسّفير البريطاني دورا مباشرا في رسم السّياسة الخارجيّة للعراق باسم المشورة والتعاون التي نصّت عليها معاهدة 1930 م لذا كان لقاؤه حازما مع رئيس الوزراء. ناقلا اليه "...دهشة الحكومة البريطانية من قرار مجلس الوزراء العراقي حيال ايطاليا..". وطالب بقطع العلاقات معها اسوة بمصر التي تربطها ببريطانيا معاهدة 1936، (الشبيهة بمعاهدة 1930 بين بريطانيا والعراق)، الا انّ رشيد عالي الكيلاني ردّ عليه انّه يؤيّد قرار مجلس الوزراء. والواقع انّ رئيس الوزراء في موقفه هذا كان معتمدا على عدد من كبار ضبّاط الجيش الذين جاؤوا به الى رئاسة الوزارة والذين كانوا يطلق عليهم بالمربّع الذّهبي وهم:

العقيد الرّكن صلاح الدّين الصبّاغ مدير الحركات في رئاسة اركان الجيش ومعاون رئيس اركان الجيش ثمّ صار قائدا للفرقة الثالثة. والعقيد فهمي سعيد قائد القوّة الجويّة والعقيد كامل شبيب قائد الفرقة الاولى.

لقد سعى رشيد عالي الكيلاني الى توطيد علاقته بالجيش منذ ان تأكّد بصورة قاطعة انّ الجيش قد اصبح الفيصل الحاسم في القرار السّياسي العراقي الدّاخلي بدءا منذ ان نجح في اخماد التمرّدات الداخليّة في شمال وجنوب العراق ووسطه في الثلاثينيّات. كما وصل الكيلاني ذروة نجاحه في التقرّب من الجيش عبر نفوذ الحاج محمد امين الحسيني مفتي فلسطين الذي هو الاخر قد بنى علاقات متينة مع كبار ضباط الجيش الذين كانوا يقدّمون مختلف انواع المساعدة والعون لشعب فلسطين وتدريب اعدادا من الفدائيين سرّا وكذلك ارسال بعض الاسلحة والتبرّعات الماليّة والعينيّة للمجاهدين الفلسطينيّن. لقد بقيت القضيّة الفلسطينيّة دائما تشغل بال الضبّاط القوميين في العراق. وبسبب ذلك نما لديهم شعور الكره والحقد على بريطانيا وعلى حلفائهم من السّياسيّين العراقيّن. وراوا في رشيد عالي الكيلاني السّياسي الذي يمكنهم ان يضعوه على راس الوزارة العراقيّة وتوصّلوا الى التفاهم معه على السّياسة التي يتطلعون اليها وعليه ان يتبناها اذا ما ساندوه ليكون رئيسا للوزراء خلفا لنوري السّعيد الذي استقال في 31/3/1940 كما أشرت سابقا.

ولقد اكّد رشيد عالي لهذه المجموعة العسكريّة انّه: "...على هذه الخطة اريد ان اسير ولن احيد عنها قيد شعرة، فاذا اتفقتم معي فهذي يدي امدّها لكم، وسماحة المفتي (الفلسطيني) هو كفيلي، واني اقسم على ذلك مقابل عهدكم لي بان تلزموا جانب الحق انّ الوصي ونوري وطه اتفقوا معي على هذه الاسس، فاذا توثقت منكم وقطعتم لي عهدا بان تلقى هذه الخطة

تاييدكم فانني ساقبل رئاسة الوزارة حالا متّكلا بعد الله عليكم..". [مذكرات صلاح الدين الصبّاغ/المصدر- ص67 68-].

الصّراع داخل الصّفوة الحاكمة

لقد حدث استقطاب واضح وشديد بين رئيس الوزراء الكيلاني وبين وزير خارجيّته نوري السّعيد اذ كان كلّ واحد على راس مجموعة من الصّفوة السّياسيّة الحاكمة؛ وكلاهما يمثلان مدرستين متناقضتين في ذلك الظرف الحسّاس وطنيّا ودوليّا حيث الحرب العالميّة الثانية في اوج اشتعالها. كان موقف نوري السّعيد جريئا وواضحا وصريحا منذ بدء الازمة ومؤيّدا من قبل الوصي على العرش. وبطبيعة الحال كان مؤيّدا من قبل السّفير البريطاني في بغداد.وهكذا ايضا كانت مواقف اعضاء مجلس الوزراء واعضاء البرلمان بمجلسيه (النواب والاعيان) حول المشكلة على طرفي نقيض ما بين مؤيّد ومعارض. فكان لابدّ للوصيّ على العرش من اتخاذ موقف واضح من المجموعتين وان كان ميّالا الى التخلص من رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء. فبدا يعرقل اعمال مجلس الوزراء بعدم اصدار الارادات الملكيّة بالمصادقة على ما كان يبعث اليه من قبل المجلس من القوانين والقرارات (كما هو مفروض وفق الاصول الدستوريّة).

وفي يوم 19 تشرين الثاني 1940 حضر وكيل الديوان الملكي الى مجلس الوزراء اثناء انعقاده وعرض على رشيد عالي الكيلاني - رئيس الوزراء - ان ينسحب من الوزارة. [مذكرات طه الهاشمي/المصدر- ص356 – 357]. وازاء الموقف الصّريح للوصي على العرش لاقالة رئيس الوزراء، فانّ اعضاء مجلس الوزراء يرون بانّ الوزارة مسؤولة امام البرلمان فقط ولا يقبلها او يبقيها غيره. لذا قرّر مجلس الوزراء ارسال وفد وزاري عالي المستوى لمقابلة الوصي عبد الإله وتقديم احتجاج له بسبب موقفه وتصرّفه غير المشروع. وقد قرّروا ان يضمّ الوفد كلا من رئيس الوزراء، رشيد عالي الكيلاني، وناجي السّويدي وطه الهاشمي. وفي ذلك اللقاء اخبر الوصي اعضاء الوفد بانه اذا ما اصرّت الوزارة على البقاء ولم تنسحب اذعانا لامره فانه سوف يحمّلها مسؤوليّة النتائج المترتبة على بقائها في الحكم. كما اعلم الوفد بانّه عند ذلك سيتصرّف بما يراه مناسبا تجاه قرارات مجلس الوزراء في القبول او الرّفض.

حركة مايس واعادة احتلال العراق

مع تصاعد نيران الحرب العالميّة الثانيّة والاجواء القلقة التي كانت غالبيّة دول أوروبا تعيشها بعد ان أصبحت تحت الاحتلال الالماني،ازداد الخوف البريطاني على امن مناطق نفوذها في العالم لا سيّما المناطق الاستراتيجيّة التي تشكل عصب الحياة لأوروبا عامّة

ولبريطانيا بشكل خاص؛ وخاصّة مناطق النفط في العراق وايران ومناطق الخليج العربي التي تمتلك شرايين الحياة لصناعتها وللالة الحربيّة الجبّارة لبريطانيا وحلفائها. ومن خلال تتبّع الباحث لسياسة تصعيد الازمة التي اتبعتها بريطانيا مع حكومة رشيد عالي الكيلاني فقد توصّل الى استنتاج منطقي وهو انّ بريطانيا في ذلك الظرف الدولي الدّقيق، ارادت التعجيل بوقوع الصّدام العسكري مع حكومة الكيلاني لكي تقوم باحتلال عسكري مباشر للعراق بعمليّة عسكريّة(سهلة جدّا بالنسبة لها) لتفرض واقعا جديدا يحقق كامل شروطها وتنفذ جلّ سياستها في العراق دون قيد او شرط او مناقشة.

فبوجود بريطانيا العسكري في العراق، وبمعرفتها التامة بالقدرة العسكريّة المتواضعة جدّا للجيش العراقي انذاك؛ الجيش الذي أنشاته ودرّبته وسلحّته وصنّعت جميع اسلحته واليّاته وطائراته (الصّغيرة الخمسة). بريطانيا التي لديها قوائم بعدد بنادق جيش العراق، وحتى عدد اطلاقاته وذخيرته والاقمشة التي كانت تصنع منه ملابس واحذية جنوده وضبّاطه وحتى نياشينه وراياته واعلامه وازرار معاطفها.

فمما لا شكّ فيه انّ بريطانيا كانت سعيدة بسوء تقدير الموقف وحماقة اصحاب القرار السّياسي المتطرّف بدخول العراق بحرب محسومة النتائج مقدّما وهي ان يصبح العراق بلدا محتلا بعد ان اخرجته الصّفوة الفيصليّة - الشريفيّة من بين فكيّ الاسد البريطاني ووضعته كاوّل بلد عربي مستقل وعضوا في عصبة الامم بالسّياسة الرشيدة وبحكمة الملك الرّاحل فيصل الاوّل واصحابه الدهاة.

فالعراق الذي نال استقلاله منذ دخوله عصبة الامم عام 1932، لم يكن محتلا من قبل بريطانيا اثر حرب مباشرة بين بريطانيا والعراق، بل انّ القوّات البريطانيّة قد دخلت بغداد عام 1917 اثر انتصارها على الدّولة العثمانيّة في الحرب العالميّة الاولى،وانّهم – على حدّ تعبير قائدها الجنرال مود – قد دخلوا بغداد محرّرين لا فاتحين وانّ خصومتهم كانت مع الاتراك وليس مع العراقييّن.

وحينما أنشات المملكة العراقيّة، اصبح ارتباط بغداد ببريطانيا تحدّدها شروط ومعاهدات واتفاقيات موثقة دوليّا بين دولتين متحالفتين (مهما احتوت من غبن واجحاف بحق العراق). فمن هذه الرّؤية الحكيمة كان الملك المؤسسّ فيصل الاوّل وصفوة السّياسيّين الذين التفوا حوله وتبنّوا سياسته، قد حافظوا على هذا الخيط الرّفيع من شرعيّة الوجود والاستقلال للدّولة العراقيّة الحديثة، ولطالما عانوا بصبر والام وتحمّلوا التضحيات من اجل العراق الوانا من اهانة وظلم الغريب والقريب وان كان (ظلم ذوي القربى اشدّ مرارة...)، حتى تمكنوا من بناء الدّولة العراقيّة الحديثة وترسيخ كيانها الاجتماعي والسّياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري باتباعهم سياسة قائدهم المؤسسّ فيصل التي لا مناص منها وهو شعار(خذ وطالب) الشّهيرة.

كانت بريطانيا تراقب تطوّرات موقف وسياسة حكومة رشيد عالي الكيلاني بقلق وحذر

شديدين. وكانت ترى مواقف حكومة الكيلاني وصحفها واعلامها غير ودّية تجاهها بل تعتبرها متعاطفة مع المانيا ودول المحور. لذا وخلال مناقشة الازمة داخل البرلمان العراقي زار السفير البريطاني في بغداد الوصي عبد الإله واخبره بصراحة وبموجب مذكرة رسميّة شفويّة انّ حكومته لا تثق برئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني وانّ سياسته تخالف معاهدة 1930. [طه الهاشمي/المذكرات..ج1/ص 368]. وحينما علم رشيد عالي الكيلاني بذلك، لم يأبه لخطورة المذكّرة وطرح الامر على مجلس الوزراء الذي كان ردّه بانّ ما قام به السّفير البريطاني ما هو الا تدخّلا في شؤون العراق الدّاخليّة..!!. [مذكرات طه الهاشمي/المصدر..ص 372 - 377].

استقالة جماعيّة اخرى

من مظاهر الاختلاف بين الكتل السّياسيّة العراقيّة وصراعاتها فيما بينها؛ استخدامها الاستقالة الجماعيّة بهدف احراج الحكومة القائمة والمختلف معها بهدف اضعافها ومن ثمّ اسقاطها؛ (كانت استقالة مجموعة الوزراء القوميّين في عهد عبد الكريم قاسم عام 1959 هي اخر استقالة جماعيّة لتحقيق غرض سياسي، اذ تحوّل نظام الحكم في العراق، منذ عام 1968 وحتى يوم الاحتلال المهين عام 2003 الى نظام حكم الحزب الواحد ودكتاتوريّة الحزب والفرد المطلقة الذي يحرّم الاستقالة).

كان الوصي على العرش ونوري السّعيد وطه الهاشمي وناجي شوكت وعمر نظمي واخرين يعلمون جيّدا انّ محاولة تنصّل حكومة الكيلاني من التزامات العراق تجاه معاهدة 1930 معناه بكل وضوح؛ الصدام المسلحّ مع بريطانيا (لا سيّما في ظل الظرف الدولي العصيب انذاك).

كما كانوا على يقين تام انّ ايّ صدام مسلح مع بريطانيا معناه ايضا الدّخول في معركة محسومة النتائج (اي الخسارة)، ومعروفة العواقب وهو وقوع الاحتلال. لذا قدّم نوري السّعيد استقالته في 19 كانون الثاني 1941، ثمّ تبعه في الاستقالة كل من: ناجي شوكت في 25 منه، وطه الهاشمي في 26 كانون الثاني 1941. وبينما كان الكيلاني يرغب بالتخلّص من نوري السعيد وناجي شوكت فقد طلب من الوصي قبول استقالتهما واصدار الارادة الملكيّة بذلك، الا انّ الوصيّ اصرّ على رفض الاستقالتين.

لجأ الكيلاني الى السيّد محمّد الصّدر رئيس مجلس الاعيان لكي يقنع الوصيّ بقبول الاستقالتين ففعل. وصدرت الارادة الملكيّة لتقضي بذلك، وباعطاء الوزارتين الشاغرتين الى كلّ من ناجي السّويدي (للخارجيّة) والى عمر نظمي (للعدليّة وكالة). وفي 26 كانون الثاني 1941 قدّم صادق البصّام وزير المعارف استقالته ثم تبعه ناجي السّويدي في 29 منه ممّا زاد من حراجة موقف حكومة الكيلاني.

مواقف الصّفوة من الشرعيّة الدستوريّة

يعتبر البرلمان العراقي منذ تأسيس المملكة العراقيّة، بمجلسيه النوّاب والاعيان، هو المرجع الاعلى والحَكم في امور السّياسة والحكم في العراق بموجب الدستور وباعتراف الملك وجميع السّياسيّين وصفوة التأسيس وعموم المجتمع.

وكان البرلمان العراقي ونصوص القانون الاساسي (الدّستور) هما السّند والقوّة الحقيقيّة والسّلاح بيد كلّ سياسي يحتج به امام الحكومة والقضاء العراقي وبشكل خاص احتجاج المعارضة داخل البرلمان وخارجه. وكان معلوما لدى الجميع انّ ايّ اضعاف للبرلمان ولهيبة الدستور هو اضعاف لجميع العاملين في السّياسة ولمؤسسّات النظام الدستوري- الديمقراطي. لذا فحينما بدا السّياسيّون بعد موت الملك فيصل الاوّل يتجاوزون على المؤسسّات الدستوريّة وعلى الديمقراطيّة ويتجاهلون عمدا دورها الاساسي، فهم بذلك قد اضعفوها بدل ان يعزّزوها ويقوّوا مواقعها ونفوذها في الحياة السّياسيّة والحكم. وهم ايضا بذلك قد اضعفوا انفسهم واحزابهم فوقعوا بنتيجة ذلك اسارى تسلّط المغامرين من ضباط الجيش،وصنعوا منه حاجزا قويّا بينهم وبين عامة الجماهير الذين هم مادة كلّ تحرّك وهم اصحاب المصلحة الحقيقيّة في كلّ تغيير نحو الافضل.

وممّا لا شكّ فيه انّ اضعاف المؤسسّات الديمقراطيّة وتوريط الجيش بالسّياسة هو تعطيل الجيش عن مهمّاته الاساسيّة، مثلما هو تعطيل بل الغاء دور ممثلي الشّعب (النوّاب) عن التعبير عن وجدان الامّة وعن خدمة مصالحها' كل حسب اختصاصه.

وبينما جعل رشيد عالي الكيلاني الجيش مرجعيّته ومنه تستمد وزارته شرعيّة وجودها، لجا الوصيّ عبد الإله ونوري السّعيد ومن حولهما يلوّحان بمبدا الشرعيّة البرلمانيّة ويدافعان عنها. ففي مساء 14 تموز 1941 وجّه الامير عبد الإله الوصي على عرش العراق خطابا الى الشعب العراقي قال فيه ما مضمونه بانّ وزارة رشيد عالي الكيلاني لم تعد تمتلك الشّرعيّة "...بسبب استقالة كافة الوزراء ولم يبق فيها الا القلّة.." استنادا الى المادة 64 من الدستور العراقي التي تنصّ على انّ وزراء الدّولة لا يقلّوّن عن ستة وزراء. ومضى الوصي بقوله انّه "...استدعيت رئيس اركان الجيش ومدير الشرطة واوضحت لهما الموقف وبيّنت لهما عدم مشروعيّة وزارة رشيد عالي واوصيتهما بعدم اطاعة الاوامر التي تصدر اليهما خلافا للقوانين المرعيّة الدستور...". [عبد الرزاق الحسني/تاريخ الوزارات العراقيّة/ج3 – ط5/ص 186 – 188].

وفي الوقت الذي اعلن فيه الوصيّ على عرش العراق وحلفاؤه تمسّكهم بالشرعيّة الدستوريّة، عقد رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني اجتماعا في ديوانه بتاريخ 27 كانون الثاني 1941 ضمّ كلا من العقيد فهمي سعيد والعقيد محمود سلمان وكامل شبيب وامين

زكي وكيل رئيس اركان الجيش وناقش معهم الموقف لا سيّما استقالة كل من وزير الدفاع طه الهاشمي والوزيرين صادق البصّام وعمر نظمي. طلب الكيلاني من الحضور التوسّط بينه وبين الوصي لكي يقبل استقالة الوزراء ويصدّر الارادة الملكيّة بذلك، واخرى بتسمية كلّ محمد يونس السبعاوي وعلي محمود بدل نوري السّعيد وناجي شوكت. وبدلا من ان تحلّ هذه الامور دستوريّا من قبل البرلمان وداخل مبنى البرلمان، اوفد الكيلاني بقيّة الحضور الى الوصي لاقناعه بقبول استقالة المستقيلين وتعيين البدلاء عنهم. الا انّ الوصي رفض بشدّة تدخل الجيش بالسّياسة وترك قاعة الاستقبال، الا انّ مجيء السّيد محمد الصدر في ذلك الوقت وتوسّطه لدى الوصيّ انهى الموقف بتوقيع الامير عبد الإله الارادتين الملكيّتين.

[مذكرات صلاح الدين الصبّاغ/المصدر- ص-191 195] [جريدة الزمان/عدد 15/7/1941].

كانت تلك التطوّرات تحدث بين البلاط الملكي وبين الوزارة وغالبيّة اعضاء مجلس النوّاب لا يعلمون شيئا عمّا كان يدور من مناورات وتسويات، حتى انّ بعض النوّاب حينما كانوا يسالون عن اسباب الخلافات بين رئيس الوزراء وبين وزير خارجيّته نوري السّعيد، كان الجواب يأتيهم ان ليس هناك خلافات بين الاثنين..!.

لم يرفع صوت مناصر للاجراءات الدستوريّة داخل البرلمان سوى صوت واحد حينما اقترح وزير الدفاع طه الهاشمي بجلسة 26/1/1941 الاحتكام الى "...مجلس الامّة واتخاذه حكما في هذه الازمة لانّه يخشى ان يتدخّل الجيش في الامر، وانّ بعض الوزراء ايّدوا ضرورة عرض القضيّة على المجلس النّيابي، الا انّ رشيد عالي الكيلاني، رئيس الوزراء، لم يوافق على ذلك..". [مذكرات طه الهاشمي/ج1/ص380].

وعلى الرّغم من معارضة الكيلاني، فقد عقد مجلس النّواب جلسته في 30/1/1941 لمناقشة الوضع السّياسي الذي اصبح عليه العراق اثر استقالة عدد من الوزراء اذ لابدّ من اطلاع المجلس على التعديل الوزاري وقراءة الارادات الملكيّة بذلك الصّدد.

قرات الارادات الملكيّة حول قبول استقالة نوري السّعيد من وزارة الخارجيّة واسنادها وكالة الى عمر نظمي وزير المواصلات والاشغال. وقرات ارادات تعيين يونس السبعاوي وزيرا للاقتصاد والاشغال، واخرى باسناد وزارة العدليّة الى علي محمود الشيخ علي مدير الكمارك والمكوس العام وتعيين موسى الشابندر وزيرا للخارجيّة، ثم قبول استقالة ناجي السّويدي من منصب وزير الماليّة، وتعيين محمد علي محمود وزيرا للماليّة.[محاضر مجلس النوّاب/جلسة - 30/1941، ص- -270 269] [حسين جميل/الحياة البرلمانيّة في العراق- ص110].

استفسر بعض النوّاب عن وجود ازمة؛ فقد سال علي جودت الايّوبي (نائب بغداد) حول وجود ازمة وزاريّة سببها وجود خلاف حاد بين رئيس الوزراء وبين البلاط الملكي... ثمّ اضاف

الى سؤاله: بانّ رئيس الوزراء قد تعرّض لهذا الاستفسار في اللجنة الماليّة وفي مجلس الاعيان فانكر ذلك.ثم طالب الايّوبي من رئيس المجلس الا يقف موقف المتفرّج ازاء رغبة النوّاب لمعرفة حقائق الامور وطالب بضرورة حضور رئيس الوزراء لكي "...يبسط سياسته الخارجيّة اذا يوجد اتجاهات جديدة ويجعل مجلسكم العالي والامّة على بصيرة من الامر وربما يعاضدونه في سياسته الخارجيّة اذا كان هناك اتجاه جديد، والا فكان عليه ان يطلب الثقة من المجلس العالي.

انّ هذه الامور يجب ان نتمسّك بها. هذا دستور، الان يستقيل اكثر الوزراء والمجلس ليس له علم بذلك، ويعيّن وزراء ولا نعرف ماهي الاسباب. أرجو المجلس العالي ان يسجّل بانّ اشاعات تدور في البلد كما انّ بعض الاستقالات والتعيينات كانت نتيجة اسباب غير مشروعة. فاطلب من رئيس الوزراء والوزراء ان يبيّنوا ماهي الاسباب.وهل كل هذه صحيح؟ هذا ما اريد فهمه ويفهمه المجلس والامّة...". [محضر جلسة مجلس النوّاب/30/1/1941].

ايّد عدد من النوّاب ما جاء بكلمة الايّوبي.. وبعد فترة قصيرة من الزّمن حضر رئيس الوزراء واعلن رئيس المجلس، مولود مخلص، من اراد ان يتكلّم فليتفضل: وبعد مناقشة المجلس لقضايا اخرى، سال مولود مخلص رئيس الوزراء ان كان لديه جوابا على ما تكلم به النوّاب...اجاب رئيس الوزراء بكلمة: لا. ثم أجلت الجلسة عشرة دقائق... وبسبب مغادرة بعض النوّاب لم يحصل نصاب الاجتماع لذا لم تعقد الجلسة. وفي موعد الجلسة الثانية في الاوّل من شباط لم تعقد الجلسة في موعدها بسبب عدم اكتمال النّصاب. لقد كان غياب النوّاب عن حضور الاجتماعات في صالح رشيد عالي الكيلاني (وربما من تدبيره) الذي كان يرى في مجلس النوّاب من يعرقل مسيرة حكمه، كما كان مرتاحا لتأجيل الجلسات ويراها مخرجا له للتهرّب من الاجابات عن اسئلة النوّاب.

روايات بعض زعماء الصّفوة عن الازمة

رواية ناجي شوكت:

يروي الاستاذ ناجي شوكت في مذكرّاته؛ انّ رشيد عالي الكيلاني قد شعر بشكل واضح انّ مناقشات اعضاء مجلس النوّاب في 30/1/1941 كانت تدلّ على انّ وزارته لا تحضى بتأييد الاغلبيّة في المجلس،لذا قرّر هو ومؤيّدوه من قادة الجيش حل المجلس واجراء انتخابات جديدة. ومما رواه ناجي شوكت ايضا بهذا الصّدد " ...انّ المجتمعين في ديوان رئاسة الوزراء كانوا الوزراء ومفتي القدس الحاج امين الحسيني (ذو الميول لالمانيا النازيّة) والعقداء الثلاثة الذين كانوا في دار رشيد ووكيل رئيس اركان الجيش امين زكي ويونس السبعاوي. ثم انضمّ الى هؤلاء كلّ من السّيد محمد الصّدر وطه الهاشمي، وقد جرى نقاش حاد في هذا الاجتماع واستعرض موقف مجلس النوّاب من الوزارة القائمة وهل يصحّ للوزارة ان تقابله

في اليوم التالي؟ وكان من راي السّبعاوي منع المجلس من الاجتماع. ولكنّ العقيد صلاح الدّين الصبّاغ اشار على رشيد عالي بضرورة الاستقالة وتجنّب اصطدام قطعات الجيش الموجودة في الديوانيّة مع بعضها وقد ايّد طه الهاشمي هذا الرأي [مذكرات ناجي شوكت/ ص428 – 429].

رواية طه الهاشمي:

يروي طه الهاشمي في مذكراته انه في الليلة التي أعقبت جلسة 30/1/1941 طلب منه رشيد عالي الحضور الى ديوان رئاسة الوزراء فذهب اليه ووجد عنده في غرفته من القادة: فهمي سعيد ومحمود سلمان ورئيس اركان الجيش واخبره رشيد عالي انّ مجلس الوزراء قرّر حلّ المجلس النيابي واجراء انتخابات جديدة، وحجّته بسبب الموقف الذي اتخذه. ولمّا عرض الامر على الامير طلب اليه ان يمهله. وانّه علم بعد ذلك من متصرّف لواء الدّيوانيّة انّ الامير (عبد الإله) وصل الدّيوانيّة ونزل في منزل قائد الفرقة الرّابعة السيّد ابراهيم الرّاوي، وانّه – اي طه الهاشمي – ابدى انّه كان الافضل تأجيل حلّ المجلس بالوقت الحاضر فقال له رشيد عالي انّه:

"..لا فائدة من الاشتغال مع هذا المجلس لانّ المعارضة أصبحت (فيه) تدسّ الدسائس وانّه لا يستطيع العمل وانّ الامير يشجّعها. "... وسال طه الهاشمي رشيد عالي عن قراره فاجابه انّه قرّر الاستقالة..". فحبّذ له طه الهاشمي هذا الرّاي. [مذكرات طه الهاشمي/ المصدر- ص385]

رواية صلاح الدّين الصبّاغ:

كتب صلاح الدّين الصبّاغ بمذكراته انّه في الليلة التي أعقبت جلسة 30/1/1941 كان القادة مدعوّين في دار رشيد عالي وانّه حضر الدّعوة ومعه فهمي سعيد ومحمود سلمان وحضر الدّعوة

ناجي شوكت ايضا. وقد جرى اتصال تلفوني مع رشيد عالي فاعتذر منا وذهب الى ديوان مجلس الوزراء. ومن هناك طلب حضورنا، فذهبنا عدا ناجي شوكت، وكان مع رئيس الوزراء وكيل رئيس اركان الجيش وانّ رشيد عالي اخبرنا انّ الحكومة عزمت على حلّ مجلس النّواب والشروع بانتخابات جديدة وانّه طلب من الوصي اصدار ارادة ملكيّة بحلّ المجلس "..مع اعتقادي بانّ اكثريّة المجلس الحالي تؤيّد حكومتي، والوصي بدل ان يجيبني الى طلبي او يرفضه ذهب الى الدّيوانيّة". واخبرنا رشيد عالي انّ المتصرّفين اخبروه انّ الوصي "... اتصل بهم وامرهم ان يقطعوا الصّلة بحكومتي ويردّوا اوامرها ويتلقّوها منه مباشرة.." واخبر قائد الفرقة الرّابعة في الدّيوانيّة وامر منطقة الموصل وكيل رئيس اركان الجيش انّ الوصي

طلب منهما الطلب ذاته..." [مذكرات صلاح الدّين الصبّاغ/ المصدر.../ص 197 – 202] [حسين جميل/الحياة النيابيّة..المصدر...ص113]. واضاف صلاح الدين الصبّاغ: انّ رشيد عالي قال لنا: "ان مجلسنا(اي مجلس الوزراء) فضّل ان يستشيركم بصفتكم قادة الجيش فما رأيكم؟"

ويضيف ايضا انّ القادة حضروا جلسة مجلس الوزراء – بطلب من رشيد عالي – وكان راي محمود سلمان عدم الاذعان لراي الوصي !!. وانّ فهمي سعيد قال انّه "...لما كان اعتقادي انّ حكومتكم تضمّ رجالا مخلصين هم انتم فاني ارضخ لايّ قرار تتوصّلون اليه.. " وانّ صلاح الدين الصبّاغ قال: "...ايّ الحكومات التي ستتلوا الا حكومة تفرض نفسها على البلاد وبقوّة الإنكليز ورغم ارادة الشعب، ويكون الجيش في يدها الة صمّاء لا فرق بينه وبين جيوش المستعمرات؛ فلماذا يريد الوصي ان يتصرّف كالدكتاتور... ثمّ قال: "..ولكن دفعا لكلّ التباس قد يتخذه الإنكليز ومواليهم حجّة يسترون بها خبث نواياهم فاني اقول ليكن للوصيّ ما يريد ولتستقيل الوزارة ثم نرى ما سيكون..". وقال صلاح الدين الصّباغ؛ انّ يونس السبعاوي اعترض على رأيه هذا وكان ينادي بالثبات بوجه العاصفة لا الاستقالة لانّها انصياع لهوى الوصي الذي يريد ان يكون طاغية على امّته وعبدا للانكليز..." [مذكرات صلاح الدين الصبّاغ/ المصدر].

رواية الوصي عبد الإله:

القى الوصي على عرش العراق الامير عبد الإله خطابا من دار الاذاعة العراقيّة يوم 14 تّموز 1941 ونشرته صحيفة الزمان في عددها الصّادر في 15/7/1941. جاء فيه:

"...لما التام المجلس وجّه اعضاؤه الى رشيد عالي اسئلة عدّة حول الاسباب التي أدّت الى هذه الازمة، واحرجوا موقفه احراجا شديدا، ولمّا لم يجرا رشيد عالي على الاجابة على اسئلتهم خوفا من اماطة اللثام عن مساوئه، غادر قاعة المجلس من غير ان ينبس ببنت شفة. وعند وصوله ديوان مجلس الوزراء اعدّ لنا فورا ارادة ملكيّة بحلّ المجلس، وحملها الينا بنفسه للتوقيع عليها...، واني - اي الوصي- اخبرته بانني ارى تأجيل ذلك الى وقت اخر وقد فعلت ذلك نظرا الى اسباب عديدة اهمّها ما يلي:

اوّلا – انني لم اجد سببا معقولا لحلّ المجلس بل الامر كان على خلاف ذلك.

ثانيا – انّ ميزانيّة الدّولة كانت قيد المذاكرة في المجلس وليس من المصلحة حلّ المجلس قبل انجاز الميزانيّة.

ثالثا – انّ رشيد عالي كان يستبدّ بارائه ويستعين باعوانه من ضباط الجيش على قضاء الامور التي كنت اعارضه فيها، وذلك برغم وجود المجلس، فكيف به اذا حلّ المجلس.

ويقول الوصي ايضا "...ولكنّ رشيد عالي اصرّ على التوقيع على الارادة التي يحملها.."

وانه قال له انّ المجلس قد اهانه، وانّه لا يستطيع مقابلة المجلس مرّة اخرى،ولا سيّما والمجلس سيستأنف جلساته في اليوم التالي. ثمّ يمضي الوصي في خطابه: "...كان الوقت حينئذ عصرا، فطلبت من رشيد ان يمهلني الى المساء للتفكير في الامر، فوافق على ذلك وانصرف على ان يعود لمقابلتي في الليل. ولما كنت مصمّما على عدم التوقيع على ارادة حلّ المجلس فقد غادرت بغداد من فوري الى الدّيوانيّة تخلّصا من ضغط رشيد واعوانه من الضبّاط الذين كانوا في كلّ مرّة يضعون الجيش في الانذار، ويجلبون اليّ الارادات الملكيّة ليلا لاجباري على التوقيع عليها..". [من خطاب الوصي 14 تّموز 1941].

رواية طه الهاشمي:

يتميّز طه الهاشمي عن جميع اقرانه من العسكريّين بشدّة ولائه للدستور وللنظام البرلماني وللعائلة المالكة الهاشميّة العراقيّة وبسعيه الدائم لابعاد الجيش عن التدخل في السّياسة. كما تميّز ايضا بانّه رجل المصالحة الوطنيّة والتوافق بين القوى السّياسيّة في حالة اختلافها.

ففي صباح يوم 31/1/1941 اتصل السيّد محمد الصّدر (رئيس مجلس الاعيان) بطه الهاشمي وطلب اليه ان يلقاه في بيته، وحينما وصل الدّار اخبره بانّ الامير عبد الإله، الوصي قد طلب حضوره مع كلّ من ناجي السّويدي وعلي جودت الايّوبي ومولود مخلص(رئيس مجلس النّواب) لمقابلته في الدّيوانيّة. ثمّ قام السيّد الصدر واطلعه على استقالة رشيد عالي الكيلاني. ويروي الهاشمي في مذكراته بانّه اخبر السيّد الصدر بـ "..ضرورة تسلمه رئاسة الوزارة لموقفه الحيادي وضرورة انقاذ الموقف فلم يوافق..". [مذكرات طه الهاشمي/ص387 – 386].

ويستمرّ طه الهاشمي "...انّه رجع الى داره واتّصل برئيس اركان الجيش وطلب منه ان يجمع القادة فاجتمعوا في دار محمود سلمان، وانّه ذهب اليهم فيه، وقد كانوا رئيس اركان الجيش وصلاح الدين الصبّاغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وقد اخبرتهم بطلب الامير وقلت لهم اني سوف اقدم على تضحية بقبول رئاسة الوزارة اتقاء لشرّ ما سيحدث، مع ذلك اودّ ان نترك للامير الخيار في اختيار رئيس الوزراء من الرّجال الذين لا يخشى بأسهم، فحينئذ رشّحوا لي الصدر، قلت فليضيفوا اليه ناجي السّويدي حتى توسّع الحلقة، وقلت لهم ليتركوا من الان فصاعدا السّياسة وليتفرّغوا الى اعمالهم في الجيش. فقال صلاح الدين واذا هاجمك المجلس النيابي واسقطك ماذا يكون موقفنا؟ فأجبته ذلك شاني لا اطلب منهم ايّة معونة.. " [مذكرات طه الهاشمي/المصدر – ص 387].

في يوم 31/1/1941 ايضا اختار طه الهاشمي اعضاء وزارته، وبعد ان اخبر الوصي عبد الإله باسمائهم، وكان لايزال في الديوانيّة، وافق عليها علما انّ الهاشمي قد اخبر رئيس اركان الجيش بكلّ ما حصل. وصدرت الارادة الملكيّة واعلن عن تأليف الوزارة في بغداد في

1/2/1941 والوصي كان لا يزال في الدّيوانيّة. كان طه الهاشمي، رئيس الوزراء الجديد، قد علم عن طريق صادق البصّام، بانّ الوصيّ يرغب بنقل القادة العسكريّين الى خارج حدود بغداد. في يوم 2/2/1941، بعث رئيس الوزراء كلا من وزير الدّاخليّة ورئيس اركان الجيش الى الدّيوانيّة لدعوة الوصيّ الى العودة الى بغداد، الا انّ الوصي اعتذر مفضلا البقاء ريثما يتمّ اخراج القادة العسكريّين الاربعة الى خارج بغداد ليمارس اعماله بشكل طبيعي.

مناقشة الازمة داخل مجلس النوّاب

في اليوم السّادس من شهر شباط 1941 م عقد مجلس النوّاب العراقي جلسة اعتياديّة لمناقشة سياسة الحكومة الجديدة. وقد قرات في الجلسة ارادتان ملكيّتان؛ الاولى بتأليف الوزارة والثانية منفردة بتعيين توفيق السّويدي وزيرا للخارجيّة. كما تناول رئيس الوزراء الجديد طه الهاشمي في الاجتماع الحديث عن اسباب استقالة وزارة رشيد عالي الكيلاني وبيّن "..عدم استطاعتها الحصول على تأييد المرجع الاعلى بخصوص حلّ المجلس النيابي.." وانّه "...لم يكن مبعثها – كما قيل – تلاعب الايدي والمصالح الاجنبيّة.."، ثمّ قرات الارادة الملكيّة التي نصّت على تأجيل جلسات المجلس 14 يوما.

وفي يوم 20/2/1941 م عقد مجلس النوّاب العراقي جلسته الثانية حيث تليت خلاصة محضر الجلسة الاولى ثم اعلن رئيس المجلس عن طرح منهاج الوزارة وكذلك الميزانيّة بهدف المناقشة. وفي 22/2/1941 طرح رئيس الوزراء طه الهاشمي منهاج وزارته الذي ضمّ مقدّمة مع شرح لمهمّات الوزارة وكذلك القواعد التي تستند اليها وزارته وهي:

"...تأييد احكام القانون الاساسي في هذه المملكة والحيلولة دون كل فكرة ترمي الى مسّها. والاعتماد على مجلس الامّة في تعزيزها.اذ انّ التجارب قد دلّت على انّ الاهداف السّامية التي توخاها القانون المذكور لا يمكن الوصول اليها الا اذا كان مجلس الامّة قائما على حراسة احكامه، وقادرا على ممارسة سلطانه المضمون ببنوده...". [محاضر مجلس النوّاب 22/2/1941 – ص 296] [حسين جميل/المصدر- ص118].

انّ تأكيد رئيس الوزراء طه الهاشمي على ضرورة تأييد احكام القانون الاساسي (الدستور) يعكس رغبة نبيلة وصادقة منه على ضرورة احترام المؤسسات الديمقراطيّة في الدولة العراقيّة وفي مقدّمتها الدستور الذي هو صاحب السلطان الاعلى وبذلك اشارة واضحة منه على منع تدخل الجيش العراقي بالسّياسة وفي شؤون السلطة وتغيير او اسقاط الوزارات وخاصّة ما كان يجري من تدخل الضبّاط الكبار الاربعة. وفي 24/2/1941 تضمّنت جلسة المجلس مادّتين:

الاولى؛ (القراءة الثالثة) للائحة قانون ذيل قانون المرافعات الشرعيّة. و(القراءة الثانية) المذاكرة في لائحة قانون الميزانيّة العامّة لسنة 1941م.

وفي اثناء مناقشة الميزانيّة العامّة، وبعد ان صادق المجلس على لائحة قانون الميزانيّة، تناول محمّد الباقر – نائب الحلة – امورا سياسيّة مستفسرا عن اسباب سفر الوصي عبد الإله الى الدّيوانيّة كما اظهر احتجاجه للتجاهل المتعمّد للبرلمان وللدستور اذ قال: "..تترى علينا الحوادث وانتم المفروض عليكم ممثلي الامّة وانتم المهيمنون على السّلطة التنفيذيّة ولكن اصبحنا والاستهتار بممثلي الامّة وبالقانون الاساسي قد وصل الى درجة لا تطاق. نعم الاشاعات التي يرددها ابناء الشوارع، ونقرا في الصحف اشاعات عديدة. وتحدث في البلاد حوادث خطيرة ولا يعلم المجلس شيئا عن ذلك. انّ المجلس هو المهيمن على شؤون البلاد، لمَ ترفع الوزارة استقالتها الى الدّيوانيّة؟ لم يذهب وصيّ العرش.. الى الدّيوانيّة؟ هذه امور مجهولة لدينا"!! وقال لرئيس الوزراء: "...اذا لم يكن بامكانه ان يعطي النوّاب ايضاحا فاطلب عقد جلسة سريّة...". [محاضر جلسة مجلس النوّاب 24/2/1941، ص 305 – 306] [حسين جميل/الحياة البرلمانيّة../المصدر..ص 120].

واكّد السيّد محسن ابو طبيخ - نائب الديوانيّة -:

"...انّ لمجلس الامّة حقا على المسؤولين ان يوافوه ببيانات عن كلّ حادث يحدث في البلاد من الحوادث البسيطة قبل المهمّة. وكنت اودّ في جلسة 6 الجاري انّ فخامته يتقدّم ببيان واف الى المجلس عن الحوادث المهمّة الخطيرة بدل ذلك البيان الوجيز...".

واشار الشيخ رايح العطيّة – نائب الديوانيّة – الى دور المجلس وسال: ".. ايّ دور يهمّ المجلس اكثر من الدور الذي وقع؟ الامّة تنتظر كلمة المجلس في هذه الظروف ولكن الرّجال الذين رفعتهم الامّة والمعوّل عليهم يتآمرون على السّكوت في هذا المجلس..".

وتساءل علي جودت الايّوبي – نائب بغداد – عن "..اخبار الخلاف بينه وبين بعض وزرائه. وكذلك عن الخلاف بينه وبين البلاط وبين الحليفة (بريطانيا) فانكر وجود ايّ خلاف.."، ثم قال: "...لما قام مجلس النّواب واظهر شعوره تجاه هذا الموقف واراد ان يطلع على الحقيقة وسمع ما سمع، ذهب فخامته وتناول المجلس واراد ان يحلّه بدون ان يعطي حسابا له...".

وقدّم النائب ابراهيم عطار باشي – الموصل – اسئلة مشابهة مشيرا الى نفي رئيس الوزراء السّابق وجود خلاف بينه وبين وزير خارجيّته وكذلك حينما "..سئل في جلسة السّادس من هذا الشهر عن تازّم الازمة ولم يجاوب بشيء سوى ان كان جوابه طلب حل المجلس. هل هذا هو الدستور وهل هي هذه المحافظة عليه". وفي جلسة 24/2/1941 اكّد يونس السّبعاوي نائب الموصل وقال:

"..ايّها السّادة جرت العادة في هذه البلاد انّ كلّ وزارة تتألف، تؤلّف مجلسا جديدا. وكنت ممّن يستهجنون هذه العادة لانني كنت اعتقد انّ فيها كلمات لحرمة الدّستور والمجالس التمثيليّة، غير انني بالنظر لما رأيت وما سمعته من الكلمات رجعت عن هذه النيّة واعتقدت

بانني وان كنت وزراء الشكل الاخير مع فخامة رشيد عالي الكيلاني كنت اخدم بلادي اكثر لو وفقنا الى حلّ هذا المجلس..". (ويسجل المحضر هنا ان قد هبّ النوّاب بعاصفة من الصّياح والضرب على الطاولات والمقاعد واصوات اسكت). ثمّ تدخل رئيس المجلس طالبا الالتزام بالهدوء والنظام ثم اعلان استراحة لمدّة عشرة دقائق. وبعد استئناف الجلسة طلب محمد الباقر – نائب الحلة – باخراج السبعاوي وحرمانه من الاجتماع لانّه تطاول على المجلس واعضائه. [حسين جميل/ الحياة النيابيّة في العراق/ص121].

بينما اعترض علي الاقتراح كلّ من عبد الوهاب محمود – نائب البصرة –، محمود رامز- نائب بغداد، روفائيل بطّي – نائب البصرة، ولم يكتف هؤلاء النوّاب بالاعتراض بل راحوا يدافعون عن حقّ التعبير عن الراي وابداء وجهات النظر داخل المجلس حيث انّ "...المجلس فتح ليسمع اقسى الانتقادات واعظم التهجّمات، فارجو من حضرات النوّاب الكرام ان يوسّعوا صدورهم للنوّاب المنتقدين. انّ النائب المحترم يتمتّع بالخارج بحصانة نيابيّة فيجب ان يتمتّع في داخل المجلس بحريّة كافية...، والمجلس اذا كان يريد ان يوافق ويماشي الحكومة في رغبتها الملحّة في تقوية الحياة النيابيّة فانّ اوّل عوامل هذه التقوية هو سماع كلّ قول وكلمة تصدر من ايّ نائب.

أرجو ايّها السّادة ان لا تكون بوادر مجلسنا منع النوّاب من الكلام "..واخراجهم من المجلس ومعاكستهم وأرجو ان يعتبر كلّ ما يقال هنا في سبيل (مناقشة سياسة شؤون الدّولة والنائب مهمّته اوّلا واخرا هي هذه..".[محاضر مجلس النوّاب- جلسة 24/2/1941،ص309 – 310].

طه الهاشمي يدافع عن الحياة النيابيّة

انّ قراءة عابرة لايّ محضر من محاضر مجلسيّ النواب والاعيان في العهد الملكي العراقي تعطينا صورة جليّة عن البداية المباركة للمسيرة الديمقراطية في بدايات القرن الماضي، حيث ترينا انّ هناك اجواءا واسعة من حريّة التعبير عن الرأي والفهم للحقوق الدّستوريّة والبرلمانيّة، والمساحة الواسعة التي كان يصول ويجول فيها النوّاب من الصّفوة العراقيّة داخل قبّة البرلمان للدّفاع عن مصالح الشعب والوطن؛ تلك الاجواء التي ولّدّت خطباء برلمانييّن يشار اليهم بالبنان من امثال طه الهاشمي ومحمّد جعفر ابو التمّن ومحمّد رضا الشبيبي وتوفيق السّويدي وروفائيل بطي....واخرين من الذين تركوا بصماتهم الواضحة في تاريخ البرلمان العراقي طيلة النصف الاوّل من القرن العشرين.

لم يعترض رئيس الوزراء طه الهاشمي على انتقادات النوّاب ولم يؤيّد الاصوات التي تنادي بطردهم من المجلس بل وقف مدافعا عن الحياة النيابيّة وحريّة التعبير في البرلمان. وممّا قاله:

"...ايّها السّادة يجب ان نعترف فيما اذا كان يقع في هذه المملكة بعض الاحداث التي نتالّم منها جميعنا، وانّه يجب ان نعترف ايضا ان سببها هو انّ مجلس الامّة لا يكون بموقف يقضي على هذه الاحداث بالقوّة التي يأخذها من نصوص احكام الدّستور، وكما صرّحت امام الهيئة النيّابيّة في هذه القاعة قبل مدّة قصيرة بانّ التوازن بين السّلطة التشريعيّة والسّلطة التنفيذيّة اذا لم يتم فلا شكّ في ان احدى هاتين السّلطتين تطغى على الاخرى. فالذي ترغب فيه الوزارة الحاضرة استنادا الى المادة الاولى التي وضعت في المنهاج هو ان يكون لمجلس الامّة الهيمنة الكافية على مراقبة شؤون الدّولة بصورة لا يقع حدث والمجلس في حالة الاجتماع الا ويكون عالما بهذا الحدث، وهو الذي يتصرّف ويبت فيه. تريد الوزارة ان يمثل مجلس الامّة التمثيل الصّحيح ويحاسب المسؤولين ويطلع على كلّ شيء عندما يكون مجتمعا، وهو الذي يكون الحكم في استقالة الوزارة او بقائها في الحكم. والواقع ان القانون الاساسي (الدستور) ينصّ على ذلك، فالحكومة تبقى في دست الحكم. فيما اذا نالت ثقة مجلس الامّة ومتى ما نزع ".. مجلس الامّة ثقته منها فيجب عليها ان تستقيل.. وانّ كلّ ما نريده هو ان يستعمل مجلس الامّة سلطته استنادا الى احكام الدستور..".

وحول استقالة الكيلاني قال: "...بانّ الازمة كانت موجودة قبل مدّة طويلة فقد حدثت بعض بوادر تدلّ على انّ الوزارة في ازمة ثمّ اشتدّت هذه الازمة وتعقّدت حتى وصلت الى درجة رأت الوزارة معها انّ من المصلحة ان تستقيل. وكان في الامكان ان لا تتعقّد هذه الازمة ولا تشتدّ لو انّ الجميع تظافرت جهودهم لتخفيفها. وفي هذه النّاحية ايضا اقول انّ المجلس عندما يكوّن في حالة الاجتماع فمن حقه ان يطلع على الازمة وعلى تطوّراتها عندما تتعقّد وتشتدّ، ومن حقه ان يأخذ المعلومات عنها. وكنت اتمنّى ان المجلس في الوقت الذي يطلع على مثل هذه الازمة ان يبدي رأيه فيها، ومن رايي انّ هذا من الامور التي تعزّز الفكرة بانّ المجلس يجب ان يكون هو المهيمن على شؤون الدّولة، وان يطلع على الاحداث الخطيرة "..ويحاسب المسؤولين عنها.." [محاضر مجلس النوّاب جلسة 24/2/1941 – ص 311 310-]

ومما جاء في خطابه ايضا: "..انّ كلّ الاحداث التي تتشكى منها تنتهي اذا جعلنا مجلس الامّة هو الحكم في النظر بمثل هذه الاحداث، واذا جعلنا مجلس الامّة هو المهيمن على شؤون الدّولة..". ثم انهى خطابه بالقول: ".. لا اريد ان انهي خطابي دون ان اقول، اذا كنّا نريد ان نعتز بالحياة النيابيّة ونحاسب الحكومة وان نعطيها الثقة اذا اعتمدنا عليها او نسلب الثقة عنها عندما نراها لا تصلح للحكم فكم احرى بنا ان نجعل جميع اعضاء مجلس الامّة احرارا في خطاباتهم واذا سمعنا منهم شيئا مرّا نقبله بصدر رحب وان لا نعتبر بانّ في ذلك بادرة او مسّا لكرامة احد ونقول للنائب اخرج. فاذا كان النائب يعرف واجبه فانّه يستطيع ان يتكلّم بصراحة، واعتقد ان مجلس الامّة بهذه الوسيلة يستطيع ان يسيطر على اعمال الدّولة ويهيمن على سياسة الدّولة..".

انّ ما تقدّم هي نماذج وحوارات لشكاوى ووجهات نظر عبّر عنها النّواب داخل المجلس، هي ذات دلالات على وجود مساحة جيّدة من الحياة الديمقراطيّة ومن حريّة التعبير عن الرّاي عبر المؤسسات الديمقراطيّة في العهد الملكي، كان من الممكن تطويرها وتنمية روح الحوار السلمي والمناقشة داخل البرلمان لولا انحراف البعض من رجال الصّفوة السّياسيّة العراقيّة باتباعهم وسائل منافية للديمقراطيّة في العمل السّياسي كالتامر في الخفاء مع القبائل وتوريط الجيش بالسّياسة وتدبير الانقلابات دون اعتبار لحقوق الانسان ومصالح الوطن العليا واستقراره في بلد عريق يستحق الحياة الكريمة السّعيدة كالعراق.

انّ الحياة النيابيّة في العراق الملكي لم تعط الزّمن الكافي للنموّ والتطوّر. وانّه لمن الاجحاف ان يُتوقع تطوّرها خلال الثلاثين سنة من عمرها بمستوى يقارب الديمقراطيّات في الغرب (وحتى في الشرق كالهند واليابان) التي استغرقت ما يزيد على النصف قرن مع وجود ظروف كانت لصالحها اقتصاديّة وسياسيّة وثقافيّة ساعدتها بشكل افضل مما مرّ به العراق الملكي.

انقلاب الثاني من نيسان/ابريل 1941

لم يكن لعدد من كبار ضبّاط الجيش العراقي مشاعر ود او انسجام مع الوصيّ عبد الإله منذ ان تسلّم الوصاية على العرش اثر حادث مقتل الملك غازي الاوّل الذي كان شباب العراق،لا سيّما منتسبوا الجيش، مفتونون به. ولعلم الرأي العام باصرار نوري السّعيد ومجموعته على تأييد عبد الإله ليكون وصيّا وبتأييد البريطانيّن ايضا ليلة مقتل الملك غازي الاوّل.

لقد عاش الملك غازي الاوّل وترعرع منذ طفولته مع العراقيّن الذين احبّهم واحبّوه، وشبّ مع اقرانه في بغداد واشتهر لديهم ببساطته، كما اختلط مع طلاب الكليّة العسكريّة وعرف طباعهم حتى غدا وكانّه واحدا منهم. لذا فقد كانت مهمّة خلفه في المسؤوليّة والوصاية على العرش - الامير عبد الإله - جدّ عسيرة لا سيّما انّه وقع ضمن دائرة الاتّهام في التآمر على حياة الملك الرّاحل وقتله. ولهذا السّبب بقي الامير زيد عمّ الملك غازي هو الاقرب الى مشاعر العراقييّن وثقتهم وتمنى العراقيّون لو انّه تولّى الوصاية على الطفل اليتيم (الامير فيصل الثاني) ولكنّ البريطانييّن ونوري السّعيد حالوا دون ذلك بشدّة بسبب قوّة شخصيّة الامير زيد وصعوبة انقياده لهم، فرجّحوا كفّة الامير عبد الإله الحديث العهد بالعراق وبكل ما يتعلق في شؤون السياسة.

الامر الاخر هو انّ الضباط الكبار الاربعة (مجموعة العقيد صلاح الدّين الصبّاغ)، كانوا يحبّون الملك الرّاحل غازي حبّا جمّا وبعضهم قام بتدريسه وتدريبه في الكليّة العسكريّة، وهم لا يخفون كرههم للوصي عبد الإله مثلما لا يخفون عزمهم على الثأر من قاتلي مليكهم.

امّا من جهة الوصي عبد الإله فقد كان هو الاخر يخشى قادة الجيش الاربعة ولا يامن

جانبهم. يروي طه الهاشمي؛ انه ذهب بطائرة عسكريّة الى الدّيوانيّة اثناء الازمة بعد استقالة رشيد عالي الكيلاني، وكان يرافقه بالطائرة كلّ من السيّد محمد الصّدر وصادق البصّام. وحينما وصلوا الى الدّيوانيّة واجتمعوا بالوصي قال له الوصي: "..كنت دائما اكلفك بقبول الوزارة، ولذلك ارجوا ان تقبل تأليف الوزارة..". ويقول طه الهاشمي: "..وكان جوابي بعد الشكر اني سالت رأيه بحق القادة فقال لي بصريح العبارة: أرجوا ان تطمأنهم، واني كنت فيما سبق قلت لهم لو قدّم طه نفسه امر احالتهم على التقاعد فانّي لا اوافق على ذلك. فحينئذ قلت للامير ما دام هذا رأيكم فكلّ ما أرجوه ان يعود الصّفاء بينكم وبين الجيش.." [حسين جميل/الحياة النيابيّة في العراق-/ص116].

وبعد ان قابل صادق البصّام الوصيّ، قال البصّام لطه الهاشمي:

"..الامير لم يشأ ان يفاتحني لكنَه يرتأي نقل البعض من القادة الى الخارج ويترك الامير الامر اليّ.وقبل ان اعود الى بغداد تحدثت الى الامير فقال لو امكن نقل كامل مثلا الى الخارج..". [المصدر السّابق].

كان لدى القادة العسكريّين احساس بكره الوصي عبد الإله لهم وتوقعّوا منه ان يتخذ اجراءات الابعاد او انهاء خدماتهم في القوّات المسلحّة. لذا كانوا على اهبة الاستعداد حيث وضع الجيش بالانذار ليلة -1-2 نيسان- ابريل 1941، واحاطت قوّة عسكريّة بقصر الوصي. وعند منتصف الليل توجّه رئيس اركان الجيش والعقيد فهمي سعيد الى دار طه الهاشمي واخبروه بانّ القادة العسكريين اتفقوا مع رشيد عالي الكيلاني على ان يقوم هو بتأليف الوزارة واخذ الاثنان من طه الهاشمي خطاب استقالته من رئاسة الوزارة. وفي تلك الليلة هرب الوصي من قصره سرّا الى القاعدة البريطانيّة في سنّ الذبّان ومن هناك غادر الى البصرة. [حسين جميل/المصدر السّابق/ص124].

موقف الصّفوة من (حكومة الدّفاع الوطني)

انّ من اهم الامور التي يجدر ملاحظتها في الازمات السّياسيّة الكبرى التي مرّت على العراق الحديث؛ هي متطلبات مواقف الصّفوة القائدة في المجتمع العراقي ازاء القرار الصّائب الذي يجب ان تتخذه ازاء احداث محدّدة وفي ساعة معيّنة، وبشكل خاص حينما تبدو الامور في مظهرها العام وكانّها خيار بين الوطنيّة والعمالة للاجنبيّ، او بين الاخلاص للوطن وبين خيانته.

فمن بين الازمات الفاصلة في تاريخ العراق الحديث هي الازمة التي نشبت بين حكومة رشيد عالي الكيلاني وبين حكومة بريطانيا؛ والحرب العالميّة الثانية كانت في اوج اشتعالها وكان على زعماء الصّفوة العراقيّة ان تحزم امرها وتتخذ الموقف السّياسي الدّاخلي الصّائب بين حكومة الكيلاني وبين مجموعة الامير عبد الإله الوصي على العرش ونوري السّعيد

حيث جرى تطوّر الموقف كالاتي:

بعد تسلل الوصي سرّا من قصره الى القاعدة البريطانيّة في الحبّانيّة (غرب بغداد) ليلة 1/2 1941- ومن هناك غادر الى مدينة البصرة. اعلن رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء عن قيام حكومة اسماها (حكومة الدّفاع الوطني)، ثمّ دعا بعد ايّام قليلة اعضاء مجلسيّ النوّاب والاعيان الى اجتماع مشترك في العاشر من شهر نيسان/ابريل1941. وفي هذا الاجتماع تقرّر تنحية الامير عبد الإله عن الوصاية على العرش وتنصيب الشريف شرف وصيّا على فيصل الثاني بدلا من عبد الإله. ثمّ قدّمت الوزارة استقالتها اليه حسب الاصول الدّستوريّة فقبلها وعهد الى رشيد عالي الكيلاني بتأليف وزارة جديدة فقام بتأليفها.

كان موقف الرّاي العام وعامة الجمهور في العراق الى جانب (حكومة الدّفاع الوطني) بسبب تحدّيها المعلن لبريطانيا في تفسير مواد من معاهدة 1930 بخصوص اعلان العراق الحرب على دول المحور، وكذلك مسالة استخدام الاراضي العراقيّة للاغراض العسكريّة البريطانيّة. وبذلك انقسمت الصّفوة العراقيّة الى معسكرين ما بين مؤيّد لحكومة الكيلاني ومعارض لها باعتبارها تغامر بمستقبل العراق وباستقلاله بتشددها وبتقديراتها الطائشة والغير واقعيّة حينما تدفع بالعراق بلا مبرّر الى معركة محسومة النتيجة لصالح بريطانيا.

لم تكن التطوّرات الداخليّة في العراق وابعاد العناصر التي تحظى بتأييد بريطانيا عن السّلطة في العراق امرا مقبولا لدى البريطانييّن لا سيّما وهي في ذروة الصّراع المصيري المسلحّ في الحرب العالميّة الثانية مع المانيا وحليفاتها.وبما انّ بريطانيا تعتبر رشيد عالي الكيلاني والقادة العسكريين الذين يؤازروه قد خرجوا على معاهدة التحالف (1930) المعقودة بين بريطانيا والعراق وانّهم بذلك يقدّمون خدمة لاعداء بريطانيا، لذا فقد تطوّر الوضع الى وقوع صدام مسلحّ غير متكافيء بين قوّات الامبراطوريّة البريطانيّة وبين الجيش العراقي الفتيّ على ارض العراق في 2 مايس/1941 وكانت خسارة العراق العسكريّة الفادحة متوقعة جدّا نظرا للبون الشاسع بين الجهتين عسكريّا وسياسيّا وتعبويّا فكان نتيجة ذلك ان هرب رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني وكبار انصاره ومؤيّديه من عسكرييّن ومدنييّن عبر الحدود الايرانيّة والتركيّة ودخلت القوّات البريطانيّة واعادت الشرعيّة للدستور ولتطبيق (نصوص معاهدة 1930 التي كان شغلها الشاغل)، وبمغادرة الكيلاني وانصاره خارج العراق، عاد الامير عبد الإله الوصيّ على العرش ونوري السّعيد وبقيّة المجموعة من وزرائه الى بغداد.

ما ان عاد الامير عبد الإله الى بغداد حتى اعلن انّ اجتماع العاشر من نيسان 1941 غير قانوني لانّه مخالف للمادّة التاسعة والثلاثين وللمادّة 40/3 من دستور المملكة العراقيّة الذي ينصّ على انّ اجتماع مجلس النّواب يعتبر دستوري فقط اذا كان بدعوة من رئيس الدّولة (الملك).

موقف صّفوة النوّاب من حركة مايس

في جلسة 12 شباط 1942 لمجلس النوّاب قرات الارادتان الملكيّتان حول استقالة وزيرين من وزارة نوري السّعيد السّادسة وتعييّن وزيرين. عقب محمود رامز – نائب بغداد – على هاتين الارادتين فقال:

"...انّ كلا منا يرغب ان تكون الهيمنة او السّيطرة بيد هذا المجلس وان يكون المجلس هو المسيطر الوحيد على القوّات الاخرى وكانت الرّغبة ايضا ان يكون هذا المجلس ايضا هو حاميا للدّستور وهو الذي يبت في الامور عندما تتأزم المسائل او تحدث ازمة وزاريّة. هناك استقالات وقعت وتعيين وقع وهذا المجلس لا يعلم ولا يدري بكلّ شيْ وكان من واجب فخامة رئيس الوزراء على الاقلّ ان يعطي معلومات كافية للمجلس... ولكنّ هناك قد يجوز ان يقع سؤال ويقال متى استشير هذا المجلس؟ فاذا لم يكن هناك استشارة فيجب ان تسحب الثقة ويقال انّ هذا المجلس يقوم بواجباته...". [محاضر مجلس النوّاب/محضر جلسة 12/2/1942 - ص193].

وفي جلسة السّادس عشر من شباط/فبراير1942،حضر نوري السّعيد رئيس الوزراء فطلب منه النائب روفائيل بطّي منه ان يدلي ببيان عن استقالة وزيرين وتعيين وزيرين،فقال رئيس الوزراء:

" ...يسرّني ان ارى بعض حضرات الاعضاء المحترمين يظهر بمظهر الحرص على حقوق هذا المجلس ويلقي اسئلة واحيانا استيضاحات لأجل ان يظهر هذا المجلس بمظهر الحريص على حقوق الشّعب وانّ هذا المظهر لا شكّ يبشر بمستقبل قانوني دستوري لهذه البلاد الامر الذي يقوّي روح الديمقراطية ويقوّي روح المسؤوليّة وان كنّا قد وجدنا من حين لاخر امورا لا تشبه هذه القضيّة البسيطة التي تتعلق باستقالة وزيرين - كما سابيّنها للمجلس العالي- بل اهين المجلس والدّستور وقتل وزراء ونحّيت وزارات عن كراسيها فلم نسمع صوت حق من نائب حتى عند نقل جثة وزير خدم هذه البلاد من محل مقتله الى مقبرته في ذلك الوقت. ولم نسمع ايضا صوتا من احد عندما زجّت البلاد وزجّ المجلس في قضيّة قريبة كما تعلمون فلم نسمع صوتا من احد اعضاء هذا المجلس المحترم فيظهر انّ المباديء تتغيّر فلا تستمر هذه الرّوح عندما تكون الاوقات والظروف حرجة، اما عندما تكون الحالة اعتياديّة وعندما نجد الوزارة تراعي الدّستور والقوانين ومصلحة البلاد فالاسئلة تتوجّه. لا بأس فلنشجّع هذه الرّوح الدّستوريّة لعلنا نستثمر في المستقبل اثمارها. ثمّ بيّن رئيسا لوزراء اسباب استقالة الوزيرين. [محاضر مجلس النوّاب/جلسة16/2/1942، ص 204-205].

وفي جلسة 5 كانون الثاني 1944 حافظ مجلس النوّاب الاستمرار في مناقشة العريضة الجوابيّة على خطاب العرش الذي كانت قد تقدّمت به وزارة نوري السّعيد.

قال الاستاذ عبد الكريم الازري – نائب العمارة –: "...كثيرا ما كانت تستقيل وزارة

وتحلّ محلها وزارة اخرى والمجلس واقف بين الامرين موقف المتفرّج كانّ الامر لا يهمّه بتاتا. وكثيرا ما كان يستقيل عدد من الوزراء ويحلّ محلّهم اخرون ولم يكن ليسال عن اسباب استقالة الوزراء المستقيلين، كما انّه لم يكن احد لينوّر المجلس بايّة معلومات في هذا الباب، بل كان يكتفي اعضاء المجلس بما يحصلون عليه من معلومات في الخارج اسوة بسائر الناس.[محاضر مجلس النوّاب/جلسة5/1/1944، ص43].

وفي جلسة 18/حزيران – يونيو/1944، تليت الارادة الملكيّة بتأليف وزارة حمدي الباجچي. وجاء في تعليق النائب عبد الكريم الازري- نائب العمارة- قوله:

"...تمرّ الاحداث السّياسيّة في هذا المجلس وهو في معزل عن مناقشتها. استقالت وزارة فخامة نوري السّعيد ولم يعرف المجلس الاسباب التي دعت الى استقالتها، او على الأقل لم تعرف الاسباب الرّسميّة التي دعت لاستقالتها. انّ هذا المجلس يجب ان يكون المحل الذي تناقش فيه جميع المسائل السّياسيّة خصوصا قضيّة خطيرة كاستقالة وزارة. انّ المجلس يجب يكون له حق الاشراف على مثل هذه الامور التي تتعلّق بمصلحة البلاد ومستقبلها، فمن الاشياء المستغربة ان تستقيل وزارة ولا يعرف المجلس ماهو سبب او اسباب الاستقالة مع العلم انّ الوزارة المستقيلة كانت قد حصلت على ثقة اغلبيّة كبيرة منه، فما الذي دعا وسبب تقديم استقالتها... اما كان من اللازم على الحكومة ان تأتي الى مجلس الامّة وتصارحه وتوضح له اسباب استقالتها..؟ [محاضر مجلس النوّاب/جلسة 18/6/1944].

امّا الشيخ محمّد رضا الشبيبي - نائب العمارة - فقد اشار في كلمته في المجلس بجلسة 24/10/1945 "..كنت ارغب ان يحاط المجلس علما باسباب استقالة (أرشد العمري) وزير الخارجيّة في هذه الوزارة ورئيس وفدنا الى مؤتمر سان فرانسسكو ولكن لا ادري لماذا لم يطلع المجلس على هذه الاسباب مع انّ ذلك من حقوق المجلس الدّستوريّة. الا انّ بعض رجال الحكم يعتقدون انّ المجالس لم تخلق الا للاستعجال في البت بما يعرض عليها من لوائح ولا يرون انّ المجالس انما خلقت لمحاسبة المسؤولين عن كلّ صغيرة او كبيرة".[محاضر مجلس النوّاب/جلسة 24/10/1945 – 1945]. وانتقد النائب عبد الرزاق الحمود - نائب البصرة- في جلسة 21/2/1949 الوضع بقوله:

".. اشيرالى حادثة اقول عنها انّها مؤسفة وقعت خلال مناقشة اللجنة الماليّة لهذا المجلس ذلك انّ جماعة من النوّاب كانوا قد طلبوا الى معالي وزير الماليّة (خليل اسماعيل) ان يزوّدهم ببعض المعلومات والمبالغ ووجوه صرفها فامتنع معاليه عن تزويد بعض اعضاء اللجنة هذه المعلومات، وكانت النتيجة ان خسرت اللجنة معالي محمّد حديد والدكتور عبد الرّحمن الجليلي وهما على ما هما عليه من الاختصاص وسعة الباع في العلوم الماليّة.

سادتي: انها لبادرة خطيرة في دولة ديمقراطيّة مثل العراق ان يمتنع وزير الماليّة عن تقديم المعلومات التي يطلبها اعضاء اللجنة.." [محاضر مجلس النوّاب/جلسة/21/2/1945ص208]

ولم ينفي وزير الماليّة صحّة الرّواية والواقعة وقدّم تبريرا لذلك انّه (بعد المذاكرة مع فخامة رئيس الوزراء السّابق ووكيل ماليّتها وعلى علم من مقام الرّئاسة... تقرّر لصيانة كيان الدّولي المالي- ان تحتفظ بجزء من المعلومات صيانة لسلامة الدّولة العراقيّة). [محاضر مجلس النوّاب/جلسة 21/2/1949 – ص 210].

لقد كان متوقعا ان يتخذ مجلس النوّاب العراقي الجديد موقفا من احداث حركة مايس 1941 والتي سمّيت ايضا بحركة رشيد عالي الكيلاني. فبعد ان انفضّت دورة الاجتماع العادي لمجلس النوّاب بموجب الارادة الملكيّة.وفي الجلسة الثانية التي انعقدت في 11 تشرين الثاني اعلن رئيس المجلس ورود كتاب من رئيس الوزراء بطلب رفع الحصانة النيّابيّة عن محمّد حسن حيدر - نائب المنتفك - لسوقه الى المجلس العرفي العسكري لمحاكمته..". وجاء في الكتاب: "..تبيّن بنتيجة التحقيقات الجارية انّ السيّد رشيد عالي الكيلاني ورفقاءه قد نظّموا عصابة قاومت بالسّلاح لتنفيذ القانون واستعملت القوّة الظاهرة للقضاء على الحكومة وتغييرها وبذلك ارتكبوا الجرم المنصوص عليه في الفقرة الاولى من المادة (80) من قانون العقوبات البغدادي والمواد (11) من الباب الثاني عشرو(8) من قانون الطواريء رقم (10) لسنة 1940..". ومما جاء في الكتاب ايضا:

"...ولما كان جمع مجلس الامّة الى عقد اجتماعه ينبغي ان يكون بارادة ملكيّة بالنظر الى حكم المادّة (26) من القانون الاساسي. وحيث ان السيّد محمّد حسن حيدر خلافا لاحكام الدّستور والنظام الداخلي لمجلس النوّاب قد قام بدعوة مجلس الامّة الى عقد اجتماع مما ادّى ذلك الى تسهيل تمادي العصابة المذكورة باعمالها وبعمله هذا يكون قد انضمّ وتنطبق عليه احكام الفقرة الثامنة من المادة 80 من قانون العقوبات البغدادي والمواد 8/1 من قانون الطواريء رقم 10 لسنة 1940.. " ثم ياتي طلب رفع الحصانة النيابيّة عنه " ..لسوقه الى المجلس العرفي العسكري لمحاكمته..".

هذا وقد دافع بعض النوّاب عن النائب محمّد حسن حيدر على اساس انّ دعوته للنوّاب لم تكن بمحض اختياره بل كان مجبرا من قبل رئيس الوزراء وكذلك الامر بالنسبة لبقيّة النوّاب الذين اجتمعوا في نيسان 1941 وقرّروا بذلك الاجتماع عزل الامير عبد الإله عن الوصاية على العرش وتنصيب الشريف شرف بدلا عنه. وقد وقّع خطاب الدّعوة الشيخ محمّد حسن حيدر باعتباره النائب الثاني لرئيس مجلس النوّاب انذاك. فكان ذلك تبريرا قدّمه نائب البصرة روفائيل بطيّ الذي اكد على ان " ..الشيخ محمد حسن حيدر انما وقع تلك الدّعوة لكونه نائب رئيس مجلس النوّاب اذ قد تعاطى هذا العمل حسب وظيفته العامّة والجرم الواقع هو جرم سياسي. فاعتقد اذا ما اريد سوقه الى محكمة يجب ان يساق الى محكمة عليا لا الى محكمة عرفيّة...". [جلسة مجلس النوّاب في 11/11/1941 – ص7]. وبناء على ما تقدّم اقترح رئيس الوزراء احالة قضيّة رفع الحصانة عن النائب الى اللجنة الحقوقيّة لتنظر في الامر وتدقق القضيّة وترفع تقريرها الى المجلس ليبتّ فيه. فاحيلت

المسالة الى هذه اللجنة. وفي جلسة 17/11/1941 تلي تقرير لجنة الشؤون الحقوقيّة وهو متخّذ بالاكثريّة بمخالفة النائب روفائيل بطي، وتوصي المجلس العالي برفع الحصانة النّيابيّة عن النائب المذكور وسوقه الى المجلس العرفي العسكري لمحاكمته. [محضر مجلس النوّاب، جلسة 17/11/1941 – ص43 49-]. الا انّ نتيجة المحاكمة ان قرّر المجلس العرفي العسكري تبرأته !!

حركة مايس في خطاب العرش

حينما افتتح الوصي عبد الإله الاجتماع الاعتيادي لمجلس النوّاب في 1/11/1941 بالقاء خطاب العرش حسب الاصول الدستوريّة، تعرّض الى حركة رشيد عالي الكيلاني التي بدات بتدخل ضباط الجيش في اجبار طه الهاشمي على الاستقالة من رئاسة الوزارة بالقوّة وما تبعها من اسناد رئاسة الوزارة الى رشيد عالي الكيلاني وما تبع ذلك من احداث خطيرة والتي انتهت بالصدام المسلح ما بين القوّة العسكريّة العراقيّة وبين الجيش البريطاني وانتهاء الاحداث بهروب قادة حركة مايس الى خارج العراق.

وصف الوصي عبد الإله الحركة بانّها: "..هدّامة... لم يسلم من شرورها حتى مجلسكم العالي". مشيرا الى حلّ حكومة رشيد عالي للمجلس المنتخب وعزل الامير عبد الإله من منصبه كوصي على العرش وتنصيبهم الشريف شرف وصيّا بدلا منه. كما اشار الوصيّ في خطابه الى انّ العراق وشعبه لايزال يعاني "... من نتائج الكارثة الي حلّت بالبلاد من جرّاء هذه الحركة الطائشة المنبعثة عن الخداع والتضليل والمدفوعة بالطمع والانانيّة...". وبعد الانتهاء من خطاب العرش، ناقشه النوّاب واعدّوا جواب مجلس النوّاب عليه حسب الاصول الدّستوريّة المرعيّة، علما بانّ النوّاب الاعضاء في لجنة اعداد الجواب اغلبهم ممّن ايّد حركة رشيد عالي الكيلاني وتحمّسوا لعزل الامير عبد الإله عن الوصاية على العرش. وقد جاء في جواب المجلس على خطاب العرش ما يلي:"... انّ مجلسنا يحمد الله على توفقكم باعادة الحياة الدستوريّة وافتتاح اجتماعه الحالي بعد القضاء على الحركة الهدّامة التي لم يسلم مجلس الامّة من عدوانها بارغام اعضائه على الاجتماع اجتماعا غير مشروع.."!!!. ومما جاء فيه ايضا:

"..وفي وقت يقدر المجلس التضحيات والجهود التي بذلتموها سموّكم في انقاذ العراق من محنة أنزلتها به فئة قليلة دفعتها المطامع الشخصيّة والدسائس الاجنبيّة، يثق كلّ الثقة ان العدل سيأخذ مجراه في محاكمة القائمين بالحركة تطمينا لضمير الامّة ومنعا لتكرار مثل هذه الحوادث القاسية.."!!.

[محاضر جلسات مجلس النوّاب/جلسة – 11/11/1941، ص 18].

اجراءات ضدّ النوّاب

حينما عقد مجلس النوّاب جلسته الاعتياديّة في 17/11/1941 قرا رئيس الجلسة كتابا ورد للمجلس يشير الى انّ اجراءات قد اتخذت ضد مجموعة من النوّاب منهم:

رشيد عالي الكيلاني- نائب الديوانيّة، وناجي شوكت – نائب بغداد –، ويونس السبعاوي- نائب الموصل، واحالتهم على المحاكمة امام المجلس العرفي العسكري. وكذلك ضد عبد القادر السيّاب - نائب البصرة–،والسيّد كاطع العوّادي - نائب العمارة، وجمال المفتي - نائب الموصل، وحجزهم في المعتقل، واشار الكتاب الى انّ (النوّاب الثلاثة الاخرين كانوا قد قاموا بحركات تقلق الرّاحة العامّة خلال عطلة المجلس، تلك الاعمال التي ينطبق عليها مرسوم صيانة الأمن العام وسلامة الدّولة رقم 56 لسنة 1940..".

[محاضر مجلس النوّاب – جلسة 17/11/1941، ص29 – 30].

لم يجر نقاش حول اسباب اعتقال النوّاب وماهي التهم التي اسندت اليهم واعطت تبريرا لاعتقالهم بينما اعلن ما هو منسوب الى اعضاء حكومة رشيد عالي الكيلاني. وكذلك الامر بالنسبة لاعتقال اعضاء اخرين، فقد اعلن في جلسة 5/11/1942 وبموجب خطاب من رئيس الوزراء الى مجلس النوّاب نبا اعتقال روفائيل بطي - نائب البصرة –، ومتي سرسم - نائب الموصل –، والدلّي - نائب الديوانيّة ووضعهم في المعتقل بسبب انّهم (كانوا قد قاموا بحركات تقلق الرّاحة العامّة خلال عطلة المجلس تلك الاعمال التي ينطبق عليها مرسوم صيانة الامن العام وسلامة الدولة). [محاضر مجلس النوّاب – جلسة 5/11/1942.ص8]. وكرّر النوّاب المستمعون الموقف السّابق حيث لم يسأل اي منهم عن نوع الحركات او الجنح التي ينطبق عليها المرسوم المذكور.

امّا رشيد عالي الكيلاني ويونس السبعاوي فقد حكم عليهما (غيابيّا) من قبل المجلس العرفي العسكري بالاعدام وكذلك على النائب ناجي شوكت بالاشغال الشاقّة لمدّة خمس عشرة سنة.

وقد اخبر مجلس النوّاب بتلك الاحكام في جلسته التي عقدت في 29/1/1942 بخطاب رئيس الوزراء حيث انّ "...هذه الاحكام تعد من الاحكام الجنائيّة وهي بطبيعتها مسقطة للعضويّة (في مجلس النوّاب) بحكم الدستور.." ومما جاء في الخطاب ايضا "..انّنا لاحظنا من ناحية ثانية انّ النّوّاب الثلاثة المومأ اليهم لم يحضروا جلسات مجلسكم العالي منذ افتتاح دورته الحاضرة مع تمكنهم من الحضور دون ان يتقدّموا بايّ عذر قانوني يسوّغ تغيّبهم من المجلس على هذا النحو. ويخال الينا ان المادّة (49) من القانون الاساسي هي التي ينبغي ان يعمد اليها المجلس العالي لمعالجة موقف اولئك النوّاب من هذه الناحية ايضا.."[محضر جلسة 29/1/1942، ص.111].

مشروع تعديل الدّستور

يرجع هذا المشروع الى التداعيات التي اعقبت انقلاب بكر صدقي عام 1936 وما استجدّت من احداث كان من اهم اسبابها تزايد تدخل الجيش بالسّياسة وظاهرة لجوء الصّفوة من السّياسييّن العراقيين الى خلق مجموعات مؤيّدة لها داخل الجيش لاستخدامها متى شاءت في تغيير الحكم طيلة سنوات بقيّة القرن الماضي.

لقد كانت فترة السّنوات الخمس التي اعقبت مقتل قائد الانقلاب بكر صدقي من اشدّ الفترات قلقا حيث تمّ اسقاط الوزارات او تنصيبها خارج الاصول الدستوريّة لا سيّما انقلاب رشيد عالي الكيلاني 1941، كلّ ذلك دعا الوصيّ على العرش عبد الإله لا يقبل فكرة تعديل الدستور وهي فكرة نوري السّعيد وكانت تستهدف اعطاء المزيد من السّلطات للملك على حساب سلطة مجلس النوّاب. لذا عرضت الحكومة على مجلس النوّاب الذي تمّ انتخابه في 1939 مشروع التعديل، الا انّ مقتل الملك الرّاحل غازي الاوّل وما تبع ذلك من تعاقب الحكومات والاحداث، ابقى مشروع التعديل مجمّدا حتى عام 1943..".

في جلسة 23/3/1943 تقرّر تأليف لجنة من خمسة وعشرين نائبا لدراسة المشروع وتقديم تقرير الى المجلس. وقد لوحظ في تأليف اللجنة تمثيل المناطق الجغرافيّة للعراق وكذلك تمثيل الطوائف فيه.." (حسين جميل- الحياة النيابيّة../ص161).

انّ اهم هدف سعى اليه اصحاب مشروع التعديل هو اضافة سلطات جديدة الى سلطات الملك وخاصّة سلطة (اقالة الوزارة) او تشكيلها، وكذلك ضرورة عرض قرارات مجلس الوزراء عليه للمصادقة عليها. وبما انّ تنفيذ مشروع التعديل يتضارب مع الفقرة (1) من المادة (22) من القانون الاساسي التي تنص على انّه (لا يجوز ادخال تعديل ما في القانون الاساسي مدّة الوصاية بشان حقوق الملك ووراثته).

لذا فانّ الوزارة قد احتاطت لذلك الامر ولكي لا يثار اعتراض بموجب هذه المادة الدستوريّة فقد الّفت في 16/12/1941 محكمة عليا لتفسير المادة 22 من القانون الاساسي ولدى الاستفسار منها اجابت في 24/10/1941، بانّه (اذا كان القصد اضافة حقوق الى جلالة الملك في لائحة الدستور الجديد فذلك جائز لعدم مخالفته نصّ العبارة الاخيرة من الفقرة الاولى من المادّة (22) من القانون الاساسي، اذ لا يعدّ ذلك تعديلا في هذا الباب.[الوقائع العراقيّة عدد/1985 في 12/1/1942].

وبعد ان انهت لجنة دراسة مشروع تعديل الدستور تقريرها النهائي، ناقش مجلس النوّاب في جلسته المنعقدة يوم 27 ايّار(مايس) 1943 المشروع وصادق عليه بالتاييد والاجماع تقريبا عدا توفيق السّويدي - نائب بغداد- الذي عارض ما جاء في الفقرة رقم 6 المضافة الى المادة السّادسة والعشرين من الدستور وهو: (للملك ان يقيل رئيس الوزراء) مستندا الى الفقه الدستوري وقال:

اوّلا - انّ الجملة الاخيرة من الفقرة الاولى من المادّة 22 من القانون الاساسي لا تجيز ادخال تعديل ما في القانون الاساسي مدّة الوصاية بشان حقوق الملك.

ثانيا - ان الحقوق معناها مسؤوليّات وواجبات ولا نعلم هل انّ الملك يتقبّلها ام لا؟

وثالثا - انّ دستور1925 وزّع سلطات الدّولة، واقام توازنا بينها وجعل السّلطة التنفيذيّة مسؤولة امام مجلس النوّاب، وهذا التعديل يخلّ بهذه الموازنة بين السّلطات، (وجعل السّلطة التشريعيّة -البرلمان- مفقودة تماما).

لقد كان موقف توفيق السّويدي ينسجم مع مبادئه وثقافته كرجل حقوق وقانون وكذلك كرجل سياسي من طراز رفيع المستوى. لذا قدّم نوري السّعيد اقتراحا ينصّ على تعديل صيغة الفقرة السّادسة من المشروع لتكون " ..للملك عند الضّرورة التي تقتضيها المصلحة العامّة ان يقيل رئيس الوزراء..."، الا انّه لم يحدد ماهيّة وحدود (الضرورة) ومن يعرّفها او يقرّر وجودها، كما انّه لم يبيّن معنى (المصلحة العامّة) وفي ايّ اطار ستكون. كان نوري السّعيد بهذه العبارة مناورا او مجاملا. ومع ذلك فانّ بعض النوّاب عارضوا اقتراح نوري السّعيد هذا، بل اعتبروه تقييد لسلطة الملك وحقّه في اقالة الوزارة بل ذهبوا الى ابعد من ذلك وطالبوا ان تكون سلطة الملك غير مقيّدة ومطلقة في هذا الجانب.

كان في مقدّمة النوّاب الذين تباروا في الخطابة في (حق الملك المطلق) محمود رامز (نائب بغداد) ومحمّد الباقر (نائب الحلة) والحاج رايح العطيّة (نائب الدّيوانيّة) وحسن السّهيل (زعيم بني تميم ونائب بغداد) وسلمان الشيخ داود (نائب بغداد) وصلال الفاضل (نائب الدّيوانيّة).

امّا الذين ايّدوا اقتراح نوري السّعيد للتعديل فهم: عبود الهيمص (نائب الحلّة) وابراهيم يوسف (نائب اربيل) وطالب محمّد علي (نائب المنتفك) وزامل المنّاع (نائب المنتفك) وروبين بطاطو (نائب البصرة) وعبد الوهاب محمود (نائب البصرة) ومولود مخلص (نائب بغداد).

واخيرا وبعد المداولة اخذ بمقترح نوري السّعيد وتمّت بجلسة 27/5/1943 الموافقة على مشروع التعديل كما اراده نوري السّعيد وبالاجماع؛ اذ صوّت 78 نائبا حاضرا وقد غاب 36 نائبا منهم توفيق السّويدي (محاضر مجلس النوّاب – جلسة 27/5/1943 – ص 164).[وفي هذا الموضوع يروي الاستاذ حسين جميل بانّه نما الى علمه انّ غياب توفيق السّويدي كان بطلب من نوري السّعيد الذي كان حريصا على ان يقول انّ تعديل الدّستور تمّ بالاجماع.(حسين جميل – الحياة البرلمانيّة في العراق – ص164-165)، [محضر جلسة 27/5/1943.ص 375 – 417].

وفي 9/6/1943 صدرت الارادة الملكيّة بحلّ مجلس النوّاب وفقا للمادة المائة وتسعة عشر من الدستور التي تنصّ على "..انّه بعد الموافقة على تعديل الدّستور باكثريّة ثلثيّ اعضاء كلّ من مجلس النوّاب ومجلس الاعيان، يحلّ مجلس النوّاب وينتخب مجلس جديد...".

الصّفوة التي صادقت على تعديل الدّستور

اجريت الانتخابات العامّة في عهد وزارة نوري السّعيد السّابعة بتاريخ 5/10/1943 وفي جلسة17/10/1943 صادق على مشروع تعديل الدّستور حيث صوّت له (84) نائبا وتغيّب (29) نائبا ومن ضمنهم توفيق السّويدي الذي تغيّب للمرّة الثانية عند التصويت. [محضر جلسة 17/10/1943،ص39] وبسبب استقالة ثلاثة من الوزراء، فقد استقال نوري السّعيد من رئاسة الوزارة في 19/12/1943، ثم عهد اليه في 25/12/1943 بتأليفها للمرّة الثامنة حيث استحدث فيها نوري السّعيد منصب نائب رئيس الوزراء وعهد الى توفيق السّويدي ليشغله الامر الذي لم يرضي الوصي عبد الإله الذي لم يغفر لتوفيق السّويدي معارضته لتعديل الدستور كما اشرنا سابقا.

وبسبب هذا نشا خلاف بين الوصي ونوري السّعيد ممّا ادّى الى تقديم الاخير استقالته في 9/4/1944، الا انّ الوصيّ لم يوافق عليها. ثمّ قدّم نوري استقالة ثانية في 23/5/1944 واشار في استقالته الى وجود معارضة داخل مجلس النوّاب من الاعضاء الذين رشّحتهم الحكومة وانّ عناصر المعارضة تزعم انّ الوصي كان وراء معارضتهم، لذا فانّ الوصيّ لم يرض بقبول صيغة الاستقالة الثانية فلجا الى قبول صيغة الاستقالة الاولى (9/4/1944)، فعهد بتأليف الوزارة الى حمدي الباججي الذي الف وزارته في 3/6/1944.

توفيق السّويدي والانفتاح السّياسي

عهد الوصي برئاسة الوزارة الى توفيق السّويدي فالّفّ وزارته (للمرّة الثانية) في23 شباط/1946. وقد دشّن عهده بانهاء حالة الاحكام العرفيّة في الثاني من اذار/مارس1946، وكذلك بدا في اعطاء حريّة التنظيم الحزبي بعد ان عطلت بموجب الاحكام العرفيّة التي أعلنت في بغداد منذ 3 حزيران 1941. وفي نيسان 1946 منحت وزارة الدّاخليّة اجازات تأليف خمسة احزاب سياسيّة في البلاد وهي:

اوّلا: الحزب الوطني الديمقراطي.

ثانيا: حزب الاستقلال.

ثالثا: حزب الاحرار.

رابعا: حزب الاتحاد الوطني.

خامسا: حزب الشّعب.

كما اهتمّت حكومة توفيق السّويدي بتنظيم الانتخابات النيابيّة في البلاد، فقدّمت مشروع قانون انتخاب النوّاب الى مجلس النوّاب ونوقش خلال خمس جلسات (من 8 الى 21 مايس/ايّار حيث تمّت الموافقة عليه في صيغته النهائيّة في اليوم الخامس. ثمّ حضي المشروع

بقراءة واقرار مجلس الاعيان له ثمّ في الجريدة الرّسميّة باسم قانون انتخاب النوّاب رقم 11 لسنة 1946.

الصّفوة المعارضة للسّياسة الليبراليّة

تركزت المعارضة لسياسة توفيق السّويدي داخل مجلس الاعيان من قبل صفوة مؤثرّة سياسيّا واجتماعيّا اذ كان في مقدّمة المعارضين: مصطفى العمري وحمدي الباججي ويوسف غنيمة وصادق البصّام والسيّد عبد المهدي المنتفكي وأرشد العمري والشيخ احمد الشيخ داود. ومع انّ الوصي كان يريد الاسراع باعلان قانون الانتخاب الذي جاءت به وزارة السّويدي، الا انّه لم يرد ان يخسر معارضي توفيق السّويدي وهم من المقرّبين اليه. ونتيجة لضغط المعارضين وحملة الانتقادات الشديدة التي كانت موجّهه ضدّه، قدّم السّويدي استقالته في 30 مايس1946 وعهد الوصي بتأليف الوزارة الى أرشد العمري.

كانت استقالة السّويدي خسارة للمسيرة الديمقراطيّة، وضياع فرصة لتطوير النهج البرلماني السّليم، فبدلا من مؤازرته وشدّ أزره وضع المعارضون عصيّهم في عجلة التطوّر الدّستوري فكان موقفهم نصرا للميول الدكتاتوريّة.

من ناحية اخرى دأبت الصّفوة الليبراليّة المعارضة لـ "الفئة الحاكمة" خلال فترة العهد الملكي ان تصوّرها وكانّها معادية للتطوّر الفكري والحضاري بل والبستها ثوب الرّجعيّة والتخلّف والعمالة. وفي هذا الكثير من الظلم والاجحاف لفئة تعتبر اثقف شريحة اجتماعيّة عراقيّة واكفاهم مهنيّا. يقول الاستاذ محمد علي كمال الدين ما يلي:

"..انّ الوزارات العراقيّة منذ الحكم الوطني الاوّل عام 1921 وحتى فترة ليست بالقليلة من العقد الرابع، لم تكن جادّة في محاربة التطوّر الفكري في العراق، بل كانت منذ تأسيسها ترحّب بكلّ مثقف عربي، كما اطلقت الحريّة النسبيّة في بثّ ايّة فكرة او مبدا او راي جديد في السيّاسة والاجتماع والادب والفلسفة والفن، فنشات بذلك مدارس ونواد ومنظمات قوميّة وشيوعيّة ودينيّة وغيرها..".

(محمد علي كمال الدين/التطور الفكري في العراق/ص 64).

ويتحدّث احد اقدم قادة القوميّة العربيّة في العراق انذاك، الشيخ محمد مهدي كبّة زعيم حزب الاستقلال واحد اعلام المعارضة لنوري السّعيد ولبقيّة "الفئة الحاكمة" ليقول:

"... في الثلاثينيات من هذا القرن (القرن العشرين) انتشرت واتسعت المدارك وتوافرت وسائل الاتصال بين مختلف انحاء المعمورة، بما فيها من اداب وثقافات، فبرزت الى الوجود المباديء السّياسيّة المختلفة والنظريّات الاجتماعيّة والاقتصاديّة المتباينة، وأخذت هذه المباديء والنظريات تتبلور وتتركز يوما بعد اخر..". (محمد مهدي كبّة:مذكراتي في صميم الاحداث/دار الطليعة/بيروت/1965/ص54).

مما لا شكّ فيه انّ تلك الصفوة "الفئة الحاكمة" كما كان يطلق عليهم (الليبراليّون الديمقراطيّن) كانوا على صلة وعلاقة حميمة مع عمالقة العلوم والفكر والفلسفة والقانون والادب والفن والاقتصاد العربي والعالمي من امثال الاستاذ عبد الرزاق السّنهوري وزكي مبارك ومحمد احمد الزيّات (من مصر) والفيلسوف الهندي طاغور، وكثيرون غيرهم من اوروبا والعالم الذين طالما احتضنتهم بغداد واستمطرت من علومهم ومعرفتهم الخير الكثير كاساتذة ومستشارين وخبراء في كلياتها ومؤسّسات الدولة.

أرشد العمري يعيد قانون الطواريء

ألّف أرشد العمري وزارته في اليوم الاوّل من شهر حزيران (يونيو) 1946 وكان مخالفا في سياسته لمنهج توفيق السّويدي. لذا لقيت وزارته معارضة شديدة ونقدا قاسيا من الاحزاب الخمسة المجازة وكذلك من قبل الاحزاب والتنظيمات السرّية التي كانت تمارس نشاطاتها انذاك بصورة غير قانونيّة، لذا اراد رئيس الوزراء أرشد العمري ان يصدر قانون الطواريء لكي يتاح له ممارسة السّلطات الاستثنائيّة. وعلى الرّغم من نصح البعض له بتغيير موقفه الا انّه بقي مصرّا على رايه.

يقول مصطفى العمري في يوميّته المؤرّخة في1تشرين الاوّل1946: " .. زرت أرشد العمري ووجدّته مصرّا على اصدار مرسوم الطواريء والا فانّه لايبقى في الحكم. وقال انّ بعض السّاسة راجعوا الوصي لاقناعه بعدم اصداره، مثل السّويدي (توفيق) والبصّام (صادق) الا انّه مصرّ على اصداره [يوميّات مصطفى العمري غير المطبوعة 24/1 و29/1/1946 – عن حسين جميل/الحياة النيابيّة في العراق- ص 171].وممّا ذكره العمري في يوميّاته 14 تشرين الاوّل ايضا:"..واجهت أرشد فاعلمني بعدم موافقة الوصيّ على اصدار المرسوم فقرّر الاستقالة وابلغ سموّه أرشد ليجد له رئيس وزراء..". [المصدر السّابق...].

وحينما قدّم أرشد العمري استقالته في 10 تشرين الاوّل/اكتوبر 1946، لم يعلن الوصي عن قبولها. وفي استقالة العمري الثانية في14 تشرين الثاني/نوفمبر1946 واشار العمري الى ذلك بقوله: " ..كنت قد تشرّفت بتقديم استقالتي من منصب رئاسة الوزارة لسموّكم المعظم بكتابي المرقّم 5057 والمؤرّخ في 10/10/1946، وبيّنت فيه ما يلي:

" ...كما عرضت على سموّكم مرارا قد ظهر لي جليّا انّ ايدي اثيمة تلعب سرّا، وتعبث علنا لتقويض نظام الحكم الديمقراطي في البلاد تحت ستار من الدّعاية الجذابة المغرضة التي يراد بها تغطية هذه المقاصد، الامر الذي يتطلب اعادة النظر في الموقف واختيار انجح الخطط لمعالجة الوضع في البلاد. كما انني وجدت من الاصلح افساح المجال امام سموّكم لتتفضّلوا باتخاذ ما ترونه ضروريّا لمثل هذه المعالجة دون التقيّد بشيء وعليه ارفع استقالتي الى مقامكم السّامي..".[عبد الرزّاق الحسني/تاريخ الوزارات العراقيّة/ج- 7/ط5/ص 131]. لم يكن من

الوصي امام اصرار أرشد العمري على الاستقالة الا قبولها، فقبلها في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1946، ثم عهد بتأليفها الى نوري السّعيد.

نوري السّعيد والهيبة البرلمانيّة

في 21 تشرين الثاني 1946 الّفّ نوري السّعيد وزارته التاسعة بموجب الارادة الملكيّة، كما صدرت في نفس اليوم ارادة اخرى تقضي بحلّ مجلس النوّاب معللا الاسباب: "..بناء على انتقال الوضعيّة العالميّة من حالة الحرب الى حالة السلم، وضرورة اتخاذ تشريعات تلائم هذه الحالة الجديدة التي تتطلب ان يسود السّلم، ورغبة في استطلاع راي الامّة في كيفيّة السّير على هذا المنهج، وبما انّ الوزارة تعتقد ان ذلك يتوقف على انتخاب مجلس جديد يمثل سائر طبقات الامّة طبقا لقانون الانتخاب الحديث فقد اصدرنا الارادة الملكيّة بعد الاطلاع على المادة ال26 المعدّلة من القانون الاساسي: بناء على ما عرضه رئيس الوزراء، بحلّ مجلس النوّاب على ان تجري الانتخابات للمجلس الجديد خلال المدّة القانونيّة.[جريدة الوقائع العراقيّة- عدد:2425 – في 25/11/1946].

ممارسة الصّفوة لحريّة التعبير

انّ استعراضا عامّا لنماذج مختارة من كتابات الصّحف ونصوص الكلمات وخطب السّياسيّن داخل البرلمان وخارجه، وكذلك صيغة البيانات السّياسيّة والعرائض التي كانت تقدّم الى المقامات العليا (بما فيها البلاط الملكي)، تعطي القاريء صورة جليّة عن المساحة الواسعة من الحريّة والنمط الحضاري المحترم من العلاقات الاجتماعيّة بين قيادات الصّفوة السّياسيّة على الرّغم من اختلاف وجهات نظرهم وتباين مبادئهم.

وباستعراضنا لنماذج مختارة لكلّ فترة من سّنين الحكم الوطني في العهد الملكي نكون قد وضّحنا صورة الممارسة الديمقراطيّة على الرّغم من الظروف الصّعبة التي مرّت على العراق وعلى (العالم) خلال فترة ما بين الحربين العالميّتين الاولى والثانية، وهي فترة امتازت بالازمات الاقتصاديّة الكبرى وبالقلق السّياسي والعسكري، علما بانّ الاقتصاد العراقي كان زراعيّا بدائيّا ولم تحتل واردات البترول مكانة فعّالة في الميزانيّة العراقيّة بعد.

انّ دراسة مضمون المقالات الافتتاحيّة او المواضيع المطروحة انذاك على المجتمع وعموم الرأي العام العراقي لوحدها ذات دلالات ومعاني تشير الى مدى نموّ الوعي السّياسي وتفاعل المجتمع وتعامل زعامات الصّفوة السّياسيّة مع بعضهم البعض من جهة ومع الدّولة ومن هم في السّلطة باحترام و ادب جمّ وحوار رائع.الا انّ اهم ما يمكن ان تؤاخذ عليه قيادات الصّفوة السّياسيّة (وحتى اغلبيّة الصّفوة الاجتماعيّة) هو الميل الى المبالغة والتهويل في مناقشاتها للمشاكل المطروحة وكذلك مطالبتها الدّولة والحكومة القائمة بما لا تستطيع تقديمه او انجازه

في ظل الواقع المعاش وفي ظل امكانيّاتها وقدراتها المحدودة انذاك.

فمن الامثلة على ذلك:

ما نشرته جريدة الاهالي في 22/4/1932 مقالا افتتاحيّا بعنوان (التضييق على الحريّات يعوق تقدّم البلاد) جاء فيه: "...امّا الانتخابات فما زالت تجري تحت سيادة الحكومة، وقد تدخلت السّلطة في كلّ الانتخابات السّابقة حتى اصبح شرط النجاح في الانتخاب تأييد السّلطة للمرشح..". ومما جاء في جريدة الاهالي ايضا في مقالها الافتتاحي بتاريخ 29/10/1933 تعقيبا على استقالة وزارة رشيد عالي الكيلاني "..استقالة الوزارة. قضايا البلاد وقضايا الشخصيّات: جاء في الدستور انّ الحكم ديمقراطي ولكنّهم لم يفسحوا المجال لتوفير الوسائل التي تستلزمها الديمقراطيّة، فلم يحاولوا ان يدرّبوا الشعب على الانتخابات الحرّة، بل لم يفسحوا له المجال لان يدرّب نفسه على الانتخابات الحرّة فينتخب من يختار من ابنائه. واقاموا في البلاد كتلا لا صيغة لها سمّوها بالاحزاب، فحرموا البلاد من نموّ الاحزاب الحقيقيّة وبتدخلهم في الانتخابات الى المجالس، وبتأليفهم هذه الكتل التي سمّوها الاحزاب، تركوا المجال واسعا امامهم لاعلاء صوتهم فوق صوت الامّة، واملاء ارادتهم على خلاف ما ترغب فيه الامّة. كلّ ذلك ليحفظوا لانفسهم حقّ التمتّع بخيرات هذه البلاد دون الشّعب، وليحتفظوا لانفسهم بالكراسي ما داموا على قيد الحياة. لقد تدخّلوا في كلّ شيء، فافسدوا كلّ شيء..".

وفي مقال افتتاحي اخر لجريدة الاهالي في 13/2/1934 جاء فيه: "... انّ الانتخابات تجري باشكال والوان تبعدها عن ان تكون انتخابات حقيقيّة، فتاتي من جرّاء ذلك مجالس تؤيّد كلّ وزارة تاتي الى الحكم. وكثيرا ما كانت الصّحف تنشر انباء عن ازمات سياسيّة واحتمال استقالة وزير او وزارة بكاملها كما حدث لوزارة جميل المدفعي الثانية حيث استقالت في 25 آب على اثر النشر، وقد بلغ الامر بجريدة الاهالي في عدد13 تمّوز/يوليو 1934 ان وجّهت نقدا لاذعا عن الحياة النيابيّة حينما تساءلت "..من ذا يعتقد انّ هذه البلاد تمتعت بحياة نيابيّة صحيحة، وكان لها راي ومشيئة في انتخاب النوّاب وتولية الوزارات. انّ قيمة هذه المظاهر أصبحت معروفة لدى النّاس، فلا احد ظلّ يؤمن بانّها تنيل خيرا للشعب ان بقيت على هذا المنوال..".

وفي مقال افتتاحي حول قيام وزارة علي جودت الايّوبي بحلّ المجلس النيابي كتبت الاهالي في السّادس من ايلول/سبتمبر 1934.. "..انّ الانتخابات تجري على الطريقة التي أصبحت معروفة لدى الجميع والتي جعلت من النوّاب موظفي حكومة يخافون منها على مناصبهم وليسوا وكلاء الشّعب في مراقبتها.

وعن الانتخابات ووزارة علي جودت الايّوبي ايضا كتبت جريدة المبدا التي حلّت محلّ الاهالي المعطّلة - مقالا افتتاحيّا - بقلم محمد جعفر ابو التمّن - بتاريخ 10/2/1935 جاء فيه:"..لم يبق لهذه الوزارة من مؤيّدين الا الذين كان انتخابهم للمجلس النيابي اشبه بالتعيين،

وتلك حقيقة لم تبق خافية على احد..".

وعن الانتخابات ايضا كتبت جريدة الاهالي في 25/1/1937 مقالا افتتاحيّا جاء فيه: "..كان من الملاحظ المعروف في السّنين الماضية عندما كانت تجري الانتخابات، انّ الشّعب يبقى مكتوف الأيدي تجاهها، باعتبار عدم اهميّة العمليّة نفسها. لانّ الحكومات كانت تتولّى تعيين النوّاب فمن العبث ان يصرف الناس جهودا تضيع في واقع الحال. وقد انتجت هذه الاعمال غير القانونيّة بطبيعة الحال الى انسحاب الناس ذوي الحقوق واعتزالهم ممارسة حقوقهم المشروعة التي تعتبر من اهم مميّزات تمتع الافراد بالديمقراطيّة الحقّة..".

الصّحف تراقب مجالس النوّاب

كان للصحف العراقيّة مواقف مشهودة في مراقبة اعمال مجالس النوّاب ودورها في خدمة الامّة.

ففي مقال افتتاحي لجريدة الاهالي (عدد 13/2/1934) انتقدت فاعليّة مجالس النوّاب بقولها:"..لا اثر للمجالس النّيابيّة في بقاء وزارة او سقوطها، حتى انّ المجالس تجهل اسباب هذا الامر، ولم تحاول يوما ان يكون لها القول الفصل فيه، وذلك ما يجعلنا نتساءل، من هو المرجع الحقيقي لقيام الوزارات وسقوطها..". ومما جاء فيه ايضا ".. كما ان الانتخابات تجري باشكال والوان تبعدها عن ان تكون انتخابات حقيقيّة، فتاتي من جرّاء ذلك مجالس تؤيّد كلّ وزارة تأتي الى الحكم..".

ونشرت جريدة الاهالي في 15/2/1934 في مقالها الافتتاحي نقدا شديدا لسياسة هدر الاموال العامّة قالت فيه ما يلي: "..حيث التشكيلات في بلادنا وفي ضمنها المجالس النيّابيّة والوزارات وما اشبه ذلك من مظاهر واسماء فيه شيء من طرافة... هذه المظاهر تستهلك من الاموال العامّة معظمها ان لم نقل اغلبها من غير ان تعطي النّاس فائدة تقارب ما ينفق عليها من نفقات باهضة...".

وفي 6/9/1934 نشرت الاهالي مقالا افتتاحيّا تناولت فيه علاقة المجلس النيابي بالحكومة وموجهة نقدا شديدا للنوّاب الذين لا يدركون خطورة مهمّتهم واهميّة دورهم اذ قالت:

"..أتت الحكومة الحاضرة (وزارة علي جودت الايّوبي) الى الحكم والمجلس النّيابي في عطلة، فلم تعلم فيما اذا كان سيؤيّدها ام لا؟ واننا على يقين بانّه لو لم يُحل لعاضد الحكومة كما عاضد الحكومات الاخرى بدون ايّ تردّد.اذ لم تدخل في المجالس النيابيّة العراقيّة منذ تأسيسها حتى الان العناصر التي تجرؤ اكثريّتها على التصويت ضدّ الحكومة. واننا نعتقد انّ المجالس النيابيّة ستبقى على حالتها هذه ما دامت الانتخابات لها تجري على الطريقة التي اصبحت معروفة لدى الجميع والتي جعلت من النوّاب موظفي حكومة يخافون منها على مناصبهم وليسوا وكلاء الشّعب في مراقبتها..".

وانتقدت جريدة الاهالي في عددها 24/4/1933 سرعة استجابة النوّاب برفع الأيدي للموافقة حالما تشعر برغبة الحكومة في الحصول على التأييد بكلمة (موافق) فقالت:

"..كانت اكثريّة الأيدي ترفع سراعا عجلى كانّما هي الات ركّبت على اجساد كلّما سمعت طلب الموافقة ارتفعت،ولم تسمع في الجلسة الا اصوات الموافقين بعد ان أخذت آراءهم فرادى،وانفضت الجلسة بعد عشرة دقائق من اجتماعها..".

وكثيرا ما تثير الصّحف مسالة نمط الحكم الدستوري في العراق،وتلفت انظار القرّاء الى النصوص والاحكام التي جاءت في الدستور العراقي ونظام الحكم الملكي الدستوري ودور البرلمان وعلاقته بالوزارة. وكذلك كثيرا ما تبحث اهميّة الوزارة (السلطة التنفيذية) وحدود سلطتها ومسؤوليّتها امام مجلس النوّاب. ولا تتردّد الصّحف من التأكيد على انّ اساس شرعيّة الحكومة هو حصولها على ثقة مجلس الامّة. ففي عدد 28 حزيران 1933 كتبت صحيفة الاهالي:

"...ليس في تاريخنا السّياسي من الحوادث التي تدلّ على وجود هذه القواعد، بل هنالك ما يدلّ على ما يناقضها، فقد سلكت الحكومات العراقيّة تجاه مجلس الامّة مسلكا يظهر منه انّ مجلس الامّة مسؤول امام الحكومة ولا عكس، اذ نرى الحكومات المختلفة تتحكّم بالمجلس وتحله عندما تريد. ولا نعتقد انّ المجلس نفسه اراد يوما ان يظهر عدم ثقة بالحكومة، او اراد ان يمارس السّلطات التي خوّلها ايّاها الدستور، بل انّه رضي لنفسه ان تسيّره الوزارة كيف شاءت..". وكتبت الصّحيفة ايضا في هذا السّياق:"... واذا بحثنا عن اسباب استقالة الوزارات المختلفة نجد انّه ليس بين تلك الاستقالات ما يعود الى موضوع اختلاف بين الحكومة والبرلمان (مجلس الامّة) انما تعود اسباب الاستقالة الى اختلاف بين الوزارات وجهات اخرى لا سلطة لها على الحكومة حسب الدّستور. فمن الطبيعي ان يكون المجلس الة بيد الحكومة ما دامت الحكومة تتدخل في انتخابه، بل مادام اعضاء المجلس لا تنتخبهم الامّة بالفعل بل تعيّنهم الحكومة، وما دام الدستور لا يضع حدّا لصلاحيّات وسلطات كلّ هيئة من هيئاته، فالاصول البرلماني في الحكم كالة السّاعة اذا نقص او اختلّ احد اجزائها ارتبكت الالة كلّها...". وفي 12/11/1933 وصفت جريدة الاهالي اعضاء مجلس النوّاب بما يلي:

".. من المؤسف ان نرى بعض كبار موظفي الشركات الاجنبيّة يشغلون مقاعد في المجلس النيابي.وكان الواجب يقضي على هؤلاء ان لا يجمعوا بين النيابة والاشتغال في الشركات الاجنبيّة لانّ في ذلك اضرارا كبيرة لا تخفى على احد خاصّة في وضع كوضع العراق فيه تأثير كبير للاجانب على اغلب شؤونه..."، "..وقد استغربنا ما سمعناه انّ بين المرشحين الى رئاسة المجلس النيابي احد موظفي شركة استثمار النفط البريطانيّة. وفي اعتقادنا انّ هذا المنصب يجب ان لا يشغله ايّ شخص له علاقة ما بشركة كالشركات التي ذكرناها اذ لهذا المنصب اهميّة معنويّة وسياسيّة كبيرة. ولذلك نودّ ان ينتخب النوّاب من بينهم رئيسا لا تكون له صلة بالمؤسّسات الاجنبيّة. كما نؤمّل ان لا يتقدّم ذلك الموظف الى هذا المقام...". [انّ الشخص

المقصود بهذا المقال هو عبد القادر رشيد الذي سبق له وان شغل منصب وزير الخارجيّة في وزارة ناجي شوكت. وعندما اجتمع مجلس النوّاب في 8/3/1933 فشل بانتخاب رئاسة المجلس اذ انتخب النوّاب جميل المدفعي رئيسا له.. (حسين جميل/الحياة النيّابيّة في العراق، ص 180)..]. وكثيرا ما كانت الصّحف تتناول مواضيع اعباء التكاليف الماليّة التي تتحمّلها الدّولة من جرّاء تمديد الاجتماعات غير الاعتياديّة لمجلس النوّاب وتتساءل هل انّ ما يقوم به النوّاب من اداء واجباتهم داخل المجلس وما يأتون به من منافع بمستوى ما ينفق عليهم من رواتب ومخصّصات. فقد كتبت جريدة الاهالي بتاريخ 18/4/1934 مقالا افتتاحيّا جاء فيه:

" .. لسنا نريد الان ان نتعرّض الى هذا المجلس النيابي بما اتاه، ولا في تأييده لعدّة وزارات متخالفة، وتصديقه قوانينها جميعا، انما نراه غير نشط في الاجتماعات، وهو وان كان يوافق على القوانين التي تعرضها الحكومة على علاتها دون ان يجري عليها تعديلا مهمّا في غير الالفاظ والعبارات التي لا تتناول الاسس، الا انّه قد بان في مدّة اجتماعه غير الاعتيادي بانّ اكثر اعضائه النوّاب زاد عدم اهتمامهم في حضور الجلسات، ولهذا اصبحنا نخشى ان تلجا الحكومة الى تمديد اخر فنكلف ماليّة الدولة اعباء فوق اعبائها وتذهب الاموال العامّة سدى..". واضافت الاهالي ايضا:

"..انها تأمل ان يتجنّبوا – الحديث عن النوّاب – ترك الاجتماعات لانّهم يأخذون اجورا عن ذلك، فكيف يسوغ لهم ان يقبضوها ولم يؤدّوا ما على عاتقهم.." .

الصّفوة العراقيّة: ما لها وما عليها

اتّبعت صفوة المعارضة الوطنيّة العلنيّة منذ انشاء الدّولة العراقيّة الحديثة الاسلوب الدّيمقراطي في التعبير عن خلافاتها مع الحكومة القائمة او في توجيه النقد لاعمالها، او شنّ حملة توعية ضدّ ايّ مشروع تراه يضرّ بالمصلحة العامّة او باستقلال وكرامة الوطن والدولة.

كانت البداية صحيحة وصحيّة للمسيرة الديمقراطيّة لا سيّما الصّحفيّة وبقيّة الوسائل الاعلاميّة في عهد الملك فيصل الاوّل.الا انّ سلوك الدّولة (باجهزتها الحكوميّة) تجاه الصّحافة بشكل خاص ووسائل التعبير عن الرأي بشكل عام من جهة، وكذلك الاخطاء التي ارتكبتها الصّحافة والصّحفيون من جهة اخرى منذ وفاة الملك الراحل فيصل الاوّل عام 1933 قد وضعت عراقيل حقيقيّة حالت دون التطوّر الطبيعي للصّحافة كمؤسسّة وطنيّة من المؤسسّات الديمقراطيّة العاملة ولبقيّة المؤسسّات الدستوريّة الاخرى التي تستعملها المعارضة كسلاح من اسلحتها في مراقبة السّلطة ومحاسبتها.

استمرّت المعارضة في استخدام اسلوب الحوار والمنطق الموضوعي سواء على صفحات

الجرائد او في خطب نوّابها داخل البرلمان بكلّ موضوعيّة ووقار طيلة حياة الملك المؤسس فيصل الاوّل لا سيّما بعد حصول المملكة العراقيّة على استقلالها ودخولها عصبة الامم سنة 1932. الا انّها بعد وفاة فيصل وحصول فراغ سياسي في قيادة المملكة ومجيء الملك الشاب غازي الاوّل القليل الخبرة في شؤون السّياسة والحكم خلفا لابيه وتراجع دور(البلاط الملكي) في القرار السّياسي العراقي، وتصاعد دور رئيس الوزراء (الحكومة) على حساب البلاط، ازداد دور الصّحافة في التعبئة الجماهيرية والتحريض كوسيلة قويّة بيد الحكومة والمعارضة على السّواء.اذ لم ينصف ولم يرحم كلّ منهم الاخر في حالتي الهجوم والدّفاع.

وخلال فترة وزارة علي جودت الايّوبي (27/8/1934) توسّعت المعارضة وازدادت حملاتها الصّحفيّة قساوة وعنفا لا سيّما بعد اعلان نتائج الانتخابات النّيابيّة التي اجراها الايّوبي في خريف عام 1934. [حسين جميل – المصدر/ص181]. وكانت للحملات الصّحفيّة وللاجتماعات الخاصّة والعامة التي كانت تنظمها عناصر المعارضة دورا سلبيّا في انتقال النشاط المعارض من مرحلة المناقشة والحوار (مهما كان اسلوبه) داخل مجلس النوّاب وعلى صفحات الجرائد الى مرحلة التامر في الاوكار السريّة واعداد الخطط البعيدة عن ايّ اسلوب ديمقراطي.

فقد بدا في اواخر عام 1934 م تجمّع عشائري قاده حكمت سليمان ورشيد عالي الكيلاني كما مرّ بنا، وهو التجمّع الذي يطلق عليه بعض المؤرّخين "مؤامرة الصّليخ" [والصليخ حيّ سكني جميل غالبيّة سكانه من صفوة الملاكين والاثرياء يقع شمال بغداد ومن بين بيوته داريّ كلّ من رشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان حيث كانت تعقد فيهما الاجتماعات التامريّة]، وقد انضمّ الى زمرة المجتمعين فيما بعد ياسين الهاشمي المعارض والخطيب البرلماني. وأخذت الافكار والخطط التي تعدّ في "الصليخ" تترجم الى سلوك تخريبي داخل البرلمان حيث تعطّل اللوائح والقوانين التي تصدّرها وزارة الايّوبي ممّا كان له ابلغ الأثر في استقالة وزارته في 23/2/1935 كما اشرنا سابقا.

حينما راى (المعارضون) انّهم قد نجحوا في اسقاط وزارة الايّوبي حينما شلّوّا نشاطها داخل البرلمان (وبشكل خاص في مجلس الاعيان) وجدوا في وزارة جميل المدفعي التي خلّفت الايّوبي انّها هي الاخرى ستتهاوى امام اسلوبهم (الجديد)، لذا زادوا من حملاتهم الصّحفيّة الشديدة حيث تنشر الصّحف المعارضة ما يبدا به المعارضون داخل البرلمان من حملات وتشهير وفي نفس الوقت كانت اجتماعات الصّليخ تزداد قوّة حتى انتهت لتكون عملا فاعلا عن طريق القيام بعصيان عشائري مسلّح واسع قامت به قبائل الفرات الاوسط وبذلك دخلت المعارضة مرحلة العصيان المسلّح فاستقالت وزارة جميل المدفعي وشكّل الوزارة ياسين الهاشمي في 17/3/1935 وهو الشخص الذي اختاره مؤتمر الصّليخ، وقد اكّد هذا نصّ التقرير الذي كتبه السّفير البريطاني في بغداد وارسله الى وزير خارجيّته في لندن في 17/6/1935 حيث جاء فيه: " ... عملا بمشورة رئيس مجلس الاعيان ورئيس

مجلس النوّاب وعلي جودت الايّوبي نفسه، استدعى الملك ياسين الهاشمي باشا وكلّفه بتشكيل الوزارة. مشترطا عليه ان تكون الوزارة ائتلافيّة او وطنيّة (A coalition or National Cabinet) وان لا يشترك فيها احد ممّن شارك في التآمر مع عشائر الفرات، وانّ لا يطلب حلّ مجلس النوّاب.."، وجاء في التقرير ايضا: " ... انّ هذه الشروط برايي شروط حكيمة، اقرّ ياسين باشا نفسه بانّها ضروريّة – ان وزارة الإخاء الوطني الذي ينتسب اليه معظم رجال المعارضة لا يؤمّن لها الاكثريّة في مجلس النوّاب.امّا حلّ المجلس الذي لم يظهر الى الوجود الا قبل ثلاثة اشهر، فانّ ذلك يظهر نظام الحكم البرلماني هزيلا. ومثل ذلك ان يأتي الى الحكم الرّجال الذين كانوا عناصر رئيسيّة في التمرّد العشائري فانّ ذلك يشكل سابقة خطرة قد تؤدّي الى نتائج مهمّة في المستقبل (بند4).." . واخيرا يرى السّفير البريطاني انّه "..وجد ياسين الهاشمي انّ شروط الملك تخلق له صعوبات لا يمكن التغلّب عليها، فانّ اعضاء (حزب الوحدة الوطنيّة) حزب الاكثريّة في مجلس النوّاب لا يتعاونون معه ما لم يعط علي جودت حقيبة وزاريّة. في حين انّ رفقاءه في المعارضة لا يوافقون على الاشتراك في وزارة يكون علي جودت عضوا فيها. لذلك فانّه اعتذر عن تشكيل الوزارة..". (بند5).، F.O.371/18945/E،1792/278/93 [March 18.1935]

[F.O.371/20016/E4263- 284/para.6] ولكون جميل المدفعي مؤيّدا من قبل اكثريّة البرلمان ولانّه وزير دفاع سابق في وزارة الايّوبي المستقيلة، فقد كلفه الملك برئاسة الوزارة فالّف الوزارة في 4/3/1935.

لم تواجه وزارة المدفعي مشاكل او صعوبات داخل مجلس النوّاب لاسباب كثيرة اهمّها انّ اكثريّة المجلس تؤيّده لانّه من كبار قادة حزب الوحدة الوطنيّة (وهو حزب برلماني الفّه علي جودت الايّوبي في10/12/1934)، والامر الاخر انّ المجلس قد انتخب علي جودت الايّوبي رئيسا له باكثريّة 74 صوتا بتاريخ 5/3/1935. وفي الجلسات اللاحقة جرت المصادقة على اللوائح التي قدّمت له.لذا فانّ المعارضة كانت هادئة داخل المجلس ولم تواجه وزارة جميل المدفعي تحدّيا او مشاكل بل جاءت من خارج المجلس فقد كانت الاجتماعات تتوالى في داري حكمت سليمان ورشيد عالي الكيلاني في الصّليخ وكان رؤساء العشائر الفاعلين يحضرونها وفي مقدمتهم الشيخ عبد الواحد الحاج سكر زعيم ال فتلة واشهر قادة ثورة العشرين في الفرات الاوسط، والسيّد محسن ابو طبيخ وكذلك الشيخ شعلان العطيّة (الدغارة) والشيخ سماوي الجلوب احد زعماء ال فتلة في الهنديّة والشيخ حبيب الخيزران رئيس قبيلة العزّة في ديالى. وبينما أخذت حوادث التمرّد المسلّح والفوضى تنتشر في مناطق الفرات الاوسط، كان مجلس الوزراء منعقدا لدراسة الموقف حيث لم تستطع الوزارة اتخاذ قرار حازم لمعالجة الموقف المتصاعد سياسيّا وعسكريّا. وهكذا نرى انّ سجالات وخلافات الصّفوة المعارضة انتقلت من داخل البرلمان الى خارجه وتحوّلت من معارضة كلاميّة - خطابيّة الى معارضة مسلحة دمويّة يتواطأ قادتها ويتآمرون خارج اطار شرعيّة النظام الديمقراطي البرلماني وهو

المنهج السّياسي الذي ازداد حدة وسوءا بعد سقوط النظام الملكي وقيام الانقلابات المتتابعة وحتى وقوع الاحتلال المهين عام 2003.

من المعارضة العشائريّة الى الانقلاب العسكري

لم يجد الملك غازي الاوّل امام اضطراب الأمن الذي اشعلته المعارضة السّياسيّة العشائريّة الا تكليف ياسين الهاشمي (احد اقطاب جماعة الصّليخ) بتأليف الوزارة فشكل وزارته الثانية في دون تسلمّه شروطا مسبقة من قبل الملك.

F.O.371/18945/E20961/278/93 ،April 1st ،1935 17/3/1935

لم يقم ياسين الهاشمي بايّة خطوة لتعزيز المؤسسّات الدستوريّة لا سيّما البرلمان،كما لم يقم بتقوية دور التنظيمات السّياسيّة كالاحزاب والنقابات والصّحف ووسائل الاعلام، وهي مباديء كانت الشعارات المركزيّة لجماعته (مجموعة الصّليخ) وبقيّة قوى المعارضة، بل عمل العكس، فقد سعى قبل كلّ شيء الى حلّ مجلس النوّاب بموجب الارادة الملكيّة التي صدرت في 19/4/1935 والتي جاء فيها:

"..بموجب الاصول الدستوريّة التي تقضي بان يسود التآزر بين السّلطة التشريعيّة والسّلطة التنفيذيّة، ولما كانت الظروف الحاضرة تستلزم بان يكون التآزر بين السّلطتين على اتّم ما عليه، لتتمكن الوزارة من القيام باعمال اصلاحيّة خطيرة، ولما كانت الوزارة لا تشعر بوجود هذا التآزر بينها وبين مجلس النوّاب الحالي، فقد صدرت الارادة الملكيّة بحلّ مجلس النوّاب والبدء بانتخاب مجلس جديد..". [المصدر السّابق..] بعد ان حلّ مجلس النوّاب اراد ياسين الهاشمي توضيح سياسته للراي العام بانه ضدّ تعدّد الاحزاب، فقام في 29/4/1935 بتجميد نشاطات حزبه كما اشرنا سابقا.

تراجع الصّفوة عن قيادة المجتمع

شهد المسرح السّياسي العراقي توقفا ثمّ تراجعا واضحا في مسيرة بناء المؤسسّات الديمقراطيّة منذ الوفاة المبكرّ لمؤسّس العراق الحديث، الملك فيصل الاوّل عام 1933، وحصول فراغ في قيادة الدولة والمجتمع كما اشرت سابقا.

لقد اصاب بناء(النخبة) الصّفوة العراقيّة، تصدّعا واضحا بعد فيصل بسبب استشراء التنافس والانانيّة بين صفوف افرادها، واخذ الانتهازيّون والوصوليّون يلتفوّن حول القيادات ويتقدّمون ويحتلون المواقع الاماميّة في وظائف الدولة وفي المجتمع بعد ان كانوا في مؤخرته.

وبالتدريج تسرّبت النزعة الفرديّة التسلّطيّة لدى زعامات الصّفوة السّياسيّة داخل

الاحزاب وخارجها ولم يعد للمؤسّسات الدستوريّة القول الفاصل كما كانت في البداية. وكنتيجة لما تقدّم، بدات العامّة وجهلة الناس تتقدم نحو المواقع الاماميّة كقوّة عدديّة ضاغطة من جهة، وداعمة للانتهازيين والوصوليّين من رموز الصّفوة (افرادا واحزابا علمانيّة او دينيّة) من جهة اخرى، ولذلك ايضا اخذت الرّوح العنصريّة والطائفيّة والمناطقيّة تستفحل في الجسد الطريّ للمملكة العراقيّة الهاشميّة الحديثة الولادة. واخذت غالبيّة الصّفوة القياديّة (العلمانيّة والدّينيّة) اما ان تناى بنفسها عن الميدان وتعتكف اعتدادا بكرامتها وترفعّها عن المساهمة في الفساد والافساد،اواخرى تتزلّف للعامة وللرّعاع وتحاول كسب تأييدهم ودعمهم ولو على حساب الحقيقة والواقع وجوهر الشريعة. فأصبحت العامّة تقود الصّفوة وليس العكس، حيث كثر تملق قيادات الصّفوة لجمهور العامّة والرّعاع، وسكت كبار علماء الدين وغضّوا النظر عما كان يجري من اخطاء وتجاوزات بحقّ المعبود والعباد باسم الدّين وهو منها براء. كما أخذوا يغضّون النظر عن ممارسات البدع والخرافات بل اخذ البعض منهم يساهم في فعاليّاتها وطقوسها ارضاءا لافراد العامّة ليكسبهم. هذا التدليس هو الذي اوجد فراغا في قيادة المجتمع وسهّل للعامة من ابناء المجتمع وانصاف المثقفين والمغمورين وحتى الجهلة والصبيان لكي يزحفوا الى مواقع قياديّة في توجيه المجتمع وافساده من جميع النواحي. وقد ساهم في هذه النقلة الخطيرة منذ عام 1935 بشكل مباشر تدخل بعض قيادات الجيش في السّياسة وفي شؤون الدولة بشكل واضح، وكذلك كان للعمل السّياسي السّري للاحزاب والاجتماعات التآمريّة في البيوت النائية والاقبية السّريّة اخطر الادوار في اضعاف منزلة الصّفوة وتأثيرها في المجتمع العراقي.

لقد لعبت اساليب الخداع وتضليل المجتمع التي كانت ولا زالت تتّبع في العمل السّري اخطر الادوار،لا سيّما اتخاذها الاسماء الحركيّة التي لا يعرف عنها ابناء المجتمع سوى الاسماء المجرّدة المفردة (حازم،سعيد، صارم، فهد، سيف...الخ)، او عناوين المواقع الحزبيّة والمهام المجهولة (عضو اللجنة المحليّة او المركزيّة، عضو شعبة،عضو قيادة قطريّة او الامين العام او عضو منظمة حنين..الخ) والى غير ذلك من الاسماء والالقاب الطنانة التي طالما كانت ولا زالت تبهر بسطاء الناس وعامّة المجتمع وانصاف المثقفين. بينما لم يعلم افراد المجتمع ايّ شيء عنها ولاعن حقيقة تاريخ اسرهم ولا انتماءاتهم ولا سلوكيّاتهم، وبطبيعة الحال ولا حتى مؤهّلاتهم الدراسيّة او العلميّة ولو بالقدر المعقول....! يروي زكي خيري وهو احد كبار قادة الحزب الشيوعي العراقي في مذكراته ما يلي:

"..حينما اعلن محمّد جعفر ابو التمّن تجميد حزبه واعتزاله السّياسة احتجاجا على سلوك حليفه ياسين الهاشمي معه وبسبب خلافه مع اخرين، واقترح البعض عقد مؤتمر حزبي وانتخاب هيئة اداريّة وقيادة جديدة، ردّ الاستاذ فهمي المدرّس، المفكر الاديب واحد قادة الحزب متسائلا: ومن الذي ننسّبه؟ علوّ..او..جلوّ. وهي كناية عاميّة بغداديّة عن اسمي علي وجليل (الشعبيّن). اذ يستغرب المدرّس انتخاب قيادة بديلة للحزب من غير الوجوه

والشخصيّات المعروفة. ثمّ يعلّق زكي خيري على موقف الاستاذ فهمي المدرّس: كان واضحا انّ الحاجة تدعو الى حزب جديد لا يعرف التجميد ولا الزعل على السّياسة ولا يحلّ نفسه بنفسه، حزب يقوده علوّ..وجلوّ بالذات. وقد بدا فهد (يقصد يوسف سلمان الذي كانت كفاءته انّه بلا شهادة دراسيّة وكان عامل يدوي باجرة يوميّة في معمل صناعة قطع الثلج في مدينة الناصريّة ثم التحق بمعهد في روسيا لدراسة الشيوعية والتنظيم واساليب العمل الحزبي) فعلا بوضع اللبنات الاساسيّة لهذا الحزب لبنة لبنة..". (زكي خيري/المصدر- ص 69). وقد كان معروفا عن فهد انه كان معاد للمثقفين داخل حزبه وقد طردهم من التنظيم مبررا بان حزبه حزب العمال والفلاحين فقط.

انّ تعليق زكي خيري على اسلوب التجميد والاعتزال في العمل السّياسي واضح؛ هدفه السّخريّة من هذا الاسلوب ويسمّيه (الدلال البرجوازي)، ولا اعتقد انه يخفى عليه انه اسلوب شائع في العمل السّياسي على كافة المستويات المحليّة والعالميّة، وبشكل خاص في المجتمعات الشرقيّة عبر التاريخ.

فالقادة الكبار وصفوة المجتمع واعيانه ممّن يشعرون بحبّ الناس وتقديرهم لهم، يعلمون بالاثر الكبير الذي يتركه غيابهم عن السّاحة السّياسيّة او عزوفهم عن المساهمة في الاحداث الكبرى (اذا ما اعتزلوا او زعلوا). وهذا ما حصل في عصر صدر الاسلام حينما اعتزل الامام عليّ بن ابي طالب عليه السّلام بعد اجتماع السّقيفة وجلس في بيته ستة اشهر، واعتزال صحابة رسول الله (ص) بعيدا عن معركتي الجمل وصفيّن واثناء الصراع بين الامام علي وبين معاوية، وكذلك اثناء بقيّة الصراعات الاخرى عبر التاريخ.

وفي العصر الحديث لابدّ من الاشارة الى اعتزال العديد من الزعامات العربيّة والاسلاميّة وغيرها في الصراعات التي وقعت في مناطق شبه جزيرة العرب بين ال سعود امراء نجد، وال الرّشيد امراء حائل والاشراف الهاشميّن في الحجاز. وقصّة اعتزال المهاتما غاندي زعيم حركة تحرير الهند من الاستعمار البريطاني واستخدامه اسلوب الصّوم عن الطّعام احتجاجا على اقتتال الهندوس والمسلمين ثمّ لم يلبث ان يعود الى نشاطه حالما يستجيب له اتباعه ومريدوه ومحبّوه.

وباعتبار زكي خيري من صفوة الرّعيل الاوّل لزعماء وبناة الحزب الشيوعي العراقي فانّنا لا نتردد بالاستشهاد بكتاباته كنموذج لوجهة نظر احد بناة الحزب الشيوعي حول مؤسسّات النظام البرلماني في العهد الملكي. يقول الاستاذ زكي خيري في مذكراته: ".. لقد ادخل الانتداب البرلمانيّة البريطانيّة الى العراق بعد تعهيرها..". هكذا بكل بساطة وبمثل هذا التعبير السّوقي يختزل زكي خيري النظام البرلماني العراقي الملكي الذي كان منبرا حرّا للصفوة العراقيّة وساحة رحبة يتبارى فيها كبار ممثلي الشعب العراقي ورجالاته من الذين لم يشهد العراق لهم نظيرا في الاصالة والعلم والمواقف الوطنيّة والتضحيات وخدمة الوطن. لقد كان الواجب على الاستاذ زكي خيري تجاه القرّاء – لا سيّما شباب اليوم – ان يذكر بموضوعيّة

جوانب نجاحات الحياة البرلمانيّة العراقيّة وجوانب فشلها. وان يذكر للجيل الجديد حقيقة ثابتة وهي ان الحياة البرلمانيّة العراقيّة في العهد الملكي ما كانت توجد لولا مطاليب دعاة الحريّة والاستقلال والتي كانت اهمّ ثمرة من ثمار ثورة العشرين الكبرى.

وباعتبار الاستاذ زكي خيري كان يشتغل مترجما في القنصليّة البريطانيّة وفي مكتب الاعلام الحربي الامريكي في بغداد (زكي خيري/المصدر- ص-117 119)، فلابدّ انّه كان على اطلاع تام بحقيقة انّ الانتداب البريطاني ما كان ان يستجيب لرغبة العراقييّن في الحياة البرلمانيّة الا بعد ان قدّم صفوة زعماء العراق ثمنا باهظا لحريّتهم. كما لابدّ له وان كان على معرفة بانّ البريطانييّن لطالما ظلوا يحتالون على الدستور العراقي وعلى البرلمان العراقي عبر صنائعهم الذين اوصلوهم الى سدة الحكم. بينما لم يكفّ الخطباء البرلمانيّون المشهورون من امثال محمد جعفر ابو التمّن وياسين الهاشمي وتوفيق السّويدي وناجي السّويدي وطه الهاشمي وعبد المحسن السّعدون ومحمّد رضا الشبيبي وعشرات من امثالهم من صفوة زعماء العراق من محاولات التحرّر من نفوذ بريطانيا عبر اللعبة البرلمانيّة. وبقي البرلمانيّون العراقيّون صوت العراقيين وضميرهم حتى اغتيال الحياة البرلمانيّة برمّتها في العراق يوم انهيار النظام الملكي البرلماني بانقلاب 14 تموز1958. حيث ابتدأت صفحة جديدة من الانظمة الشموليّة المتتابعة التي رسّخت أسسها الفاسدة ودكتاتوريّاتها الاحزاب السّياسيّة (التي تدّعي الثوريّة والتقدّميّة وتنادي بالديمقراطيّة) التي رضيت ودلسّت بسكوتها وبتحالفاتها على الغاء الدستور العراقي لعام 1925 واستبداله بدساتير مؤقتة ولدت عاطلة ومعطلة ومضلله بنواقصها وعيوبها وعدم شرعيّتها، حيث بقي العراق حتى نهاية القرن العشرين يأنّ تحت حكم مُذليّه وجلاديه وسارقي ثرواته وليبدأ القرن الواحد والعشرين عاريا ومهدّما وفاقدا استقلاله الوطني بالاحتلال البغيض عام 2003 الذي وضع العراق و شعبه امام طريق جديد ومسؤوليّات جسام لاعادة تحرير الوطن وبنائه وتطهيره من كل مباذل وعار الاحتلال، انّه القدر الذي لا مهرب منه بالنسبة لصفوة اليوم المؤهّلة الوارثة لقيم الوطنيّة والنزاهة وشرف الشعور بالمسؤوليّة والوفاء لله وللوطن، هذه الصّفوة التي تقود الشرفاء الوطنييّن المؤمنين، هي ايضا تُقاد بهم وبقيم الاباء والاجداد من البناة الاوائل.

الصّفوة العراقيّة وسنوات القلق

انّ الذي يطلع على المرحلة التي اعقبت الحرب العالميّة الثانية في العراق، لا سيّما سنوات (1952 – 1958)، او الذي عاصر احداثها السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة فبامكانه ان يسمّيها (سنوات القلق). فعلى الصّعيد الدولي، حدث تغيير جوهري في مراكز القوى العالميّة بعد ان تحطمت قوى كبرى وظهرت قوى يافعة وقويّة وغنيّة جدّا. فبعد ان سقطت دول المحور (المانيا وايطاليا واليابان) بعد ان خسرت الحرب، خرجت كل من الولايات المتحدة الامريكيّة وروسيا (الاتحاد السوفيتي) كاقوى دولتين في العالم. وخرجت بريطانيا (العظمى) منهوكة

القوى مثلما ضعفت اقتصاديّا وسياسيّا بعد ان خسرت مستعمراتها ومناطق نفوذها (التي كانت لا تغيب عنها الشمس)، وبقيت تصارع وتناور لكي تحافظ على ما تبقى لها من مناطق نفوذ ومصالح حيويّة عبر شرعيّة وحقوق المعاهدات والاتفاقيّات التي سبق لها وان عقدتها مع بعض الدول الصغيرة والامارات والمحميّات، والعراق كان من ضمنها. ويمكننا اعتبار سنوات الخمسينيات اهمّ السنوات التي حددّت مسيرة العراق ومستقبل شعبه، لاسباب دوليّة واقليميّة ووطنيّة اهمّها:

اولا: على الصّعيد الداخلي الاقتصادي، لم يكن العراق مستثنى من تأثير الازمة الاقتصاديّة العالميّة الخانقة التي اعقبت الحرب العالميّة الثانية على شعوب العالم، وبشكل خاص كانت الخمس سنوات الاولى بعد انتهاء الحرب قاسية وشديدة جدا على الشعب العراقي. فقد كان يعاني من ازمة البطالة في المدن،ونقص شديد في الخدمات الصّحية،وازمة في السكن، وقلة في توفير المواد الغذائيّة والمواد الاستهلاكيّة. وفي مثل هكذا ظروف تنشط عادة تحالف الرأسمالية المحلية والعالمية وتتشابك مصالحهم في اغلب الاحيان. وفي ظل هذه الاوضاع ايضا تتميّز نشاطات الصّفوة (الحاكمة والمحكومة) بمحاولة خلق حالة من التوازن تراعى فيها مصالح جميع الاطراف للتوفيق فيما بينها.

فمن جهة حاولت الصّفوة العراقيّة الحاكمة ان تراعي وتنمي علاقاتها مع بريطانيا بسبب تشابك مصالحها معها لا سيّما في عمليّات تصدير المواد العراقيّة الخام لمصانعها مثلما تستورد منتوجاتها الصّناعيّة منها. ومن جهة اخرى سعت الصّفوة لتوفير متطلبات السّوق والمستهلكين. وبطبيعة الحال بدا النفط يشكل اهم مورد للدولة وكمصدر رئيسي للدخل الوطني ولماكنة الاقتصاد العراقي بشكل عام. وفي ظل مثل تلك الظروف الاقتصاديّة القلقة والصّعبة التي كان يمرّ بها المجتمع العراقي، نشطت غالبيّة الصّفوة السّياسيّة المثقفة في العراق،لا سيّما المنتمون منهم الى الاحزاب وبشكل خاص الاحزاب السريّة التي تنتهز الفرص لتزيد الازمة قلقا واشتعالا (احتجاجات ومظاهرات وانتفاضات سنوات 1952،1954،1956 وما بينها) واخذت تطالب الصّفوة الحاكمة بما لا يمكن تحقيقه في ظل الاوضاع القائمة وامكانيّات الدولة المتيسّرة انذاك وهي محدودة جدا، مما اضاف اعباءا ثقيلة على البلد برمّته وعرقل مسيرته من جميع الوجوه.

ثانيا: بسبب نمو حركات التحرّر الوطنيّة والمطالبة بالاستقلال (بقدر ما يتعلق الامر بالشرق الاوسط)،مثل قيام حكومة مصدّق وتاميم النفط في ايران في عام 1952، وقيام (ثورة) 23 يوليو 1952 في مصر، وثورة الجزائر عام 1954 وانتهاء فترة حكومات الانقلابات وقيام الديمقراطيّة في سوريا عام 1954، ووقوع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956؛ فقد أثرت احداث المنطقة بشكل سلبي على الاوضاع العراقيّة الداخليّة سياسيّا واجتماعيّا واقتصاديّا، وخلقت ازمات حقيقيّة وهوّة عميقة بين الصّفوتين الحاكمة والمحكومة (وغالبيّتها مفتعلة ومبالغ فيها) كان من الممكن حلّها سلميّا وضمن المؤسّسات الدستوريّة التي

كانت قائمة وفي مقدمتها البرلمان بمجلسيه النوّاب والاعيان. فعلى سبيل المثال كان نصرة العراق لفلسطين وللثورة الجزائريّة واجب ديني وقومي وانساني قبل ان يكون قومي عربي. وكذلك دعم الشقيقة مصر واجب مؤكد على كافة الاصعدة اثناء العدوان الثلاثي عليها عام1956،ولكن الاحزاب السياسية العراقيّة (لا سيّما السرّية منها) بسبب انانيّة زعاماتها وعدم شعورها بمسؤوليّة الحفاظ على كيان العراق واستقراره، جعلت من تلك الاحداث فرصة مناسبة لاضعاف الدولة العراقيّة للاطاحة بالنظام الملكي برمته كرها بالنظام القائم لاحبا بمصر وبالجزائر او فلسطين والدليل على ذلك ان احزاب المعارضة التي رفعت شعارات التحرير والديمقراطيّة والوحدة العربيّة، هي نفسها، بعد ان استولت على الحكم،لم تجري الاصلاحات التي سبق وان طالبت بها وكذلك حاربت الوحدة العربيّة بشتى الوسائل حينما اصبحت في متناول ايديها، بل وعززت نزعة القطريّة بعد استيلائها على السّلطة سواء في العراق او في الدول العربيّة الاخرى.

ثالثا: لقد افرزت الحرب العظمى الثانية نتائج خطيرة ومتعدده على شعوب العالم اجمع وكان من اهم واخطر نتائجها التي اثرّت وبشكل مباشر على المنطقة؛ هو نجاح الصّهيونيّة العالميّة في تحقيق مشروعها العنصري الديني الاستيطاني في فلسطين بنهب اراضيهم وبيوتهم بموجوداتها وتشريد غالبيّة سكانها وليبقوا لاجئين خارج وطنهم وموزعين في العالم منذ عام النكبة 1947 وحتى اليوم في اسوء وضع مادي ونفسي.

لقد تميّز العراقيّون عن جميع العرب والمسلمين انّهم سبقوا الجميع بتحدّيهم للمشروع الصّهيوني منذ وقت مبكر جدّا وقبل قيام الكيان الصّهيوني بعقود من السنين ودفعوا ولا يزالون يدفعون ثمنا غاليا لذلك التحدي. فقد ثاروا ضدّه من الاعماق منذ جريمة اعلان وعد بلفور عام 1917. فمنذ ذلك الوعد البريطاني المشؤوم اقترنت جميع النشاطات والخطب السياسيّة والقصائد وادبيات الصحف والمجلات العراقيّة بالدفاع عن معانات الفلسطينييّن من اليهود الصهاينة وتزايد هجراتهم الى فلسطين. كما شهدت بغداد اوّل تظاهره عربيّة ضد زيارة الصهيوني الفريد موند عام 1928 لبغداد. كما ساندت غالبيّة الحكومات في العهد الملكي رسميّا منظمات المقاومة الفلسطينيّة بالمال والسلاح والعتاد وتأسيس الجمعيات لنصرة فلسطين طيلة السنوات التي سبقت اعلان تقسيم فلسطين وقيام الكيان الصهيوني. وكان امين الحسيني (مفتي القدس) ناشطا في بغداد وشبه مقيم فيها حتى قيام حركة رشيد عالي الكيلاني عام 1941.

لقد لعبت قضيّة فلسطين منذ بدايتها، ولا تزال، دورا مركزيا في جميع نشاطات القوى السّياسية والادبيّة والفكريّة العراقيّة منذ اوائل العشرينيّات وحتى اليوم (عدا موقف الحزب الشيوعي العراقي السّري الذي ايّد فيه انشاء الكيان الصهيوني في فلسطين(نشرت جريدة لواء الاستقلال تفاصيل الموقف في الاعداد الصّادرة في تاريخ 13،19،20،30 ايلول 1948).

لقد كانت القضيّة الفلسطينيّة الشغل الشاغل للصّفوة العراقيّة، الحاكمة والمحكومة،كما كانت ولا زالت دائما الهمّ اليومي للشعب العراقي سواء ايام استقراره وهنائه او أيّام عذابه. ففي سنوات الخمسينيّات وهي السنين التي اعقبت مباشرة انشاء الكيان الصّهيوني يمكننا القول بشكل جازم ان جميع الانشطة السيّاسيّة والادبيّة والفنيّة، كانت للقضيّة الفلسطينيّة موقعا مركزيّا فيها بمثابة المحور الذي تدور حوله جميع النشاطات السياسية والفكريّة في العراق،ولكن الخطا الظالم الذي وقعت فيه الصفوتان المعارضتان، السياسية والمثقفة، هو انها حملت حكومات النظام الملكي جريمة تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين.

لم تستثمر الصّفوة العراقيّة، ولو بالقدر المعقول، سنوات القلق النفسي والفكري والسّياسي في عراق الخمسينيّات في دعوة المجتمع وتثقيفه واعداده لبناء المؤسسات الدستوريّة وابراز اهميّتها والمطالبة بتطبيق الديمقراطيّة التي كانت مؤسساتها قائمة انذاك وتطويرها بموجب الاسس الدستوريّة والقانونيّة، بل راحت تخطط وتهيّء الاجواء للتغيير الفوقي عن طريق الاعداد لانقلاب عسكري جديد مقلدة بذلك انقلاب 23 يوليو 1952الذي حدث في مصر وعقد صفقة غير معلنة وكذلك غير مضمونة بين جبهة الاتحاد الوطني (التي كانت تضم الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال والحزبين السّريين: الشيوعي العراقي وحزب البعث) وبين عناصر عسكريّة وهي ما اطلق عليه فيما بعد بقيادة تنظيم الضباط الاحرار الذي لم يولد في ارض الواقع الا في سنة 1957 (اي قبل اقل من عام من قيام انقلاب 14 تموز 1958).

رابعا: كانت غالبيّة الصّفوة من الشعب العراقي تبدو قلقة وغير حاسمة امرها طيلة سنوات الخمسينيّات. فقد كانت حائرة ازاء الاوضاع الوطنيّة والعربيّة التي كانت تحيط بها، وكانها في دوّامة بين الشعارات البرّاقة التي كانت تطرحها القوى السّياسيّة المعارضة انذاك لتحقيق (وطن حرّ وشعب سعيد) و (الوحدة مع سورية ومصر) اذا ماتمّ التخلصّ من النظام الملكي، وبين واقع اصبح ملموسا نتج عن ممارسة الصّفوة الحاكمة لخدمة المصالح الوطنيّة العراقيّة لا سيّما بعد ان بدات الانجازات الحضاريّة لمجلس الاعمار تظهر للعيان وعلى ارض الواقع العراقي، بل ومنذ ان تسلمّ الملك فيصل الثاني بن غازي الاوّل عام 1954 مهام مسؤولياته كملك. لذا بدا الشعب العراقي يفقد ثقته تدريجيّا بالصّفوة السّياسيّة العراقيّة (المعارضة) بسبب ما كان يراه من تناقض بين المباديء والشعارات البرّاقة التي كانت تطرحها الاحزاب والقوى الاخرى لانها مبالغة وغير منصفة في عدائها للنظام القائم انذاك،وبين ما كان يراه ضمن الواقع الملموس من بداية نهضة اعماريّة ومحاولات جادة للنظام الملكي لحل المشكلات التي كانت قائمة وفي مقدمتها مشاكل الفلاحين وحقوق الكرد والتركمان والمكوّنات الاخرى المذهبيّة والعرقيّة وبين النظام السياسي القائم انذاك.

خامسا: بسبب اختلاف المواقف بين اطراف المعارضة السّياسيّة العراقية ازاء القضايا القوميّة العربيّة وبين ضرورات المصالح الوطنيّة العراقيّة، بدا الاستقطاب يتبلور فيما بينها

واخذ كلّ طرف ينغلق على ذاته ويجمع الانصار حوله وان لم يأخذ طابع العنف الدموي، اذ كانت مسالة الاطاحة بالنظام الملكي هو القاسم المشترك وما عداه كان مؤجلا. وهنالك جانب مهم مهّد كثيرا لتوسيع الهوّة بين القوى السّياسيّة انذاك (قبل سقوط الملكيّة وبعدها) ذلك هو الموقف السلبي لقوى اليسار عموما، وفي مقدمتها الحزب الشوعي العراقي السرّي، من الطموحات القومية المشروعة لعرب العراق (وهم غالبيّة المجتمع) لا سيّما بعد اعلان الوحدة بين مصر وسورية ومن الدعوة الى الحياد بين المعسكرين، الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي، والغربي بزعامة الولايات المتحدة الامريكيّة.فقد كان قوى اليسار العراقي عموما ضدّ التوجهات القوميّة لعرب العراق، وكان ميالا بشكل واضح الى المعسكر الشرقي تحت شعار(ترسيخ الصداقة مع الاتحاد السوفيتي).

انّ ممّا يؤسف له انّ سنوات الخمسينيّات القلقة باحداثها الخطيرة في العراق وفي منطقة الشرق الاوسط، لم يحسب لها الحساب الكافي بمستوى خطورتها واستشراف نتائج تطوّراتها على العراق، لامن قبل الصّفوة الحاكمة ولا من قبل عموم المعارضة العراقية. وفي مثل هذه الظروف القلقة تكون الفرصة سانحة للمغامرين ولعشاق السلطة لاختطاف الحكم، والتحكم بالبلاد والعباد. فكان ذلك من اهم عوامل حصول الفراغ السّياسي وغياب الصّفوة القديرة التي تقود المجتمع والدولة.

عودة نفوذ صفوة علماء الدين

منذ بداية العهد الجمهوري في 14 تمّوز عام 1958، وبعد ان تحقق الهدف المشترك لقوى المعارضة (الاطاحة بالنظام الملكي)،ومنذ الايّام الاولى للانقلاب دخلت الاحزاب وكافة النقابات والتنظيمات المهنيّة والسّياسيّة العراقيّة في دوّامة الصّراعات الحادّة والعنف الدموي؛ كما صاحبتها سلسلة متتابعة من التآمر وتنفيذ الانقلابات (العسكريّة - الحزبيّة) التي حرمت العراق من الاستقرار وفرص التطوّر الحضاري الحديث واضاعت ثرواته الطائلة التي هي رصيد الحاضر وضمان مستقبل الاجيال القادمة. وبسبب تلك الظروف المريرة وزيف الادعاءات والتناقض في الممارسات اليومية للاحزاب بين المباديء والشعارات الخادعة والمضللة (لدعاة العقائد والمباديء) اخذت غالبيّة ابناء المجتمع العراقي تفقد بالتدريج ثقتها بالاحزاب السريّة وحتى اللبراليّة العلنيّة ممّا ولّد فراغا فكريّا ونفسيّا في السّاحة السّياسيّة كان لابدّ من ملئه تلقائيّا حسب القوانين الفيزيائيّة التي ترفض وجود الفراغ. لذا عاد نفوذ علماء الدين يبرزفي السّاحة السّياسيّة العراقيّة ليتصاعد فكريّا وسياسيّا وينشط تنظيميّا منذ اواخر سنوات الخمسينيات.

لقد برزت اهميّة الفكر الدّيني تتجلى بشكل واضح في التحرّكات والنشاطات والاصدارات الفكريّة والاعلاميّة الجديدة انذاك، واصبحت ذات منطق ومظهر جديدين وغير تقليدي

وتتناسب مع تطلعات الاجيال الجديدة وتتماشى مع الشباب وروح العصر الحديث.

لقد كان على راس ذلك التوجّه الجديد الامام الشهيد اية الله السّيد محمد باقر الصّدر. الا ان اهم مظهر للنفوذ الديني الجديد والخطير جدا، وبإطاره الواسع هو الطابع الطائفي غير المقصود لذلك التحرّك الذي تلوّنت به كافة الاحزاب والتنظيمات السّياسيّة الاسلاميّة العراقيّة الجديدة (الشيعيّة والسّنيّة) لا سيّما خلال العقدين الاخيرين من القرن العشرين. ولم يتعدّ الطابع الطائفي في اوّل الامر حدود الاستقطاب عند انتماء الناس الى تنظيمات المذهبين الرّئيسييّن (السّني والشيعي) بشكل تلقائي خال من الاحتكاك او الصدامات.

لقد نشط في العراق سياسيا وبشكل واضح منذ عام 1959 صفوة من المراجع الاسلاميّة من ذوي المكانة الاجتماعية والعلم (وكان ابرزهم تحسين عبد القادر الفخري والعلامة الشيخ محمد محمود الصّواف والشيخ عبد العزيز البدري وصالح سرية وابو علي حسين الدبوني وامين السّامرائي من السّنة، والشيخ محمّد رضا الشبيبي ذو التاريخ السّياسي العريق الممتدّ منذ بداية القرن العشرين والمرجع الكبير الامام السيّد محسن الحكيم والعالم المفكر الامام السيّد محمد باقر الصّدر وعبد الصّاحب دخيل والسيّد حسن شبّر من الشيعة. وتساندهم بحماس مجموعة علمائيّة من شباب المدارس الدينيّة والحوزات العلميّة وبعض المثقفين المتديّنين من طلاب ومنتسبي المدارس والجامعات ودوائرالدولة والعاملين في الاسواق التجاريّة (من السنّة والشيعة) الذين امنوا عقائديّا بانّ الدين الاسلامي والسياسة لاينفصلان كمنهج للحياة في الدولة والمجتمع. وعلى الرّغم من انّ الكتابات والتوجّه الخطابي لجميع المراجع والمفكرّين العراقيين كان اسلامي عام للسنة والشيعة،الا انّ طبيعة وواقع النشاطات والفعاليّات العامّة (اجتماعيّا وجغرافيّا) والاتجاهات العمليّة للتنظيمات وللاحزاب اتخذت في التطبيق مظهرا ومنحا مذهبيّا وطائفيّا ممّا ولّد استقطابا واضحا في السّاحة الاسلاميّة العراقيّة ولكنه غير متقاطع بشكله العام، وهذا امر لم يحدث سابقا خلال النصف الاوّل من القرن العشرين.

وعلى الرّغم من ظهور نشاطات الكتلتين الاسلاميّتين (السنيّة والشيعيّة) خلال العقود الاربعة الاخيرة من القرن العشرين، الا انهما كانا منسجمين ولم يتصادما ميدانيّا او حتى لم يدخلا بمساجلات فقهيّة او بحوارات طائفيّة معلنة بوسائل الاعلام (كما حصل ولا يزال يحصل بعد الاحتلال المهين لبغداد عام 2003. ومن السخريّة ان مساجلات اليوم تتبناها عناصر تدعي التقدمية والوحدوية والعلمانية)، وربما كان ذلك بسبب اعتقادهم بوجود خطر مشترك مهدّدا للاسلام ولكليهما انذاك (موجة الالحاد والخطر الشيوعي 1959-1963). لقد كانت الصّفوتان، السنيّة والشيعيّة منسجمتان ان لم نقل متحالفتان ميدانيّا انذاك، وكان ذلك التحالف واحدا من الاسباب المباشرة لاضعاف حكومة عبد الكريم قاسم واسقاط نظامه في 8 شباط 1963.

لقد عاد نفوذ علماء الدين يتصاعد سريعا مرّة اخرى بين عموم افراد المجتمع العراقي في

الرّبع الاخير من القرن العشرين واحتلّ موقعا قويّا مع مطلع القرن الواحد والعشرين. فقد انتشر بشكل اقوى بين الشباب بل وغدا مؤثرا في الراي العام وبشكل اوسع مما كان عليه في مطلع القرن العشرين وليحتل مرّة اخرى موقعا مسؤولا ومباشرا في المجتمع والدولة بشكل واسع، لا سيّما في الحياة السّياسيّة في العراق اليوم لسببين رئيسيّين هما:

اولا: حصول فراغ فكري وسّياسي في اوساط المجتمع العراقي بعد فشل المباديء القوميّة والليبراليّة الاخرى (كالقوميّة العربيّة الناصريّة والشيوعيّة والبعثيّة والاشتراكيّة وغيرها) لثبوت ضعف مصداقيّتها وعدم قدرتها على تقديم الحلول الناجحة والتصدّي للمشاكل الداخليّة والخارجيّة التي كانت ولاتزال ترهق المجتمع نفسيّا وتقلق باله حول مستقبل العراق والامّة باجمعها.

وفي مقدّمة المشاكل التي تقلق بعمق جميع مكوّنات العراق اليوم هي؛ الفساد المستشري على كافة الاصعدة وخطر العدوان الاجنبيّ الشامل والمستمر، والاحتلال بجميع اشكاله، والاذلال الاستعماري الصّهيوني للعراق ولجميع مكوّنات الامّة العربيّة والاسلاميّة وتهديدها لقيمها الدّينيّة والتراثيّة. والتخريب المتعمّد والمبرمج لجميع مرافق الحياة الحضاريّة للامّة ونهب ثرواتها، وتهديده الجدّي لتراثها ومستقبل اجيالها القادمة. لذا تقدّم الاسلام (ذو الجذور العميقة في مجتمعاتنا) مرّة اخرى ليكتسح جميع المباديء والعقائد الليبراليّة التي سبق وان احتلت السّاحة السّياسيّة العراقيّة في القرن الماضي وقت غيابه وتربعت على كراسيّ الحكم لاكثر من نصف قرن من الزمن، وعاد الاسلام ليحلّ محلّها على الرغم من جميع مظاهر الضعف والمحدوديّة وحتى فساد العديد من صفوة القيادات الاسلاميّة اليوم وتدليسها على حساب القيم والمباديء الاسلاميّة الاصيلة. هذا الفساد يشكل اليوم الازمة الحقيقيّة التي تهدّد مستقبل تنظيماته رغم تبوّئها المكان الاوّل في كافة مرافق الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة العراقيّة تقريبا.

ثانيا: حينما انشات المملكة العراقيّة عام 1921 واقيمت مؤسسّاتها الحديثة في بداية القرن الماضي، فانّ صّفوة البناة الاوائل، رغم تمسّكهم بالدّين، ارادوا ان تكون الدولة علمانيّة وذات مؤسسات حرة وغير مقيدة على غرار المؤسسّات الدستوريّة في الدول الاوروبيّة الغربيّة (بالذات ديمقراطيّة على النمط البريطاني)، السّياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والتعليميّة وحتى في ازياء الملابس وبقيّة جوانب الحياة الاجتماعيّة.

لقد لقيت محاولة الاستنساخ تلك في اوّل الامر اعتراضا ومقاومة عراقيّة بعضها معلنا ولكنه غير مؤثر(كلام وخطب ومواعظ علماء الدين التقليديين)، واخر غير معلن ذاتي – وهو الاقوى والاشد تأثيرا – تلك هي ثبات العادات والتقاليد والقيم الايمانيّة الاسلاميّة والتراثيّة الرّاسخة داخل كلّ بيت واسرة وفي وجدان الغالبيّة العظمى من الادباء والشعراء من ابناء العراق (والامّة).

هذه حقائق قد ادركها خصوم الاسلام الاجانب اكثرمن خصومه في الداخل. وقد جابهوه

ولا يزالون يجابهونه باساليب وبخطط علميّة مبرمجة سواء معلنة ام غير معلنة، بينما اعتمد خصوم الاسلام في الدّاخل اتباع منهجين: الافساد... والارهاب. وعلى الرّغم من المعارضة الملموسة لذلك النهج الجديد (التحديث)، الا انّ الصّفوة من علماء الدين وقادة المجتمع لم يستطيعوا الوقوف بوجه الموجة (الليبراليّة العصريّة) والصّفوة الرّاغبة بالحداثة والتحديث لا سيّما انها كانت مغرية للجيل الجديد وتلقى دعما قويّا من قبل الدّولة العراقيّة وكانت ترعاها الادارة البريطانيّة مباشرة لفترة طويلة؛ منذ الاحتلال وحتى انتهاء فترة الانتداب عام 1932، وبشكل غير مباشر حتى ما بعد عام 1959 كما اشرت سابقا.

لقد اثبتت احداث العراق، السّابقة واللاحقة، مدى خطورة النتائج التي جاء بها طالبوا الحداثة والتغييّر السّريع بالقفز على المراحل التاريخيّة وتجاهل متطلبّات مراحل النموّ والتطوّر الطبيعي لمجتمع متخلف كان قد خرج لتوّه من نفق الاربعة قرون المظلمة تحت شعارات (ثورة المجتمع واختزال المراحل). فقد تحوّلت جميع تلك المحاولات (التغييّر السريع ومحاولة اختزال الزّمن) الى المساهمة بشكل مباشر في دعم انظمة شموليّة ودكتاتوريّات مدمّرة قادت بنفسها عمليّة تغيير سطحي وبشكل مشوّه وغير نافع.

لقد ادّت الانظمة القسريّة الدكتاتوريّة التي ساهمت في صناعتها وبررّتها الاحزاب السريّة الى انتكاسات وردّة الى الوراء بشكل لم يشهدها العراق من قبل، فكان من اوّل ضحاياها غالبيّة افراد الصّفوة الوطنيّة القائدة للمجتمع والتي كان المؤمّل منها قيادة عمليّة التغييّر التدريجي نحو المستقبل الافضل، فمضوا ما بين قتيل وسجين ومشرّد في المنافي حيث عاشوا وماتوا ودفنوا بعيدا عن وطنهم واهلهم.

وحينما نقارن الان بين الصّفوة الوطنيّة التي قادت المجتمع في مطلع القرن الماضي، لا سيّما تلك التي قادت ثورة العشرين الوطنيّة الكبرى وانشأت الدولة العراقيّة الحديثة بسجلها الحافل المشرّف في خدمة العراق، وبين الصّفوة الاجتماعيّة الهزيلة في العقود الاخيرة التي هدّمت تدريجيّا ما شيّده الاوائل، والتي اتبّعت بشكل ذيليّ وذليل القوى الاجنبيّة لاحتلال بغداد عام 2003 م نعرف مقدار الضّرر العظيم الذي لحق بالعراق وبمستقبل الاجيال القادمة، حينما فرّط ابناؤه بالصّفوة الاولى القائدة الحكيمة وسمحوا للمغامرين الجهلة من عشاق السّلطة بالتجاوز على مواقعها وهيبتها تحت طائلة عمليّة الحداثة والتغييّر والتي لم يجن منها العراق الا ان اصبح جسدا بلا راس.

لقد جعلت غالبيّة افراد صّفوة العقود المتأخرة من مكوناتها الاجتماعيّة وانتماءاتها الدينيّة والطائفيّة والعرقيّة واجهة لتبرير كل ضرر وفساد وسرقة المال العام، حتى اصبح العراق اليوم كدولة وحكومة، البلد الاكثر فسادا وتخلفا وتفريطا بالكرامة الانسانيّة وبحقوق الاستقلال الوطني بين دول المنطقة الاوسطيّة بل والعالم اجمع.

14 تمّوز/يوليو 1958 بداية النهاية للصّفوة العراقيّة

تعتبر مرحلة ما بعد انقلاب الرابع عشر من تموز1958 بداية مرحلة جديدة وخطيرة في تاريخ العراق والدولة العراقيّة الحديثة والمجتمع العراقي بكامله. ولانها وضعت العراق وشعبه على طريق شائك وخطير قد يهدد مستقبل وجوده كدولة راسخة الاركان وكشعب موحّد الا عراق، فلا بدّ للبقيّة الصالحة من مثقفيه واصحاب الرأي والحكمة ان يعيدوا النظر في دراسة هذه المرحلة الفاصلة في تاريخ العراق الحديث بكل بصراحة وموضوعيّة. فعلى الرغم من كثرة ما كتب عن هذه المرحلة من بحوث وكتب ومؤلفات بعضها قيّمة من قبل العراقيين وغيرهم، الا ان غالبيتها تغلب عليها النزعة التبريريّة والدفاعيّة عن الاحداث والسلوك، الفردي او الجماعي، وكذلك المواقف التي اتخذها هذا الفرد او ذلك الحزب او الفصيل العسكري او المدني من العراقيين في تلك المرحلة. وانصافا للحقيقة يمكننا القول ان ما كتبه الاجانب، لا سيّما اولئك الذين عملوا في العراق في تلك المرحلة تستحق الثناء والتقدير.

ولان مرحلة ما بعد الرابع عشر من تموز قد شهدت انهيار "الصفوة العراقيّة" تدريجيّا ومن ثمّ غيابها وتلاشي تأثيرها في قيادة المجتمع والدولة في العراق كما حصل في نهاية القرن الماضي، فقد لجا المؤلف الى الاكتفاء بتسليط اضاءات واشارات عن هذه المرحلة الخطيرة كمقدمة لبحث قادم وخاص عنها ان شاء الله تعالى:

× في فجر يوم 14 تمّوز/يوليو 1958 فاجأت محطة اذاعة راديو بغداد العراقييّن والعالم اجمع باذاعة ما عُرف بالبيان رقم واحد الذي اعلن فيه فجاة الغاء الملكيّة واقامة النظام الجمهوري في العراق. هكذا وبكل بساطة انتقل العراق من نظام ملكي الى جمهوري بموجب اذاعة نصّ بيان عدد سطوره اقلّ من صفحة واحدة،صادرعن (القائد العام للقوّات المسلحّة) المجهول الاسم والشكل تماما.

× كان الحدث مباغتا ومروّعا لا سيّما في سرعة تنفيذ الانقلابييّن لمخططهم وجراتهم في ارتكاب مجزرتهم الوحشيّة بقتل الاسرة المالكة الهاشميّة وهم عزّلا، وكذلك قتل بعض افراد الصّفوة من المسؤولين من العراقييّن - وعدد من غير العراقييّن الذين كانوا ضيوفا لحكومة بغداد - بدم بارد وبدون محاكمة وتسليم جثثهم للهمج من الرّعاع ليتسلوّن في التقطيع والتمثيل بها وسحلهم في شوارع بغداد خلال الايّام الاولى من الانقلاب.

× لم يجري قادة واعضاء حكومة الانقلاب ايّ تحقيق ولم يعلن عن اتخاذ ايّة اجراءات قانونيّة تجاه الجناة سواء بحق الخاصة او العامّة من العسكريين او المدنيين الذين ارتكبوا تلك الافعال الشنيعة. وبذلك العمل المشين فقد سنّ قادة العهد الجمهوري الجديد سنّة سيّئة ما فتات ان طبّقت عليهم وبشكل أسوء يوم نجح الانقلاب عليهم بعد اربعة سنوات ونصف في 8 شباط/فبراير 1963 وما تلتها من انقلابات متتابعة.

× على الرّغم من انّ الحدث الكبير الذي وقع يوم الرّابع عشر من تمّوز/يوليو1958 كان نقطة تحوّل كبرى في تاريخ العراق الحديث سمّاه الكثيرون ثورة، الا انّه يبقى في واقعه واحداثه انقلابا عسكريّا قامت به مجموعة صغيرة من ضباط وعناصر محدودة العدد من الجيش العراقي بعد ان خططوا له سرّا ونفذوه تحت جنح الظلام (ليلة 13/14 تمّوز) وهم الذين قد اطلقوا على انفسهم (الضباط الاحرار) وهو تنظيم سريّ لمجموعة صغيرة من الضباط لا يتجاوز عدد اعضائه انذاك المئة والثلاثين ضابطا، وغالبيّتهم العظمى كانوا من الشباب ذوي الرّتب الصّغيرة والوحدات غير الفعّالة ومن اصول اجتماعيّة متواضعة، مع حفنة من ذوي الرّتب المتوسّطة ممّن ينتمون ايضا الى اسرغير معروفة بتاريخ جهادي او في خدمة المجتمع العراقي.

× ومما لاشكّ فيه انّ نجاح الانقلاب المفاجيء قد حسم بالعنف والدم (ولو مؤقتا) ازمة سياسيّة ظلت معلقة في السّياسة العراقيّة طيلة ربع قرن من الزمن وقادتها نحو الفوضى وتدمير اركان الدولة العصريّة. تلك الازمة التي بدات بموت الملك فيصل الاوّل مؤسسّ الدولة العراقيّة الحديثة وما زالت تحتل المكان الاوّل فيها وهي ازمة شرعيّة الحكم وانتقال السّلطة.

× ان الحركة العسكريّة المباغتة التي نجحت في ضربتها الاولى في فجرالرابع عشر من تموّز، ما كانت تسمى (ثورة) لوانّ ابسط مقاومة او حتى اطلاقات نار حدثت من قبل وحدة الحرس الملكي. او انّ عائقا للقوّة الصّغيرة المهاجمة قد وقع او ايّ احتمال للعرقلة حدث، ولكان اسم الثورة والقاب قادتها قد اندثرت او تحوّلت الى مسميات مناقضة لما اضفى عليها فيما بعد. لقد كانت حركة عسكريّة مغامرة وجريئة وضربة دقيقة اعتمدت في نجاحها تماما على عنصر المباغتة وتصفية الخصم فورا بدم بارد وهو اسلوب مغامر سبق وان استخدمه عبر التاريخ قادة عسكريون من المماليك وبعض الامراء العثمانيون في العهود المظلمة، حيث كان بعضها ينجح ويوصل اصحابه الى كرسي الحكم واخر يفشل يؤدي به الى خشبة الجلاد.

× تتمسك القوى السياسية العراقيّة اليساريّة بشكل عام، والحزب الشيوعي بشكل خاص بانقلاب الرابع عشر من تموز1958 وتعتبره اهم انجازاتها (كثورة) الى درجة ان الدكتورة الشيوعية سعاد خيري كتبت متجرئة على حقائق التاريخ لتقول "...ان تاريخ الثورات يدلنا على ان الثورة لا تنتصر الا متى نضجت العوامل الذاتية وفي مقدمتها وجود حزب الطليعة الثورية (اي الحزب الشيوعي)...ان وجود هذا الحزب شرط حاسم لانتصار الثورة.." !!،د.سعاد خيري/كتاب ثورة 14 تموز../دار ابن خلدون –بيروت/ط اولى 1980 – ص 46). ومثل هذا القول تدعي الفصائل والاحزاب العراقية الاخرى مثل هذا الادعاء الذي تنفيه واقع ذلك الحدث المفاجيء ووقائعه.

× ومع وضعنا في الاعتبار الواقع السّياسي القلق للصّفوة العراقيّة انذاك، وان هناك حاجة

ماسّة الى اجراء اصلاح شامل للنظام السّياسي والاقتصادي في العراق وفي جهاز الحكم فيه لمعالجة ازمته، وقد بدات الدولة فعلا باتخاذ الخطوات العمليّة لذلك، الا انّ القفز على السّلطة واغتصابها بالغدر واغتيال العزّل وبالاسلوب الإنقلابي المغامر الذي اتبع في ليلة 13 - 14 تمّوز،قد فتح الباب بعد ذلك على مصراعيه في العراق امام زمر متتالية وكتل متتابعة من العسكريّين المغامرين ومن الطلبة الفاشلين والشقاة العاطلين ولكل من هبّ ودبّ لاختطاف الحكم وسرقة السلطة بكل ما فيها من امتيازات ماديّة ومعنويّة، مثلما فتحت حدود الوطن بعد انهاكه فيما بعد للمتربصين به من القوى الخارجية للتجاوز على سيادته ونهب اجزاء عزيزة من ارضه، ومن ثمّ اعادة احتلاله وسرقة ثرواته وكنوزه الوطنيّة وتعطيل مسيرته الحضارية.

× لقد كتب عدد كبير من الباحثين والمؤرّخين عن احداث الرابع عشر من تمّوز، وتناولوا سيرة من اطلقوا على انفسهم اسم (اعضاء تنظيم الضبّاط الاحرار) او من مؤرّخي تلك الفترة. وكانوا بطبيعة الحال بين موالين او معارضين لها. وتناولت كتاباتهم تفاصيل تتفق احيانا فيما بينها وتتناقض احيانا اخرى. الا انّ توفرّ المصادر الاوّليّة لا سيّما بعد اطلاق الوثائق الرّسميّة بعد مرور الفترة الزمنيّة المحدّدة لها قانونا من قبل مؤسسّات حفظ الوثائق البريطانيّة ودول اخرى ساعدت كثيرا على اعداد دراسات موضوعيّة عن الفترة مابين الحرب العالميّة الاولى والثانية عن العراق. بينما بقيت فترة ما بعد 14 تمّوز يتستّر عليها وتعاني من نقص شديد للاسانيد الدقيقة والوثائق التاريخيّة المتعلقة بها برغم مرور فترة تزيد عن الفترة المسموح باطلاقها. انّ مثل هذا الموقف، حبس وثائق محدّدة التي تمتلكها تلك المؤسسات، تعطينا صورة واضحة حول مهمّة الوطنيين من الباحثين والمؤرّخين حيال قضيّتهم.

انّ الدول الكبرى التي تضع دول منطقة الشرق الاوسط ضمن مناطق نفوذها ومصالحها الاستراتيجيّة وامنها القومي سوف تبقى على موقفها هذا. وسوف لا تطلق من الوثائق والاسرار الا ما تريد هي اطلاقها وما تريد لنا نحن ان نقراها وفق حسابات وتصوّرات تعنيها هي لا سيّما المتعلقة منها بسياساتها الرّاهنة وعلاقاتها بعملائها في المنطقة. لذا ولاجل سد هذا النقص، لابدّ من التوجه نحو الشرفاء والوطنييّن من الشخصيّات والعناصر والاحزاب التي لعبت ادوارا رئيسيّة في الاحداث سواء في الماضي القريب او البعيد وحثهم على تدوين حقائق تجاربهم على كافة الاصعدة باعتباره واجبا وطنيّا يساعد الامّة على حفظ تراثها بوثائق ابنائها لانّ الوثائق هي ذاكرة الامّة، ولهذا السّبب نجد انّ اوّل ما يفعله المحتلوّن المستعمرون هو تدمير الوثائق او سرقتها لانّ الشعب او الامّة التي تفقد وثائقها تفقد ذاكرتها وحصيلة تجارب تاريخها، مثلما حصلت للوثائق وللسجلات الرّسمية العراقيّة التي نقلتها طائرات المحتلين الى جهة مجهولة حالما احتلوا العراق سنة 2003.

× لقد جاء انقلاب 14 تمّوز/يوليو 1958 ليكون بداية النهاية للدولة العراقيّة وللصفوة التي تقودها، مثلما هو بداية طريق الالام والعذاب المرّ الذي اجُبر الشعب العراقي على ان

يسلكه منذ ما يزيد على نصف قرن من الزمن بلا دليل امين يرشده ولا معين يعينه، يعاني الذلّ والقهر والحاجة الى ابسط مقوّمات الحياة، وهو شعب البلد الذي يمتلك اغنى كنوز الطبيعة وثرواتها في العالم.

فبعد اسقاط النظام الملكي فجر ذلك اليوم الكارثيّ، تمّ اعلان النظام الجمهوري الذي فرض بشكل مفاجيء فرضا على شعب العراق بموجب البيان رقم واحد ولم يقرّه برلمان منتخب ولا حتى استفتاء. فمنذ الايّام الاولى تمّ الغاء الدستور الدائم (الذي سبق وان شرّعه واقرّه البرلمان العراقي المنتخب منذ عام 1925) واستبدل بدستور مؤقت، كما الغي شعار الدّولة العراقيّة وكذلك الغي العلم الوطني الذي هو علم ثورة العشرين الكبرى. كما وضع الشعب العراقي بكافة مكوّناته الدينيّة والقوميّة، دون اخذ راي الشعب ورغم ارادته، وبشكل قسري يساق باتجاه الرّدة والتخلف طيلة النصف الثاني من القرن العشرين؛ حيث عاش العراقيّون منذ ذلك الحين عمليّا وفي حقيقة الواقع المعاش بلا دستور وبلا ميزانيّة ماليّة مقرّة من قبل برلمان منتخب. وكما عاش في معظم فتراته اللاحقة بلا قضاء مستقل وبلا تخطيط علمي مدروس، واجبر البلد ان يسلك طريقا شائكا ونظام اللانظام، حتى الامر اخيرا ان ينتهى العراق بتاريخه العريق ليختزل الاف السنين بفرد واحد اعاده الى عصر العبوديّة والظلم والظلام. ولينتهي اليوم بعد معاناة وماسي بواقع احتلال اجنبي مذلّ مهين وليصبح بلدا مستباحا في ثروته وفي كرامته وفي سيادته على ارضه وكنوزه وقد وضع على طريق مستقبل مجهول.

انّ الشّعب العراقي اليوم (وقد دخل عام 2009) يكاد يكون البلد الوحيد في العالم الذي فُرض على شعبه هذا الوضع الشاذ، ان يعيش بلا صفوة او نخبة نزيهة قديرة ومسؤولة تقوده في الداخل والخارج، مثلما فرض على خمس عدد سكانه (وغالبيّتهم العظمى من ذوي المواهب والكفاءات الممتازة) ان يشرّدوا ويهجّروا الى خارج وطنهم بكافة اساليب القسر والارهاب والحصار وعمليّات الاذلال، لينتشروا في شتى مناطق العالم طلبا للعيش بكرامة وسلام. وحيث ان هؤلاء الذين فرض عليهم الاغتراب الطويل لا يزالون يحول بينهم وبين خدمة وطنهم وحقوق المواطنة الاخرى حتى اليوم وجود مجموعة من العناصر الوصوليّة والانتهازية والفاسدة التي استحوذت بحراب الاجنبي المحتل على مواقع مهمة وحساسة في الدولة العراقية.

انتهى الكتاب

"...عِلمُنا هذا رايٌ، وهو احسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بخير منه قبلناه.."

- الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت -

المصادر العربيّة

ابراهيم يزبك: المحرّرون/بيروت 1937-

احمد مختار بابان: مذكرات احمد مختار بابان/ط1 - 1999

امين الرّيحاني: ملوك العرب – بيروت 1951/ج 2

باقر محبوبة. الشيخ: ماضي النجف وحاضرها.

بينروز، اديث و اي ايف/العراق/دراسة في علاقاته الخارجيّة وتطوّراته الدّاخليّة 1915 - 1975/ترجمة: عبد المجيد حسيب القيسي/ج1/ط1 – بيروت 1989.

جريدة الوقائع العراقيّة الرّسميّة:عدد/149 في 30/6/1933

جريدة الثبات:عدد 20/4/1934

جريدة البلاد: عدد 1/5/1935

جريدة الحارس: عدد 28/11/1936

جريدة الزّمان: عدد 15/7/1941

جريدة المبدا:

جريدة العراق: عدد12/7/1920-، عدد- 20 ايلول/سبتمبر1920،....

جريدة التيّار - لندن – عدد3 – 9 تمّوز/يوليو 1983

جريدة الاستقلال: عدد 17/12/1920، 32/كانون الثاني- يناير 1921....

جريدة دجلة: 13 نيسان - ابريل/1922

جريدة الرّافدان: 11 نيسان – ابريل 1922

جريدة المفيد: عدد 8 اب – اغسطس 1922...

جريدة الاهالي: العدد الاوّل 2/1/1932

جريدة العالم العربي: عدد 5/5/1931

جريدة نداء الشعب: 23/11/1930

جريدة صوت الاحرار: بيروت – عدد 22،23/11/1936

جورج انطونيوس: يقظة العرب/بيروت – 1962 (ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس)

محمد علي كمال الدين: التطوّر الفكري في العراق/بغداد 1959 – ص 64.

محمد مهدي الجواهري: ذكرياتي/ج1/ط1988/1.

محمد مهدي كبّة: مذكراتي في صميم الاحداث/دار الطليعة - بيروت 1965-/ص 54.
هاني توفيق الفكيكي: اوكار الهزيمة/تجربتي في حزب البعث العراقي/دار الريّس- لندن 1993
وميض جمال عمر نظمي.د: ثورة 1920/ط1
وثائق البلاط الملكي: بغداد - المركز الوطني لحفظ الوثائق – رقم ة/4/5ا – 45
وزارة الداخليّة: اضبارة رقم 26/63/الجمعيّات – المركز الوطني لحفظ الوثائق/بغداد
حسن شبّر. السيّد: العمل الحزبي في العراق/دار التراث العربي/ط1 – ج1
حسن العلوي: دولة الاستعارة القوميّة/ط1
حسن العلوي: الشيعة والدولة القوميّة في العراق/دار الزوراء – لندن – ط2
حردان عبد الغفار التكريتي: مذكرات سياسي عراقي – وزير الدّفاع السّابق
طالب مشتاق: اوراق ايّامي/بغداد – ط1
طه الهاشمي: مذكرات طه الهاشمي – 1919 – 1943، بيروت/1967/ج1
كاطع العوّادي (السيّد): 102.
كامل الجادرجي: مذكرات كامل الجادرجي
كامل الجادرجي: من اوراق كامل الجادرجي
كمال مظهر احمد.ا.د: صفحات من تاريخ العراق المعاصر/بيروت – 1978.
لطفي جعفرفرج عبد الله. د:عبد المحسن السّعدون/دوره في تاريخ العراق المعاصر/بغداد،ط1
محسن ابو طبيخ. السيّد: المباديء والرّجال/ط2 – 2003.
محسن ابو طبيخ،السيّد:مذكرات السيّد محسن ابو طبيخ 1910 – 1960/ص165.
محاضر مجلس النوّاب العراقي: جلسة 27/3/1933، 29/12/1937
محمد باقر الصّدر: المدرسة القرانيّة/بيروت – ط2.
محمدحديد: مذكراتي/السّاقي – لندن/ط1
محمّد حسين ال كاشف الغطاء: المثل العليا في الاسلام لا في بحمدون/النجف – 1954
محمّد الدّليمي. د: كامل الجادرجي ودوره في السّياسة العراقيّة/ط1 – 1999.
محمد مهدي البصير: تاريخ القضيّة العراقيّة
محمّد محمود الصوّاف: المخططات الاستعماريّة لمكافحة الاسلام/ط3/1979
محمد علي كمال الدّين: ثورة العشرين في ذكراها الخمسين

محمد طاهر العمري: تاريخ مقدّرات العراق السّياسيّة/ج1.
مجيد خدّوري: الاتجاهات السّياسيّة في العالم العربي/بيروت – 1972/ص117.
مير البصري: اعلام الوطنيّة والقوميّة العربيّة/دار الحكمة – لندن/ط1.
مير البصري: اعلام السّياسة في العراق الحديث/لندن – ط1.
ناجي شوكت: سيرة وذكريات ثمانين عاما/ط2 – بيروت 1975
سانحة امين زكي: ذكريات طبيبة عراقيّة/دار الحكمة – لندن ط1/2005
سندرسن باشا، مذكرات: طبيب العائلة المالكة في العراق.
سعاد خيري.د: ثورة 14 تموزفي العراق/دار ابن خلدون/ط1/بيروت- 1/10/1980.
سعد ناجي جواد. د: العراق والمسالة الكرديّة 1958 – 1970/دارلام – لندن 1990.
سليمان فيضي: في غمرة النضال/ط1/بغداد 1952.
عادل غفوري خليل: احزاب العارضة العراقيّة العلنيّة في العراق 1946 - 1954/ ط-1 بغداد.
عبد الجبار مصطفى: تجربة العمل الجبهوي في العراق.
عبد الكريم الازري: مشكلة الحكم في العراق/ط1.
عبد الكريم فرحان: حصاد تورة/دار البراق/ط1
عبد المجيد القيسي: التاريخ يكتب غدا/ط1/دار الحكمة.
عبدالعزيزالقصّاب: المذكرات
عبد الرزاق الحسني: تاريخ الوزارات العراقيّة/ج1
عبد الرزاق الحسني: العراق في دوري الاحتلال/ج1
عبد الرزاق الحسني: تاريخ العراق السّياسي/ج1.
عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقيّة الكبرى
عبد الرزاق احمد النصيري: نوري السّعيد ودوره في السّياسة العراقيّة حتى 1932/ط1 لندن.
عبد الرزاق الهلالي: دراسات وتراجم عراقيّة.
عبد الشهيد الياسري: البطولة في ثورة العشرين.
عبد القادر البريفكاني: مصطفى البارزاني/ط1 – القاهرة.
علي البازركان: الوقائع الحقيقيّة في الثورة العراقيّة/بغداد
علي الوردي. ا.د: لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث/1 – 6 اجزاء/ط1/بغداد.

عمر عبد العزيز عمر. د: تاريخ المشرق العربي/دار النهضة العربيّة.
عدنان عليّان.د: الشيعة والدولة العراقيّة الحديثة/ط1
غسّان العطيّة.د: العراق نشاة الدّولة 1908 – 1921/الندن - 1988
صلاح الخرسان: صفحات من تاريخ الحزب الشيوعي العراقي/ط1.
صلاح الدين الصبّاغ: المذكرات – فرسان العروبة في العراق/دمشق 1956.
فؤاد عارف: مذكرات فؤاد عارف مرافق الملك غازي – ط1/بيروت.
فاضل حسين.د: مشكلة الموصل.
فالح حنظل.د: اسرار مقتل العائلة المالكة في العراق.
قرارات مجلس الوزراء العراقي: ابريل – يوبيو/حزيران 1923.
رستم حيدر: مذكرات رستم حيدر – ط1/تحقيق نجدة فتحي صفوة.
زكي خيري: صدى السّنين/مركز الحرف العربي/ط 2.
توفيق السّويدي: وجوه عراقيّة عبر التاريخ/ط1/الندن.
توفيق السّويدي: مذكراتي/ط1 – بيروت 1969.
تشارلز تريب: صفحات من تاريخ العراق/ترجمة زينة ادريس/ط1.
خالد التميمي.د: محمد جعفر ابو التمّن – دراسة في الزعامة السّياسيّة العراقيّة/ط1 – دمشق
خيري امين العمري: الخلاف بين البلاط الملكي ونوري السّعيد/ط1/بغداد.
خيري العمري: ذكريات عن كامل الجادرجي.

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

المصادر الاجنبيّة

Bell،G،Review
David Lloyd George، Memoirs،vol..1،2.
David Pool ، The politics of Patronage Elites ، theises.
Gerald D.Gaury،Three Kings in Baghdad.
Hanna Batatu – The Old Social Classes and The Revolutionary movements of Iraq، 1978 ،New Jersey/U.S.A.
Nassim Rejwan،The Jews Of Iraq:G.W.&Nicolson Ltd.1985.
Ireland، P.W
Ledy Bell ،The Letters of Gretrude Bell، London 1947.
Longrigg ،S.H.، Iraq 1900 – 1950.(London،1953).
Longrigg ،S.H، Oil in the Middle East
Magor H.R.Dickson ،Letters and papers
Norman Davies، Europe at War 1939 – 1945
P. Slugglett ، Britain in Iraq 1914 – 1921،London 1974.
Sinderson، Ten Thousand and one nights – U.K،1973
Waldemar.J.Gallman، Iraq Under General Nuri ، Baltimore ،1964.
Wilson، A.T.،Mesopotamia 19171920-: a clash of Loyalties(London ، 1931).،Loyalties،Mesopotamia 1914 -1917. (London ،1930).

National Archives of India، New Delhi
N.A.I.،New Delhi، File no: 27211/27، 778/.
N.A.I.،New Delhi،C.I.D Reports،1st Sept.1922، no.S.B.18026/.para 595.
N.A.I.،New Delhi،C.I.D Reports،File nos.2791/1/5، 546/.
N.A.I.،New Delhi، Baghdad High Commisioner Records، Files،Letters،telegrams 1921 – 1922.
N.A.I.،New Delhi، Files no. 27،28،291/.Ref،10135/.
N.A.I.،New Delhi،
C.I.D Reports، 9th July 1921،File no.73/15/. paras، 712 -713.

N.A.I.،New Delhi،C.I.D Report،May 1922،no.S.B/536، File no.73/15/.
N.A.I.،New Delhi،C.I.D Report،June 24th 1922،no..17،para: 403.S.B/35،
N.A.I.،New Delhi،C.I.D Report ،S.B.8026//.Para:595،

Public Record Office، India Offhce، London U. K.
F.O.88213//MES/1513/.
F.O.371،5078/E1129344/13/.
F.O.371،5081/E1389844/13/.
F.O.371،635293/13/.
F.O.3715153//E.213.
F.O.371129679/4150/.
F.O.371835394-12967/4150/.
F.O.3715076//E844844/13/.
F.O.370،5076/E861144/13/.
F.O.370،5076/E886444/13/.
F.O.370،5227/E606044/2719/
F.O.370،5078/E1176644/13/.
F.O.371،507744/13/9490/.
F.O.3715226//E.3982
F.O.3715229//E10330414/2719/
F.O.3715081//E.1435844/13/.
F.O.3715227//E.7725.
F.O.3715231//E14588.
F.O3719009//Report no.1،1st January1923.
F.O.3715229//E10752.
F.O.3716343//The proceedings of Cairo Conference.
F.O.37163491//e.221993/100/.
F.O.3715076//E886444/13/.
F.O.3716349//،Col.K.Cornwallis:
Report of an interview with Emir Faisal ،7th January 1921،E

55393/100/.
F.O.37130952،30149،35261/546/.
F.O.37144/13/3323/546/.
F.O.3716350//E31169/100/.
F.O.371778/.
F.O.371،6351/E683193/100/.Letter no.153.
F.O.371،7770/E382865/33/.
F.O.371،7770/E403365/33/.
F.O.371،7771/E69965/33/.
F.O.371،7771/E531165/33/
F.O.371،7771/E871565/33/.Reports no.11- 15.
F.O.371،7771/E699165/33/،Intelligence Report 1st July 1922.
F.O.371،7771/E685365/33/.Intelligence Report،13 July 1922،no.12،Para.517.
F.O.371،E718265/33/.Intelligence Report no.13،para no:567،571.
F.O.371،7771/E699،telegram no:11،463،1st June 1922.
F.O.371،7772/E14415.Intelligence Report no.23،1st Dec.1922.
F.O.37118945-/ (E 179293/278/)March 18 ،1935.
F.O.73018945-/(E209693-278/).
F.O.7306/200//E4263284-.para 6.
F.O.73018945//E2096193/278/.April 1st 1935.

The Sudan Archives، Box no:303،Secret no.31323102/54/.
C.O.6963//Mosul division،1920.
C.O.696، Administration Reports،1--،Shatrah،1918.
C.O.730123/.
C.O.73025338/35/. A Secret Report on the Karbala Conference. no.12127//of 284/.
C.O.73022/16849/21/
C.O.73024559/21/.
C.O.73030066/22/30/
C.O.73029407/36/.

C.O.73032485/22/،Intelligence Report،no.12،paras: 522،523.
C.O.73034943/23/.Intelligence Report no.13،1st July1922،para:588.
C.O.730135/20/.
C.O.73022/12000/20/.From W.Churchill.Telegram no:188.
C.O.73045283/24/.no:16.Intelligence Report:12August
1922،para.77.
C.O.73045383/24//para:835.
C.O.73024//Iraqi Parties Demands، file no. 305.
C.O.73042829/24/.Augest 26th ،Telegram no.605
C.O.73022/42829/24/.Telegram from Churchill – 28th Augest
1922.
C.O.73042829/24/.Report no.18.para:852. C.O.73034955/2/.
C.O.73063011/26/.

فهرس الاسماء

- ا -

- ب -

- د -

- هـ -

- و -

- ز -

- ح -

- ط -

- ي -

- ك -

- ن -

- س -

- ع -

- ف -

- ص -

- ق -

- ر -

- ش -

- ت -

(انتهى الكتاب)

THE IRAQI ELITE

Their Successes and Failures

Dr. Khalid Al-Temimi

LONDON 2010

Book cover and layout design: Waleed Khalid Al-Temimi
(www.temimi.com)